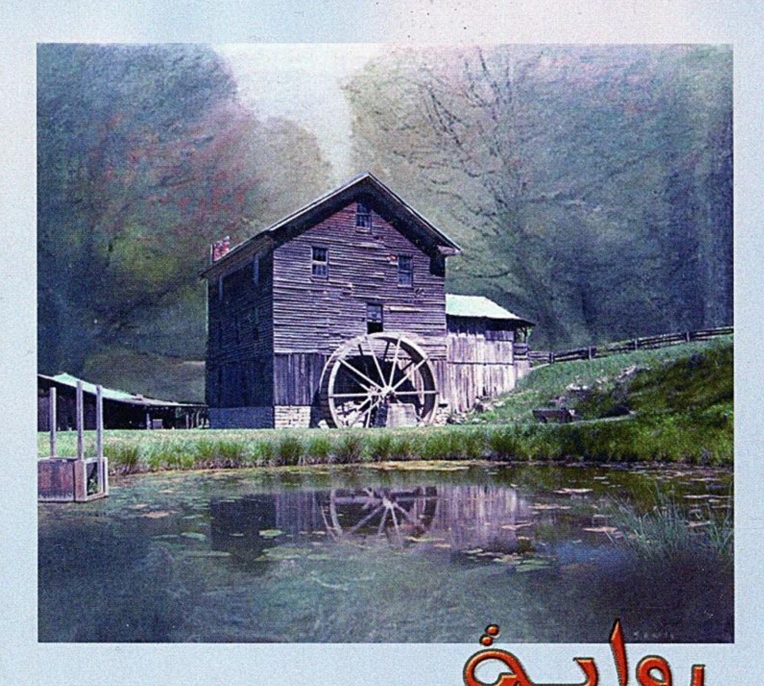
George Eliot

جورج أليوت

THE Mill ON THE FLOSS

طاحونة على نهر الفلوس



رواية

2009



ترجمة: دعد السليمان

طاحونة على نهر الفلوس

الكتاب: طاحونة على نهر الفلوس

تاليف: جورج اليوت

ترجمة: دعد السليمان

التدقيق اللغوي: عمر كوجاري

تصميم الغلاف والإخراج: أحمد إسماعيل

الطبعة الأولى 2009

موافقة وزارة الإعلام رقم101191

الناشر

دار دعد للتأليف والترجمة والنشر

تلفاكس: 6441476

هاتف: 5632383

خليوي: 0933154102

دمشق: ص.ب 33286

daad.dar @ G mail. com

George Eliot

THE Mill ON THE FLOSS

طاحونة على نهر الفلوس

رواية

2009

ترجمة: دعد السليمان

مقدمة

قال هنري جيمس عن جورج إليوت، "لقد وصلت عندها درجة القبح إلى حد عظيم - لكن في هذا القبح الشديد تسكن روح متوقدة تخلب الألباب، وخلال بضع دقائق فقط تسحرك، تسرق عقلك، وهكذا ينتهي بك الأمر إلى أن تقع صريعاً في غرامها".

اسمها الحقيقي ميري آن إيفنس، وهي روائية انكليزية ولدت في مقاطعة "وورك شير "في لندن عام 1819 وتوفيت عام 1880.

اهتمت ميري آن في بادئ الأمر بقراءة الكتب كمصدر للمتعة وكل من عرفها وجد فيها طفلة رزينة بالغة الحساسية وانطوائية كانت فتاة غريبة الأطوار محيرة تحب أن تجلس في الزوايا وتراقب بخجل من هم أكبر منها سناً.

في عام 1828 أُرسلت ميري آن إلى مدرسة داخلية في نونيتن تحت إشراف السيدة ولنغتن وهناك تعرفت على المرأة التي كان لها أعظم تأثير في حياة ميري وهي الآنسة ماريا لويس ماريا لويس امرأة لطيفة تؤمن بمعتقدات إنجيلية متشددة وتعمل مربية في المدرسة وفي الحال أعطت كل اهتمامها للطفلة الخجولة ميري آن وأعجبت بذكائها المتوقد. عندما بلغت ميري آن ربيعها الثالث عشر كانت قد تعلمت كل ما قدم لها في مدرسة السيدة ولنغتن بعد ذلك انتقلت إلى مدرسة الآنسة فرانكلين وهنالك أصبحت أفضل عازفة بيانو ودرست اللغة الفرنسية وحظيت بالإعجاب بسبب مهارتها في الكتابة، واطلاعها الواسع. كتبت أيضاً الشعر والرواية.

طرأت تغييرات مأساوية على حياة ميري آن إذ وقعت والدتها صريعة مرض شديد وماتت في شباط عام 1839، في ذلك الحين كانت ميري آن قد بلغت ربيعها التاسع عشر فغادرت المدرسة لتعتني بوالدها. بالرغم من أنها لم تكن الابنة الكبرى لكن علاقة حميمة جداً جمعتها بوالدها وحاولت كل جهدها أن تملئ الفراغ الذي خلفته أمها وتابعت دراستها في البيت وكان والدها يشتري لها كل ما ترغب به من الكتب وساعدها في أن تتلقى الدروس باللغة الإيطالية والألمانية في عام 1841 انتقلت مع والدها إلى منزل جديد في فولشيل، وهي بلدة كبيرة، وقد أحست ميري آن أن والدها اختار هذه البلدة لكي يوسع نطاق علاقاتها الاجتماعية على كل حال أحست ميري آن بالغربة عن كل ما حولها. كانت دائماً خجولة ورزينة، لم تستطع أن تتخيل كم ستكون الحياة سهلة بالنسبة إليها وكم ستحظى بتقدير جيرانها، لو أنها فقط استطاعت أن تتعامل مع الأمور كما

فعلوا هم وأن ترضى بالمسرات الخارجية التي تبهج كل إنسان، وتستجيب للمعتقدات الشائعة بدون أي تحليل أو تمحيص". كانت ميري آن تشك في صحة معتقداتها الدينية لكنها لم تتحلى بالشجاعة الكافية للتخلي عن تلك المعتقدات.

في فولشيل، تابعت ميري آن دراستها وأمضت لياليها في قراءة كتب السير والتر سكوت لوالدها، الذي بدأت صحته تتدهور.

في عام 1942 لم تعد ميري آن تتردد على الكنيسة فخيبت آمال صديقتها الحميمة ماريا لويس، ورفض والدها التحدث إليها. لكن فيما بعد وافقت أن تساير والدها الذي اعترف بحقها في أن تكون حرة بما تفكر (طالما أنها تؤدي الفروض الخارجية المطلوبة) لكن العلاقة بينهما ظلت متوترة.

عملت إليوت رئيسة تحير لجريدة "ريفيو ويستمينستر"الفكرية من عام 1851 حتى ارتباطها بـ لويس عام 1854. وساهمت بكتابة مقالات مطولة لجريدة ويستمينستر منذ كانون الثاني 1857 عندما ظهر أول جزء لروايتها "مشاهد من حياة كهنوتية". وقد حظيت الجريدة في ظل إدارتها بالأهمية الفكرية ذاتها التي اكتسبتها تحت إدارة رئيس تحريرها السابق جون ستيورات ميل.

تعرفت ميري آن على أهم المفكرين في زمانها. بالرغم من أنها لم تكن جذابة لكن معظم الأشخاص الذين قابلوها أعجبوا بها أيما إعجاب.

بدأت إليوت بكتابة الرواية في وقت متأخر نسبياً من حياتها حيث كانت في أوج نضجها الفكري وخبرتها النقدية والأدبية وكانت تفكر مطولاً وبعناية شديدة في أهداف وطرق الروائيين في الكتابة، ومن ثم تبدأ بكتابة الرواية بنفسها بعد أن تكون قد كونت فكرة واضحة جداً عما تريد أن تنجزه.

كتبت إليوت في مقال لها: "إن أعظم فائدة ندين بها للفنان، سواء أكان رساماً أم شاعراً أم روائياً هي اتساع شدة تعاطفنا معه، وصورة الحياة الإنسانية التي يقدمها فنان عظيم، وتثير الدهشة حتى في نفوس الزاهدين في الحياة، وتسترعي انتباه المستأثرين بحب الذات إلى الحياة التي هي جزء من أنفسهم. هذه الصورة التي تمكننا أن ندعوها المادة الخام للعاطفة الأخلاقية". وكتبت أيضاً: "إن زيادة تطور خبرتي الخاصة تعزز اعتقادي كل يوم بأن درجة تقدمنا الأخلاقي تقاس بنسبة تعاطفنا مع آلام وأفراح الآخرين".

تبين من خلال سيرة حياتها، كيف أن إليوت تعود مراراً وتكراراً لمعاينة مشاهد الفن والأخلاق، وتبحث في العلاقة التي تربطهما معاً. إن إيمان إليوت بالقيمة الأخلاقية للفن، ولاسيما فيما يتعلق بتصورها للروائي بوصفه إنساناً أخلاقياً، يتجلى بإحساسها القوي بهدف الأدب التعليمي والأخلاقي وليس لديها أدنى شك بمهمة الروائي التعليمية.

و من الممتع أن نشهد إليوت ترفض رواية إثر رواية من خلال إعادة النظر فيها وذلك لأسباب تعليمية وقد تقاذفها المعاصرون بالاتهامات ضد أعمالها الأدبية.

و تنتقد إليوت الرواية التي يحاول كاتبها من خلالها أن يقنع الآخرين بوجهة نظر خاصة به، ويزيف تصوير الحياة الحقيقية، حيث يتصرف الرجال والنساء ويتحدثون لإقناع الآخرين بالقيم الأخلاقية، أو ليثيروا عواطف القارئ وخلافاً لذلك، فهي تمدح أسلوب الشاعر وليام كاوبير الذي "يجبرنا من خلال طبيعتنا الباردة على إتباع عواطفه الخصبة والساخنة، وذلك عندما يقدم لنا موضوع الرحمة بصدق ومودة".

وهذا الأسلوب هو الذي تنوي أن تتبعه إليوت أثناء كتابتها الرواية.

و أهم ما يميز مبدأ إليوت الفني منذ بداية حياتها هو إصرارها على أهمية سرد حياة العامة من الرجال والنساء، كموضوع للأدب الرصين، بالإضافة إلى التزامها الأخلاقي كروائية بتقديم صورة صادقة عن حياة هؤلاء العامة. تقول إليوت :

"الفن هو أقرب شيء يلامس الحياة، يمثل الفن نمطاً لتوسيع خبرتنا وزيادة اتصالنا برفاقنا في الإنسانية ليس من الجدية كثيراً أن نحمل أفكاراً مزيفة عن طراز الحياة الحديثة الزائلة، ولا عن أخلاقيات وأحاديث العشاق والدوقات، ولكن من الجدية أكثر أن نظهر تعاطفنا مع الصراعات والمسرات الدائمة الأمد، ومع طبقة الكادحين، والمأساويين، ومع رفاقنا المثقلين بهموم الحياة اليومية، ويجب أن لانسيء استعمال عواطفنا تجاههم، فتتحول إلى هدف مزيف بدلاً من أن تمثل هدفاً نبيلاً صادقاً".

تعد جورج إليوت من أكثر الروائيين الإنكليز واقعية، لكنها نادراً ما تستعمل كلمة "واقعية "، وغالباً ما تقترح فكرة تقديم صورة صادقة أو الرجوع إلى الإخلاص في طريقة تمثيل المشهد. طالما كان لديها اعتقاد راسخ بالمبادئ المثالية للوجود الإنساني، والأخطار الأخلاقية الناجمة عن الأنانية وعدم تحمل المسؤولية، وتولّد لديها إحساس بأنه يجب أن نتفهم هذه المبادئ ونؤمن بها عندما تتجسد في حياتنا الواقعية وهكذا تفضل إليوت التحدث عن الحقيقة أكثر مما تتكلم عن الواقعية، لأن الحقيقة تتضمن الواقعيات والمثاليات معاً بينما من المحتمل أن تقترح الواقعية مجرّد اتجاه دقيق لواقعية خارجية.

و تتفق إليوت في الرأي مع لويس في أن المثالية ليست نقيضاً للواقعية، ولكن التزييف هو من يناقض الواقعية.

من أهم رواياتها مشاهد من حياة كهنوتية "Scenes Of Clerical Life"1857. وقد أحدثت هذه الرواية تأثيراً مباشراً وعميقاً في دور الأدب وامتدح كل من ديكنز وثاكيري هذه الرواية، كما أبدى النقاد - إجماعاً - إعجاباً بها. وكانت أول ملاحظة كتبها النقاد عن جورج إليوت في المجلات هي أن: "شرح تفاصيل الحياة الكهنوتية قد تم

بأسلوب صادق من خلال فن التصوير الذي عرض من قلب الحياة بشكل جلي ظاهر للعيان وواقعي".

وقد كتب النقاد بإعجاب عن إخلاص جورج إليوت في تقديمها لوقائع الحياة اليومية وغياب عنصر المبالغة الرومانسية من كتاباتها.

لها رواية رومولا Romola""1861، كما أنهت كتابة روايتها آدم بيد Adam Bede""عام 1858، وبعد أن طبعت هذه الرواية، امتدحها النقاد كثيراً. وحققت نجاحاً مثيراً لدرجة أن الملكة فيكتوريا أعجبت بها.

وبعد أن حظيت جورج إليوت بشهرة واسعة تضاعفت شهرتها أكثر بعد كتابة روايتها ميدل مارش "Middle March"عام 1869.

وكانت روايتها الأخيرة دانييل ديروندا Daniel Deronda""عام 1874.

ما تزال جورج إليوت تحظى بشهرة عالمية حتى الآن وهي جديرة بلقب الأديبة العالمية

وفي روايتها هذه طاحونة على نهر الفلوس The Mill On The Floss""تحلل الشخصيات بقدرة عالم نفساني مبدع فعندما تصف جورج إليوت مشهداً ما، تجعلك تعيش كل تفاصيله وكأنك كنت تشهد تلك اللحظة إنها تصف وتحلل وتأسرك بأسلوبها المميز وكأنها تحمل كاميرا وتسلط أضواءها على أدق التفاصيل ولا تصور إلا ما ينبغي تصويره فتعكس لك صورة غاية في الدقة والإتقان تستنطق كل حواسك فتعيش أحداث الصورة بكل جوارحك أو كأنها ترسم لوحة بريشة رسام بارع يحسن اختيار الألوان والشخصيات فتبهر ناظريك بذلك التناسق والانسجام مع الطبيعة وتروي لك حواراً بين الشخصيات وكأنها أمهر عازف بيانو يصيغ الألحان بحساسية وواقعية بعيداً عن الرومانسية، كيف لاوهي ملكة الحقيقة؟

إذا أمعنا النظر في كل هذه التشبيهات من تصوير ورسم وعزف نجد أنها فنون ثلاثة يؤديها الإنسان بصمت، والصمت هو السلاح الذي يستعمله كل ذي موهبة ليترجم رؤيته للعالم ومن خلاله فقط يعكس أفكاره بعين الناقد التي ترى ما لايراه الآخرون وتقرأ ما خلف السطور وتغوص في بحار الحقائق.

.... **المترجمة** ....

الجزء الأول

« ولـــد وفتـــاة »

الفصل الأول

خارج طاحونة دور لكث

إنه سهل فسيح حيث يسارع نهر الفلوس العريض خطاه نحو البحر عبر ضفتيه الخضراوين، وتندفع أمواج البحر الهائجة لتعانقه بودٍّ. وعلى شاطئ البحر رسَت سفن سوداء اللون - وقد انبعثت منها رائحة خشب التنوب المنعشة - وكانت تتوجه إلى بلدة القديس أوغ، التي توحي بأنها بلدة متوغلة في القدم من خلال أسطح القرميد الأحمر اللون والمرافئ المتوضعة بين هضبة منخفضة وبين ضفة النهر، كانت السفن تلامس سطح الماء بنعومة مخلفة لوناً أرجوانياً عندما تلقي عليها شمس شباط نظرة خاطفة وعلى مد النظر امتدت مروج خصبة فُلحت بعناية فبانت الأرض غامقة اللون وعلى استعداد لاستقبال بذار الذرة، وتبعثرت الأشجار على طول الطرقات مشكلة دعامة للأرض في كل مكان: وإذا ألقيت نظرة من بعيد رأيت السفن ترفع صواريها, وتمد أشرعتها، ذات اللون البني المائل للحمرة، معانقة أغصان شجر الدرداء المنتشرة وهناك في البلدة ذات السطوح الحمراء اللون تترقرق مياه الرافد بنعومة لتلاقي نهر الفلوس ياله من نهر صغير بهي المنظر بتموجاته المتقلبة في غاية الرقة! طالما يبدو لي مثل رفيق حنون عندما أتمشى على طول ضفته, وأصغي لصوته الهادئ اللطيف، كصوت إنسان أصم ومحب أذكر أشجار الصفصاف تلك وأذكر ذلك الجسر الحجري.

هذه هي طاحونة دور لكث والآن لابد من الوقوف دقيقة أو اثنتين هنا على الجسر لكي أتأملها، بالرغم من الغيوم المتلبدة وقت الظهيرة والتي تنذر بجو ماطر.

حتى في وقت رحيل شباط حيث الأشجار عارية من الأوراق يبدو المنظر خلاباً للنفوس ربما يضفي هذا الفصل قشعريرة ساحرة في نفوسنا, ويرسم لوحة مثيرة لمنزل طالما سكنت فيه الراحة والطمأنينة، منزل قديم قدَمَ أشجار الدردار والكستناء التي تحميه من الرياح الشمالية. والجدول في هذه الأوقات من السنة يترقرق غزيراً, وتسبح فيه الأعشاب حتى المنتصف في مزرعة صغيرة أمام المنزل. عندما أراقب جذوع الأشجار وهي تسبح في الجدول, وتمد بعض أغصانها مقبِّلة سطح الماء أتمنى لو أشاركها السباحة الممتعة لأنني في حالة عشق مع

الرطوبة، وأحسد البطات البيضاوات اللون التي تغمر رؤوسها في الماء العذب غير آبهة لما يحصل في العالم القاسي الذي يحيط بها كما لو أنها تهرب من جفافه القاتل.

تدفُّقُ المياه وهدير الطاحونة يجعلان المرء كالأصم الحالم فيبدو المشهد لوحة خلابة تدخل إلى النفس السكينة والسلام إنهما مثل ستارة صوت محكمة تحجب الإنسان عن العالم الخارجي

والآن يسمع صوت هدير عربة ضخمة لنقل السلع وهي عائدة للمنزل محملة بصناديق الذرة سائق العربة رجل شريف يكدح طوال يومه ليؤمن قوته, وهو يفكر الآن بما سيتناوله في هذه الساعة المتأخرة لكنه لن يتناول غذاءه حتى يطعم أحصنته، تلك المخلوقات قوية البنية ذات العيون المستضعفة والمستكينة، والتي كما أتخيلها تقترب منه بلطف وخضوع كما لو أنها تستحثه على رفع سوطه في وجوهها بطريقة بغيضة وكأنها بحاجة لمثل تلك القسوة! انظر إليها كيف تمد أكتافها نحو الجسر, وتبدو بكامل قوتها وحيويتها لأنها تقترب من المنزل راقب أقدامها الشعثاء الضخمة كيف تتشبث بقوة بأرض المزرعة؟!، ولاحظ القوة الكامنة في أعناقها المنحنية تحت ثقل الطوق إنك ستدهش من تلك العضلات القوية التي تسكن جسدها, وتكدح للوصول إلى نهاية الدرب كم أتمنى أن أسمع أصواتها وهي تقضم حبات الذرة!!، وقد حررت أعناقها الرطبة من اللجام الذي يطوقها بإحكام، وأراقبها وهي تغمر فتحات أنفها بتوق داخل البركة الموحلة

والآن إنها على الجسر، تغذُ السير مسرعة أكثر من السابق، ورويداً رويداً تختفي العربة عند المنعطف خلف الأشجار.

الآن بمقدوري أن أستدير, وأتأمل الطاحونة ثانية، وأراقب عجلتها وهي تدور دون كلل أو ملل مبعثرة قطرات الماء التي تبدو كالماس وتلك الفتاة الصغيرة تراقب المشهد أيضاً"إنها تقف تماماً على البقعة نفسها من الجسر التي كنت أقف عليها".

بالقرب من الطاحونة كلب أبيض اللون غريب المظهر له أذن بنية اللون، ينبح معترضاً بطريقة غير مؤثرة، ربما إنه غيور على صديقته ذات القبعة المصنوعة من فراء القندس، والتي كانت مستغرقة في التفكير لدرجة نسيانها ما حولها. أعتقد أنه حان الوقت بالنسبة لتلك الصديقة الصغيرة لكي تدخل إلى المنزل، حيث تتوهج نار الموقد وتحثها على الدخول مودعة السماء الرمادية

الملبدة بالغيوم مصدرة صوت الرعد. حان الوقت أيضاً بالنسبة لي لأريح ذراعيّ على هذا الجسر الحجري البارد.

آه! بالفعل إن ذراعاي مخدرتان تماماً. صار لي مدة من الزمن وأنا أضغط مرفقي على ذراعي الكرسي، حالمة بأنني كنت أقف على الجسر قبالة طاحونة دور لكت، كما كانت تبدو في ظهيرة أحد أيام شباط منذ عدة سنين مضت وقبل أن يغلبني النعاس سأروي لكم أعزائي القراء حديث السيد والسيد توليفر بينما كانا يجلسان بالقرب من الموقد في الردهة اليسرى، تماماً أثناء ظهيرة أحد أيام شباط التي كنت أحلم بها.

الفصل الثاني

السيد توليفر، صاحب طاحونة دورلكت، يعلن قراره بشأن توم

قال السيد توليفر: تعرفين ما الذي أريده، ما أريده أن يحصل توم على مستوى تعليمي جيد لكي يتمكن من كسب قوت عيشه. هذا ما كنت أفكر فيه عندما اقترحت عليه مغادرة أكاديمية ليدي دي أنوي وضعه في مدرسة ذات مستوى عال في منتصف الصيف فترة السنتين التي أمضاهما في الأكاديمية كافية فيما لو أردت أن أجعل منه طحاناً أو مزارعاً لأنه اكتسب نظرة للحياة أكثر مما اكتسب ثقافة عالية. لكن ما أرغب به أن يكون توم على مستوى ثقافي لابأس به مثل أولئك المتعلمين الذين يتحدثون بلباقة ويتفننون بالكتابة. أتمنى لو يصبح رجلاً حكيماً ذا عقل راجح. وسوف أشعر بالأسف الشديد إن درس المحاماة، وتعامل مع هذه المهنة بأسلوب غير سوي - لاأريده أن يكون مخادعاً، ويحتال على الناس - أريد أن أجعل منه مهندساً، أو مساح أراضٍ أو رجل أعمال محترف مثل رايلي.

كان السيد توليفر يخاطب زوجته، وهي امرأة شقراء هادئة ترتدي قبعة أخذت شكل مروحة.

في ذلك الوقت عندما ناهزت السيدة توليفر الأربعين عاماً تقريباً، كانا يقطنان حديثاً في شارع القديس أوغ، وهما بنظر الجميع شخصان لطيفان، إذ لم يتسنَّ الوقت بعد لمعرفة خبايا النفوس وإدراك الهفوات الصغيرة.

"حسنٌ سيد توليفر، تعلم تماماً أنه ليس لدي اعتراض على ما تقول لكنني أفضل أن أذبح دجاجتين، وأدعو الخالات والأخوال إلى العشاء في الأسبوع القادم، وبذلك يتسنى لك سماع رأي الأخت غليك والأخت بوليت، أليس من الأفضل الأخذ برأي الآخرين؟ توجد دجاجتان صالحتان للذبح!"

أجاب السيد توليفر بحدة: "عزيزتي بمقدورك ذبح كل الدجاجات الموجودة في الباحة، لكنني لن أستشير أحداً بما يتعلق بمستقبل ولدي."

قالت السيدة توليفر مصدومة بلهجته الحادة: "يا عزيزي! كيف تتكلم معي بهذه اللهجة؟ لكن لاغرابة، إنها طريقتك المعتادة في الحديث عن عائلتي بهذا الأسلوب غير اللائق، وأختي غليك تلومني على تصرفاتي رغم أنني واثقة من

براءتي مثل براءة الطفل، إذ لم يسبق لأي شخص على الإطلاق أن سمعني أتفوه بكلام غير لائق عن أعمام وعمات أولادي.

على كل حال، إن كان لابد من ذهاب توم إلى مدرسة جديدة، فالأفضل أن يلتحق بمدرسة قريبة بحيث أتمكن من العناية به جيداً "غسل ملابسه وتزويده بالطعام الكافي الحمد لله لدينا مؤونة تكفينا".

"حسنٌ، حسنٌ، لن نرسله إلى مدرسة بعيدة لكن لاتتذمري إن لم أجد مدرسة قريبة مناسبة أرسله إليها. فأنا أعرفك يا عزيزي مشكلتك أنك عندما ترين عصا في منتصف الطريق تعتقدين دوماً بأنك عاجزة عن تخطي الطريق ولا ترغبين بأن أستأجر سائق عربة جيداً لأن لديه شامة في وجهه".

قالت السيدة توليفر، وقد ارتسمت على وجهها معالم الدهشة :

"أوه عزيزي! متى اعترضت على رجل لمجرد أن لديه شامة في وجهه؟ إنني واثقة من ولعي بالشامات، لأن أخي العزيز لديه شامة في جبينه لكنني لاأذكر أنك عرضت علي من قبل استئجار سائق عربة لديه شامة في وجهه يا سيد توليفر. فالسيد جون جيبنز ليس لديه شامة وقد اعتدت على استئجار عربته، وكذلك أنت، ولولا أنه قضى نحبه لكان الآن هو سائق العربة، ومن المحتمل أن تكون لديه شامة في مكان ما وليس بمقدورنا رؤيتها. أجبني سيد توليفر، كيف لي أن أعلم بوجود شامة في جسده؟ "

« لا، لايا عزيزتي، لم أقصد الشامة بالضبط، بل أعني شيئاً آخر، لكن لاتكترثي - إنه عمل محير. ما أفكر به الآن هو كيف نجد مدرسة مناسبة لنرسل توم إليها. لأنني مصمم على نقله أياً كانت المدرسة التي سأرسله إليها. إنه أمر محير بالفعل، لابد من اختيار مدرسة ملائمة »

توقف السيد توليفر دقيقة أو اثنتين، ثم دس يديه في جيبي سرواله وكأنه يبحث فيهما عن حل لمشكلته بدا من الواضح أنه لم يفقد الأمل بعد بإيجاد حل مناسب، فقال فجأة :

«أجل، سوف أناقش الموضوع مع رايلي، إنه قادم غداً. »

"حسنٌ، سيد توليفر لقد وضعت الملاءات النظيفة على الأسرة بعد أن نشفتها كيزيا قرب الموقد. صحيح أنها ليست ملاءات ذات جودة عالية لكنها مناسبة ومريحة لأي شخص يطلب نوماً هانئاً".

سحبت السيدة توليفر حزمة براقة من المفاتيح من جيبها، وأمسكت بمفتاح، وهي تفرك أصابعها ببعضها البعض، وترسم ابتسامة لطيفة هادئة، محدقة بالموقد.

لم يكن السيد توليفر من الرجال الذين يظهرون حساسية في علاقتهم الزوجية، وإلا من المفترض أن يكون قد فهم تلميح زوجته في إطلاق العنان

لمخيلتها لدى الحديث عن الشر اشف المريحة ببساطة لم يكن رجلاً حساساً، لكن كان يحترم رغبتها فقط، وفوق كل هذا كان من عادته عدم الإصغاء إليها عن كثب مما جعله يركز فقط على السيد رايلي الذي احتل تفكيره في تلك اللحظة وكان أول ما قاله بعد وقت قصير: "أعتقد أنني وجدت حلاً لمشكلتنا يا عزيزتي، رايلي شخص مطلع على الحياة, وقد اكتسب تعليماً جيداً يمكنه من معرفة جميع أنواع المدارس لأنه التحق بالكثير من المدارس, ويعرف كل الأماكن كل ما علينا فعله هو مناقشة الأمر معه ليلة الغد بعد أن يكون قد أنهى جميع أعماله أرغب بأن يذهب توم إلى مدرسة جيدة, وأن يكون شخصاً مهماً مثل رايلي، تعلمين أنه يتحدث بلباقة, ولديه كمٌ هائلٌ من الكلمات لكنه لايستعملها إلا بإفراط وهو ملم بعمله أيضاً".

"حسنٌ، بما أن حديثه منمق لهذه الدرجة ولديه اطلاع واسع على كل شيء، ويمشي وهو مقوس الظهر ويصفف شعره بعناية بالغة، لاأعتقد أن ولدنا تربى على هذه الطريقة إن أولئك الرجال المتأنقين الذين يتحدثون بأسلوب منمق, ويقطنون البلدات الكبيرة، يخفي معظمهم عيوبهم وقساوتهم خلف قمصان وياقات مرتبة يبالغون في زينتهم في حين تكون حياتهم مليئة بالفوضى وعندما يعيش توم في مد بورت، مثل رايلي، ستعم حياته الفوضى لأن المنزل الذي سيسكنه لن يؤمن له الراحة الكافية, ولن يتناول البيض طازجاً عند الفطور, وربما يصاب بالمرض, ولن يجد من يتولى رعايته".

"لا، لا، ليست لدي نية بإرساله إلى مد بورت: لكنني أريده أن يؤسس مكتبه في شارع القديس أوغ بالقرب منا وأن يعيش في المنزل ولكن "، تابع السيد توليفر حديثه بعد توقف: "ما أخشاه قليلاً أن يتواطأ في عمله, ولا يحقق ما نريده، لكنه يستطيع أن يولي اهتماماً ورعاية لأسرتك يا حبيبتي "

قالت السيدة توليفر وهي تؤكد بحبور على جملته الأخيرة: "إنه يفعل ذلك وهو يشبه أسرتي في حبه للطعام المالح، مثل أخي وأبي "

"يبدو لي أن ذلك مثير قليلاً للشفقة، فالغلام يعتني بأسرة أمه بدلاً من أن يعتني بأخته الصغيرة هذا أسوأ ما ينتج عن آثار التربية السيئة: ليس بوسعك أن تتكهني بالمستقبل والصغيرة تعتني بعائلتي الآن إنها ذكية مثل توم بل إنها ذكية كفاية، واكتسبت هذه السمة كما ينبغي لأية امرأة أن تكتسبها. لكنني أخشى "، يتابع السيد توليفر وهو يدير رأسه يمنةً ويسرةً وهو في ريبة من أمره: "أن يؤثر عليها هذا الذكاء الزائد, فهي ما زالت فتاة صغيرة - وربما تدفع الثمن غالياً فيما بعد".

"أجل هذا الذكاء لاتستعمله إلا في المشاكسة يا سيد توليفر. لايمكنها أن تبقي ملابسها نظيفة مدة ساعتين متواصلتين. والآن لقد ذكرتني بها "، تابعت السيدة توليفر حديثها, وهي تنهض متوجهة نحو النافذة، "لاأعلم أين تكون الآن، إنه وقت ممتع لشرب الشاي، آه!أعتقد أنها تركض جيئة وذهاباً بالقرب من النهر, وكأنها حيوان متوحش: سوف تتعثر يوماً ما, وتؤذي نفسها بهذا اللعب الطائش.

دقت السيدة توليفر على النافذة بعنف، وهزت رأسها -، إنها حركة تكررها أكثر من مرة قبل أن تعود إلى كرسيها.

قال وهي تجلس: "إنك تتحدث عن الذكاء يا سيد توليفر لكنني متأكدة أن ابنتنا لديها مس من البلاهة في عقلها، لأنني عندما أرسلها إلى الطابق العلوي لإحضار أي شيء، تنسى على الفور لِمَ أرسلتها, وتجلس على الأرض مستمتعة بأشعة الشمس الدافئة وتلعب بشعرها وهي تغني مثل المجنونة، كل هذا يحدث بينما أنتظرها في الطابق السفلي, وأنا أتحرق غيظاً. الحمد لله أن هذا التصرف غير وارد في عائلتي أنا لاأعترض على حكم الله, لكن أرجو أن تتلطف بها العناية الإلهية حتى لاتكون سخرية للبشر".

"بوه، كفاك هراء! إنها فتاة سليمة ذات عينين سوداوين, تسرُّ كل مَنْ يراها. وتتميز عن باقي الأولاد بفطنتها، وبوسعها أن تتلو الصلوات كأي كاهن بارع".

"لكنها لاتعتني بشعرها, ولا تطيق وضع لفافات الشعر إنها شديدة الانفعال, وأعاني كثيراً عندما أحاول لف شعرها".

أجاب الأب مغتاظاً: "كفي عن هذا - كفي عن هذه السخافات".

"لماذا تكلمني بهذه الطريقة سيد توليفر؟ إنها ناضجة كفاية، لقد بلغت التاسعة من عمرها ومن الأفضل لها أن تعتني بشعرها، لابنة خالتها لوسي شعر يتدلى حول رأسها ملفوفاً بعناية فائقة. أحسد أختي دين على تلك الابنة الجميلة، إنني واثقة من أن لوسي تهتم بي أكثر مما تفعل ابنتي ماغي، ماغي "، صرخت الأم بلهجة حادة وهي مغتاظة قليلاً عندما دخلت المخلوقة الصغيرة المنبوذة المقرفة، "ألم أحذرك أن تبتعدي عن النهر؟ ستتعثرين, وستغرقين فيه يوماً، عندئذ ستشعرين بالندم الشديد لأنك لم تستمعي لنصيحة أمك".

للأسف أثبتت ماغي صحة اتهام أمها لها بالفوضى عندما تركت قبعتها تسقط عن رأسها بإهمال: كانت السيدة توليفر راغبة بأن تصفف ابنتَها شعرَها بعناية فوق رأسها الصغير، "مثل بقية الفتيات". وكانت ماغي تقذف برأسها للوراء بين الفينة والأخرى لتبعد خصلات شعرها الكثيفة ذات اللون الأسود

الداكن، عن عينيها السوداوين البراقتين - مما جعلها تبدو مثل فرس صغيرة.

"أوه حبيبتي، أوه حبيبتي ماغي، بماذا كنت تفكرين حتى نسيت قبعتك هناك؟ خذيها واصعدي للأعلى, وسرِّحي شعرك وبدلي حذاءك - وارتدي ثوباً آخر - ثم عودي, وأنجزي عملك في الخياطة، مثل أي سيدة صغيرة".

قالت ماغي بلهجة حادة: "أوه ماما، لاأرغب بعمل أي شيء". "ماذا! ألا ترغبين بصنع غطاء فراش من أجل خالتك غليك؟

قالت ماغي بنبرتها المعهودة: "إنه عمل أحمق، أن تمزقي القماش إلى قطع صغيرة ثم تخيطينها معاً من جديد. أنا لاأريد عمل أي شيء لأجل خالتي غليك - لاأحبها أبداً".

تخرج ماغي وهي تجر قبعتها من الخيط المعلق بها، بينما يقهقه السيد توليفر ضاحكاً.

قالت السيدة توليفر متذمرة بصوت ضعيف: "إنني أشكوها لك, وأنت تضحك عليها سيد توليفر. إنك تشجعها على أن تكون فتاة مشاكسة وخالاتها يوقعن باللوم علي بسبب عنادها وفوضويتها".

السيدة توليفر امرأة في غاية اللطف ومزاجها جيد في أغلب الأوقات وهي لاتصرخ أبداً. مذ كانت طفلة لم يسمع أحد صوتها إلا عندما تكون جائعة أو متألمة.

باختصار! إنها زهرة العائلة ومعروفة بلطفها وجمالها. لكن اللطف والجمال غير كافيين للبقاء على قيد الحياة طالما كنت أتساءل فيما لو كان بمقدور هؤلاء السيدات الشابات، ذوات الوجوه الشقراء التي توحي بالبلادة والغباء إلى حد ما، أن يحافظن على هدوئهن، ولا يقلقن راحتهن عندما يبلغن أرذل العمر، وتتخلى, عنهن إرادتهن لأداء أي عمل مفيد. أعتقد أنه ينبغي عليهن الاعتراض قليلاً والمشاكسة أكثر فأكثر حتى لايتحولن إلى أصنام غير مؤثرة في شيء.

الفصل الثالث

نصيحة السيد رايلي بشأن المدرسة

التي سيلتحق بها توم

السيد الذي يرتدي ربطة عنق بيضاء اللون وقميصاً مزركشاً، ويحتسي شراب البراندي بمتعة عارمة مع صديقه الطيب توليفر يدعى السيد رايلي، وهو سيد ذو سحنة لامعة ويدين ثخينتين، حائز على مستوى تعليمي رفيع يسخره من أجل إعطاء النصائح. لكنه طيب القلب بما فيه الكفاية ليظهر صلة حميمية تجاه الريفيين البسطاء المضيافين. لكن السيد رايلي يتحدث مع هؤلاء البسطاء بلطف ويصفهم "بالأشخاص ذوي الطراز القديم".

ساد قليلٌ من الصمت قبل بدء المحادثة كان السيد توليفر، بصفة عامة، رجل له أفكار تقليدية لكن في بعض الأمور تولدت لديه ثقة تامة بعقله الذي لايسعفه دوماً بالحل السليم. وللأسف الشديد لم يكن هنالك أحد يطلعه على خطئه. وإلا لأدرك سوء تفكيره. لكن يبدو اليوم أن المبدأ الثابت هو المنتصر. تناول السيد توليفر كأسه بقوة قليلاً أكثر من المعتاد مظهراً بشكل عفوي تقديره الشديد لمواهب صديقه العملية.

تحدثا قليلاً عن السد، وماذا بوسع الناس العمل في حال ارتفع منسوب المياه؟! لكن الموضوع الرئيسي كان، حسب رغبة السيد توليفر الملحة، حول نصيحة السيد رايلي. لهذا السبب بقي صامتاً شارد الذهن وهو يفرك ركبتيه مع بعضهما البعض. لم يكن من النوع الذي يطرح القضية بشكل فجائي وغالباً ما كان يصف هذا العالم باللغز المحير وعندما يتعجل المرء في أمرٍ ما يقع في مطب عجلته وتهوره.

في حين كان السيد رايلي مهذباً في تصرفاته. ولماذا لايكون مهذباً؟ سوف يعتقد المرء أنه ينبغي أن يكون كذلك وهو يرتدي خفيه بالقرب من الموقد الدافئ ويرتشف كأساً من البراندي.

كسر السيد توليفر أخيراً حاجز الصمت، وقال بصوت منخفض على غير العادة وهو يحدق برفيقه بإمعان: "هنالك موضوع أرغب بمناقشته معك " آه!، قال السيد رايلي باهتمام ولطف كان يظهر التعابير ذاتها عندما يطرح أي

موضوع يستحق الاهتمام وأياً كان نوعه ومصدره وقد برزت تلك التعابير من خلال حاجبيه المقوسين ورموشه الكثيفة اللماعة بهذا الوجه الراسخ الذي لاتتغير تعابيره تحت أي ظرف كان، بدا السيد رايلي مصدَر إلهام بالنسبة للسيد توليفر ولاسيما هو يتنشق مراراً وتكراراً قبل أن يدلي بإجابته الحكيمة!.

"إنه موضوع خاص للغاية يخص ابني توم".

كانت ماغي جالسة على كرسي صغير بالقرب من الموقد وفي حضنها كتاب كبير، لدى سماعها اسم توم هزت بشعرها الكثيف إلى الوراء وحدقت بهما تواقة لمعرفة الحديث

كانت الأسماء التي تهيج مخيلتها وتلهيها عن قراءة كتابها قليلة جداً، لكن اسم توم كان أشد ما يلفت انتباهها: وخلال لحظة قصيرة كانت متيقظة لكل كلمة ستقال عن توم، وهي تنظر إليهما بعينيها البراقتين متوثبة لدفع أية إساءة توقعتها. كانت مثل طائر جارح مستعد للانقضاض على كل من يهدد توم

"كما ترى، أرغب بإرساله إلى مدرسة جديدة في منتصف الصيف. إنه عائد من أكاديمية "ليدي دي". سوف أمنحه قسطاً من الراحة ثم أرسله بعد ذلك إلى مدرسة مناسبة حيث يتلقى مستوى تعليمياً رفيعاً".

"حسنٌ، ليس هنالك أفضل من العلم واكتساب ثقافة ممتازة". أضاف بلهجة ملؤها التهذيب والاهتمام - "يمكن للمرء أن يصبح طحاناً أو مزارعاً ممتازاً وإنساناً فطناً حساساً دون مساعدة معلم مدرسة".

"أوافقك الرأي، لكن هذه هي المسألة التي أريد مناقشتها. لاأريد أن يكون توم طحاناً أو مزارعاً. ليس انتقاصاً من مكانة هاتين المهنتين: دعني أشرح لك المسألة إن جعلت منه طحاناً ومزارعاً فمن المتوقع أن يأخذ الطاحونة والأرض، فأجلس بدون عمل وأنتظر ساعة أجلي فيما بعد. أبداً، أبداً، حصل هذا مع كثير من الأبناء، ولن أخلع معطفي أبداً قبل الخلود للنوم سوف أمنح توم ثقافة عالية لكي يحصل على عمل لائق، ويبني عشه بنفسه، ولن يضطر إلى أن يشاركني منزلي في حال مماتي هنيئاً له هذا المنزل إذ لن تفيدني الملعقة بعد أن أكون قد فقدت أسناني".

بدا واضحاً أن السيد توليفر قد أحس بقوة إقناعه أثناء الحديث مستخدماً بذلك بعض علامات التذمر وهو يحرك ر أسه من جانب إلى آخر ويقول "أبداً، أبداً "للتأكيد على صحة كلامه وثقته مما يقول

كانت ماغي تراقب والدها بحذر وهو يتفوه بطريقة عنيفة بدا لها أن توم قادر على طرد أبيه من المنزل وبأنه سيجعل الحياة جحيماً لايطاق بسبب

جشعه وشروره لكن هذا لايمكن أن يحصل، قفزت ماغي من كرسيها، غافلة عن كتابها الثقيل الذي سقط على السياج مصدراً صوتاً مدوياً، وجلست بين ركبتي والدها، وهي تبكي، وقالت بصوت ساخط:

"بابا، توم لن يكون ولداً مشاكساً على الإطلاق، أعلم بأنه لن يكون".

كانت السيدة توليفر خارج الغرفة تشرف على إعداد طعام العشاء، أما السيد توليفر فقد أثرت فيه دموع ابنته لذلك لم يوبخها عندما أسقطت الكتاب.

التقط السيد رايلي الكتاب بهدوء، وتفحَّصَهُ، بينما ضحك الأب، وارتسمت على وجهه ذي الملامح القاسية مشاعر الحنان، وربت على ظهر ابنته الصغيرة، ثم أمسك يديها، وأبقاها بين ركبتيه.

قال السيد توليفر وهو يحدق بماغي بعينيه اللامعتين :

"ماذا! لاينبغي على أحد أن يتحدث بالسوء عن توم، إيه؟ "ثم استدار نحو السيد رايلي وقال بصوت منخفض بحيث لم يتسنَّ لماغي أن تسمعه:

"إنها ليست كالسابق، لم تعد صغيرة فهي تفهم ما يقوله المرء. عليك أن تصغي إليها وهي تقرأ كتابها وكأنها تعلم بمضمونه مسبقاً. إنها تهتم دائماً بكتابها! ولكن هذا أمر سيء،"إنه سيء "، أضاف السيد توليفر بحزن وهو يحاول أن يكبح جماح بهجته المفرطة:

"لاتحتاج المرأة لمثل هذا الكم الهائل من الذكاء، أعتقد بأن الذكاء المفرط سوف يسبب لها مزيداً من المشاكل ولكن، بارك الله فيك! "– يستعيد في هذه اللحظة فرحته بابنته المفرطة الذكاء - "سوف تقرأ لك الكتب وتستوعبها جيداً أكثر مما يستوعبها من هم أكبر منها سناً".

توردت ماغي خجلاً منتشية بهذا الإطراء "أعتقد بأن السيد رايلي سوف يكن لها احتراماً أكثر، إذ بدا من الواضح أنه لم يكترث بها أبداً منذ البداية

كان السيد رايلي يقلب صفحات الكتاب، ولم تتمكن ماغي من قراءة تعابير جديدة في وجهه الذي يترجم الملامح ذاتها مع هاذين الحاجبين المقوسين، لكنه نظر إليها في الحال وقال:

"هيا، هيا حدثيني عن مضمون هذا الكتاب، توجد هنا بعض الصور - أريدك أن تقولي لي إلى ماذا ترمز".

اتجهت ماغي دون تردد نحو السيد رايلي وهي لاتزال متوردة الخدين، ونظرت متلهفة إلى الكتاب وهي تقذف بخصلات شعرها للوراء وقالت :

"آوه، سوف أقول لك إلامَ ترمز هذه الصور. إنها صورة مخيفة، أليس كذلك؟ لكنني لاأستطيع منع نفسي من النظر إليها. تلك المرأة العجوز في الماء هي ساحرة - لقد وضعوها في الماء ليكتشفوا إن كانت ساحرة أم لا، فإن تمكنت من السباحة تكون ساحرة، وإن غرقت - سوف تموت، وأنت تعلم بأنها امرأة بريئة وليست ساحرة، إنها مجرد عجوز مسكينة. لكن ماذا بوسعك أن تفعل لأجلها إن غرقت؟ أعتقد بأنها ستذهب إلى السماء ويتولاها الخالق برعايته. وهذا الحداد القبيح المظهر يضع يديه حول خصره، ويضحك - آوه، أليس قبيح المظهر؟ - سوف أخبرك من يكون إنه شيطان حقيقي "، (في هذه اللحظة يرتفع صوت ماغي ويصبح أكثر تأكيداً)، هو ليس حداداً لكنه تقمص هذه الهيئة لكي يخدع الناس، ويمارس أفعاله الشريرة كما يحلو له. كما تعلم لو ظهر على حقيقته أمام الناس وزمجر بصوته المخيف، سوف يرعبهم فيبتعدون عنه خائفين، فلا يتمكن عندئذ من فعل ما يرغب به "

انفجر أخيراً قائلاً: "لماذا، ما هذا الكتاب الذي تقرؤه الصغيرة؟

تاريخ الشيطان[1]! إنه ليس الكتاب المناسب لفتاة صغيرة. كيف تحويه بين كتبك يا سيد توليفر؟".

اضطربت ماغي وأحست بخيبة الأمل، في حين انبرى والدها يدافع عن نفسه :

"لماذا، إنه أحد الكتب التي اشتريتها من متجر باتريدج. كانت كلها مربوطة برزمة واحدة - إنها رزمة ممتازة كما ترى - فاعتقدت أن جميع الكتب المربوطة بتلك الرزمة ستكون مفيدة.

يوجد بينها كتب لجيرمي تايلور منها "الحياة المقدسة والموت المقدس"، غالباً ما أقرأها أيام الأحد. (أحس السيد توليفر بعلاقة حميمية إلى حد ما مع ذلك الكاتب العظيم لأن اسمه كان جيرمي)، "

أعتقد أن مؤلفاته تتضمن الكثير من المواعظ، والكتب لها الأغلفة ذاتها لذلك ظننت بأنها تعالج القضايا نفسها. لكن على ما يبدو أنه لايمكن للمرء أن يحكم على الأشياء من خلال المظاهر فقط. إنه بالفعل عالم مليء بالأحجيات".

---

[1] تاريخ الشيطان للمؤلف دانييل ديغو (1660- 1731) طبع عام 1726و عالم اللاهوت جيرمي تايلور (1613- 1667) له كتاب الحكم وممارسات الحياة المقدسة الذي طبع عام 1650، وكتاب الحكم وممارسات الموت المقدس، طبع عام 1651، وقد حظي هذان الكتابان بشهرة واسعة، وكانا يباعان في رزمة واحدة، كما هو واضح في قول توليفر الذي يمتلك الكتابين.

قال السيد رايلي بنغمة مشجعة ومعاتبة وهو يربت على رأس ماغي :

"حسنٌ، أنصحك أن تتركي كتاب "تاريخ الشيطان "، وتطلعي على كتب أجمل منه هل لديك كتاب أجمل؟".

قالت ماغي منتعشة بعد خيبة أمل، وهي تحاول أن تبرهن بأنها تقرأ كتباً متنوعة :

"آوه، أجل، أستطيع قراءة هذا الكتاب، إنه كتاب جميل - لكنني أحب مشاهدة الصور فيه، وأنسج قصصاً من مخيلتي تتوافق مع هذه الصور. ولدي أيضاً كتابٌ يتضمن حكايات خرافية، وكتاب عن حياة الكنغر وأشياء أخرى، وكتاب بعنوان "سفر الحاج".

قال السيد رايلي:

"آه، كتاب جميل تستطيعين قراءته".

قالت ماغي بلهجة المنتصرة: "أجل، وهنالك الكثير مما كتب عن الشيطان سأريك صورته الحقيقية، وهو يقاتل مسيحياً".

خلال لحظات هرعت ماغي نحو زاوية الغرفة، وقفزت على كرسي، وأحضرت نسخة قديمة رثة للكاتب بنيان، وفي الحال فتحت على الصورة التي أرادت أن تريها للسيد رايلي بدون أقل عناء في البحث

قالت ماغي وهي تركض عائدة إلى السيد رايلي: "هذا هو الكتاب، وهذه الصورة لونها لي توم عندما كان في المنزل أثناء أخر عطلة له - كما ترى، الجسد أسود اللون والعينان حمراوان، مثل النار، لأن النار تتقد داخل الجسد، وتنعكس من خلال عينيه "قال السيد توليفر بشكل قطعي، بعد أن بدأ يحس بعدم الارتياح لهذه التصرفات الحرة والعفوية والتي يمكن أن تقلل من أهمية وجوده: "اذهبي، اذهبي، أغلقي الكتاب، لاأريد سماع المزيد. أعتقد أن طفلة مثلك لن تجد الفائدة في هذه الكتب، بل ربما تسيء أكثر مما تفيد. اذهبي، اذهبي واهتمي بأمك".

أغلقت ماغي الكتاب في الحال، وقد انتابتها مشاعر الخزي، لكنها لم تذهب لتعتني بأمها، بل وجدت تسوية للمسألة بركونها في زاوية مظلمة خلف كرسي والدها، والاهتمام بدميتها التي أولعت بها أشد الولع ولاسيما أثناء غياب توم عنها. إذ كانت تمطرها بوابل من القبلات الحارة حتى يختفي ذلك اللون اللامع في خديها فتبدو وكأنها مريضة

قال السيد توليفر بعد أن انسحبت ماغي :

"هل سبق لك أن رأيت مثل هذه الطفلة؟ إنها فتاة منقطعة النظير، تنافس حتى المحامين في حديثها العفوي والسريع. إنها أروع مخلوقة "— يقول بصوت منخفض - "لقد اخترت أمها لأنها لم تكن شديدة الذكاء - لكنها امرأة بهية الطلعة، وانحدرت من عائلة مرموقة ومعروفة بحسن التدبير، اخترتها لأنها ذات شخصية ضعيفة نوعاً ما، فأنا لاأحبذ المرأة التي تطالب بحقوقها دوماً أو التي تصحح لي مسار حياتي. لكن، كما ترى، عندما يتسم الرجل بالحكمة والتعقل، وتكون المرأة جميلة ورقيقة، ينعكس هذا على تربية الأولاد فيصبح الصبيان حمقى والفتيات يفرطن في الذكاء، وكأن العالم انقلب رأساً على عقب إنه عالم محير". تخلى السيد رايلي عن وقاره، واهتز قليلاً إثر موجة من التنشق ثم قال - "لكن ولدك ليس غبياً، هل هو غبي؟ لقد رأيته عندما كنت هنا آخر مرة، بدا هادئاً ورصيناً".

"حسنٌ، لم أقل بأنه غبي - لقد اكتسب بعض المعارف من خارج المنزل، وهو اجتماعي بطبعه، محب للتشاركية لكنه ثقيل اللسان، كما ترى، ولا يحب القراءة، ولا يلتزم بالكتب، ويهجي الكلمات بشكل خاطئ، وكما أخبروني فهو خجول جداً مع الغرباء، وحديثه لايدل على ذكاء مثل أخته الصغيرة والآن ما أرغب به هو إرساله إلى مدرسة يكتسب منها الخبرات ويُحَسِّن لفظه، ويكون نطقه سليماً ليصبح غلاماً ذكياً. أريد من ولدي أن يختلط مع المتعلمين. لو أن هذا العالم يسير كما خلقه الله، لعرفت كيف أشق طريقي بشكل سليم، إلا أن الرياح تجري بعكس ما تشتهي السفن والموازين انقلبت بالعكس، وكلما ازداد المرء استقامةً، كلما كثرت حيرته".

احتسى السيد توليفر مشروبه ببطء، وهز رأسه بكآبة، وهو مقتنع بفكرته التي رسمها في ذهنه، وفحواها بأنه لايمكن للعقل السليم الاستمرار في هذا العالم المجنون

قال السيد رايلي: "إنك على حق يا سيد توليفر. من الأفضل أن تنفق الأموال من أجل تعليم ولدك، على أن تتركه ينشأ حسب إرادتك يعلم الله لو كنت أمتلك المال لما قصرت تجاه ولدي، لو كان عندي ولد، لكن ليس بحوزتي مال أعطيك إياه يا توليفر"

أجاب السيد توليفر، وهو غير مكترث لعجز السيد رايلي عن تلبية طلبه :

"والآن، أجرؤ على القول بأنني أحتاج نصيحتك لإرشادي إلى مدرسة مناسبة لتوم"

تنشق السيد رايلي قليلاً، وتعمد الالتزام بالصمت بضع لحظات ليبقي السيد توليفر في حالة توق لنصيحته :

"أعلم كيف أرشد أي شخص لايمتلك المال الكافي، إلى الطريق السليم يا توليفر. في الحقيقية لاأنصح أياً من أصدقائي بإرسال ولده إلى مدرسة نظامية، إن كان هنالك طريقة أفضل لكن إن رغب أي شخص بتلقين ابنه ثقافة عالية وخبرات مميزة بحيث يتفوق على معلمه، أود عندئذ معرفة مستوى ذلك الولد. لأنني لاأدلي بنصيحتي لأي شخص يطلبها، لإيماني المطلق بعدم قدرة كل شخص على اكتساب الخبرة المطلوبة، أو النجاح في انتهاز الفرصة المواتية لكنني لن أبخل عليك بنصيحتي يا توليفر - ولتبقَ سراً بيننا".

حدق السيد توليفر بوجه صديقه، متسائلاً وتواقاً لمعرفة ما سيقول

قال وهو يعدل من جلسته بلطف واهتمام: "أي، والآن، كلي آذان صاغية".

قال السيد رايلي بإحساس عالٍ، وهو يراقب السيد توليفر بإمعان ليعرف مدى تأثير هذه المعلومة المثيرة في نفسه: "إنه كاهن "تخرج من جامعة أكسفورد".

أجاب السيد توليفر مرتاباً: "ماذا! كاهن؟".

"أجل، والأسقف معجب به".

قال السيد توليفر مندهشاً بهذا الطرح الغريب: "آه؟ لكن ماذا بوسعه أن يقدم لتوم؟ ""لماذا، في الحقيقة هو مغرم بالتعليم، وتمنى أن يرتقي بتلاميذه إلى أعلى المستويات وعلى الرغم من واجباته تجاه الأبرشية لكنه متحمس لملء فراغه بشيء مفيد لذلك يتبنى ولداً أو اثنين ويلقنهما دروساً مفيدة ويكون تلاميذه أسرة واحدة - وهذا أجمل شيء في العالم، إنه يستمتع بتعليمهم ورعايتهم باستمرار".

قالت السيدة توليفر، التي انضمت إليهما ثانية:

"لكن هل تعتقد بأن الغلام المسكين سيحصل على الحلوى اللذيذة إنه لايزال ولداً.

قال السيد توليفر، الذي خمن بحدسه بأن تكاليف تلك الخدمات باهظة:

"وما مقدار المبلغ الذي يطلبه؟".

"على حد علمي هنالك كاهن يطلب مئة وخمسين من تلامذته الشبان، لكنني لاأعلم ماذا عن طلبات ستيلنغ. أعرف شخصاً مسؤولاً في أكسفورد قال عنه، "مَنْ تعلَّم عند ستيلنغ حظي بشرف عظيم". لكنه لايكترث لشهادات الشرف إنه رجل رصين - وبعيد تماماً عن الغرور". "آه، مبلغ ضخم هو الأفضل - مبلغ ضخم هو الأفضل لكنْ، مئة وخمسون هو سعر باهظ، لاأعتقد بأنني قادرٌ على دفعه". "دعني أنصحك يا توليفر، المبلغ ليس باهظاً مقابل الحصول

على مستوى تعليمي رفيع. ستيلنغ رجل معتدل في شروطه، وليس طماعاً. ليس لدي أدنى شك بأنه سيتولى تعليم ابنك بمبلغ مقداره مئة فقط، وهذا ما لن يرضى به أي كاهن آخر. إن أحببت، سوف أكتب له عن هذا الموضوع".

فرك السيد توليفر ركبتيه، وحدق بالسجادة، وهو شارد الذهن.

قالت السيدة توليفر: "لكنه رجل عازب، وليس لدي أدنى فكرة عن مدبرات المنزل لديه عندما كان أخي يعيش وحده، كانت لديه مدبرة منزل، وبعد أن مات، أخذت نصف الريش المحشو داخل السرير وسرقته إن أرسلت توم إلى مكان تديره مدبرة منزل سوف تكسر قلبي يا سيد توليفر، "آمل أن لاتفكر في هذا الموضوع".

قال السيد رايلي: "بمقدورك أن تُطَم~ئني بالك بخصوص هذا الموضوع يا سيدة توليفر لأن ستيلنغ رجل متزوج من امرأة صغيرة وجميلة يتمنى أي رجل أن تكون زوجة له. إنها خفيفة الظل وروحها مرحة، أعرف عائلتها جيداً. لها بشرة تشبه بشرتك - وشعر أشقر مجعد. هي من عائلة عريقة تدعى مد بورت وليس كل من يطلب اللجوء إليه يقبل عرضه. ولكنه لن يعترض على ابنك، كما أعتقد، إكراماً لي".

قالت السيدة توليفر بلهجة لاتخلو من سخط الأم على كل من ينتقد ابنها: "لن يعترض على تعليم غلام بهي الطلعة، ذي بشرة نضرة، يسرّ الناظرين بوسامته".

استدار السيد توليفر نحو السيد رايلي، بعد طول إمعان بالسجادة :

"لكنني أفكر في أمر مهم. أتساءل هل بمقدور كاهن تنشئة غلام بشكل يناسب هذه الحياة؟ حسب معلوماتي عن الكهنة أنهم يلقنون الأولاد دروساً ومواعظ تجعلهم بعيدين عن الحياة العملية. وهذا ما لاأريده لتوم بل أُفَضِلُ أن يصبح إنساناً اجتماعياً على اطلاع واسع بأمور الحياة العملية واليومية. أريده رجل أعمال حاذقاً، يفهم على الناس من مجرد إشارة. وأريده محدثاً بارعاً قادراً على التأقلم ضمن أي وسط يعيش فيه". ختمَ السيد توليفر قوله، وهو يهز برأسه: "أفضل أن يكون توم رجل عصره".

قال السيد رايلي: "أوه، عزيزي توليفر، إنك مخطئ تماماً بحق القساوسة، فجميع المدرسين الكبار هم من رجال الدين المسيحي. وبشكل عام، الأساتذة الذين ليسوا من رجال الدين، غير مؤهلين لتنشئة جيل صالح "-

قاطعه السيد توليفر: "آي، جاكوبز تخرج من الأكاديمية".

"ولكي أؤكد لك صحة كلامي - فإن معظم الرجال الذين فشلوا في ميادين

أخرى ليسوا من رجال الدين. فالقس سيد ناجح في مهنته وذو ثقافة عالية بالإضافة إلى هذا لدى القس القدرة الكافية على تنشئة ولد سليم التفكير وإعداده للدخول في مجالات الحياة كافةً ربما هنالك بعض رجال الدين يهتمون بالكتاب فقط وبالأمور النظرية، لكن ستيلنغ ليس واحداً منهم وبإمكانك الاعتماد عليه والثقة بإمكاناته. وإنه رجل ذو فكر متيقظ. وما عليك إلا أن تقول لستيلنغ،"أرغب بأن يكون ولدي ناجحاً في علم الحساب "ثم تدع بقية الأمور على مسؤوليته.

توقف السيد رايلي لحظة عن الكلام، في حين كان السيد توليفر يمرن نفسه ضمنياً على قول عبارة "أرغب بأن يكون ابني عالمَ حساب للسيد ستيلنغ".

تابع السيد رايلي: "أنت تلاحظ الآن يا عزيزي توليفر، أنك عندما تجد رجلاً مثقفاً، مثل ستيلنغ، لن تخسر ابنك، وستجعل منه ما تريد في المستقبل. وعندما يكون الحرفي على دراية باستعمال أدواته، يستطيع أن يصنع باباً ونافذةً".

قال السيد توليفر بعد أن اقتنع تقريباً بأن القساوسة هم أفضل الأساتذة: "آي، هذا صحيح".

قال السيد رايلي: "حسنٌ، سأخبرك بالإجراءات التي ستتخذها، وهذا ما لأفعله مع أي شخص سأقابل والد زوجة ستيلنغ، وأعلمه برغبتك بأن يكون ابنك تلميذاً عند صهره وأنا متأكد بأن ستيلنغ سيكتب لك في الحال، ويعلمك بشروطه".

قالت السيدة توليفر: "ولكن ليست هنالك عجلة، هل استعجلنا في الأمر؟ أتمنى منك يا سيد توليفر ألا ترسل توم إلى مدرسته الجديدة قبل منتصف الصيف. لقد بدأ دراسته في أكاديمية ليدي دي وأنت ترى ما الفائدة التي اكتسبناها منها".

قال السيد توليفر وهو يبتسم ويغمز السيد رايلي بأسلوب ينمي عن إحساسه بتفوقه العقلي على زوجته المملوءة الجسم:

"آي، آي، حبيبتي، لاتزعجي نفسك بهذه الأمور، وإلا خسرت صحتك. ولكن أنت على حق. نحن لن نستعجل بإرساله - يا حبيبتي".

قال السيد رايلي بهدوء :

"ربما من الأفضل إعداد الترتيبات في أقصر مدة ممكنة. فالسيد ستيلنغ لديه أعمال كثيرة في ضواحٍ أخرى، أعلم بأنه لن يتخذ أكثر من ولدين أو ثلاثة في مدرسته الداخلية لو كنت مكانك، لبحثت الموضوع فوراً مع ستيلنغ: ليست هنالك ضرورة لإرساله قبل منصف الصيف، ولكن ما بوسعي أن أفعله هو حجز

مكان لولدك عنده".

قال السيد توليفر: "آي، إنه رأي حكيم".

اقتحمت ماغي حديثهم ، وأمسكت بمرفق والدها، على حين غرة، دون أن يلاحظها، إذ كانت تصغي للحديث بشفتيها المفتوحتين، ممسكة بدميتها التي قلبتها رأساً على عقب، ودست بأنفها على الكرسي - "بابا، بابا، هل المكان الذي سيسافر إليه توم بعيدٌ كثيراً من هنا؟ وهل سنراه بعد ذلك؟".

أجاب الأب بحنان: "لاأعرف يا صغيرتي اسألي السيد رايلي، هو أعْلَمُ بالأمر".

ركضت ماغي في الحال إلى السيد رايلي، وسألته:

"كم سيبعد عنا، أخبرني، أرجوك يا سيدي".

قال السيد رايلي بنزق: "أوه، المسافة طويلة، طويلة جداً".

"ياله من كلام فارغ!"، قالت ماغي وهي ترفع رأسها بكبرياء، وتستدير بعيداً، وقد اغرورقت عيناها بالدموع لقد بدأت مشاعر الكره تجاه السيد رايلي تملأ قلبها "بدا واضحاً أنه اعتقدها حمقاء ولا تتحمل العواقب

قالت أمها: "هش ماغي، كفي عن الأسئلة والثرثرة، وكوني مؤدبة تعالي، واجلسي على كرسيك الصغير، والتزمي الصمت". أضافت السيدة توليفر بعد أن أيقظلتها مخاوفها:

"هل المسافة بعيدة جداً بحيث لاأستطيع العناية به؟".

"حوالي خمسة عشر ميلاً، هذا كل ما في الأمر، يمكنك السفر إلى هناك في غضون يوم واحد وأنت مرتاحة تماماً. فضلاً عن أن ستيلنغ رجل مضياف ولطيف، يبهج زائره - وبمقدورك البقاء هناك والشعور بالراحة".

قالت السيدة توليفر بحزن: "لكنها مسافة بعيدة جداً".

لحسن الحظ أخر حضور العشاء الاستطراد بهذه المتاهة، وخفف العبء عن السيد رايلي الذي أحس بارتياح من مشقة اقتراح حل أو تسوية للمسألة - إذ اتخذ على عاتقه طرح الحلول المناسبة لمشاكل الناس، لأنه - كما تدرك عزيزي القارئ - رجل التزم بأخلاقه جداً. وحقيقة أحس بأنه المسؤول عن مدح السيد ستيلنغ ليخدم صديقه توليفر دون أن يتوقع منه فوائد شخصية، على الرغم من أن تلك التوصيات يمكن أن تضل أكثر الرجال حصافةً

لا شيء أكثر ضلالاً من الحكمة عندما تخفي وراءها هدفاً غير نبيل، وعادة ما تؤثر الحكمة في نفوس الرجال الذين يتصرفون، ويتكلمون بشكل علني، ويظهرون بواعثهم بوضوح والخطة المدبرة بإحكام والحبكة المصممة بإتقان

لتحقيق غاية أنانية، لايمكن أن نجدها بوفرة إلا في عالم الكاتب المسرحي "ويتطلب هذا عملاً ذهنياً شاقاً من سكان الأبرشيات من السهولة أن نفسد حياة جيراننا بدون أن نشعر بتأنيب الضمير:

نغفل هذا بكل أريحية وبذهن مرتاح البال، ونزور الحقائق، ونخدع أنفسنا، ولا نعرف السبب الحقيقي من وراء تصرفنا الأحمق. نحن ثمار لحظتنا الآنية لانفكر إلا برغباتنا الحالية - أكثر ما يمكن أن نفعله من خير هو سرقة كسرة خبز وإطعامها لأم وأطفالها، ونادراً ما نفكر ببذر الحبوب أو بمحصول السنة القادمةكان السيد رايلي رجلاً عملياً، ويهتم بمصالحه كثيراً، على الرغم من أنه أسير لحظته، وينفعل تجاه الأحداث الآنية أكثر مما يفكر بالمستقبل المنظور. لم يكن على معرفة كافية بالكاهن والتر ستيلنغ، بل على العكس، كان يعلم القليل جداً عن ذلك الرجل، والمعلومات التي تتوفر لديه لاتؤهله أبداً ليقدم نصائحه بهذه الجرأة والثقة لصديقه توليفر.

لكنه اعتقد بأن السيد ستيلنغ مدرِّسٌ ممتازٌ، لأن غاد سباي قال ذلك، وغاد سباي مدرس خصوصي تخرج من أكسفورد، لذلك فإن ستيلنغ رجل من أكسفورد أيضاً. ورجال أكسفورد بارعون دوماً في علم الحساب - لكن الرجل الذي اكتسب تعليماً جامعياً بمقدوره أن يعلم أي شيء يرغب به، ويفرض إرادته على كل من حوله، لاسيما رجلٍ مثل ستيلنغ الذي ألقى خطاباً أثناء حفلة عشاء في مد بورت، أقيمت بمناسبة سياسية، وأبرز قدراته مواهبه، إنه صهر تيمبسن وهو شخص حاد الطبع.

لهذا لم يتوانَ السيد رايلي عن لعب دور مفيد لصالح صهر تيمبسن، الآن تيمبسن كان واحداً من الرجال ذوي النفوذ في الأبرشية تودد السيد رايلي لهذا النوع من الرجال بغض النظر عن احتمال كسبه لأية نقود لقاء ذلك الدور الايجابي إنّه نوع من إرضاء الذات، إذ سيكون مسروراً عندما سيلتقي تيمبسن، ويقول له:

"لقد كفلت تلميذاً جيداً لصهرك".

كما تعاطف السيد رايلي مع تيمبسن الذي لديه عائلة كبيرة كلها بنات

ثم إن السيد رايلي لايعرف مدرساً آخر يستحق الثناء والمديح "فلماذا إذاً لايمدح ستيلنغ؟

طلب منه صديقه توليفر أن يسدي له نصيحة مفيدة "من غير اللباقة أن تبخل بنصائحك على صديقك وإن أبديت رأيك في مسألة ما، توجَّبَ عليك أن تثبت صحة وجهة نظرك، وتقنع الآخرين بصحة مبادئك وسعة أفقك إنك في

البداية تتفوه بمجرد كلمات ثم لاتلبث أن تغرم وتعجب بآرائك وهكذا حال السيد رايلي، الذي لم يسمع كلمة سوء عن ستيلنغ، فتمنى في قرارة نفسه أن يكون ذلك الشخص حسناً، لذلك حالما مدحه بدأ يعجب به، ويبالغ في مديحه لدرجة أنه لو امتنع السيد توليفر عن إرسال ابنه إلى ستيلنغ، لنسقه السيد رايلي في الحال "ونعت صديقه الذي على الطراز القديم "بالشخص العنيد.

إن كنت - عزيزي القارئ - توقع باللوم الشديد على السيد رايلي لإعطائه نصيحة غير مسؤولة، لايعتمد على أرضية صلبة، ينبغي عليَّ هنا أن أصارحك القول بأنك تقسو عليه إلى حد ما. لماذا يجب علينا أن نتوقع من دلال يمارس مهنته منذ ثلاثين سنةً، والذي نسي لغته اللاتينية، أن يظهر حساسية تجاه تصرفاته، وأن لايفعل ما يتنافى مع العقل، في حين أن الكثير من السادة المتعلمين وحتى أولئك الرجال من ذوي الأخلاق العالية لاتتوفر فيهم مثل هذه السمات الشفافة؟

بالإضافة إلى أنه لايمكن للمرء أن يحافظ على طيبته طوال الوقت ولو امتنع السيد رايلي عن تقديم نصيحته التي لاتستند إلى دليل واضح، لما تمكن من مساعدة السيد ستيلنغ في الحصول على تلميذ يدفع له لقاء أتعابه، وهذا لن يكون في مصلحة سيد كاهن.

ثم لنفترض أن السيد رايلي لم يُدلِ بنصيحته، عندئذ سيبدو في نظر توليفر قليل الخبرة والتجربة لذلك لابد أن يظهر بمظهر الخبير الذي يستحق الاحترام المبالغ الذي أبداه له توليفر وحتى يكون لمشروب البراندي والموقد الدافئ الأثر الفعال، وحتى لايخيب السيد رايلي أمل توليفر.

الفصل الرابع

إنتظار عودة توم

كانت خيبة أمل كبيرة بالنسبة لماغي التي لم يسمح لها أن ترافق أبيها لإحضار توم من الأكاديمية كان صباح ذلك اليوم ندياً كثيراً، فطلبت السيدة توليفر من الفتاة الصغيرة ارتداء أفضل قبعاتها. لكن ماغي تصرفت بشكل مغاير لما طلبته منها والدتها. وبدا ذلك واضحاً عندما كانت الأم تسرح الشعر الأسود اللون المشربك، فانسلت ماغي فجأة من تحت يدي أمها، ودست برأسها في حوض ماء وضع قريباً منها.

كانت مصممة على الانتقام، ولن تسمح لأمها أن تسرح شعرها في ذلك اليوم

صرخت السيدة توليفر، وهي عاجزة أن تنهض بذلك الجسد البدين، والمشط في حضنها :

"ماغي، ماغي، كيف يمكن أن تكوني نافعة وأنت مشاكسة للغاية؟ سأخبر خالتيك غليك وبوليت عندما تأتيان الأسبوع القادم، بتصرفاتك الحمقاء، عندئذ لن تحبّاك أبداً. آوه حبيبتي، آوه حبيبتي، انظري إلى ثوبك إنه مبلل بالكامل. سوف ينتقدني الناس عندما يشاهدونك بهذا المنظر - سيعتقدون بأنني مقصرة بواجباتي".

وقبل أن ينتهي هذا الاستنكار الصاخب كانت ماغي تشق طريقها باتجاه العلية الضخمة، وقد صَمّت أذنيها عن سماع كلمات أمها، وهي تنفض الماء عن شعرها الأسود اللون. بينما تركض لاهثة، مثل كلب صيد صغير يتهرب من حمامه

كانت تلك العلية الملجأ المفضل الذي تأوي إليه ماغي عندما يكون الطقس معتدلاً، هنا في هذا المكان تفرغ ما في جعبتها بحرية ودون تقييد، كانت تتحدث بصوت عال إلى الأرض والرفوف التي نخرها السوس، وهنا احتفظت بصنم كانت تحمله سبب كل مآسيها وسوء حظها. هذا الصنم هو دمية خشبية كبيرة، كان لها عينان مستديرتان وخدان متوردان، لكنها الآن مشوهة بالكامل بسبب كثرة المعاناة والكبت.

ثُقب رأس الدمية بثلاثة مسامير كتخليد لذكرى الأزمات الكثيرة التي عانت منها ماغي التي لم تبلغ بعد ربيعها التاسع، استوحت تلك الرغبة الملحة في

الانتقام من صورة في الإنجيل القديم، كان المسمار الأخير قد وخز الدمية بقوة وبشراسة أكثر من المعتاد، لأن الصنم جَسَّدَ في تلك المناسبة شخصية الخالة غليك لكنها كانت تقسو على الدمية بأسلوب آخر، فتضرب برأسها على الجدار ثم تلاطفها وتهدئها، وحتَّى الخالة غليك بدت مثيرة للشفقة عندما كانت تتأذى كثيراً. منذ ذلك الحين لم تعد توخز الدمية بالمسامير وإنما تهدئ من روعها، وتخفف من حدة غضبها من خلال ضرب الدمية الخشبية بقرميد المداخن الضخمة التي صنعت بشكل دعامتين مربعتين ارتكز السقف عليهما - هذا ما كانت تفعله في ذلك الصباح لدى وصولها إلى العلية، وهي تنشج غافلة عن كل ما حولها - وقد نسيت كل شيء حتى الذكرى الأليمة التي سببت لها تلك الحالة البائسة.

وعندما هدأ النشيج أخيراً، خففت من وطأة الضربات على رأس الدمية، وبزغ شعاع مضيء مفاجئ من أشعة الشمس، مخترقاً النافذة إلى الرفوف الخشبية التي نخرها السوس، ومشجعاً ماغي على رمي الصنم والهرع باتجاه النافذة كانت الشمس حقاً تنشر أنوارها الذهبية على أرجاء الكون، وبدا صوت الطاحونة أكثر بهجة للنفس، وفتحت أبواب الصوامع لتنشر مخزون القمح، وسمع صوت نباح كلب صيد صغير، ممزوجاً باللونين البني والأبيض، له أذن وحيدة، يهرول ويشم ما حوله بطريقة غريبة كما لو أنه يبحث عن صديق لكن دون جدوى قذفت ماغي شعرها للوراء، وركضت نحو أسفل الدرج، ممسكة بقبعتها دون أن تضعها على رأسها، اختلست النظر، ثم انطلقت مسرعة على طول الممر لكي لاتراها أمها، وفي الحال كانت في الباحة، وهي تدور حول نفسها مثل الساحرة[1] وتغني "انبح، انبح أيها الكلب، توم عائد إلى المنزل!". بينما كان الكلب ينبح، ويرقص حولها، وكأنه يقول، إن كانت هنالك أية رغبة بالمزيد من الصخب فهو سيلبي تلك الرغبة، وسيكون عند الطلب.

"هيه، هيه، يا آنسة، سوف تصابين بالدوار، وتتعثرين فتسقطين في الأوساخ"

قال لوكي، رئيس الطحانين، وهو رجل يناهز الأربعين من عمره، طويل القامة، عريض المنكبين، له عينان سوداوين، وشعرٌ أسود اللون، وقد تغطى وجهه بالحبوب المجروشة.

توقفت ماغي عن دورانها، قالت وهي تتعثر وقد أصيبت بقليل من الدوار :

---

[1] تشير هنا جورج إليوت إلى التناقض في طبيعة ماغي فهي ذات شخصية قوية ، ولكنها مجردة من كل خبث ، إنها كالساحرة ولكنها مسالمة تمتلك قوى خارجة عن إرادتها .

"أوه، لا، لن أصاب بالدوار يا لوكي، هل بإمكاني مرافقتك إلى الطاحونة؟".

أحبت ماغي أن تمكث وقتاً طويلاً في الطاحونة بعد أن يمضي الآخرون، وغالباً ما كانت البودرة الناعمة تكسو شعرها الأسود فتتألق عيناها السوداوان بهجة بذلك اللوك الجديد. تلك الجلبة المستمرة، والحركة المضطربة للحجارة الكبيرة تبعثان في نفسها رهبة شهية بوجود قوة لايمكن ضبطها - حيث تستمر الحبوب المجروشة بالتدفق - وتنسكب بودرة ناعمة بيضاء اللون تغطي سطوح جميع الأشياء المحيطة، وتبدو أعشاش العناكب مثل شرائط مزركشة - وتنبعث رائحة منعشة من الحبوب المجروشة - فيتولد إحساس لدى ماغي بأن الطاحونة عالم صغير مستقل عن الحياة اليومية التي تعيشها. كان منظر العناكب لوحده موضوع يستحق التأمل بالنسبة إلى ماغي. تساءلت في قرارة نفسها إن كان لتلك العناكب أقارب خارج الطاحونة، لأنه في حالة كهذه سيبدو التواصل العائلي للعناكب في غاية الصعوبة - على سبيل المثال يعاني عنكبوت بدين مدلل اعتاد على الوجبات الدسمة من الحبوب المجروشة، عندما يزور ابن عمه، ويشاركه مائدة طعام متواضعة أما إناث العناكب اللواتي اعتدن على مناظرهن مكسوة بالطحين سوف تصيبها الصدمة لدى رؤية أقاربها خارج الطاحونة.

إلا أن المشهد الأسمى الذي كان يغري ماغي والمفضل لديها هو كوخ القمح المطحون، الذي تكدس بشكل أكوام كانت تنزلق عليها ماغي باستمرار بينما تتحدث إلى لوكي الذي أحست معه بارتياح كبير، وتمنت لو عاملها وكأنها فتاة ناضجة كما كان والدها يعاملها.

ربما شعرت ماغي بضرورة استعادة موقعها وإثبات ذاتها، فقالت وهي تجلس على كومة من القمح المطحون بالقرب من لوكي الذي كان منهمكاً في عمله :

"أعتقد أنك لم تقرأ أي كتاب يا لوكي ما عدا الإنجيل - أليس كذلك؟"

أجابها لوكي بصراحة مطلقة:

"أبداً يا آنسة، لست قارئاً جيداً، لست كذلك".

"لكن ماذا لو أعرتك أحد كتبي يا لوكي؟ ليس لدي كتب تجذبك للقراءة، وتكون سهلة بالنسبة لك، ولكن يوجد لدي كتاب عن أوروبا[1] - يحكي عن أنماط مختلفة من البشر في كل أنحاء العالم، وإذا لم تتمكن من استيعابه

---

[1] كتاب يوضح المفاهيم من خلال الصور وضرب الأمثلة طبع في لندن عام 1824 وفيه وصف شعري لبلدان العالم

بشكل جيد، بمقدورك فهمه من خلال الصور المعروضة - التي تبين نظرات وحركات الناس، وأساليب معيشتهم يوجد فيه صور عن الهولنديين، كما تعلم يبدون بدينيين جداً ومدمنين على الدخان - ويمسك أحدهم ببندقية".

"أبداً يا آنسة، ليست لدي أدنى فكرة عن الهولنديين، ومن الأفضل ألا أعرف شيئاً عنهم".

"لكنهم رفاقنا في الإنسانية، يا لوكي - وعلينا أن نعلم كيف يعيش رفاقنا في الإنسانية".

"أعتقد أنهم ليسوا رفاقنا كثيراً في الإنسانية يا آنسة، كل ما أعرفه عنهم هو رجل هولندي، معروف بحبه للحروب وقد اعتاد دوماً أن يقول: "يمكنني أن أحصد المحصول دون أن أبذر القمح، فأنا هولندي "، والحروب جعلت منهم حمقى أبداً أبداً، لن أكدر صفوي في معرفة المزيد عن أولئك الهولنديين إنهم حمقى بما فيه الكفاية - ومتعطشون للدماء، هذا ما أعرفه دون أن أقرأ عنهم في الكتب".

قالت ماغي بعد أن أحبطت مساعيها في إقناع لوكي بقراءة الكتاب :

"أوه، حسنٌ، ربما تفضل أكثر الطبيعة المفعمة بالنشاط والحيوية - كما تعلم ليس فيها هولنديون، بل ترى في الطبيعة الفيلة والكناغر والقطط البرية والأسماك والطيور. كما تعرف يوجد الكثير من البلدان التي تعج بتلك المخلوقات بدلاً من الأحصنة والأبقار. أليس من المفروض أن تعلم شيئاً عن حياتها يا لوكي؟

"أبداً يا آنسة، لايمكنني أن ألم بعدة أشياء بالاضافة إلى عملي عليّ أن أكرس وقتي لطحن المحصول أعلم أنك تفضلين أولئك الذين يعلمون كل شيء، لكنهم عاجزون عن كسب قوت يومهم أعتقد أنهم يكذبون على أنفسهم، ويكتبون أشياء لاتفيدهم".

قالت ماغي وهي ترغب بأن تكسب محبة لوكي لها :

"لماذا، أنت مثل أخي توم، يا لوكي توم لايحب القراءة أبداً لكنني أحبه كثيراً يا لوكي - إنه أغلى إنسان على قلبي في هذا العالم عندما يكبر سوف أسكن معه دوماً، ولن أفارقه أبداً. وبمقدوري إطلاعه على كل الأمور التي يجهلها. لكنني أعتقد أن توم ذكي بالرغم من أنه لايحب قراءة الكتب: لأنه يصنع حبالاً مدمجة جميلة المنظر وحظائر للأرانب".

قال لوكي: "آه، لكنه سوف يتضايق، فجميع الأرانب ميتة".

صرخت ماغي وهي تقفز من مقعدها منزلقة على القمح المجروش :

"ميتة! أوه عزيزي لوكي! هل مات الأرنب ذو الأذنين المتدليتين، وأنثاه المرقطة التي أمضى توم كل حياته، وهو يجمع المال ليشتريها؟ "

قال لوكي وهو منهمك في عمله: "أجل، ماتت كلها".

قال ماغي بلهجة حزينة، وقد سالت دموعها على خديها :

"أوه عزيزي لوكي، لقد طلب مني توم العناية بها لكنني أهملتها. ماذا بوسعي أن أفعل؟ "

"حسنٌ، كما ترين يا آنسة، كانت الأرانب في منزل بعيد ولم يتسنَ لأحد أن يعتني بها ويهمل عمله. سمعت السيد توم يوصي هاري بأن يعتني بها، لكنني لاألوم هاري - فلديه ما يشغله".

"أوه لوكي، لقد أوصاني توم بالعناية بالأرانب كل يوم، لكن كما تعلم لقد نسيتها تماماً، ولم تخطر ببالي فماذا بوسعي أن أفعل؟ أوه، سوف يغضب مني، أعلم أنه سيغضب مني، وسوف يكون حزيناً جداً على أرانبه - كما حزنت أنا عليها. أوه ماذا سأفعل؟ "

قال لوكي محاولاً تهدئتها :

"لاتقلقي يا آنسة، هذا قدرها، حتى لو أطعمناها كانت ستموت لسبب آخر. هنالك أمور غامضة تحدث خارجاً عن إرادتنا، هذه مشيئة الله. سوف يقدر السيد توم هذه الحقيقة، ويتقبَّل الأمر عن طيب خاطر. لاتضطربي. هلا رافقتني إلى منزلي لتزوري زوجتي؟ سأذهب للمنزل خلال لحظات".

قدمت لها دعوة لوكي عرضاً مناسباً يلهيها عن أحزانها، وتدريجياً كفكفت دموعها وهي ترافقه إلى كوخه المبهج ، الذي تحيط به أشجار التفاح والأجاص من كل الجهات، وعلى امتداد الحقول المحيطة بالطاحونة كانت السيدة موغز، زوجة لوكي، بادية للعيان، تتأمل ضيفتها من بعيد. أظهرت كرم الضيافة، وقدمت الخبز والعسل مترافقة مع كلمات الترحيب والتأهيل. في الواقع نسيت ماغي كل أحزانها هذا الصباح، عندما وقفت على كرسي تتأمل مجموعة من الصور اللافتة للنظر والتي تمثل الابن المسرف مرتدياً زي السير تشارلز غرانديسن[1].

عاودتها ذكرى الأرانب الميتة فانتابها إحساس بالشفقة على هذا الشاب

---

[1] السير تشارلز غرانديسن: بطل الرواية التي عنونت باسمه، وهو بطل معصوم من الأخطاء. الرواية من تأليف صامويل ريتشارد سن عام 1754.

الضعيف البنية، ولاسيما هو يتكئ على شجرة منهوك القوى، وقد بدت الخنازير التي كان واضحاً أنها من سلالة غريبة وكأنها توجه له الإهانات وهي تنظر إليه بروح معنوية عالية

قالت ماغي: "إنني سعيدة لأن والده سيعيده ثانية - ألست سعيداً يا لوكي؟ كم تعلم لقد ندم كثيراً ولن يعاود ارتكاب الأخطاء من جديد".

"إيه يا آنسة، أشك بأنه لن يتعرض لصدمات أكبر، ولكن لنساعده كما ساعده والده".

أدخلت هذه الفكرة الأسى إلى قلب ماغي وتمنَّت من كل أعماقها أن يكون مستقبل الشاب حافلاً بالأحداث الناجحة

الفصل الخامس

عودة توم للمنزل

كان من المفترض أن يصل توم في بداية الظهيرة، ولم تكن ماغي الوحيدة المتلهفة لرؤية أخيها، هنالك قلب آخر يرتعش شوقاً لرؤيته ولاسيما بعد تأخر سماع صوت العربة المتوقع، لأن السيدة توليفر تحمل بين جوارحها مشاعر قوية، تجعلها مولعة بابنها.

أخيراً سمع صوت دحرجة دواليب العربة - وعلى الرغم من الرياح التي كانت تحرك الغيوم بسرعة، والتي لم تكترث لقبعة وشعر السيدة توليفر الملفوف، فقد همت بالخروج، ممسكة بماغي، ومتناسية كل مآسي ذلك الصباح.

"إنه ولدي الحبيب! الرحمة يا إلهي! إنه لايرتدي ياقته، لقد ضاعت في الطريق".

وقفت السيدة توليفر فاتحة ذراعيها، وقفزت ماغي فرحاً، بينما نزل توم من العربة، وقال بلهجة ذكورية لاتخلو من العواطف: "مرحباً! ماذا - ياب! هل أنت هنا؟".

على الرغم من أنه استسلم للقبلات عن طيب خاطر، وبالرغم من تشبث ماغي بعنقه بحرارة، إلا أن عينيه الزرقاوين الباهتتين كانتا تحدقان باتجاه المزرعة الصغيرة والخراف والنهر المتدفق، حيث قطع عهداً على نفسه أن يباشر صيد السمك في صباح اليوم التالي

كان توم من أولئك الصبية الذين ترعرعوا في كل مكان من انكلترا، وعندما بلغ ربيعه الثاني عشر أو الثالث عشر، بدا مثل فرخ الإوز: - صبي له شعر ذو لون بني فاتح، خداه متوردان، وشفتاه مملوءتان، وأنفه وحاجباه ليسا واضحي المعالم - يدل مظهره الخارجي، وكأنه لايدرك أي شيء في الوجود إلا الأمور الصبيانية، على خلاف محيا ماغي التي أكسبتها الطبيعة التصميم والإرادة القوية، لكن تلك الطبيعة منحتها أيضاً الدهاء المتخفي تحت ستار الانفتاح على الناس، مما يجعل أولئك البسطاء يعتقدون بقدرتهم على التعامل معها بكل سهولة، بينما هي تستعد سراً لدحض نبوءاتهم الواثقين منها. وخلف هذا المظهر الصبياني الذي بدت وكأنها تحاول التخلص منه، أخفت في داخلها بعض النوايا العدوانية، منها عدم تكيفها مع أي وضع جديد، لكن تلك الفتاة الثائرة ذات العينين السوداوين المعبرتين كان من الممكن أن تنقلب إلى فتاة مسالمة بالمقارنة مع هذا الولد الوردي اللون ذي الملامح غير المعبرة

حالما انشغلت الأم بترتيب حقيبة ولدها، وبعد أن أحس توم بالراحة داخل الردهة الدافئة التي خلصته من القشعريرة التي لازمته في طريقه الطويل، قال توم بثقة وهو يسحب ماغي نحو زاوية الردهة: "ماغي، أنت لاتعرفين ماذا في جيوبي "، وهو يومئ برأسه للأعلى والأسفل لكي يثير فضولها أكثر.

قالت ماغي: "لا، ماذا لديك توم؟ هل هي سكاكر أو جوز؟".

ارتعش قلب ماغي قليلاً ، الآن توم كان دوماً يقول لها بأن الشيء الذي يمتلكه "لايؤكل".

"سكاكر! لاأكلتها كلها مع أصدقائي، والجوز غير مسلٍ إلا عندما يكون أخضر. ولكن انظري هنا!".

سحب بيده اليمنى شيئاً ما من جيبه.

همست ماغي "ما هذا؟ لاأستطيع أن أميز شيئاً إلا قطعة صفراء اللون".

"خمني ماغي—ما هي!".

قالت ماغي بعد أن نَفَدَ صبرها: "أوه، لاأستطيع أن أخمن ما بحوزتك يا توم".

قال توم مصمماً بعد أن أعاد يده إلى جيبه: "لاتكوني لجوجة، وإلا لن أخبرك بما لدي".

قالت ماغي متوسلة: "لايا توم ،لست لجوجة، لكنني لاأستطيع التخمين بما لديك، أرجوك لاتقسُ عليّ".

سحب توم ذراعه ببطء وقال: "حسنٌ، إنها صنارة سمك، لدي اثنتان - واحدة لك يا ماغي لم أحضر الحلوى وكعكة الزنجبيل لكي أوفر نقودي، وكان يلومني كل من جيبسن وسبا ونسر على ما فعلته ولكن انظري، هذان خطافان سنضعهما بالصنارة، ألن نذهب غداً لصيد السمك بالقرب من البركة المستديرة؟ وأنت ستصطادين السمك بنفسك يا ماغي، وتضعين الديدان كطعم لها - ألن يكون هذا مسلياً؟".

كان جواب ماغي بأن طوقت عنق توم بذراعيها، وتشبثت به، وأمسكته من خديه وهي تتأمله بصمت، في حين كان توم يفك ببطء أجزاء من الصنارة، قائلاً بعد صمت قليل: "والآن، ألست أخاً طيباً؟ تعلمين بأنني ما كنت لأشتري لك الصنارة لولا أنني أحبك".

"أجل، جداً، إنك أخ طيب للغاية - أحبك كثيراً يا توم".

أعاد توم الصنارة إلى جيبه، وكان يتأمل الخطافات واحدة تلو الأخرى، قبل أن يشرع بالحديث ثانية

"ورفاقي تكدروا مني لأنني لم أحضر لهم الحلوى".

"أوه عزيزي! أتمنى أن لايؤذوك في مدرستك يا توم هل أساؤوا إليك؟".

"أساؤوا إلي "؟ لا، أجاب توم وهو يضع الخطافات ثانية، ويتناول سكين جيب كبيرة، ويفتح أكبر شفراتها ببطء، والتي كان ينظر إليها بإمعان وهو يفرك إصبعه بها. ثم أضاف:

"لقد انتقمت من سبا ونسر بعد أن كان يخطط لجلدي، لاأريد أن يشاركني أحد قوتي".

"كم أنت شجاع يا توم! أعتقد أنك تشبه شمشون إذا جاء أسد، وبدأ يزأر عليّ، أعتقد بأنك ستهاجمه - أليس كذلك يا توم؟".

"ولكن كيف يستطيع الأسد أن يزأر عليك، يالك من فتاة حمقاء!! لاوجود للأسود هنا، إنها لاتتواجد إلا في السيرك".

"لا، ولكن إذا كنا في بلد يعج بالأسود ؛ أقصد إفريقيا مثلاً فهي بلد حار - وتستطيع الأسود أن تأكل البشر. بمقدوري أن أريك إياها في الكتاب الذي أقرؤه".

"حسنٌ، سأبحث عن بندقية وأصوب عليه".

"ولكن افترض أنك لاتملك بندقية، على سبيل المثال عندما نذهب إلى الصيد، وفجأة يظهر أمامنا أسد ضخم، ويتقدم نحونا، ويزأر بقوة، بحيث لايترك لنا فرصة للهروب فماذا أنت فاعل عندئذ يا توم؟".

صمت توم واستدار أخيراً قائلاً بازدراء: "ولكن لاوجود للأسود هنا، فما فائدة الكلام بهذا الموضوع؟".

قالت ماغي، وهي تتبعه: "لكنني أحب أن أسرح بخيالي قليلاً. فكر فقط بما ستفعله يا توم".

"لاتزعجيني يا ماغي! إنك فتاة حمقاء - سأذهب لرؤية أرانبي".

تسارعت نبضات قلب ماغي خوفاً. لم تجرؤ فوراً على قول الحقيقة - الحزينة لكنها لحقت بتوم بصمت وهي ترتعش، وتفكر بطريقة لإخباره، وكظم غضبه وحزنه

بعد أن خرجا قالت: "توم، بكم اشتريت أرانبك؟".

أجابها توم على الفور: "بقطعتين ونصف من الكراون[1] وستة بنسات".

"أعتقد أنه لدي مبلغ كبير من المال في حقيبتي في الطابق العلوي سأطلب من ماما أن تعطيني نقودي".

"لأجل ماذا النقود؟ لست بحاجة لنقودك أنت حمقاء. لدي من المال ما

---

[1] الكروان : قطعة نقد انكليزية قديمة تساوي 25 بنساً.

يكفيني وأكثر مما لديك، لأنني صبي أدخر الكثير من الجنيهات، لأنني سأصبح رجلاً، أما أنت فلا تملكين إلا خمسة شلنات لأنك مجرد فتاة".

"حسنٌ، ولكن إن أعطتني ماما نقودي سنتمكن من شراء المزيد من الأرانب، أليس كذلك؟. "مزيداً من الأرانب؟ لاأريد مزيداً من الأرانب".

"أوه، ولكن الأرانب كلها ميتة يا توم".

توقف توم فوراً، واستدار نحو ماغي، وقد تغير لونه: "إذاً لقد نسيت إطعام الأرانب وهاري نسيها أيضاً؟ سوف أحاسب هاري، ولن أوكله بهذه المهمة بعد الآن أما أنت فلا أحبك يا ماغي ولن ترافقيني غداً إلى الصيد. لقد طلبت منك العناية بالأرانب وإطعامها بشكل يومي". تابع المسير ثانية.

قالت ماغي بعد أن انهمرت دموعها بغزارة :

"أجل، ولكنني نسيت - حقاً ليس بيدي حيلة يا توم، إنني جداً آسفة".

أجابها توم بغضب: "أنت فتاة مشاكسة، وأنا نادم لأنني اشتريت لك صنارة لصيد السمك. لاأحبك يا ماغي".

بدأت ماغي النشيج: "أوه، توم، إنك تقسو علي كثيراً. لو أنت نسيت أي شيء لكنت سامحتك - لن أتصرف معك كما تفعل أنت - كنت سأنسى الأمر، وأسامحك، وأبقى أحبك".

"أنت حمقاء بالفعل، لكنني لم أنس أي شيء، لم أنس".

"أوه، أرجوك سامحني يا توم، لقد آلمتني جداً، قالت ماغي، وهي ترتعش، وتبكي، متشبثة بذراع توم، وترتمي بخديها الرطبتين على كتفه.

أبعدها توم عنه ووقف ثانية، قائلاً بلهجة حازمة :

"والآن يا ماغي، استمعي لي جيداً. ألست أخاً طيباً لك؟".

قالت ماغي وهي لاتزال تنشج بكاءً: "نع - ع - م".

"ألم أدخر النقود لكي أشتري لك صنارة السمك، وغضب مني سباونسر لأنني لم أشتر الحلوى؟

"نع - ع - م - وأنا- أحبك كثيراً يا توم".

"لكنك فتاة مشاكسة في العطلة الماضية أكلت كل السكاكر الموجودة في صندوقي، والعطلة التي سبقتها أهملت صنارتي فجرفها القارب إلى الأسفل".

"لم أقصد، لم يكن بوسعي فعل شيء".

"أجل بمقدورك فعل شيء مفيد عندما تحسنين التفكير. أنت فتاة مشاكسة، ولن ترافقيني غداً إلى الصيد".

بهذه الخاتمة الفظيعة، غادر توم ماغي، وتوجَّه نحو الطاحونة ليلقي التحية على لوكي ويشكو إليه هاري.

وقفت ماغي بلا حراك مدة دقيقة أو اثنتين، وهي لاتزال تنشج بكاءً، ثم استدارت، ودخلت المنزل، وصعدت إلى عليتها، حيث جلست على الأرض، وأسندت رأسها على الرف الذي نخره السوس، وقد حطم البؤس قلبها. عاد توم إلى المنزل، وكانت ماغي لاتزال تفكر بقسوة توم فما نفع الأشياء إن كان توم لايحبها؟ أوه، لقد كان قاسياً جداً! ألم تعرض عليه نقودها، واعتذرت منه، وندمت أشد الندم على تصرفاتها؟ كانت تدرك بأنها فتاة مشاكسة مع أمها، لكنها لم تكن أبداً مشاكسة مع توم - ولم تقصد أبداً أن تغضبه.

"أوه، إنه قاسٍ! "، صرخت ماغي وهي تبكي، وأحست بسعادة بائسة وهي تتأمل مساحة الفراغ الشاسعة في العلية لم تفكر أبداً بضرب دميتها، كانت في حالة بائسة للغاية بحيث لم يتسنَّ لمشاعر الغضب بالتغلغل إلى روحها البائسة.

يا لأحزان الطفولة المريرة! عندما تقتحم الأحزان حياتهم بغرابة، قبل أن يبزغ للأمل جناحان ويحلق بهم متجاوزاً الأيام والأسابيع، محلقاً عبر الزمن من صيف إلى صيف متناسياً مرور الوقت السريع.

في الحال أدركت ماغي بأنه صار لها عدة ساعات في العلية، وحان موعد شرب الشاي، إنهم مجتمعون الآن لشرب الشاي - ولم يفكر بها أحد. حسنٌ، ستبقى إذاً هناك حتى لو تضورت جوعاً وعطشاً - سوف تختبئ خلف حوض خشبي، وتمكث هناك طوال الليل، عندئذ سيصاب الجميع بالهلع لغيابها، وسيعتذر منها توم وهكذا سرحت ماغي بخيالها وهي تفكر بطريقة لاسترداد كبريائها، لكنها عاودت البكاء على الفور عندما فكرت بأنهم لن يكترثوا لأمر غيابها. إن نزلت الآن - هل كان توم سيسامحها؟ - ربما يصالحهما والدها. لكنها تريد أن يسامحها توم لأنه يحبها وليس لأن والده طلب منه ذلك لا، لن تنزل أبداً إن لم يأتِ توم ويحضرها بنفسه صممت على قرارها هذا مدة خمس دقائق مرت عليها بطيئة جداً، إلا أن الحاجة للحب، وعاطفة ماغي القوية انتصرت على كبريائها، وعدلت عن قرارها في الحال.

زحفت من وراء الحوض الخشبي نحو الفراغ المضيء عبر العلية الواسعة الأرجاء، لكنها سمعت للتو صوت وقع خطوات سريعة على الدرج.

أعطى توم أهمية كبيرة لمحادثته مع لوكي، وكان يتمشى جيئة وذهاباً في الأماكن التي تبعث السرور في نفسه، ويشخط (يكسر) العصي بسكينه دون أي سبب، لأنه لم يكن يقوم بهذا التصرف في المدرسة، وكان يفكر بماغي وتأثير كلماته اللاذعة عليها، كان يرمي إلى معاقبتها، وبعد أن اطمأن إلى أنه حقق مراده، حاول إشغال نفسه بأمور أخرى، مثل أي شخص عملي عندما استدعي

لشرب الشاي، قال له والده: "لماذا، أين أختك الصغيرة؟ "وفي اللحظة نفسها تقريباً قالت السيدة توليفر: "أين أختك الصغيرة؟ "— حيث افترض كل منهما بأن توم وماغي كانا معاً طوال فترة ما بعد الظهيرة.

قال توم: "لاأعلم". لم يشأ توم "الإفصاح "عن الحقيقة، على الرغم من غضبه من ماغي، لأن توم توليفر ولدٌ ذو أخلاق رفيعة.

قال الأب: "ماذا! ألم تكن تلعب معك طوال هذه الفترة؟ لم تفكر في أي شيء إلا بعودتك إلى المنزل".

قال توم وهو يأكل كعكة الإجاص: "لم أرها منذ ساعتين".

صرخت السيدة توليفر وهي تنهض من مقعدها وتركض باتجاه النافذة:

"يا إلهي! لقد غرقت "، ثم أضافت وهي في حالة ذعر: "كيف تدعها هكذا وحدها؟".

قال السيد توليفر: "لا، لا، لم تغرق. لابد أنك أزعجتها يا توم، أليس كذلك؟".

قال توم ساخطاً: "لايا أبتاه، أنا لم أضايقها. أعتقد أنها في المنزل".

قالت السيدة توليفر: "ربما كانت في العلية تغني وتتحدث مع نفسها متجاهلة كل من حولها وقد نسيت موعد شرب الشاي".

قال الأب بلهجة حادة، بعد أن أدرك بعاطفته الأبوية أن توم عامل ماغي بقسوة وإلا لما تركت أخاها: "هيا اذهب، وأحضرها يا توم، وعاملها بلطف، هل تسمع؟ وإلا سأعلمك كيف تكون ودوداً معها".

لم يكن توم يعصي أمر والده لأن السيد توليفر كان رجلاً حازماً، لكنه انصرف وهو مقطب الجبين، حاملاً بيده قطعة من كعكة الإجاص، وليس لديه أدنى نية في مسامحة ماغي.

كان توم في ربيعه الثالث عشر، ولم تتكون لديه بعد أفكارٌ واضحةٌ عن القواعد وعلم الحساب، اعتبر تلك العلوم مسائل قابلة للنقاش، وكان واضحاً بخصوص نقطة معينة - فهو يعتقد على سبيل المثال بأن لديه الحق في معاقبة كل شخص يستحق العقاب - لمَ لا، فهو يعاقب نفسه إن رأى بأنه يستحق العقوبة، في جميع الأحوال يبرر تصرفاته، ويصل إلى نتيجة مفادها أنه لايستحق العقاب أبداً.

إذاً، كانت تلك الخطوات التي سمعتها ماغي، لتوم، وفي تلك اللحظة كانت قد انتصرت حاجتها الماسة للحب على كبريائها، نزلت الدرج وعيناها متورمتان، وشعرها منفوشٌ ومنظرها يثير الشفقة إذ جاء والدها لكي يمسد شعرها، ويقول لها: "لاتهتمي يا صغيرتي".

بالقدرتنا الخارقة على كبت أحزاننا، هذه الحاجة للحب - وهذا التعطش الدائم للحنان - التعطش الذي أجبرتنا الطبيعة على إخضاعه وكبته داخل أرواحنا، حتى نتمكن من تحدي مصاعب العالم

لكنها ميزت صوت خطوات توم، وبدأ قلبها يخفق بشدة إثر صدمة الأمل المفاجئة وقف توم عند أعلى الدرج وناداها: "ماغي، عليك أن تنزلي إلى الأسفل".

لكنها اندفعت نحوه، وتشبثت بعنقه وهي تبكي :

"أوه توم، سامحني أرجوك - لاأستطيع تحمل كل هذا - سأرضيك دائماً - أرجوك أحبني يا توم، أرجوك يا عزيزي توم!".

إننا نتعلم كيف نتحكم بعواطفنا عندما نكبر. نتحاشى المشاجرات، ونتعامل مع المشاكل بأسلوب حضاري، وبهذه الطريقة نحفظ كرامتنا، فمن ناحية نظهر رباطة جأشنا ومن ناحية أخرى نمتص الآلام، ونكبتها. لم نعد نعالج الأمور بعواطفنا، وننقاد لأهوائنا مثل الحيوانات، لكننا نحترم أنفسنا كأعضاء ضمن مجتمع مدني راقٍ.

كان توم وماغي لايزالان مثل حيوانين يافعين، وهكذا تصرفت ماغي بحرية، وكانت تفرك خديها بخدي توم، وتقبل أذنه بشكل عشوائي، ثم تبتعد عن وجهه، وتعاود البكاء. كذلك تأثر الغلام بعاطفة ماغي الجياشة، وتصرف بشكل يناقض قراره وتصميمه على عقابها: في الواقع بدأ بدوره يبادلها القبلات، ويقول: "لاتبكي يا ماغي، خذي، وكلي هذه القطعة من الكعك". توقفت ماغي عن البكاء، وتناولت قطعة صغيرة من الكعك: بعدئذ تناول توم قطعة كعك أيضاً، لمجرد أنه أراد فقط أن يشاركها، وأكلا معاً، وهما يفركان خديهما ببعضهما بعضاً، مستسلمين لصداقتهما القوية.

قال توم أخيراً بعد أن انتهيا من تناول الكعكة التي كانت بحوزتهما: "هيا يا ماغي، لننزل ونشرب الشاي".

وهكذا انتهت مآسي هذا اليوم، وانطلقت ماغي صباح اليوم التالي إلى الصيد حاملة بإحدى يديها صنارة السمك، وأمسكت بالأخرى مقبض السلة. كانت متألقة والفرحة تغمر قلبها لأن توم عاملها بلطف لقد أخبرت توم بأنها موافقة بأن يضع الديدان على الخطاف على الرغم من أنها لم توافق على طرحه إلا بعد أن أكد لها بأن الديدان لاتشعر بأي شيء.

(حسب رأي توم الخاص، فالديدان لاتحس بشيء، وحتى وإن كانت لديها مشاعر فهذا أمر غير مهم على الإطلاق).

كان يعرف كل شيء عن الديدان والأسماك وكل ما يتعلق بأمور الصيد.

وكذلك كان على اطلاع واسع بأصناف الطيور المؤذية، وطريقة فتح الأقفال المستعصية، ورفع مقابض البوابات الضخمة اعتقدت ماغي بأن هذا النوع من المعرفة ممتع للغاية - بل وأكثر صعوبة من تذكر الأفكار الواردة في الكتب كانت تهاب إلى حد ما تفوق توم عليها في هذه الأمور، لأنه الشخص الوحيد الذي اعتبر معرفتها بأنها مجرد "هراء".

ولم يكن يندهش من ذكائها. في الواقع كانت ماغي بنظر توم مجرد فتاة حمقاء، وكذلك كل الفتيات حمقا وات - إنهن لايملكن الجرأة على رمي حجر لضرب أياً كان، وليس بمقدورهن حمل سكين جيب، بالاضافة إلى خوفهن من أشياء صغيرة مثل الضفادع.

ومع ذلك كان توم مولعاً جداً بأخته، وأولاها رعاية كبيرة، وجعل منها مدبرة منزله، وكان لايتردد أبداً في عقابها إن أخطأت.

كانا في طريقهما إلى البركة المستديرة - تلك البركة الخلابة المنظر، التي تشكلت منذ زمن بعيد من جراء الفيضانات: لم يكن أحد يعلم كم كان عمقها!، كانت سراً غامضاً، وأدهشت الجميع بشكلها المستدير بدقة، كما أحاطت بها أشجار الصفصاف والقصب الطويل، حتى أنه لايستطيع المرء رؤيتها إلا بعد أن يقترب من الضفة كان لهذه البقعة الأثرية من الأرض أثرٌ عميقٌ في نفس توم حتى أنه تحدَّث مع ماغي بأسلوب لطيف وودي للغاية، وهو يفتح السلة، ويجهز العدة رمى الصنارة في الماء، ثم أعطاها القبضة لتمسكها بيدها. اعتقدت ماغي أنه من المحتمل أن تأتي إليها السمكة بنفسها، وتمسك بالخطاف لكنها نسيت أمر السمكة، وكانت تتأمل سطح الماء البلوري، عندما قال لها توم هامساً، "ماغي، انظري، انظري! "ثم جاء راكضاً ليمنعها من سحب الخيط بعيداً.

ذعرت ماغي خوفاً من أنها تكون قد ارتكبت خطأ ما كعادتها، لكن توم سحب الخيط في الحال وأحضر سمكة كبيرة وقوية بدأت تتخبط على العشب.

هتف توم: "أوه ماغي! يالك من بطة صغيرة! هيا أفرغي السلة".

لم تنتبه ماغي لهذا السرور غير المعتاد الذي ينتاب توم، لكنها اكتفت برضا توم عنها، وكانت مسرورة جداً بصحبته لم يكن بمقدور أي أحد أن يفسد عليها فرحتها بلهجة توم اللطيفة معها وبلحظات الصمت الحالمة، وهي تصغي للأصوات الخفيفة التي تصدرها الأسماك وهي ترتفع عن سطح الماء ثم تغطس، وإلى أصوات أشجار الصفصاف والقصبات الطويلة وهي تتمايل وكأنها تشاركهما سعادتهما الصامتة أحست ماغي وكأنها في جنة بديعة المنظر وهي تجلس قرب البركة بتلك الطريقة، ولا يوبخها أحد، لم تكن تعرف كيف تضع الطعم في صنارتها، لكنها كانت تحب صيد السمك كثيراً.

كان الصباح مبهجاً لكليهما. استمتعا، وجلسا معاً، بدون التفكير بأن الحياة ستتغير وتصبح تلك اللحظات السعيدة مجرد ذكرى لهما: سوف يكبران ولن يلتحقا بالمدرسة، وستكون كل الأيام عطلة، سيعيشان معاً ويولعان ببعضهما بعضاً طوال العمر. كل هذه الأحداث ستشهدها الطاحونة بتألقها - وشجرة الكستناء الضخمة التي لعب توم وماغي في ظلها طوال الوقت - والنهر الصغير الرقراق - حيث بدت ضفتاه مثل منزل لهما، وكان توم يراقب دائماً جرذان الماء، بينما تجمع ماغي ثمار الإجاص التي كانت تنساها، وترميها بعد كل ذلك العناء، وفوق كل هذا، نهر الفلوس العظيم الذي كانا يتمشيان على ضفافه وكأنهما مسافران عبره إلى بلد آخر، ويراقبان المد الربيعي المندفع مثل وحش جائع. اعتقد توم أن كل من يعيش بعيداً عن تلك البقعة الرائعة، هو إنسان تعيس، أما ماغي فكانت كلما قرأت عن المسيحي الذي عبر "النهر الذي ليس عليه أي جسر"[1]، فكرت فوراً في نهر الفلوس.

لقد تغيرت الحياة بالنسبة لتوم وماغي، ومع ذلك كانا على حق عندما اعتقدا بأن أفكار الطفولة والحب والتعلق بالسنين الأولى لحياتنا لايمكن أن تفارقنا حتى الممات. ليس بوسعنا التمسك بهذه الأرض وإعطائها محبتنا إن لم نشهد عليها طفولتنا - إن لم يأت الربيع كل عام حاملاً معه الأزهار نفسها التي اعتدنا على جمعها بأصابعنا الصغيرة ونحن جالسون على العشب محاولين نطق ما تعلمناه من كلمات - إن لم يقبل علينا الخريف منذراً بانتهاء المواسم وباعثاً في النفوس سعادة غامضة - إن لم تحلق فوق رؤوسنا طيور صغيرة لها صدور حمراء اللون، والتي اعتدنا على أن نسميها "طيور الجنة"، لأنها لاتتلف المحاصيل الثمينة، ولا تؤذي أحداً

أليس من الغرابة أن نستمتع بهذه الرتابة العذبة، ونحب الأشياء أكثر كلما اعتدنا عليها أكثر؟

الغابة التي كنت أتمشى فيها في أحد أيام نيسان المعتدلة، برفقة أوراق شجر السنديان ذات اللون البني المائل للصفرة، وهي معلقة بيني وبين السماء الزرقاء اللون والأرض التي فرشت بالورود البيضاء اللون ذات الشكل النجمي، والحقول المعشوشبة الممتدة على مد النظر، والشجيرات الكثيفة التي تأبى أن تفارق بعضها بعضاً، والسرخس غريبة الأشكال والبراعم الرائعة التي تكافح لكي

---

[1] النهر الذي ليس عليه أي جسر = اجتياز هذا النهر يؤدي إلى الوصول لنهاية الجزء الأول من رحلة الحجاج للكاتب جون بنيامين.

تظهر بقوة على وجه الحياة، كل هذه المشاهد لاتزال حية في ذاكرتي، تنطق بمثل ما كانت تنطق به منذ سنين طويلة لاتزال راسخة في خيال خصب شهد الكثير ومع ذلك تشبث بالسنين الأولى من باكورة أيامي ربما نتعلق بذكريات طفولتنا لأن أرواحنا مرهقة تبحث عن ملجأ ترتاح فيه من كل الهموم، ملجأ يحمل كل معاني الحب الصافي.

الفصل السادس

زيارة الأقارب

كان أسبوع عيد الفصح وكعكة الجبنة[1] التي أعدتها السيدة توليفر كانت مميزة أكثر من المعتاد حتى أن مديرة المنزل كيزيا قالت متفاخرة بأنها تعيش في كنف سيدة ماهرة في إعداد حلوى طيبة المذاق: "إن نفحات خفيفة من الهواء ستجعل الكعك يتطاير مثل الريش". إذاً كان موسماً مبشراً بالخير لكل العائلة، حتى لو لم يكن من المحبذ استشارة الأختين غليك وبوليت وبوليت فيما يتعلق بذهاب توم إلى المدرسة.

قالت السيدة توليفر: "سأدعو أختي دين هذه المرة، فهي دائماً غيورة على الأولاد، وتحبهم "

قال السيد توليفر: "أجل، أجل، ادعيها كي تأتي منذ زمنٍ لم أتحدث مع عائلة دين: منذ حوالي ستة أشهر. ولكن أليست هي من تقول بأن الأولاد لايحتاجون مصاريف كثيرة؟".

"هذا ما تقوله أنت على الدوام يا سيد توليفر، لكنني واثقة من أنه ما من شخص يوافقك الرأي في تصرفاتك مع الأولاد، فأنت تعطيهم خمسة جنيهات في حين تدخر أختي غليك وكذلك بوليت ما تحصلان عليه من أموال لشراء أشياء مفيدة، فزوجاهما يشتريان كل شيء".

كانت السيدة توليفر امرأة لطيفة للغاية، حتى النعجة تدافع عن نفسها عندما يعترض الخرفان طريقها.

قال السيد توليفر: "تشه! عندما يكون عدد الجالسين إلى مائدة الإفطار كبيراً فلا بد أنهم يحتاجون إلى مزيد من الخبز. ثم ما ذنبي إن كانت أخواتك يقتصدن في معيشتهن كثيراً؟ ألن يلحق بهن العار بعد مماتهن؟".

لا أعرف بماذا أخطأت معكم حتى أولادي يتصرفون بارتباك مع خالاتهم وأخوالهم ماغي مثلاً تزداد مشاكستها عشرة أضعاف عندما يزورني أخوتي، وتوم سامحه الله، لايكن لهم أية مودة

بينما ترى لوسي دين فتاة في غاية الطيبة والتهذيب، إنها تجلس أكثر من

---

[1] هذه الكعكة كانت معروفة في القرن التاسع عشر وتتكون من خثارة اللبن و السكر و الزبدة ، لكنها لم تعرف في بريطانيا حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

ساعة دون إثارة ضجة ليس بوسعي إلا أن أكنّ لها إلا كل مودة كما لو أنها ابنتي، وأنا واثقة من أنني أحبها أكثر من مجرد ابنة أخت لي، لأنها من أكثر الفتيات طيبة في عائلتنا".

"حسنٌ، حسنٌ، إن كنت مغرمة بهذه الطفلة لهذه الدرجة، اطلبي من والدها وأمها إحضارها معهما. ولماذا لاتطلبي من العمة والعم بوس إحضار أولادهما أيضاً؟".

"أوه، عزيزي سيد توليفر، لماذا تتحدث هكذا؟ هنالك ثمانية أشخاص بالإضافة إلى الأولاد، وعلي زيادة كمية الطعام لتتناسب مع هذا العدد الكبير، ثم أنك تعلم، كما أعلم تماماً، بأن أختك لاتتفق مع أخوتي".

"حسنٌ، حسنٌ، افعلي ما تشائين يا عزيزتي "، قال السيد توليفر وهو يأخذ قبعته، ويتمشى خارجاً نحو الطاحونة

السيدة توليفر من عائلة دودسن وهي عائلة محترمة حقاً، ولها عادات مختلفة وغريبة الأطوار عن بقية العائلات هناك طرق خاصة لأداء كل شيء في تلك العائلة: منها مثلاً صناعة الخمرة من نبات الربيع، وتخزين زجاجات من عنب الثعلب، وهكذا لم تكن أية فتاة تختلف عن الأخرى فجميعهن من عائلة دودسن، ولدى العائلة طقوس معينة أثناء الجنازات: أطراف قبعاتهم لم تكن زرقاء اللون، والكفوف غطت كامل أصابعهم، ومن المفترض أن ينوح كل شخص على الميت، والوشاحات تغطي رؤوس من يمحل النعش. وعندما يقع أحد أفراد العائلة صريع المرض، يهب البقية لمساندته، ودعمه بكل السبل.

باختصار، اتبعت العائلة سلوكاً اجتماعياً سليماً ودقيقاً. وكانت السيدة توليفر فخورة جداً لأنها تنحدر من عائلة دودسن، وبأن لديها ولد يشبه عائلتها، وهو على الأقل يشبههم بالملامح والسحنة، وكذلك في حبه للملح، وتناول البقوليات، التي لاتشتهيها عائلة توليفر.

على الرغم من هذا التشابه، كان توم يفر دوماً خارج البيت عندما يتلقى خبراً عن مجيء خالته غليك. وهذا الأمر ضايق ماغي التي لم تعرف السر الكامن خلف هروب توم الدائم من المنزل، لكن الجنس الضعيف يعترف دوماً بأنه يشكل عقبات حقيقية في حالات الفرار[1].

---

[1] هنا حذفت جورج إليوت المقطع التالي :

" عندما كانت ماغي صغيرة ، اختبأت تحت السرير لتتجنب مرافقة الخالة غليك ، ولكن اكتشف أمرها بعد ذلك و أحست بالخزي و العار نتيجة تصرفها الصبياني المشاكس . بالفعل كانت الخالة غليك بالنسبة لهما مصدر ذعر ، لكن السخرية التي تعرضت لها كانت تذعرها أكثر .

في يوم الأربعاء، وهو اليوم الذي سبق قدوم الخالات والأخوال، كانت تنبعث روائح كثيرة، منها رائحة كعك الإجاص والجيلي الحار، ورائحة مرق اللحم، كلها بشَّرَتْ بأجواء سعيدة، وبوارق أمل في الأفق قام كل من توم وماغي بعدة غارات إلى المطبخ لتذوُّق أنواع الطعام اللذيذ أو سلب ما يمكن سلبه وأكله في مكان ما.

قالت ماغي وهما يجلسان على أغصان شجرة قديمة، ويأكلان فطيرة المربى:

"توم هل ستهرب غداً؟ "

أجاب توم ببطء بعد أن انتهى تماماً من مضغ لقمته:

"لا، لا، لن أهرب".

"لماذا يا توم؟ لأن لوسي قادمة معهم؟".

"لا"، أجاب توم وهو يفتح سكين جيبه مديراً رأسه باتجاه واحد بطريقة مكابرة، "ولماذا أهتم بلوسي؟ إنها مجرد فتاة - ولا تستطيع أن تلعب لعبة الحبل".

"إذاً من أجل كعكة السكر؟ "، قالت ماغي مستخدمة قدراتها الافتراضية، بينما اتكأت باتجاه توم وهي تركز بصرها على السكين المتأرجحة

"لا، أيتها الحمقاء، هذه الكعكة سأتناولها بعد غد. إنها حلوى المشمش المحببة إلي - أوه مفاتيحي!".

في هذه اللحظة سقطت السكين على الفطيرة وشطرتها قسمين، إلا أن توم لم يكن راضياً عما حدث فقال أخيراً: "أغلقي عينيك يا ماغي".

"لماذا؟".

"عندما أطلب منك إغلاق عينيك يجب أن تفعلي".

أطاعته ماغي

"والآن، ماذا تختارين يا ماغي - اليد اليسرى أم اليمنى؟".

قالت ماغي وهي مغمضة العينين إرضاءً لتوم:

"سوف أختار القسم الذي نفذ منه المربى".

وخيال ماغي الخصب جعلها تعتقد بأن كل شخص في الكنيسة يوم الأحد المقبل سوف يهزأ بها لهذا السبب . ألم تخبرها أمها مرة بأن من يرتكب خطأً ، سوف يشير عليه كل الأولاد الصغار بأصابعهم و يسخرون منه؟ لم يكن عقل ماغي قادراً على التفكير بشكل منطقي ، لكنها كانت قادرة على تحليل الأمور وربط استنتاجاتها ببعضها البعض لذلك أدركت في الحال بأنه لو علم كل الصغار بأمرها ، من المحتمل عندئذ أنهم سيخبرون آبائهم و أمهاتهم أيضاً ".

"يالك من حمقاء، أنت لاتحبين الكعكة دون مربى. ربما تحصلين عليها إن اخترت وأنت مغمضة العينين، لكنني لن أقدمها لك بغير هذه الطريقة. والآن، اختاري، اليد اليسرى أم اليمنى. ها! قال توم بلهجة ساخطة، بينما اختلست ماغي النظر: "والآن، أغلقي عينيك جيداً، وإلا لن تحصلي ولا على واحدة منهما".

لم تمنح ماغي فرصة أكبر لتقديم التضحية، كانت ترغب بإعطاء توم القطعة الأفضل لكي ترضيه دوماً. وهكذا أغلقت عينيها بإحكام، حتى طلب منها توم أن تختار واحدة، "فاختارت اليد اليسرى".

قال توم بمرارة: "إنها لك".

"ماذا! القطعة الخالية من المربى؟".

قال توم بحزم: "لا، القطعة الأخرى هي لك، إنها الأفضل".

"أوه، أرجوك توم، خذها أنت: لاأحبها - أحب تلك القطعة، "أرجوك خذها".

أجاب توم بشكل قطعي: "لا، لن أخذها".

فكرت ماغي أنه من غير المفيد الاستمرار بتقديم التضحية، لذلك بدأت بتناول نصف الفطيرة على شكل لقمات صغيرة وبطريقة سريعة وكأنها خجلة من نفسها.

أنهى توم فطيرته قبلها، وكان يراقب ماغي وهي تأكل الكسرة الأخيرة من الفطيرة وقد أحس أنه لم يشبع بعد. لم تكن ماغي منتبهة إلى عيني توم اللتان تراقبانها، بل كانت تتأرجح فوق غصن الشجرة القديمة.

بعد أن ابتلعت ماغي الكسرة الأخيرة قال لها توم: "أوه، يالك من فتاة جشعة!". باعتقاده أنه تصرف بشكل عادل، ولكن كان على ماغي أن تقدر له تصرفه، وتطعمه من قطعتها. وهو بدوره كان سيرفض تناولها مقدماً.

شحب لون ماغي: "أوه توم، لماذا لم تطلب مني أن أعطيك القطعة؟".

"ما كنت لأفعل هذا أبداً، أنت طماعة، كان عليك أن تبادري من تلقاء نفسك، بعد أن قدمت لك القطعة الأفضل".

قالت ماغي وقد أحست بالظلم: "لكنني أردت تقديم القطعة لك - تعلم أنني فعلت".

"أجل، أنا لم أتصرف بشكل غير لائق كما يفعل سباونسر. إنه دائماً يأخذ القطعة الأفضل، إن أعطيته الفرصة المناسبة ولو أنك اخترت القطعة الأفضل وأنت مغمضة العينين، كان سيبدلها، ويضعها في اليد الأخرى. لكنني لست طماعاً، ولا أتصرف بهذا الشكل السيئ".

بعد هذا الاتهام القطعي، قفز توم من مكانه، ورمى بحجر على الكلب ياب، الذي كان يراقبهما وهما يتناولان الفطيرة، وكان يحرك أذنيه لهفة لقطعة تصله. ومع أنه لم ينل أي شيء، تقبل إطراء توم له بقذف الحجر، وأخذ يتحرك برشاقة، وكأنه تلقى بالفعل معاملة كريمة.

جثمت ماغي في مكانها والبؤس يطوقها، أحست بتأنيب الضمير، كيف لم يخطر ببالها أن تطعم توم؟ انسكبت الدموع من عينيها بغزارة حتى أنها لم تر أي شيء حولها مدة عشر دقائق. لكنها بعد ذلك أحست برغبة عارمة لأن يشاركها أحد أحزانها، قفزت، وانطلقت باحثة عن توم لم تجد أحداً في المروج. ركضت ماغي نحو الضفة العالية المقابلة للشجرة الضخمة المقدسة، حيث كان بمقدورها رؤية أبعاد نهر الفلوس. ومن هناك شاهدت توم، لكن قلبها خفق بشدة لأنه كان قد ابتعد كثيراً وهو في طريقه إلى النهر العظيم، وكان بصحبته الكلب ياب والمشاكس بوب جاكين، الذي كانت مهنته إخافة الطيور. ودون أي سبب أحست ماغي بأن بوب شخص شرير. ربما لأن أمه امرأة بدينة وضخمة بشكل مخيف، وكانت تسكن في منزل غريب مستدير الشكل عند أسفل النهر، وعندما كانت ماغي تقترب هي وأخوها من ذلك المنزل، ينطلق كلب مرقط ولا يكف عن النباح بشكل مزعج.

فتلحقه والدة بوب، وتصرخ على الكلب ليبتعد، مطمئنة توم وماغي بأن لايخافا منه، لكن ماغي ينتابها إحساس بأن تلك المرأة توبخهما، فيخفق قلبها خوفاً.

فكرت ماغي أنه من المؤكد وجود أفاعٍ في ذلك المنزل المستدير، وكذلك الخفافيش في غرفة النوم: لأنها في إحدى المرات شاهدت بوب، وهو يخلع قبعته ويخرج منها أفعى صغيرة أمام توم، وبعد ذلك أخرج خفاشاً صغيراً. إنه شخص مجنون وربما لديه قدرات شيطانية لفعل ما يريد. وفوق كل هذا لم تكن ماغي ترتاح لبوب، لأن توم يمنعها من رفقته عندما يكون بصحبة بوب.

لا بد من الاعتراف بأن توم مغرم بصحبة بوب وإلا ما تفسير لعبهما سويةً؟ لقد عرف بوب كل أسرار الطيور، وكان يميز بيضة السنونو بمجرد رؤيتها، وبإمكانه أن يحدد من شكل أية بيضة نوع الفرخ الذي بداخلها وإلى أية سلالة ينتمي. كان يصنع كل أنواع الأفخاخ، ويتسلق الأشجار كالسنجاب، لديه مقدرة سحرية في اكتشاف جحور القنافذ والحيوانات ذات الفراء الثمين. كما امتلك شجاعة لامثيل لها في القيام بأعمال مشاكسة، مثل صنع حفر داخل الشجيرات، وقذف الأغنام بالحجارة، وقتل قطة تتجول بحرية. كل هذه التصرفات افتتن بها توم كثيراً، وكانت ماغي في كل عطلة واثقة من أن توم

سيذهب برفقة بوب، ويتركها.

حسنٌ! لاأمل الآن في اللحاق بتوم: لقد ولى بعيداً مع صاحبه، ولم تستطع ماغي أن تجد معزياً لها في ذلك الوقت الصعب، سوى الجلوس قرب الشجرة المقدسة، أو التجوال بين الشجيرات، والانطلاق بخيالها الخصب إلى عالم تحبه، وتصنعه كيفما تشاء.

كانت حياة ماغي مليئة بالمشاكل، مما دفعها لاستخدام خيالها والهروب من واقعها كما لو أنها مدمنة على أحلام اليقظة[1].

بينما نسي توم كل أمر ماغي، ولم يدرك أثر الجرح الذي تركه في قلبها، وإنما استعجل الذهاب مع بوب، الذي قابله مصادفةً، هو يحاول الإمساك بأحد الجرذان في مخزن مجاور عرف بوب كل ما يتعلق بهذه القضية الخاصة، وتحدث بحماس عن الرياضة في الواقع لم يكن توم شخصاً شرير المظهر لهذه الدرجة، كان مقبولاً إلى حد ما، أنفه أفطس، وشعره أحمر اللون ذو تجاعيد متقاربة من بعضها بعضاً. وبنطا له مطوي دائماً عند الركبتين، ويتهادى في مشيته كالبطة، وفضيلته التي آمن بها إن كان عنده فضيلة، هي "في ارتداء الملابس الرثة "[2]، التي ترتكز على مبدأ الفلاسفة ذوي الطباع الحادة، الذين يعتقدون بأن جميع أولئك المتأنقين هم أشخاص غير معروفين لدى الآخرين (لأنهم نادراً ما يظهرون أمام الفلاسفة).

قال بوب بصوت أجش ومخيف، وهو يحدق في النهر بعينيه الزرقاوين، كحيوان برمائي، تنبَّأ بحدوث خطر ما: "أعرف غلاماً ماهراً في اصطياد الجرذان، لديه حيوان يساعده في ذلك، إنه يعيش في باحة كينل في شارع أوغز. يستطيع اصطياد أكبر الجرذان وأياً كانت: سأصبح مثله، وأحصل على تلك الحيوانات الكلاب لاتنفع في شيء. لماذا حضر هذا الكلب إلى هنا؟"، تابع بوب

---

[1] أحلام اليقظة هي : " أن لا يكون هنالك شخص اسمه بوب جاكين ، و أن لا يذهب توم أبداً للمدرسة ، و أن لا يحب رفقة أي شخص إلا ماغي ؛ يخرجان معاً كل يوم ويأكلان الكعك المصنوع بالزبدة أو فطائر التفاح الحلوة . لا يغضب منها توم إن ارتكبت الأخطاء و أن يرغب بسرد القصص على مسامعها . أن تختفي الثيران من الوجود و أن تقيد الكلاب الشرسة . أن لا تطلب منها والدتها لف شعرها أو ارتداء ملابس مريشة ومزينة بأهداب متدلية .أن لاتكون لديها خالات سوى خال واحد عازب مثل خال ماري تايلور ، الذي كان دائماً يشتري لها كتبها ، بحيث يتسنى لها معرفة أشياء جديدة و التخلص من عناء تخيل الأشياء . وفوق كل هذا أن يحبها توم ، ويتعلق بها ولا يغضبها أبداً ويقدر كبقية الأشخاص ذكائها الخارق" .

[2] هذه العبارة مأخوذة من ترجمة جون درا يدن للمجلد الثالث من كتاب الأوديسا لهوميروس.

مشيراً بازدراء نحو الكلب ياب، "لافائدة منه في اصطياد الجرذان، رأيت هذا أمام عيني".

أحس الكلب بلهجته الساخطة، فرفع ذنبه، وانكمش على نفسه وهو يقترب من ساق توم، الذي شعر قليلاً بالإهانة، لكنه لم يمتلك الشجاعة الكافية لمشاجرة بوب من أجل كلب بائس.

أجاب توم: "لا، لا، ياب ليست لديه مهارات في الركض. سأحصل على كلاب متمرنة بشكل منظم على اصطياد الجرذان وكل شيء تصادفه، عندما أذهب إلى المدرسة".

قال بوب متحمساً: "اشترِ هذه الحيوانات، إنها ماهرة في اصطياد الجرذان، لها فراء أبيض اللون وعينان ورديتان، بمقدورها اصطياد الجرذان، كما يمكنك وضعها مع الجرذان في قفص واحد ومراقبتها وهي تتعارك من الممتع جداً مشاهدتها وهي في حالة غاضبة".

قال توم بلهجة حازمة: "لكني قلت لك يا بوب بأن هذه الحيوانات مشاكسة ومؤذية – سوف تعض كل من يقترب منها دون أن يفعل لها أي شيء".

"أوه، لماذا! وهذا هو السر في جمالها. إن اقترب منها ولد ستلقنه درساً لن ينساه".

في هذه اللحظة وقع حادث مفاجئ جعل الولدين يتوقفان فجأة عن المشي قفز جسم صغير من بين أشجار البردي المجاورة، وغطس في الماء: تحمس بوب للإمساك بذلك الجسم الصغير مهما كانت النتائج سيئة.

قال توم مصفقاً له: "هو يه! ياب - هو يه! إنه هنا، هيا أمسك به، أمسك به!".

حرك ياب أذنيه، وتجعد جبينه، لكنه امتنع عن الغطس، محاولاً أن يعوض عن ذلك بالنباح.

رفسه توم بعد أن أحس بالعار لامتلاكه حيواناً ضعيفاً وجباناً وقال: "ياه! يالك من جبان!

لم يدل بوب بأية ملاحظة، لكنه مشى على طول حافة النهر الأخرى ليحاول العثور على شيء ما

قال بوب وهو يضرب الماء بقدميه: "لايوجد شيء. لايمكنني العثور على أي شيء في هذه المياه العميقة، لماذا، لقد كانت المروج في العام الماضي واضحة للعيان أكثر".

قال توم الذي وافق صاحبه على الاعتراض على عمق المياه: "أي، ولكن حدث فيضان هائل، شكل البركة المستديرة والدي أخبرني بهذا. لقد غرقت جميع الأبقار والأغنام في ذلك الفيضان، وانجرفت القوارب كلها نحو الحقول بطريقة مريعة "

"لاآبه للفيضان الذي حدث ولا أكترث للماء ولا للأراضي سأسبح - أجل سأسبح".

قال توم مستخدماً خياله الذي نشط أكثر في ظل دوافع ذلك الهلع من الفيضان:

"آه، لكن ماذا لو لم نجد أي شيء صالح للأكل فترة طويلة من الزمن؟ عندما أصبح رجلاً، سوف أصنع سفينة وأبني عليها بيتاً خشبياً، مثل سفينة نوح، وأدخر فيها كمية كافية من الطعام - أرانب وأشياء أخرى - سيكون كل شيء على أكمل وجه". أضاف توم بلهجة المحسن "وعندما يحدث الفيضان كما تعلم يا بوب، لن أكترث له أبداً وسوف أنقذك من الغرق".

قال بوب الذي لم تبدُ عليه علائم الخوف من الجوع أو أي شيء آخر:

"لست خائفاً. وسأضرب أرانبك على أم رأسها عندما تريد أكلها".

قال توم محاولاً إضفاء جو من الدعابة والمتعة :

"آه، لدي نصف بنس، هيا لنلعب طره أو نقش سأكون عادلاً، وأبدأ بالدور من عندك، وسترى من الرابح".

أجاب بوب متفاخراً، وهو يخرج من الماء، ويقذف بقطعة النقود عالياً في الهواء :

"لدي نصف بنس، طرّه أم نقش؟".

أجاب توم على الفور وقد ملأته رغبة عارمة في الفوز: "نقش".

قال بوب بسرعة، وهو يختطف قطعة النقود بعد أن سقطت على الأرض: "إنها طره".

قال توم واثقاً بصوت مرتفع: "لكنها لم تكن طره لو تعطيني قطعة النقود - وسأعلمك كيف يكون اللعب عادلاً".

أجاب بوب ممسكاً بإحكام بقطعة النقود وهي في جيبه: "لن أعطيك إياها".

"إذاً سأريك كيف ستفعل رغماً عنك".

"لن تجبرني على فعل أي شيء، لن تستطيع".

"بلى، أستطيع".

"لا، لاتستطيع".

"أنا السيد".

"لاآبه بك أبداً".

قال توم وهو يمسك بوب من ياقته، ويهزَّه: "لكنني سأرغمك على الاعتراف بي كسيد، أنت غشاش".

أجاب بوب وهو يرفس توم: "ابتعد من هنا".

في هذه اللحظة ثار توم غضباً: فهجم على بوب، وطرحه أرضاً، لكن بوب أمسكه، وألقاه مثل قطة، وجره خلفه تعاركا بقوة على الأرض برهة من الزمن، حتى تشبث توم بإحكام بكتفي بوب معتقداً أنه تمكن منه أخيراً.

قال توم بصعوبة محاولاً السيطرة على ذراعي بوب من الخلف:

"والآن سوف تعطيني قطعة النقود".

في هذه اللحظة، عاد ياب، الذي كان يركض قبل بدء الشجار، للنباح إثر المشهد الذي لفت انتباهه وحثه للعودة، فوجد الفرصة مواتية لعض ساق بوب العارية، وعرض مهاراته بكل فخر. لكن الألم الذي أحس به بوب جعله يتماسك أكثر من السابق، ويستعيد كامل قوته، فدفع توم للوراء ونهض على قدميه، إلا أن ياب عاود الانقضاض عليه، فارتبك بوب، وأمسك على الفور بعنق ياب، وقذفه في النهر. في هذه الأثناء نهض توم ثانية، وقبل أن يستعيد بوب توازنه بعد أن رمى بياب في النهر، انقض عليه توم وطرحه أرضاً، وثبت ركبتيه على صدر بوب.

قال توم: "والآن أعطني قطعة النقود".

قال بوب وهو مقطب الجبين: "خذها".

"لا، لن آخذها، أنت من ستعطيني إياها".

أخرج بوب قطعة النقود من جيبه، ورماها بعيداً على الأرض.

سمح توم لبوب بالنهوض وقال: "قطعة النقود هناك "، ثم أضاف: "لاأريد نقودك، لن أحتفظ بها. لكنك أردت أن تخدعني ؛ وأنا لاأحب الخداع. لن أرافقك بعد الآن".

استدار توم عائداً للمنزل، دون أن يأسف على صحبة بوب.

صرخ بوب من خلفه: "إذاً لم تأخذها، لو لم أغشك لما كان اللعب ممتعاً".

اسمع، أعرف أين أجد أعشاش الطيور، أنت لاتعلم أي شيء عنها، إنك مجرد ولد مشاكس، أنت .

مشى توم دون أن يعير اهتماماً لكلام بوب، وتبعه ياب الذي جعله الحمَّام البارد يعتدل في مشاعره

صرخ بوب بصوت أعلى مما سبق: "إذاً فلتمضِ بعيداً، أنت وكلبك المبلل، لن

أحوي كلباً ضعيفاً مثله- لن أحويه أبداً. لكن توم لم يستدر للوراء ولم يعره انتباهه، وكلما ابتعد توم دوى صوت بوب الذي كان لايزال يصرخ :

"لن أعطيك أي شيء بعد الآن، ولن أريك أي شيء، ولن أطلب منك أي شيء- إذاً هذه هي سكينتك اللعينة"- قذف بوب بالسكين بعيداً قدر ما استطاع.

هذا لم يكن له أي تأثير على توم، سوى أنه خفف قليلاً من الحنق الذي أحس به بوب.

وقف بوب جامداً في مكانه حتى اجتاز توم البوابة، وتوارى خلف السور. إن رمي السكين على الأرض هناك لايفيد في شيء - وهذا التصرف لن يغيظ توم، ومشاعر الكرامة أو الإساءة لم تكن تعني كثيراً بالنسبة لبوب مقارنة مع حبه لحمل سكين جيب، ومن المغري أكثر أنه كان في السكين شفرتان حادتان جداً! فما قيمة الحياة بالنسبة له دون حمل سكين جيب يثبت بها وجوده؟

لا = أن ترمي بسكين على شيء جامد لايفقه شيئاً فذاك ضرب من اليأس، أما أن ترمي السكين خلف صديق عنيد فهذا تصرف أحمق مبالغ به وهكذا كظم بوب غيظه، وهرع باحثاً عن السكين التي أحبها، فوجدها ملقاة في الوحل، أحسَّ بسرور عارم فالتقطها بعد تأمل قصير. يالبوب المسكين! لم يكن حساساً لمسألة الكرامة - وليس ذا شخصية نبيلة هذه المثاليات والأخلاقيات لم تكن شائعة بين أولئك الذين ترعرعوا في باحة كينيل، التي شكلت قلب عالم بوب، لهذا السبب لم يكن بوب غادراً أو سارقاً على الإطلاق كما حكم عليه صديقنا توم بشكل متسرع.

لكنك تدرك، عزيزي القارئ، أن شخصية توم مثالية إلى حد ما، فهو صارم في محاكمة الآخرين، وأعتقد أنه يحمل وحده سر العدالة - العدالة التي يرغب بتحقيقها من خلال أذية المذنبين بقدر ما يستحقون، وإنزال أقصى العقوبة بهم، دون أن تساوره أدنى الشكوك بأنه ظلمهم، ويبقى مرتاح الضمير لأنه أعطاهم ما يستحقون بالضبط.

عندما شاهدت ماغي توم، لم تتمالك نفسها من الفرحة بل تجرأت على التحدث معه بينما وقف صامتاً، وألقى حجارة من الحصى الصغيرة داخل الخزان. لم يكن من السهل على المرء أن يتخلى عن صديق حاذق في اصطياد الجرذان، صديق ارتاح له واطمأن. ولكن لو سألت توم في تلك اللحظة عن مشاعره لأجابك، "سوف أفعل ما فعلته تماماً في المرة القادمة".

كانت هذه طريقته في التفكير وفي التعامل مع الأحداث الماضية، إنه لايأسف على شيء، في حين كانت ماغي تتمنى دوماً لو أنها فعلت أفضل مما فعلته في السابق.

الفصل السابع

وصول الخالات وأزواجهن

لاريب أن عائلة دودسن كانت عائلة جميلة المظهر، ولم تكن السيدة غليك أقل جمالاً من أخواتها. وعندما جلست على كرسي ذي ذراعين في منزل السيدة توليفر، لم يكن بوسع أي مشاهد محايد إلا أن يعترف بجمال تلك المرأة التي ناهزت الأربعين من عمرها، على الرغم من أن توم وماغي اعتبرا خالتهما نموذجاً للقبح.

صحيح أنها كانت تحتقر محاسن الزي الجديد، ولا ترتدي ملابسَ جديدةً حتى تستنفد كل ما لديها من القديم في حين تسعى بقية النساء لارتداء أجمل حللهن وأحدث ما لديهن، وإذا ماتت السيدة غليك سوف تكتشف حللاً بهية المنظر في الدرج الأيمن من خزانة ملابسها، الموجودة في الغرفة المرقطة، هي حلل لامثيل لها، حتى السيدة وول التي تقطن شارع أوغز لم تبتع، مثلها في كل حياتها، على الرغم من أن السيدة وول كانت ترتدي زينتها قبل أن تسدد ثمنها.

أما بالنسبة إلى تصفيفة شعرها: بلا شك كانت لديها أنعم خصلات شعر ملفوفة بإحكام فوق جبهتها.

في الواقع عادة ما كانت السيدة غليك ترتدي أفضل ما عندها خلال الزيارة الأسبوعية، لكنها لاتلتزم بذلك أثناء زيارتها لأخواتها، ولاسيما السيدة توليفر التي لم تكترث لمشاعر إخوتها منذ زواجها، وكان زوجها، ينفق كل ماله في الذهاب إلى المحامين.

و إن اهتمت السيدة غليك بلفة شعرها اليوم أكثر من المعتاد، إلا أنها أخفت تحته مخططاً كانت تسعى لتنفيذه: كانت تنوي تغيير تسريحة شعر أختها وصبغ تلك الخصلات الشقراء اللون الملفوفة بشكل عبثي.

لقد ذرفت السيدة توليفر دموعها عدة مرات بسبب لهجة أختها غليك القاسية، وتأنيبها على هذه اللفات غير المحكمة بإتقان.

كما تَقصدت ارتداء قبعتها داخل المنزل، ولاسيما عندما تكون في مزاج سيء.

وللسبب ذاته ارتدت شالاً صغيراً مصنوعاً من فرو السمور، وصل حتى كتفيها تماماً، ولم يلامس صدرها المُسَوَّى بعناية، بينما حصن عنقها الطويل بطوق مزركش بعدة أشكال وينتاب المرء الفضول الشديد ليعرف كيف ثبت ذلك الطوق خلف عنقها.

كان ثوبها حريرياً مرقطاً ببقع صغيرة صفراء اللون، فاحت منه رائحة العفونة، بدا ذلك الثوب قديم الطراز وغير مناسب لذلك الزمن.

أمسكت السيدة غليك بساعتها الذهبية الكبيرة التي طوقت معصمها بالاضافة إلى عدة خواتم مزدوجة أحاطت بأصابعها، وقالت للسيدة توليفر العائدة لتوها من المطبخ، أنه مهما كان التوقيت في ساعات الآخرين، فساعتها أشارت دوماً للساعة الثانية عشرة والنصف وأضافت :

"أتساءل ما الذي أخر الأخت بوليت عن المجيء في الموعد المحدد. ليس من تقاليد عائلتنا الحضور فرادى - ومن غير اللائق أن تنتظر إحدى الأخوات وحدها مدة نصف ساعة قبل مجيء الآخرين. ولكن إن حدث أي تغيير في عادات العائلة - فهذا ليس خطئي - أتساءل عن سبب تأخر الأخت دين - فهذا ليس من عادتها، إنها تشبهني في تقيدها بالمواعيد. ولكن لو تصغين لنصيحتي يا أختي، وتفرشين المائدة باكراً، عندئذ سيلتزم الآخرون بالموعد".

أجابت السيدة توليفر بلهجتها المشاكسة اللطيفة :

"أوه عزيزتي، لاتقلقي سيحضر الجميع في الوقت المحدد، فالغداء لن يكون جاهزاً حتى الساعة الواحدة والنصف ولكن إن مللت الانتظار، سأحضر لك قطعة كعك بالجبن مع كأس من النبيذ".

قالت السيدة غليك بابتسامة مريرة، وبالكاد حركت رأسها :

"حسنٌ، حبيبتي، أنت تعرفين عادات أختك جيداً، فأنا لاأحبذ تناوَل أيَ شيء بين الوجبات إلا أن ما يزعجني هو تأجيلك لفرش المائدة حتى الواحدة والنصف في حين كل شيء يكون جاهزاً عند الواحدة. لم تتربي على هذه العادة أبداً يا حبيبتي".

"لماذا جين، ماذا بوسعي أن أفعل؟ فالسيد توليفر لايفضل تناول غدائه قبل الساعة الثانية، لكنني سأعده قبل نصف ساعة لأجل خاطرك".

"أجل، أجل، أعلم كيف يبدو الأمر عندما يتعلق براحة الأزواج، إنهم يغيرون كل العادات فقط لأجل راحتهم.

لكنني أشعر بالشفقة لأجلك يا حبيبتي، فأنت لاتملكين قوة الشخصية الكافية لفرض رغباتك ما كنت شعرت بالأسف لو كانت هذه هي رغبة الأولاد أيضاً. وآمل أن لاتكونوا قد أنفقتم الكثير من المال لإعداد هذه المائدة لأجلنا. أستغرب لماذا لاتأخذين من الأخت دين قدوة لك - إنها في غاية الحساسية وأنت لديك ولدان يحتاجان للمصاريف، بينما ينفق زوجك ثروتك على المحامين، ومن المحتمل أن ينفق أمواله أيضاً. بإمكانك إعداد طبق حساء متواضع".

أضافت السيدة غليك باحتجاج :

"أما هذه المصاريف الإضافية لإعداد الحلوى المكلفة فلا داعي لها، اصنعي نوعاً بسيطاً من الحلوى مع قليل من السكر".

بهذا المزاج العكر للسيدة غليك، كانت هنالك مشاهد تنذر بالبهجة، في ذلك اليوم فالسيدة توليفر لم تدخل في شجارات مع أختها، كانت مسالمة للغاية، مثل طير الماء الذي يهرب من صبي مشاكس يقذفه بالحجارة، ولكي تحافظ السيدة توليفر على هدوء ذلك اليوم قالت كعادتها :

"يقول السيد توليفر بأنه سيقدم أفضل ما لديه لأصدقائه طالما أن الله رزقه وبمقدوره تحمل المصاريف وله الحق في فعل ما يريده في منزله يا أختاه".

"حسنٌ يا حبيبتي، بالنسبة لي أتمنى أن أقدم ما أدخره من أملاك لأولادك، حتى لاتذهب للغرباء. لاتأملي الحصول على أموال السيد غليك، إلا في حال موته قبلي - ولكن إن مت أنا أولاً - وهذا الأرجح - لأنه ينحدر من عائلة تعمر طويلاً، عندئذ ستعود ثروته بالكامل لأقربائه".

كان صوت عجلات العربة القادمة مدعاة سرور بالنسبة للسيدة توليفر، لأنه قاطع حديث السيدة غليك لذلك انطلقت مسرعة لاستقبال الأخت بوليت - لابد أنها الأخت بوليت، لأن الصوت الذي سمعته كان صوت عربة بأربع عجلات.

بينما امتعضت السيدة غليك، وهزت برأسها لدى سماعها صوت العربة ذات العجلات الأربع.

كانت الأخت بوليت تذرف الدموع عندما وقفت العربة أمام منزل السيدة توليفر، وبدا واضحاً أنها ستذرف المزيد قبل الخروج من العربة، على الرغم من استعداد زوجها والسيدة توليفر لتهدئتها ومواساتها، وهي لاتزال جالسة تهز برأسها بحزن، وتنظرُ بعيداً شاردة الذهن بعينين مغرورقتين بالدموع.

قالت السيدة توليفر :

"لماذا تبكين يا أختاه، لاشيء يستحق البكاء".

لم تكن السيدة توليفر امرأة ذات خيال خصب، بل اعتقدت أن زجاج التواليت الضخم في غرفة النوم المفضلة لدى أختها بوليت، قد كسر للمرة الثانية

لم تكن هنالك أية إجابة عند السيدة بوليت التي كانت لاتزال تهز برأسها، وهي تنهض ببطء وتنزل من العربة، دون أن تنظر إلى السيد بوليت لترى فيما إذا كان يحرس فستانها الحريري الجميل، ويحميه من أي أذى.

السيد بوليت رجل صغير القد، له أنف مرتفع، وعينان صغيرتان براقتان،

وشفتاه رفيعتان ارتدى بزة رسمية سوداء اللون وياقة بيضاء اللون طوقت عنقه بإحكام لتتناسب مع الدعوة دون الاهتمام لراحة من يلبسها.

رافق زوجته ذات القامة الطويلة والملامح الجميلة، التي ارتدت فستاناً بأكمام منتفخة كالبالون، وقبعة كبيرة مريشة ومزخرفة بأشرطة غزيرة تدلت على وجهها.

ياله من منظر مثير للأشجان!! ذلك النموذج المعقد اللافت للانتباه، الذي قدم لنا مظهراً من مظاهر الحزن الحضاري المترف، واقتحم عواطفنا دون خجل - مشهد امرأة ارتدت أبهى ما لديها وهي في حالة أسى عميق لاتعني أحزان شعب الهوتنتون[1] شيئاً بالنسبة لمعاناة هذه المرأة ذات الأكمام المنتفخة، والأساور الكثيرة التي طوقت كلا معصميها، وتلك القبعة المهندسة بإتقان ذات الأشرطة المزخرفة المتدلية على وجهها- يا لهذا التطور التدريجي الطويل للأحزان!

في المجتمع الحضاري المتنور يعتاد المرء منذ نعومة أظافره على ضبط حزنه بطريقة أكثر تهذيباً. وهكذا كان على السيدة بوليت أن تخطو خطوات مترنحة، وقلبها محطم وعيناها لاتشاهدان بوضوح بسبب الغمامة الدمعية التي غطتهما.

قذفت أشرطة القبعة للوراء بطريقة حزينة - حتى في أعمق لحظات الأسى أدركت بأن تلك الأشرطة ستعطيها سحراً أكثر.

و بينما أسعفتها دموعها قليلاً في التعبير عن المشهد الحزين، اتكأت برأسها للوراء بحيث لاتغير من وضعية القبعة فوق رأسها، لقد تحملت تلك اللحظة الرهيبة في وقت، حتى الحزن نفسه لم يعد يطيق ذلك الجهد المبالغ به - كانت مستغرقة التفكير في أساورها وتُسوِّي مشابكها بحيث تتناسب مع تلك اللحظة المدروسة.

ذرفت السيدة بوليت مجدداً دموعاً سخية على وجنتيها الناتئتين، وتقدَّمت باتجاه الردهة حيث جلست السيدة غليك قالت السيدة غليك بلهجة حادة نوعاً ما، وهما تتصافحان :

"تأخرت يا أختاه! ما الأمر؟".

جلست السيدة بوليت - ثم رفعت نقابها خلفها بحرص قبل أن تجيب :

"لقد ماتت "، قالتها بطريقة مؤثرة.

---

[1] الهوتنتون : شعب جنوب إفريقيا ذو بشرة داكنة ضاربة للسواد.

فكرت السيدة توليفر في نفسها: "إذاً لم تكن المرأة هذه المرة".

تابعت السيدة بوليت: "ماتت أول البارحة، كانت بصحة جيدة مثلي تماماً".

قالت السيدة غليك بلغة واضحة متسائلة: "حسنٌ يا صوفي، نحن نأسف لأنها ماتت بغض النظر عمن تكون، ومن ناحيتي لاأعرف عمن تتكلمين".

قالت السيدة بوليت، وهي تتنهد، وتهز برأسها: "أعرف إنها السيدة العجوز سوتن".

قالت السيدة غليك التي كانت دائماً ترفع صوتها عندما يتعلق الأمر بأحد أقاربها: "حسنٌ، وهي لاتمت لك بصلة ولم أسمع عنها من قبل أبداً".

"أعرفها جيداً. إنها سيدة نشيطة تدير أموالها بنفسها، وتزيد ثروتها دائماً بعملها الدؤوب، وكانت تحتفظ بمفاتيحها تحت وسادتها بشكل دائم إنها سيدة عظيمة، أشك أن لها مثيلاً".

تنهدت السيدة بوليت: "آه، لقد عانت كثيراً قبل وفاتها، وحاول الأطباء جاهدين لشفائها دون جدوى عندما ذهبت لزيارتها في عيد الميلاد الماضي، قالت لي، "سيدة بوليت، إن تعرضت لانخفاض شديد في درجة الحرارة فتذكريني هذا ما قالته".

أضافت السيدة بوليت، بعد أن عاودت البكاء بمرارة ثانية :

"كانت وصيتها الأخيرة أن أحضر الجنازة لقد دفنت يوم السبت".

قالت السيدة غليك، ولم يعد بمقدورها أن تتحمل مسايرة أختها :

"صوفي، صوفي، إنني مستغربة جداً أن تزعجي نفسك من أجل أناس لايمتون لك بأية صلة لم تكن هذه من عادات والدك المسكين، ولا حتى عمتك فرانس، ولم أسمع عن أي أحد من عائلتنا أنه اتبع عادة كهذه ليس بوسعك أن تضطربي أكثر من ذلك، فيما لو سمعنا خبر موت ابن عمنا أبوت، فهذا أمر خارج عن إرادته".

صمتت السيدة بوليت، وأحست أنه من المفترض أن تكفَّ عن التزلف، وعن هذا البكاء المستمر - لم يكن بمقدور أي شخص أن يبكي الأموات من جيرانه إن لم يورثوه أي شيء، والسيدة بوليت تزوجت من مزارع من الطبقة الغنية، وكان بوسعه أن يأخذ بكاءها وأي شيء آخر على محمل من الجد والاحترام

قال السيد بوليت، وهو يخشى قليلاً ألا يكون السبب في إثارة دموع زوجته ثانية :

"على الرغم من أن السيدة سوتن ماتت بعد أن قامت بكل المساوئ بملء إرادتها. كانت غنية جداً، وحسبما قالوا، ليس لديها ورثة شرعيون - لذلك ذهبت كل ورثتها لأقارب زوجها".

قالت السيدة غليك:

"إذاً لم يكن هنالك فائدة ترجى من كل غناها، إن كانت كل أملاكها ستصبح بحوزة ابن زوجها. هذا عمل بائس للغاية، أن يضيع تعب المرء وعناؤه طوال كل تلك السنين من المؤسف حقاً أن تذهب الثروة هباءً منثوراً".

قالت السيدة بوليت التي استردت وَعْيَها من جديد، وخلعت وشاحها، وطوته بحرص :

"إنني واثقة من أن الأموال التي ورثها ابن زوجها، يستحقها بالفعل، لأنه مصاب بداء الربو، ويأوي للفراش يومياً عند الساعة الثامنة لقد أخبرني بمرضه ذاك في أحد أيام الأحد عندما جاء إلى كنيستناكان يرتدي جاكيت مصنوعة من جلد الأرنب، ويرتعش أثناء حديثه معي أخبرته بأنني أتعالج أيضاً عند الطبيب قال لي، "سيدة بوليت إنني أحس بمشاعرك جيداً، هذا ما قاله بالضبط آه!".

تنهدت السيدة بوليت، وهزت برأسها وهي تفكر بأنهم قلة هؤلاء الذين يحسون بمشاعرها.

"أختاه، أريد أن أخلع قبعتي الآن وأضافت، وهي تستدير نحو زوجها :

"هل أحضرت صندوق القبعة؟".

لكن السيد بوليت ودون إدراك، كان قد نسي إحضار الصندوق.

"سيحضرونه إلى الطابق العلوي يا أختاه"، قالت السيدة توليفر، التي رغبت بالانصراف فوراً، لكي لاتعطي مجالاً للسيدة غليك بالتعبير عن استيائها تجاه صوفي، لأنها كانت أول سيدة في عائلة دودسن خربت تركيبة جسدها بعمليات التجميل.

السيدة توليفر مولعة بالصعود مع أختها بوليت إلى الطابق العلوي، وتأمل قبعتها بإمعان قبل أن تضعها على رأسها، ومناقشة موضوع القبعات بشكل عام وكان هذا جزءاً من ضعف السيدة توليفر، مما أثار حفيظة أختها السيدة غليك؛ اهتمت السيدة توليفر بهندامها كثيراً، وكانت فخورة بأن تلبس ابنتها من الثياب قديمة الطراز التي أعطتها إياها أختها غليك حسب اعتقادها من الإثم والعار أن تشتري أي شيء للصغيرة باستثناء زوج الأحذية. على كل حال، لابد من الحديث بهذا الخصوص عن الإساءة التي تعرضت لها السيدة توليفر من أختها غليك، لأن تلك الأولى كانت تبذل قصارى جهدها لإقناع ماغي بارتداء القبعة، والثوب الحريري المرقط اللذين صنعتهما لها الخالة غليك، لكن بالنتيجة ترفض ماغي ارتداء أي شيء، وتقرف من رائحة الثوب وتهدد بأنها ستفركه مع لحم العجل المشوي، وتنفخ القبعة، وتربط أشرطتها الخضراء

اللـون مـع بعـضها بعـضاً، فتبـدو مثـل قطعـة جبنـة ناعمـة مزينـة بـأوراق الخـس لابـدّ أنني أوافـق مـاغي علـى تـصرفها ذاك، حتـى تـوم كـان يهـزأ مـن تلـك القبعـة، ويقـول لمـاغي بأنهـا تبـدو مثـل جـودي العجـوز. الخالـة بوليـت أيـضاً أحـضرت ملابـس لها، لكنها ملابس جميلة وأنيقة كانت تسعد ماغي وأمها أيضاً.

الـسيدة بوليـت هـي الأخـت المفـضلة لـدى الـسيدة تـوليفر، لأنهـا كانـت تتعـاطف مـع أختـها، وتأسـف لحالهـا بـشأن أولئـك الأولاد المشاكسين، وتعمـل الأفـضل دائمـاً لمساعدتهما. مـاغي وتـوم، مـن جهتـهما، اعتقـدا بـأن الأخـت بوليـت امـرأة متـسامحة، لسبب رئيسي ومهم وهو ببساطة لأنها ليست الخالة غليك.

كـان تـوم يميـل دائمـاً لزيـارة خالتـه بوليـت أثنـاء العطـل، إذ تتـسنى لـه الفرصـة لرشـق الـضفادع بالحجـارة. بينمـا كانـت مـاغي تـرتعش لـدى رؤيتـها الـضفادع، وتـصاب بالـذعر لمجـرد الـتفكير فيهـا، لكنـها أحبـت صـندوق الموسـيقى في منـزل العـم بوليت.

في غيـاب الـسيدة تـوليفر، كـان مـن المتفـق عليـه بـين أخواتهـا أن دمـاء عائلـة تـوليفر لاتمتـزج كـثيراً مـع دمـاء عائلـة دودسـن، في الواقـع كـان أولاد الـسيدة المسكينة تـوليفريي الأصـل، علـى الـرغم مـن الـشبه الكـبير بـين تـوم وعائلـة دودسـن، لكنه نسخة عن أبيه في المزاج والطباع.

أمـا مـاغي فهـي صـورة مُـصّغَّرة عـن عمتـها مـوس، أخـت الـسيد تـوليفر - وهـي امـرأة ضـخمة قويـة البنيـة، تزوجـت مـن رجـل بـائس الحـال لايعـرف كيـف يـسدد أجرة منزله.

وعنـدما كانـت الـسيدة بوليـت وحـدها بـصحبة أختـها الـسيدة تـوليفر في الطـابق العلـوي تطرقـا للحـديث عـن مـساوئ الـسيدة غليـك. إلا أن حـضور الـسيدة ديـن مـع ابنتـها الـصغيرة لوسـي، قطعـا عليهمـا حـديثهما، فتأملـت الـسيدة تـوليفر بصمت، وحرقة، شعر لوسي الصغيرة الأشقر الملفوف بعناية.

الـسيدة ديـن ن أكثـر سـيدات دودسـن طـولاً وشـحوباً. وكانـت مـاغي كالعـادة تبـدو سمراء مقارنة بلوسي الشقراء.

في ذلـك اليـوم عنـدما دخلـت مـاغي وتـوم إلى الحديقـة، ومعهمـا والـدهما والعـم غليـك، رمـت مـاغي قبعتـها بإهمـال شـديد، وهـي تـدخل الردهـة، وشـعرها أشـعث وغـير ملفـوف بـشكل حـسن، انـدفعت في الحـال نحـو لوسـي، الـتي كانـت واقفـة بجانـب ركبـة أمهـا. بالتأكيـد الفـرق واضـح للغايـة بـين الفتـاتين ومـن لديـه نظـرة سـطحية لم يكـن لـيرى في مـاغي إلا الـسلبيات، أمـا إن نظـر إليهـا خـبير ذواق في مجـال الفـن ولديـه نظـرة معمقـة للأمـور، أدرك حينـها بـأن هيئـة مـاغي توعـد بشباب ونضج لامثيل لهما، ويتفوقان على تلك الأناقة والكمال لدى لوسي.

كان الفرق بينهما مثل الفرق بين جرو داكن اللون - خشن الملمس، وقطة ناعمة بيضاء اللون.

بدت لوسي بمنتهى الأناقة، وقد وضعت أحمر شفاه وردي اللون: ولف عنقها الصغير المستدير، طوقاً من المرجان، أنفها مستدير صغير، حاجباها صغيران واضحا المعالم، لونهما أغمق من لون شعرها، ليناسبا لون عينيها البندقيتين، اللتين كانتا تشعان خجلاً لدى دخول ماغي، ذات القامة الأطول على الرغم من أن الفرق بينهما لايتجاوز السنة.

طالما ابتهجت ماغي برؤية لوسي، كانت ماغي تحلم دائماً بعالم يخلو من الكبار، وليس فيه إلا أطفال من عمرها وعمر لوسي وتوم كما نصبت لوسي ملكة هذا العالم الخيالي، وقد ارتدت تاجاً يناسب رأسها الصغير، وحملت بيدها صولجاناً صغيراً. لم تتخيل ماغي ملكة عالمها إلا صورة طبق الأصل عن لوسي.

هتفت ماغي مقبلة لوسي بحرارة: "آوه لوسي، ستمكثين معنا أنا وتوم، أليس كذلك؟ آوه هيا قبلها يا توم".

اقترب توم أيضاً من لوسي، ولم يقبلها -أبداً، لقد رافق أخته ليتحاشى استقبال ذلك العدد من الخالات وأزواجهن. فهذا أرحم بالنسبة له من أن يقول، وكل ذلك الحشد: "كيف حالكم؟".

وقف توم متورداً لايركز بصره على شيء محدد. وابتسامة خفيفة طفت على وجهه الخجول إنه ينتمي إلى أولئك الصبية الخجولين من هندامهم، وكأنهم جاؤوا إلى هذا العالم بطريق الخطأ.

قالت الخالة غليك بصوت مرتفع: "ياللجرأة! هل يدخل الصغار دون أن يكترثوا لوجود خالاتهم وأعمامهم؟ لم أتصرف هكذا عندما كنت فتاة صغيرة".

قالت السيدة توليفر، وقد بدت عليها الكآبة والقلق: "هيا، تقدم، وسلِّم على خالاتك وأزواجهن". كم تمنت في تلك اللحظة لو تتمكن من أن تهمس لماغي كي تسرح شعرها بعناية.

"حسنٌ، كيف حالكما؟ آمل أن تكونا ولدين طيبين، ألستما كذلك؟ "رحبت السيدة غليك بهما بصوت واثق مرتفع، وهي تصافحهما، وتضايقهما بخواتمها الكبيرة، وتنهال عليهما بقبلات كثيرة رغماً عن إرادتهما.

"اِرْفَعْ رأسَكَ يا توم، هيا اِرْفَع رأسك، فالأولاد الذين يلتحقون بمدارس خارجية عليهم أن يرفعوا رؤوسهم دوماً. وأنت يا ماغي، ضعي شعرك خلف أذنيك، وسوِي ثوبك جيداً".

تحدثت إليهم الخالة غليك دائماً بلهجة واثقة وبصوت مرتفع، وكأنها ظنت

أن الأولاد صم أو بلهاء: كانت تلك طريقتها لجلهم، يحسون بأنهم مخلوقات مسؤولة.

ولدا السيدة توليفر مدللين للغاية - وهما بحاجة لشخص ما يشعرهما بالمسؤولية، ويحثهما على أداء واجباتهما، هكذا فكرت السيدة غليك.

قالت الخالة بوليت بلهجة حنونة: "حسنٌ يا أحبائي، أنتما تكبران بسرعة ويزداد عودكما صلابة". أضافت، وهي تراقب رؤوسهما، وتنظر إلى السيدة توليفر بحزن: "أعتقد أن شعر الصغيرة طويل جداً. لو كنت مكانك يا أختاه، لقصصته، فهذا أفضل لصحتها. طول الشعر إذاً هو من جعل بشرتها قاتمة ألا تعتقدين ذلك يا دين؟".

"لست واثقة تماماً يا أختاه"، قالت السيدة دين، ثم أغلقت شفتيها ثانية، وهي تراقب ماغي بعين ناقدة.

قال السيد توليفر: "لا، لا، الفتاة بصحة جيدة، وليس هنالك ما يوثر على صحتها. يوجد قمح أحمر كما يوجد قمح أبيض، وأحياناً يكون القمح الداكن هو الأفضل ولكن إن قصت شعرها، فهذا لكي يصبح أكثر نعومة".

ترسخت فكرة معينة في عقل ماغي، لكنها في تلك اللحظة كانت أسيرة فضولها لمعرفة فيما إذا كانت الخالة دين ستترك لوسي تلعب معها "ولكن الخالة دين لن تسمح للوسي بالبقاء لأنها سألتها :"لن تمكثي هنا دون أمك، أليس كذلك يا لوسي؟".

أجابت لوسي بخجل، وقد تورد خداها وعنقها الصغير :

"أجل ماما، أريد البقاء من فضلك".

قال السيد دين: "حسنٌ يا لوسي! دعيها تبقى سيدة دين، دعيها تبقى".

السيد دين رجل ضخم البنية متيقظ جداً لما حوله، تشاهد في بنية جسده جميع طبقات المجتمع الإنكليزي - ملك شجاع، رجل ذو شوارب حمراء، جبهة مملوءة، صلابة وحزم دون قسوة. يمكنك مشاهدة نبلاء مثل السيد دين، كما بمقدورك مشاهدة بقالين أو عمال مياومين مثله أيضاً، لكنك نادراً ما تشاهد ذلك البريق الحنون الذي يشع من عينيه البنيتين، في عيني شخص آخر.

أشارت السيدة توليفر لابنتها، وهمست في أذنها :

"ماغي، اذهبي، وسَرِّحِي شعرَك - هيا افعلي ما أطلبه منك - يا للعار! قلت لك، لاتدخلي إلى هنا قبل أن تذهبي أولاً لعند مارثا، تعلمين أنني أخبرتك بهذا".

همست ماغي، وهي تسحب توم من كمه: "سيأتي معي توم "، لَحَّقَ بها توم عن طيب خاطر.

عندما خرجا همست ماغي لتوم: "تعال معي يا توم إلى الطابق العلوي أريدك في أمر قبل الغداء".

قال توم بصبر نافد: "ليس لدينا وقت لفعل أي شيء قبل موعد الغداء".

"آوه، أجل، هنالك متسع من الوقت - هيا يا توم".

تبع توم ماغي إلى غرفة والدتهما في الطابق العلوي، وراقبها، وهي تسحب على الفور درجاً، وتخرج منه مقصاً كبيراً.

قال توم بعد أن ثار فضوله: "لِمَ هذا المقص يا ماغي؟".

أجابته ماغي بأن أمسكت بخصلات شعرها الأمامية، وقصتها من منتصفها.

صرخ توم: "أوه، ماغي، ماذا فعلت!".

تابع المقص عمله بينما لايزال توم يتكلم، ولكن لم يستطع فعل أي شيء. ستبدو ماغي غريبة الشكل بعد أن قص شعرها.

قالت ماغي، وقد أحسَّتْ بمتعة كبيرة لجرأتها، لكنها كانت قلقة لتنهي عملها بنجاح: "والآن يا توم، قص الخصلات الخلفية".

قال توم، وهو يهز رأسه بطريقة معاتبة، ومتردداً في حمل المقص: "لكنك ستمسكين بالخصلات".

"لاتهتم - هيا افعل بسرعة! "، قالت ماغي وهي تدق الأرض بإحدى قدميها. لقد تورد خداها تماماً.

تساقطت خصلات الشعر السوداء اللون بكثافة على الأرض - ليس هنالك أي شيء أكثر جاذبية بالنسبة لغلام، من جز شعر مهرة صغيرة والاستمتاع بعمل ممنوع وقفت ماغي، وقد انتابها إحساسٌ بالحرية والصفاء، كما لو أنها خرجت من غابة كثيفة إلى أرضٍ منبسطة واضحة المعالم

قال توم وهو يقفز حولها، ويخبطُ الأرضَ برجله ضاحكاً: "أوه، ماغي، كم تبدين غريبة الشكل! انظري إلى نفسك في المرآة - تبدين مثل فتاة بلهاء نقذفها بقشور البندق في المدرسة".

أحست ماغي بألم لم يخطر ببالها. فكرت بشكل رئيسي في التخلص من مضايقة شعرها لها، ومن الملاحظات الكثيرة التي تسمعها من أمها، وأيضاً فكرت بتحقيق نوع من الانتصار على أمها وخالاتها بهذا التصرف الجريء غير المتوقع. لم تكن تبغي أن يبدو شعرها جميلاً - فهذه مسألة خارج نطاق تفكيرها - ما أرادته فقط هو أن ينتبهوا لفتاة صغيرة ذات ذكاء متوقد، وألا يعاملوها كما لو أنها فرد ناقص وبعد أن سخر منها توم قال أنها تبدو مثل

البلهاء، فقد أخذت القضية اتجاهاً آخر. نظرت إلى نفسها في المرآة، بينما لايزال توم يضحك ويفرك بيديه.

بدأ خدا ماغي المتوردان يميلان للشحوب أكثر فأكثر، وارتعشت شفتاها قليلاً.

قال توم: "أوه ماغي، عليك أن تنزلي مباشرة فقد حان وقت الغداء، أوه يا إلهي!".

دفعته ماغي وانهمرت من عينيها دموع الغضب، وقالت بلهجة عاطفية:

"لاتسخر مني يا توم".

يا لك من فتاة سريعة الغضب! لماذا قصصت شعرك إذاً؟ سأنزل، إنني أشم رائحة الطعام".

أسرع للأسفل، وترك ماغي المسكينة صريعة أحزانها اليومية التي كانت تجربة قاسية على روحها الصغيرة الآن بعد أن فعلت فعلتها، تكشف الواقع أمامها بوضوح، ستسمع المزيد من التعليقات المزعجة بسبب شعرها المقصوص اندفاع ماغي وتهورها بشكل عاطفي، لم يجعلها فقط تدرك نتائج فعلتها، بل عرفت تفاصيل ما كان سيحدث لو لم تفعل ما فعلته أيضاً. وهذه هي ثمرة خيالها الخصب لم يرتكب توم أبداً حماقات مثل ماغي، لأنه كان يفكر بالأمور بطريقة عقلانية، وكان يحسب النتائج الإيجابية والسلبية معاً، وعلى الرغم من أنه أكثر عناداً وصرامة من ماغي، نادراً ما كانت تقول عنه والدته بأنه ولد مشاكس ولكن إن ارتكب توم خطأ، فهو يعتنقه، ويبرر لنفسه ما فعله، ولا يأسف على شيء. "إنه لايهتم". فإن كسر السوط الذي يستخدمه والده لجر الأحصنة، قال بأن السوط غير متين وإن ضرب البوابة بالسوط، اقتنع بما فعله، فعندما يضرب كل الصبية البوابات بالسياط يكون عملهم غير مبرر، أما إذا فعل ذلك توم توليفر، فهذا عمل مبرر، وله الحق في ضرب تلك البوابة على وجه الخصوص، ولا يأسف على فعلته إلا أن ماغي، على خلافه، عندما وقفت قبالة المرآة باكية، أحست أنه من المستحيل أن تتمكن من تناول الغداء وتتحمل النظرات القاسية والكلمات اللاذعة، بينما ينظر إليها كل من توم ولوسي ومارثا، وربما والدها وأعمامها الذين سيسخرون منها أيضاً - بالطبع لأن توم إن

سخر منها فكل شخص سيحذو حذوه ولو لم تقص شعرها، لتمكنت من الجلوس إلى المائدة مع توم ولوسي، والاستمتاع بتناول حلوى الكستارد[1]!

و الآن ماذا بوسعها أن تفعل سوى النشيج؟ جلست بائسة وسط خصلات شعرها السوداء المقصوصة مثل أجاكس[2] الذي جلس بين الغنم المذبوح.

ربما بدت تلك الألأم سخيفة بالمقارنة مع آلام المراهقين العشاق، وأولئك الذين فقدوا أحباءهم أو من تخلى عنهم أصدقاؤهم في عز أزماتهم، لكنها بالفعل لم تكن الاماً تافهة - بل ربما كانت أحزان الطفولة أشد تأثيراً فيهم، منا نحن البالغون إننا لانعترف بوجود مشاكل حقيقية إلا مع بلوغنا سن النضج، ونقلل كثيراً من تأثير الأحزان الصغيرة في نفوس أولئك الصغار.

"آه، يا طفلتي الصغيرة، ستواجهين مشاكل حقيقية تكدرك عندما تكبرين "، بهذه العبارة نواسي صغارنا، عندما يتعرضون لأحزان نراها تافهة مقارنة مع أحزاننا، تماماً مثلما فعل معنا آباؤنا. في عمر الطفولة كنا جميعاً نبكي بمرارة، إذا ابتعدت عنا أمهاتنا لحظات قصيرة، لكننا الآن لم يعد بمقدورنا استرجاع ذكريات الألم في تلك اللحظة والبكاء على الأطلال، كما نرثى لحالنا عندما نتذكر معاناتنا من مضي خمس أو عشر سنوات

إننا ندفن آلام الطفولة في أعماق نفوسنا، ولا نتذكرها إلا عندما تغلق الحياة أبوابها في وجوهنا، عندئذ نبحث في أوراق ذاكرتنا عن خطوط سوداء عكّرت صفو طفولتنا. ونفرغ ما في جعبتنا من آلام متراكمة طوال سنين.

جميع تلك اللحظات لاتزال حية في ذاكرتنا، لكنها امتزجت مع لحظات شبابنا، لذلك ترانا نبتسم عندما ترانا نسمع عن أحزان وهموم أطفالنا، ونشكّ في مصداقيتها، ولا نأخذ آلامهم على محمل الجدّ.

هل بمقدور أي شخص استعادة تجربة طفولته، ليس مجرد أن يتذكر ما حدث له فقط، وما هي الأشياء المحببة إلى نفسه، وكذلك تلك التي كان يحتقرها، وإنما أن يتذكر أعمق المشاعر في تلك اللحظات، وأن يحس بها الآن في فترة شبابه، وتنتعش ذاكرته بكل الأحداث بالتفصيل، كما لو أنها حدثت البارحة؟

كيف أحسّ عندما طرده زميله في الدراسة من اللعبة عندما أخطأ في تسديد الكرة بالاتجاه الصحيح، أو ما هي مشاعره عندما احتار في الطريقة

---

[1] الكستارد : طبق معدّ من الحليب و البيض و السكر.

[2] أجاكس : من كتاب أجاكس لصفوكليس.

التي يسلّي بها نفسه، فيصاب تارة بالكسل، ثم ينشط لديه الإحساس بالإساءة الذي يتحول إلى دفاع عن النفس، وهذا بدوره يتحول إلى عبوس وتجهم، أو عندما رفضت والدته بشكل مطلق أن تشتري له معطفاً طويلاً بدلاً من "المعطف القصير "،على الرغم من أن جميع الأولاد الذين في عمره ارتدوا معاطف طويلة؟ بالتأكيد لو استطعنا استرجاع تلك الآلام المبكرة في حياتنا لما كنا نستخف بأحزان أطفالنا.

قالت كيزيا وهي تدخل الغرفة مسرعة: "آنسة ماغي، عليك النزول في هذه اللحظة انظري! ماذا فعلت بنفسك؟ منظرك مخيف جداً "أجابت ماغي بغضب: "لاتقولي شيئاً يا كيزيا، هيا اخرجي! "قالت كيزيا، وهي تتجه نحو ماغي، وتمسك بيدها، وتحثها على النهوض: "لكنني أخبرتك أنه عليك النزول في هذه الدقيقة، أمك طلبت مني إحضارك".

قالت ماغي مبعدةً ذراع كيزيا عنها: "ابتعدي يا كيزيا، لاأريد تناول الغداء. لن أنزل "قالت كيزيا، وهي تخرج من الغرفة: "أوه، حسنٌ، لاأستطيع البقاء هنا. لابد أن أكون بانتظارهم أثناء تناول الغداء".

بعد عشر دقائق جاء توم مختلساً النظر إلى داخل الغرفة، وقال: "ماغي، يالك من فتاة حمقاء! لماذا لم تنزلي لتناول طعامك؟ يوجد الكثير من الأطعمة الشهية، وماما تقول بأنه عليك الحضور فوراً. لماذا تبكين، أيتها الصغيرة المدللة؟".

أوه، ياللقسوة! لم يكن توم مكترثاً لأحزان ماغي، ولم يتأثر لبكائها، وهي تجلس على الأرض، لو كان هو من يبكي، لشاركته ماغي البكاء أيضاً. إنه أمر مؤلم حقاً. الطعام لذيذ وشهي وماغي جائعة جداً، ولا تستطيع النزول

لكن توم ليس قاسياً، وإنما ليس لديه استعداد للبكاء، لن يفسد فرحته بتناول أنواع الحلوى اللذيذة، ويشارك ماغي مآسيها، لكنه اقترب من ماغي، ووضع رأسه بجانب رأسها، وقال بلهجة حنونة مواسية: "إذاً لن تنزلي يا ماغي؟ هل أحضر لك قطعة حلوى عندما أحصل على حصتي؟ـ وكذلك بعض الكستارد وأطعمة أخرى شهية؟".

قالت ماغي، بعد أن بدأت تشعر بأن الحياة أكثر بساطة مما ظنت: "أ - أ - أجل".

قال توم وهو يخرج: "حسنٌ". لكنه عندما استدار ثانية عند الباب قال: "ولكن من الأفضل لك أن تتناولي الطعام معنا. كما تعلمين - يوجد البندق والخمرة المصنوعة من نبات الربيع".

بعد أن غادر توم، جففت ماغي دموعها. تغلبت روحها الطيبة على معاناتها، وساعدها على ذلك وجود البندق وخمرة الربيع.

وببطء نهضت وسط خصلات شعرها المبعثرة، وشقت طريقها ببطء نحوا لدرج وقفت، واتكأت على إطار باب الردهة، وهي تختلس النظر. شاهدت توم ولوسي، وبينهما كرسي فارغ، وكان هنالك الكثير من الكستارد الموضوع على أطراف الطاولة انسلت، وجلست على الكرسي الفارغ. ولكنها حالما جلست شعرت بندم شديد، وتمنت لو عادت ثانية إلى غرفتها وأحزانها.

أطلقت السيدة توليفر صرخة عندما شاهدتها، وأسقطت الملعقة في صحن مرق اللحم لأن كيزيا لم تخبر سيدتها سبب رفض ماغي تناول الطعام، فهي لم تشأ أن تصدم السيدة توليفر في تلك اللحظة، فتركت الأمور تسير كيفما تشاء. واعتقدت السيدة توليفر بدورها أن إحجام ماغي عن الطعام مجرد عناد وسلوك منحرف كانت ستعاقبها عليه، وتحرمها من نصف طعامها المخصص للغداء.

لفتت صرخة السيدة توليفر جميع الأنظار نحو ماغي، فاحمرّت تلك المسكينة خجلاً، تورد خداها وأذناها وحتى عنقها، بينما قال العم غليك، الرجل ذو الطلعة البهية والشعر الأشيب: "ياللمفاجأة! من تكون هذه الصغيرة، لم أعرفها؟. هل أحضرت فتاة صغيره من الشارع يا كيزيا؟".

قال السيد توليفر مخاطباً السيد دين بلهجة منخفضة، وهو يضحك مستمتعاً: "لماذا، لقد قصت شعرها بنفسها. هل سبق لك أن رأيت فتاة صغيرة بمثل سرعتها؟ "

"لماذا أيتها الآنسة الصغيرة؟ جعلت من نفسك أضحوكة للجميع؟ "، قال السيد بوليت، الذي ربما في حياته كلها، لم يتفوه بكلمة جارحة

قالت السيدة غليك بصوتها المرتفع، وبلهجة مؤنبة: "ياللعار! الفتيات اللواتي يقصصن شعرهن بأنفسهن يجب جلدهن بالسوط وإطعامهن الخبز والماء فقط - ولا ينبغي أن يجلسن إلى المائدة مع خالاتهن وأعمامهن".

قال السيد غليك محاولاً إدخال روح الدعابة: "أي، أي أعتقد أنهم سيرسلونها إلى السجن، وهناك يجزون ما تبقى من شعرها".

قالت السيدة بوليت بلهجة مشفقة: "إنها مثل غجرية صغيرة يالحظك السيء يا أختاه، فالفتاة سمراء -والولد جميل بما فيه الكفاية. أشك بأنها تريحك في حياتك".

قالت السيدة توليفر، وقد امتلأت عيناها بالدموع: "إنها فتاة مشاكسة، وتعصي أمر أمها، وتحطم قلبها".

بدت ماغي وكأنها تستمع إلى كورس من السخرية في البداية تورّدت غضباً وهذا ما أعطاها القوة للدفاع عن نفسها، حتى توم اعتقد بأنها شجاعة بما يكفي، فقدَّم لها الدعم من خلال إغرائها بالحلوى والكستارد. لكنه همس لها: "أوه، عزيزتي ماغي! لقد أخبرتك بأن شكلك مضحك "

لم يقصد توم الإساءة إليها بل حاول أن يكون ودوداً، أمّا ماغي فأحسَّت بأنه مبتهج لعذابها تخلت عنها شجاعتها خلال لحظات قصيرة، ونفد صبرها، فنهضت من كرسيها، وركضت نحو والدها، مخبئة وجهها بين كتفيه، وانفجرت باكية بصوت عالٍ طوّقها الأب بحنان، وحاول تهدئتها: "هيا، هيا يا صغيرتي، لاتكترثي لما يقولونه، لقد كنت على حق عندما قصرّت شعرك، إنه كثيف وطويل، هيا ابكي وسوف يشاركك والدك البكاء أيضاً".

يالها من كلمات رقيقة ومواسية! كم أثرت في قلب ماغي، ونسيت في تلك اللحظة كل الكلمات اللاذعة التي وجهت إليها كسهام حادة. بقيت بعد ذلك تتذكر تلك الكلمات الحنونة عدة سنين ولم يغب عن بالها والدها الذي احتضنها برقة، على الرغم من أن الجميع انتقده في تصرفه.

قالت السيدة غليك بصوت مرتفع: "أوه يا حبيبتي، كم يفسد زوجك أخلاق تلك الطفلة! سوف يخرب حياتها إن بقي على هذا المنوال لم يربِّ والدي أطفاله أبداً بهذه الطريقة المدللة وإلا لما كنا من أرقى العائلات".

في هذه اللحظة بدا أن تلك الأحزان اليومية، قد جعلت السيدة توليفر تصل إلى درجة اللامبالاة فلم تولِّ اهتماماً لتعليق أختها، لكنها قذفت بأشرطة قبعتها إلى الوراء، وبدأت توزع الحلوى بصمت واستسلام.

بعد إحضار طبق الفاكهة، أحست ماغي بالانفراج، لأنه طلب من الأولاد تناول البندق والنبيذ في المنزل الصيفي، بما أن الطقس كان لطيفاً جداً. وهكذا ركضوا فرحين وسط شجيرات الحديقة المبرعمة، والحيوانات الصغيرة التي كانت تعدو حولهم برشاقة لدى السيدة توليفر أسبابها الخاصة للسماح للأولاد بالخروج بعد أن انتهوا من الغداء، أصبح الوقت مناسباً للحوار ومناقشة أمر توم بالذهاب للمدرسة، سيما أن توم كان غائباً لقد اعتاد الأولاد أن يمرحوا بحرية، ويصغوا لبعضهم بعضاً بصوت عالٍ وكأنهم عصافير، ولم يكترثوا لأصوات الكبار حولهم، ربما كانوا في بعض الأحيان يمدُّون أعناقهم ليسترقوا السمع لكنهم لايستوعبون ما يقال بالضبط.

في تلك الأثناء تصرفت السيدة توليفر بحكمة على غير عادتها، كانت تعلم بأن زوجها مصر على رأيه، ولن يتقبل أراء أقاربها. حتى أنها تقبلت حماقة زوجها، ولم تكن لتسمح لأحد من أصدقائها معرفة ما يدور بينهما، على الأقل إن كان هنالك خطب ما في المسألة، فلن تصمت عندئذ الأخت غليك ولا أختها بوليت

مجرد طرح الموضوع للنقاش أمر مفيد ولو لم يأخذ زوجها برأي أخواتها.

قاطعت السيدة توليفر حديث زوجها مع السيد دين: "والآن يا سيد توليفر، حان الوقت لمناقشة موضوع توم مع الخالات وأزواجهن أليس كذلك؟

أجاب السيد توليفر بلهجة حادة نوعاً ما: "حسنٌ جداً، ليس لدي مانع في إخبار أي شخص ما أنا عازم على فعله لقد قررت "، أضاف وهو ينظر إلى السيد غليك والسيد دين - "لقد قررت إرساله إلى السيد ستيلنغ، الكاهن في شارع الملك لورتن، إنه شخص فائق الذكاء، وسأضع توم في رعايته ليعلمه كل شيء".

ارتسمت علائم الدهشة على وجوه الحشد بأكمله عندما سمعوا بأن الكاهن سيدخل في إعداد ترتيبات عائلة السيد توليفر. بالنسبة للسيد بوليت، كان تقبُل الأمر أكثر لو قال السيد توليفر بأنه سيرسل توم إلى اللورد تشانسيلر لأن السيد بوليت كان ينتمي إلى تلك الطبقة المنقرضة من السادة البريطانيين الذين يتأنقون جداً في لباسهم الخارجي، ويدفعون أجوراً وضرائب باهظة، ويذهبون إلى الكنيسة، ويأكلون طعاماً شهياً أيام الأحد، دون أن تراودهم أية أفكار في الشك بتصرفاتهم، بالنسبة لهم الدستور البريطاني في الكنيسة والدولة راسخ منذ الأزل، تماماً مثل النظام الشمسي وحركة النجوم والكواكب إنه لَمِنَ المؤسف، هذه هي الحقيقة، أن يؤمن السيد بوليت بفكرة مشوشة للغاية وهي أن الأسقف، حسب رأيه، يمثل رتبة مثل رتبة البارون، فكاهن أبرشيته رجل من عائلة مرموقة وثرية جداً، مما يجعل من فكرة أن يكون الكاهن مدرساً أبعد ما تكون عن أن يتخيلها أو يتقبلها.

أعلم أنه من الصعوبة الآن أن يؤمن الناس في هذا العصر المتنور بمبادئ السيد بوليت الجاهلة، لكن لدى السيد بوليت قدرة عقلية هائلة على طرح جدال عقيم. كان أول من أبدى دهشته "لماذا، ما الذي يمكن أن يستفيده بإرساله إلى كاهن؟ "، قال ومعالم الدهشة مرسومة على عينيه البراقتين، وهو ينظر إلى السيد غليك والسيد دين، محاولاً معرفة رأيهما.

أجـاب الـسيد تـوليفر المسكين، الـذي تـشبث برأيـه وكـان مـستعداً دائمـاً للـدفاع عنه وسط هذا العالم المحير المليء بالأسرار :

"لمـاذا؟!، لأن الكهنـة هـم أفـضل المدرسـين جـاكوب لـيس كاهنـاً، وقـد جعـل مـن ابـني ولـداً سـيئاً للغايـة، لـذلك قـررت ألا أرسـله ثانيـة للمدرسـة، لابـد أن يتبنـاه كـاهن مختلـف عـن جـاكوب والـسيد سـتيلنغ هـو الرجـل المناسـب لـيعلم ابـني وأنـوي إرسال ابني إليه منتصف الصيف، أنهى السيد توليفر حديثه بحزم".

تنـشق الـسيد ديـن بقـوة، وكانـت هـذه عادتـه عنـدما يرغـب بالمحافظـة علـى موقـف حيـادي: "لكـن هـذا سـيكلفك الكـثير سـنوياً ، إيـه يـا تـوليفر؟ فالكهنـة لديهم أفكار راقية بشكل عام".

قـال الـسيد غليـك الـذي كـان معجبـاً بنكتـه بعـد أن تقاعـد مـن العمـل، فـأحس أنه من حقه أن يتعامل مع كل شيء على محمل من المزاح والهزل :

"مـاذا! هـل تعتقـد يـا جـاري تـوليفر أن الكـاهن سيـشرح لابنـك عـن أنـواع القمح؟".

قال السيد توليفر بعد صمت قصير وهو يرفع كأسه :

"لماذا؟!، كما ترى لدي مخطط خاص بشأن توم".

قالـت الـسيدة غليـك بلهجـة جارحـة بقـصد الإسـاءة: "حـسنٌ، لـو تـسمحون لي أن أتكلـم أود أن أعـرف مـا الفائـدة المرجـوة مـن إرسـال الولـد وتنـشئته وتَحَمُـل مـصاريف لايمكـن تأمينـها بـسهولة "أجـاب الـسيد تـوليفر، دون أن ينظـر إلى الـسيدة غليـك، وموجهـاً حديثـه للجمهـور الـذكوري: "مـا الفائـدة! كمـا تـرون، لقـد قـررت أن يـتعلم تـوم غـير العمـل الـذي أقـوم بـه فكـرت طـويلاً يـستقبله أنـوي أن أمنحـه ثقافـة واسـعة، أن يخـتلط بالنـاس والمحـامين، ويتعـرف علـى المجتمـع مـن منظور واسع، أن يشق حياته دون رأسمال".

سـأل الـسيد ديـن: "إذاً، هـل سـيدّرس ذلـك الكـاهن القواعـد المدرسـية مثـل ماركـت بـويلي؟ قـال الـسيد تـوليفر: لا، أبـداً. لـن يتبنـى أكثـر مـن اثـنين أو ثلاثـة تلامذة - وبذلك سيتسنى له الوقت الكافي للاهتمام بهم أكثر".

قـال الـسيد بوليـت بعـد أن أحـس أنـه مـن العبـث الـدخول في مناقـشة هـذه المسألة الـصعبة: "آه، وسـيزوده في الحـال بثقافـة واسـعة، فـإذا كـان العـدد كـبيراً لـن يتسنى له التزود بتعليم كاف".

قال السيد غليك: "هذا سيكلف المال الكثير".

قـال الـسيد تـوليفر بثقـة وروح عاليـة: "أي، أي، مئـة جنيـه سـنوياً، هـذا هـو كـل مـا في الأمـر. كمـا تعلمـون هـذا المبلـغ بمثابـة الاسـتثمار في مـشروع نـاجح. فعنـدما

يتزود توم بثقافة عالية، سوف يتمكن من الحصول على المال الوفير. وثقافته هي رأسماله".

قال السيد غليك: "أي، فيها وجهة نظر. حسنٌ، حسنٌ يا جاري توليفر من الممكن أن تكون محقاً، من الممكن أن تكون محقاً :

عندما تفنى الأرض، وينفق المال ،

فالعلم هو الأفضل.

قرأت هذه الكلمات على نافذة بوكستن. ولكننا لم نحصل على تعليم كافٍ ومع ذلك نحتفظ بأموالنا، أليس كذلك يا جاري بوليت؟ "، فرك السيد غليك ركبتيه، وبدا مسروراً للغاية.

قالت زوجته: "أنت غريب الأطوار يا سيد غليك، هذا لايليق بمن هم في سنك".

قال السيد غليك وهو يغمز أصحابه: "ما هو الذي لايليق بي سيدة غليك؟ معطفي الجديد ذو اللون الأزرق؟".

"إنني أرثي لضعفك سيد غليك. هذا المزاح لايليق بك، عندما ترى أحد أقاربك في مصيره للهاوية".

قال السيد توليفر متعمداً: "إن كنت تقصدين ابني سيدة غليك، فلست مضطرة لأن تزعجي نفسك في هذا الأمر. بمقدوري تدبر شؤوني دون إزعاج الآخرين".

قال السيد دين بحكمة محاولاً طرح فكرة جديدة: "باركني يا إلهي، خطر ببالي أحد الأشخاص الذين تحدثوا عن واكيم الذي أرسل ابنه -الغلام المشوه - إلى الكاهن، أليس كذلك يا سوزان؟ "

"لست متأكدة مما تقول، لايمكنني البت في الأمر "، قالت السيدة دين، ثم أغلقت شفتيها بإحكام شديد. لم تشأ السيدة دين المشاركة في حديث كانت تكثر فيه الإهانات.

قال السيد توليفر بمرح، ليظهر للسيدة غليك أنه لم يكترث لكلامها: "حسنٌ، عندما يرسل واكيم ابنه إلى الكاهن، فلن أرتكب خطأ، وأرسل ابني توم لعند الكاهن نفسه. واكيم أكبر نذل عرفته، إنه مثل العجوز هاري، يعرف كل شيء عن الرجل الذي يتعامل معه أي، أي، هيا قل لي من هو اللحام الذي يحضر واكيم من عنده اللحمة، لكي أرسلك إليه".

قالت السيدة بوليت، التي أحست أن النقاش أصبح حامي الوطيس: "ولكن

ابن المحامي واكيم مشوه، له حدبة في ظهره ومن الطبيعي أن يرسله والده لعند الكاهن".

قاطع السيد غليك ملاحظة السيدة بوليت بأسلوب فظ تقريباً: "أجل، عليك أن تراعي هذا الأمر يا جاري توليفر، فابن واكيم غير قادر على أداء أي نوع من الأعمال ولكن واكيم جعل من ذلك الغلام البائس سيداً".

قالت السيدة غليك بلهجة ساخطة، تشير إلى أنها على وشك تفجير طاقة الغضب لديها، على الرغم من أنها صممت على ضبط نفسها: "سيد غليك، من الأفضل لك أن تصمت فالسيد توليفر لايرغب بسماع لارأيك ولا رأيي هنالك أشخاص في العالم يعرفون الكثير، وليسوا بحاجة لآراء الآخرين".

قال السيد توليفر وقد بدأ يغلي غضباً:

"لماذا، أعتقد أنني كنت سآخذ بنصيحتك لو اقتنعت بها".

أجابت السيدة غليك باستهزاء: "نصيحتي! لكنني لم أقل شيئاً. لم يطلب أحد نصيحتي، ولم أقدمها لأحد".

"إذاً أنت على أهبة الاستعداد لتقديم نصائحك".

"لدي استعداد كامل للعطاء. هنالك أناس أسلفتهم نقوداً، وربما ندمت لأنني أعطيت نقودي للأقارب".

قال السيد غليك محاولاً أن يخفف من حدة الموقف: "هيا، هيا، هيا، لكن السيد توليفر لايرضى الإهانة".

قال السيد وليفر: "أتساءل إن كنت كتبت سندات بقيمة المبلغ. أموالك ستعود لك سواء استدانها الأقارب أم غيرهم".

قالت السيدة توليفر متوسلة: "اشربي النبيذ يا أختاه، ودعيني أقدم لك بعض اللوز والزبيب".

قالت السيدة غليك، وقد وصلت إلى أوج درجات الغضب: "حبيبتي، أشعر بالأسف الشديد لحالك يالهذا التصرف المسكين!!، تتحدثين عن اللوز والزبيب وأختك تهان في منزلك".

قالت السيدة بوليت والدموع في عينيها: "لاتنزعجي يا أختي غليك ربما أنت متضايقة قليلاً. لكننا جميعنا لانزال في فترة حداد - وهذا أمر سيء".

قالت السيدة غليك: "أعتقد أن الأمر في غاية السوء. عندما تدعو أخت بقية أخواتها إلى منزلها بهدف الإساءة إليهن ومشاجرتهن".

قال السيد غليك: "بهدوء، بهدوء يا جين - كوني عاقلة - كوني عاقلة".

ولكن بينما كان السيد غليك يحاول تهدئتها، انفجر السيد توليفر غاضباً ثانية، ولم يترك وسيلة للتنفيس عما في داخله: "من يريد أن يتشاجر معك؟ أنت لاتستطيعين ترك الناس وشأنهم ما كنت أبغي المشاجرة مع أية امرأة، لو احترمت نفسها".

قالت السيدة غليك، وقد اهتاجت للغاية: "حقاً، احترم نفسي! الأفضل لك يا سيد توليفر أن تلتزم باحترام نفسك. فأنا من عائلة محترمة، وتزوجت رجلاً من عائلة محترمة أيضاً. لكنني أهان في بيت لايحترم ضيوفه".

قال السيد توليفر: "إن كنت تتحدثين عن العائلة، فعائلتي من سلالة عريقة مثل عائلتك - بل أفضل، فليس فيها امرأة سيئة المزاج مثلك".

قالت السيدة غليك، وهي تنهض من كرسيها: "حسنٌ! لاأعرف إن كان بمقدورك البقاء هنا يا سيد غليك وأنت ترى زوجتك تهان، ولن أبقى في هذا المنزل دقيقة واحدة بعد الآن يمكنك أن تلحق بي بالعربة - لكنني سأذهب مشياً على الأقدام".

قال السيد غليك بلهجة حزينة وهو يتبع زوجته: "حبيبتي، حبيبتي!".

قالت السيدة توليفر. وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

"سيد توليفر، كيف تحدثها بهذا الأسلوب؟".

قال السيد توليفر، الذي لم تبرِّد دموع زوجته حرارة غضبه: "دعيها تذهبْ، دعيها تذهبْ، فهذا أفضل لها، لن تحاول ثانية فرض آرائها المتسلطة".

قالت السيدة توليفر متوسلة: "أختي بوليت، هلا ذهبت وراءها، وحاولت تهدئتها؟".

قال السيد دين: "الأفضل ألا تذهبي، الأفضل ألا تذهبي تكلمي معها في يوم آخر".

قالت السيدة توليفر وهي تجفف عينيها: "إذاً، لنذهب يا أخوتي ونتفقد الأولاد؟".

أحسّ السيد توليفر وكأن الجو صفا من أنين الذباب، فالنساء الآن خارج الغرفة، والهدوء مخيم على المكان وكان يفضل الحديث مع السيد دين الذي اعتبره من الرجال ذوي الثقافة الواسعة وأصبح الآن بمقدورهما الدخول في مباحثات جدية بعيداً عن مقاطعات النساء الطائشة تبادلا الآراء المتعلقة

بالدوق ولنغتن[1] الذي ذاع صيته بشأن تعامله مع القضية الكاثوليكية

كما تطرقا قليلاً للحديث عن قيادته لمعركة واترلو، التي ما كان كسبها لولا تأييد ودعم عدد هائل من الرجال الانكليز.

لم يَخُضا غمار حديث مطول عن سكان بروسيا، فقد سمع السيد توليفر عن أحد أصحابه من ذوي المعارف الخاصة بأن بروسيا فيها بعضُ المنشقين عن سياسة الدولة، وبهذا الخصوص تحدث السيد دين عن عدم ثقته بشعب بروسيا، فصناعة السفن عندهم ليست على مستوى عال، مما شجع السيد توليفر على التعبير عن مخاوفه بشأن ذلك البلد الذي تدهورت صناعته، ولكن السيد دين عاود الحديث عن شركة تجارية ماهرة في صناعة الجلود ودباغتها، ذلك المنتج المصدر إلى الإنكليز، الأمر الذي هدأ من مخاوف السيد توليفر، وكبح جماح مخيلته بأن يصبح البلد فريسة للمتطرفين ومؤيدي الكنيسة الكاثوليكية، فلا يبقى مكان للرجال الشرفاء.

جلس السيد بوليت بجانبهما مصغياً بعينيه البراقتين للحديث حول هذه المسائل الخطيرة لم يكن يفقه شيئاً في الأمور السياسية - واعتقد أن استيعابها هبة من عند الله - لكن الأمر الذي استوعبه هو أن الدوق، ولنغتن لم يكن أفضل مما يجب أن يكون.

---

(1) الدوق ولنغتن : أصبح ولنغتن رئيساً للوزراء عام 1828 ، أصدرت حكومته تصريحاً بشأن منح الحرية للكاثوليك ، فحصل الرومان الكاثوليك على الحرية الدينية و السياسية ، على الرغم من أن المعارضة الواسعة الانتشار.

يساعد هذا المرجع في تأريخ الأحداث في الرواية الصفحة (204) ، حيث نعلم بأن الدوق ولنغتن لا زال حياً] بوني أي نابليون ، الذي مات عام 1821 [لم يمض فترة طويلة على مماته

الفصل الثامن

السيد توليفر يظهر نقطة ضعفه

قالت السيدة توليفر في ذلك المساء، بعد أن استرجعت الأحداث الكئيبة لذلك اليوم: "افترض أن الأخت غليك ستطالبك بتسديد أموالها عندئذ سيكون الأمر مربكاً جداً بالنسبة لك، أن تجمع الآن خمسمائة جنيه".

عاشت السيدة توليفر مع زوجها ثلاثة عشر عاماً، ومع مازالت تحتفظ بعاداتها منذ باكورة حياتها الزوجية، فهي تتفوه بأشياء تجعله يلبي الهدف المغاير للهدف الذي كانت ترغب به.

تبدو بعض العقول رائعة وهي تحافظ على طريقة العيش ذاتها، مثل سمك الحوض الذي يحتفظ بنضارته وتألقه، ويسبح في اتجاه مستقيم خلف زجاج يطوقه من كل النواحي كانت السيدة توليفر سمكة ودودة صار لها تسبح ثلاثة عشر عاماً في المكان ذاته، وتصر على الاتجاه نفسه وهي اليوم تعاود الذهاب ضمن الإطار نفسه وبرشاقة وحيوية كانت السيدة توليفر تبغي من وراء الملاحظة التي قدمتها أن تقنع زوجها بأن لايحتارعلى الإطلاق في تأمين مبلغ خمسمائة جنيه، وعندما كانت تصر عليه لتعرف كيف سيجمع المبلغ المطلوب دون أن يرهن الطاحونة والمنزل، اللذين رفض وضعهما قيد الرهن، بما أن الناس في هذه الأيام ليسوا على استعداد لإقراض نقودهم بدون الحصول على الضمان، كان السيد توليفر يهتاج ويتأجج غضبه مصرحاً أنه سيدفع ديونه للسيدة غليك سواء طلبتها أم لا. فهو لايرضى أن يكون مديوناً لأخوات زوجته عندما يتزوج الرجل من عائلة كلها نساء، فعليه أن يتحمل ما اختاره بملء إرادته لكن السيد توليفر لم يختار.

بهدوء بكت السيدة توليفر قليلاً، وهي ترتدي قميص نومها، لكنها غطت بعد ذلك في نوم مريح وهي تعزي نفسها وتهدئ بالها لأنها ستناقش كل الأمور غداً مع أختها بوليت، عندما تأخذ الأولاد إلى مزرعة التنوب لشرب لشاي في غارم

بقي زوجها مستيقظاً بعدها فترة من الوقت، فهو الآخر كان يفكر بزيارة أخته وزوجها في اليوم التالي

تحت تأثير مشاعر قوية، تولد لدى السيد توليفر عادة السرعة في الرد، وترجم هذه العادة بالسرعة بالتطبيق، بدت غير متناسبة مع الطبيعة المعقدة

والمحيرة للقضايا الإنسانية كان سريعاً جداً في الرد حتى أنه امتطى حصانه بعد الغداء في اليوم التالي، وانطلق إلى باسيت لرؤية أخته وزوجها.

فقد جزم أمره بشكل نهائي بأن يدفع للسيدة غليك قرضها البالغ خمسمائة جنيه، ومن الطبيعي أن يطلب الكمبيالة التي تقدر بثلاثمائة جنيه والتي أقرضها لصهره موس، فإن استطاع صهره تدبُر أمره بتسديد النقود عندئذ سيخفف من وطأة العبء عليه هنالك أناس ضعفاء يرغبون في معرفة كيف تسير الأمور بدقة، قبل أن تتولد لديهم ثقة قوية بأن الأمر سيتم بسهولة، وربما تزعزعت صورة السيد توليفر في نظر أولئك الضعفاءولأن السيد توليفر لم يكن في موقع يحسد عليه، أحب أن يثبت أنه رجل ثري، ويخالف الواقع. لقد اعتاد على سماع نكتاً سارة حول المنافع التي يحصل عليها جرّاء عمله في طاحونته الخاصة به، وملكيته لأرض خصبة، وهذه النكت جعلته يحس بأنه رجل ثري له مكانته.

يبدو أن السيد توليفر نسي حقاً أنه رهن ألفي جنيه بملء إرادته الحرة، منها ألف جنيه تعود لحصة أخته من الثروة، والتي كان عليه دفعها عند زواجها.

إن صديقنا السيد توليفر رجل طيب الأصل، ولم يرغب أبداً في إنكار حق أخته، التي لم تأت إلى هذا العالم وأموالها مرهونة فحسب، بل توجت أخطاءها أكثر بولادة الطفل الثامن. عندما فكر السيد توليفر بأخته أحس بضعفه، وواسى نفسه بالقول أن أخته المسكينة كانت فتاة بهية الطلعة قبل زواجها من موس - وأحياناً كان يناجي نفسه بهذا القول بصوت مرتعش قليلاً. لكنه هذا الصباح كان في مزاج عملي بعيداً عن كل العواطف شَقَّ طريقه عبر أزقة باسيت الموحلة، وكان غاضباً بما فيه الكفاية من موس، الرجل الذي لايملك رأس المال، والذي كلما ساعده للخروج من الوحل، كان يغوص فيه أكثر. ولو أجبره على دفع الثلاثمائة جنيه، لقدم له خدمة جليلة، فهذا سيجعله ينظر حوله بشكل أفضل، ولا يتصرف بحماقة في بيع منتجاته الصوفية هذا العام كما فعل العام الماضي في الواقع، كان السيد توليفر متساهلاً جداً مع صهره، ولأن الفائدة كانت مستحقة الدفع بعد مرور سنتين، اعْتَقَدَ موس أن الدين مهما طال، فلن يزعج هذا السيد توليفر. إلا أن السيد توليفر كان مصمماً على وضع حد لأولئك المتخاذلين، ركب حصانه عبر أزقة باسيت، ولم يكن هناك أي شيء يثنيه عن عزمه.

باسيت مكان تربته يائسة، طرقاته بائسة، أصحاب الأملاك باتسون، وراعي الأبرشية بائس، والكاهن بائس لو عبّر أي شخص عن انطباعه لدى رؤية

باسيت، تأكد أنه سيقول لك بأن أبرشيات باسيت فيها أكثر طبقات الناس رقياً. لن أصرّ على معارضة هذا الرأي، ولكن انطبعت في ذاكرتي صورة باسيت بشكل آخر. الأزقة موحلة، وتبدو للرائي الغريب، وكأنها لاتؤدي إلى أي طريق، هي في الحقيقة، تقود إلى الطريق العام بكل سهولة. توجد الكثير من آثار الأقدام التي تؤدي بشكل دائم إلى متاهات وربما إلى غرفة منخفضة واسعة الأرجاء، أرضيتها رملية، تفوح منها رائحة التبغ، وأسوأ أنواع الجعة، والسيد ديكسون يتكئ على عامود الباب بوجه بائس مليء بالبثور، كل هذا لايبدو مغرياً للقادم من بعيد، رجال باسيت يجدون فيه مكاناً مغرياً، وهم يطوفون الأزقة عند الساعة الرابعة من ظهيرة يوم ماطر. ولو أرادت أي زوجة في باسيت أن تثبت بأن زوجها لم يكن باعثاً للسرور، لما ترددت أبداً في القول بأنه لم ينفق شلناً واحداً في محل ديكسون منذ أسبوع. والسيدة موس كانت من أولئك الزوجات اللواتي يشتكين من أزواجهن، قالت هذا أكثر من مرة للسيد توليفر، عندما يكون غاضباً من زوجها ومستعداً لإيقاع تبعة الأخطاء على كاهله. لم يكن أي شيء يهدّئ من روع السيد توليفر أكثر من الجلوس في فناء المزرعة، في ذلك اليوم لم يكن ينوي النزول عن ظهر حصانه، عندما شق طريقه عبر الطرقات الموحلة والأبنية الكبيرة التي صنع نصفها من الخشب، وفي ذلك الوقت بالتحديد أنقذه ظهور راعي البقر من الترجل عن ظهر حصانه وتلك كانت الخطة التي صمم عليها. عندما ينوي الرجل أن يكون قاسي القلب حاد الطباع، يبقى ممتطياً سرج حصانه، ويتكلم من ذلك الارتفاع فوق مستوى العيون المتوسلة المتوجهة نحوه، فيطل من علوه الشاهق على أفق بعيد المدى.

سمعت السيدة موس وقع أقدام حصان، وعندما وصل أخوها كانت قد خرجت من المطبخ ونصف ابتسامة تعلو وجهها المرهق، وبين ذراعيها طفل ذو عينين سوداوين، كان يضغط بيديه الصغيرتين البدينتين على خدي أمه الشاحبين.

قالت بلهجة عاطفية: "أخي! إنني سعيدة برؤيتك، كيف حالك؟".

"أوه، إنني بخير، سيدة موس، بخير"، أجاب الأخ ببرود متعمد، دون أن يعطي اهتماماً للهفتها عليه.

أدركت الأخت في الحال بأن أخاها لم يكن في مزاج جيد، فهو لايخاطبها بالسيدة موس إلا إذا كان غاضباً، أو أثناء اللقاءات العائلية الرسمية لكنها اعتقدت أنه من الطبيعي مخاطبة الفقراء بأسلوب توبيخي لم تكترث السيدة موس لمسألة المساواة الإنسانية بين سلالة البشر، كانت إمرأة محبة، ولطيفة، ومعطاءة.

"زوجك خارج المنزل، أليس كذلك؟".

أضاف السيد توليفر بعد صمت، حيث خرج خلال هذه اللحظة أربعة أطفال، كانوا مثل فراخ تفقدت أمها عندما توارت فجأة عن أنظارهم

"لا، إنه في حقل البطاطا. جورجي اركض بسرعة، وأخبر والدك بأن خالك في المنزل هيا ألن تترجل يا أخي، وتتناول شيئاً ما؟".

قال السيد توليفر محدقاً في الأفق: "لا، لا، لاأستطيع النزول عليّ العودة ثانية للمنزل".

قالت السيدة موس بخضوع، ولم تتجرأ أن تلح في دعوتها ثانية: "وكيف حال السيدة توليفر والأولاد؟".

"أوه إنهم بخير. سيلتحق توم بمدرسة جديدة منتصف الصيف - وهذا سيكلفني مصاريف إضافية من السوء أن لاأتمكن من استرجاع أموالي".

"أتمنى أن تكون طيباً معي يا أخي، وتحضر الولدين لزيارة عمتهما يوماً ما. فصغيرتي آنز ترغب برؤية ماغي كما تعلم إنني متعلقة جداً بماغي وأحبها كما لو أنها ابنتي وأعلم بأنها ترغب جداً بزيارتنا. إنها فتاة محبة، يالها من طفلة فائقة الذكاء!".

السيدة موس من أكثر نساء العالم فطنةً، وهي الآن تلت عن بساطتها، وفكرت بأنه لايمكنها استعطاف أخيها، أكثر من هذا المديح لماغي ونادراً ما كان يسمع أحداً يدلي بهذا الإطراء "لصغيرته المدللة". كانت العمة موس ترى دوماً الميزات الايجابية في ماغي - على الرغم من فوضويتها، وعدم اهتمامها بنظافة حذائها أو ثوبها، كل هذه الأمور كانت طبيعية جداً بالنسبة لطفلة في عمرها.

كان لذلك الإطراء تأثيره القوي في نفس السيد توليفر، فتغيرت نظرته وامتلأت عيناه حناناً، وقال وهو لايشيح بصره عن أخته: "آي، أعتقد أنها مولعة بك أكثر من كل خالاتها. إنها تشبه عائلتنا. لم تأخذ شيئاً من أمها".

"يقولون إنها تشبهني كثيراً، على الرغم من أنني لم أكن سريعة البديهة أبداً، ومولعة بالكتب مثلها. وأعتقد أن صغيرتي ليزي تحبها كثيراً. هيا حبيبتي ليزي سلمي على خالك فهو بالكاد يعرفك، فأنت تكبرين بسرعة".

ليزي طفلة في السابعة من عمرها عيناها سوداوان، بدت خجولة جداً وأمها تسحبها لترى خالها، فقد أدرك الصغار أن خالهم قادم من طاحونة دورلكت لم تكن ليزي في جرأة ماغي وقدرتها على التعبير عن عواطفها.

نظر إليها السيد توليفر بلطف وهي مرتدية ثوبها المهترئ :

"آي، إنها تشبه ماغي كلاهما تشبهان أمنا". أضاف بلهجة عاطفية إلى حدٍّ ما: "لديك صغار كثر يا أختي".

تنهدت السيدة موس، وهي تمسد شعر ابنتها على جانبي جبهتها :

"هنالك أربعة صبية باركهم الله".

"آه، ولكن يجب أن يحبوا بعضهم بعضاً، ويدافعوا عن أنفسهم". قال السيد توليفر بعد أن أحس بالاسترخاء محاولاً ترك انطباع جيد لدى أخته: "كما يجب أن لاتعصي الأخوات إخوانهم".

أجابت السيدة موس بلطف وقد توردت قليلاً: "لا، ولكن آمل أن يحب الصبيان أختيهما المسكينتين، ويتذكروا أنهم من أب واحد وأم واحدة، فلا خوف على الصبية بهذا الشأن "ضرب السيد توليفر حصانه بخفيه على خاصرته، وقال بغضب موجهاً اللوم لذلك الحيوان البريء: "ابق هادئاً".

تابعت السيدة موس وهي تنظر إلى أبنائها بهدف تهذيبهم: "ولكن ينبغي على الجميع أن يحب بعضهم بعضاً". استدارت ثانية نحو أخيها لتقول: "وما أتمناه أيضاً هو أن يكون ابنك ودوداً مع أخته، فهما وحيدان، مثلي ومثلك يا أخي".

كانت تلك العبارة مثل سهم وجه رأساً ليصيب قلب السيد توليفر. لم يكن واسع المخيلة، ولكن الحديث عن ماغي جعله يفطن إلى أنه لم يرى أبداً في علاقته بأخته، ما يشبه علاقة توم بأخته. ترى هل ستكون معاملة توم قاسية مع أخته الصغيرة المسكينة؟.

قال الطحان بلهجة رقيقة، وكأنه يبرئ نفسه :

"آي، آي، كنت دائماً أفعل ما بوسعي لأجلك".

أجابت السيدة المسكينة بخضوع شديد، وهي بالغة الإرهاق والتعب من الإنجاب وتربية الأولاد الذين لم يتركوا لها مكاناً للاعتداد بقوتها :

"وأنا لاأنكر هذا يا أخي، لطالما كنت شاكرة فضلك انظر وصل الأب لقد تأخرت يا موس!".

قال السيد موس ملتقطاً أنفاسه، وقد أحس بالإهانة :

"لماذا تقولين هذا؟ صار لي أركض طوال الطريق هل تأخرت يا سيد توليفر؟".

فكر السيد توليفر أنه من الأفضل مناقشة أمر الديون مع السيد موس في غياب أخته لذلك قال له: "حسنٌ، سأنزل للتوِّ، أريد محادثتك في الحديقة".

ترجل عن حصانه، ومشى مع السيد موس إلى الحديقة، متوجهين نحو شجرة الطقسوس القديمة، بينما كانت السيدة موس تربت على ظهر طفلها، وتحدق بهما بلهفة وكآبة

لـدى دخولهمـا إلى المكـان الـذي تفـيء بأغـصان شـجرة الطقـسوس الـضخمة، ذعـرت الطيـور وهجـرت أمكنتـها علـى الـشجرة محلقـة بعيـداً، ومـصدرة صـوتاً يـشبه صـوت الـدجاج. اتخـذ الـسيد تـوليفر مكانـه علـى المقعـد الـصغير، وهـو يـضرب الأرض هنـا وهنـاك بعـصاه بطريقـة فـضولية، كمـا لـو أنـه اشـتبه بوجـود بعـض الحفر العميقة. بدأ حديثه بلهجة حادة:

"أرى أنـك تـضع القمـح ثانيـة في تلـك الزاويـة القريبـة. إنـك لاتهـتم بمحـصولك ولن تفعل ما يفيد هذا العام".

عنـدما تـزوج الـسيد مـوس مـن الآنـسة تـوليفر، كـانوا يطلقـون عليـه اسـم فـرس باسيت، هو الآن يربي لحية كثيفة، منظره بائس، لايوحي بأي تفاؤل.

أجاب بلهجة متذمرة ولطيفة :

"لمـاذا، المزارعـون البؤسـاء كحـالتي يفعلـون مـا في وسـعهم لكـسب رزقهـم، مـا نحتاجه هو الوقت حتى نلعب بالأموال".

أجـاب الـسيد تـوليفر، متمنيـاً لـو يـدخل في شـجار خفيـف مـع الـسيد مـوس، فقـد كانـت تلـك أسـهل مقدمـة طبيعيـة للبـدء بالنقـاش في موضـوع الـديون: "لاأعـرف كيـف يمكنـك أن تعـب بـالأموال، إن كنـت لاتـستطيع تـسديد مـا عليـك مـن ديون وفوائد".

"أعلـم أنـني لم أدفـع مـا علـيّ مـن فوائـد، لكـن منتـوجي مـن الـصوف كـان سـيئاً العام الماضي يبدو أن هنالك أشياء تتطلب البراعة والإتقان ولا تسير كالمعتاد".

صـرخ الـسيد تـوليفر: "آي، هنالـك أنـاس أيـضاً تنقـصهم البراعـة والإتقـان مثـل الأشياء تماماً، فالعقول الفارغة لاتستطيع تأدية العمل بشكل صحيح".

أجـاب الـسيد مـوس مـستنكراً: "حـسنٌ، لاأعـرف مـا هـو الخطـأ الـذي ارتكبتـه يـا سيد توليفر. ما أعرفه هو أنه لايوجد عمال يمارسون أعمالاً شاقة أكثر مني".

قـال الـسيد تـوليفر بحـدة: "ومـا فائـدة هـذا الكـلام، عنـدما يتـزوج الرجـل، ولا يملـك رأس المـال يبـدأ فيـه عملـه وإنمـا يعتمـد علـى ثـروة زوجتـه؟ منـذ البدايـة لم أوافـق علـى هـذا التـصرف الأخـرق، ولكنـك أنـت وزوجتـك لم تـصغيا إليّ والآن لاأسـتطيع الاسـتغناء عـن نقـودي أكثـر مـن ذلـك، لأنـه علـيّ تـسديد خمـسمائة جنيـه للـسيدة غليـك بالإضـافة إلى نفقـات تعلـيم تـوم لـذلك عليـك أن تبحـث عـن طريقة مفيدة تعيد بها إليّ الثلاثمائة جنيه".

بـدا الـسيد مـوس مرتبكـاً أمامـه وقـال: "حـسنٌ، إن كـان هـذا مـا تقـصده، يفـضل أن أبيعك بضاعتي لكي أسدد ديوني، وكذلك لأدفع أموال السادة أيضاً".

يـا للفقـراء المـساكين يمكـن بـسهولة إثـارتهم! وهـم دائمـاً أنـاس معرضـون

لارتكاب الأخطاء. لقد نجح السيد توليفر في إثارة السيد موس، وتلبية ما يريد منه، ومع ذلك أجابه بغضب، وهو ينهض من مقعده :

"حسنٌ، عليك أن تفعل كل ما تستطيع. لدي واجبات عائلية وأعمال أخرى وليس باستطاعتي الاستغناء عن أموالي أكثر من ذلك يجب أن تجمع المال بأقصى سرعة".

خرج السيد توليفر فجأة من تحت الشجرة وهو يلفظ عبارته الأخيرة، ودون أن يستدير وراءه، ذهب نحو باب المطبخ، حيث أمسك الولد الأكبر بحصانه، وكانت أخته تنتظره خائفة ومتسائلة وهي تحاول تهدئة طفلها الذي يصدر أصوات غرغرة سارة، ويداعب وجه أمه الشاحب بأصابعه الصغيرة.

لدى السيدة موس سبعة أولاد ومع ذلك لم تستطع أن تتغلب على حزنها لأجل التوءمين اللذين لم يمنحهما الله طول البقاء. بدت السيدة موس قلقة، وقالت وهي تنظر إلى زوجها الذي كان يمشي متثاقلاً خلف أخيها: هلاً تفضلت بالدخول يا أخي؟".

أجاب وهو يدير حصانه، ويمتطيه مبتعداً: "لا، لا، وداعاً".

لم يستطع السيد وليفر أن يحس بأنه رجل ثابت العزم إلا بعد خروجه من بوابة الحديقة، واجتيازه الزقاق الضيق الموحل، وقبل دخوله إلى المنعطف الذي يواريه عن الأنظار، لمعت في ذهنه فكرة مفاجئة كبح جماح حصانه، ووقف في مكانه مدة دقيقتين أو ثلاث، وهو يدير رأسه من جانب إلى آخر بطريقة مأساوية، وكأنه يحدق بشيء ما يبعث على الآسي الشديد. توضحت أمامه الرؤية، وقرر بشكل سريع العودة بعد أن تأمل هذا العالم المحير.

أدار حصانه وامتطاه ببطء، وبدأ ينفس عن مشاعره الجياشة بقوله: "يا لصغيرتي المسكينة! عندما أموت، لن يبقى لها أي شخص يدعمها سوى توم".

قابل الأولاد عودة خالهم بزف الخبر السعيد إلى أمهم التي كانت عند عتبة الباب، عندما وصل أخوها. في تلك الأثناء كانت تهدهد لطفلها لينام بين ذراعيها، لكنها لم تظهر أية علائم تدل على الحزن، عندما شاهدت أخاها، وإنما اكتفت بالقول: "لقد ذهب السيد موس ثانية إلى الحقل، هل تريد منه شيئاً؟".

قال السيد توليفر بلهجة لطيفة: "لا، لايا أختاه لاتقلقي - كل ما في الأمر - هو أنني سأتدبر أموري دون نقود - عليك فقط أن تحافظي على ذكائك وإبداعك كما عهدتك دوماً".

ذرفت السيدة موس دموعها ثانية لدى سماعها هذه الكلمات اللطيفة غير المتوقعة، ولم تستطع التفوه بكلمة.

"هيا، هيا! - لاتحزني سوف أحضر الصغيرة لزيارتك، أجل سوف أحضرها مع توم قبل ذهابه للمدرسة. يجب ألا تقلقي. سأكون على الدوام أخاً طيباً لك".

"شكراً على لطفك يا أخي"، قالت السيدة موس وهي تجفف دموعها، ثم استدارت نحو ليزي وقالت: "اركضي الآن، وأحضري البيضة الملونة لابنة خالك ماغي". ركضت ليزي مسرعة، وعادت ومعها حزمة ورقية صغيرة.

"إنها مغلية جداً يا أخي، وملونة بألوان جميلة، لقد صنعت خصيصاً لأجل ماغي. هلا وضعتها في جيبك رجاءً؟".

قال السيد توليفر وهو يضعها بحرص في أحد جيوبه: "أي، أي، وداعاً".

وهكذا خرج الطحان المحترم من أزقة باسيت والحيرة لاتزال تطوقه، لكنه أحس بأن الخطر قد زال. طرقت ذهنه فكرة مفادها أنه لو كان فظاً مع أخته، عندئذ سيكون توم أيضاً فظاً مع أخته ماغي يوماً ما، عندما يفارقها والدها إلى الأبد.

فالناس البسطاء، مثل صديقنا السيد توليفر، يعتنقون مشاعر فوق مستوى الشبهات بطريقة خاطئة، وهذا هو أسلوب المضطرب في التعبير عما يجول في نفسه، فحبه وخوفه على "ابنته الصغيرة "أعطاه دفعاً جديداً ليكون أكثر حساسية تجاه أخته.

الفصل التاسع

أشجار التنوب في غارم

بينما كانت المشاكل المحتملة التي ستواجهها ماغي في المستقبل تشغل تفكير والدها، كانت المسكينة تعاني من مرارة الحاضر. ليس للطفولة قدرة على التنبؤ بما سيحدث، لكنها مرحلة نتجاوز فيها كل الأحزان والذكريات المؤلمة التي كنا نتعرض لها.

في الحقيقة كانت بداية اليوم مأساوية بالنسبة لماغي فالسعادة التي غمرتها لأنها ستقابل لوسي، ومشاهدة المناظر الرائعة الجمال أثناء زيارتها مزرعة التنوب في غارم، حيث ستستمتع بالسماع إلى عزف السيد بوليت، كل هذا أفسد عليها فرحتها عند الساعة الحادية عشرة بقدوم الحلاق من شارع أوغز، الذي كان يتفوه بكلمات قاسية، وهو يمسك بخصلات الشعر الشعثاء قائلاً: "انظري هنا! تت - تت - تت! "بلهجة ممزوجة بالازدراء والشفقة. كانت كلماته ثقيلة جداً على قلب ماغي بدا السيد رابيت ،الحلاق، نموذجاً للرعب بالنسبة إلى ماغي التي أصبحت تحذر كثيراً من الدخول إلى شارع أوغز وربما لن تطأه أبداً بقية حياتها.

فوق كل هذا، كانت التحضيرات (لزيارة ما) دائماً قضية جدية بالنسبة لعائلة دودسن. حيث استمتعت مارثا وهي ترتب غرفة السيدة توليفر قبل نصف ساعة من الوقت المعتاد، وهكذا يتسنى لها الخلود للراحة باكراً. وعند الساعة الثانية عشرة ارتدت السيدة توليفر ملابسها استعداداً للزيارة. أما ماغي فكانت متجهمة تفتل كتفيها يمنة ويسرة، لتتفادى قدر الإمكان القبة العالية التي طوقت عنقها، بينما تعترض أمها على تصرفها قائلة: "لايا ماغي، لاتجعلي مظهرك يبدو قبيحاً يا حبيبتي!".

كان توم متألقاً وهو يرتدي بزته الزرقاء اللون التي اختارها بعد مشاحنات طويلة لانتقاء أفضل الملابس، وكان وجهه مرتاحاً وخداه يلمعان.

أما بالنسبة للوسي فقد بدت جميلة وأنيقة كما كانت البارحة، إنها مرتاحة تماماً في ملابسها، لذلك كانت تحدق بماغي بِحيْرَةٍ وشَفَقَةٍ تلك المسكينة فقد ارتسمت على وجهها علامات العبوس، وبدت غير مرتاحة على الإطلاق بتلك القبة العالية والشعر الملفوف، وحاولت ضبط نفسها، وهي تفتل كتفيها بين الفينة والأخرى، وتتصرف بأسلوب مشاكس وهي تمسك بمكعبات سُمح لهم

باللعب بها حتى يحين وقت الغداء، لأنها التسلية المناسبة التي يمارسها الصبيان والفتيات وهم في أجمل حللهم تمكن توم من بناء هرم كبير ومتين من الأبنية، أما ماغي المسكينة فلم تطق الاستلقاء على الأرض بذلك الثوب الذي قيدها - وهذا ما جعل توم يستنتج بأن الفتيات لايستطعن فعل أي شيء. إلا أن لوسي أثبتت قدرتها على بناء أبنية متينة أيضاً. حتى أن توم أبدى إعجاباً بها. وماغي أيضاً كانت ستبدي إعجابها بأبنية لوسي، وتترك بناءها الهزيل لتتأمل بناء لوسي عن طيب خاطر، لولا تلك القبة العالية التي ضايقتها كثيراً، ولولا سخرية توم من أبنيتها التي كانت تسقط بمجرد تركها، ووصفها بأنها "غبية "

صرخت ماغي بغضب:

"لاتسخر مني يا توم! لست غبية إنني أعرف عدة أشياء لاتعرفها".

"أوه، يالك من آنسة سريعة الغضب! لست حاد المزاج مثلك ولوسي لاتتصرف بغضب مثلك إنني أحب لوسي أكثر منك، أتمنى لو كانت هي أختي".

قالت ماغي وهي تقفز من مكانها بسرعة، وتقلب الهيكل الرائع الذي صنعه توم: "إذاً فأنت شرير وفظ عندما تتمنى أمنية كهذه".

حقاً لم تقصد أن تخرب له البناء، ولكن شاءت الظروف أن تعاكسها، شحب وجه توم غضباً، ولم يتفوه بكلمة، كان بمقدوره أن يصفعها، لكنه كان يعلم بأن صفع الفتيات عمل جبان وليس توم توليفر من يقبل أن ينعته الآخرون بالجبان.

وقفت ماغي خائفة وكئيبة، بينما نهض توم عن الأرض، ومشى مبتعداً عنها وهو شاحب اللون، نظرت لوسي إليهما بصمت، كقطة صغيرة توقفت عن المواء.

قالت ماغي وهي تلحق بتوم: "أوه توم، حقاً لم أقصد أن أخرب لك الهيكل، حقاً لم أقصد".

لم يلتفت إليها توم، بل أخرج من جيبه ثلاث حبات قاسية من البازلاء وقذف بها النافذة التي سمحت لأشعة الشمس الربيعية بالنفاذ من خلالها، وترك تلك المخلوقة الضعيفة تعاني الندم وحدها.

وهكذا كان الصباح كئيباً بالنسبة لماغي، ولم تحس بأشعة الشمس الدافئة ولم تتنسم الهواء العذب بسبب معاملة توم لها ببرود ولامبالاته بوجودها.

نادى لوسي لتنظر إلى عش الطيور دون أن يكترث لماغي، ونزع قضيبين من شجرة الصفصاف، وأعطى واحداً للوسي ولم قدم شيئاً لماغي

قالت لوسي: "ماغي، هل ترغبين بواحد؟ "، صمَّ توم إذنيه.

عندما وصلوا إلى مزرعة غارم المليئة بأشجار التنوب، كان منظر الطاووس وهو يفرش ذيله الملون على الجدار، كفيلاً بطرد المآسي الشخصية من الأذهان. وكانت تلك مجرد بداية لمناظر أبهى في مزرعة غارم فالحياة هناك رائعة حقاً، وتخلب الألباب، وتنسي المرء همومه الصغيرة: دجاج صغير الحجم تلحق به الصغار، وطيور تقلب ريشها الملون متباهية به، وطيور هندية تصرخ، وتسقط بعضاً من ريشها المرقط الجميل، والحمام يطير تارة، ويحط تارة أخرى، وغراب أبقع، وماعز، وكلب ضخم من الكلاب الأوروبية ربط بإحكام وكأنه أسد.

كانت هنالك حواجز مصنوعة من القضبان الحديدية وبوابات بيضاء اللون، وقد رصفت الطرقات المؤدية للحديقة بحصى صغيرة الحجم بأسلوب رائع الجمال تميزت به مزرعة غارم: اعتقد توم أن ذلك الحجم غير الطبيعي لضفادع الطين كان لسبب بسيط وهي تلك الممتلكات الهائلة للعم بوليت. فالضفادع التي عرفها كانت نحيلة وأصغر حجماً. أما المنزل فلم يكن أقل بهاءً من المزرعة: وهو عبارة عن جناحين مسوّرين، زين المنزل بزخرفات متعددة من الجص الأبيض اللون.

شاهد السيد بوليت زواره من لنافذة ففتح المزاليج التي أحكم بها إقفال النوافذ والأبواب خوفاً من هجمات الصعاليك. خرجت السيدة بوليت أيضاً إلى ممر الباب، حالما سمعت صوت أختها والأولاد :

"أوقفي الأولاد، بحق السماء، يا حبيبتي - لاتدعيهم يصعدون عتبة الباب ستحضر سالي الممسحة ومنفضة الغبار لتنظف أحذيتهم".

مماسح الباب الأمامي في منزل السيدة بوليت كانت جاهزة لمسح الأحذية: توم تمرد على ذلك التصرف، واعتبره إهانة له وحسب ألف حساب لزيارة قادمة لمنزل الخالة بوليت، فقد استاء عندما أجبروه على وضع حذائه ضمن المناشف، وهو ولد مولع بالحيوانات وقذفها بالحجارة.

صعدت النساء على درجات مصنوعة من خشب السنديان المصقول، ومفروشة بسجادة أنيقة جداً تصل حتى غرف نوم خالية من الأثاث.

قالت السيدة بوليت بلهجة عاطفية، "بينما كانت السيدة توليفر تسوي قبعتها ":

"حبيبتي، لقد أرسلت لي السيدة غراي قبعتي الجديدة".

قالت السيدة توليفر باهتمام كبير: "حقاً يا أختي؟ وما شكلها؟".

قالت السيدة بوليت، وهي تخرج رزمة مفاتيح من جيبها، وتنظر إليها

بلهفة: "إنها مناسبة لمعظم ملابسي وسوف تأسفين جداً إن ذهبت دون رؤيتها. لاأحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث".

هزت السيدة بوليت رأسها ببطء عندما قالت عبارتها الأخيرة، فصممت على اختيار مفتاحٍ من ضمن المجموعة.

قالت السيدة توليفر: "أخشى يا أختاه أن تضطربي عندما تخرجينها. أنا في توق شديد لرؤية التاج الذي صنع لأجلك". نهضت السيدة بوليت وهي بائسة الحال، وفتحت إحدى أبواب خزانتها البراقة جداً، حيث يتراءى لك بسرعة أنه من المفترض أن تشاهد القبعة الجديدة فقد اعتادت عائلة دودسن على التعامل مع أشياء كهذه بهالة قدسية مبالغ فيها، في هذه الخزانة احتفظت السيدة بوليت بشيء صغير وضعته بين طبقات من الكتّان -إنه مفتاح لباب الغرفة المقدسة!.

قالت السيدة بوليت: "يجب أن ترافقيني إلى أفضل غرفة لدي". سألت السيدة توليفر، بعد أن شاهدت ماغي ولوسي تحدقان بهما بشوق وفضول: "هل تسمحين يا أختي أن يراها الأولاد أيضاً؟".

أجابت العمة بوليت: "حسنٌ، ربما من الأفضل لهما الدخول - سوف تتعرفان على شيء ما ربما كان من نصيبهن".

وهكذا ذهبن في موكب مهيب عبر ممر مضاء بمصابيح فضية وضعت على قمة نافذة أغلق مصراعاها: بدا المكان هادئاً تماماً ومقدساً.

وقفت السيدة بوليت وفتحت باباً كشف عن غرفة بدت أكثر قداسة من الممر: إنها غرفة مظلمة، تسلل إليها بصعوبة ضوء خافت، مظهراً الأثاث وكأنه مجموعة جثث مغطاة بأغطية بيضاء اللون.

أمسكت لوسي بماغي، وخفق قلب ماغي بشدة.

فتحت السيدة بوليت الخزانة متظاهرة بالأسى الشديد، الذي غالباً ما تظهره عندما تكون في موكب جنائزي مهيب.

انبعثت رائحة أوراق وردية، وهي تسحب صفيحة فضية اللون الواحدة تلو الأخرى، مما زاد من فضول ماغي التي توقعت بعد ذلك الجهد أن ترى شيئاً غير طبيعي بدلاً من رؤية القبعة وما أبسط الأشياء التي كانت تؤثر في نفس السيدة توليفر!

تأملت القبعة بصمت لبضع لحظات ثم قالت مؤكدة: "حسن يا أختاه، لن أتحدث ثانية بموضوع التيجان!".

كان هذا امتيازاً عظيماً أحست به السيدة بوليت.

قالت بحزن: "هل ترغبين بأن أجربها يا أختي؟".

"حسنٌ، إن كنت لاتمانعين في خلع قبعتك هذه".

خلعت السيدة بوليت قبعتها، مظهرة انتفاخاً بارزاً من خصلات الشعر الملفوفة، التي كانت تدل على حكمة، ونضج النساء في تلك الأزمنة، ووضعت القبعة الجديدة على رأسها واستدارت ببطء مثل تاجر أقمشة، بحيث تركز السيدة توليفر كل انتباهها عليها.

قالت السيدة بوليت: "وأعتقد أن هذه الأشرطة على الجانب الأيسر كثيرة العدد، ما رأيك أن أنزع بعضها يا أختي؟".

أبدت السيدة توليفر اهتماماً مبالغاً بملاحظة أختها، وأدارت رأسها على جانب واحد "حسنٌ، من الأفضل أن تبقيها كما هي، إن تدخلت بصنعها يا أختي ربما تندمين".

قالت السيدة بوليت، وهي تخلع القبعة، وتتأملها بإعجاب: "هذا صحيح".

سألت السيدة توليفر، التي فكرت في إمكانية اقتناء قبعة مثلها، من قطعة الحرير التي لديها في المنزل: "كم بتقديرك ثمن هذه القبعة يا أختي؟".

لوت السيدة بوليت فمها للأعلى، وهزت رأسها ثم همست: "لقد دفع ثمنها السيد بوليت، قال بأنه عليّ أن أرتدي أفضل قبعة عند الذهاب إلى كنيسة غارم".

بدأت تسوي زركشات القبعة لتعيدها إلى مكانها في الخزانة، وبدأت تستعد لتأخذ دور لكئيبة من جديد، لأنها هزت رأسها ثم قالت أخيراً

"آه، من يدري، ربما لن أرتديها ثانية، مَنْ يعلم؟".

أجاب السيد توليفر: "لاتتحدثي هكذا يا أختاه أتمنى أن تدوم عليك صحتك".

"آه! ولكن الموت قادم إلى هذه العائلة، حدث هذا منذ ارتديت قبعتي الحريرية ذات اللون الأخضر. فالعم أبوت مريض وربما يموت في أية لحظة، ولا أستطيع ارتداء أي نوع من الملابس قبل نصف سنة من مماته".

"هذا فأل سيء. لايمكن لأحد التنبؤ بما سيحدث في المستقبل وما من إنسان مأمون العواقب "

"آه، إنها حكمة القدر". قالت السيدة بوليت وهي تعيد القبعة إلى الخزانة وتقفلها. حافظت على صمتها وهي لاتزال تهز برأسها، حتى خرجن من الغرفة المقدسة، إلى غرفتها الخاصة قالت وهي تبكي :

"أختاه، إن لم تشاهدي تلك القبعة حتى أموت، فتذكري أنني أريتك إياها في

هذا اليوم". أحست السيدة توليفر أنه من المفترض عليها أن تتأثر، لكنها لم تكن امرأة سخية الدموع، كانت امرأة قوية - ولم تستطع ذرف الدموع بسرعة مثل أختها بوليت، وغالباً ما أحست بعجزها أثناء حضور الجنازات. حدقت ماغي بهما بانتباه، وأحست أن هنالك غموضاً مؤلماً يطوق قبعة عمتها، التي اعتبرت ماغي صغيرة جداً على إدراك أمور كهذه، لكنها في الحقيقة كانت تفهم كل شيء يدور حولها، فيما لو أعطوها الثقة كاملةً.

أدرك السيد بوليت الذي كان جالساً في الأسفل مع توم، بأن الآنسات يشاهدن قبعة السيدة بوليت - وهذا ما جعلهن يطلن البقاء في الأعلى، أما توم فقد جلس مكرهاً، ضجراً على طرف الأريكة قبالة عمه بوليت مباشرة، الذي كان يحدق به بعينيه الرماديتين البراقتين، ويخاطبه ب "السيد الشاب".

عندما سأله العم بوليت: "حسنٌ أيها السيد الشاب، ماذا ستتعلم في المدرسة؟ "، بدا توم مرتبكاً وخجولاً، وهو يفرك وجهه بيديه مجيباً: "لاأعرف".

بالفعل كان من المحرج جداً أن يجلس وجهاً لوجه أمام العم بوليت، حتى أن توم لم يتمكن من تأمل الرسوم المطبوعة على الجدران، أو أقفاص الطيور، أو مزهريات الورد الرائعة الجمال، لم ير سوى حذاء عمه بوليت. في الحقيقة، على الرغم من تقدير توم لقدرات عمه العقلية وتفوقه المادي، بيد أنه قرر بأن لايصبح سيداً مزارعاً، لأنه لايريد أن يكون شخصاً أبلهاً ذي ساقين نحيلتين مثل عمه بوليت.

إن خجل الغلام ليس دليلاً، على الإطلاق، أنه يقدر من يخجل منه. وعندما تتعامل بفوقية مع صبي يافع على أساس أنك أكبر منه سناً وحكمةً، وتشجعه على التصرف معك بحرية، فاعلم علم اليقين بأنك تصبح في نظره شخصاً غريب الأطوار وربما يحتقرك.

من الممكن أن مشاعر الخجل لدى الفتى كانت ستزول، لو تمكن في تلك اللحظة من ركوب حصان متململ، أو حمل بندقية، وكان سيشعر عندئذ بأنه محط إعجاب الآخرين وحسدهم.

يمكنني على الأقل الجزم بأن تلك الأحاسيس راودت توليفر في تلك اللحظات الحرجة.

إذ غالباً ما كنت تراه يختلس النظر من وراء قضبان البوابة موبخاً الغنم بطريقة تدب فيهم الذعر، وتجعله يشعر ببراعته وتفوقه على تلك الحيوانات الدونية والأليفة. وتتبادر لنفسه المشاعر ذاتها عندما يطارد كلاب الجيران، ويستهزأ من الفتيات الصغيرات. لم يكن السيد بوليت يجرؤ على ركوب الخيول

الضخمة والسريعة، ولا على حمل سلاح ناري، لذلك وصفه توم بالشخص المغفل، مع العلم أنه وضع في الحسبان أن السيد بوليت كان "ثرياً جداً".

الشيء الوحيد الذي كان يواسي توم في تلك اللحظات الحرجة وهو جالس قبالة العم بوليت، سكاكر النعناع.

سأله السيد بوليت وهو يقدم له السكاكر: "هل تحب سكاكر النعناع أيها السيد الشاب "لدى ظهور الفتاتين الصغيرتين، أحس السيد بوليت بالسلوان وتفاءل بتناول كعكة الحلوى اللذيذة التي اشتهاها كثيراً في الأيام الرطبة، وحالما انسابت قطع الحلوى الشهية بين أصابع الأولاد، حتى طلبت منهم الخالة بوليت الانتظار ريثما تحضر الصينية والصحون لكي لايلوثوا الأرضية لم تكترث لوسي لأوامر الخالة بوليت، فالكعكة بدت شهية جداً ومن الأفضل التهامها، أما توم فقد انتظر الفرصة المواتية حتى يبتلع القطعة التي كانت بيده بعد أن قسمها إلى نصفين، وحالما انشغل الكبار بتجاذب أطراف الحديث، ابتلعها ومضغها خلسة دون أن يسترعي انتباه الآخرين.

بالنسبة إلى ماغي، بدت كعادتها، "مفتونة بالتماثيل المقدسة الجميلة "التي اشتراها العم بوليت، وفي الحال سقطت قطعة الحلوى من يدها، ولسوء الحظ وقعت عند أسفل قدمها - وهذا كان مبعث لإثارة غضب العمة بوليت، حتى أنها يئست من سماع الموسيقى اليوم.

لكنها صبت أمالاً كبيرة على لوسي التي لم تكن ترفض طلباً لماغي، والتي سمعتها طيبة لدى العمة بوليت.

وهكذا همست للوسي، التي هرعت بسرعة إلى عمها بوليت وجثت عند ركبتيه قائلة:

"عماه، هلاّ تكرمت، وعزفت لنا لحناً جميلاً؟".

اعتقدت لوسي أن لدى العم بوليت مهارة فائقة في العزف، عندما كانت تسمع تلك الألحان العذبة.

في الواقع هذا أيضاً رأي أغلبية جيرانه في غارم.

لقد اشترى السيد بوليت صندوق الموسيقى، ولديه مسبقاً فكرة وافية عن الأزرار التي تصدر ألحاناً عذبة.

كانت هذه "التحفة الموسيقية "النادرة دليلاً على رهافة حسه لكن السيد بوليت لايبدي موافقة فورية عندما يطلب منه أحد ما إظهار مواهبه الغنية، حتى لايقلل من أهميتها، لذلك حرص أشد الحرص على التمنع ولو لبضع دقائق عن تلبية رغبة لوسي.

لدى العم بوليت برنامج مُنسَّق للمناسبات الاجتماعية العظيمة، وبهذا طوّق نفسه بهالة قدسية حمته من الاضطرابات المؤلمة الكثيرة، وترك لنفسه مجالاً وافياً من الحرية لتلبية ما يرغب به فقط.

عندما صدحت الموسيقى، تلاشى ذلك القلق الذي أحست به ماغي، ولأول مرة نسيت تماماً ذلك العبء الثقيل الذي يعلو رأسها - ونسيت أن توم كان غاضباً منها، بدا وجهها متألقاً بالسعادة، وهي جالسة بلا حراك بيدين متشابكتين مع بعضهما البعض، كان مظهرها مرضياً لأمها، التي أحست بجمال ابنتها عندما كانت تبدو هادئة، على الرغم من سحنتها السمراء. وبعد أن توقف العزف طوقت عنق توم بذراعيها قائلة: "أوه، توم، أليست معزوفة رائعة؟".

لكي لاتعتقد عزيزي القارئ بأن توم شخص متمرد وغير مبال بالمشاعر الإنسانية، أو أنه لازال غاضباً من ماغي، لابد أن أخبرك بأنها عندما طوقته، انسكب كأس خمرة نبات الربيع الذي كان بيده في تلك اللحظة كان يجب عليه إظهار استيائه بالقول: "انظري الآن ماذا فعلت! "، ولاسيما بعد الاستنكار الشديد الذي أظهره الجميع بسبب تصرف ماغي الطائش.

قالت أمها بغضب: "لماذا لاتجلسين هادئة يا ماغي؟".

قالت العمة بوليت: "لاينبغي على الفتيات الصغيرات المجيء لزيارتي عندما يتصرفن بتلك الطريقة".

قال العم بوليت: "لماذا؟ إنك آنسة صغيرة غير مهذبة".

جلست ماغي المسكينة ثانية، وقد نسيت كل ما سمعته من موسيقى عذبة، وصدحت في روحها ثانية أصوات شيطانية.

توقعت السيدة توليفر حدوث مزيد من المشاكل إن بقي الأولاد في الداخل، لذلك اقترحت بأن يلعبوا في الخارج، كما أعطتهم السيدة بوليت الإذن باللعب، شريطة أن لايتجاوزوا الممرات المرصوفة في الحديقة، وإن أرادوا مشاهدة الدجاج، عليهم مراقبتها من مسافة بعيدة، هذا الشرط وضع لعلم العمة بوليت بأن توم كان مولعاً بمطاردة الطاووس ليرى كيف يتساقط ريشه الملون الجميل.

و الآن بمقدور السيدة توليفر أخذ فترة استراحة بعد المشوار الممتع في رؤية القبعة الخلبية، ومناقشة أمر السيدة غليك وأختها بوليت.

قالت لتدخل مباشرة في صلب الموضوع: "يصعب عليّ كثيراً أن تغادر الأخت غليك منزلي وهي مستاءة لاأتمنى أن أسبب الإزعاج لأية واحدة من إخوتي".

قالت الخالة بوليت: "آه، لاأهمية لما فعلته جين لن أتكلم عن خصوصياتها خارج نطاق العائلة - باستثناء الدكتور تيرنبل، لكنني أعتقد بأن جين تعاني من تدهور في صحتها. غالباً ما قلت هذا لبوليت، وهو يعلم بالأمر.

قال السيد بوليت، وقد بدأ يهتم بركبته، ويضع منديل جيبه، وهي عادة غالباً ما كان يتبعها عندما يأخذ الحديث مساراً مشوقاً :

"لِمَ لم تقولي لي هذا يوم الاثنين الماضي، بعد عودتنا من شرب الشاي معهم".

قالت السيدة بوليت: "كم أودُّ لو أنني فعلت، فأنت تتذكر الأشياء التي أقولها لك أكثر مما أتذكرها أنا. لديه ذاكرة خصبة جداً". تابعت حديثها، وهي تحدق بأختها متأثرة: "كم سأشعر بالبؤس إن أصابه مكروه، فهو من يذكرني دوماً بجرعات الدواء التي أتناولها". أضاف السيد بوليت مؤكداً، وهو يداعب سكاكر النعناع بلسانه:

"حبات الدواء تتناولها ليلاً، والشراب عند الساعة الحادية عشرة والرابعة، ومزيج منهما عند الحاجة".

قالت السيدة توليفر، التي أدركت بشكل طبيعي أنه من الأفضل التطرق لموضوع الدواء بما يخص السيدة غليك: "آه، ربما من الأفضل للأخت غليك أن تستشير أحياناً الطبيب، بدلاً من مضغ الأعشاب التركية".

قالت السيدة بوليت، وهي ترفع يدها، ثم تنزلها :

"إنه لشيء مروع أن يتعامل الناس مع متطلباتهم بتلك الطريقة! إننا نعيش في ظل رعاية العناية الإلهية، إذاً ما فائدة الأطباء، إن لم نستشرهم عند الضرورة؟ وإن كان لدينا المال الوفير فلا مانع من الإنفاق على صحتنا. إنني أخجل حقاً من الحديث بهذا الشكل".

قال السيد بوليت: "حسنٌ، لايوجد شيء نخجل منه فالدكتور تيرنبل لديه مريضة أخرى من هذه الأبرشية، والآن ماتت السيدة سوتن".

قالت السيدة بوليت: "هل تعلمين يا حبيبتي بأن بوليت يحتفظ بكل زجاجات المعالجة؟ ولن يبيع ولا واحدة منها. الأدوية تملأ رفوف منزلي".

أضافت وهي تبكي :

"لكنني أخشى أن أفارق الحياة في أية لحظة تذكري يا أختاه، الصندوق الذي يحوي حبات الدواء يوجد في خزانة غرفتي".

قالت السيدة توليفر: "لاتتكلمي عن الموت يا أختي إن فارقت الحياة فلن أجد عندئذ أي شخص قادر على التوفيق بيني وبين الأخت غليك فأنت الوحيدة التي باستطاعتها إقامة الصلح بينها وبين لسيد توليفر، لأن أختي دين لاتؤيدني أبداً، حتى لو تكلمت تكون حيادية دوماً في مواقفها".

قالت السيدة بوليت، وهي مستعدة لإفراغ بقايا يأسها على حساب أختها:

"حسنٌ، تعرفين يا حبيبتي أن زوجك رجل أخرق وفظ، إنه لايتصرف بلباقة كما ينبغي مع عائلتنا، بالإضافة إلى أن الولدين يشبهانه كثيراً - فالولد مؤذ، ويتحاشى مقابلة خالاته وأعمامه، والفتاة سمراء البشرة وغير مهذبة يالحظك السيء يا حبيبتي!!، إنني متأسفة حقيقة لأجلك، فلطالما كنت الأخت المفضلة لدي، وكنا دائماً نتفق في كل شيء".

قالت السيدة توليفر وهي تمسح دمعة صغيرة انسابت على زاوية عينها:

"أعلم أن توليفر متسرع، ويتفوه بكلمات غريبة، لكنني واثقة من أنه لايعترض أبداً على استقبال عائلتي في المنزل، منذ تزوجته وهو يرحب بكل شخص".

قالت السيدة بوليت متأثرة :

"لاأتمنى أن أحملك هموماً أكثر يا حبيبتي، أعلم أنك متضايقة من تصرفات زوجك مع أختي المسكينة والأولاد كذلك يتصرفون مثله أعتقد أن وضعك مأساوي جداً".

كان من الطبيعي أن يؤثر هذا السبر الواضح لوضعها في نفس السيدة توليفر. لم تفكر في صعوبة موقفها بل كانت الحياة تسير حسب رأيها بأسلوب سهل مستساغ، ولكن بما أن الآخرين، جزموا بوضعها الصعب، فلا بد لها من الاعتراف بصحة ما يقولون وما يفكرون به.

قالت وقد سكنت المخاوف قلبها من سوء حظها :

"إنني واثقة يا أختي من عجزي وضعفي، فأنا لاأستطيع إسعاف نفسي في شيء. ولكن لاتوجد امرأة تكافح لأجل أولادها مثلي، أفعل كل ما باستطاعتي لتأمين الراحة لهما، وأصنع النبيذ الشهي - بأفضل الطرق! وأقدم دوماً لضيوفي خمرة إسبانية الأصل. إنني مسرفة للغاية في إكرام ضيوفي، أما بالنسبة لارتداء ملابس مرتبة والتعامل مع الناس، فلا أحد في الأبرشية يستطيع انتقادي، إنهم يكنون لي كل الاحترام، ويعترفون بأنني لاأسيء لأحد، وأتمنى الخير لكل الناس ويعرف الجميع بأنني أعد أشهى فطيرة محشوة بلحم الخنزير. فإن فارقت الحياة في أية لحظة، لاينبغي أن أخجل من شيء ما من امرأة تبذل قصارى جهدها في طريق الخير مثلي".

قالت السيدة بوليت وهي تميل برأسها على جانب واحد، وتنظر إلى أختها متأثرة :

"ولكن تعلمين يا حبيبتي أن كل هذا غير مفيد، عندما يرهن زوجك أملاكه ويأتي الناس لشراء أثاث منزلك وهذا عار سيلحق بعائلتنا".

قالت السيدة توليفر: "ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ فالسيد توليفر ليس من الرجال الذين يتقبلون إرشادات وتعاليم الآخرين - حتى ولو ذهبت للكاهن، واستشرته فلن يأخذ بالنصيحة ثم إنني لاأدعي الدراية بأمور الإنفاق واستثمار الأموال لايمكنني أبداً التدخل بعمل الرجال كما تفعل الأخت غليك".

قالت السيدة بوليت: "حسنٌ، في هذا الخصوص، أنت تشبهينني يا حبيبتي أعتقد أنه من اللائق أكثر أن تهتم السيدة غليك بأمور بيتها، بدلاً من إملاء المواعظ على الآخرين وتلقينهم كيف يتصرفون بأموالهم وكنت دائماً على نقيض من جين: فهي تحب الأشياء مجردة من كل زخرفة، أما أنا فأحبذها منقطة مزركشة، وأنت يا حبيبتي توافقينني الرأي، إننا دائماً على وفاق". قالت السيدة توليفر:

"أجل يا صوفي، أتذكر القماش الذي اخترناه سوية، كان أزرق اللون ومزخرفاً بنقط بيضاء اللون، لدي واحد في غرفة النوم الآن، ولكن لو ذهبت لزيارة الأخت غليك، وأقنعتها بالصلح مع توليفر، سأكون شاكرة لك فضلك لطالما كنت أختاً طيبة لي".

قالت السيدة بوليت، التي لم يَعْمِها تعاطفها مع أختها، عن التصرف حسب المبادئ المتبعة: لم يغب عن بالها أن للناس حرية التصرف في ثروتهم

"ولكن حسب الأصول، ينبغي على السيد توليفر زيارتها، والاعتذار عما بدر منه من تصرف طائش إن استقرض منها النقود، فلا ينبغي عليه التعالي عن الاعتذار".

قالت المسكينة السيدة توليفر بأسلوب مشاكس :

"ولا فائدة من الحديث عن الاعتذار. حتى لو جثيت حافية القدمين على الحصى أمام توليفر، فلن يخضع أبداً، ولن يذل نفسه".

"حسنٌ، لاتتوقعي مني إقناع جين بالاعتذار. فكرامتها فوق كل شيء. ربما اعتذرت في حال فقدت صوابها، ولكن ما من أحد في عائلتنا ذهب إلى مستشفى المجانين".

قالت السيدة توليفر: "لاأريدها أن تعتذر، ولا أفكر بهذا، ولكن إن غضت النظر عن الديون، ولم تطالب بأموالها، وهذا طبيعي عندما تكون العلاقة بين

أختين، عندئذ يكون الزمن كفيلاً بإصلاح الأمور، وسينسى توليفر كل ما حدث، ويعودان صديقين ثانية".

إنك تدرك، عزيزي القارئ، بأن السيدة توليفر لم تعِ بعد أن زوجها مصمم لدرجة لايمكن لأحد ثنيه عن عزمه، بأن يدفع الخمسمائة جنيه.

قالت السيدة بوليت بكآبة: "حسنٌ يا حبيبتي، لاأريد مساعدتك على فعل الإساءة سوف أفعل ما بوسعي، فلا أرغب أن يقال بين الأصحاب بأن عائلتنا على خلاف بينها. سأقول هذا لجين، ولن أنسى أن أزورها غداً، إن لم ينسَ بوليت ما رأيك، سيد بوليت؟".

قال السيد بوليت: "ليس لدي مانع".

كان السيد بوليت يسعى جاهداً لمنع حدوث أي شجار، حتى لايلجأ إليه السيد توليفر، ويطلب منه مالاً.

يصبح السيد بوليت عصبي المزاج عندما يحس أن استثماراته في خطر، وبرأيه لايمكن للرجل أن يضمن أمواله إلا بأن يشتري بها أرضاً.

وبعد نقاش مختصر، تقرر أنه من الأفضل أن لاترافقهما السيدة توليفر لزيارة الأخت غليك، تذكرت السيدة بوليت حلول موعد شرب الشاي، فاستدارت لتسحب من الدرج منديل المائدة الحريري الناعم ذا اللون الأحمر الضارب للرمادي في الواقع، فتح الباب في تلك اللحظة وبدلاً من صينية الشاي، كانت سالي تمسك بيدها جسماً يثير الهلع حتى أن السيدة بوليت والسيدة توليفر أطلقتا صرخة، جعلت العم بوليت يبتلع قطعة سكاكر النعناع - وهذه هي المرة الخامسة التي يبتلع فيها قطعة سكاكر - حسب ما ذكر فيما بعد.

الفصل العاشر

ماغي تتصرف أسوأ مما توقعت

الجسم الذي أثار هلع الحاضرين كان جسم لوسي الصغيرة، التي تبللت بالوحل من أسفل قدميها الصغيرتين حتى أعلى قبعتها، حتى وجهها بدا مثيراً للشفقة. ولمعرفة قصة ذلك الشبح الصغير في ردهة العمة بوليت، علينا العودة إلى اللحظة التي ذهب فيها الأولاد الثلاثة للعب خارج المنزل، وبعد أن تمكنت أصوات شيطانية صغيرة من امتلاك روح ماغي منذ بداية النهار، حتى تراكمت جميع الاضطرابات التي سببت لها القلق، وأتحدَّت لتشكل قوة هائلة في نفس ماغي، ولاسيما بعد استياء توم منها عندما سكبت كأس النبيذ عليه، فقال :

"هيا لوسي، تعالي معي". ومشيا معاً حيث توجد الضفادع، دون الاكتراث لماغي وكأنها غير موجودة بعد ذلك، لم تتمكن ماغي من التحكم بفضولها أكثر، فتمشت خلفهما متهادية على مسافة بعيدة قليلاً، مثل سمكة هلاميةومن الطبيعي أن لوسي كانت سعيدة بمعاملة ابن خالتها توم معها، واستمتعت كثيراً وهي تراقبه يدغدغ ضفدعاً بديناً بعصاه لكنها تمنت أيضاً لو أن ماغي كانت تستمتع معهما، وكانت ماغي - بلا شك - ستطلق اسماً على الضفدع، وتسرد لهما تاريخه في الماضي، لأن لوسي آمنت بشكل تقريبي بصحة القصص التي ترويها ماغي حول الكائنات الحية التي جاءت بمحض الصدفة - على عكس توم الذي سخر من هراء ماغي.

وهكذا سيطرت على المصادفة، رغبة ملحة في معرفة تاريخ ذلك الضفدع المفرط في البدانة، فهرعت مسرعة نحو ماغي لتقول :

"أوه، ماغي، هنالك ضفدع مضحك كبير الحجم! تعالي، وانظري إليه". لم تتكلم ماغي، لكنها استدارت بعيداً عنهما وهي عابسة الوجه طالما أن توم يفضل لوسي عليها، إذاً فلوسي تشاركه في قسوة القلب في السابق لم يكن توم مكترثاً للوسي فكان يترك أمر الاهتمام بها، وتدليلها لماغي، التي لم تستطع أبداً أن تقسو على لوسي الصغيرة الجميلة، تماماً مثلما لن تقسو على فأرة صغيرة بيضاء اللون أما الآن، فهي تتمنى أن تزعج لوسي، وتجعلها تبكي، لأن ذلك سيضايق توم أيضاً. ولولا وجود لوسي هنالك، كانت ماغي واثقة من أن توم سيطلب رضاها في الحال.

إنه أمر في غاية المتعة أن تدغدغ ضفدعاً بديناً متبلد الأحاسيس، حتى

يبدو من المستحيل الشعور بالسأم من مداعبته، لكن توم بدأ يلتفت حوله باحثاً عن تسلية أخرى إلا أن الحظر مفروض عليهم بعدم الخروج من تلك الحديقة المستديرة الشكل، وتجاوز الممرات المرصوفة، وما من أمل في ممارسة أي نوع من الرياضة في ظل هذا التقييد، الذي لم يبعث في نفس توم الإحساس بالسرور، أكثر من كسر القيود المفروضة، فبدأ يفكر في ممارسة العصيان وزيارة البركة التي تقع خلف الحديقة

قال وهو يومئ برأسه للأعلى والأسفل: "أقول يا لوسي، ماذا تعتقدين أني فاعل الآن؟".

أجابت لوسي بفضول: "ماذا ستفعل يا توم؟".

قال السلطان الصغير: "أنوي الذهاب إلى البركة، ومشاهدة سمك الكراكي يمكنك مرافقتي إن رغبت "؟

قالت لوسي: "أوه توم، كيف تجرؤ؟ لقد طلبت منا الخالة ألا نخرج من الحديقة".

قال توم: "أوه، سوف أخرج من الجانب الآخر للحديقة ولن يتمكن أحد من رؤيتنا. ثم أنني لاأهتم حتى ولو رؤونا - سوف أركض بسرعة إلى المنزل".

قالت لوسي، التي لم تواجه أبداً مثل هذا الإغراء من قبل: "لكنني لاأستطيع الركض".

قال توم: "أوه، لاتهتمي - لن يعاقبونك، قولي بأنني أنا من أخذتك معي".

مشى توم، ولحقت به لوسي، مستمتعة بهذا التصرف المشاكس - ومنتشية أيضاً بفكرة مراقبة سمك الكراكي، الذي لم تستطع أن تميزه عن الدجاج. شاهدتهما ماغي وهما يغادران الحديقة، فلم تتمكن من كبح جماح فضولها، فلحقت بهما ذلك الفضول الذي انتصر على مشاعر الغيرة والغضب، إذ لم تطق ماغي أن تكون غافلة عما يمكن أن يشاهداه هناك وهكذا بقيت على مسافة قريبة خلفهما، دون أن يلاحظها توم الذي كان منهمكاً في البحث عن سمك الكراكي - ذلك الوحش الممتع، إذ قيل له بأن ذلك السمك ضخم ومعمر جداً، وشهي بشكل ملحوظ

لكن لم يظهر سمك الكراكي بينما كان توم يبحث عنه، وإنما لمح شيئاً ما يتحرك بسرعة تحت الماء، مما أثار انتباهه، فانتقل إلى البقع الأخرى من حافة البركة

قال هامساً: "هنا، لوسي! تعالي إلى هنا! انتبهي! ابق مكانك على العشب - لاتتقدمي نحو الأمام!".

أضاف توم، مشيراً نحو شبه جزيرة عشبية، وهو يطأ على الوحل من كلا الجانبين، لأن توم أدرك أن الفتاة لاتستطيع المشي في الأماكن الملوثة، وكان يزدري هذه الميزة لدى الفتيات ازداد حرص لوسي أكثر بعد تحذير توم لها، فانحنت لتنظر إلى سهم ذهبي اخترق الماء. لقد كانت أفعى مائية، هكذا أخبرها توم، وأخيراً استطاعت لوسي أن ترى تموجات جسدها الملتف، وهي مندهشة كثيراً من مشاهدة أفعى تسبح في الماء. انسلت ماغي أقرب فأقرب - هي الأخرى تريد أيضاً مشاهدتها، على الرغم من أن الأمر صَعُبَ عليها أكثر من أي أمر آخر، لأن توم لم يكترث لها. ولم يطلب منها المجيء. أخيراً اقتربت لوسي، فقال توم الذي كان مدركاً لوجودها، لكنه لم يلاحظها حتى أصبحت أمامه: "والآن، ابتعدي يا ماغي من هنا، لامكان لك هنا على الأعشاب، ولم يطلب منك أي أحد المجيء". في تلك اللحظة كانت العواطف في صراع داخل قلب ماغي الصغير، إنها مأساة، لها أهميتها ولا بد من فعل مثير ينقذها من تلك المأساة فأقصى ما استطاعت ماغي فعله، بعد أن تعطشت للعنف هو أنها دفعت بذراعها الأسمر الصغير لوسي المسكينة نحو الوحل الذي وطَئَتْه حوافر الأبقار. لم يستطع توم منع نفسه من ضرب ماغي صفعتين خفيفتين على ذراعها، وهو يسرع للامساك بلوسي، التي استلقت باكية بلا معين تراجعت ماغي بضع خطوات للوراء، ولم يبدُ عليها الأسف أبداً. عادة ما كانت تشعر بالندم فوراً عندما تقترف ذنباً، ولكن الآن توم ولوسي جعلاها تشعر بالبؤس الشديد، لذلك كانت سعيدة في إفساد فرحتهما - سعيدة بأن تسبب الإزعاج لكل شخص تصادفه. فلماذا تأسف؟ فتوم لايسامحها أبداً، مهما تأسفت أو ندمت.

حالما نهضت لوسي، وكانت مستعدة للمشي، صرخ توم مؤكداً: "تعرفين يا آنسة ماغ بأنني سأخبر ماما".

لم يكن من عادة توم أن "يخبر"عما تفعله ماغي من أخطاء، ولكن لابد أن تأخذ العدالة مجراها. وتعاقب ماغي بأشد عقوبةهو لم يذكر أبداً كلمة "العدالة "، ولم تكن لديه رغبة في معاقبة ماغي أما لوسي فقد انتابتها مشاعر الغضب بعد سقوطها في الوحل - تلوث ثوبها الجميل، وتبللت بالوحل من رأسها حتى أخمص قدميها - فلم تفكر كثيراً بالقضية التي كانت برمتها غامضة بالنسبة إليها. لم تخمن السبب الذي جعل ماغي تتصرف بهذا الشكل العنيف، ولم تبدِ أية شهامة في التوسل لتوم بأن لا"يخبر "أحداً عما حدث، اكتفت بالبكاء ورافقت توم مسرعة إلى المنزل، بينما جلست ماغي تحت الشجرة تراقبهما بوجهها الصغير الذي ارتسمت عليه علامات الغضب والحقد.

قال توم عندما وصل إلى باب المطبخ "سالي "، نظرت إليهما سالي مندهشة، وهي تمضغ قطعة خبز مدهونة بالزبدة، وتمسك شوكة بيدها - "سالي، أخبري ماما بأن ماغي أوقعت لوسي في الوحل".

قالت سالي ساخرة: "ولكن كيف وصلتم إلى ذلك المكان الموحل؟".

خيال توم لم يسعفه بسرعة للإجابة على هذا السؤال الذي لم يتوقعه، وتنبأ بأن ماغي لن تكون المذنب الوحيد في هذه القضية لذلك خرج بهدوء من باب المطبخ، تاركاً سالي تخمن ما حدث

كما تدرك عزيزي القارئ، لم تضع سالي الوقت في إحضار لوسي إلى باب الردهة، فالحمل ثقيل عليها وليس بوسع عقل واحد التفكير بحل لهذه المشكلة العظيمة، لأن أمر كهذا يحدث في منزل في مزرعة غارم، هو خطب جلل، ويحتاج لعدد من العقول لإيجاد مخرج منه

صرخت الخالة بوليت: "يا إلهي! أبقيها عند الباب يا لوسي!".

أحست السيدة توليفر بأنها المسؤولة عن تلويث ثياب لوسي، وبأن أختها دين ستوقع اللوم عليها، نهضت نحو لوسي تتفحص ما أصابها من ضرر، وقالت:

"إن ملابسها ملوثة بالكامل بالوحل".

قالت سالي: "ماغي هي التي أسقطتها في الوحل، السيد توم قال ذلك، يجب عليهم ألا يذهبوا إلى البركة، فالمكان هناك موحل وملوث".

قالت السيدة بوليت بحزن: "هذا ما كنت أخشاه يا حبيبتي، لقد حدث ما تنبأت به لاأعلم كيف سيكون مصير ولديك".

صمتت السيدة توليفر، وقد أحست بالفعل أنها بالفعل أم بائسة وكالعادة، ألحت عليها فكرة وحيدة مفادها أن الناس سيعتقدون بأنها امرأة آثمة تستحق أن يعاقبها الله بمشاكل أمومة، بينما أعطت السيدة بوليت التوجيهات لسالي بوقاية المكان من الأوساخ وفي الحال أوكلت مهمة إحضار الشاي إلى الطباخ، وذهبت السيدة توليفر لتوبخ هذين الولدين المشاكسين، مفترضة أنهما على مرمى من النظر، ولكن بعد قليل من البحث وجدت توم متكأً، بلا مبالاة إلى سياج أبيض اللون يحيط بباحة الطيور الداجنة، وهو يهز بعصاه بطريقة تثير الديك الرومي

قالت السيدة توليفر بصوت كئيب: "توم، أنت ولد مشاكس، أين أختك؟".

"لاأعرف "، أجاب توم بعد تلاشي حماسته لتحقيق العدالة وإنزال أشد العقوبة بحق ماغي، وذلك لأنه أدرك بأن اللوم سيقع عليه أيضاً.

قالت أمه: "أين تركتها؟".

قال توم مظهراً بوضوح أنه لايكترث لأي شيء سوى العصا والديك الرومي: "تجلس تحت الشجرة قبالة البركة".

"إذاً، اذهب، واحضرها في الحال، يالك من ولد مشاكس! وكيف ذهبت إلى البركة، وأخذت أختك إلى ذلك المكان المتسخ؟ تعلم أنها سوف تؤذي، متى سنحت لها الفرصة".

كان ذلك أسلوب السيدة توليفر، فعندما توقع باللوم على توم لابد أن تحمل ماغي عبء الأخطاء كلها.

فكرة جلوس ماغي وحدها قرب البركة، أثارت كالعادة مخاوف السيدة توليفر.

وقفت على علو لتتبين تلك الفتاة المتعبة، بينما مشى توم - بخطى عادية - في طريقه لإحضارها.

قالت السيدة توليفر بصوت عال، دون أن تدرك بأنه ما من أحد يسمعها: "يوجد عدد من الأولاد قرب الماء. يوماً ما سيغرقون في ذلك النهر. كم أتمنى لو أن النهر بعيد جداً من هنا".

لكنها لم ترَ ماغي، وعاد توم على الفور وحيداً، فتأججت مشاعر الخوف أكثر، وهرعت لملاقاة توم

قال توم: "ماما، لم أجد ماغي في أي مكان حول البركة، لقد ابتعدت".

يمكنك أن تلاحظ عزيزي القارئ، كيف هرع الجميع خوفاً للبحث عن ماغي، وكان من الصعوبة إقناع أمها بأنها لم تغرق في البركة

أشارت السيدة بوليت كعادتها، بأن نهاية تلك الطفلة ستكون سيئة إن استمرت بهذا الوضع المشاكس لا أحد يعلم ماذا تخبئ لها الأقدار: أما السيد بوليت فكان مضطرباً لحدوث طارئ كهذا - تأخر موعد شرب الشاي، وذعرت الطيور الداجنة، وركضت بشكل جنوني داخل المدجنة جيئة وذهاباً - بحث في قن الإوز، فربما كانت ماغي مختبئة هناك

بعد برهة قصيرة، فكَّر توم في احتمال عودة ماغي إلى المنزل، (لكنه لم يجد سبباً لذكر هذا أمام الملأ، فقد كان سيعود للمنزل فوراً لو تعرض لمثل هذه الظروف)، ودعم هذه الفكرة اقتراح أمها بالعودة للمنزل

قالت وهي تنظر إلى تلك الضحية البريئة، الملتفة بشال والجالسة عارية القدمين على الأريكة :

"لأجل خاطري يا أختي، أرسلي في طلب العربة كي تقلنا إلى المنزل - ربما نجدها في طريقنا. لاتستطيع لوسي الذهاب مشياً وثيابها متسخة".

لبّت السيدة بوليت طلبها عن طيب خاطر، لأنها رغبت في إيجاد أسرع حل للخروج من هذه الورطة، والجلوس بهدوء ونظام داخل المنزل، وفي الحال كانت السيدة توليفر داخل العربة تنظر بقلق أمامها بحثاً عن ماغي.

السؤال الذي كان يلح على كل شخص هو ماذا سيقول الأب لو ضاعت ماغي؟

الفصل الحادي عشر

محاولة ماغي الهروب من واقعها

كالعادة، كانت نوايا ماغي على نطاق أوسع فاق مخيلة توم فالقرار الذي اتخذته ماغي بعد ذهاب لوسي وتوم، لم يكن العودة للمنزل كما توقع توم

لا! سوف تهرب وتذهب إلى الغجر، ولن يراها توم بعد ذلك تلك الفكرة كانت حديثة الولادة، فغالباً ما كانوا يشبهونها بالغجرية، وبعد هذا البؤس الذي تعاني منه، بدا له من الأفضل العيش في ظل خيمة صغيرة في الخلاء: اعتقدت بأن الغجر، سيحسنون استقبالها، ويرحبون بها، ويقدّرون علمها وسعة اطلاعها. صرّحت مرة عن أفكارها هذه أمام توم، واقترحت عليه أن يصبغ وجهه باللون الأسمر، لكي يهربا معاً، لكن توم رفض المشروع بازدراء، مشيراً إلى أن الغجر لصوص، وبالكاد يحصلون على لقمة العيش، وليس لديهم وسيلة للتنقل سوى الحمار. على كل حال، أحست ماغي اليوم بأنها وصلت إلى قمة بؤسها وما من ملجأ لها سوى الغجر، لذلك نهضت من تحت الشجرة، وقلبها، مليء باليأس وهي تفكر بأنها تعاني من أزمة حقيقية في حياتها، واتجهت رأساً نحو مشاع دانلو، حيث يسكن الغجر، عندئذٍ سيشعر توم بقسوته، وكذلك جميع الأقارب سوف يندمون على معاملتهم السيئة لها ولن يروها أبداً بعد ذلك

فكرت بوالدها وهي تركض لاهثة، لكنها قررت إرسال رسالة مع غجرية صغيرة، تطمئنه فيها على صحتها وبأنها سعيدة، ولكن لن تخبره بمكانها، سوف تخبره فقط بأنها تحبه كثيراً وإلى الأبد. عندما وصل توم إلى البركة ثانية، كانت ماغي قد ابتعدت مسافة طويلة عن الحقول، ووصلت إلى حافة زقاق يقود إلى الطريق العام

توقفت وهي تلهث قليلاً، وهي تفكر بأن الابتعاد كثيراً كان أمراً غير ممتعٍ ما لم تصل المشاع حيث يسكن الغجر، وما زالت مصممة على قرارها: اجتازت في الحال بوابة الزقاق، واحتارت فيما بعد أي طريق تسلك، اختارت الطريق المعاكسة لتلك التي يأتون عبرها من طاحونة دورلكت إلى مزرعة غارم لكنها ارتعشت عندما أدركت أن هنالك رجلين قادمين على طول الزقاق أمامها: لم تحسب حساب مقابلة الغرباء - استحوذت عليها فكرة وحيدة وهي مقابلة أصدقاء يهتمون بها ارتدى الرجلان المرعبان ملابس رثة، وكان وجهاهما متوردين، حمل أحدهما رزمة من العصي على كتفه: وبينما حاولت ماغي

الهروب منهما، تفاجأت جداً عندما توقف الرجل الذي حمل الرزمة، وطلب منها بلهجة استعطاف أن تعطيه مالاً.

كان لدى ماغي ستة بنسات في جيبها، أعطاها إياها العم غليك - وعلى الفور أخرجت النقود من جيبها، وقدمتها لهذا الرجل المسكين بابتسامة مهذبة، وهي تأمل أن تكون صورتها حسنة بنظره فيقول بأنها فتاة كريمة.

قالت معتذرة: "هذا كل ما أملكه من مال".

أجابها الرجل ممتناً، ولكن بلهجة أقل احتراماً مما توقعت ماغي: "شكراً لك يا آنستي الصغيرة "، ولاحظت بأنه ابتسم وغمز رفيقه مشت مسرعة وهي تدرك بأن الرجلين مازالا واقفين مكانهما يراقبانها، وسمعت في تلك اللحظة أصوات ضحكهما العالية خطر ببالها فجأة أنهما يقولان عنها فتاة بلهاء: لقد قال لها توم مرة بأنها تبدو مثل البلهاء في ذلك الشعر القصير، ومن المؤلم حقاً أنها لم تستطع نسيان كلامه المهين بالاضافة إلى أن ثوبها بلا أكمام - مرفقاً بقبعة.

فكرت في العودة ثانية إلى الحقول ،ولن تسلك الزقاق نفسه، لكي لاتصل إلى حقول العم بوليت استدارت عند البوابة الأولى التي كانت مفتوحة، وأحست بسعادة وهي تتسلل عبر حاجز من الشجيرات، وتهرب من أصوات الرجلين الساخرة.

اعتادت ماغي على التجول في الحقول، ولم تكن تشعر بالخوف من اجتياز الطريق العام لقد ابتعدت كثيراً ولا بدّ أن ترى مشاع دانلو، أو على الأقل أي مشاع آخر، لأنها سمعت مرة والدها يقول بأن الابتعاد كثيراً عن الحقول يؤدي إلى الوصول إلى المشاع.

تمنت لو تصل بأقصى سرعة، فقد داهمها الجوع والإرهاق الشديدان فضوء النهار مازال يسطع والخالة بوليت حافظت على عادات عائلة دودسن، في تناول الشاي عند الساعة الرابعة والنصف قبل المغيب، وعند الساعة الخامسة يقفل باب المطبخ ولم يخيم الظلام بعد فوق الحقول ليذكرها بأن الليل سيرخي سدوله عما قريب.

ومع ذلك بدا لها أنها قطعت مسافة بعيدة، ولم ترَ بعد مشاع الغجر. حتى الآن وصلت إلى أبرشية غارم، حيث امتدت المروج على مد النظر، ولم تشاهد سوى عاملين على مسافة منها. لحسن حظها أن العاملين لم يعرفا بأنها تحث خطاها نحو مشاع دانلو، ومع ذلك من الأفضل بالنسبة لها مقابلة أناس يدلونها على الطريق دون أن يعلموا أي شيء عن مساعيها الخاصة.

أخـيراً، وصـل امتـداد الحقـول الخـضراء، إلى نهايتـه، ووجـدت مـاغي نفـسها داخـل ممـر عـريض أحاطـت بـه الأعـشاب مـن كـلا الجـانبين لم تـرَ أبـداً مثـل ذلـك الممـر العـريض مـن قبـل، أحـست بـلا سـابق إنـذار أن المشاع أصـبح قريبـاً منـها، ربمـا لأنهـا شـاهدت حمـاراً مربوطـاً مـن قدمـه بجـذع شـجرة، وهـو يقـضم العـشب علـى أطرافهـا. فقـد سـبق لهـا أن رأت مثـل هـذا المـشهد عنـدما اجتـازت مـشاع دانلـو في عربـة والـدها. تابعـت المـسير بـروح عاليـة، دون أن ترتـسم في ذهنـها صـورة قـاطع طريـق يحمـل مـسدساً، أو تفكـر بالمخـاطر المتعـددة المحتملـة الحـدوث ولكـن في الحـال نـشطت مخيلـة مـاغي المـسكينة وانتابتـها مـشاعر الخـوف وهـي تجتـاز ذلـك الزقـاق الغريـب الـشكل، بالكـاد تجـرأت علـى النظـر أمامهـا لتتبـع الطريـق، كـي لاتـرى الحـداد الـشيطاني المظهـر، الـذي يلـبس مئـزره الجلـدي، ويكـشر عـن ابتـسامة سـاخرة واضـعاً يديـه حـول خـصره في تلـك اللحظـة قـاطع الواقـع مـسار خيالهـا الخـصب، فـرأت سـاقين عـاريتين بـالقرب مـن رابيـة صـغيرة بـدا المـشهد مخيفـاً وغـير مـألوف، اضـطربت كـثيراً عنـدما لمحـت ملابـس باليـة ورأسـاً أشـعث أسـود اللـون ملتـصقاً بتلـك الهيئـة الرثـة والـساقين العـاريتين إنـه صـبي يغـط في نـوم عميـق، مـرت مـاغي بخفـة وبـسرعة مـن جانبـه، حتـى لاتوقظـه: لم يخطـر ببالهـا أنـه واحـد مـن أصـدقائها الغجـر. ولكـن علـى مقربـة منـه شـاهدت خيمـة صـغيرة، نـصف دائريـة، سـوداء اللـون ينبعـث منـها دخـان أزرق اللـون، بـدت لهـا تلـك الخيمـة الملجـأ الوحيـد للخـلاص مـن بؤسـها، والنظـام القاسـي المتبـع في حياتهـا الحـضارية بجانـب عمـود الـدخان شـاهدت هيئـة أنثويـة طويلـة القامـة - بـلا شـك إنهـا أم غجريـة لكنـها لم تـشعر بالـسرور لـدى رؤيتـها. فبعـد كـل هـذا العنـاء وجـدت الغجـر يعيـشون في زقـاق جـانبي، وهـي الـتي اعتقـدت أنهـم يـسكنون مكانـاً غامـضاً مثيراً للدهشة

فكـرت مـاغي دومـاً بـأن جميـع الأمـاكن الـتي يتعـذر الوصـول إليهـا، يقطنـها الغجـر، ورسمـت في مخيلتـها صـورة للحيـاة الغجريـة مختلفـة تمامـاً عـن تلـك الـتي شاهدتها.

انتبـهت مـاغي لتلـك المـرأة الطويلـة القامـة الـتي حملـت طفـلاً علـى ذراعهـا، وكانـت تتقـدم باتجاههـا بـبطء. ارتعـشت مـاغي قلـيلاً، وتأملـت وجـه تلـك المـرأة، واقتنعـت بالفعـل أن خالتـها بوليـت وبقيـة الأقـارب كـانوا علـى حـق عنـدما أطلقـوا عليهـا اسـم الغجريـة، لأن هـذا الوجـه، والعيـنين الـسوداوين الـبراقتين، والـشعر الطويل، كانت مألوفة لديها عندما كانت تنظر في المرآة قبل أن تقص شعرها.

قالت الغجرية بلهجة لطيفة: "سيدتي الصغيرة، إلى أين تذهبين؟".

كان باعثاً لسرور ماغي أن ينادوها الغجر بالسيدة الصغيرة وهذا ما توقعته، واستعدت أن يعاملوها على هذا الأساس.

قالت ماغي، وقد أحست بأنها كانت تتفوه بكلمات اعتادت على تكرارها في أحلام يقظتها. "لاأنوي الابتعاد من هنا. لقد جئت لأمكث معكم، إن سمحتم لي".

قالت الغجرية وهي تمسك بيدها: "هذا جميل، تعالي إذاً معي كيف لانقبل أن تعيشي معنا. يالك من سيدة صغيرة رائعة الجمال!".

رافقتها ماغي، ولكن كم تمنت لو لم تكن تلك الغجرية قذرة جداً!.

عندما وصلتا، كانت مجموعة من الغجريات يجلسن حول نار متقدة. جلست غجرية عجوز على الأرض تداوي ركبتيها، وتسخن سيخاً على النار، ووضعت فوقها غلاية، وانبعثت رائحة البخار: جلس هناك ولدان، استندا على مرفقيهما، فبدا منظرهما مثل تمثالين صغيرين لأبي الهول، وعلى مقربة منهما مال حمار هادئ برأسه على وجه فتاة طويلة القامة، كانت مستلقية على ظهرها، وكان الحمار يداعب أنفها.

أوشكت الشمس على المغيب، ونشرت عليهم أشعتها الخفيفة بلطف.

بدا المشهد ممتعاً ومريحاً بالنسبة لماغي التي تمنت لو يضعون كؤوس الشاي في الحال، فهذا موعد شرب الشاي سيبدو كل شيء ساحراً عندما تُعلّم الغجر كيف يستعملون أحواض الغسيل، وتطلعهم على أسرار كتبها.

لكن أحست ماغي بالاضطراب قليلاً عندما خاطبت المرأة الشابة، الغجرية العجوز بلغة لم تفهمها ماغي، بينما نهضت الفتاة، التي كانت تطعم الحمار، وحدقت بوجه ماغي دون أن تحييها.

قالت أخيراً المرأة العجوز :

"ماذا يا سيدتي الجميلة، هل جئت لتعيشي معنا؟ اجلسي هنا، وأخبرينا أين موطنك".

أحست ماغي وكأنها تعيش قصة خيالية: وشعرت بالسعادة وهم ينادونها بالسيدة الصغيرة ويعاملونها بهذه الطريقة.

جلست وقالت :

"جئت من منزلي لأنني لست سعيدة فيه، وأنوي أن أصبح غجرية سوف أعيش معكم، وأستطيع أن أعلمكم أشياء كثيرة لها أهميتها".

قالت المرأة التي معها الطفل، وهي تجلس بجانب ماغي، وتترك طفلها يزحف :

"يالها من سيدة صغيرة فائقة الذكاء "، ثم أضافت: "وهذه القبعة الجميلة والثوب النظيف "، وأخذت قبعة ماغي وتأملتها وهي تكلم المرأة العجوز بلغة غير مفهومة.

خطفت المرأة ذات القامة الطويلة، القبعة ووضعتها على رأسها وهي تبتسم، إلا أن ماغي صممت على أن لاتظهر ضعفاً تجاه هذا الموضوع.

"لاأريد ارتداء هذه القبعة، أفضل أن ألبس شالاً أحمر اللون، مثل شالك".

قالت وهي تنظر إلى صديقتها التي كانت تجلس بقربها: ثم أضافت، وكأنها تعتذر، معتقدة بأن الغجر يفضلون الشعر الطويل :

"البارحة كان شعري طويلاً، لكنني قصصته، وأنا واثقة أنه سينمو بسرعة من جديد".

حتى أن ماغي نسيت في تلك اللحظة جوعها، محاولة استرضاء أصدقائها الغجر.

قالت المرأة العجوز: "أوه، يا لها من سيدة صغيرة رائعة الجمال! - إنني واثقة أنها من عائلة ثرية ألا تسكنين في منزل جميل في موطنك؟".

"أجل، موطني جميل جداً، وأنا مولعة بالذهاب إلى النهر لصيد السمك - إلا أنني أشعر بالتعاسة معظم الأوقات كنت أتمنى أن أحضر معي كتبي، لكنني جئت على عجل، وبمقدوري أن أروي كل شيء قرأته في كتبي، لأنني أعدت قراءتها عدة مرات - وسوف أمتعكم كثيراً بها سوف أخبركم عن الجغرافيا - عن هذا العالم الذي نسكنه - إنه عالم ممتع ومفيد لنا للغاية هل سمعتم عن كولومبوس؟". ومضت عينا ماغي، وتورد خداها - بدأت بالفعل في تهذيب الغجر، وفرض تأثيرها عليهم استمع إليها الغجر بدهشة، على الرغم من أنهم وزعوا انتباههم بين الإصغاء لحديثها، والنظر إلى محتويات جيوبها، فالصديقة التي جلست على يمينها كانت تفرغ جيوب ماغي المنهمكة بالحديث دون أن تلفت انتباهها.

قالت المرأة العجوز، لدى ذكر اسم كولومبوس: "في تلك المنطقة تعيشين يا سيدتي الصغيرة؟".

قالت ماغي مشفقة: "أوه، لا! كولومبوس مكتشف رائع جداً، هم من اكتشف العالم، وقيدوه بالسلاسل وعاملوه بقسوة - المعلومات مدونة في كتيب عن الجغرافيا[1] - ولكن

---

[1] كتيب عن الجغرافيا : وهو كتيب ثقافي طبع عام 1827 لمؤلفه وليام بينوك ، الذي ألف عدد من المجلدات الثقافية في العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

ربما يطول الحديث عنه كثيراً ـ لذلك أريد أولاً أن أشرب الشاي".

قالت المرأة الشابة: "لماذا، إنها جائعة جداً، تلك الصغيرة المسكينة أعطها بعض الزاد البارد. لقد مشيت طريقاً طويلاً يا عزيزتي أين يقع موطنك؟".

قالت ماغي: "إنه قرب طاحونة دورلكت بعيداً من هنا. يدعى والدي السيد توليفر، ولكن لاينبغي أن يعرف مكاني، وإلا سيأتي، ويعيدني لموطني ثانية أين تعيش ملكة الغجر؟".

"ماذا! هل تريدين الذهاب إليها يا صغيرتي؟ "، قالت المرأة الشابة، بينما كانت الفتاة ذات القامة الطويلة تحدق باستمرار بوجه ماغي، وتبتسم بالتأكيد لم يكن سلوكها مقبولاً.

قالت ماغي: "لا، ولكن أتساءل فقط إن كانت ملكة طيبة، فإن لم تكن كذلك ربما سوف تسعدون كثيراً بعد موتها، وتختارون واحدة أخرى لو أنني ملكة، لعاملت الجميع بطيبة".

قالت المرأة العجوز: "إذاً هذا هو الزاد الشهي". كان الزاد عبارة عن خبز جاف وقطعة من لحم الخنزير البارد.

قالت ماغي، وهي تحدق بالزاد دون أن تأخذه: "أشكرك، ولكن هلا أعطيتني بدلاً منه خبزاً وزبدة وشاياً؟ فأنا لاأحب لحم الخنزير".

قالت المرأة العجوز بوجه عابس، وكأنها سئمت من ملاطفة ماغي: "ليس لدينا لاشاي ولا زبده"قالت ماغي: "أوه، قليل من الخبز والدبس، ممكن؟".

قاطعتها العجوز: "ليس لدينا دبس "، في تلك اللحظة دار حوار حاد بين المرأتين بلغة غير معروفة، وهرع أحد هرمي أبو الهول وخطف الخبز ولحم الخنزير، وبدأ يلتهمهما بسرعة

في هذه اللحظة، عادت الفتاة طويلة القامة، التي ابتعدت بضع ياردات، وقالت كلاماً أحدث تأثيراً قوياً. بدت العجوز، كأنها نسيت أمر ماغي، وعادت لعملها، بينما تسللت الشابة تحت الخيمة واتجهت نحو مجموعة من الصحون والملاعق

ارتعشت ماغي قليلاً، وخشيت أن لاتتمالك نفسها، وتذرف دموعها. حين أطلقت المرأة الطويلة القامة صرخة حادة، وعادت في الحال راكضة ومعها الولد الذي مرت به ماغي عندما كان نائماً - إنه شيطان شرس في عمر توم

حدق بماغي، وبدأ يثرثر. أحست ماغي بالوحدة، كانت واثقة تماماً من أنها ستذرف الدموع: لم تكترث لها الغجريات على الإطلاق، وشعرت بأنها مخلوقة

ضعيفة جداً وسط الغجر. لكن الدموع تجمدت في عينيها بعد أن انتابتها مشاعر الرعب، لدى دخول رجلين، حمل الأكبر سناً منهما حقيبة ورماها على الأرض، وهو يصرخ، ويوبخ النساء اللواتي أجبنه بوقاحة تامة، بينما ركض كلب شرس أسود اللون نحو ماغي وأصابها برعب شديد، فانطلقت الشتائم البذيئة من الرجل الأصغر سناً، وضرب الكلب بعصاه.

أحست ماغي أنه من المستحيل أن تصبح ملكة لهؤلاء البشر، أو حتى أن تتواصل معهم، وتفيدهم من معارفها الواسعة. بدا أن الرجلين يتساءلان عن أمر ماغي، كانا ينظران إليها بفضول- أخيراً قالت المرأة الشابة بلهجتها اللطيفة التي استعملتها مع ماغي منذ البداية: "هذه السيدة الصغيرة الجميلة تريد العيش معنا، ألستما سعيدين؟".

"أي، سعيد جداً "، قال الرجل الأصغر سناً، الذي كان يحدق بطوق ماغي الفضي وأشياء صغيرة أخرى سلبت من جيبها. أعاد جميع الأشياء ما عدا الطوق للمرأة الشابة، التي أعادتهما في الحال إلى جيب ماغي، بينما جلس الرجلان، يتفحصان محتويات الغلاية - لحم وبطاطا - التي رفعت من على الموقد ليسكبا الطعام في صحن أصفر اللون.

الآن بدأت ماغي تقتنع بصحة كلام توم عن الغجر - إنهم لصوص بالفعل، إلا إذا كان الرجل ينوي إعادة الطوق إليها عما قريب عندئذ سوف تقدمه له هدية عن طيب خاطر، لأنها لم تكن متمسكة بطوقها على الإطلاق. أحست أنها بين شلة من اللصوص، جميع الغجر لصوص - ما عدا روبن هود. لاحظت النساء خوف ماغي قالت العجوز بنبرة لطيفة: "ليس لدينا طعام شهي نقدمه للسيدة الصغيرة وهي جائعة جداً، يالصغيرتي الرقيقة!".

"خذي يا عزيزتي، حاولي أن تأكلي قطعة من هذه "، قالت المرأة الشابة وهي تضع الطعام في صحن بني اللون ومعه ملعقة حديدية، وقدمته لماغي، التي تذكرت بأن العجوز بدت غاضبة عندما رفضت ماغي تناول الخبز ولحم الخنزير، فلم تجرؤ على رفض الطعام المقدم إليها، على الرغم من أن الخوف أفقدها شهيتها.

لو يأتي والدها، ويقلها معه بالعربة! أو حتى إن جاء جاك، القاتل

العملاق[1]، أو السيد غريت هارت[2] أو القديس جورج الذي ذبح التنين بنصف بنس[3] لينقذوها من براثن الغجر! ولكن فكرت ماغي وقلبها محطم، أن هؤلاء الأبطال لايمكن مشاهدتهم في جوار شارع القديس أوغز - حتى تراهم هنا، إنه أمر مستحيل!

تلاحظ، عزيزي القارئ، أن ماغي توليفر البالغة من العمر ثمانية أو تسعة أعوام، فتاة واسعة الاطلاع ومتمرنة بشكل جيد وهذا أمر نادر في تلك الأزمنة: لم تلتحق بالمدرسة إلا فترة عام واحد في مدرسة في شارع أوغز، وكان لديها عدد قليل جداً من الكتب حفظتها عن ظهر قلب، لذلك عندما تسبر أغوار عقلها الصغير سوف تفاجأ بأمور بديهية كانت تجهلها، تماماً كما تفاجئ بمعارف لاتتوقع أن تمتلكها طفلة في عمرها.

بمقدورها أن تربط المعاني ببعضها بعضاً فتقول لك أنه يوجد كلمة "تعدد الزوجات "أي Polygamy وكلمة "متعدد المقاطع "أي Polysyllable، ثم تستخلص نتيجة مفادها أن معنى Poly هو "متعدد "، ولكن ليس لديها أدنى فكرة بأن الغجر لايملكون مؤونة كافية من البقول والخضراوات، لأن أفكارهم بشكل عام عبارة عن أغرب مزيج من بصيرة وقادة وأحلام هوجاء.

لقد عانت الأفكار التي كونتها عن الغجر من تحول مفاجئ خلال الدقائق الخمس الأخيرة بعد اعتقادها بأنهم رفاق محترمون، ويسهل انقيادهم وتهذيبهم، باتت تخشى الآن من أن يغدروا بها، ويذبحوها بعد أن يرخي الليل سدوله، ويقطعوا جسدها إلى طعام يتناولونه بالتدريج: انتابتها بوادر شك بأن ذلك الرجل الأكبر سناً، الذي حدق بها بشراسة، لم يكن في الواقع سوى شيطان، من المحتمل أن يسقط قناعه الشفاف في أية لحظة، ويتحول إما إلى حداد يكشر عن ابتسامة خبيثة، أو إلى وحش بعينين ملتهبتين وجناحي تنين. فكرت في تلك اللحظة أنه لايمكن لنظام لاهوتي أن يتفوق، في حال وجود شيطان حقيقي يقرأ أفكارها.

قالت المرأة العجوز بعد ملاحظتها بأن ماغي لم تتناول طعامها: "ماذا!

---

[1] جاك القاتل العملاق - ظهر في حكاية من أواخر القرن الثاني عشر و التي تعود بدورها إلى قصة فرنسية الأصل.

[2] السيد غريت هارت : حارب اليأس المارد في الجزء الثاني من " سفر الحاج "

[3] صورة القديس جورج : يمثل القديس الراعي لإنكلترا الذي ذاع صيته عندما قتل التنين بنصف بنس.

لاتحبذين رائحته يا عزيزتي. ولكن حاولي تناول قطعة - هيا".

قالت ماغي وقد استحضرت كل قوتها بجهد يائس، محاولة الابتسام بطريقة ودية :

"لا، أشكرك ليس لدي وقت أعتقد - أن الظلام سيحل عما قريب ويجب علي العودة إلى موطني الآن سوف أزوركم يوماً ما وأحضر لكم سلة فيها المربى وأطعمة أخرى".

نهضت ماغي بعد أن نفضت عنها غبار الوهم، قالت العجوز الغجرية في هذه الأثناء: "توقفي قليلاً، توقفي قليلاً يا صغيرتي - سوف نعيدك إلى موطنك آمنة، بعد أن نجهز العشاء: ستعودين إلى موطنك معززة مكرمة".

عاودت ماغي الجلوس ثانية، غير واثقة تماماً من وعد العجوز لها، على الرغم من أنها شاهدت الفتاة الطويلة القامة تضع اللجام للحمار، وتلقي بزوج من الحقائب على ظهره

نهض الرجل الأصغر سناً وقال: "والآن يا آنستي الصغيرة، أخبرينا أين تسكنين، ما اسم المكان؟".

قالت ماغي متلهفة: "اسم موطني طاحونة دورلكت والدي يدعى السيد توليفر - هو يعيش هناك".

"ماذا! طاحونة كبيرة قريبة من شارع أوغز؟".

"أجل هل هي بعيدة من هنا؟ لو سمحت أرغب بالذهاب مشياً إلى هناك".

"لا، لا، سوف يحل الظلام، علينا أن نسرع كما ترين ستركبين الحمار".

رفع ماغي وهو يتكلم، ووضعها على ظهر الحمار. أحست ماغي بالارتياح لأن الرجل الأكبر سناً لن يرافقها، لكنها تمنت حقيقة الوصول بسلام إلى موطنها.

قالت المرأة الشابة وهي تضع القبعة على رأس ماغي: "هذه هي قبعتك الجميلة، كما ترين إننا طيبون جداً معك، أليس كذلك؟ وكم قلنا بأنك سيدة صغيرة فائقة الجمال! "قالت ماغي: "أوه أجل، أشكرك إنني ممتنة لكم كثيراً. ولكن أتمنى لو أنكم تذهبون معي أيضاً". فكرت ماغي أن ترافقها مجموعة أفضل من الذهاب لوحدها مع أحد الرجلين المرعبين: سيكون من المبهج أكثر أن تقتل من شلة كثيرة العدد.

قالت المرأة: "آه، إنك مولعة بي كثيراً، أليس كذلك؟ ولكنني لاأستطيع الذهاب - سوف تذهبين إلى موطنك بسرعة لأجل خاطري"بدا واضحاً أن الرجل سيركب الحمار أيضاً، ممسكاً بماغي أمامه، ولم تستطع الاحتجاج على

الترتيبات التي أعدها لأن الحمار ملكه، على الرغم من أنها أحست وكأنها تعيش كابوساً فظيعاً لايمكن الخلاص منه بسهولة.

قالت المرأة وهي تربت على ظهر ماغي: "وداعاً "، انطلق الحمار، بعد أن ضربه صاحبه بعصا على مؤخرته، عبر الزقاق، وتعالت صرخات المرأة الطويلة القامة والولد الشرس مودعين.

لم تشعر لينور[1]، في رحلتها الاستثنائية عند منتصف الليل مع طيف حبيبها، بالرعب أكثر مما أحست به ماغي في ذلك اليوم وهي تركب ظهر الحمار، والغجري خلفها، الذي اعتقدت ماغي بأنه كان يكسب نصف كروان[1].

غاصت الشمس خلف الأفق باعثة أشعة حمراء اللون تثير في النفوس أحاسيس استثنائية.

لدى مرورهما بهذا الزقاق، اجتازا كوخين منخفضين، سقفهما من القش - أثار مظهرهما الرعب أكثر في نفس ماغي: كوخان بلا نوافذ، والأبواب موصدة: من المحتمل أن يكونا مسكونين بالأشباح، لكن مشاعر الارتياح عاودت ماغي عندما لم يتوقف الحمار هناك.

أخيراً - أوه، ياللبهجة! - لقد وصل هذا الزقاق - أطول زقاق في العالم، إلى نهايته، وكان مفتوحاً على طريق عام عريض، كانت تجتازه عربة بالفعل!

وعلى زاوية الطريق وضعت لوحة: كانت ماغي واثقة من أنها شاهدتها من قبل - "2 ميل إلى شارع أوغز". إذاً فالغجري ينوي حقاً أخذها إلى موطنها: ربما كان رجلاً طيباً بعد كل هذه الظنون، وربما تضايق عندما عبرت ماغي عن رغبتها بأن لاترافقه وحدها. ترسخت الفكرة في ذهنها أكثر فأكثر عندما تأكدت من أنه الطريق الصحيح المؤدي لموطنها. وربما فكرت في خوض حديث مع ذلك الغجري المظلوم.

عندما وصلا إلى تقاطع الطريق، لمحت ماغي شخصاً يمتطي حصاناً بشرته بيضاء.

صرخت ماغي: "أوه، توقف، توقف! هذا والدي! أوه، بابا، بابا!

إن الفرحة المفاجئة مؤلمة قليلاً، وقبل وصول والدها، كانت ماغي تنشج بكاءً.

كانت دهشة الأب عظيمة، لأنه جال الطريق المؤدي إلى باسيت، ولم يكن قد دخل منزله بعد.

---

[1] لينور: بطلة قصيدة شعرية تثير الرعب والمتعة عام (1773) كتبها المؤلف الألماني غوتفريد أوغست بارغر عام (1747- 1794).

[1] كروان: قطعة نقد انكليزية قديمة وتساوي 25 بنساً.

"لماذا، ما معنى هذا؟ "، قال وهو يكبح جماح حصانه، بينما انزلقت ماغي من على ظهر الحمار وهرعت مسرعة نحو حضن والدها.

قال الغجري: "أحسب أن الآنسة الصغيرة ضَلَّت طريقها. التجأت إلى خيمتنا عند نهاية زقاق دانلو، وأحضرتها إلى هنا كما أشارت لي".

قال ماغي: "أوه، أجل بابا، إنه رجل طيب لأنه أوصلني إلى موطني ياله من رجل طيب القلب!".

قال السيد توليفر، وهو يخرج من جيبه خمسة شلنات: "هكذا إذاً يا عزيزي لقد فعلت خيراً اليوم لاأستطيع أن أتخيل بأنني فقدت صغيرتي المدللة".

قال الأب بعد أن امتطى ظهر الحصان، وألقت ماغي برأسها على حضن أبيها، وبدأت تبكي: "لماذا، ماغي كيف حصل هذا، كيف حصل هذا؟ كيف ضللت الطريق؟".

قالت ماغي وهي تبكي: "أوه، بابا، لقد ابتعدت لأنني أحسست بالكآبة - كان توم غاضباً مني كثيراً. ولم أستطع تحمل الوضع".

قال السيد توليفر بنعومة: "بوه، بوه، لاينبغي أن تفكري بالابتعاد عن بابا ثانية. كيف سيعيش بابا دون صغيرته المدللة؟".

"أوه لا، لن أبتعد ثانية، بابا - أبداً".

عندما وصل السيد توليفر المنزل في ذلك المساء، راودته شكوك قوية، من ردود فعل أمها وتوم، حتى أن ماغي لم تسمع أي توبيخ من أمها، أو سخرية من توم، بسبب عملها الطائش وهروبها إلى موطن الغجر. امتلأت ماغي خوفاً ورعباً بسبب هذه المعاملة غير المألوفة، وفكرت أحياناً أن خطأها فظيع جداً لدرجة أنه لم يشر إليه أحد.

الفصل الثاني عشر

السيد والسيدة غليك في منزلهما

لكي نصل إلى منزل السيد والسيدة غليك، علينا أولاً الدخول إلى بلدة القديس أوغ -تلك البلدة المقدسة التي تميزت سطوح منازلها بأخاديد للزينة حمراء، وفيها كانت تحط السفن السوداء اللون حمولتها القادمة من الشمال البعيد، وتنقل مقابل ذلك، المنتجات الداخلية الوفيرة، الجبنة الجيدة الصنع وصوف الخراف الناعم، ومما لاشك فيه أن لدى قرائنا الأعزاء فكرة وافرة عن سبل العيش في الحياة الريفية التقليدية.

إنها بلدة من البلدات الموغلة جداً في القدم، وكأنها استمرار وتطور لنشأة الطبيعة، مثلها تماماً مثل أعشاش الطيور المستقرة في أمكنة تظللها الأشجار: تشهد في هذه البلدة آثار تدل على ازدهارها وتاريخها القديم، مثل شجرة ضاربة جذورها منذ الكم الألفي، وقد واكبت مسيرة التطور في البقعة ذاتها بين النهر والتلة المنخفضة، منذ فلول الجيوش الرومانية من المعسكرات التي انتصبت على جانب التلة، واجتياز ملوك البحر ذوي الشعر الطويل، للنهر العظيم، وجشعهم الذي قادهم لقطع مسافات شاسعة لسلب خيرات تلك الأرض الخصبة المعطاءة. إنها بلدة "مشهورة بأعوامها المنسية "[1].لا يزال طيف ملك الساكسون[2] يجول بنشاط هناك، مستعيداً مشاهد من أيام الصبا والغرام، عندما قابله شبح الكآبة، وطعنه وثني خفي مرعب، محب للانتقام، وسط جنوده البواسل، والذي نهض في أمسية من أمسيات الخريف، مثل ضبابه بيضاء اللون بعد أن أيقظه اضطرابه النفسي من مهجعه على التلة، وكان يحلق في أجواء بلاط القاعة القديمة بجانب النهر - في تلك البقعة ذبح بشكل لايصدق، منذ زمن بعيد قبل بناء تلك القاعة القديمة الرائعة الجمال، التي بناها النورمانديون، وتركوا آثارهم وأفكارهم في قاعة تشبه البلدة.

عندما ننظر إلى البلدة القديمة نأسف بود على طرازها المتناقض جداً مع بعضه بعضاً، ونقتنع تماماً بأن هؤلاء الذين بنوا الشرفة الحجرية، وواجهة المبنى على الطراز القوطي، والأبراج المزينة بأجمل أنواع القرميد الصغير، لم

---

[1] من كتاب "رحلة قصيرة " للمؤلف ووردز وورث Words Worth.

[2] الساكسون: شعوب من شمال ألمانيا احتلوا انكلترا واستقروا فيها في القرن الخامس " المترجمة".

يشاؤوا تقويض ذلك السقف القديم المصنوع من خشب السنديان الذي ظلل تلك القاعة الضخمة.

ولكن ربما ما هو أقدم حتى من هذه القاعة القديمة، ذلك الجزء من الجدار الذي بني داخل برج الناقوس في كنيسة الأبرشية، وقيل أنه من آثار المعبد الأصلي الذي كان مكرساً للقديس أوغ، القديس الراعي لهذه البلدة القديمة، والذي وثّقَ تاريخه في عدة مخطوطات - حصلت عليها. أود الاختصار هنا، والقول أن تلك المخطوطات وإن لم تتضمن الحقيقة بكاملها، ولكن على الأقل توجد فيها أقل نسبة من الزيف يكتب مؤرخي الخاص الذي يكتب عن حياة القديسين: "أوغ بن بيورل كان بحاراً يكسب المال القليل من المسافرين الذين يعبرون بالمراكب نهر الفلوس وفي إحدى الأمسيات حيث كانت الرياح هائجة بقوة، جلست على ضفة النهر امرأة تئن وتحمل طفلاً بين ذراعيها، وتلبس ملابس رثة، بدا وجهها مرهقاً وعيناها كئيبتين، وكانت متلهفة لعبور النهر. سألها الرجال في الجوار، "لماذا ترغبين بعبور النهر الآن؟ انتظري حتى الصباح، وامكثي الليلة هنا: أفضل لك أن تتصرفي بحكمة بدلاً من أن تكوني امرأة متهورة". لكن المرأة مازالت تأن وتتلهف لعبور النهر. نهض "أوغ بن بيورل "وقال: "سوف أساعدك في عبور النهر: لأن قلبك متلهف بما فيه الكفاية لعبوره".

أقلّها عبر النهر. ولكن بعد أن تجاوزت الشاطئ، تحولت ملابسها الرثة إلى ثوب منساب أبيض اللون، وأصبح وجهها براقاً فائق الجمال، وتشكلت حوله هالة مجد عظيمة، حتى أنها ألقت بنوره على سطح الماء، كما يسطع القمر بأشعته الفضية. وقالت -

"أنت مبارك يا أوغ بن بيورل، لأنك أغثت ملهوفاً، ولبيت حاجة قلب منفطر دون الدخول في جدالات عقيمة. ومن الآن فصاعداً سيكون قاربك في مأمن من العاصفة، وسوف ينقذك من الأخطار، وينقذ حياة البشر والوحوش معاً".

وعندما نشر الفيضان جناحيه، بقي الكثير من البشر والوحوش على قيد الحياة بفضل تلك الدعوة المباركة على القارب. ولكن عندما مات أوغ بن بيورل، وسافرت روحه بعيداً، انزلق القارب من مستقره، طفا مع حركة الجزر المنحسر بسرعة هائلة حتى وصل المحيط، ولم يره أحد بعد ذلك الحين على الرغم من ذلك كان أوغ بن بيورل يشاهد دائماً وهو يطوف بقاربه على امتداد واسع من سطح الماء، عندما حدثت فيضانات بعد ذلك الوقت مع قدوم المد، وكانت العذراء المباركة جالسة في مقدم القارب، تلقي بنورها كما يسطع القمر بأشعته الفضية.

يدرك المرء أن هذه الأسطورة تعود إلى زمن ساحق القدم شهد فيضانات

كارثية جاءت كالموت المفاجئ الذي حام حتى فوق أصغر المخلوقات الحية، وغمر الأخضر واليابس، كقدر مميت أطاح بالبشر والحجر. لكن البلدة شهدت كوارث حقيقية أسوأ من الفيضانات - كوارث الحروب الأهلية، حيث كانت مكاناً لصراعات مستمرة بين البروتستانتيين[1] والموالين لهم سابقاً. فقد الكثير من المواطنين الشرفاء ممتلكاتهم بسبب حرب طائشة، وهجّروا وتشردوا من بلادهم الأصلية. بلا شك لاتزال عدة منازل باقية الآن بعد أن هجرها أولئك المواطنين الشرفاء بأسى بالغ.

امتدت على جانبي النهر منازل غريبة المظهر، اخترقتها ممرات مثيرة للدهشة، بالتوائها الشديد عند زوايا حادة، حتى تقودك إلى شاطئ موحل تغمره باستمرار المياه نتيجة اندفاع المد.

وبدت منازل الآجر بهية المنظر، ففي عهد السيدة غليك لم يكن هنالك أبنية على الطراز الحديث، ولم تصنع واجهات المحلات من الزجاج المصقول. ولا واجهات للمباني مزخرفة بالجص الأبيض اللون. كانت واجهات المحلات صغيرة وغير ملفتة للانتباه، مخصصة لسكان تلك المنطقة ،حيث اعتادت زوجات المزارعين وبناتهم التسوق منها، والبضائع الموجودة لدى التجار هناك غير مخصصة للزبائن الذين ينوون شراءها لمرة واحدة فقط. آه! حتى في زمن السيد غليك حدثت تغييرات ترجمتها فوارق السنين بيننا. الحرب والإشاعات عن الحرب ماتت في أذهان البشر، باستثناء بعض المزارعين من ذوي المعاطف الطويلة السمراء اللون، الذين شهدوا زمن ارتفاع الأسعار بشكل باهظ.

بالتأكيد ولى الزمن الذي كانت فيه السفن غير المرحب بها تعبر النهر: كانت روسيا المكان الوحيد الذي يصدر ألينا بذور الكتان والقمح - حيث تكون الحنطة معدة لجرشها على حجر الرحى التي تطحنها وتسحقها، وتكنسها بحرص، وكأنها تسحب منها الروح.

الكاثوليك والمحاصيل السيئة، والتجارة المتقلبة، كانت تمثل الشرور الثلاثة التي أرعبت البشرية حتى الفيضانات لم يكن لها هذا التأثير المرعب خلال السنوات الماضية.

وتلك القرون الغابرة التي تحدثت عن القديس أوغ وهو في قاربه والأم العذراء الجالسة في مقدمة القارب، انحسرت من الأذهان كانحسار قمم التلة!

---

[1] البروتستانتيون: طائفة دينية اعتبرت أن الكنيسة في عهد الملكة إليزابيث الأولى بحاجة إلى مزيد من الإصلاح وسعت إلى تبسيط الطقوس الدينية_المترجمة

أصبح هذا الزمن مثل سهل منبسط حيث لم يعد يثق الناس بوجود البراكين والزلازل، معتقدين أن الغد سيكون مثل البارحة، وتلك القوى الخارقة التي هزت الأرض منذ زمن بعيد، غطت اليوم في سبات عميق.

ولّى الزمن الذي كان الناس فيه ينالون مراتبهم السامية حسب إيمانهم وعملهم الصالح: كان الكاثوليك مصدراً للرعب لأنهم سيطروا على مقاليد السلطة والثروة، وكانوا يحرقون البشر، وهم أحياء، وليس لأنهم كانوا يجبرون أتباع القديس أوغ الشرفاء على الاعتراف بسلطة البابا. يذكر أحد الأشخاص المتقدمين في العمر كيف تم ذبح جمهور غفير تجرأ على الاستماع لمواعظ جون ويزلي[1]، ولكن بعد هذه الحادثة لم يعد يتجرأ الكثير من الواعظين على التأثير في نفوس البشر وإرشادهم فترة طويلة من الزمن ولكن ظهرت بعد ذلك حركات حماسية لاتتناسب مع تلك الأزمنة التي كبحت لجام كل تغيير، حيث أثار المنشقون مسألة تعميد الصغار، وهذه إشارة إلى روح الحماسة لفرض أي نوع من التغيير. لم يحرك البروتستانتيون ساكناً بهذا الخصوص، وظلوا غير مكترثين لمسألة الهداية: وظهر أحد المنشقين من ذوي الشأن، لكن مجلس الكنيسة عامله باحتقار ونعته بالأحمق، وتدهور مركزه ولكن حدث تناقض رهيب في المسألة الكاثوليكية: لقد أصبح الكاهن الكهل مؤرخاً ومثيراً للجدل والنقاش، بدأ السيد سبراي، الوزير المستقل يعطي مواعظ سياسية، التي ميز من خلالها وبأسلوب لبق بين إيمانه الشديد بحق الكاثوليك بالحصول على الامتياز، وإيمانه كذلك بهلاكهم الأبدي على كل حال عجز كل من يستمع لمواعظه عن إتباع نهجه، وتألم الكثير من المنشقين ذوي الطراز القديم، بسبب "تحيزه للكاثوليك "، في حين اعتقد الآخرون أنه من الأفضل له أن يدع السياسيين وشأنهم وأولئك الذين انشغلوا بالقضايا السياسية كانوا محط شك، واعتبرهم الرأي العام شخصيات خطيرة: إنهم أشخاص لايستطيعون تدبر أمور أعمالهم، وإن كانت لديهم أعمال، فكان من المحتمل أن يصبحوا مفلسين.

كان هذا مشهداً عاماً عن بلدة القديس أوغ في زمن السيدة غليك.

هنالك ردهتان أمامية وخلفية في منزل السيدة غليك الرائع، الواقع في بلدة القديس أوغ، وهكذا يتسنى لها مراقبة ضعف رفاقها، والإحساس بقوة تفكيرها

[1] مؤسس طائفة بروتستانتية، وهو واعظ لايمكن التغلب عليه بسهولة (1703 - 1791).

الاستثنائي

من خلال نوافذ ردهتها الأمامية بمقدورها مشاهدة طريق توفتن، الذي يؤدي إلى خارج بلدة القديس أوغ، ومن خلال نوافذها الخلفية ستستطيع تأمل الحديقة الخلابة والبستان الممتد حتى النهر، وتراقب حماقة السيد غليك وهو يمضي جل وقته بين "أزهار الحديقة والخضراوات".

بهدف إمتاع نفسه بقية حياته، فالسيد غليك تقاعد من عمله النشيط كمنتج لسلعة الصوف، فوجد أن هذه المتعة شاقة عليه أكثر من عمله السابق، لكنه تحول إلى هاوٍ للعمل المضني وانهمك في أدائه، فهو يقوم بعمل بستانيين عاديين وربما اقتصاده في دفع الأجور للبساتنة دفع السيدة غليك للسخرية من حماقته، مع أنه من المفترض على المرأة ذات التفكير السليم أن تكن التقدير والاحترام لهواية زوجها.

السيد غليك بدوره أضاف إلى عمله الشاق، مصدر مضاعف لعمل ذهني فقد انهمك في اكتشاف تاريخ الطبيعة، ووجد أن جزءاً صغيراً من حديقته مليء بالغرائب، على سبيل المثال يوجد عدد كبير من الديدان والحشرات لم يسمع بها من قبل، ولم تكن محط اهتمام الناس، ولاحظ أن هنالك توافق بين هذه الظواهر المتعلقة بعلم الحيوان وبين الأحداث العظيمة التي كانت تجري في ذلك الزمن - على سبيل المثال قبل إحراق الوزير يورك ظهرت مؤشرات غامضة على أوراق شجيرات الورد الجوري، فقد ذبلت، والتفت حول نفسها بكآبة، ولم يستطع إيجاد تفسير لهذه الظاهرة الغريبة (لدى السيد غليك قدرات عقلية هائلة، حتى أنه عندما ترك عمله في إنتاج الصوف كان من الطبيعي أن يوجه اهتماماته، ويكرس وقته في أعمال أخرى).

أما الاتجاه الآخر الذي أولاه الاهتمام فهو موضوع التأمل في ميزة "التناقض "في طريقة التفكير الأنثوي، واتخذ السيدة غليك نموذجاً لذلك التناقض.

لقد اختار السيد غليك أكبر آنسات دودسن سناً، لأنها تجسد نموذجاً للوسامة والاقتصاد في المعيشة وحسن التدبير، فهو يرغب بامرأة تحافظ على أمواله، ولا تبذرها.

السيد غليك الطيب هو رجل شحيح في معظم الأحوال: فعندما تبدي رغبة في تناول قشور الجبنة، سيتذكر السيد غليك أن يجمعها لأجلك عن طيب خاطر بل، ويثني على ذوقهك الرفيع في اختيار المأكولات الشهية وحسب رأيه، التبرع بالمال لشخص "فقير الحال "ضرب من الجنون والتبذير، أكثر مما هو

"إحسان". كان السيد غليك مغرماً بادخار أموال الآخرين لديه: حاول انتقاء أسهل السبل وأرخصها، يركب وسائل نقل رخيصة عندما يعلم بأنه هم من سيتحمل مصاريف الإنفاق، ولكن إن دفع الآخرون بالنيابة عنه اختار الوسيلة الأكثر راحة والتي ستكون بشكل منطقي أغلى ثمناًهذه العادة الثابتة في ادخار الأموال تعود إلى أجيال سابقة، إنها تنتمي إلى طبقة الرجال الصناعيين الذين جمعوا ثروتهم ببطء شديد.

و الآن يفهم القارئ لماذا لم يُحدّ لسيد غليك عن قناعته بأن زواجه سعيداً، على الرغم من البخل الشديد الذي اتسمت به أكبر آنسات دودسن سناً. رجل عاطفي، حظي بزوجة توافقه الرأي في وجهة نظره الأساسية في الحياة، من السهولة أن يصل إلى قناعة بأنه ما من امرأة في العالم تناسبه كما تناسبه السيدة غليك، على الرغم من المشاحنات اليومية الخفيفة التي تحدث دون أن يطرأ أي تغيير على مسار الحياة والسيد غليك الآن لم يعد منشغلاً بتجارة الصوف كما كان، لذلك توجه إلى التفكير في التركيبة الغريبة للعقل الأنثوي المكشوفة أمامه من خلال حياته البيتية، ومع ذلك أعتقد بأن هذه الميزة لدى السيدة غليك كانت مصدر جاذبيتها كامرأة: فهي جذابة عندما تفرش غطاء المائدة بطريقة تتميز بها عن جميع النساء، وفطيرة اللحم التي تصنعها تروق له كثيراً ويتلذذ بالجبنة الأرجوانية اللون، وينتعش بالرائحة التي تفوح من خزانة ملابسها.

إن العاطفة الوقادة التي يكنها للسيدة غليك، جعلته يراها مختلفة تماماً عن كل النساء الأخريات والشجار الذي حدث بينها وبين السيد توليفر سبب له الإزعاج والقلق، حتى أنه لم يستمتع بعادته التي اتبعها صباحاً قبل تناول الإفطار، بالذهاب إلى الحديقة وتأمل نبات الملفوف في ذلك الصباح تمنى لو أن غضب السيدة غليك يتلاشى، وتعود لمزاجها ولباقتها الأسريةجلست السيدة غليك إلى مائدة الإفطار، ولم تكن قد اعتنت جيداً بلف شعرها، لأنها انشغلت ببعض الأمور البيتية، ووجدت أنه من الأفضل عدم المبالغة بالأناقة.

أدرك السيد غليك، وهو يجلس لتناول عصيدة الحليب، أن عليه التصرف بتعقل لكي لايستثير غضبها أكثر. هنالك أناس يحسنون مزاجهم العكر من خلال إلقاء اللوم على الآخرين وجعلهم يتحملون عواقب استيائهم، وهذا الأسلوب اتبعته السيدة غليك عندما كان يتعكر صفوها.

لم يتفوه السيد غليك بكلمة حتى لايؤجج الشجار. ولكن طال صمته، وبدا واضحاً أن ذلك السكوت سيلبي غرض السيدة غليك التي قالت بلهجة غريبة:

"حسنٌ، سيد غليك! من المؤسف حقاً أن أبذل قصارى جهدي لأكون زوجة صالحة لك طوال الأعوام الماضية إن كنت سأعامل بهذه الطريقة، كان من الأفضل لي أن أقرر مصيري قبل أن يتوفى والدي المسكين، لأعرف لأي منزل التجئ".

توقف السيد غليك عن تناول عصيدته، وحدّق بها - ولم يكن مندهشاً، لكنه أجابها بهدوء محاولاً كشف الغموض الذي يتلبس كلامها :

"لماذا، سيدة غليك، ما الخطأ الذي ارتكبته الآن؟".

"ارتكبته، الآن سيدة غليك؟ارتكبته الآن؟ إنني آسفُ جداً لحالك "دون أن يفكر بجواب مناسب، عاود السيد غليك تناول عصيدته

بعد صمت تابعت السيدة غليك كلامها:

"هنالك أزواج في هذا العالم يؤيدون الآخرين ضد زوجاتهم ربما كنت على خطأ، وبمقدورك أن تعلمني الصواب ولكن ما أعرفه هو أنه ينبغي على الزوج مساندة زوجته، بدلاً من الابتهاج عندما يهينها الآخرون".

قال السيد غليك، بلهجة لطيفة إلى حد ما، لأنه على الرغم من كونه رجل لطيف، لكنه غير مستكين: "والآن، ما الذي دفعك لقول هذا الكلام؟ متى فرحت عندما يهينك الآخرون؟". "هنالك تصرفات تزعج المرء أكثر مما لو أفصح عن رأيه بوضوح، سيد غليك، تمنيت لو تواجهني بما تفكر فيه، وتصارحني برأيك، فهذا أفضل من أن تتصرف معي كما يعاملني الآخرين، وتظهر استياءك مني بالصمت كما لو أنني وسخة تحت قدميك".

قال السيد غليك بلهجة غاضبة مثيرة للضحك:

"أستاء منك بالصمت؟ إنك مثل رجل مخمور يعتقد بأنه محط اهتمام الآخرين".

قالت السيدة غليك بحيوية ونبرة عاطفية: "لاتحط من منزلتك سيد غليك، وتتكلم معي بلغة قاسية لاتليق بك! لأنك تبدو صغيراً جداً، على الرغم من أنك تقدر نفسك جيداً. رجل بمكانتك عليه أن يكون مثالاً يحتذي به الآخرون وأن يتحدث بلباقة أكثر "أجاب السيد غليك على الفور وبلهجة حادة :

"أجل، ولكن هلا أصغيت لكلامي اللبق؟ أفضل ما أستطيع قوله لك هو ما ذكرته ليلة البارحة - كنت مخطئة عندما طالبت بنقودك ومن الأسلم لك الانتظار. وكم كنت آمل أن تعدلي عن رأيك هذا الصباح. ولكن إن رغبت باسترجاع نقودك فلا تفعلي في الوقت الحاضر، وتثيري عداوة أكثر في العائلة - انتظري حتى يفك الرهن دون إثارة مشاكل.إذ ينبغي عليك توكيل محام، لن

تنتهي المصاريف في هذه الحالة".

أحست السيدة غليك بأن كلامه فيه شيء من المنطق، لكنها دفعت برأسها للوراء، مطلقة صوتاً تعبيراً عن الدهشة لتثبت له بأن صمتها كان مجرد هدنة، وليس استسلاماً في الواقع، تأججت العداوة ثانية على الفور.

"والآن أشكرك سيدة غليك، على فنجان الشاي "، قال السيد غليك بعد أن لاحظ بأنها لم تقدمه له كعادتها، وكان قد انتهى من تناول عصيدته. رفعت قدر الشاي وقالت وهي تحرك برأسها قليلاً للخلف: "إنني سعيدة بأن تشكرني سيد غليك. نادراً ما أسمع الشكر من الناس لقاء ما أفعله في هذا العالم على الرغم لاتوجد أبداً امرأة في عائلتك، سيد غليك، تعاملني بلطف كما أستحق، مع أنني أعامل جميع أقاربك بمنتهى التهذيب، ولا أحد منهم يستطيع إنكار هذا".

قال السيد غليك بغضب واستهزاء: "أفضل أن لاتبحثي في أخطاء أقاربي قبل أن تنهي مشاجراتك مع أقاربك، سيدة غليك. هلا تكرمت، وسكبت لي الحليب؟".

قالت السيدة غليك، وهي تسكب قليلا من الحليب في الكأس على غير العادة، وكأنها تقول له، إن أردت كوباً من الحليب فعليك أن تخدم نفسك :

"هذا أسوأ ما قلته سيد غليك. وأنت تعلم أن كلامك غير صحيح. لست المرأة التي تتشاجر مع أقاربها: ربما تقول هذا لأنك أنت من تفعل هذا".

"لماذا، ماذا تسمين ما حصل البارحة، عندما غادرت منزل أختك وأنت في حالة غاضبة؟".

"لم أتشاجر مع أختي سيد غليك، وأنت تعلم أن كلامك غير صحيح. السيد توليفر ليس من عائلتي، وهو من تشاجر معي، وطردني من منزله. ولكن ربما من الأفضل لك سيد غليك أن تتضايق بسبب إهانته لي وشتمي بكلمات سوقية. أنت لم تحفظ لي كرامتي، دعني أقول لك، بأن العار يلحق بك أنت".

قال السيد غليك وقد تأجج غضبه :

"هل سبق لأحد في هذه الأبرشية أن سمع عن امرأة تلبى مطالبها مثلك؟ كل ما أملكه مسخر لأجلك، وتحتفظين برصيدك الخاص، تركبين عربة فخمة كلفتني مصاريف لانهاية لها، وحتى عندما أموت، لاخوف عليك من جور الزمن - لكنك تنكرين الفضل، وتعضين مثل كلب مجنون! هذا أمر لم يعد يطاق أبداً".

(قال السيد غليك كلماته الأخيرة بنبرة حزينة ثم دفع بكأس الشاي بعيداً عنه، وضرب الطاولة بكلتا يديه).

قالت السيدة غليك وهي، تنزع عنها منديلها، وتطويه بطريقة مثيرة :

"حسنٌ، سيد غليك! إن كانت هذه مشاعرك، فلا بد من أن تعرف مشاعري. إن كنت تتحدث عن الأشياء التي تلبيها لي، فاعلم أنه يوجد متطلبات كثيرة لأحصل عليها. أما بالنسبة لنعتك لي بأنني مثل كلب مجنون، فمن الأفضل لك أن تحس بالذل والعار لقاء معاملتك المهينة لي، لأنني لاأستطيع التحمل، ولن أتحمل".

في هذه اللحظة رق صوت السيدة غليك لأنها كانت على وشك البكاء، الذي منعها من الاستمرار بالحديث، ودقت الجرس بعنف، ونهضت من كرسيها، وهي تتكلم بصوت مخنوق: "سالي، أشعلي الموقد في الطابق العلوي، وأسدلي الستائر. سيد غليك، اطلب الغداء الذي تفضله أما أنا فسأتناول العصيدة".

مشت السيدة غليك عبر أرجاء الغرفة، وأخرجت من حقيبة كتباً صغيرة، كتاباً لبا كستر بعنوان "راحة القديسين الأبدية "[1]، وأخذته معها إلى الطابق العلوي لقد اعتادت على قراءة ذلك الكتاب في مناسبات خاصة: خلال صباحيات الأحد الندية، أو عندما كانت تسمع عن حادثة وفاة في العائلة، أو في هذه الحالة، عندما يصل الشجار مع السيد غليك إلى أعلى مستوياته.

لكن السيدة غليك عندما صعدت إلى الطابق العلوي حملت معها بالاضافة إلى كتاب رحلة القديسين والعصيدة، شيئاً آخر يمكن أن يُهَدِّئ من مشاعرها، ويساعدها على تحمل البقاء طويلاً حتى موعد شرب الشاي كان هذا الشيء، اقتراح السيد غليك، بأنه من الأفضل لها أن لاتطالب بالخمسمائة جنيه حتى تتحول إلى استثمارات مربحة، وفكرت السيدة غليك أيضاً بكلامه الافتراضي حول الإرث الذي سيعود بكامله إليها بعد موته كان السيد غليك، مثل بقية الرجال، كتوماً للغاية في مثل هذه الأمور، لايفصح عما يجول في خاطره بما يتعلق بمسائل الإرث لكن السيدة غليك، في لحظات الكآبة، كان لديها هاجس التفكير بأن زوجها مثل الأزواج الآخرين الذين سمعت عنهم، ربما يفارق الحياة، ويتركها لبؤسها.

عندئذ لن تأسف عليه أما إن كان يفكر جدياً بكتب وصية تضمن مستقبلها، لابد لها أن تتأثر لفراقه، وتتذكر حتى أيامه التي كان يمضي فيها

---

[1] رحلة القديسين الأبدية: كتاب ديني طبع عام 1650، مؤلفه ريتشارد باكستر (1615 - 1595)، وهو رجل دين مسيحي غير ملتزم بعرف أو عادة

هوايته الحمقاء في تأمل الأزهار ونباتات الحديقة، وإلحاحه المتواصل على موضوع قوقعة الحلزون، كل هذا سيؤثر في نفسها كثيراً! على الرغم من أن مشاعر القلق انتابتها في لحظات كثيرة لأن للسيد غليك أقارب كثر فقراء الحال.

بعد أن راق مزاج السيد غليك الطيب القلب، لمح كرسي زوجته فارغاً، وحياكتها مطوية ومركونة في الزاوية، فصعد للأعلى ليطيب خاطرها.

في ذلك المساء تجاذب السيد والسيدة غليك أطراف حديث ودي حول السيد توليفر.

اعترف السيد غليك بأن توليفر رجل مسكين تراكمت عليه الديون، وبأنه يسعى جاهداً لجمع ثروته، أما السيدة غليك فقد قابلت هذا الاعتراف بأسلوب لبق، معلنة أنها لن تطالب الآن بالخمسمائة جنيه لأجل خاطر أختها، ولأنها عندما تفك الرهن على المبلغ لن تحصل إلا على أربعة بالمئة من الريح.

الفصل الثالث عشر

السيد توليفر يجد حلاً لمشاكل حياته المشربكة

بسبب هذه التسوية الجديدة في فكر السيد غليك، أصبحت المهمة في اليوم التالي أسهل بالنسبة للسيدة بوليت التي حاولت مناقشة المسألة من نطاق واسع، فعندما يسمع الجيران والأصدقاء بوجود خلاف ضمن العائلة، سوف يسيء هذا إلى سمعتها، وسيقع اللوم أكثر على السيدة غليك التي لاينبغي عليها أن تلطخ اسم العائلة أبداً

قالت السيدة غليك مختصرة النقاش المطول في هذا الموضوع :

"أعتقد أنه ليس من المفترض أن تتوقعوا ذهابي ثانية إلى الطاحونة، قبل مجيء أختي الحبيبة لزيارتي، كما لايجب أن تتوقعوا بأن أجثو على ركبتي أمام السيد توليفر لأطلب منه السماح، ولن أحمل الضغينة في قلبي، عندما يتودد إلي السيد توليفر، بل سأبادله المعاملة اللطيفة ولا يعلمني أحد كيف أتصرف بلباقة".

بعد هذا وجدت الخالة غليك من غير الضروري التماس الأعذار لعائلة توليفر، ومن الطبيعي أنها شعرت بالاسترخاء قليلاً، وزال الإحساس بالانزعاج الذي عانت منه البارحة بسبب النتائج الوخيمة التي تحيق بذلك المنزل وفي الوقت الذي أبدت فيه السيدة بوليت حزنها على أختها المسكينة وحظها السيء بولديها، واقترحت مشروعاً لإرسال ماغي إلى مدرسة داخلية بعيدة، والتي وإن لم تغير من لون سحنتها، تصلح فيها، على الأقل، العيوب الأخرى، أوقعت الخالة غليك اللوم على أختها المستضعفة، وحاولت أن تبرهن صحة كلامها منذ زمن، إذ طالما أكدت للجميع بأن أولاد توليفر يجلبون المشاكل، وأحست بعظمتها عندما أثبتت الأيام صحة كلامها، يا له من إنجاز!

قالت السيدة بوليت قبل رحيلها :

"إذاً، هل أخبر الحبيبة توليفر بأنك لاتحملين ضغينة في قلبك، وبأن الأمور ستعود كسابق عهدها؟".

"أجل، بإمكانك صوفي أن تقولي للسيدة توليفر، ولحبيبتي ماغي أيضاً بأنني لاأقابل المعاملة السيئة بالمثل: أحترم مكانتي جيداً لأنني الأخت الكبرى، ويجب أن أكون القدوة المثلى، وهذا ما أفعله ولا يمكن لأي شخص إنكار هذا، إن كان ينبغي فعلاً قول الحقيقة".

بعد أن أدركنا أن السيدة غليك تشعر برضا كبير عن نفسها، وتعتز بشهامتها، أترك لك، عزيزي القارئ الحصيف، أن تخمن ما هي مشاعرها عندما تلقت رسالة قصيرة من السيد توليفر، في مساء ذلك اليوم، بعد مغادرة السيدة بوليت، يعلمها فيها بأن لاتقلق بشأن الخمسمائة جنيه، لأنه سيعيد إليها المبلغ خلال الشهر القادم على الأكثر. وتوضح الرسالة، أكثر من هذا، بأن السيد توليفر ليست لديه رغبةٌ في التصرف بعدم لباقة مع السيدة غليك، وبأنه يرحب بزيارتها في أي وقت تشاء، ولكنه لايريد منة منها، سواء فيما يتعلق به أو بولديه.

لقد عجلت السيدة توليفر المسكينة بحدوث هذه الكارثة، عندما توقعت كعادتها بأن كلامها مع السيد توليفر حول زيارة الأخت بوليت للسيدة غليك، ستكون نتائجه سارة ويجعل الجو أكثر بهجة أثناء وجبة الطعام طالما اعتقدت السيدة توليفر بأن تصرفات زوجها خاطئة لأن الناس ينتقدونه، وكان بالنسبة لها إنساناً عاجزاً غير قادر على تدبر أمور بنفسه. وكم أملَتْ خيراً عندما أخبرته عن زيارة الأخت بوليت، ومحاولتها إصلاح الأمر مع الأخت غليك، وطمأنته بأن لايقلق بشأن المال.

لم يتراجع السيد توليفر عن قراره بدفع المبلغ، بل صمَّمَ في الحال على كتابة رسالة إلى السيدة غليك يوضح فيها الأمر بشكل أفضل بحيث يزول أي التباس.

لم يكن السيد توليفر راغباً حقيقة في كتابة رسالة إليها، ولكن للضرورة أحكام، فقد وجد العلاقة بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة، لغزاً من ألغاز هذا العالم المحير!

بعد قراءة الرسالة، لم تبدل السيدة غليك رأيها، وصمَّمَت على قرارها بأن لاتحرم ولديّ توليفر من الميراث، لأنها صاحبة مبدأ ثابت لاتحيد عنه بسهولة ولا ترضى أن يقال بعد مماتها بأنها لم توزع أموالها بعدل بين أقاربها: في الواقع، كانت المسائل الشخصية ثانوية وعابرة بالنسبة للأمور الجوهرية العظيمة ولا يجب الوقوف عندها عندما تتعلق القضية برابطة الدم، أو حرمان الأقارب من الثروة بسبب نزوة عارضة، فهذا ما لن تفعله أبداً لأنه سيشكل لطخة في حياتها. هذا المبدأ آمنت به عائلة دودسن، وهي عادة تفتخر بها العائلة كلها - هذه العادة بمثابة الملح بالنسبة لمجتمعنا الريفي.

ولكن بالرغم من أن الرسالة لم تغير من مبادئ السيدة غليك، لكنها أحدثت

شرخاً في العلاقات، من الصعب إصلاحه بسهولة ولم تقم السيدة غليك بزيارة أختها الحبيبة حتى مساء اليوم الذي سبق ذهاب توم إلى المدرسة أي في بداية آب، حيث أظهرت لها استياءها من خلال إحجامها عن تقديم النصائح أو توجيه الانتقادات، وأشارت فقط لأختها دين فقط بقولها: "الحبيبة توليفر عليها تحمل نتائج اختيارها لزوجها، مع أنني متأسفة لأجلها كثيراً "، ووافقتها السيدة دين الرأي .

في ذلك المساء قال توم لماغي: "أوه، ماغي! إن الخالة غليك تزورنا من جديد، وأنا سعيد أن يحصل هذا قبل التحاقي بالمدرسة!".

امتلأ قلب ماغي بالأسى لمجرد التفكير بأن توم سيبتعد عنها، وبدا ذلك التهليل الذي أظهره توم غير مناسب أبداً، لقد بكت بينها وبين نفسها في تلك الليلة قبل أن تغط في نومها.

إجراءات السيد توليفر السريعة استلزمت منه سرعة أكبر في الرد، وإيجاد الشخص المناسب الذي كان يرغب بإقراض خمسمائة جنيه مقابل الرهن.

قال لنفسه: "لاينبغي أن يكون الشخص "زيوناً عند واكيم "، ولكن بعد مرور أسبوعين عدل عن رأيه، ليس لأن السيد توليفر ضعيف الإرادة، وإنما لأن الواقع الخارجي كان أقوى منه، زيون واكيم هو الشخص المناسب

كان مقدر على السيد توليفر أن يرضخ للواقع، وبالتالي عليه في هذه الحالة أن يدافع عن نفسه، ويقول بأنه أسير مُقدَّراً، وبأن أعماله مفروضة عليه، وليس هو مَنْ اختارها بمحض إرادته

الجزء الثاني

فترة الدراسة

الفصل الأول من دراسة توم

كانت معاناة توم قاسية للغاية في حي الملك لورتن، وهو تحت الرعاية الكريمة للكاهن والتر ستيلنغ. عندما كان في أكاديمية السيد يعقوب، لم تكن الحياة بالنسبة له مصدراً لمشاكل عصية الحل: فهنالك رفاق كثر يلعب معهم، وبما أن توم نشيط وحاذق في جميع أنواع اللعب، ولاسيما القتال، لم يشعر بأن نمط الحياة قد تغير بالنسبة له، لأن أسلوب الحياة هناك، أي في الأكاديمية، كان جزءاً لاينفصل عن شخصية توم

عرف السيد يعقوب، بالعجوز غوغل (Goggles)، بسبب عادته في وضع العدسات، التي لم تكن تثير الرهبة في نفوس التلاميذ، وكان يتكلم من أنفه، ويهتم بتزيين توقيعه، أما بالنسبة لتوم فقد كان سعيداً إلى حد ما لأنه تخلص من هذا النموذج من الشخصيات

لم يشأ توم أن يصبح مدير مدرسة يتكلم من أنفه - ولكنه رغب في أن يكون رجلاً موسراً، مثل أبيه الذي أعتاد على الذهاب للصيد فترة شبابه، وكان يمتطي فرساً ممتازة سوداء: كم تمنى أن يذهب أيضاً للصيد، ويكون محط احترام الجميع.

اعتقد توم أن الناس عندما يكبرون، لن يسأل أحد إن كانوا يعرفون القراءة والكتابة: فعندما يصبح رجلاً، سيكون سيداً على كل شيء، ويفعل كل ما يحلو له. بدا الأمر في غاية الصعوبة بالنسبة له، عندما فكر بأن فترة الدراسة ستطول، وبأنه لن يحذو حذو أبيه، ولن ينشأ مثله، ويعمل مثل عمله، الذي طالما اعتقد أنه في غاية المتعة، فلا شيء أجمل من ركوب الخيل، وإلقاء الأوامر، والذهاب للتسوق، كما اعتقد بأن الكاهن سيقدم له دروساً كثيرة عن الكتاب المقدس، وربما يلقنه تعاليم الإنجيل والرسالة الإنجيلية أيام الأحد. وبما أنه الآن يجهل كيفية الدراسة عند الكاهن، من المستحيل أن يتخيل بأن المدرسة ستكون مختلفة بشكل كي عما عهده في أكاديمية السيد يعقوب وهكذا فلا مشكلة من مصاحبة رفاق ودودين، وحمل صندوق صغير من كبسولات القدح وربما حمل بندقية أيضاً.

وهكذا بعد أن رسم توم المسكين أحلاماً يانعة في مخيلته، والتي كانت تشبه ما تخيلته ماغي أيضاً هذه الأحلام تبددت بقسوة بعد تجربته المطولة في حي الملك لورتن.

لم يمض أسبوعان على بقائه هناك، حتى أدرك توم بأن الحياة معقدة جداً، ليس فقط بسبب القواعد اللاتينية، ولكن المستوى الجديد لطريقة اللفظ بالإنكليزية كانت عملاً شاقاً بالنسبة له، بالإضافة إلى الخجل الشديد الذي شكل ضبابه كثيفاً على عينيه منعته من استكشاف ما هو غامض

لم يكن توم الوحيد الذي وجد صعوبة في فهم المواضيع المطروحة، فلفظ مقطع واحد للإجابة على سؤال السيد ستيلنغ كانت مسألة غاية في الصعوبة، حتى بات توم يخشى افتضاح أمره بسبب الحلوى التي يخبئها. أما بالنسبة لصندوق كبسولات القدح، فقد حزم أمره بشكل تقريبي، وقرر التخلص منه ورميه في البركة المجاورة، وهو يحس بمرارة فظيعة

وصل إلى قناعة بأن نظريته بخصوص حمل البندقية كانت خاطئة وضعيفة فالسيد ستيلنغ لم يتحدث أبداً عن البنادق، ولا عن الأحصنة، ومع ذلك كان من المستحيل بالنسبة لتوم أن يحتقر أو يقلل من أهمية السيد ستيلنغ كما احتقر في الماضي العجوز غوغل فقد تمكن السيد الحكيم ستيلنغ من أن يميز بين صوت عدة براميل متدحرجة، عن صوت الرعد القوي

السيد ستيلنغ رجل جميل القوام، واسع الصدر، لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره، شعره منتصب كتاني اللون، وعيناه واسعتان براقتان لهما لون رمادي، وهما مفتوحتان دائماً لمراقبة كل المستجدات، صوت جهوري وعميق، وواثق من نفسه لدرجة لايميل إلى الحياء أبداً. بدأ مسيرة حياته بحيوية ونشاط، وكان عازماً على إحداث تأثير قوي في نفوس أصحابه

كان الكاهن والتر ستيلنغ يطمح طوال حياته أن يصبح كاهناً له شأن عظيم لديه تصميم بريطاني حقيقي ليشق طريقه في هذا العالم في المقام الأول، كان يسعى ليصبح مدرساً متفوقاً في مجال القواعد. وواعظ ممتاز أيضاً، يقدم مواعظه دائماً بطريقة مؤثرة، لكي يحظى بتهنئة وإعجاب الأبرشيات المجاورة، وحتى يكون لها تأثير عظيم في نفوس إخوانه الكهنة الذين لم يهبهم الله قدراته ومواهبه

الأسلوب الذي اختاره لتقديم المواعظ كان ارتجالياً، وهو أسلوب إعجازي يستحق التقدير كثيراً في أبرشيات ريفية مثل أبرشية الملك لورتن

لقد حفظ عن ظهر قلب بعض مقاطع من مواعظ ماسيلون وبورد الو[1]، والتي بالفعل بدت مؤثرة للغاية وهي تنزلق من ثغره بنبرات عميقة

---

[1] ماسيلون وبورد الو: جين بابتست ماسيلون (1663 - 1742) ولويس بورد الو (1632 - 1704) وهما واعظان فرنسيان

لم يعتنق السيد ستيلنغ مذهب مدرسة خاصة، وصبغت مواعظه بصبغة إنجيلية، وهذا هو الشيء "الدارج "في الأسقفية التي انتسبت إليها أبرشية الملك لورتن.

باختصار السيد ستيلنغ رجل يسعى للارتقاء بمهنته، والاستفادة من ميزاتها الحسنة. وكاهن بمثل نشاطه وحيويته، لانتوقع منه أن يبدأ حياته مديوناً، ومن الطبيعي أن لايعيش مثل أي كاهن بائس فقير الحال، ويمضي حياته بإعطاء المواعظ دون تحسين أحواله، كما أن السيد ستيلنغ رجل رحب الصدر كثيراً، وقد أحس بأنه كفؤ لأية مهمة، وهو واعظ ماهر يؤثر بقوة في النفوس وعما قريب سوف يكتب مسرحية باللغة اليونانية، ويؤلف كتباً جديدة متعددة لكنه لم يختار بعد المسرحية التي سيكتبها، لأنه تزوج منذ أكثر من سنتين، وهو أثناء وقت الراحة لايولي اهتماماً كافياً للسيدة ستيلنغ، لكنه أسرّ لتلك المرأة الجميلة بما ينوي فعله يوماً ما، وهي بدورها تعاظمت ثقتها به، ذلك الزوج الذي يفهم في كل شيء.

لكن المرحلة الحالية للوصول إلى النجاح كانت تنشئة توم توليفر خلال الفصل الأول من السنة، حيث كانت هنالك مفاوضات تتعلق بإرسال تلميذ آخر يسكن في الجوار نفسه ،

وهذا في مصلحة السيد ستيلنغ الذي علم بأن توم كان ولداً غير مُهذَّب، وراقبه في عزلته، فوجد أن ذلك الشبل المشاكس قد حقق تقدماً استثنائياً في ظرف وقت قصير. وهذا لأنه تشدد في التعامل معه، وتلقينه المبادئ الأخلاقية: بدا واضحاً أنه ولد يمتلك قدرات خلاقة لايمكن تطويرها من خلال تطبيق القواعد اللاتينية، دون استعمال الأسلوب العنيف لكبح جماح التصرفات الصبيانيةلا يعني هذا أن السيد ستيلنغ مدرس فظ أو عصبي المزاج - بل على العكس: كان مرحاً مع توم، وتواصل معه بأسلوب لبق، مستعملاً المزاح أحياناً، لكن توم المسكين ازداد جبناً وقلقاً من هذا الأسلوب الجدي المضاعف! لأنه لم يعتد على مزاج السيد ستيلنغ، ولأول مرة في حياته، يتولد لديه إحساس مؤلم بأن جميع تصرفاته خاطئة إلى حد ما.

عندما قال لسيد ستيلنغ بينما كان لحم العجل مكشوف :

"والآن يا توليفر! أيهما سترفض إن خيرت، لحم العجل المشوي أم تعلم اللاتينية؟ "— بدا السؤال المطروح على توم مثل جوزه يصعب كسرها، ارتبك وذعر، وأحس أن تعلم اللاتينية أمر لامفر منه أبداً: بالطبع أجاب "لحم العجل المشوي "، بينما تعالت الضحكات، وأعقبها إعداد الصحون لتناول اللحم المشوي

الذي أحس توم بأنه رفضه بطريقة غامضة، في الواقع وضع نفسه في موقف حرج، بدا مثل "الأحمق "أحس توم أنه يتحمل عبء تلقي الثقافة بأسلوب مضاعف بعد أن تكبد والداه جهداً لإرساله كتلميذ وحيد إلى الكاهن: فعليه أولاً تعلم اللاتينية، وثانيا، تحمل مراقبة السيد المبجل له، فكل الانتباه موجه إليه فقط، وكم استمتع بالدراسة لو كان هنالك عدد أكثر من التلاميذ، عندئذ يتوزع الانتباه عليهم جميعاً، فيتمكن من أخذ نفس عميق في لحظات الغفلة!

ولكن كان هذا الامتياز التالي، الذي تحمل لقاءه السيد توليفر، ثمناً باهظاً لتدريب توم خلال الأشهر الأولى في أبرشية الملك لورتن.

ذلك الطحان المحترم أوصل توم للمدرسة، وعاد أدراجه للمنزل وهو مرتاح البال، قرير العين كان سعيداً لأنه أخذ بنصيحة رايلي، واختار المعلم المناسب لتوم.

أما السيد ستيلنغ، بعينيه الواسعتين والمتيقظتين، تحدث بأسلوب ارتجالي مع السيد توليفر، وكان يجيبه على أي سؤال يطرحه بمايلي :

"أفهم، سيدي العزيز، أفهم، كن مطمئناً، كن مطمئناً، أنت تريد من ولدك أن يصبح رجلاً قادراً على شق طريقه في هذا العالم "- وهذا الجواب أسعد كثيراً توليفر، الذي وجد طلبه في الكاهن المثقف، الملم بالمعارف المناسبة للقضايا اليومية لهذه الحياة باستثناء المستشار وايلد الذي سمع عنه مؤخراً في جلسته الأخيرة، اعتقد السيد توليفر بأن الكاهن ستيلنغ كان أعنف شخص قابله في حياته - في الواقع كان تماماً مثل وايلد: كذلك اعتقد معظم العلمانيين بأن ستيلنغ شخص متشدد، ويمتلك قدرات خلاقة بشكل عام: ولكن بشكل رئيسي، اعتبره إخوانه الإكليركيين شخصاً بليد الفهم أما السيد توليفر فلم يكن لديه أدنى شك بأن هذا الكاهن من الدرجة الأولى، ولديه اطلاع واسع في معظم العلوم، وهو مدرك تماماً ما يجب تعليمه لتوم حتى يصبح نداً للمحامين - المسكين توليفر نفسه لايدرك ما يجب تعليمه لتوم، لذلك كان من الضروري أن يوكل المهمة للكاهن.

أما بالنسبة للسيدة توليفر، فقد اطمأنت لوجود ابنها عند امرأة عطوفة حساسة تسدي النصائح المفيدة، على الرغم من صغر سنها.

قالت السيدة توليفر: "لابد أنهما مقتدرا الحال، فكل شيء في المنزل جميل وأنيق، وكذلك الثوب الحريري الجميل الذي ترتديه، باهظ الثمن أختي بوليت لديها ثوب يشبهه".

قال السيد توليفر: "آه، أخمن أن لديه دخلاً إضافياً بالإضافة إلى دخله من

الأبرشية ربما قدم لهما والدها بعض المساعدة ولكن توم سيتلقى تعليماً ممتازاً، فالكاهن يعطي مواعظه بشكل ارتجالي ومؤثر". أضاف السيد توليفر وهو يدير برأسه باتجاه واحد، ويضرب حصانه على خاصرته:

"هذا شيء رائع حقا".

كرّس السيد ستيلنغ نفسه لتلقين المعلومات بشكل طبيعي، وغرس قواعد إيتون وإكليد[1] في ذهن توم توليفر. حسب رأيه، هذه هي القاعدة الأساسية للحصول على ثقافة واسعة، وكل ماعداها احتيال وافتراء ومجرد معرفة سطحية.

لقد آمن السيد ستيلنغ بالمنهج الذي يلقنه: لم ينتَبْهُ شك أبداً، بأنه يلقن توم توليفر الثقافة على أفضل وجه.

منذ البداية تعامل مع توم، وكأنه غلام أحمق، مع أنه بذل جهداً حتى يتعرف على طريقة تفكيره وأكثر ما أثار السيد ستيلنغ عناد ولا مبالاة توم، إذ كان يقول له:

"أنت لاتحس بأهمية ما تفعل يا سيدي". ولكن توم لم يجد صعوبة أبداً في إدراك الأمر الذي يركز على أهميته السيد ستيلنغ، بل وإن قدراته لم تكن ضعيفة على الإطلاق.

أتصور أن توم يمتلك طاقات هائلة، بل وأقوى من تلك التي لدى السيد ستيلنغ، لأن توم كان قادراً تخمين عدد الأحصنة التي تجري خلفه بسرعة، وتمكن من التسديد بدقة على هدف ما، قذف الحجر مثلاً في مركز الهدف المطلوب تماماً، واستطاع أن يقدر طول المسافة التي تفصله عن الملعب، وأن يرسم مربعات متساوية على لوحه بدون أي قياسات في حين لم يعر السيد ستيلنغ اهتماماً لهذه المسائل: كان يراقب فقط إخفاق توم وأخطائه عندما يلهيه الشرود عن إعطاء الجواب الصحيح. لذلك استنتج السيد ستيلنغ، بأن عقد توم لايتقبل بسهولة علم دراسة، بينما كان هو نفسه في حاجة لتقبل هذه الإنجازات الواضحة! حسب رأيه، دراسة علم الإغريق والرومان والهندسة هو الأساس في إعداد عقل متنور مستعد لتلقي بقية العلوم إنني لاأعارض نظرية السيد ستيلنغ: إن أردنا إخضاع جميع العقول لنظام واحد، تبدو هذه النظرية صحيحة بالنسبة للجميع، وقابلة للتطبيق ولكني أعلم جيداً أن هذه النظرية لاتناسب توم توليفر أبداً، كأنك تقدم له قطعة من الجبنة، بينما يعاني المسكين

---

[1] قواعد لاتينية وضعها (T. W. C) إدواردز.

من عسر في الهضم، فيزيد الطين بلة! وربما تظهر نتائج خارقة عندما نغير هذه النظرية!

أطلق أحدهم على الدماغ اسم المعدة الفكرية، وإن إدراك المرء العبقري لعلوم اليونان والرومان وعلم الهندسة، لن يفيد في شيء حسب هذه الاستعارة ولكن مع تطور الأحداث ظهرت نظريات عظيمة، وشبهت العقل بورقة بيضاء اللون أو بمرآة تعكس كل ما يوضع أمامها، وحسب هذا المفهوم تصبح معرفة المرء غير متناسبة تماماً مع العملية الهضمية.

بلا شك كانت فكرة عبقرية أن يطلقوا على الجمل اسم سفينة الصحراء، ولكن من الصعوبة بمكان استخدام ذلك الحيوان المفيد لقطع مسافات شاسعة خلال زمن قصير.

في الوقت الحالي كان على توم أن يتعلم اللغة اللاتينية وقواعد تصريف الأفعال، بدا توم يعاني من فراغ، ولم يستطع أن يتخيل بأنه يوجد أناس باعوا، واشتروا الأغنام والثيران، وتعاملوا مع القضايا اليومية للحياة، بواسطة استعمال هذه اللغة، ولا يزال توم يحاول إدراك السبب الذي يجعله يتعلم لغة لايستعملها في حياته اليومية على الإطلاق.

لم يضعف السيد ستيلنغ قدرة تلميذه على التفكير، باستعمال أسلوب التبسيط والشرح، ولم يقلل من التأثير القوي للبحث في دراسة أصول الكلمات، بمزجها مع معلومات إضافية لالزوم لها، كتلك التي تعطى للفتيات، ومع ذلك، من الغرابة القول بأن توم أصبح يحس بأنه كالفتاة، إحساس جديد لم يشعر به من قبل طوال حياته كلها، بسبب هذه المعاملة القاسية التي يتلقاها من معلمه طالما اعتز بنفسه، وأحس براحة عظيمة، وهو يحتقر العجوز غوغل، لكنه الآن لايتلقى إلا الصدمات والإحاطات التي سحقت كبريائه عند الأقدام كبريائه الذي يعاني الآن من وضع حرج، بعد أن أغلي تماماً إحساسه بالرضا عن النفس، وأصبح كالفتاة قادراً على تقبل كل شيء.

استجاب لما كان يمليه عليه السيد ستيلنغ، كان يقف على قدم واحدة فترة من الزمن، أو يتكّئ برأسه على الجدار، أو يمارس أي فعل إجباري من هذا النوع لكنه لم يسمع من قبل بأن هذه الإجراءات تقوي الذاكرة أو تهذب النفس!

حتى الصلوات كان يحفظها عن ظهر قلب ولكن في أحد الأيام أخطأ في التصريف الثالث للفعل للمرة الخامسة، فاقتنع السيد ستيلنغ أن توم مهمل للغاية، لأنه تجاوز الحدود الممكنة للغباء، ووبخه مشيراً إلى أنه في حال فشل الآن في انتهاز هذه الفرصة الذهبية والاستفادة من تعاليمه، سوف يندم أشد

الندم عندما يصبح رجلاً - مما جعل توم يشعر بالبؤس الشديد أكثر من المعتاد، وصمم على استعمال كل قواه في ذلك المساء، وهو يؤدي صلواته من أجل والديه وأخته الصغيرة، حيث أضاف بلهجة هامسة، "أرجو من الله أن يمنحني ذاكرة قوية لتعلم اللاتينية".

صمت قليلاً محاولاً التفكير بعبارة مناسبة تخص قواعد ايكليد - فكر فيما إذا كان عليه الاستفسار عن المعنى، أو إن كان هنالك طريقة مناسبة لتطبيقها بشكل أفضل - لكنه أضاف أخيراً لدعواته - "واجعل يا رب، السيد ستيلنغ لايطلب مني تعلم قواعد ايكليد بعد الآن آمين".

كما قلت مسبقاً، لم يحس توم من قبل في حياته كلها أنه يشبه الفتاة، وكان يمر في طور معاناة وهو يتدرب على الأفعال الشاذة، ويمضي ساعات إضافية خارج أوقات المدرسة كوسيلة للتطور الفكري، ومؤخراً رزقت السيدة ستيلنغ بطفل ثان، ولا شيء أكثر فائدة بالنسبة للغلام من أن يحس بأنه عضو فعال في المجتمع، والسيدة ستيلنغ بدورها قدرت هذه الأهمية وأدت خدمة جلية لتوم بتوكيله مهمة مراقبة لورا، الملاك الصغير بينما انشغلت المرضة بالاعتناء بالطفل المريض، كان توم يأخذ لورا الصغيرة في نزهة عندما تسطع الشمس في يوم خريفي - وهذا يجعله يشعر بأن بيت الكاهن لورتن بمثابة منزل له، وبأنه فرد من أفراد العائلة.

بما أن لورا الصغيرة لم تصبح بعد ماهرة في المشي، وكانت قد وضعت شريطاً حول خصرها، أمسكها به توم وكأنه يمسك بكلب صغير، خلال الدقائق القليلة التي أبدت فيها رغبة في المشي، لكنه في معظم الأحوال حمل تلك الطفلة الجميلة وطاف بها حول الحديقة، تحت مرأى السيدة ستيلنغ، وحسب توجيهاتها. إن يعتقد أي شخص بأن هذه المهمة الموكلة لتوم هي ظلم بحقه وربما انتهاك لكرامته، أرجو أن يأخذ بعين الاعتبار أن هنالك فضائل أنثوية ممزوجة بصعوبة مع الفضائل الذكورية وإن كانت غير مناسبة لتكوينه الفيزيولوجي وعندما تسعى زوجة كاهن فقير الحال، لتبدو في أبهى مظهر لها، وتعيش في مستوى راق يتطلب وجود ممرضة تقوم بمهام خادمة السيدة، وتحضر حفلات عشاء، وتستقبل الضيوف في ردهة للاستقبال فسيحة الأرجاء، يمكن أن يتصورها النساء العاديات باهظة الثمن، سيكون من غير المعقول أن تتوقع وجود ممرضة أخرى بل إن السيدة ستيلنغ نفسها هي التي تمارس بعض المهام البيتية أدرك ذلك السيد ستيلنغ: كان فخوراً بزوجته، وحاول تحسين مستوى معيشة أفضل.

لو أن توم سيء المزاج، بالتأكيد لما ابتهج وهو يلاعب لورا الصغيرة، لكنه غلام طيب القلب جداً - هنالك تركيبة في داخله حولته إلى شخص يمتلك صفات الرجولة الحقيقية، والعطف على الضعفاء. ولكن ما أخشاه أن يكون قد حمل بين جوارحه مشاعر الكره للسيدة ستيلنغ، بل والكره الدائم لخصال الشعر الأشقر والوجه الشاحب، والضفائر العريضة، والأسلوب المتعجرف إلا أن توم لم يستطع منع نفسه من اللعب مع لورا الصغيرة، وإضحاكها: حتى أنه ضحى بكبسولات القدح لأجل خاطرها، بعد أن اعتقد بأن وميضها الصغير سيدخل البهجة إلى قلب لورا، فغيَّر رأيه عندما وبخته السيدة ستيلنغ لأنه يعلم ابنتها اللعب بالنار.

كانت لورا طفلة مرحة - أوه وكم تاق توم للعب مع الأطفال المرحين! كان في سره مشتاقاً ومتلهفاً لرؤية ماغي واللعب معها، كان مستعداً أن يتحمل غضبها منه، بالرغم من أنه كان يشعرها بالمنة عندما يسمح لها بمرافقته في نزهاته السعيدة.

وقبل نهاية هذه الفترة الكئيبة من الفصل الدراسي، جاءت بالفعل ماغي إليه. فقد أرسلت السيدة ستيلنغ في دعوتها لتمكث بجانب أخيها: وهكذا عندما قدم السيد توليفر إلى حي الملك لورتن في أواخر أكتوبر، رافقته ماغي أيضاً، وهي تحس كأنها في نزهة رائعة في أصقاع البلاد.

كانت تلك الزيارة الأولى للسيد توليفر، حتى لاينشغل الغلام كثيراً بأمور منزله وأهله، قال لتوم، عندما غادر السيد ستيلنغ الغرفة ليخبر زوجته بوصول الضيوف، وبدأت ماغي تقبله بحرية أكثر: "حسنٌ يا بني، تبدو بأحسن حال! إنك متأقلم مع جو المدرسة".

لكن توم تمنى أن يبدو بأسوأ حال.

قال توم: "لاأعتقد بأنني بأحسن الأحوال يا أبتاه، هلا طلبت من السيد ستيلنغ أن يكف عن تعليمي قواعد إكليد - إنها تسبب لي آلاماً فظيعة في الأسنان".

(آلام الأسنان هي الداء الوحيد الذي يخشى منه توم كثيراً).

قال السيد توليفر: "إكليد، يا بني - لماذا؟".

"أوه، لاأعرف: هنالك تعريفات وبديهيات، ومثلثات ومواضيع أخرى إنه كتاب مقرر لدي وعلي تعلمه - ولكن ليس فيه أية متعة".

قال السيد توليفر مؤنباً: "كفَّ، كفَّ عن هذا! لاينبغي أن تتفوه بمثل هذه الترهات عليك تعلم المواضيع التي يقررها لك المدرس فهو أعلم بمصلحتك".

قالت ماغي مواسية: "سوف أساعدك يا توم جئت لأمكث هنا فترة طويلة، إن سمحت لي السيدة ستيلنغ. أحضرت معي صندوق كتبي وملابسي، أليس كذلك يا بابا؟".

قال توم بروح معنوية عالية، محاولاً أن يتغلب على ماغي مظهراً لها صفحة من كتاب إكليد: "أنت تساعدينني، يا لك من فتاة حمقاء! انظري، هذا نمط من الدروس التي أتلقاها! إنني أتعلم اللاتينية أيضاً! الفتيات لايتعلمن أشياء كهذه أبداً. إنهن في منتهى الحماقة".

قالت ماغي بثقة: "أعرف ماذا تعني اللاتينية جيداً. إنها لغة من اللغات توجد كلمات باللاتينية في القاموس هنالك كلمة بونس، وتعني هدية".

قال توم، وقد أصابته الدهشة سراً:

"والآن يا آنسة ماغي، أنت مخطئة في هذا! تعتقدين أنك فتاة رصينة جداً! ولكن , بونس , تعني , جيد ,، وهي في عدة أشكال - بونس، بونا، بونم".

قالت ماغي بجرأة: "حسنٌ، هذا لايبرر أنها لاتأخذ معنى هدية. فالكلمة لها عدة معانٍ - مثل بقية المفردات هنالك كلمة لون - تعني المرج، كما نعني قماش التيل".

"أحسنت يا صغيرتي"، قال السيد توليفر ضاحكاً، في حين أحس توم بالإحباط والاشمئزاز، على الرغم من فرحته لأن ماغي ستبقى معه.

في دعوتها، طلبت السيدة ستيلنغ من ماغي البقاء لمدة أسبوع فقط، أما السيد ستيلنغ الذي أخذ ماغي في حضنه، فطلب منها البقاء مدة أسبوعين كان السيد ستيلنغ رجلاً ساحراً بالنسبة لماغي، أما السيد توليفر فقد شعر بالفخر الشديد لمنح صغيرته فرصة تعبر فيها عن ذكائها ومعارفها حتى تنال تقدير وإعجاب الغرباء. وهكذا تقرر أن لاتعود لمنزلها حتى نهاية مدة الأسبوعين.

قال توم بعد أن غادر والده ومدرسه الغرفة: "والآن هيا تعالي معي يا ماغي لندرس لماذا تهزين برأسك الآن، وتقذفينه للوراء أيتها الحمقاء؟ تبدين مثل المجنونة، وأنت تتصرفين هكذا"، بالرغم من أن ماغي قصّت شعرها وهو مسرّح بنعومة خلف أذنيها، لكنها لاتزال تهز برأسها كما لو أنها أصبحت عادة ملازمة لها.

قالت ماغي بتهذيب: "أوه، لاأستطيع منع نفسي من هذا التصرف أرجوك توم لاتضايقني أوه، يا لها من كتب رائعة، صرخت ماغي عندما شاهدت الكتب: "كم أتمنى أن يكون بحوزتي عدد كبير من الكتب التي لديك!".

قال توم بنشوة المنتصر: "لماذا، لن تتمكني من قراءتها لأنها كلها باللاتينية".

قالت ماغي: "لا، ليست كلها. أستطيع قراءة عنوان هذا ـ تاريخ تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية".

قال توم وهو يهز برأسه من جانب إلى آخر: "حسنٌ، وماذا يعني هذا؟ أنت لاتعرفين".

قالت ماغي بازدراء: "ولكنني أستطيع في الحال أن أكتشف معناه".

"لماذا، كيف؟".

"عليّ تقليب صفحاته والاطلاع على مضمونه".

قال توم ملاحظاً أن ماغي وضعت يدها على المجلد: "لاتفعلي يا آنسة ماغي لايسمح السيد ستيلنغ لأحد أن يلمس كتبه، سوف أطلعك عليه إن أحببت".

"أوه حسنٌ جداً! إذاً أطلعني على كل كتبك "، قالت ماغي وهي تستدير لتطوق عنق توم بذراعيها، وتفرك خده بأنفها الصغير المستدير الشكل.

توم، الذي غمرته الفرحة بزيارة ماغي، أمسكها حول خصرها، وبدأا يقفزان غبطة حول طاولة المكتبة الضخمة استمرا بالقفز بحيوية، حتى انساب شعر ماغي من خلف أذنيها. زادت ثورتهما أكثر فأكثر، حتى وصلا أخيراً إلى طاولة السيد ستيلنغ، وأوقعا المعاجم الثقيلة على الأرض. لحسن الحظ لم يُسمع صوت رنين قوي في الغرفة، ومع ذلك وقف توم حائراً وشاحباً كالشبح، وأسكته الخوف بضع دقائق، وهو يتوقع حضوراً مفاجئاً للسيد والسيدة ستيلنغ.

قال أخيراً وهو يرفع القواميس: "أوه ماغي، يجب أن نلعب هنا بهدوء. إن كسرنا أي شيء سوف توبخنا السيدة ستيلنغ، وتجعلنا نبكي بيكاي[1]".

قالت ماغي: "ماذا؟".

أجاب توم مفتخراً بمعلوماته: "أوه، إنها كلمة لاتينية تعني التوبيخ الشديد".

سألت ماغي: "هل هي امرأة عصبية؟".

قال توم مؤكداً: "أعتقد ذلك!".

قالت ماغي: "أعتقد أن جميع النساء هن أكثر عصبية من الرجال. فالخالة ماغي عصبية أكثر من العم ماغي، وماما توبخني أكثر مما يفعل بابا".

"حسنٌ، سوف تصبحين امرأة يوماً ما، لذلك لاتتحدثي هكذا عن النساء".

قالت ماغي وهي تهز برأسها للوراء: "ولكنني سأكون امرأة ذكية".

"أوه، يالك من فتاة واهمة وكريهة. إن الجميع يكرهك".

---

[1] بيكاي: الإحساس بالذنب

"ولكن لاينبغي أن تكرهني يا توم، هذا تصرف شرير، فأنا أختك".

"أجل، ولكن عندما تكونين امرأة كريهة، سوف أكرهك".

"أوه، ولكن، لماذا يا توم! لست سيئة معك إنني طيبة جداً معك - وسوف أكون طيبة مع كل شخص أنت لاتكرهني حقيقة أليس كذلك يا توم".

"أوه، لاتتضايقي! لاتكترثي لما أقول! حان موعد دروسي انتظري هنا! "قال توم، وهو يسحب ماغي نحوه، ويريها نظرياته، بينما دفعت بشعرها خلف أذنيها، واستعدت لتثبت قدراتها في مساعدته بدراسة قواعد إكليد.

بدأت تقرأ بثقة عالية، إلا أنها في الحال ارتبكت، وتورد وجهها اضطراباً. لابد لها أن تعترف بعجزها، ولكنها لاتقبل الهزيمة أبداً.

قالت ماغي: "ما هذا الهراء! إنها مادة قبيحة جداً - وما من شخص بحاجة لدراستها".

قال توم، وهو يسحب الكتاب، ويهز برأسه: "آه، والآن يا آنسة ماغي ترين أنك لست ذكية كما اعتقدت".

قالت ماغي مستاءة: "أوه، إنني واثقة من أن الكتاب سيكون سهلاً بالنسبة لي، فيما لو درسته مثلك يا توم".

"ولكنه لن يكون سهلاً، أيتها الآنسة الحكيمة! لأنك عندما تدرسينه ستجدين صعوبة أكبر في فهمه: عليك حفظ التعاريف الثلاثة، وشرح البديهيات V. هذه هي القواعد اللاتينية أريني ماذا بوسعك أن تفعلي".

وجدت ماغي القواعد اللاتينية سهلة بالنسبة للجهد الذي بذلته لفهم مادة الرياضيات كانت سعيدة بالكلمات الجديدة، واكتشفت بسرعة معانيها من خلال شرح الموضوع بالانكليزية مما يشعرها بثقة أكبر وهي تفسر اللاتينية بأقل جهد ممكن.

قررت في الحال البحث في قواعد النحو. أحست الآن بمتعة فائقة - بعد أن قال توم بأن جميع الفتيات لايستطعن تعلم قواعد اللغة اللاتينية: وافتخرت بنفسها كثيراً بعد أن اكتشفت أن دراسة القواعد في غاية المتعة أحست وهي تقرأ الأمثلة باللاتينية وكأنها في "بستان كثيف صغير رائع الجمال "، ناداها توم: "والآن يا ماغي، اشرحي لنا القواعد!".

قالت وهي تثب فرحاً على الكرسي ذي الذراعين الكبيرين: "أوه توم، ياله من كتاب رائع! إنه أكثر متعة من القاموس باستطاعتي تعلم اللاتينية بسرعة كبيرة لاأعتقد أنه أمر صعب على الإطلاق".

قال توم: "أعرف ماذا تفعلين أنت تقرئين المفردات بالانكليزية، التي كتبت في نهاية الكتاب والحمار يستطيع فعل ذلك".

أمسك توم بالكتاب وفتحه مصمماً على إيجاد درس يتمكن الحمير من قراءته أو استيعابه. أما ماغي، بعد أن جرح كبرياؤها، التفتت نحو المكتبة وبدأت تبحث في عناوينها المتعة.

ناداها توم في الحال: "تعالي يا ماغي وأصغي إلي، قفي عند نهاية الطاولة، حيث يجلس عادة السيد ستيلنغ ويسمعني".

أطاعته ماغي، وأخذت معها الكتاب المفتوح.

"بماذا ستبدأ يا توم؟".

"أوه سوف أبدأ بأسماء الأشجار، لأنها الكلمات التي تعلمتها هذا الأسبوع".

بدأ توم في قراءة الأسطر الثلاثة الأولى بشكل حسن، وماغي تستمع إليه متلهفة وهي تتأمل كلمة تكررت كثيراً لكنها لم تعرف معناها. أبطأ توم قليلاً في القراءة وبدأ يسترجع معلوماته: "لاتقولي يا ماغي، سوف أتذكرسانتـ".

قالت ماغي وهي تفتح فمها، وتهز برأسها: "لا، قال توم ببطء شديد، وكأنه يتوقع تذكر الكلمات التالية: "سانتـ".

قالت ماغي بعد أن نَفَذَ صبرها: "U , E , C".

قال توم: "أوه أعرف - أغلقي فمك "، أخذ توم قلمه الرصاص، وكتب بعض الكلمات الصعبة.

قالت ماغي: "أوه عزيزي، أوه عزيزي توم، ما هو الزمن الآن؟ إنه""إنه، أوستريا[1]".

قالت ماغي: "لا، لا، إنه، تيغريس[2]ـ".

قال توم: "أوه، أجل، إنه تيغريس".

بعد عدة أخطاء يصل توم إلى الأسطر التالية.

قال: "والآن، هذه الأسطر أخذتها ليوم غد. أعطني الكتاب دقيقة".

قالت ماغي: "حسن. أستطيع القول أن تسميعك جيداً إلى حد ما. لكنك لاتضع الفواصل في مكانها. وتتوقف في جمل لاتستدعي الوقوف الطويل على الإطلاق".

"أوه، حسنٌ، كفي عن الثرثرة. دعيني أتابع".

في الحال، استدعيا ليمضيا بقية المساء في ردهة الاستقبال، وكانت ماغي ودودة جداً مع السيد ستيلنغ، الذي أحست أنه يقدر ذكاءها، حتى أن توم ارتبك، ودهش من جرأتها. لكنها شعرت بالخجل فجأة، عندما تحدث السيد ستيلنغ عن فتاة صغيرة سمع أنها ذهبت مرة إلى بلاد الغجر.

---

(1) - (2) كلمات لاتينية متعلقة بالتذكير والتأنيث

"يالها من فتاة صغيرة غريبة الأطوار! "، قالت السيدة ستيلنغ قاصدة المزاح -إلا أن ماغي لم يروق لها هذا المزاح. أحست أن السيدة ستيلنغ لاتنظر إليها بإعجاب لأن شعرها القصير منسدل باستقامة خلف أذنيها.

على الرغم من ذلك، كانت تغمرها الفرحة لأنها ستبقى بجانب توم مدة أسبوعين لقد سمح لها بدخول غرفة الدراسة، لذلك تمرنت كثيراً على قراءة الأمثلة في القواعد اللاتينية عالم الفلك الذي كانت تكرهه النساء بشكل عام، سبَّبَ لها الحيرة، وأثار فضولها لطرح مزيد من الأسئلة على السيد ستيلنغ. حيث سألته يوماً ما، فيما إذا كان علماء الفلك يكرهون النساء أيضاً، أم أن المسألة تخص هذا العالم بالذات".

لكنه احتكر الجواب لنفسه، فقالت ماغي: "أعتقد أن جميع علماء الفلك يكرهون النساء: لأنهم، كما تعلم، يعيشون في أبراج شاهقة الارتفاع، وعندما تزورهم النساء هناك، ربما يثرثرن ويمنعنهم من مراقبة النجوم".

استمتع السيد ستيلنغ بدردشتها التي تدل على ذكاء وقَّاد. أخبرت توم أن عليها الالتحاق بمدرسة السيد ستيلنغ. كما فعل هو، وتعلم الدروس نفسها التي يتلقاها. أدركت أن باستطاعتها تعلم قواعد إكليد، لأنها تفحصت الكتاب ثانية، وعرفت معنى A , B ,C: إنها أسماء الأسطر.

قال توم: "واثق أنك لاتستطيعين الآن فعل هذا، وسأسأل السيد ستيلنغ إن كان بمقدورك تعلم القواعد الآن".

قالت الفتاة الجريئة باعتزاز: "لاأكترث لهذا، سوف أسأله بنفسي".

في تلك الأمسية عندما كانا في ردهة الاستقبال سألت ماغي: "سيد ستيلنغ، هل أستطيع تعلم قواعد إكليد، وجميع الدروس التي يتلقاها توم؟".

قال توم ساخطاً:

"لا، لاتستطيعين، لاتستطيع الفتيات تعلم قواعد إكليد: هل يستطعن يا سيدي؟".

قال السيد ستيلنغ: "بمقدورهن تعلم القليل من كل شيء، لديهن مقدار هائل من الذكاء الظاهري، ولكن لايستطعن التعمق في أي شيء. إنهن متسرعات وسطحيات".

ابتهج توم لهذه المحاكمة، وعبر عن انتصاره على ماغي يهز رأسه وهو واقف خلف كرسي السيد ستيلنغ ز أما بالنسبة لماغي، فلم تشعر بمثل هذه الإهانة من قبل.

كانت في السابق تعتز بأنها سريعة، ويبدو الآن أن هذه السرعة ميزة سيئة من الأفضل لها أن تكون بطيئة مثل توم

قال توم بعد أن أصبحا وحدهما: "ها، ها! آنسة ماغي! تدركين الآن أن السرعة سمة سيئة تعلمين الآن أنه ليس باستطاعتك التعمق في أي شيء".

أحست ماغي بإحباط شديد بسبب هذا المصير البائس حتى أنها لم تكن في وضع يسمح لها بالرد على الإهانة.

ولكن عندما كانت تلك الفتاة المتسرعة الضحلة بعيدة عن توم. بدت الدراسة كئيبة بالنسبة له إنه الآن بالفعل يحس بالفرحة العارمة. وهو يتلقى دروسه بتفاؤل أكبر، وبحضور أخته ماغي التي كانت تطرح عدة أسئلة على السيد ستيلنغ، عن الإمبراطورية الرومانية، وفيما إذا كان هنالك حقيقة. رجل قال باللاتينية، "لن أشتري الإمبراطورية الرومانية بربع بنس ولا حتى بقشرة جوز متعفنة "، حتى أن توم توصل إلى حقيقة مفادها، أنه يوجد هنالك أناس محظوظون بمعرفتهم للغة اللاتينية، دون تعلمها عن طريق استعمال قاعدة إيتون.

ولكن الفترة الكئيبة للفصل الدراسي الأول، أوشكت على نهايتها. كم أحس توم بالسعادة وهو يتأمل سقوط الأوراق الصفراء التي كان ترتعش أمام الرياح الباردة! غياب الشمس المبكر، وثلج ديسمبر، والطقس البارد، كل هذا بدا أكثر جمالاً بالنسبة لتوم، من شمس آب المشرقة.

تاق توم للعودة إلى منزله، حيث غرس إحدى وعشرين عصا في زاوية الحديقة، عندما بقيت ثلاثة أسابيع للعطلة، وكان كل يوم يسحب إحدى العصي، ويقذفها بعيداً، وكأنه يحاول نسيان اليوم الذي فات، منتظراً قدوم يوم آخر، ليس ابتهاجاً به، وإنما لِيَمُرَّ مثل الأيام الفائتة قبله.

لا شيء يبعث السرور في قلب المرء أكثر من العودة إلى المكان الذي ترعرع فيه - السعادة برؤية ضوء مشع من ردهة الاستقبال، عندما مرت العربية بصخب فوق الثلج الذي غطى الجسر: إحساس بالسعادة ينتاب المرء لدى الانتقال من الطقس البارد إلى دفء البيت وحرارة القبلات والابتسامات ما أروع ذلك الإحساس الذي يتولد فينا عندما نعود لموطننا، حيث كل شيء غال على قلوبنا قبل أن نعرف معنى الاختيار، إذا كان العالم الخارجي مجرد امتداد لشخصيتنا: تعلقنا بوطننا، وعشقناه، واقتنعنا به تماماً، كما رضينا بقدرنا عندما جئنا إلى هذا الوجود. فالمرء لايختار وطنه ولا أهله! وعندما يُسَيِّره القدر إليهما، يتعلق بهما، ويصبحان جزءاً من روحه وذاكرته - التي تضج بأحداث أصبحت كالأحلام الغابرة، أحداث تجلب معها الفرح عندما كان للفرح طعم!

الفصل الثاني

عطلة عيد الميلاد

في ذلك العام، قام عيد الميلاد الجميل بواجبه بأنبل أسلوب، وأسدل بعطاياه السخية على الجميع، الدفء والألوان والحميمية، المتباينة كثيراً مع مظهر الصقيع والثلج المنهمر، اللَّذين جعلا الرؤوس بيضاء اللون والوجوه متوردة. حط الثلج بنعومة على المزرعة الصغيرة وضفة النهر، واستلقى نائماً بهدوء على أسطح المنازل المنحدرة موحداً ألوانها باللون الأبيض الناصع، لكنه أرخى بثقله فوق أغصان أشجار التنوب والغار، حتى بدأ يتساقط عنهما مصدراً صوتاً مرتعشاً. واكتست حقول اللفت بحلة بيضاء، فبدت الأغنام مثل لطخات داكنة، كانت جميع البوابات مغلقة بمزالج محكمة، ووقف هنالك وحش، ترك آثار أقدامه الأربع على الثلج، وجمد في مكانه وقد أهمله البشر مثل "حزن متيقظ"[1]، مستعداً للانقضاض عندما تسنح الفرصة! ما من وميض، ولا ظل، كل شيء كان ساكناً، والغيمة شاحبة الوجه - ما من صوت ولا حركة، إلا النهر المظلم الذي كان يتدفق، وكأنه يعاني من أسى عميق. لكن عيد الميلاد ابتسم، وهو ينشر ذلك الثوب على أرجاء العالم الخارجي، قاصداً أن يسحب الناس داخل منازلهم الساطعة، ويعمق الحب والدفء في القلوب، بينما تنبعث رائحة الأطعمة الشهية: إنه ينوي أن يقوي صلات الرحم، ويجعل الوجوه الإنسانية تشرق مثل أشعة الشمس الغائبة. استلقى بلطف على أمكنة، وبقسوة على أمكنة أخرى، لم يكن عطوفاً على تلك المنازل التي لم يبعث الموقد فيها الدفء الكافي، والتي لم تنبعث كثيراً منها رائحة الأطعمة الشهية، ولم تشرق وجوه أصحابها بابتسامة سعيدة.

وإن كان عيد الميلاد لم يتعلم السر الذي يجعله يبارك البشر سواسية ودون تحيز، فذلك لأن أباه الزمن، لايزال يخفي ذلك السر في قلبه الذي يدق ببطء، إنه لزمن القادر الذي لايلين أبداً.

ومع أنه يوم عيد الميلاد، وعلى الرغم من فرحة توم بالعودة للمنزل، لكنه أحس بأن عيد الميلاد ليس سعيداً كما عهده من قبل. زَيَّنَ توم وماغي جميع

---

[1] حزن متيقظ: العبارة مأخوذة من كتاب "المهمة" للمؤلف كاوبير.

النوافذ ورفوف الموقد وإطارات الصور، بأغصان اللبلاب الوردية بعد منتصف الليل سمعت أصوات غناء من شرفات النوافذ. بالرغم من ازدراء توم الدائم لموظف الأبرشية والمغنين وبقية الفرقة الموسيقية في الكنيسة، إلا أن ماغي ارتعشت، وأحست بالرهبة، وهي تسمع النشيد الديني يصدح في أحلامها، وتتخيل صورة الرجال بزيهم الرسمي، مبتعدين عن الأنظار، وهم يستقرون فوق غيمة كالملائكة غناء منتصف الليل أعطى للصباح التالي، بهجة مختلفة عن بقية الأيام، حيث انبعثت رائحة الشواء وشراب الجعة من المطبخ، عندما حانت ساعة الإفطار، فالنشيد الديني المفضل، والأغصان الخضراء اللون، والمواعظ القصيرة، أعطت إحساساً قوياً بالذهاب إلى الكنيسة، أما العمة!؟ والعم موس، مع أولادهم السبعة بدوا مثل أشعة براقة في ردهة الاستقبال، وهم عائدون من الكنيسة، يطؤون الثلج بأقدامهم

كانت كعكة الإجاص المستديرة شهية كالعادة، ولاسيما هي محاطة بألهبة زرقاء اللون، وطبق الفواكه الرائع المنظر، ببرتقالاته الذهبية، والجوز البني، وجيلي التفاح الداكن وصينية الخوخ: مع كل هذه الأشياء اعتاد توم دائماً أن يستقبل عيد الميلاد.

بدا عيد الميلاد مبهجاً على خلاف السيد توليفر الذي كان مهتاجاً وغاضباً.

على الرغم من أن توم اعتنق حالة والده واستعداده للشجار، غير أنه أحس بماغي المسكينة المضطهدة عندما صرخ عليها والدها بصوت عال، طالباً منها التمهل في أكل الفواكه وبدلاً من أن يركز انتباهه على الجوز والنبيذ، انشغل بالتفكير بوجود أعداء سفلة في هذا العالم، وبأن أعمال الكبار لايمكن انجازها دون إحداث الشجار. أحس توم بالاضطراب بسبب غضب والده ومزاجه السيء، بالرغم من أنه لم يتصور بأن والده على خطأ في هذا المجال.

كان الشخص الذي جسد مبدأ الشر بالنسبة للسيد توليفر الذي صمم على مقاومته، هو السيد بيفارت، صاحب الأراضي التي يعلو مستواها عن النهر، والذي اتخذ عدة قياسات وطوق الأرض بقناة لجعل المياه تتدفق إليها، وهذا انتهاك لحق السيد توليفر الشرعي بالاستفادة من المياه

ديكس، وهو صاحب طاحونة على الجدول، كان مساعداً ضعيفاً للعجوز هاري بالمقارنة مع بيفارت ديكس الذي أحضرته لجنة التحكيم، لم تسعفه نصيحة واكيم كثيراً: وبعد أن كان ديكس عدواً للسيد توليفر، جعله سخطه الشديد للسيد بيفارت، صديقاً لديكس، العدو سابقاً.

لم يكن هنالك أحد من الجمهور أمام السيد توليفر، لكي يصب عليه جام

غضبه، سوى السيد موس، الذي لم يفقه شيئاً عن "طبيعة الطواحين "، ولم يستطع مواساة السيد توليفر إلا بموافقته على كل ما كان يقوله، ربما بسبب الالتزامات المالية التي كان على موس دفعها!، لكن السيد توليفر لم يتحدث بقصد إقناع الآخرين بآرائه، وإنما ليشعر بالراحة قليلاً بعد أن يفرغ ما في جعبته، بينما بذل السيد موس كل جهده ليبقي عينيه مفتوحتين أثناء الإصغاء إلى الحديث على الرغم من النعاس الشديد الذي كان يصيبه عادة بعد الغداء.

أما السيدة موس فقد اهتمت بكل شيء يؤثر في أخيها. قالت :

"لماذا، بيفارت اسم جديد في هذا الجوار، أليس كذلك يا أختي؟ لم يكن يملك أرضاً في عهد والدي، ولا في عهدي قبل أن أتزوج".

قال السيد توليفر بغضب: "اسم جديد؟ أجل - أعتقد أنه اسم جديد".

طاحونة دورلكت صار لها من أملاك عائلتنا منذ مئة عام، وأكثر، ولم يسمع أي شخص عن بيفارت هذا الذي يريد الاستيلاء على مياه النهر، حتى جاء، واشترى مزرعة بنكوم". أضاف السيد توليفر وهو يرفع كأسه، مصمماً بطريقة لاهوادة فيها :

"سألقن بيفارت درساً!".

قالت السيدة موس بقلق: "أتمنى يا أخي، ألا يجبرك على الذهاب معه إلى المحكمة".

"لاأعلم أنه بمقدور أحد إجباري على فعل شيء، ولكن ما أعرفه هو أنني من سأجبره على القيام بما أريده، بعد أن فتح القناة لسقاية أراضيه، واحتكر المياه لنفسه أعلم من الذي استشاره، لقد ذهب إلى واكيم، وحرَّضه ليقف إلى جانبه، ويدعمه برأيه أعلم أن واكيم أخبره بما يفعل، وبأن القانون لايدينه على تصرفه ذلك، ولكن يوجد العديد من الناس يفهمون القانون كما يفهمه واكيم".

السيد توليفر إنسان شريف، وهو فخور بهذا، لكنه اعتقد أنه في القانون لايمكن للعدالة أن تأخذ مجراها، إلا باستعمال القوة، والقوي فقط هو من يخيب آمال الضعيف القانون مثل صراع الديوك، الفوز للأقوى وليس للمظلوم!

استأنف السيد توليفر حديثه بأسلوب فظ، واستعد للعراك، وكأن أخته المسكينة كانت تمتدح بقدرات ذلك المحامي :

"لاتكوني حمقاء - لست في حاجة لقول هذا. فالأمر لايتعلق بالمحامين فقط، المياه ضرورية جداً، وليس بمقدورك التقاطها بالشوكة عندما تتعاملين مع الأمور باستقامة، تدركين ببساطة ما هو الصح وما هو الخطأ؟!. ولاسيما

عندما تتعلق المسألة بالمياه لأن النهر وجد لخدمة من حوله ومن يمتلك طاحونة بالقرب منه، لابد له من الماء لكي يديرها، ولا فائدة من الحديث عن بيفاريت وسقايته لأراضيه، فلن يستطيع أن يوقف عجلات الطاحونة مهما فعل حدثيني عما يقوله المهندسون! فما فعله بيفاريت أساء إلي كثيراً. ولكن إن كانت هذه هي طريقتهم في هندسة الأراضي، سأجعل من توم مهندساً يوماً ما، وعندئذ سيعرف كيف يتعامل مع هندستهم؟!".

انتبه توم للحديث عندما ذكر اسمه، وانشغل عن الطفلة الصغيرة التي كان يلاعبها بصوت مسموع، لكنها عبرت عن استيائها، وأطلقت صيحة حادة، فهي ما زالت طفلة، وتتعامل مع الأمور بوضوح ملحوظ، حتى أنها لم تتوقف عن الصراخ على أمل أن يلتفت إليها توم ثانية، ويدردش معها. هرعت السيدة موس إليها، وأخذتها إلى الغرفة الأخرى، وعبرت السيدة توليفر التي رافقتها، عن قناعتها بأن للطفلة الحبيبة مبررات قوية جعلتها تبكي بعد قليل هدأت الطفلة، فحدقت السيدة موس بالسيدة توليفر وقالت: "إنني حزينة لأجل أخي، لاأتمنى أن أراه غاضباً هكذا أو أن يعالج مسألة المياه بعصبية وطيش".

قالت السيدة توليفر: "هذه هي طريقة أخيك في التعامل، تعرفين طبعه يا سيدة موس قبل أن أتزوجه".

تحدثت دائماً عن زوجها، مستخدمة كلمة "أخيك "، مع السيدة موس عندما كانت تستاء من تصرفاته، وليس بيدها حيلة لفعل شيء.

السيدة توليفر الودودة التي لم تغضب طوال حياتها أبداً، بدت مستاءة قليلاً الآن وبما أنها كانت دائماً في موقع دفاع عن أخواتها، فمن الطبيعي أن تحس بتفوقها، حتى وإن كانت المرأة الأضعف في عائلة دودسن، على أخت زوجها المسكينة والفقيرة الحال، والتي بالإضافة إلى حاجتها لأخيها كانت امرأة حسنة المزاج ومتسامحة للغاية، امرأة ولودٌ غير مرتبة في مظهرها، عاطفية لأبعد حد ليس فقط مع زوجها وأولادها الكثر، بل مع أقاربها الحميمين.

قالت السيدة موس: "أتمنى، وأتضرع إلى الله ألا يذهب إلى المحامي لأنه ما من أحد يعلم كيف تنتهي القضايا في المحاكم وصاحب الحق ليس هو دائماً من يكسب القضية السيد بيفارت رجل غني، والأغنياء يحصلون دوماً على ما يريدون بطريقتهم الخاصة".

قالت السيدة توليفر وهي تمسد ثوبها: "كما أشرت، أدرك جيداً كيف يحقق الأغنياء مطالبهم، فأزواج أخواتي يفعلون ما بوسعهم لتحقيق رغباتهم، لأنهم مقتدرو الحال، ويملكون المال الكافي الذي يساعدهم في ذلك". فكرت في أن

أناقش أخوتي بموضوع السقاية والمحامي، لكنهم دوماً يوقعن باللوم علي، لايعرفن طبع أخيك وقسوته الأخت بوليت تلومني دائماً من الصباح حتى المساء".

قالت السيدة موس: "حسنٌ، لاأعتقد أنني سأفعل مثل زوجي عندما لايتصرف بذكاء، سأجد طريقة أساعده فيها. من الأسهل للمرأة أن تفعل ما يرضي زوجها، أفضل من أن تحتار وتفكر فيما سيفعله الآخرون".

قالت السيدة توليفر، مستخدمة أسلوب أختها غليك في التلميح: "عندما يتحدث الناس عما يجب أن تفعله النساء لإرضاء أزواجهن فإنني واثقة من أن أخاك لو انتظر طوال عمره لما حظي بامرأة تطيعه مثلي منذ استيقاظنا عند الصباح وخلودنا للنوم في المساء لاأعارضه بشيء، أقول له فقط - "حسن، سيد توليفر، افْعَلْ ما تشاء، افعل أي شيء إلا الذهاب إلى المحكمة".

كما نرى للسيدة توليفر تأثير على زوجها، وهل من امرأة لاتستطيع التأثير على زوجها ولو قليلاً؟ كل امرأة تؤثر على زوجها إما بأن تفعل ما ترغب أو بالعكس!

توسلات السيدة توليفر الرتيبة بلا شك مصدر قوتها، ويمكن تمثيلها تماماً بالمثل القائل: "القشة التي قصمت ظهر البعير". لكن توسلات السيدة توليفر الضعيفة التي شكلت هذه القشة، وأصبح لها وزنها ليس بفضل شخصيتها فحسب، ولكن لسبب آخر، فعندما تقرر أن لاتوافق زوجها في رأيه، سوف يرى فيها ممثلة عن عائلة دودسن بأكملها، وحسب اعتقاد السيد توليفر، لن يدع هذه العائلة تتغلب عليه أو تسيطر على مواقفه -

و بالتحديد أكثر - لن يقبل ذلك الرجل توليفر أن يتساوى مع نساء دودسن الأربع حتى وإن كانت السيدة غليك واحدة منهن.

لكن تلك المرأة التي تمثل عائلة دودسن عارضت بشدة ذهابه إلى المحامي، مما زاد عزمه أكثر - من المؤكد أن واكيم هو من تسبب في إضاعة حق السيد توليفر في الطريق والجسر الذي شكَّل طريقاً عاماً إلى أراضيه يسلكه كل متشرد: جميع المحامين أنذال، وإن اختلفت النسبة، لكن نذالة السيد واكيم كانت من نوع آخر. حيث اضطر ذلك الطحان المظلوم، والذي استدان خمسمائة جنيه، أن يعمل ليلاً في مكتب واكيم على حسابه الخاص. ومما أثار غيظ السيد توليفر أكثر أن المحامي غور لم يكن مثل واكيم، إنه رجل أصلع، مستدير الوجه، ثقيل اليدين، ومن الصعب المراهنة أنه سيكسب القضية ضد واكيم

انتابت السيد توليفر شكوك ومخاوف من أن واكيم لديه عدة طرق للاحتيال

على القانون، فوجد الفرصة مناسبة ليكسب المستشار وايلد إلى جانبه

عندما امتطى السيد توليفر حصانه الرمادي، راودته الكثير من الأفكار حول هذه المواضيع المثيرة للحيرة - كان يدير برأسه من جانب إلى آخر كلما فشلت الحسابات، وساءت النتائج، ولكن حتى الآن لم تطرأ أية تغييرات ومع بداية شباط، عندما حان موعد التحاق توم ثانية بالمدرسة، كان والده لايزال مصمماً على الانتقام من ذلك الذي انتهك مبدأ أن المياه هي المياه وإن لم يطرأ أي دليل جديد، بدا من الواضح أن بيفارت كان "غامضاً كالوحل "مع واكيم

في إحدى الأمسيات الأخيرة من العطلة، قال توم: "بابا، يقول العم غليك بأن المحامي واكيم سيرسل ابنه للدراسة عند السيد ستيلنغ هذا ليس صحيحاً - لأنهم كانوا يتحدثون عن سفره إلى باريس أنت لاترغب بأن أرافق ابن واكيم إلى المدرسة، أليس كذلك؟".

قال السيد توليفر: "هذه ليست مسألة مهمة يا بني لاتتعلم منه أي شيء، هذا هو كل ما في الأمر الولد مسكين ومشوه، ويشبه والدته في الوجه: أعتقد أنه لم يأخذ شيئاً من أبيه عندا يرسل واكيم ابنه إلى السيد ستيلنغ، فهذا يشير إلى أنه يثق بقدراته كمُدرِّس جيد لابنه، ويستطيع واكيم أن يميز الحبوب المجروشة من النخالة".

كان السيد توليفر فخوراً في قرارة نفسه، بأن يتلقى ابنه توم الميزات نفسها التي لدى واكيم: إلا أن توم لم يكن متساهلاً أبداً في هذا الموضوع، بدا واضحاً جداً أنه لو لم يكن ابن واكيم مشوهاً، لهاجمه توم بشراسة المدافع عن الأخلاقيات العالية

الفصل الثالث

رفيق الدراسة الجديد

كان يوم بارد من أيام كانون الثاني عندما عاد توم ثانية إلى مدرسته، يوم كئيب فرضه عليه قدره الصارم ولولا رزمة الشوكولاتة في جيبه والدمية الهولندية الصغيرة التي أحضرها إلى لورا الصغيرة، لما كان هنالك بريق أمل يضيء ذلك السواد المخيم بشكل عام أحب توم أن يتخيل لورا وهي تأكل الشوكولاتة وتحمل الرزمة بيديها الصغيرتين، هذه التخيلات أدخلت الفرحة إلى قلبه الكئيب، وهو تحت مظلة العربة حيث فاحت رائحة الرطوبة، وطوال الطريق وهو يرسم في مخيلته صوراً جميلة للورا.

قال السيد ستيلنغ بحرارة :

"حسنٌ توليفر، إننا سعداء برؤيتك ثانية، اِخْلَع معطفك، وادخل إلى غرفة الدراسة حتى يحين موعد الغداء. ستجد هناك الموقد حاراً، وصديقاً جديداً أيضاً".

اضطرب توم وأحس بالكآبة، وهو يخلع معطفه الصوفي لقد شاهد فيليب واكيم في أبرشية أوغ، لكنه كان دائماً يشيح ببصره عنه ليتفادى رؤيته قدر الإمكان لم يرغب بأن يكون له رفيقاً مشوهاً، حتى وإن لم يكن فيليب ابن رجل سيء. لم يستطع توم أن يتخيل أن ابن الرجل السيء يمكن أن يكون ولداً طيباً. والده رجل طيب، وهو مستعد للشجار مع أي شخص يقول عكس ذلك.

كان توم مرتبكاً وعلى استعداد تام للدفاع عن نفسه، وهو يلحق بالسيد ستيلنغ نحو غرفة الدراسة قال السيد وهو يدخل غرفة الدراسة: "هذا رفيقك الجديد يا توليفر، إنه السيد فيليب واكيم، سأدعكما تتعارفان على بعضكما بعضاً. أتصور أن هنالك معرفة قليلة بينكما، فأنتما من الجوار نفسه".

بدا توم مرتبكاً، أخرقَ، عندما نهض فيليب، وحدَّق به بمودة. لم يرغب توم بمصافحته، ولم يكن مستعداً لقول، "كيف حالك؟".

تعمد السيد ستيلنغ الخروج، وأغلق الباب خلفه: يتلاشى خجل الأولاد في غياب الكبار.

حالاً، شعر فيليب بالفخر والحب، وهو يتقدم نحو توم وأحسَّ بنفور توم منه: كان كل شخص يشمئز من النظر إليه، والآن بدت عاهته أكثر وضوحاً وهو يمشي لم يتصافحا ولم يتكلما أبداً، اتجه توم نحو الموقد ليدفئ نفسه، وكان

بين الفينة والأخرى ينظر خلسة إلى ذلك المشوه: الذي جلس ثانية، وهو يفكر بطريقة ليتكلم مع توم، محاولاً التغلب على كراهيته والمبادرة بالتعارف

بدأ توم يتأقلم مع الوضع رويداً رويداً، لأنه استطاع رؤية وجه فيليب بدون أن يلاحظ الحدبة، لم يكن وجهه بشعاً وبدا أكبر سناً مما توقَّع. تساءل توم كم يكبره فيليب

إن أي خبير في علم التشريح سيدرك بمجرد رؤية حدبة فيليب بأن التشوه في عموده الفقري ليس خلقياً، وإنما نتيجة خلل في الولادة، ولا يمكن للمرء أن يتوقع من توم أن يكون مطلعاً على أمور كهذه: كان فيليب بالنسبة لتوم مجرد أحدب تبادرت لذهنه فكرة غامضة، مفادها أن تشوه فيليب له علاقة بنذالة والده، الذي سمع عنه كثيراً من خلال أحاديث أبيه، وأحس بالخوف منه، ومن احتمال أن يكون شخصاً حقوداً لايستطيع التغلب عليه لأنه لايملك مثله أساليب الاحتيال والمكر. كان هناك خيَّاط أحدب في جوار مدرسة السيد يعقوب وهو شخص مكروه جداً، كان محط سخرية صبيان الحي لسوء أخلاقه. رأى توم القباحة كلها متجسدة في وجه ذلك الخياط الأحدب، ولمح في وجه هذا الصبي البؤس الحقيقي، شعره بني، متموج وملتف عند نهاية عنقه مثل شعر فتاة: فكَّر توم أن مظهره مثير حقاً للشفقة

بدا واضحاً أن ذلك الولد الشاحب الوجه والهزيل الجسم، غير قادر على ممارسة أي نوع من الألعاب: أمسك بقلمه الرصاص بطريقة مغرية، وبدأ يرسم دون أية مشاكل. ماذا كان يرسم؟ لقد سرى الدفء الآن في جسد توم، الذي بحث عن شيء جديد يسليه. من المؤكد أن يثار فضول المرء أكثر عندما يكون بصحبة رفيق مشوه، فيفضل البقاء معه على الوقوف أمام نافذة الغرفة، وتأمل هطول المطر، دقَّ توم الأرض بقدمه، لابد أن يحدث خطب ما - "شجار أو أي شيء آخر"، لاحظ توم أن فيليب شخص مسالم ولا ينوي حياكة الحيل اللئيمة للانتقام منه. تقدم فجأة نحو الموقد، ونظر إلى الورقة التي بيد فيليب

صرخ توم: "ما هذا، حمار يحمل سلتين - وكلب ذو أذنين كبيرتين متدليتين، وطيور الحجل تنقر حبوب القمح!". فتح توم فمه وتدلى لسانه دهشة وإعجاباً لما رأى. "أوه، يا إلهي! كم أتمنى رسم مثل هذه سوف أتعلم الرسم في هذا الفصل - أتساءل فيما إذا كنت سأتعلم رسم الكلاب والحمير!".

"أوه بمقدورك رسمها دون التدرب عليها، فأنا لم أتعلم الرسم".

قال توم مندهشاً: "لم تتعلم الرسم أبداً؟ لماذا، عندما أرسم الكلاب والأحصنة، وهذه المخلوقات، لاأستطيع رسم الرؤوس والسيقان بشكل متناسب،

مـع أنني أعـرف كيـف يجـب أن ترسـم بـشكل جيـد. لكـنني أسـتطيع رسـم المنـازل، وجميـع أنـواع المـداخن، والنوافـذ والـسطوح. إلا أنـني متأكـد عنـدما أحـاول ثانيـة سأرسم الكلاب والأحصنة بنجاح".

قـال فيليـب: "أوه أجـل، هـذا سـهل جـداً. مـا عليـك إلا النظـر إلى الأشـياء بـتمعن، ثـم رسمهـا أكثـر مِـن مـرة فـإن أخطـأت في المـرة الأولى، تـستطيع إصـلاح الخطأ في المرة القادمة".

قـال تـوم وهـو في حـيرة مـن أمـره معتقـداً بـأن ذلـك التقـوس في ظهـر فيليـب هـو مـصدر قدراتـه الخارقـة: "ولكـن حقـاً لم تـتعلم أي شـيء عـن رسمهـا؟ أعتقـد أنـك التحقت بالمدرسة منذ فترة طويلة".

قـال فيليـب مبتـسماً: "أجـل، تعلمـت اللاتينيـة، واليونانيـة وعلـوم الرياضـيات - والكتابة وأشياء كهذه".

قال توم بصوت منخفض: "أوه، لاأحب اللاتينية، هل تحبها؟".

"إنها لغة ممتعة، لاأجد فيها أية صعوبة".

"آه، ربمـا لم تـدرس دراسـة معمقـة عـن تـاريخ الأفارقـة "، قـال تـوم وهـو يـومئُ برأسه على كلا الجانبين

أحـس فيليـب برضـا ذاتـي مـؤلم، وهـو يـسمع هـذه الحماقـة تـصدر عـن ولـد بهـي الطلعـة، كامـل الخلـق. فيليـب تـصرف بغايـة التهـذيب والحـساسية، وبفـضل رغبتـه بـصداقة تـوم والتقـرب منـه، تمالـك نفـسه، ولم يـضحك، وقـال بهـدوء: "مـا تعلمتـه هو القواعد اللاتينية فقط، ولم أتعلم بعد هذه الدراسات".

قال توم بخيبة أمل: "إذاً لن تتلقى الدروس التي أتعلمها؟".

"لا، ولكـن أسـتطيع مـساعدتك مـن دواعـي سـروري تقـديم المـساعدة لـك قـدر ما أستطيع".

لم يـشكره تـوم، فهـو لايـزال متمـسكاً بفكرتـه، أن ابـن واكـيم شـخص حقـود جداً، ولم يستطع أن يتخيله غير كذلك.

قال في الحال: "ماذا أقول، هل تحب والدك؟".

تلوَّن فيليب كثيراً ثم قال: أجل، ألا تحب أنت والدك؟".

"أومـأود فقـط معرفـة "، قـال تـوم، وهـو خجـل مـن نفـسه، بعـد أن لاحـظ استياء فيليـب منـه وجـد صـعوبة كـبيرة في تحـسين موقفـه تجـاه ابـن المحـامي واكـيم استهل القول محاولاً تغيير الموضوع: "هل تعلم الرسم الآن؟".

"لا، يرغب والدي أن أكرس جلّ وقتي لتعلم مواد أخرى".

قال توم: "ماذا! مثل اللاتينية وقواعد إكليد، وهذه الأشياء؟".

"أجل، قال فيليب، الذي ترك قلمه، وأسند رأسه على يده، بينما انحنى توم للأمام متكئاً على مرفقيه، وهو يتأمل صورة الكلب والحمار بإعجاب أكثر من السابق.

سأل توم بفضول شديد: "وأنت لاتمانع في هذا؟".

"لا: أود تعلم ما يتعلمه الآخرون بشكل يومي أستطيع ممارسة هواياتي ودراسة المواد التي أحبها في أوقات فراغي".

قال توم: "لاأفهم لماذا ندرس اللاتينية، إنها بلا فائدة".

قال فيليب: "إنها جزء من ثقافة السيد. كل السادة يتعلمون المواضيع ذاتها".

قال توم الذي غالباً ما تمنى أن يشبه السير جون كريك: "ماذا! هل تعتقد أن السير جون كريك، سيد صيادي الأرانب، تعلَّم اللاتينية؟".

"بالطبع، تعلمها عندما كان غلاماً. لكنني واثق من أنه نسيها".

قال توم، دون أن يقصد السخرية أو الإساءة، بل أحس برضا حقيقي: فاللاتينية ليست هي الموضوع الأساسي، وليس هنالك ما يمنعه من التشبه بالسير جون كريك :

"أوه، حسنٌ، إذاً باستطاعتي فعل هذا! فأنت مضطر أن تتذكرها فقط أثناء أيام الدراسة، حتى تحفظ عدة أسطر من الخطيب[1]. السيد ستيلنغ مدرس دقيق للغاية - هل تعلم هذا؟ سوف يجبرك على إعادة الكلمة عشر مرات إن أخطأت بلفظها".

قال فيليب، ولم يتمالك نفسه من الضحك: "أوه، لاأكترث لهذا، أستطيع تذكر الكلمات بسهولة وهناك بعض الدروس تعجبني كثيراً. إنني مولع جداً بالتاريخ الإغريقي وكل ما يخص الإغريق

كم أتمنى لو أصبح يونانياً، وأحارب الفرس، ثم أعود للمنزل لكتابة تراجيديا، أو أي شيء يعبر عن حكمتي، مثل سقراط ثم أموت كما يموت العظماء".

(تدرك عزيزي القارئ، أن فيليب يتمنى القضاء على البرابرة، من خلال الحكمة وتفوقه الذهني).

قال توم الذي أحس بمتعة في الخوض بحديث من هذا النوع: "لماذا، هل كان الإغريق مقاتلين عظماء؟ هل يوجد أشخاص أشداء مثل ديفيد، والشخص العملاق، وشمشون، في التاريخ اليوناني؟".

---

[1] الخطيب: من تأليف وليام إنفليد (1774) وهي مجموعة أدبية مختارة من النثر الانكليزي.

"أوه هنالك الكثير من القصص المتعة التي تروي قصصاً عن عظمة الإغريق - وعن الأبطال في الأزمان الغابرة، الذين قتلوا الوحوش المفترسة، كما فعل شمشون هنالك قصيدة جميلة في كتاب الأوديسا - تروي عن عملاق ضخم جداً - اسمه بوليفيم، له عين واحدة فقط في منتصف جبهته، ويوليسيز، وهو ولد صغير، ومعروف بدهائه وحكمته، أخذ غصناً من شجرة صنوبر، أحمر اللون متقداً، وغرسه في عينه الوحيدة وجعله يزأر مصدراً أصواتاً رهيبةً كالتي تصدر عن ألف ثور هائج".

وثب توم مبتعداً عن الطاولة، وضرب الأرض بإحدى قدميه، ثم ضربها بالأخرى وقال: "أوه، يا للروعة! هل تستطيع أن تروي لي الكثير من هذه القصص المتعة، لأنني لن أتعلم اليونانية، كما تعلم هل سأتعلمها؟". أضاف توم، بعد فترة صمت قصيرة، وقد أحس بخوف مفاجئ، من أن يجيبه فيليب بأنه لن يتعلمها :"هل يتعلم السادة اللغة اليونانية؟ هل تعتقد أن السيد ستيلنغ سيبدأ بدروس اليونانية، هل تعتقد؟".

قال فيليب: "لا، أعتقد أنه لن يبدأ باليونانية وبإمكانك قراءة هذه القصص دون معرفة اليونانية إنها مترجمة إلى الانكليزية".

"أوه، لاأحب القراءة، أفضل أن ترويها لي على الفور. تروي لي أختي ماغي دائماً قصصاً كثيرة لكنها قصص مملة قصص الفتيات غير ممتعة أبداً. "هل يمكنك أن تخبرني قصصاً كثير تتحدث عن القتال؟".

"أوه بالطبع أعرف الكثير من القصص بالإضافة إلى القصص اليونانية أستطيع أن أروي لك قصصاً عن ريتشارد ليون وصلاح الدين وعن وليام واليس، وروبرت بروس، وجيمس دوغلاس—أعرف الكثير".

سأل توم: "أنت أكبر مني سناً، أليس كذلك؟".

"لماذا، كم عمرك؟ أنا في الخامسة عشرة من عمري".

قال توم: "عمري أربعة عشر عاماً فقط، وتمكنت من جميع الأولاد في مدرسة يعقوب—حيث كنت أدرس قبل مجيئي إلى هنا. وهزمت الجميع في رياضة التسلق، ولعبة الهوكي[1]. أتمنى أن يسمح لنا السيد ستيلنغ بالذهاب إلى الصيد. أستطيع تعليمك كيفية اصطياد السمك هل تستطيع صيد السمك؟ كما تعلم، ما عليك سوى الوقوف بشكل هادئ".

---

[1] لعبة الهوكي: لعبة يلعبها فريقان، يتألف كل فريق من أحد عشر لاعباً، يستعملون العصي المعقوفة لضرب كرة صلبة صغيرة باتجاه الهدف

تمنى توم، بدوره، أن يتفوق على فيليب، من خلال استعراض قدراته

إذ ليس من المفروض أن يبدو ذلك الأحدب بطلاً حقيقياً مثل توم توليفر، لمجرد أنه يعرف قصصاً عن مغامرات الأبطال

امتعض فيليب لدى الإشارة إلى أنه غير مناسب لممارسة رياضة تتطلب النشاط والحيوية، فأجاب بأسلوب حاد :

"لاأحب صيد السمك أعتقد أن الناس يبدون مثل الحمقى وهم جالسون ساعات وساعات طوال ليراقبوا متى تغمز الصنارة - وفي النهاية لايصيدون شيئاً".

"آه، ولكنك لن تحكم على هؤلاء الناس بالحماقة عندما تشاهدهم يصطادون سمكة "كراكي"ضخمة للغاية "، قال توم، الذي لم يصطد تلك السمكة "الضخمة "في حياته كلها، لكن خياله أسعفه ليتكلم بهذا الأسلوب المبالغ به، لأجل خاطر الرياضة

بدا واضحاً أن ابن واكيم استاء من الحديث، وليبقى لقاؤهما الأول سعيداً، استدعيا الآن لتناول الغداء، فلم يشأ فيليب التعليق أكثر على موضوع صيد السمك قال توم في قرارة نفسه، بأن هذا ما كان يجب أن يتوقعه من أحدب

الفصل الرابع

الفكرة الفضة

إن تقلبات المشاعر في أول لقاء حصل بين توم وفيليب، استمرت في علاقتهما حتى بعد عدة أسابيع من صحبتهما كزملاء دراسة لم يستطع توم أبداً أن يتجاهل بأن فيليب، وهو ابن "رجل نذل "كان عدواً له، ولم يتغلب أبداً على إحساسه بالقرف والاشمئزاز من فيليب المشوه: كان توم صبياً يخلص الولاء بشدة لمشاعره الأولى التي تنتابه من أول لقاء مع الشخص: كما هي الحال مع جميع العقول التي تأسرها اللحظة الأولى، فتسيطر على الفكر والعاطفة معاً، كذلك احتفظ توم بمشاعره التي تولدت في نفسه منذ اللقاء الأول وعلى الرغم من ذلك، بدا من المستحيل أن يكره توم صحبة فيليب، ولاسيما إن كان في مزاج صاف، فقد تمكن توم من الاستفادة من دروس اللاتينية التي اعتبرها أحجية من الأحاجي كما استمتع بالقصص التي كان يرويها فيليب عن الأبطال المقاتلين أمثال هال ويند[1]، وأبطال آخرين كانوا مفضلين بالنسبة لتوم لأنهم مشهورون بضرباتهم القاصمة

لم يعجب توم بمآثر سالا دين[2] الذي مزق الوسائد بسفه المعقوف خلال لحظات قصيرة :

ومن يطمح إلى تمزيق الوسائد؟ كانت تلك قصة حمقاء لم ترقَ أبداً لتوم، ولم يستطع سماعها ثانية وعندما امتطى روبرت بروس[3] فرسه الأسود اللون، وشقَّ صفوف الحشد في بانوك برن ليحطم في الحال خوذة الفارس الفائق السرعة، ويهشِّمُ جمجمته، عندها أحس توم بالنشوة والتعاطف مع ذلك البطل، ولو كانت بيده جوزه لسحقها في الحال بقضيبه المعدني

استطاع فيليب عندما كان في أحسن حالاته أن يجعل توم يتغاضى عن رؤية حدبته، فيسرح بخياله مع صراعات الأبطال وإنجازاتهم وتتنقل نظراته هنا وهناك وكأنه يبحث عن الصور التي تخيلها -بينما شعر فيليب بعدم الاكتراث،

---

[1] هال ويند: بطل كتاب " خادمة بيرث الفاتنة " لمؤلفه السير والتر سكوت (1828).

[2] سالا دين: جسد شخصية البطل في كتاب سكوت " التعويذة " (1825).

[3] روبرت بروس: الملك الاسكتلندي الذي انتصر على الانكليز في بانوك برن عام 1314، يرويها كتاب وحكايات الجد للمؤلف والتر سكوت 1827.

تماماً كما يشعر طفل من الجنوب بهبوب نسمات ربيعية قادمة من الشمال.

وعندما كانا يخرجان من باب الغرفة، وتنتهي تلك القصص المثيرة، تخمد حماسة توم المسكين، وتنطفئ تلك الشعلة المتقدة في عينيه، وتتحول إلى حزن هادئ فلا عجب إذاً أن يحتفظ توم بشكوكه تجاه ذلك الأحدب!

مهارة فيليب الفائقة في الرسم كانت سبباً آخر في توطيد العلاقة بينهما، لأن توم المسكين أحس بخيبة أمل لأن أستاذه الجديد لم يعلمه طريقة رسم الكلاب والحمير، ولم يتعلم سوى كيفية رسم جداول مائية وجسور في قرى ريفية، وبعض الآثار، إلا أن أحاسيس توم الدفينة ورغبته برسم أشياء أخرى استثيرت بعد مشاهدة رسومات فيليب، حتى أن رسومات السيد غود ريتش لم تعد تشكل تحفة فنية بالنسبة لتوم أما السيد توليفر فكانت لديه نوايا غامضة بضرورة أن يتعلم توم رسم الخرائط ومخططات الأرض، فاشتكى معاناته هذه للسيد رايلي، عندما التقاه في مدبورت، وشرح له بأن توم لايتعلم أي شيء من هذا القبيل في الرسم، حتى اقترح عليه ذلك المستشار الحصيف، بضرورة أن يتلقى توم دروساً في الرسم لاينبغي على السيد توليفر أن يفكر بدفع مصاريف إضافية لأجل دروس الرسم، وعليه الاقتناع بأن يصبح توم ماهراً في رسم الخرائط والمخططات، وبعد ذلك سينمي مهاراته في الاتجاه الذي يرغب وهكذا تقرر أن يتلقى توم دروساً في الرسم، وقد اختار له السيد ستيلنغ مدرساً اعتبر رساماً مبدعاً ضمن دائرة مساحتها اثني عشر ميل مربع حول حي الملك لورتن!

(عندما قام السيد ستيلنغ بزيارة السيد غود ريتش، شاهد بعض انجازاته الملفتة للنظر:

حدق بها بعينيه الواسعتين الرماديتين، مع إحساس عالٍ بأنها الرسومات الدقيقة للأشكال التي مثلتها، كما أعجبت بها كثيراً السيدة ستيلنغ التي رافقته كانت تلك السيدة ترسم أزهاراً صغيرة، وتكتب في أسفلها بعض العبارات الملونة، وتقديراً لإنجازها المبدع هذا، بالإضافة إلى كونها أنثى، من الضروري تقييم هذه التفاهات بشكل أفضل مما يقيمها سيد أو مدرس مختص!

وبما أنها اعتبرت رسومات السيد غود ريتش فائقة الجمال، لم يكن هنالك داعٍ للتردد في المسألة، فجزم السيد ستيلنغ أمره على الفور، وأصبح توم تلميذاً للسيد غود ريتش)

حدث كل هذا في تلك العصور المظلمة، عندما لم يكن هنالك وجود لمدارس اختصاصية - حيث كان المدرسون محطاً ثقةٍ عمياء، واعتبر جميع الكهنة رجال من ذوي الفكر الواسع والثقافة المتنوعة.

في تلك الأزمنة التعيسة، لاأبالغ إن قلت بأنه يوجد الكثير من الكهنة بالإضافة إلى السيد ستيلنغ، من ذوي الفكر الضحل والرغبات الدنيوية التي لاحدود لها!

المشكلة لدى هؤلاء السادة هو أن عليهم إيجاد طريقة لإعادة التناسب بين رغباتهم ودخولهم، وبما أن الرغبات لايمكن وضع حدود لها، لابد إذاً من زيادة نسبة الدخل وهنالك طريقة وحيدة لتحقيق هذا، فالمبدأ الذي يقول بضرورة أداء عمل جيد مقابل سعر منخفض، هو مبدأ مرفوض تماماً بالنسبة للكهنة: فهل أخطؤوا عندما عدلوا المبدأ، فأنجزوا عملهم بشكل بائس للغاية مقابل سعر مرتفع؟ بالإضافة إلى هذا، كيف لنا أن نتوقع من السيد ستيلنغ أن يتعامل مع الثقافة كشيء بالغ الحساسية وصعب المنال؟ إنه تماماً مثل أي مخلوق وهبه الله القدرة على حفر تجويف داخل صخرة، فاعتقد أن لديه إمكانات خارقة في التنقيب عن الآثار!.

ولكن توم لم يكن الوحيد، الذي ألقى به والده في عهدة تعاليم الكهنة ليكتشف بعد كل هذه السنين أن ابنه لايزال جاهلاً، فهنالك الكثير ممن هم أقل حظاً من توم توليفر، وأكثر منهم أولئك الآباء التعساء الذين خذلوا أولادهم كانت الثقافة تقريباً مسألة حظ - وهي على الأغلب سوء حظ - في تلك العصور الغابرة. إنها تشبه لعبة البلياردو أو حجر النرد، فقد يصيب، وقد يخطئ. وغالباً ما يخطئ عندما يكون ذلك الحجر بيد شخص من أولئك الآباء التقليديين مثل السيد توليفر الذين كابدوا في حياتهم لكي يؤمنوا لأولادهم مستوى تعليمياً لم يحصلوا عليه.

إذاً، لم يكن توم سيء الحظ لهذه الدرجة، بالمقارنة مع الكثير من الفتية البريطانيين الذين حصلوا تعليماً ضحلاً للغاية. فقد تشكلت قناعة لدى لسيد ستيلنغ بأن نمو الولد العقلي يحتاج إلى نمو جسدي أيضاً. لكنه اعتقد أن تركيبة توم العقلية لاتمكنه من اقتباس المعرفة بشكل جيد. ولد ليست لديه القدرة الكافية لفهم الإشارات والرموز بالإضافة إلى شرود الذهن، لابد أن يعاني بسبب عجزه هذا، كما لو أنه ولد برجل أقصر من الأخرى.

اقتنع السيد ستيلنغ بأن ولداً كهذا غير قادر على إدراك الرموز، لابد أن يكون عاجزاً على استيعاب أي شيء آخر. هذه هي قناعة أجدادنا المبجلين في تلقين التعليم، وتطبيق ممارسات طويلة الأمد اعتادوا عليها، وأبوا إلا أن يحافظوا على التراث! اقتنعوا بضرورة استعمال اللولب الإبهامي، وشدّه أكثر

فأكثر لكي يستنبطوا حقائق غير موجودة، لديهم آراء ثابتة بأن تلك الحقائق موجودة بالفعل، وما عليهم إلا إحكام آلة التعذيب تلك والشد بأكبر قوة ممكنة! بهذه الطريقة، اقتنع السيد ستيلنغ بأن جميع الأولاد، وأياً كانت قدراتهم، يمكن تعليمهم فقط المنهاج النظامي المعهود: إن كانوا بليدي الذهن، لابد من إحكام اللولب الإبهامي وشده أكثر - كلما زادت القسوة كلما أصبح التركيز أفضل والنتيجة فعالة، وحفظ صفحة من كتاب فيرجل[1] يمكن أن تكون بمثابة عقوبة ،لتشجيع وتحريض الميول الخامدة تجاه الشعر اللاتيني. على كل حال تراخت قليلاً آلة التعذيب خلال الفصل الثاني من هذا العام فقد حقق توم تقدماً ملحوظاً في دراسته، بحيث تسنى للسيد ستيلنغ وقتاً أكثر للراحة والالتفات لنفسه ولسبب أو لآخر أجل تنفيذ عدة مشاريع روحيه - فهو لم يبدأ بطباعة مسرحيته باليونانية، ولم يقم بأية نشاطات تعليمية أخرى خلال ساعات فراغه، وبعد أن يفتح مكتبه الخاص يجلس لقراءة إحدى روايات تيودور هوك[2]. أما توم فقد أخذ نفساً عميقاً، وكان يدرس بمساعدة فيليب، فأحس بأنه يمكنه تحمل منهاج الدراسة في ظل هذا التغيير.

على الرغم من ذلك، طرأ تحسن ملحوظ في مستوى توم التدريبي، ربما لأنه لم يكن ولداً آلياً، إنه فتى من لحم ودم، له ميول وطبائع لاتنسجم مع ظروفه الحالية.

بدا هذا التحسن الرائع في قدرته على التحمل، بفضل السيد بولتر، مدرس القرية، الذي كان يدرب توم، بما أنه محارب قديم - وهذا من دواعي سرور توم

السيد بولتر الذي دبّ الذعر في قلوب الفرنسيين، لم يعد شخصاً مرهوب الجانب على الصعيد الشخصي، لم يكن متأنقاً في مظهره، وسرواله مشدود بإحكام حول خصره، في يومي الأربعاء والسبت عندما كان يأتي بعد الظهيرة لتدريب توم، بدا عليه دائماً، وكأنه سُكِرَ بشراب الجن وبذكريات قديمة، أعطته روحاً معنوية عالية.

معظم دروس التدريب كانت دائماً مآثر عن القتال والصراعات بين الأبطال حتى أحس توم أنها أكثر متعة بكثير من القصص التي يرويها فيليب استمتع

---

[1] فيرجل: شاعر روماني

[2] تيودور هوك: كاتب ميلودرامي (مسرحي)، كتب عدة روايات غنائية هزلية وقصص وروايات أدبية (1788- 1841).

كثيراً بقصة "الإلياذة "وشعر بالاشمئزاز عندما علم بأن شخصيات مثل هكطور وأخيل هي شخصيات خيالية لاوجود لها. السيد بولتر شخص كتوم، لايسردُ كلَّ ما يعرفه عن التاريخ العسكري، عندما يدَّعي أي شخص بمعرفة الأحداث التي كانت تجري في عهد باداجوس كان السيد بولتر يحس بالشفقة لأجله ولا يتكلم ببنت شفه، يأخذ نفساً عميقاً! أما توم فقد حركة فضوله للاستفسار عن مسائل أخرى، غير التي تتعلق بالأمور العسكرية التي خاض معها السيد بولتر تجارب كثيرة.

سأل توم، وقد ترسخت في ذهنه فكرة مفادها أن جميع الأبطال كانوا يخوضون المعارك وهم على ظهور جيادهم، حاملين سيوفهم القاطعة:

"والجنرال وولف، سيد بولتر؟ هل كان مقاتلاً رائعاً".

أجاب السيد بولتر بازدراء: "لاعلى الإطلاق! لم يكن أبداً من هذا الصنف!

تابع السيد بولتر: "لا، لا! من الأفضل أن لانتحدث عن الجنرال وولف لم يفعل أية مأثرة، لقد مات لأنه جرح، بالنسبة لي، هو مجرد رجل يائس أي رجل معرض لأن يموت عندما يجرح ضربة من سيفي سوف تقتل شخصاً مثل الجنرال وولف".

قال توم: "سيد بولتر، كم أتمنى أن تحضر سيفك، وتجرِّبه هنا!".

هزَّ السيد بولتر رأسه لفترة طويلة، وهو منتشٍ بإحساس العظمة، ثم ابتسم موافقاً. ولكن في تلك الظهيرة أخره هطول مطر كثيف، مدة عشرين دقيقة، المهم أحضر السيف - فقط لكي يستمتع توم برؤيته.

قال توم ممسكاً بمقبض السيف: "هل هذا هو السيف الحقيقي الذي حاربت فيه طوال تلك المعارك يا سيد بولتر؟ هل سبق لك وأن قصمت رأس رجل فرنسي؟".

"قصمت رأساً؟ آه! سوف أفعل، حتى ولو كان له ثلاثة رؤوس".

قال توم: "لديك أيضاً بندقية وحربة؟ وأنا أفضل البندقية والحربة، لأنه بإمكانك قتل الأعداء فوراً ثم طعنهم بالحربة بانغ!بس-س-س-س! "، أطلق توم هذه الأصوات ليشير إلى المتعة المزدوجة التي يحس بها المقاتل عندما يستخدم البندقية والحربة معاً.

"آه، ولكن السيف هو الأفضل عندما تكون على مقربة من عدوك "، قال السيد بولتر، مستجيباً لحماسة توم، وهو يستعرض سيفه فجأة، حتى أن توم قفز للوراء برشاقة وقال: "أوه، انتظر سيد بولتر، إن كنت تريد أن تؤدي تمريناً بالسيف، دعني أنادي فيليب سوف يبتهج كثيراً برؤية هذا المشهد".

أجاب السيد بولتر بازدراء: "ماذا! الولد الأحدب؟ وما فائدة مشاهدته للسيف؟ "

"أوه، هو ملم كثيراً بأمور القتال، ويعرف كيف يحارب الأبطال بالأقواس والسهام".

قال السيد بولتر، وهو يسعل، ويجهز نفسه للاستعراض: "إذاً دعه يأتِ سأريه شيئاً مختلفاً تماماً عن أقواسه وسهامه".

هرع توم إلى فيليب، الذي كان يستمتع بعطلة بعد الظهيرة، بالعزف على البيانو في ردهة الاستقبال، يختار النغمات بنفسه، ويتدرب عليها. بدا منتشياً بسعادة لاتوصف، رأسه للخلف، وعيناه تحدقان باتجاه الأعلى، فاتحاً فمه، وهو يغني مقاطع ارتجالية من ألحان آرني[1].

صرخ توم: "هيا يا فيليب، كف عن هذا الزئير "لا، لا"- تعال، وشاهد العجوز بولتر كيف يستعرض بسيفه فنون القتال!".

تكدر صفو فيليب عندما قطع عليه توم هذه الرومانسية الرائعة، على الرغم من أن توم يعلم تماماً بأن فيليب لايحبذ أبداً دروس القتال، وعندما تراجع للخلف قليلاً بعد أن أشهر السيد بولتر سيفه في وجهه، خشي أن يعتقد بأنه جبان، فسارع في تبرير تصرفه، واقترح فوراً إحضار فيليب لمشاهدة الاستعراض لم يكن توم يتصرف بهذا الأسلوب إلا عندما يتعرض لضغط نفسي شديد يهدد كبرياءَهُ الشخصي ارتعد فيليب بشكل ملحوظ، وتوقف عن العزف.

استدار نحو توم وهو محمر الوجه وقال بلهجة حادة :

"انصرف من هنا، يالك من أبله طائش! أنت لاتجيد الحديث إلا عن القتال!".

هذه ليست المرة الأولى التي يغضب فيها فيليب، وتوم لم يسعفه تهذيبه من قبل أبداً، لكي يحسن التعامل بشكل لائق مع فيليب.

أجاب توم على الفور :

"إنا أجيد الحديث عن كل شيء أكثر منك -أيها الولد النزق! تعلَّمْ جيداً لن أضربك، لأنك لاتختلف كثيراً عن أية فتاة أنا ابن رجل شريف، أما والدك فهو رجل نصَّاب - يعرف الجميع أنه نصاب!".

ركض توم فوراً خارج الغرفة، وأغلق الباب خلفه بقوة، معبراً عن غضبه

---

[1] آرني: توماس أوغسطين أرني (1710 - 1778) مؤلف روايات غنائية وأغانٍ

بشكل طائش، لأن إغلاق الباب بهذا الشكل كفيل بفرض عقوبة عليه لاتقل عن حفظ عشرين بيتاً من قصائد فيرجل في الواقع، نزلت السيدة في الحال من غرفتها، إثر سماعها هذا الصخب، متسائلة أيضاً عن سبب توقف فيليب عن العزف.

وجدته جالساً مكوماً، وهو يبكي بمرارة.

"ما الأمر يا واكيم؟ ما هذه الضجة؟ من أغلق الباب هكذا؟ "نظر إليها فيليب، وجفف دموعه بسرعة:

"إنه توليفرجاء ليطلب مني مرافقته "قالت السيدة ستيلنغ: "وما المشكلة في هذا؟".

لم يكن فيليب المفضل لديها، فهو أقل خدمة من توم، الذي كان يساعدها كثيراً في عدة أمور. لكن والد فيليب يدفع أكثر من السيد توليفر، لذلك حاولت السيدة أن تتصرف معه بمنتهى اللباقة والتهذيب هي ليست امرأة ودودة، ولا عطوفة: كانت امرأة حسنة المظهر في لباسها وتسريحة شعرها. وهذه المظاهر بلا شك، أعطتها قوة اجتماعية عظيمة، لكنها لم تعطها قدرة على الحب والتعاطف مع الآخر - وقوة الحب هي الوحيدة القادرة على إخراج فيليب من قوقعته الصلبة، والإفصاح عما يجول في خاطره.

أجاب فيليب: "لقد عاودني ألم الأسنان ثانية، إنه ألم فظيع".

في الواقع أحس فيليب بالارتياح، لأنه استطاع تبرير سبب بكائه المهم عنه أنه احتفظ بآلامه لنفسه، ولم يظهرها أمام الغرباء الذين لايهتمون لمشاعره.

بينما عاد توم، الذي وجّه للمرة الأولى سهماً مسموماً غرسه في قلب فيليب، إلى السيد بولتر، الذي كان يلوح بسيفه بشغف وإعجاب أعجب بنفسه أكثر مما أعجب به جيش بأكمله من المتفرجين لم يلق اهتماماً لعودة توم، كونه منشغلاً تماماً في دفع السيف هنا وهناك، وهذا عمل مُقَدَّس للغاية، بينما راقبه توم عن بعد ولم ينتبه إحساسٌ بالخوف أبداً، بل كان معجباً أيما إعجاب بأداء السيد بولتر الذي بدا للحظة، وكأنه يحاربُ شخصاً ما. توقف السيد بولتر بعد أن أنهكه التعب، ومسح العرق فوق جبهته، حتى أن توم انبهر باستعراضه، وتمنّى لو يكرره.

قال توم بعد أن أعيد السيف إلى غمده: "سيد بولتر، أتمنى لو تعيرني سيفك قليلاً "أجاب السيد بولتر وهو يهز برأسه بحزم: "لا، لاأيها السيد الشاب من الممكن أن تجرح نفسك به".

"لا، واثق بأنني لن أجرح نفسي به - سوف أنتبه جيداً، ولن أؤذي نفسي، سأعيده إلى غمده في الحال".

قال السيد بولتر وهو يستعد للرحيل: "لا، لا، غير ممكن، قلت لك هذا مستحيل ماذا سيقول عني السيد ستيلنغ؟".

قال توم محاولاً تسوية المسألة: "أوه، دعني أجربه سيد بولتر، سأعطيك خمسة شلنات، إنها في جيبي، مقابل أن أحتفظ بالسيف مدة أسبوع". ذلك الكلب الشاب قدَّر الأمور وكأنه فيلسوف

قال السيد بولتر وهو لايزال في حيرة من أمره: ""حسنٌ، ولكن كما تعلم، عليك إخفاءه عن الأنظار".

أجاب توم بلهفة: "أوه، بالتأكيد، سأخبئه تحت السرير، أو في أسفل صندوقي الكبير".

"والآن أرني كيف تخرجه من غمده دون أن تجرح نفسك".

بعد أن كرر توم العملية أكثر من مرة، قال السيد بولتر :

"حسنٌ، والآن سيد توليفر، إن أخذت النقود، فذلك لكي أضمن بأنك لن تفرط بالسيف، وتحتفظ به كما هو".

"أوه، حقاً سيد بولتر "، قال توم وهو يعطيه النقود عن طيب خاطر، ويقبض بإحكام على السيف

قال السيد بولتر، وهو يدس النقود في جيبه: ""ولكن ماذا لو اكتشف السيد ستيلنغ وجوده معك".

أجاب توم الذي كان يكره أسلوب التسلل، لم يعارض أبداً أن يقوم المرء بخدعة بسيطة لكي يحقق هدفاً قيماً :

"أوه، إنه يبقى دائماً في مكتبه في الأعلى بعد الظهيرة كل يوم سبت".

حمل السيف بإحساس بالعظمة والخوف - الخوف من أن يشاهده السيد أو السيدة ستيلنغ، خبأه في الخزانة خلف بعض الملابس المعلقة في تلك الليلة فكر قبل أن يغفو بأن يفاجئ ماغي بالسيف عندما تأتي - ويربطه حول خصره ليوهمها بأن السيف ملك له، وبأنه ينوي أن يصبح محارباً. وما من شخص أحمق إلا ماغي سوف تصدقه، وهي الوحيدة، التي يجرؤ على كشف سره أمامها، بالفعل كانت ماغي ستأتي لزيارته في الأسبوع القادم، قبل التحاقها مع لوسي بمدرسة داخلية

إن كنت لاتعتقد بأن التصرفات الصادرة عن غلام في ربيعه الثالث عشر هي تصرفات صبيانية، فلا بد أنك إنسان حكيم بشكل استثنائي

من المريب أن نحتفظ بجنودنا إن كان هنالك أناس مسالمون تتهددهم الأخطار. إن الحرب، مثل المشاهد الدرامية الأخرى، من الممكن أن تتوقف بناء على رغبة "الشعب".

الفصل الخامس

زيارة ماغي الثانية

هذا الشرخ في العلاقة بين الصبيين لم يرمم في الحال، بقيا لفترة من الزمن يتحدثان مع بعضهما بعضاً عند الضرورة القصوى فقط هذا التناقض في أمزجتهما ولّد كراهية بينهما، وبدا التحول في المشاعر يظهر في نفس فيليب: لم يكن بطبعه ميالاً للأذى وربما نجرؤ على تأكيد المقولة الكلاسيكية الرائعة التي مفادها، أن الثور لايستخدم أنيابه كأداة للهجوم، أما توم فقد كان بليد الأحاسيس على درجة ممتازة، وأساء لمشاعر فيليب وأهانه في العمق، كما لو أنه درس أدق الوسائل في جرح مشاعر الآخرين لم يرَ توم أي مبرر لإطالة فترة الشجار، ولم يكن لديه مانع في فض النزاع كما يفعل عادةً مع الآخرين، وكان يتصرف وكأن شيئاً لم يحصل أبداً، على الرغم من أنه لم يسبق له أن وصف والد فيليب بالمحتال، هذه الفكرة أحدثت شرخاً كبيراً في علاقته مع فيليب، الذي لم يكرهه، ولم يحبه لكنه أحس بأنه كان على صواب عندما قال كلمته، بعد أن تمادى فيليب، ونعته بتلك الصفات لذلك قرر أن لايطلب مساعدته ثانية في الرسم ولا في تمارين أخرى حاول كلاهما أن يتعامل بلطف مع الآخر قدر الإمكان بحيث لايلفتان انتباه السيد ستيلنغ إليهما، الذي لو علم بقضيتهما، لقمع هذا التمرد فوراً.

على أية حال لم تستطع ماغي أن تمنع نفسها من النظر إلى رفيق الدراسة الجديد باهتمام كبير، عندما جاءت لزيارة توم، على الرغم من كونه ابن ذلك المحامي الشرير واكيم، الذي أغضب والدها كثيراً. وصلت في وقت إعطاء الدروس، انتظرت بينما كان فيليب يتلقى دروسه من السيد ستيلنغ منذ بضعة أسابيع مضت، أرسل إليها توم رسالة يخبرها فيها أن فيليب يسرد قصصاً كثيرة لانهاية لها - قصص أكثر متعة من قصصها الحمقاء، لذلك اقتنعت بأنه لابد أن يكون ولداً ذكياً: تمنت أن يلاحظ ذكاءها أيضاً عندما تحدثه فوق كل هذا، عطفت ماغي كثيراً على الأشخاص المعوقين، وأحست بسعادة كبيرة وهي تدللهم، وبسعادة أكبر عندما يبتهجون كثيراً باهتمامها وتدليلها لهم لقد أحبت توم حباً جماً، لكنها كم تمنت أن يكترث لها ويحسّ بمحبتها له.

قالت ماغي عندما خرجا من غرفة الدرس ليتمشيا في الحديقة ريثما يحين وقت الغداء :

"أعتقد أن فيليب واكيم ولد طيب كما تعلم إنه لايستطيع أن يختار من يجب أن يكون والده قرأت عن كثير من الآباء السيئين جداً، أولادهم طيبون، وعن آباء طيبين رُزقوا بأولاد سيئي الخلق وإذا كان فيليب ولداً طيباً ما علينا إلا أن نأسف لأجله لأن والده ليس طيباً مثله، أليس كذلك؟".

قال توم بشكل مقتضب: "أوه، إنه شخص غريب الأطوار، لقد استاء مني كثيراً، وأصبح عابس الوجه، عندما أخبرته بأن والده رجل محتال لكنني محق فيما قلت - فهذه هي الحقيقة - بالإضافة إلى أنه هو من بدأ، ونعتني بالسوء. توقفي هنا يا ماغي، لو سمحت؟ سوف أصعد للأعلى، لدي شيء أريد تفقده".

"هل أستطيع مرافقتك؟ "، قالت ماغي التي كانت مشتاقة لتوم في اليوم الأول لزيارتها.

قال توم وهو يصعد للأعلى: "لاإنه شيء خاص، سأطلعك عليه فيما بعد، ليس الآن".

بعد الظهيرة جلس الولدان في غرفة الدراسة، يحضران دروس الصباح، استعداداً لفترة راحة في المساء على شرف وصول ماغي كان توم يتدرب على القواعد اللاتينية، ويحرك شفتيه بصوت غير مسموع، وكان فيليب من الناحية الأخرى من الغرفة، مشغولاً بدراسة مجلدين، وهو يتفحصهما بعناية فائقة، أثارت فضول ماغي، لم ينظر إليهما فيليب أبداً، وكأنه كان يتعلم درساً خصوصياً.

جلست ماغي في الزاوية اليمنى للغرفة، في مكان يتوسط تقريباً بين الولدين، وهي تراقب الأول تارة، والآخر تارة أخرى، وعندما كان فيليب يشيح بنظره قليلاً عن كتابه، باتجاه الموقد، كان يلمح عينين سوداوين حائرتين تحدقان به بإمعان بدت له أخت توم فتاة جميلة، تختلف تماماً عن أخيها، تمنى لو أن له أختاً صغيرة تشبهها. تساءل في قرار نفسه، عن السبب الذي جعله يتذكر تلك القصص التي تحكي عن الأميرات وتحولهن إلى حيوانات، عندما نظر إلى عيني ماغي السوداوين—أعتقد أن السبب هو بريق الذكاء الوقاد الذي ملأ عينيها، وتلك العاطفة المتقدة التي تبحث عن شخص يستحقها.

قال توم أخيراً، وهو يغلق كتبه ويضعها جانباً مثل سيد أتم إنجاز مهمته: "ماغي، لقد أنهيت دروسي الآن تعالي معي إلى الطابق العلوي".

تذكرت ماغي صعود توم للأعلى في المرة السابقة، فراودتها شكوك حول الأمر. فسألته عندما خرجا من الغرفة:

"ماذا هناك؟ هل هي خدعة، تريد أن تلعبها معي الآن؟".

قال توم بلهجة لطيفة للغاية: "لا، لا، إنه شيء سوف تحبينه كثيراً".

طوق عنقها بذراعيه، وطوقت خصره بذراعيها وصعدا للأعلى.

قال توم: "ماغي، لاتخبري أحداً بما سأريك إياه".

سألت ماغي، التي أسعفها خيالها منذ اللحظة الأولى لصعود توم، بأنه خبّأ حيواناً صغيراً ماهراً في صيد الأرانب:

"هل هو حي؟".

قال توم "أوه، لن أخبرك. اذهبي الآن إلى تلك الزاوية، واغمضي عينيك، بينما أحضر المفاجأة - لاتختلسي النظر".

قالت ماغي: "إن أخفتني".

"لن تخافي، يا لك من فتاة حمقاء! اذهبي واغمضي عينيك ولاتفكري أبداً في اختلاس النظر".

"بالطبع لن أختلس النظر"، قالت ماغي بازدراء، ودست وجهها في الوسادة، مثل شخص لايخون مبدأه أبداً.

استدار توم، ومشى نحو الخزانة وكأنه يستعد للقتال، ثم اتجه نحو الممر الضيق، وأغلق الباب، حافظت ماغي على مبدئها ولم تفتح عينيها، كان فكرها مشغولاً بذلك المسكين المشوه، الذي كان فائق الذكاء، ناداها توم فجأة: "والآن يا ماغي!".

كان توم قد جهز بعض الترتيبات لكي يبدو بهيئة ملفتة للنظر. غير من ملامح ذلك لوجه المسالم الهادئ، وتجهم قدر ما استطاع - (لقد أخبره فيليب مرة بأن رجلاً عقد حاجبيه بشكل نعل حصان، لذلك حاول جهده أن يشكل عقدة في جبينه تشبه نعل الحصان) - لوّن حاجبيه باللون الأسود الغامق، بحيث التصقا ببعضهما بعضاً، وشكّلا عقدة فوق أنفه. عقد شريطاً أحمر اللون حول خصره، بدا كالوشاح، وثبت سيفه بذلك الوشاح الأحمر اللون - اختار اللون الأحمر ليعطي انطباعاً فورياً عن شراسته، وحبه لسفك الدماء.

ارتبكت ماغي للحظة، واستمتع توم بارتباكها، لكنها ضحكت فيما بعد، وشبكت يديها ببعضهما بعضاً وقالت: "أوه توم، تبدو مثل بلو بيرد وهو في السيرك".

بدا واضحاً أنها لم تنتبه بعد لوجود السيف على خصره - كان لايزال في غمده لابد إذاً من حركة قوية لإثارة مخاوفها، استعد توم لضربته. تجهم وجهه، وامتشق السيف من غمده بهدوء ووجهه نحو ماغي

صرخت ماغي، محاولة كبت مخاوفها، وهي تبتعد عنه نحو الزاوية المقابلة: "أوه توم، أرجوك لاتفعل. سوف أصرخ بأعلى صوتي - تأكد بأنني سأصرخ! أوه لاتفعل! أتمنى لو لم أصعد إلى هنا أبداً".

كان توم ميالاً للابتسام، ضبط نفسه، وحافظ على عبوسه، فالوجه البشوش لايتناسب مع بأس المقاتل الشجاع، مشى بهدوء، تاركاً غمد السيف على الأرض، حتى لايثير صخباً أكثر، ثم قال بتجهم :

"أنا الدوق ولنغتن! "، وتقدم نحوها وهو يحني قليلاً ساقه اليمنى، ولا يزال موجهاً سيفه نحو ماغي، التي كانت ترتعش، وقد امتلأت عيناها دموعاً، نهضت على السرير، لكي تترك مسافة بينهما.

بدا توم سعيداً بإنجازاته العسكرية الرائعة، على الرغم من أن ماغي هي المتفرج الوحيد.

صرخت ماغي، لدى أول حركة للسيف: "توم، لن أتحمل هذا - سأصرخ، كُفَّ عن هذا وإلا جرحت نفسك، سوف تقطع رأسك!".

قال توم بحزم: "واحد، اثنان "، بالرغم من أن معصمه ارتجف قليلاً عندما عدّ اثنان ونط "ثلاثة "ببطء أكثر، تأرجح السيف إلى الأسفل، وأطلقت ماغي صرخة عالية سقط السيف على الأرض ولا مس طرفه قدم توم وبعد لحظة سقط توم أيضاً. قفزت ماغي من السرير وهي لاتزال تصرخ، وسمع في الحال صوت وقع أقدام تتجه نحو الغرفة

خرج السيد ستيلنغ من مكتبه في الطابق العلوي، وكان أول من دخل الغرفة وجد الولدين مطروحين أرضاً، استلقى توم، وكانت ماغي تهزه من ياقة سترته، وهي تصرخ بعينين مذعورتين اعتقدت بأنه ميت، يا للطفلة المسكينة! ومع ذلك هزته، وكأنها تريد أن تعيده للحياة عنوة خلال بضع لحظات تحوَّل بكاؤها إلى فرحة عارمة بعد أن فتح توم عينيه: حتى أنها لم تشعر بالأسف لأنه جرح قدمه - بدت سعادتها لاحدود لها لأنه بقي على قيد الحياة

الفصل السادس

مشهد عاطفي

تحمل المسكين توم ألمه الفظيع ببطولة، وصمم على ألا "يفشي "سر السيد بولتر لأحد: حتى أنه لم يخبر ماغي عن الخمسة شلنات التي أعطاها للسيد بولتر. لكن أمراً مخيفاً أثقل كاهله وهو يفكر فيه - كان مذعوراً لمجرد طرح السؤال على الدكتور أو السيد ستيلنغ، سؤال ألح عليه مراراً وتكراراً: "هل سأصبح أعرج يا سيدي؟".

تمالك نفسه ولم يبك أمام أحد، ولكن بعد أن ضمدت رجله، وترك وحده مع ماغي التي جلست قربه، بدأ المسكينان ينشجان بالبكاء وهما مسندان رأسيهما على الوسادة ذاتها. تَخَيَّلَ توم نفسه وهو يعرج في مشيته مثل ابن مصلح العجلات، أما ماغي التي لم تخمن ما كان يجول في خاطره، ذرفت دموعها بسخاء، تعاطفاً مع أخيها.

لم يتوقع الطبيب ولا السيد ستيلنغ أن هذه المخاوف يمكن أن تشغل بال توم لذلك لم يطمئنه أي واحد منهما بكلمات تبعث الأمل في قلبه الصغير. لكن فيليب راقب الطبيب، وهو يخرج من المنزل، فقطع الطريق على السيد ستيلنغ، ليسأله السؤال ذاته الذي ألح كثيراً على توم، والذي لم يجرؤ على طرحه

"أستميحك عذراً سيدي - ولكن هل قال السيد أسكرن بأن توليفر سيصبح أعرج؟".

أجاب السيد ستيلنغ: "أوه لا، أوه لا، ليس دائماً سوف يعرج فقط لفترة قصيرة".

"هل تعتقد بأن الطبيب طمأن توليفر؟".

"لا: لم يقل له أي شيء بخصوص هذا الموضوع".

"إذاً هل أخبره بنفسي يا سيدي؟".

"أجل، ربما كان قلقاً بشأن قدمه. اذهب إلى غرفة نومه، ولكن ادخل بهدوء".

عندما سمع فيليب بالحادث، كان أول سؤال خطر بباله - هل سيصبح توليفر أعرج؟ إن حدث له مكروه سوف يشعر بأسف شديد لأجله "- أما الإهانات التي سببها له توم، فقد جعلته شفقته عليه ينسى كل ما حدث. أحس فيليب بأنه لامجال للحقد والكراهية، إنهما الآن في حالة معاناة وحرمان كان

يفكر الآن بتوم ومشاعره الكئيبة، وكيف يتسنى له مواساته بأقصى سرعة ذلك الغلام في عمر الأربعة عشر عاماً فقط، لم يشهد خلالها إلا حياة صعبة لاسبيل لإصلاحها.

قال بخجل إلى حد ما، وهو يتقدم بلطف نحو سرير توم: "هل تعلم، يقول السيد أسكيرن بأنك ستتعافى ثانية، وتصبح على ما يرام؟ لقد سألت لتوي السيد ستيلنغ، وأخبرني بأن الطبيب طمأنه على حالك، وسوف تعاود المشي كما كنت في السابق".

في تلك اللحظة، حدَّق توم بعينيه الزرقاوين، ملياً في وجه فيليب كما لم يفعل منذ حوالي أسبوعين أو أكثر، وأطلقَ تنهيدةً عميقة أما ماغي التي لم يخطر ببالها أبداً فكرة أن يصبح توم أعرج، تأثرت كثيراً لمجرد أن تتخيله أعرج، تشبثت به، وعاودت البكاء من جديد.

قال توم بلطف، وهو يحسُ بشجاعته الآن :

"لاتكوني حمقاء يا ماغي، سأتحسن في الحال".

"إلى اللقاء توليفر "، قال فيليب ملوحاً بيديه الصغيرتين الحساستين، اللتين أمسك بهما توم في الحال بأصابعه القوية

قال توم: "واكيم، اطلب من السيد ستيلنغ أن يسمح لك بالجلوس معي في بعض الأوقات، حتى أسترد عافيتي - لكي تروي لي قصصاً عن روبرت بروس".

بعد ذلك، أمضى فيليب جلّ أوقاته برفقة توم وماغي أحب توم الاستماع لقصص القتال كما كان في السابق، لكنه أصرّ بقوة على أن أولئك المحاربين الأشاوس يحمون أنفسهم من الإصابة بأي مكروه، عندما يرتدون درعاً قاسياً من رأسهم حتى أخمص قدميهم مما يجعلهم يحاربون بسهولة وهو بدوره ما كان ليجرح قدمه لو ارتدى حذاءً حديدياً. أصغى باهتمام زائد لقصة فيليب الجديدة عن الرجل الذي جرح قدمه، وظل يصرخ من الألم طوال الوقت، حتى سئِمَ منه رفاقه وحملوه إلى جزيرة مهجورة، وزودوه بسهام مسمومة لقتل الحيوانات وإعدادها كطعام لهم

قال توم: "تعلم أنني لم أصرخ أبداً، مع أن قدمي آلمتني كثيراً. من الجبن أن يصرخ المرء".

أما ماغي فقد حزنت لذلك المحارب الذي تخلى عنه أصحابه وتساءلت إن كان له أختٌ، ولماذا لم ترافقه إلى الجزيرة المهجورة لكي تعتني به

في اليوم التالي، كان فيليب وماغي وحدهما في غرفة الدراسة، بينما كان

الطبيب يبدل الجرح لتوم جلس فيليب أمام كتبه، وكانت ماغي تمشي الهوينى في أرجاء الغرفة، ولا تنوي فعل أي شيء محدد، لأنها في أية لحظة ستذهب إلى توم، وتلبي طلباته اتجهت نحو فيليب، واتكأت إلى الطاولة لتراقب ما يفعله، بما أنهما أصبحا الآن صديقين حميمين

قالت:

"ماذا تقرأ عن الإغريق؟ هل هذا شعر - يمكنني تخمين ذلك لأن الأسطر قصيرة جداً".

أجاب فيليب وهو يسند رأسه بيده، ويتأملها، وكأنه لم يستأ على الإطلاق بمقاطعتها له: "أقرأ عن الرجل الأعرَج الذي كنت أخبركم عنه البارحة".

بقيت ماغي متكأه للأمام على ذراعيها وهي تحرك قدميها، بينما نظرت بعينيها السوداوين في الفراغ، وكأنها نسيت تماماً فيليب وكتبه.

بعد دقيقة أو اثنتين، سألها فيليب، وهو لايزال يتكئ على مرفقه ويحدق بها: "ماغي، لو كان عندك أخ مثلي، هل ستحبينه كما تحبين توم؟".

كانت ماغي مستغرقة في أحلام يقظتها، لذلك أجفلت قليلاً عنها، وقالت :

"ماذا؟ "، كرر فيليب سؤاله.

أجابت ماغي في الحال: "أوه بالطبع، بل وأكثر، لا، لاليس أكثر، لأنني لاأتوقع أن أحبك أكثر من توم لكنّي أشعر بالآسف، بأسف شديد لأجلك".

توردّ فيليب: كان ينوي أن يلمح لها عن إعاقته، وهل كانت ستحبه بالرغم من أنه أحدب! لكنها بعد أن تكلمت بهذه البساطة والوضوح، انتفض من إحساسها بالشفقة عليه أحست ماغي كعادتها، بخطئها.

كانت تتصرف وكأنها لاتحس أبداً بإعاقة فيليب: تعلمت هذا كونها ترعرعت في عائلة ميالة للانتقاد الشديد، وبسبب رهافة حسّها تعاملت معه وكأنه شخص عادي، وليس أحدبَ

أضافت بسرعة: "لكنك إنسان متقد الذكاء يا فيليب، باستطاعتك رواية القصص والغناء والعزف أتمنى لو كنت أخاً لي إنني متعلقة بك جداً. سوف تبقى معي في المنزل عندما يخرج توم، وتعلمني كل شيء - أليس كذلك؟ هل ستعلمني اليونانية وكل شيء؟".

قال فيليب: "سوف تلتحقين بالمدرسة بأقرب وقت، وتنسين أمري، ولن تكترثي لي بعد ذلك ولن أقابلك إلا بعد أن تكبري، عندئذ لن تتعرفي عليّ".

قالت ماغي وهي تهز برأسها في غاية الجدية: "أوه، لا، واثقة بأنني لن أنساك أبداً. لست أنا من تنسى الأشخاص الذين أتعرف عليهم، أفكر كثيراً

بالمسكين ياب - تشكلت كتلة غير منتظمة في حلقه، ويقول لوكي بأنه سيموت. أرجوك لاتخبر توم بهذا، لأنه سيتضايق كثيراً لأجله أنت لم تر ياب: إنه كلب صغير غريب الأطوار - لاأحد يهتم لأمره سوى أنا وتوم".

ابتسم فيليب بحزن: "هل تهتمين لأمري، كما تهتمين لأمر الكلب يا ماغي؟

ضحكت ماغي: "أوه، أجل، أعتقد هذا".

قال فيليب: "ماغي، إنني مغرم بك كثيراً، لن أنساك أبداً. عندما أكون تعيساً سأفكر دائماً بك، وأحلم بأن تكون لي أختاً، لها عينان سوداوان، مثلك تماماً".

أحست ماغي بالسعادة، إذ لم يمدح أي أحد عينيها، ويشعرها بجمالهما إلا والدها، سألته: "لماذا تحب النظر إلى عيني؟".

"لاأعرف إنهما مميزتان يشعُ منهما كلام - يشع منهما كلام لطيف لاأحب الناس الذين يطيلون النظر إلي، لكنني أفرح كثيراً عندما تنظرين إليَّ يا ماغي".

قالت ماغي بلهجة بائسة: "أوه، إنك مغرم بي أكثر من توم".

حاولت ماغي إقناع فيليب بأنها تبادله الحب أيضاً، بالرغم من أنه أحدب

"هل ترغب بأن أقبلك، كما أقبل توم؟ سأفعل إن رغبت بذلك".

"بالطبع، بكل سرور: لاأحد يقبلني".

طوقت ماغي عنقه بذراعيها، وقبّلته بلهفة وهدوء.

قالت: "سوف أذكرك دائماً بالخير، وأقبلك عندما أراك ثانية. أما الآن فعلي الذهاب، أعتقد أن السيد أسكيرن أنهى تغيير الضماد للجرح".

عندما جاء والدهما في المرة الثانية لزيارتهما، قالت له ماغي: "أوه بابا، فيليب واكيم طيب جداً مع توم - إنه ولد فائق الذكاء، وأنا أكنُّ له كلَّ مودَّة. وأنت تحبه يا توم، أليس كذلك؟ "، أضافت ماغي بلهفة: "هيا قل بأنك تحبه".

تورد توم قليلاً وهو ينظر إلى والده، وقال: "عندما أترك المدرسة، لن أرافقه يا بابا، نحن صديقان الآن، بما أن قدمي معطوبة، أستطيع أن أهزمه عندما أتعافى".

قال السيد توليفر: "حسنٌ، حسنٌ إن كان يعاملك بلطف، حاول أن تصلح الأمر معه، وتبادله المعاملة الطيبة. إنه ولد أحدب مسكين، يشبه أمه المتوفاة. احذر منه، فالعرق دساس أي، أي، ومن الممكن أن يرفسك المهر الرمادي عندما تسنح له الفرصة، تماماً كما فعل بوالده الحصان الأسود".

تأثَّر الولدين بتحذير والدهما، ومن المحتمل أن لايدوم تأثير هذا التحذير

فترة طويلة بسبب طبيعتهما المذبذبة: وعلى الرغم من معاملة فيليب اللطيفة مع توم، لم يصبحا صديقين حميمين أبداً. فبعد أن رحلت ماغي، واستردّ توم عافيته رويداً رويداً، وعاود المشي ثانية، تلاشى ذلك الدفء في صحبتهما. إذ لم يعد هنالك مبرر للشعور بالشفقة أو الاعتراف بفضل أحد، وعادت علاقتهما إلى سابق عهدها.

غالباً ما كان فيليب حزين ونكد المزاج، أما توم فكان صريحاً، وانصهر بالتدريج مع شكوكه السابقة وكرهه لذلك الشخص حزيناً، الأحدب، ابن المحتال.

عندما ينصهر الآباء والأبناء مع بعضهم بعضاً في ظل توهج مشاعر زائلة، يجب أن يكونوا قد صنعوا من معدن حتى يمتزجوا جيداً، وإلا تقطَّعوا لامحالة، إرباً، إرباً عندما تنخفض حرارة الحقد والكراهية

الفصل السابع

عبور البوابات الذهبية

أكمل توم ربيعه السادس عشر عندما دخل الفصل الدراسي الخامس في أبرشية الملك لورتن، بينما كانت ماغي تكبر بسرعة اعتبرتها خالاتها مثيرة للاشمئزاز، في مدرسة الآنسة فيرنس الداخلية الواقعة في بلدة لاسهيم الموغلة في القدم، على نهر الفلوس، وبرفقتها ابنة خالتها لوسي في رسائلها الأولى إلى توم كانت ترسل دائماً محبتها الدائمة لفيليب، وتسأل عنه كثيراً، وأسئلتها كانت تلقى أجوبة مقتضبة من توم أحست بالاستياء عندما كان توم يصف فيليب بالشخص الفظ والغريب الأطوار: أدركت حينها بأنهما ليسا صديقين حميمين جداً، وعندما كانت تذكر توم بضرورة أن يكون لطيفاً مع فيليب، ويعامله بطيبة كما عامله صديقه عندما جرحت قدمه، كان يجيبها دوماً: "حسنٌ، هذا ليس خطئي: لم أُسِئْ له أبداً". نادراً ما كانت ترى فيليب أثناء أيام الدراسة، وفي الصيف كان يمضي عطلته دائماً على الشاطئ، وفي أعياد الميلاد، فقط، تسنى لها مقابلته وقتاً أطول في شوارع القديس أوغ.

عندما قابلته تذكرت وعدها له بتقبيله، بعد أن أصبحت فتاة ناضجة تدرس في مدرسة داخلية، أدركت الآن بأن وعدها صعب التحقيق، ولن يتوقع منها فيليب أن تلتزم بتنفيذه كان وعدها مجرد وهم، مثل الكثير من الأشياء الحلوة، مثل وعود الطفولة الخيالية، وهمٌ مثل الوعود بجنات عدن قبل انقسام الفصول وقبل أن يهبط آدم وحواء إلى الأرض وعندما تتحول الأزهار المتوردة إلى براعم تنمو لتصبح أشجار دراق ناضجة، يبدو من المستحيل الالتزام بالوعود بعد عبور البوابات الذهبية!

لكن بعد أن انغمس والدهما في بحر الأحقاد، وكان واكيم، المحامي الوكيل عن بيفارت والعجوز هاري، يتصرف ضد مصلحته، أحست ماغي وبأسف شديد، أنه من المستحيل أن تعود علاقتها حميمية مع فيليب: مجرد ذكر اسم واكيم، كان يغضب والدها، ويخرجه عن طوره سمعته مرة يقول بأنه لو عاش ذلك الأحدب، حتى يرث أبيه وأرباحه الفاسدة، ستحلُ عليه لعنة أبدية

قال مرة لتوم: "حاول أن تتحاشاه في المدرسة قدر الإمكان "، وكانت أوامره تطاع بكل يسر وسهولة، لأن السيد ستيلنغ في ذلك الوقت كان لديه تلميذان إضافيان، فالمعجبين بلغته الفصحى الارتجالية، كثر، لذلك توفر لديه رصيد كافٍ يمكنه من زيادة مصروفه باستمرار، وإن كان يتعارض مع مستوى دخله

أما بالنسبة إلى توم، فقد اتبع المنهاج الدراسي بأسلوب رتيب وسريع، تماماً كما تدور الطاحونة كان تقدمه بطيئاً للغاية، وهو يتلقى أفكاراً مجردة بطريقة مملة ولكن في كل عطلة كان يحضر معه إلى المنزل الكثير من الرسومات المميزة عن مناظر طبيعية خلابة، بالإضافة إلى عدة مخطوطات مليئة بالتمارين والمسائل، وكان يمضي معظم وقته بالكتابة التي أحس بأنها أكثر متعة من حل التمارين!

في كل عطلة كان يجلب معه كتاباً جديداً أو اثنين، للإشارة بأن تقدمه التعليمي مكرس في عدة مجالات: في التاريخ، والمذهب المسيحي، والأدب اللاتيني بالإضافة إلى فائدة مهمة وهي امتلاكه لعدة كتب!

اعتاد توم على تلقي الكثير من الكلمات والمقاطع التي تشير إلى مستوى ثقافي جيد، إلا أن فكره لم ينشغل بتلك الدروس العقيمة التي تركت أثراً غامضاً، غير مؤثر في نفسه، كانت مثل شظايا مبعثرة هنا وهناك! لاحظ السيد توليفر مؤشرات تدل على أن توم يحظى بمستوى تعليمي جيد. بحيث لم يجرؤ على الانتقاد، ولكن فكَّر أيضاً أنه لايوجد لديه عدد كاف من الخرائط "المسائل الحسابية"، ومع ذلك لم يوجه أية شكوى رسمية ضد السيد ستيلنغ. كم كان ذلك النظام التدريسي محيّراً بالفعل! وحتى لو قرر إرسال توم إلى مدرسة أخرى، فهل كان سيضمن نتائج أفضل؟

في الوقت الذي أوشك فيه توم الوصول إلى الربع الأخير من دراسته في حي الملك لورتن، أحدثت السنوات المتتالية تغييرات ملحوظة عليه، منذ اليوم الذي عاد فيه من مدرسة السيد يعقوب إنه الآن شاب طويل القامة، لم يعد مرتبكاً في حركته أو خجولاً أثناء حديثه، بل ازداد ثقة واعتزازاً بنفسه: ارتدى معطفه الطويل، ورفع ياقته للأعلى، وظهر الشعر على ذقنه، وكان لابد من التزود بشفرات للحلاقة قبل الذهاب إلى المدرسة

أما فيليب فقد قرر أن يغادر المدرسة، ويمضي الشتاء في الجنوب للحفاظ على صحته، وهذا ما جعل توم يحسُ بعدم الاستقرار قبل نهاية الأشهر الأخيرة من المدرسة في هذا الربع الأخير من الدراسة تمنى توم أن يكسب والده القضية، مما يضفي جو البهجة على المنزل بأكمله كان توم واثقاً من أن بيفارت سيخسر القضية، بناءً على معلومات استجمعها أثناء حديث والده

مرت بضعة أسابيع لم يسمع فيها توم أخباراً عن أهله -لكنه لم يرتَبْ في شيء، لأن والديه لم يعتادا على إظهار مشاعرهما الدقيقة من خلال كتابة الرسائل، التي دار فحواها حول الأمور الهامة فقط

وفوجئ صباح أحد الأيام الباردة المظلمة في نهاية نوفمبر تقريباً، عندما دخل إلى غرفة الدراسة عند الساعة التاسعة، بخبر قدوم أخته ماغي التي انتظرته في ردهة الاستقبال. جاءت إليه السيدة ستيلنغ، وأخبرته بزيارة أخته، وتركته يدخل الردهة وحده.

ماغي أيضاً كانت فتاة طويلة القامة، شعرها مضفور وملفوف: كانت تقريباً بطول توم، بالرغم من أنها في الثالثة عشرة فقط من عمرها. بدت بالفعل، وكأنها أكبر منه سناً. ألقت قبعتها، ودفعت ضفيرتيها الثقيلتين إلى الخلف، وكأنها لاتطيق أي عبء إضافي على كاهلها، بدا وجهها مرهقاً، وهي تنظر بقلق نحو الباب.عندما دخل توم لم تتفوه بكلمة، لكنها طوقت عنقه بذراعيها، وقبلته بشغف. اعتاد توم على غرابة أطوارها ومزاجيتها، لذلك لم يَنْتَبِهُ أي إحساس بالخوف من مظاهر الجدية غير المعتادة البادية عليها وهي تصافحه.

قال توم عندما عادت باتجاه الأريكة، وهي تسحبه ليجلس بجانبها: "لماذا، ما لذي دعاك للمجيء باكراً في هذا الصباح البارد يا ماغي؟ هل جئت بالعربة؟".

"لا، جئت بالقطار. لقد مشيت من الطريق الرئيسي".

"كيف جئت، وغادرت مدرستك؟ العطلة لم تبدأ بعد؟".

قالت ماغي وشفتها ترتعش قليلاً: "طلب مني بابا العودة إلى المنزل. صار لي ثلاثة أو أربعة أيام في المنزل".

سأل توم بقلق: "هل والدي بصحة جيدة".

"ليس تماماً. إنه تعيس جداً يا توم لقد انتهت الدعوى القضائية، جئت أُخبرك بذلك، من الأفضل أن تعلم قبل عودتك للمنزل، حتى أنني لم أرغب بإرسال رسالة إليك".

نهض توم بسرعة من على الأريكة، ووقف قبالة ماغي، ودسَّ يديه فجأة في جيبه وقال: "والدي لم يخسر الدعوى، أليس كذلك؟".

حدقت به ماغي وهي ترتجف: "أجل يا عزيزي توم".

بقي توم صامتاً دقيقة أو اثنتين وهو يركز بصره في الأرض، ثم قال:

"إذاً، يجب على والدي أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال؟".

أجابت ماغي بصوت خافت: "أجل".

قال توم بشجاعة، ولم يدرك بعد النتائج السيئة الحقيقية لخسارة مبلغ كبير من المال: "حسنٌ، إنه أمر مزعج للغاية". أضاف توم وهو ينظر إلى ماغي، معتقداً أنها كعادتها تهول الأمور كثيراً، وهي تبدو بالغة القلق:

"ولكن، هل تضايق والدي كثيراً؟".

أجابت ماغي ثانية بصوت خافت: "أجل". أدركت عندئذ أن توم لم يستوعب بعد فظاعة المصيبة قالت بسرعة وبصوت عال، وكأن الكلمات تدفقت كالسيل من فمها: "أوه، توم، سوف يخسر والدي الطاحونة والأرض، وكل شيء، سيخسر كل ما يملك".

لمعت عينا توم دهشةً، وشحب لونُه، وارتجف بشكل ملحوظ لم يتفوه بكلمة وجلس ثانية على الأريكة، وحدق بغموض في النافذة المقابلة

لم تتبادر إلى ذهن توم أية مخاوف بخصوص المستقبل، اعتاد على والده أن يركب دائماً حصاناً من الطراز الجيد، وأن يسكن في منزل أنيق، وأملاك على وشك الهاوية الآن!

لم يخطر ببال توم بأن هذا الأب القوي سوف "ينهار "، وبأن سوء الحظ الذي كان يسمع عنه وكأنه عار يلازم الإنسان، سوف يلازم الآن والده المسكين

لم يتخيل أن يلحق هذا العار بأي أحد من أقاربه، كيف إذاً إن رافق العار مصير والده!—منذ نشأته، أحس بالفخر والكبرياء تجاه عائلته وبما أن دراسته عند السيد ستيلنغ تكلف مصاريف باهظة، اعتقد أنه عندما يكبر سيكون ذا شأن عظيم في هذا العالم، سيضاهي من هم يتعالون عليه في حي القديس أوغ، لمجرد أن أباءهم حرفيون أو أصحاب ثروات طائلة

لقد أصبح توم شاباً، ومع ذلك كانت أفكاره وتوقعاته نتاج أحلام صبيانية، عاشها من مضي ثلاثة أعوام والآن أيقظته صدمة عنيفة

ذعرت ماغي عندما شاهدت شحوب توم، ارتعشت بصمت كان هنالك شيء أخر، أرادت اطلاعه عليه - شيء أسوأ من إفلاس والدها. ألقت ذراعيها حول عنقه، وقالت وهي تحاول أن تتمالك نفسها من البكاء: "أوه توم - عزيزي، عزيزي توم، لاتضطرب هكذا - حاول أن تتقبل الأمر برحابة صدر".

أدار خده مستسلماً لقبلاتها المتوسلة، وهناك لامست دموعها عينيه، اللتين جففهما بيده حاول استعادة رباطة جأشه وقال :

"عليّ مرافقتك إلى المنزل، يا ماغي ألم يقل والدي بأنه عليّ العودة إلى المنزل؟".

عندما لاحظت ماغي اضطرابه، حاولت السيطرة على عواطفها، قالت: ماذا سيفعل إن أخبرته بكل شيء؟

"لايا توم، بابا لايتمنى أن تفعل هذا. ولكن ماما هي - التي تريد عودتك - ماما المسكينة! - إنها تبكي بمرارة أوه توم، ثمة مأساة حقيقية في المنزل". ابيضت شفاه ماغي كثيراً، وبدأت ترتعش عندما ارتعش توم تشبث المسكينان ببعضهما بعضاً - كلاهما

يرتجفان - الأول يرتجف خشية من سماع خبر أسوأ، والأخرى ترتجف من الواقع المرير الذي أطبق فجأة على صدرها. بالكاد تكلمت ماغي همساً :

"و- و- بابا المسكين-".

لم تستطع ماغي أن تنطقها. ولكن نَفَدَ صبر توم خطر بباله أن والده في السجن، بعد أن خسر القضية

سأل بعد أن نفد صبره: "أين والدي؟ أخبريني يا ماغي".

وجدت ماغي أنه من الأسهل الجواب على ذلك السؤال: "إنه في المنزل ولكن".

أضافت بعد صمت: "ليس كما كان—لقد وقع على ظهر حصانه- إنه لايتعرف على أي شخص إلا أنا. يبدو أنه فقد حواسه- أوه - بابا-بابا—".

بهذه الكلمات الأخيرة، انفجرت ماغي بالبكاء، بعد أن تمالكت نفسها كثيراً. أحس توم بثقل جسيم فوق قلبه، منعه من ذرف دموع حبيسة: لم تكن لديه رؤية واضحة لمشاكل العائلة كما كانت لدى ماغي، التي كانت في البيت، أحس فقط بالبؤس، وسوء الحظ المطلق. وضع ذراعيه على كتف ماغي بعصبية، لكن وجهه بدا صارم الملامح بلا دموع - عيناه خاليتان من كل تعبير - كما لو أن سحابة من الغيوم السوداء اعترضت طريقه فجأة.

قالت ماغي بتصميم، وهي تفرك عينيها، وتنهض لتمسك بقبعتها: "علينا أن نستعد يا توم - لاينبغي أن نبقى هنا - سوف يفتقدني والدي - يجب أن ننتظر على الطريق الرئيسية عند الساعة العاشرة لنصعد بالقطار".

أحس توم فوراً بضرورة الاستعجال، ونهض أيضاً. قال: "انتظري دقيقة يا ماغي يجب أن أكلم أولاً السيد ستيلنغ، ثم ننطلق".

فكر بضرورة الذهاب إلى غرفة الدراسة، لكنه قابل في طريقه إلى هناك السيد ستيلنغ، الذي سمع من زوجته أن ماغي كانت مضطربة عندما سألت عن أخيها، وطالما أنهما بقيا وحدهما فترة طويلة، ارتاب في الأمر، وجاء ليستفسر عن سبب قدومها المفاجئ.

عندما التقى بالسيد ستيلنغ بالممر فجأة، قال توم :

"أرجوك سيدي عليّ الذهاب إلى المنزل فوراً. يجب أن أعود مع أختي في هذه اللحظة خسر والدي القضية - خسر كل ممتلكاته - وهو الآن مريض جداً".

بما أن السيد ستيلنغ رجل طيب القلب، تنبأ بإمكانية خسارة المبلغ المخصص له مقابل تعليم توم، لكن هذه الحسابات لم تكن لها قيمة أمام المشاعر الإنسانية النبيلة، نسي كل الحسابات المادية عندما نظر بشفقة إلى الأخ وأخته اللذين جسَّدا الشباب والأسى معاً. عندما أدرك كيف جاءت ماغي إلى أخيها، وكيف كانت تواقة للعودة فوراً إلى

المنزل، استعجل رحيلهما، وهمس بشيء ما للسيدة ستيلنغ، التي لحقت به، وغادرت الغرفة حالاً.

وقف توم وماغي عند عتبة الباب استعداداً للانطلاق، عندما عادت السيدة ستيلنغ وبيدها سلة صغيرة، وضعتها في ذراع ماغي: "تذكري أن تأكلي شيئاً ما في طريقك يا حبيبتي".

رق قلب ماغي تجاه هذه السيدة التي لم تكن تحبها أبداً، وقبلتها بصمت. كانت تلك هي البادرة الأولى التي قدمها الأسى كهدية لتلك الطفلة المسكينة - تلك الاستكانة لأناس مجردين من الإنسانية التي تتدفق إليهم فجأة لكنها لاتطيق البقاء كثيراً، وتهرب من لحظتها، حالتها مثل حالة الرجال الذين أضناهم التعب وسط جبال جليدية، تنفطر قلوبهم لمجرد رؤية أي رفيق عادي، فيستثير فيهم أعمق العواطف.

ربت السيد ستيلنغ على كتف توم وقال: "باركك الله يا ولدي: طمئنّي إن حصل معك أي شيء". ثم ودّع ماغي، وغادرا بصمت.

غالباً ما كان توم يفكر "ببهجة "اليوم الذي سيغادر فيه المدرسة! والآن بدت سنوات الدراسة وكأنها عطلة كانت على وشك نهايتها.

مشى الشابان البائسان على طول الطريق، وابتعدا كثيراً - حتى تواريا عن الأنظار خلف الأشجار الباسقة.

حثا السير معاً لخوض حياة جديدة ملؤها الأسى، لن يشهدا بعد الآن شروق شمس ذكريات الطفولة غاصا في برية شائكة، وأغلقت خلفهما بوابات طفولتهما الذهبية إلى الأبد.

الجزء الثالث

السقوط

الفصل الأول

ما حدث في المنزل

عندما علم السيد توليفر بالحقيقة المؤلمة التي قررت خسارته للقضية، وانتصار بيفارت ومحاميه واكيم عليه، اعتقد كل من رآه في ذلك الوقت بأنه رجل شديد البأس، واثق النفس لاتهمه الصدمات القوية هو أيضاً اعتقد نفسه كذلك: صمم أن يكون قوياً أمام الآخرين، ولا يُظهر ضعفه أبداً، وإن فكروا بأنه رجل ضعيف يحطمه الفشل، فهم مخطئون تماماً!

لم يستطع السيد توليفر أن يتغاضى عن الواقع برمته، وبأنه عاجز عن دفع تكاليف القضية، لكنه حاول تجنب الانهيار والسقوط في هذا العالم المربك بالرغم من طبعه العنيد وقدرته الهائلة في الدفاع عن النفس، كان هنالك منفذ يتغلغل من خلاله شبح اليأس والكآبة إلى نفسه، ومع ذلك حاول مواجهة مصاعبه، وأن يبقى كما هو ،السيد توليفر صاحب طاحونة دورلكت كانت هنالك مجموعة من المشاريع يخطط لها، كذلك لاعجب أن يتألق وجهه بعد أن أنهى حديثه مع محاميه، السيد غور، وعاد من لايندم إلى منزله وهو مبتهج يمتطي حصانه

كان السيد فيرلي، الذي رهنت الأرض لديه - شخصاً متعقلاً يدرك مصلحته جيداً، والذي سيكون سعيداً ليس فقط بشراء جميع الممتلكات بما فيها الطاحونة والمنزل وما حوله من أرض، بل سيقبل السيد توليفر كمستأجر عنده، وسوف يسترد نقوده عن طيب خاطر مقابل نسبة فوائد عالية من عمل السيد توليفر، الذي سيحفظ بذلك كرامته وكرامة عائلته

من سيرفض مثل هذا الاستثمار المربح؟ بالتأكيد ليس فيرلي، لأن السيد توليفر صمم على المساواة بين خططه ومصلحة فيرلي، وهنالك رجال لم يستوعبوا بعد معنى أن يخسروا دعوى قضائية، يرون في اهتماماتهم ورغباتهم دافعاً لفرض أفعال على رجال آخرين

من دون شك (هذا ما كان يدور في ذهن الطحان) أن فيرلي لن يتصرف إلا بما هو مرغوب به، وعندما يفعل هذا - عندئذ لن تسوء الأمور كثيراً. ولكن، كان لابد أن يعيش السيد توليفر وعائلته في مستوى مادي متدني، ويتحملون

الفاقة فترة من الزمن حتى يتم تسديد فوائد العمل للسيد فيرلي بدا واضحاً أن السيد توليفر يتوهم بأنه يمكن دفع تكاليف القضية دون أن تتغير مكانته، أو دون أن يبدو بمظهر الرجل المنهار.

بالتأكيد كانت لحظة حرجة في حياته تلك الثقة التي منحها للمسكين رايلي، الذي مات فجأة منذ نيسان المنصرم، ذهبت مع الريح بعد أن غادره صديقه النصوح، وتركه مثقلاً بدينٍ قدره مئتان وخمسون جنيهاً - هذه الحقيقة جعلت السيد توليفر تعيساً.

في الواقع، أكثر ما كدر السيد توليفر حقيقة مفادها أنه منذ قضاء بضعة شهور كان قد استدان مبلغ خمسمائة جنيه ليسدد ديونه للسيدة غليك، والرجل الذي أقرضه المبلغ يطالب فيه الآن (بالطبع واكيم هم من حرَّضه)، والسيد توليفر كان واثقاً من أنه سوف يكسب القضية، وتسير الأمور لمصلحة، لذلك وافق على تصديق فاتورة ببيع أثاث منزله، وأشياء أخرى كضمان مقابل الرهن. قال لنفسه: عليّ تسديد الديون عاجلاً أم آجلاً، ولا ضير بالقبول بذلك الضمان. أما الآن فقد اختلفت الموازين، وبدت نتائج هذه الفاتورة كارثية عليه، وتذكر بأنه لامفرَّ من تسديد الأموال والرضوخ لكل الشروط. لقد صرّح من قضاء شهرين بأنه لن يلجأ إلى أصدقاء زوجته، والآن أعلن بالأسلوب ذاته بأن على زوجته الذهاب إلى عائلة بوليت، وشرح الأمر لهم: فمن المؤكد أنهم لن يسمحوا ببيع أثاث قريبتهم المسكينة ،عندئذ سيدفع بوليت المبلغ - ولن يكون هذا بمثابة فضل من أحد. فالسيد توليفر لايطلب من زوجته أن تقوم بأي فعل لأجل خاطره، لكنها من المحتمل أن تفعله إن رغبت هي بذلك!

إن أولئك الرجال الذين يتسمون بالعناد والافتخار بأنفسهم لدرجة عظيمة، هم أكثر عرضة لتغيير مواقفهم والإدلاء بآراء متناقضة. بهذا الأسلوب المفاجئ: بالنسبة لهم، يبدو كل شيء أسهل من أن يواجهوا حقيقة بسيطة مفادها أن عليهم الاعتراف بهزيمتهم والبدء بحياة جديدة.

تدرك عزيزي القارئ، بأن السيد توليفر إنسان متغطرس، على الرغم من أنه ليس أكثر من طحان متفوق في عمله، وفخور جداً بنفسه ومتشبث أكثر بمواقفه ،هذه المواصفات التي يمكن أن تشكل تراجيديا ملفتة للانتباه عندما يتعرض صاحبها للانتكاسات! ولكن هنالك أناس عاديون كثيرون، تقابلهم في الشارع دون أن تعيرهم أي انتباه، أولئك لهم مآسيهم أيضاً، ولكنها مآسٍ مخفية لايحس بها أحد، ربما تنتقل من جيل إلى آخر، ولا تترك لها أثراً في سجلات التاريخ - ربما تتجلى مثل هذه المآسي واضحة لدى الشباب، الذين تتعطش

أرواحهم للبهجة، ويرسمون لأنفسهم مستقبلاً مزدهراً فيصعقهم الواقع بكوارث غير متوقعة، وتكون خيبة آمالهم بآبائهم ثقيلة على قلوبهم اليافعة، فتصبح حياتهم كئيبة ليس فيها مستقبل منشود ولا حاضر مرغوب!

كان السيد توليفر لايزال محلقاً بخياله عندما اقترب من بلدة القديس أوغ، التي كان عليه العبور من خلالها وهو في طريقه إلى المنزل. ولكن ما الذي اقترحه عليه خياله، عندما رأى عربة لاسهم تدخل البلدة، ليلحق بها، ويطلب من الموظف كتابة رسالة، يحث فيها ماغي على العودة للمنزل في اليوم التالي مباشرة؟

ربما ارتعشت يد السيد توليفر لو كتب الرسالة بنفسه، لقد أراد أن يسلمها صاحب العربة إلى إدارة مدرسة الآنسة فيرنس عند الصباح. كان في قلبه اشتياق غامض لأن تكون ماغي بقربه - ودون تأخير - لم يستطع إيجاد تفسير له - يجب أن تعود في العربة غداً.

حاول السيد توليفر أن يظهر لزوجته بأنه ليست هنالك أية صعوبات، وكان يوبخها بغضب عندما أظهرت استياءها وحزنها لدى سماعها بخسارته للقضية، مؤكداً لها بأنه ما من ضرورة للأسى أبداً في تلك الليلة لم يذكر لها أي شيء بخصوص فاتورة البيع، وطلب العون من السيدة بوليت، بقيت جاهلة للصفقة التي كان يفكر بها. أن تكون لدى السيد توليفر زوجة، متدنية عنه في الفكر، ربما هو امتياز آخر من امتيازاته الرائعة! وهذا الامتياز يخوله لممارسة خدعة صغيرة عند الضرورة.

بعد ظهيرة اليوم التالي امتطى السيد توليفر حصانه ثانية، وانطلق إلى مكتب السيد غور في بلدة القديس أوغ. كان من المفترض أن يقابل غور السيد فيرلي في ذلك الصباح، ويطرح عليه قضية السيد توليفر، الذي لم يكد يبلغ منتصف الطريق، حتى صادف موظفاً من مكتب السيد غور وسلمه رسالة. بسبب طارئ مفاجئ في العمل، لم يتمكن المحامي غور من الانتظار في مكتبه لمقابلة السيد توليفر. ولكنه سيكون في مكتبه عند الساعة الحادية عشرة من صباح الغد، لذلك أرسل بعض المعلومات المهمة في تلك الرسالة.

قال السيد توليفر وهو يأخذ الرسالة، دون أن يفتحها: "أوه، أخبر إذاً السيد غور بأنني سأقابله غداً في الساعة الحادية عشرة". وعاد ممتطياً حصانه.

دُهش الموظف من ذلك الوميض الذي يتلألأ في عيني السيد توليفر، وراقبه بضع لحظات وهو يبتعد بحصانه، ثم استدار راجعاً. لم يكترث السيد توليفر في تلك اللحظة، بمعرفة مضمون الرسالة، لذلك دسها في جيبه، مقرراً قراءتها في المنزل.

فيما بعد، فكر أنه من المحتمل أن تحتوي الرسالة على معلومات لايريد اطلاع السيدة توليفر عليها. أوقف حصانه، وأخرج الرسالة وقرأها. كانت رسالة قصيرة جداً، مضمونها، أن السيد غور تحقق بشكل سري، وأكيد، بأن فيرلي كان يعاني من ظروف مالية صعبة، وقد تخلى عن ضماناته، وبالنتيجة انتقل الرهن على أملاك السيد توليفر، إلي واكيم

بعد ذلك بنصف ساعة، وجد سائق عربة نقل السلع السيد توليفر مستلقياً على جانب الطريق وهو فاقد الوعي، ورسالة مفتوحة بيده، وكان حصانه الرمادي يلهث منهكاً بجانبه

عندما وصلت ماغي في ذلك المساء، بناء على طلب والدها، كان السيد توليفر قد استرد وعيه من جديد منذ حوالي ساعة، إلا أن نظراته كانت غامضة وحائرة، وكأنه يتأمل الفراغ حوله، كان يتمتم بشيء ما حول"الرسالة "التي نطق بها عدة عبارات وبصبر نافدٍ وينادي على الطبيب المداوي، السيد ترنبول، ثم إحضار رسالة غور ووضعها على السرير، مما هدأ من روع ذلك المسكين.جلس الرجل المصدوم برهة من الزمن وهو ينظر إلى الرسالة، وكأنه يحاول نسج أفكاره من خلال قراءتها. في الحال بدا، وكأنه تذكر شيئاً، أشاح بوجهه عن الرسالة باتجاه الباب، ونظر بقلق، وكأنه يسعى جاهداً لرؤية شيء ما لم يتبين بوضوح أمامه، وقال: "فتاتي الصغيرة". ردد هذه العبارة مراراً وتكراراً من وقت لآخر، بدا غير مدرك كلياً لكل من هم حوله، لكنه واظب على طلبه بإلحاح، ولم يتعرف على زوجته أو أي شخص آخر.

أما السيدة توليفر المسكينة، التي لم تسعفها قدراتها الضعيفة لتحمل المصاعب المتكررة ، كانت قد انهارت تماماً بعد تدفق هذه المشاكل المفاجئة، تمشت جيئة وذهاباً باتجاه البوابة لترى فيما إذا كانت قد وصلت عربة لاسهم، بالرغم من أنه لم يحن بعد موعد وصولها.

لكن العربة وصلت أخيراً، جلست الفتاة القلقة المسكينة، لم تعد الآن "فتاة صغيرة "، إلا في ذاكرة والدها المولع بها.

سألت ماغي، أمها التي هرعت إليها وهي تبكي، بشفتين شاحبتين: "أوه ماما، ماذا هناك؟". لم يخطر ببال ماغي أن والدها مريض، لأن الرسالة وصلتها عن طريق مكتب في بلدة القديس أوغ.

ولكن جاء الآن السيد ترنبول لمقابلتها: الطبيب هو الملاك الطيب في منزل مليء بالمشاكل، وماغي بدورها ركضت نحو ذلك الصديق المواسي، وهي ترتعش ونظراتها حائرة

قال وهو يأخذ بيدها: "لاتخافي يا عزيزتي، والدك أصيب بصدمة مفاجئة، ولم يسترد بعد ذاكرته وطالبَ برؤيتك، ومن الأفضل عندما تقابلينه، أن تحافظي على هدوئك قدر ما تستطيعين، هيا اصعدي معي للأعلى".

رافقته ماغي، وقلبها يخفق خوفاً، جعل الوجود كله ينبض بألم الأسلوب الهادئ الذي تكلم به السيد ترنبول أثار مخاوف ماغي أكثر. كان والدها لايزال يحدق بوهن باتجاه الباب عندما دخلت ماغي لمحت عيناها نظرة غريبة مشتاقة، عاجزة في عينيه. نهض من سريره في لحظة خاطفة ولمعت عيناه - اندفعت نحوه، وضمته إلى حضنها وهي تمطر عليه وابل من القبلات المعذبة.

يا للطفلة المسكينة! تلك اللحظات المأساوية في الحياة، أقبلت عليها باكراً جداً. سوف تبقى ذكريات مؤلمة من الصعب نسيانها في تلك المرحلة من عمر الإنسان إننا، نحن الكبار، نتحمل مصائبنا، ونزرع الأمل في نفوسنا لكي نستمر في الحياة. أما وهي في عمرها الحرج فلا يمكنها نسيان الأسى بسهولة، تماماً كما يصعب عليها نسيان لحظات الحب الأولى.

لكن ذلك البريق في عينيه، خفَّ فجأة، وانهارت قوى ذلك الأب المصدوم فقد وعيه مجدداً، دام هذا عدة ساعات، وبعد جهد كبير، استعاد وعيه، وكان يتناول بخضوع كل ما يقدم له، بدا مثل طفل راضٍ لوجود أمه قربه - طالما أن ماغي إلى جانبه، تقبّل كل سيء عن طيب خاطر، كان راضياً مثل طفل عاد إلى حضن أمه.

أخبرت السيدة توليفر أخواتها بالأمر، وتصاعدت الولولات والنحيب: اعتبر الخالات وأزواجهن أن سبب دمار قريبتهم المسكينة وعائلتها، هو تعنت زوجها وتصرفاته اللامسؤولة، لذلك ما حصل كان مقاضاة للسيد توليفر.

لم تأبَهْ ماغي لهذه التعليقات، وغالباً ما كانت تجلس قبالة والدها واضعة يدها على يده.

أبدت السيدة توليفر رغبة قوية في عودة توم إلى المنزل، كانت تفكر فيه أكثر مما كانت تفكر بزوجها، لكن أخواتها وأزواجهن عارضوها في ذلك الأمر. قال الطبيب أنه من الأفضل له أن يبقى في مدرسته، عندما بدا أن مرحلة الخطر وشيكة النهاية. ولكن في نهاية اليوم الثاني، عندما أصبحت ماغي تعتاد على حالة اللاوعي عند أبيها، فكرت جدياً بضرورة مجيء توم إلى المنزل. جلست أمها في تلك الليلة تبكي بحرقة ومرارة: "ولدي الحبيب لا بد أن يعود للمنزل"، قالت ماغي عندئذ: "دعيني أذهب إليه غداً، وأخبره يا ماما: سأنطلق صباح الغد بما أن والدي لايتعرف عليّ الآن سيبدو الأمر غاية في الصعوبة إن عاد توم، ووجد بابا على هذه الحالة، لابد أن يعلم بمرضه مسبقاً".

في صباح اليوم التالي ذهبت ماغي إلى توم، كما قرأنا مسبقاً. وهما في طريقهما عائدين للمنزل، تحدث الأخ والأخت مع بعضهما بعضاً بهمسات حزينة: قالت ماغي: "يقولون بأن السيد واكيم وضع يده على رهان الأرض، يا توم ربما تلك الرسالة التي وجدوها بيده، هي التي سببت له الصدمة فسقط صريع المرض".

تحول توم من حالة البؤس إلى حالة غضب وتصميم: "أعتقد أن ذلك الوغد كان يخطط منذ زمن بعيد لتدمير أبي سوف ألقنه درساً لن ينساه عندما أصبح رجلاً. لاتفكري أبداً في التحدث إلى فيليب ثانية".

"أوه، توم! أجابت ماغي بلهجة احتجاج حزينة، لكنها لم تقوَ حتى على الدخول في أي جدال معه، كي لاتضايقه باعتراضها على كلامه.

الفصل الثاني

محاكمة السيد توليفر

عندما وصل توم وماغي، كان قد مضت خمس ساعات منذ غادرت المنزل، وكانت تفكر بقلب مرتعش بوالدها الذي افتقدها طوال هذه المدة، وربما كان يناديها: "أين فتاتي الصغيرة؟". عبثاً دون مجيب لم يخطر ببالها حدوث أية تغييرات في فترة غيابها.

ركضت على طول الممشى المرصوف بالحصى، ودخلت المنزل قبل توم، وفي المدخل صعقت برائحة الدخان القوية المنبعثة من ردهة الاستقبال. بدا الأمر في غاية الغرابة: هل هنالك زائر يدخن في مثل هذه الظروف؟ هل كانت أمها هناك؟ إذاً لابد أن تخبرها بقدوم توم.

كانت ماغي على وشك فتح الباب، عندما صعد توم، فدخلا الردهة معاً. وجدا رجلاً فظاً كئيب المظهر، يجلس على كرسي أبيهما، ويدخن غليونه، وقربه إبريقٌ وكأسٌ.

تكشَّفت الحقيقة واضحة خلال لحظة في ذهن توم

"أن يكون حاجب المحكمة في المنزل "، وأن "تباع جميع الأملاك "، فهذا عار وبؤس و"فشل". بدا من الطبيعي أن تحدث أمور كهذه بعد أن فقد والده كل ممتلكاته، لم يفكر توم في أية قضية معينة، إلا بسوء الحظ الذي حلّ عليهم بسبب خسارة الدعوة القضائية أحس وكأن المشاكل قد بدأت الآن: لمسة غريبة جعلته يثور، ويفقد أعصابه، وينسى حالة الألم الموجع.

قال الرجل وهو يسحب غليونه من فمه، بطريقة مهذبة :

"كيف حالك يا سيدي؟". أحس الرجل بعدم الارتياح قليلاً عندما نظر إلى وجهي الشابين الواجمين لكن توم ابتعد عنه بسرعة دون أن يتفوه بكلمة: كان المشهد كريهاً للغاية.

لم تأخذ ماغي انطباعاً عن مظهر هذا الغريب، كما فعل توم

لحقت به هامسةً:

"من يكون هذا الشخص يا توم؟ - ما الأمر؟". خطر ببالها أن هذا الغريب من المحتمل، أن يكون قد أساء لوالدها، فهرعت للأعلى، ووضعت قبعتها عند باب غرفة النوم، ودخلت على رؤوس أصابعها. ساد الصمت في أجواء الغرفة: كان والدها مستلقياً غافلاً عن كل ما يحصل حوله، وكانت عيناه مغمضتين عندما

غادرته وجدت الخادمة في طريقها. سألتها: "أين ماما". لكن الخادمة لم تعرف شيئاً.

أسرعت ماغي إلى توم وقالت:

"بابا نائم بهدوء: لنذهب، ونبحث عن ماما. أتساءل أين هي؟".

لم تكن السيدة توليفر في الطابق الأرضي ولا في أية غرفة من غرف النوم بقيت غرفة وحيدة لم تبحث فيها ماغي، إنها الغرفة التي في أسفل العلية :، في تلك الغرفة احتفظت أمها بكل "الأشياء الثمينة ": سبق توم ماغي إلى الغرفة، وفتح الباب، وصرخ في الحال: "ماما!".

جلست السيدة توليفر هناك وحولها كل ممتلكاتها الثمينة. كان أحد الصناديق المليئة بالألبسة الكتانية، مفتوحاً: بجانب الصندوق إبريق فضي وبعض الملاعق المنتشرة هنا وهناك، بينما كانت المسكينة تهز رأسها وتنوح بمرارة وهي تمسك بطرف غطاء للطاولة، نقش عليه علامة "إليزابيث دودسن "وتضمه إلى صدرها بأسف

عندما رأت توم، تركت الغطاء، وقالت وهي تطوق عنقه: "أوه ولدي، ولدي! من كان يتخيل أن يصبح مصيري هكذا! لقد دُمرنا ـ ذهب كل شيء هباءً منثوراً، سوف تباع كل الممتلكات ـ من كان يتصور أن يتزوجني والدك، ليقودني إلى هذا المصير التعيس! إننا الآن مفلسون تماماً ـ سوف نصبح متسولين ـ علينا اللجوء إلى مأوى للأيتام".

قبلته، وعاودت الجلوس، وأخذت غطاء الطاولة ثانية تضمه وتتحسر على الأيام الخوالي، بينما وقف الولدان صامتين بائسين - وقد أشبعا بفكرة أن يصبحا "متسولين "و"أيتاماً".

تابعت السيدة توليفر، وهي تقلب بأشياءها الثمينة، وتتأملها بحسرة وألم: "من كان يظن أن تباع هذه الملابس التي نسجتها بنفسي كل ما نملك سوف يذهب إلى منازل الغرباء، وربما تمزق هذه الألبسة بالسكاكين لن تحصلوا على أي منها يا ولدي".

تلك السيدة الشقراء البدينة عادة ما كانت تستسلم، وتستكين تماماً عندما تلم بها المصائب كانت تحدق بابنها بعينين مغرورقتين بالدموع، تأثر توم بكلامها، لكنه أجاب على الفور بغضب وقد توردَّ وجهُه: "ولكن ماما، هل ستسمح خالاتي ببيع ممتلكاتنا؟ ألن يفعلن شيئاً حيال هذه الكارثة؟ لن يدعنك وحدك تعانين المصيبة، أليس كذلك؟ ألم يعلمن بما حدث؟".

"لقد أرسلتُ لوكي وأخبرهن، وخالتك بوليت - أوه حبيبتي، أوه حبيبتي

بدأت تبكي بحرقة، وتقول بأن والدك جلب العار للعائلة، ولوث اسمنا في البلد، وقررت أن تشتري أغطية الطاولة المرقطة، لأنها لاتريد أن تذهب للغرباء أبداً وهي ترغب بهذا النوع من الأغطية إذ ليس لديها الكثير منهاأما عمك السيد غليك يقول أيضاً بأن كل ما نملكه يجب أن يشتروه، وعليه أولاً مشاورة خالتك، سوف يأتون جميعهم ليناقشوا الأمر،، أضافت وهي تحدق بالفناجين والصحون: "لكنني أعتقد أنهنَّ لن يشترين طقم الفناجين هذا، لأنهنَّ لم يبدين إعجاباً به منذ اشتريته، بسبب ذلك الخط الذهبي الخفيف المرسوم عليها. لقد اشتريته من نقودي التي ادخرتها منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، وها الإبريق الفضي أيضاً - أنا من اشتريته من مدخراتي، ولم يدفع والدك ثمنه لقد تزوجني وجلب لي العار والمذلة".

عاودت السيدة توليفر البكاء مجدداً، وهي تضع منديلها على عينيها بضع دقائق أزاحت المنديل، وقالت بلهجة استنكار وهي تبكي: "كم قلت له مراراً وتكراراً، "مهما حصل معك لاتذهب إلى المحامي لحل مشاكلك "- ماذا بوسعي أن أفعل أكثر من تقديم النصيحة له؟ كان علي الجلوس والسكوت باستكانة بينما تهدر ثروتي وثروة أبنائي أيضاً، ثق تماماً يا بني هذا ليس خطأ أمك المسكينة".

نظرت إليه مشفقة، وتأملته بعينيها الزرقاوين الطفوليتين، وهي عاجزة تماماً عن فعل أي شيء. قبل الولد المسكين أمه، وعانقها بقوة لأول مرة، يحس توم بخطأ والده بحكم ميوله الفطرية كان يرى والده على حق دوماً، ويطيعه في كل أمر، لسبب بسيط جداً، وهو لأنه ابن السيد توليفر - أما الآن فقد أحس بالتعاطف مع أمه المظلومة وبدأ يمتزج سخطه على واكيم مع مشاعر سخط من نوع آخر. ربما ساهم والده في تدهور العائلة وإساءة سمعتها في هذا العالم، بحيث جعل الناس يتكلمون عنه بازدراء، ولا ينبغي على أحد أن يذكر اسم توم بازدراء.

عاد توم لطبيعته وعنفوانه وقوته، وحاول إثبات ذاته مجدداً، أحس أيضاً بالاستياء من خالاته، لذلك كان عليه أن يتصرف كرجل، ويهتم بأمه

قال بحنان: "لاتتضايقي يا ماما. سيكون بمقدوري كسب المال: سأتدبر الأمر".

قالت السيدة توليفر بنعومة: "باركك الله يا بنيّ!".

ثم استعادت حزنها وقالت: "لن نتمكن من الاحتفاظ بهذه الأشياء".

راقبت ماغي المشهد بغضب واستياء. والدها مستلق بين الحياة والموت، وأمها

بائسة الحال لأجل أغراضها الثمينة، وتوقع باللوم كله على والدها المسكين بينما توم صامت، ومتعاطف معها بقوة. وصلت إلى مرحلة اللامبالاة تجاه مشاعر أمها التي اعتادت تحميل الأخطاء لأبيها. انفجرت أخيراً، وقالت بلهجة عنيفة: "ماما، كيف تتحدثين بهذا الأسلوب عن بابا؟ أنت لاتهتمين إلا باسم العائلة، وتنسين حالة بابا التي يرثى لها ، لم تفكري بسمعته واسمه، إنه الآن طريح الفراش، ومن المحتمل أن نفقده في أية لحظة. توم عليك الدفاع عن أبي، لاينبغي أن تسمح لأي إنسان بالتهجم عليه وتحميله عبء الأخطاء كلها".

غادرت ماغي الغرفة وهي بائسة غاضبة، وأخذت مكانها ثانية قرب سرير والدها. تعلق قلبها به أكثر من السابق بعد أن أحست بأن كل الناس يوقعون اللوم عليه. كم كرهت ماغي لوم الآخرين: طوال حياتها، والآخرون يلومونها على كل ما تفعل، وبالنتيجة يتكدر مزاجها، ولا يتغير أي شيء. إن الإصلاح لايكون أبداً بإيقاع اللوم على الآخرين، ربما هذا أسلوب الضعفاء المستكينين فقط! كان والدها يسامحها دوماً، ويبرر لها تصرفاتها، إن العاطفة المتقدة التي كان يظهرها لها، جعلتها قادرة على تحمل كل المصائب لأجل خاطره.

صدم توم بكلام ماغي، التي حاولت أن تعلمه وأمه كيف يتصرفان بلباقة اتجاه الأب توليفر! ربما كان عليها أن تكون أكثر تهذيباً معهما في هذا الوقت العصيب. لكنه انطلق في الحال إلى غرفة والده، وهناك تأثر كثيراً بما رآه حتى أنه نسي تعاطفه تجاه أمه خلال الساعة الماضية. عندما لاحظت ماغي تأثره، اتجهت نحوه، ووضعت ذراعها حول عنقه، بينما جلس هو بجانب السرير، سبح الولدان في بحر من النسيان، لم يتذكرا أي شيء أبداً، سوى أن لهما أباً وحيداً وحزناً وحيداً!

الفصل الثالث

المجلس العائلي

عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي عقد الخالات وازواجهن الاجتماع العائلي كانت نار الموقد تتوهج في ردهة الاستقبال الكبيرة. والسيدة توليفر بدت مضطربة ومتأثرة بهذه المناسبة العظيمة. وكأنها جنازة كانت تهز رأسها بحزن وهي تنظر إلى سطوح الطاولات الملساء. التي لم تجرؤ السيدة بوليت على انتقاد لمعانها الأخاذ!

لم يحضر السيد دين المجلس العائلي - بسبب مشاغله، ولكن السيدة دين جاءت في عربة جديدة أنيقة المظهر للغاية، يقودها أحد الخدم المحترفين، هذه المظاهر ضرورية أمام صديقاتها في بلدة القديس أوغ. كان السيد دين يرتقي بمكانته الاجتماعية أكثر فأكثر، بينما ينزل السيد توليفر إلى حضيض المجتمع. في منزل السيدة دين كان الأثاث مناسباً لكل مرحلة، وحسب الموضة الدارجة يشترون الأدوات والفرش، وما إلى هنالك هذا التصرف انتقدته السيدة غليك التي اعتبرت سوزان امرأة لاتحافظ على روح عادات عائلة دودسن، وبأنها تتدهور "مثل البقية". من الطبيعي أن نوجه انتقاداتنا إلى أولئك الناس الذين لانخالطهم كثيراً، أكثر مما ننتقد من هم دائماً تحت أنظارنا.

كانت السيدة دين أول من وصل لحضور الاجتماع العائلي، واتخذت مكانها في قاعة الاستقبال الكبيرة، نزلت إليها السيدة توليفر بوجهها الهادئ اللطيف والمكدر قليلاً، وكأنها كانت تبكي: لم تكن امرأة قادرة على ذرف دموعها بسهولة، إلا في اللحظات التي تشهد فيها بيع أثاث المنزل، لكنها أحست أنه من غير اللائق أن تبدو هادئة تماماً في ظل الظروف الراهنة.

هتفت عندما دخلت: "أوه أختاه، ما هذا العالم! يا لهذه المصيبة، أوه حبيبتي!

السيدة دين امرأة ذات شفاه رقيقة، حاولت أن تنطق كلماتها بإيجاز أثناء المناسبات الخاصة، وكانت تكررها أمام زوجها، وتسأله إن كان لفظها مناسباً.

قالت متعمدة: "أجل يا أختي إنه عالم متقلب، لايمكننا التنبؤ اليوم بما سيحصل غداً. لكن من الأفضل أن نستعد لكل الحالات الطارئة، وإن صادفتنا المشاكل، لنتذكر دائماً بأننا لانبتلي بها عبثاً. إنني متأسفة كثيراً لأجلك يا أختي

أطلب منك رجاءً، إن وصف الطبيب الجيلي للسيد توليفر، اعلميني فوراً:

عندئذ سوف أرسله لك عن طيب خاطر. لأنه من الأفضل إتباع نصائح الطبيب

قالت السيدة توليفر، بصوت خافت، وهي تسحب يدها البدينة من يد أختها الرقيقة: "شكراً لك سوزان لكننا لم نتحدث بعد بخصوص الجيلي".

بعد لحظة صمت أضافت: "هنالك دزينة من الكؤوس مخصصة للجيلي، للأسف لن أستعملها أبداً بعد الآن".

عندما نطقت كلماتها الأخيرة أحست برغبة كبيرة بالبكاء، وصوت عجلات العربة غيرت مسار أحاسيسها. وصل السيد والسيدة غليك، وتبعهما على الفور السيد والسيدة بوليت

دخلت السيدة بوليت غرفة الاستقبال وهي تبكي كعادتها، للتعبير عن وجهة نظرها بشكل عام

أما السيدة غليك فقد تركت لفة شعرها دون اهتمام، ولم تهتم لزينتها لكي يتناسب مظهرها مع المناسبة القادمة لأجلها، ولكي تعطي انطباعاً بتواضعها، لدى أختها وولديها.

قال زوجها، الذي لم يشأ أن يتخذ المقعد الأكثر راحة، قبل أن يعرضه عليها :

"سيدة غليك، هلا جلست بالقرب من الموقد؟".

قالت السيدة غليك بأسلوبها الفوقي: "تلاحظ أنني جلست هنا، وانتهيت، سيد غليك بإمكانك أن تشوي نفسك كما تحب".

جلس السيد غليك بمزاج صافٍ وقال: "حسنٌ، وكيف حال ذلك الرجل المسكين القابع في الطابق الأعلى".

قالت السيدة توليفر: "قال الدكتور ترنبول بأن حالته تحسنت هذا الصباح. لقد تعرّف علي، وحدثني، لكنه لم يتعرف بعد على توم - ينظر إلى ذلك الولد المسكين كما لو أنه غريب عنه، على الرغم من أنه في إحدى المرات تكلم عن توم وعن الفرس. يقول الطبيب بأنه لايتذكر إلا الأحداث الماضية، وهو لم يتعرف إلى توم لأنه لايتذكره إلا عندما كان صغيراً، إيه حبيبي، إيه حبيبي الصغير!".

كانت الخالة بوليت تسوي قبعتها بطريقة مأساوية أمام مرآة عمودية مستطيلة، استدارت، وقالت: "أعتقد أنه كان يفكر كثيراً بموضوع المياه، لن يكون على ما يرام إن نهض ثانية، وإن استرد عافيته سيكون مثل طفل بحاجة لمن يرعاه دائماً، تماماً مثل السيد كار، ذلك الرجل المسكين! صار لهم يطعمونه بالملعقة مثل طفل منذ ثلاث سنوات لايستطيع تحريك أعضائه أبداً، وهو الآن يستعمل كرسي متحرك وبحاجة دوماً لمن يساعده وأشك أن بمقدورك الحصول على كرسياً متحركاً يا حبيبتي".

قالت السيدة غليك بلهجة حادة:

"أختي بوليت، أعتقد أننا اجتمعنا هذا الصباح لكي نتشاور بخصوص هذا العار الذي لحق باسم العائلة، ولم نحضر لكي نناقش أمور الغرباء الذين لايمتون إلينا بصلة حسب معلوماتي، فالسيد كار ليس من العائلة، وليس قريب لنا، ولم أسمع به من قبل".

أجابت السيدة بوليت بلهجة متوسلة، وهي تحرك أصابع يدها بعصبية: "أختي غليك، إن أردت التحدث بأسلوب غير محترم عن السيد كار، أتوسل إليك ألا تفعلي هذا أمامي أعرف من هو السيد كار".

أضافت وهي تتنهد: "إنه رجل خفيف الظل بالكاد تشعرين بوجوده".

قالت السيدة غليك ساخطة: "صوفي! من غير اللائق التحدث عن هموم أناس غرباء عنا. لكنني أكرر ما قلته، لم أخرج من منزلي لمناقشة مشاكل الآخرين، أو مناقشة أمرهم، إن كانوا خفيفي أم ثقيلي الظل إن لم نتباحث بكيفية إنقاذ أختنا وأولادها، سوف أعود لمنزلي لايمكن للمرء حل المشاكل دون مساعدة الآخرين، ومن المفترض ألا تتوقعوا بأن أحل المشكلة وحدي". قالت السيدة بوليت: "حسنٌ، جين - ألاحظ أنك لم تسارعي في حل هذه المشكلة مثلي فهذه المرة الأولى التي تأتين فيها إلى هنا، كما علمت حضر صاحب المحكمة إلى المنزل البارحة، وكنت هنا، وشاهدت أشياء أختي الثمينة، وأخبرتها بأنني سأشتري أغطية الطاولة المرقطة أما بالنسبة لإبريق الشاي الفضي فلدي واحد، ولا يلزمني اثنين في المنزل لكن أختي لاترغب بأن يشتريه الغرباء. بالإضافة إلى أنك تعلمين كم كنت مولعة بالقماش الحريري المرقط، ومازلت حتى الآن".

قالت السيدة توليفر المسكينة متوسلة: "أتمنى أن تجدن حلاً لإبريق الشاي الفضي، وأدواتي الثمينة الأخرى يعز علي أن أبيعها، ولكن من الأفضل تقبل الأمر كما هو. كانت ملاعق السكر أولى الأشياء التي اشتريتها".

قالت السيدة غليك:

"وتعلمين أن فرداً واحداً من العائلة غير قادر على شراء جميع الأدوات".

قال السيد بوليت غير راغب بفكرتها: "ليس هذا ما نسعى إليه، عليك أن لاتتوقعي أن تدفع عائلتك ثمناً للأشياء أكثر مما تستحقه فبعض الأدوات أصبح قديم الطراز وغير مناسب للموضة الدارجة".

قالت السيدة توليفر: "أوه حبيباتي، لاتتحدثن عن أشيائي بهذه الطريقة لقد اشتريتها عندما تزوجت، في ذلك الوقت كنتن معي عندما اشتريتها: أعلم

بأنها لم تعجبكما بسبب النقوش المرسومة عليها، لكنني أعجبت بها كثيراً، ورغبت باقتنائها. إنها سليمة كما كانت، لم ينكسر منها أي قطعة، لأنني أغسلها بنفسي لاأريد بيع ممتلكاتي للغرباء، ولا بد أنكن لاتقبلن بذلك

الفناجين والصحون مازالت نظيفة وجميلة، كل من يراها يبدي إعجاباً بها، أظن أنك لاتمانعين بشرائها يا جين، ولن أطالب إلا بالثمن الذي دفعته لقاءها. لدي أيضاً تحف رائعة - أعتقد أن الأخت دين سوف تشتريها، لأنني سمعتك مرة تبدين إعجاباً بها".

قالت السيدة دين بلهجة متعجرفة قليلاً: "حسنٌ، لاأمانع بشراء أفضل الأدوات المميزة. إننا نحتفظ بأشياء كثيرة لالزوم لها في منزلنا".

صرخت السيدة غليك، وقد نفد صبرها بعد طول صمت: "أفضل الأدوات المميزة! حديثك يفقدني أعصابي، تتكلمين عن الأشياء الثمينة، كالفضة والحرير وما إلى هنالك في حين عليك أن تفكري في ظروفك الصعبة يا حبيبتي توليفر، وليس في قيمة الأشياء. فكري في اقتناء غطاء يقيك برد الشتاء، وطعام يكفيك ولديك يجب أن تتذكري، فضل أصدقائك عليك، فإن تحسنت أوضاعك، فهذا لأن الأصدقاء يشترون أشياءك لأجل مساعدتك، وليس لأنهم بحاجة إليها.

إنك الآن في وضع محرج، زوجك قابع في مكانه عاجز عن كسب قوت يومه، وأنت تعتمدين على الأصدقاء في كل شيءأكلمك بصراحة لمصلحتك، فمن الأفضل أن تشعري بمأساوية وضعك، وفظاعة العار الذي جلبه زوجك لعائلتنا. كوني مستكينة خاضعة".

صمتت السيدة غليك، لأن الحديث الطويل عن محاسن الآخرين يرهقها كثيراً.

تعودت السيدة توليفر منذ ولادتها على الخضوع لسيطرة الآخرين، ولاسيما الأخت غليك

قالت السيدة توليفر بتوسل: "إنني واثقة يا أختي، بأنني لم أطلب من أحد شراء إلا الأشياء التي يرغب باقتنائها. حرصاً مني على بيعها ضمن العائلة أبيع ممتلكاتي لأجل تأمين معيشة ولديَّ ما فعله زوجي خطأ بحقنا، وعلينا تحمله الآن".

قالت السيدة غليك بلطف :

"كفى، كفى، لاتجعلي الأمور مأساوية كثيراً. حدث ما حدث، ولا يمكننا الرجوع للماضي كما تقول السيدة غليك، سوف نتباحث فيما بيننا لشراء

الأدوات اللازمة، ربما نقتني أدوات غير ضرورية، وذلك لأننا نملك المال الكافي للإنفاق".

قالت السيدة غليك: "سيد غليك، لو تتكرم، وتفسح لي المجال بالحديث لاأريد من أحد أن يتحدث بالنيابة عني ولكن دعني أسألك، كيف تجرؤ على عرض مساعدتك للآخرين، في حين لاتتلقى أية معونة من أهلك؟ عليك أن تساعد نفسك أولاً، بدلاً من التباهي بجزل العطايا على الآخرين".

عندما طرح موضوع المال، اقتحم السيد بوليت الحديث فجأة:

"لم تتحدثوا عن عائلة موس، والديون التي أقرضها السيد توليفر لأخته أليس من المفترض أن تحضر عائلة موس الاجتماع؟ ينبغي أن يشاركونا في فعل شيء ما. كما أن عليهم تسديد الديون المترتبة".

قالت السيدة دين: "آجل، فكرت في هذا الاقتراح كيف لم يحضر الاجتماع كلاً من السيد والسيدة موس؟ من الحكمة أن يقوما بواجبهما".

قالت السيدة توليفر: "أوه حبيبتي! لم أخبر عائلة موس أي شيء عن السيد توليفر، منزل أخته بعيد من هنا، إنه بين أزقة باسيت الضيقة ولن يعلموا بأمرنا حتى يأتي السيد موس إلى التسوق أستغرب حتى ماغي لم تطلع عمتها على الأمر، بالرغم من تعلقها الشديد بها".

لدى ذكر اسم ماغي، قالت السيدة بوليت :

"حبيبتي، لماذا لايدخل ولداك إلى هنا؟ لابد أن يسمعا اقتراحات خالاتهم وأعمامهم: وماغي - أنا من دفعت نصف تكاليف مدرستها، من المفترض أن تتعلق بخالتها بوليت أكثر من عمتها موس".

قالت السيدة غليك: "برأيي أنه من الأفضل لو حضر الولدان الجلسة منذ البداية حان الوقت ليدركا واقع الحياة التي عليهما خوضها، ويشعرا بالمأساة الحقيقية التي سببها لهما والدهما بسبب خطئه الفظيع".

قالت السيدة توليفر مستسلمة: "حسنٌ، يا أختاه، سوف أذهب لاستدعائهما".

لقد حطمت معنوياتها الآن بشكل تام، ولم تعد تفكر إلا بقيمة الكنوز التي تحتفظ بها في غرفة التخزين، بإحساس لايخلو من اليأس.

صعدت للأعلى لاستدعاء توم وماغي، اللذين كانا في غرفة والدهما.

وعندما نزلت خطرت ببالها أن تطل على غرفة التخزين ثانية، لذلك دخل الولدان غرفة الاستقبال وحدهما.

عندما دخل الأخ والأخت، بدا النقاش حامي الوطيس بين الحاضرين - كان الاثنان كئيبين، بعد ليلة مليئة بالحزن والمعاناة، بدا توم أكثر عاطفية تجاه

خالاتـه وأعمامـه، لكنـه خـشي مقابلتـهم مجـتمعين أمـا بالنـسبة لمـاغي، فقـد أصيبت بكآبـة شـديدة هـذا الـصباح: لم تـنعم إلا بنـوم قـصير عنـد الـساعة الثالثـة، وراودتهـا أحـلام مرهقـة بعـد أن أمـضت سـاعات طويلـة في رعايـة والـدها المـريض، وعنـدما بـزغ الفجـر، أحـست باللامبـالاة بـالرغم مـن أن الـشمس نـشرت أشـعتها الفضية في أرجاء تلك الغرفة المظلمة الباردة!

قطـع دخولهمـا الأحاديـث المهمـة كـان الـسلام كئيبـاً وصـامتاً، حتـى كـسر الـسيد بوليت ذلك الجدار الفولاذي الصامت، وقال عندما اقترب منه توم:

"حـسنٌ، أيهـا الـسيد الـشاب، كنـا نتباحـث بـشأن دراسـتك أعتقـد بعـد كـل هـذا العناء. أصبح بمقدورك مناقشة المواضيع المهمة".

قال السيد غليك بأسلوب تأنيبي لطيف :

"أي، أي، يجـب أن نناقش منـافع كـل هـذه الدراسـة، الـتي كلفـت والـدك أمـوالاً باهظـة، كمـا قـال أبـوك مـرة: "عنـدما تفنـى الأرض، وينفـق المـال، فـالعلم هـو الأفضل".

الآن حـان الوقـت يـا تـوم لكـي تـبين لنـا فوائـد تعليمـك دعنـا نـرَ إن كنـت قـادراً علـى فعـل مـا أفعلـه لقـد جمعـت ثروتـي دون أن أحـصل علـى مـستوى تعليمـي جيـد. لكـنني بـدأت حيـاة صـعبة: كنـت أعـيش علـى العـصيدة والخبـز والجبنـة، ولكـن بعـد ذلـك حـصلت علـى مـستوى معيـشي ممتـاز، ونلـت ثقافـة عاليـة، أعتقـد أنـه مـن الصعب عليك التأقلم مع الوضع الجديد".

قاطعتـه الخالـة غليـك بنـشاط: "لابـد لـه أن يتـأقلم سـواء أكـان الأمـر صـعباً عليه أم لا.

الآن ليس باليد حيلة، عليه ألا يتوقع من أصدقائه أن يشجِّعُوهُ على الكسل والعيش برفاهية دون تعب: يجب أن يتحمل عواقب سوء تصرف والده، ويسعى جاهداً للعمل بنشاط كما يجب أن يكون شاكراً لخالاته وأعمامه لقاء ما يفعلونه من أجل أمه وأبيه، وإنقاذ العائلة من التشرد والفاقةو أخته أيضاً "، تابعت السيدة غليك وهي تحدق بقسوة بماغي، التي جلست على الأريكة بجانب خالتها دين المفضلة لديها لأنها والدة لوسي، "عليها أيضاً أن تتعلم التواضع والعمل بجد، لأنها لن تجد بعد الآن خادمة ترعاها، وتلبي طلباتها - عليها أن تتذكر هذا جيداً. ويجب عليها القيام بالأعمال المنزلية واحترام خالاتها ومحبتهن تقديراً لمعروفهن".

كـان تـوم لايـزال واقفـاً أمـام الطاولـة الـتي وضـعت وسـط المجموعـة لم تَبْـدُ عليـه أي مـن علامـات الخـضوع والاسـتكانة، تـورَّدَ وجهـه، وكـان مـستعداً ليقـول بلهجـة محترمة شيئاً ما قد فكر به مسبقاً، عندما فُتح الباب ودخلت أمه

أمسكت السيدة توليفر المسكينة بيدها صينية صغيرة، "وضعت عليها إبريقها الفضي، وعينة من الفناجين والصحون وملاعق السكر. قالت وهي تنظر إلى السيدة دين وهي تضع الصينية على الطاولة :

"انظري إليها يا أختاه، اعتقد أنها ربما ستعجبك، انظري إلى إبريق الشاي، إنه نموذج جيد: بإمكانك استعماله يومياً أو مَنْحُهُ للوسي عندما تتزوج. أشعر بالأسف الشديد لأنني مضطرة لبيعه "، قالت المرأة المسكينة، التي بدأ قلبها يخفق بشدة، وتنهمر دموعها بغزارة: "اشتريته عندما تزوجت، له ذكرى غالية على قلبي".

قالت الخالة بوليت وهي تهز رأسها بحزن عميق :

"آه، حبيبتي، حبيبتي! من المؤسف أن تفكري بالماضي أيضاً. إن حظك سيء للغاية يا حبيبتي لكنك لن تبيعي إبريق الشاي فقط، بل جميع الأدوات من ملاعق وصحون وكل شيء".

قالت السيدة غليك :

"هذا عار لحق بالعائلة، ولا يمكن إصلاحه حتى بشراء أباريق الشاي. العار هو أن واحدة من العائلة تزوجت برجل جلب لها الفقر والمذلة. واضطرها لبيع كل ما تملك، ولا نستطيع إخفاء أمر كهذا عن الناس".

نهضت ماغي على الأريكة عندما أهين اسم والدها، انتبه توم إليها، تورد وجهه، وحاول منعها من الكلام: "اهدئي ماغي "، قال لها بلهجة متسلطة وهو يدفعها جانباً. تصرف الغلام بحكمة، وحاول التحدث بطريقة مهذبة، بالرغم من أن صوته كان يرتعش كثيراً.

قال وهو ينظر مباشرة إلى السيدة غليك :

"إذاً، خالتي، إن كنت تعتقدين بأننا سنجلب العار للعائلة ببيع ممتلكاتنا، أليس من الجدير بك أن تتداركي الأمر؟ ثم إن كنت أنت والخالة بوليت "، تابع حديثه وهو يحدق بالخالة بوليت: "تفكران بتوزيثي وماغي، أي من ممتلكاتكما، أليس من الأفضل أن تتكرما علينا الآن بها، وتسددا الديون المترتبة علينا، وتنقذا ماما من التشرد؟".

صمت لبضع لحظات، بدا الجميع، بما فيهم ماغي، مندهشين من لهجة توم الرجولية الحكيمة كان السيد غليك أول من استهل الحديث :

"أي، أي، ما هذا أيها الشاب! لديك لسان حاذق. ونسيت الفوائد، لدى خالاتك حصة من المال قدرها خمسة بالمئة، وسوف يخسرنها إذا قدمن لك المال الآن - عليك أن تفكر في هذا جيداً".

أجاب توم على الفور:

"بمقدوري العمل بجد لتسديد الفوائد كل عام، سوف أعمل أي شيء حتى أنقذ ماما من التشرد".

قال السيد غليك بإعجاب: "حسنٌ تفعل!".

كان السيد غليك يسعى لاستدراج توم في الحديث، أكثر من إبداء الإعجاب به، لكنه حصل على نتيجة سيئة بإثارته عصبية زوجته.

قالت بسخرية وغضب: "حقاً سيد غليك! من دواعي سروري أن تبدد أموالي هنا وهناك، وتدَّعي بأنك تحافظ عليها. هذه أموالي، قدَّمها لي والدي كهدية، وليست أموالك يا سيد غليك، وأنا بدوري ادخرت بعض المال، وأضفته لأموالي الخاصة ولا أود أن أبعثرها كيفما كان أستطيع أن أغير رأيي، وأكتب وصية، ولا أترك بعد مماتي إلا مبلغاً زهيداً قدرُه مئتان أو ثلاثمائة جنيه إنني حريصة جداً على أموالي، وهذا من حقي أختي بوليت، ربما تملكين الخيار في التصرف بأموالك كيفما تشائين، وتسمحين لزوجك بأن يسرق منك الأموال التي منحك إياها، لكنني حرة أيضاً في تصرفاتي، ولن أسمح لأحد بأن يسرق مالي".

قالت السيدة بوليت: "سيدة جين، كم أنت قاسية القلب! أنا واثقة أن أعصابك متعبة وبحاجة للراحة إنني أشعر بالأسف الشديد على أختي الحبيبة وولديها - أفكر فيهم طوال الليل، وبالكاد أستطيع النوم في هذه الليالي الموحشة ولاسيما أنني أشرب نوعاً جديداً من الدواء: ولكن لافائدة من كل ما أفعله إن لم تشعري بأحاسيسي".

قال السيد غليك: "لماذا لابد أن نأخذ أمراً بعين الاعتبار: إذ لافائدة من تسديد هذه الديون والاحتفاظ بالأثاث، بينما ديون القضية متراكمة جداً، وسوف تكلف المال الكثير، وأكثر من هذا تم حجز الأرض وجميع مخازن البضائع، هذا ما علمته من المحامي غور. علينا الاحتفاظ بأموالنا وعدم تبديدها بسهولة ومساعدة هذا الرجل المسكين، بدلاً من إنفاقها على الأثاث لأنه غير قادر على تناول أو شرب أي شيء. كنت متسرعة يا جين عندما حكمت عليّ كما لو أنني غير منطقي".

قالت زوجته بنبرة عالية بطيئة مؤكدة، وهي تحني رأسها باتجاهه بطريقة جادة: "إذاً، تكلم بشكل لائق يا سيد غليك!".

تغيرت ملامح توم بعد هذه المحادثة، وارتعشت شفته، لكنه صمم على الصمود. سوف يحافظ على رباطة جأشه، ويتصرف برجولة أما ماغي على العكس، فبعد ابتهاجها بخطاب أخيها، تأجج سخطها أكثر. كانت والدتها واقفة بجانب توم ومتشبثة بذراعه منذ أنهى حديثه الأخير: أجفلت ماغي فجأة، ووقفت أمامهم، وقد التمعت عيناها مثل عيني لبوة شرسة صغيرة.

انفجرت قائلة :

"لماذا جئتم إذاً؟ لتتحدثوا وتتدخلوا بشؤوننا، وتوبخونا وتهينونا! لماذا جئتم، إن لم تكن لديكم أية نوايا في مساعدة ماما المسكينة - أختكن - إن لم تكن لديكم أية مشاعر تجاهها عندما تلم بها الأزمات، ولا تكدروا أنفسكم في إنقاذها وتخفيف العبء عليها؟ ابتعدوا عنا، دعونا وشأننا، ولا تنتقدوا أخطاء أبي - هو أفضل منكم جميعاً - لطالما كان رجلاً شهماً ونبيلاً - ولو تعرض أحد منكم لأزمة ما لما تردد في مساعدته توم وأنا لانريد منكم فضلاً، ولا نريد أموالكم إن لم تساعدوا ماما. نفضل أن لانأخذ منك أي شيء! سوف نعيش في غنى عنكم".

بعد أن أفرغت ماغي ما في جعبتها أمام خالاتها وأعمامها، بقيت جاثمة في مكانها، بعينين سوداوين كبيرتين تتوهج منهما شرارة الغضب والاستياء منهم جميعاً، وكأنها كانت على استعداد لتحمل جميع العواقب.

ذعرت السيدة توليفر، بعد أن حدث شيء ما استثنائي، ذلك الانتهاك الصارخ أمام أخواتها، لم تتصور كيف يمكن أن تسير الأمور بعد ذلك كان توم متضايقاً، إذ لم تعد هنالك فائدة من كلامه صمتت الخالات بدهشة لبضع لحظات اكتفين في البداية بإرسال نظرات المقت والاشمئزاز التي أغنت عن كل جواب محتمل.

قالت السيدة بوليت:

"لن تنتهي مشاكلك يا حبيبتي، طالما أن لك ابنة بهذه الجرأة، إنها ناكرة للمعروف هذا فظيع. سوف أستغني عن كرمي، ولن أسدد نفقات دراستها، فهي أسوأ مما سبق".

قالت السيدة غليك :

"هذا ما توقعته ولطالما حذرتكم ربما يندهش الجميع من هذا، ولم أفاجأ. قلت لكم مراراً وتكراراً - منذ سنين مضت - علموا على كلامي، لافائدة ترجى من هذه الطفلة إنها لاتشبه عائلتنا في شيء. والآن بعد أن التحقت بالمدرسة، لم يتغير فيها شيء، من ناحيتي لدي مبرراتي بأن لاأدفع لها شيئاً من نقودي".

قال السيد غليك: "هيا، هيا، دعونا لانضيع وقتنا في الثرثرة - لنذهب إلى أعمالنا. توم، خذ القلم والحبر -".

بينما كان السيد غليك يتكلم، ظهرت هيئة سوداء طويلة تسرع خلف النافذة.

قالت السيدة توليفر: "إنها السيدة موس إذاً لقد وصلتها الأخبار السيئة". وخرجت لتفتح الباب، لحقتها ماغي بشوق.

قالت السيدة غليك: "هذا من حسن الحظ، يمكنها أن تساهم في شراء الأشياء التي ستباع هو أخوها ومن العدل أن تقوم بمساعدته".

بدت السيدة موس مضطربة كثيراً، بحيث لم تقاوم رغبة السيدة توليفر، التي استدعتها بشكل أوتوماتيكي للدخول إلى ردهة الاستقبال المكتظة بعدد كبير من الأشخاص، حتى إن الموقف كان محرجاً بالنسبة لها، ولاسيما في لحظات الألم الأولى المرافقة لوصولها. كان التناقض واضحاً بين تلك المرأة الطويلة القامة، الرثة الملابس، ذات الشعر الداكن وبين الأخوات دودسن.

دخلت وقد بان جلياً أنها ارتدت شالها وقبعتها بسرعة، فلحظات الألم المفاجئ لاتنتظر أحداً حتى يرتب هندامه!

تشبثت ماغي بذراع عمتها، التي لم تلحظ وجود أحد إلا توم، الذي هرعت نحوه بعاطفة جياشة وأمسكت بيده :

"أوه، ولداي الحبيبان إن عمتكما مسكينة، وليست قادرة على فعل شيء لكما. كيف حال أخي المسكين؟".

قالت ماغي:

"يعتقد الدكتور ترنبول بأنه يتحسن تفضلي بالجلوس، عمتي الحبيبة، لاتتضايقي".

قالت السيدة موس، مستجيبة لدعوة ماغي التي قادتها إلى الأريكة، ولكنها بدت أنها لاتزال غير مكترثة لوجود الحاضرين.

"أوه طفلتي الحبيبة لقد استقرضنا ثلاثمائة جنيه من أموال أخي، وهو الآن في حاجة إليها، وجميعكم بحاجة إلى النقود، يا للقدر التعيس!ـــ ومع ذلك علينا أن نبيع بضاعتنا حتى نسدد الدين، وأطفالي المساكين - إنهم ثمانية، وأصغرهم بالكاد يستطيع نطق الكلمات بوضوح. أحس وكأنني نهبت أخي لكنني واثقةـــ

قاطعتها السيدة توليفر وهي تنشج بكاءً: "ثلاثمائة جنيه! أوه عزيزتي، أوه عزيزتي".

كانت السيدة توليفر على علم بأن زوجها أقرض مبلغاً من المال لأخته، لكنها لم تكن تدري مقداره، لذلك فوجئت بالحقيقة وأحست بأنها "غافلة عن أمرها".

قالت السيدة غليك :

"يالهذا الجنون! رجل مسؤول عن عائلة! ليس لديه الحق في إقراض أمواله بهذه الطريقة، ودون الحصول على ضمان!".

فك صوت السيدة غليك، انتباه السيدة موس من أسره، نظرت إليها وقالت: "أجل هناك ضمان: أعطاه زوجي ورقة تثبت ذلك لسنا من أولئك الناس الذين ينكرون حق الآخرين، فما بالك إن كان أخي إننا ننوي تسديد الديون، عندما تتحسن الأحوال".

قال السيد غليك بلطف: "حسنٌ، ولكن نريد حلاً الآن أليس بمقدور زوجك تسديد المبلغ بطريقة ما؟ فالسيد توليفر مفلس تماماً. وزوجك لديه مخزون بضائع: من الأفضل أن يؤمن المبلغ بأية وسيلة- حقاً، أشعر بالأسف لأجلك سيدة موس".

"أوه سيدي، أنت لاتعرف أن سوء الحظ يلازم زوجي وبضاعته فالمزرعة لاتدرُ محصولاً جيداً، والقمح بعناه كله، ومنزلنا بالإيجار - نحن نبذل جهدنا لتسديد المبلغ إنني مستعدة للعمل حتى منتصف الليل ولكن أطفالي بحاجتي، أربعة منهم صغار لازالوا بحاجة ماسة لرعايتي".

همست ماغي، التي أمسكت بيد عمتها موس: "لاتبكي هكذا يا عمتي - لاتضطربي".

سألت السيدة توليفر التي مازالت تحس "بأنها آخر من تعلم "عن أمور زوجها: "هل أعطاك السيد توليفر النقود دفعة واحدة؟".

قالت السيدة موس وهي تفرك عينيها، وتحاول أن تضبط دموعها :

"لا، على دفعتين كانت الدفعة الأخيرة بعد مرضي السيء من انقضاء أربع سنوات كانت أمورنا على أسوأ حال، وكُتبت ورقة جديدة مقابل ذلك الدين ماذا أفعل حيال هذا الحظ السيء والمرض المرهق؟ لاأملك شيئاً في الحياة إلا أحزاني ومتاعبي!".

قالت السيدة غليك بتصميم: "أجل سيدة موس، عائلتك تعيسة الحظ جداً، ولكن ما يثير الشفقة أكثر هي أختي".

قالت السيدة موس، وهي تنظر إلى السيدة توليفر: "حالما علمت بالخبر السيء، جئت بالعربة فوراً. لو أخبرني أحد منذ البداية، لما ترددت لحظة في القدوم كنت منشغلة بالأولاد وهمومهم، لكني وزوجي نسعى دوماً لتأمين المبلغ "، أضافت وهي تنظر إلى السيدة غليك: "وسوف ندفع المبلغ لقد اعتدنا على الهموم والمشاكل، ولا نسعى للمزيد الأولاد فقط هم من يشغلونني".

قالت السيدة غليك: "لماذا، ما يجب أن تفكري به، ويشغلك هو تسديد المبلغ أحذرك سيدة موس، إذا كان السيد توليفر قد أفلس تماماً، وحصل على مذكرة تثبت أنه أقرضكم مبلغ ثلاثمائة جنيه، فعليك دفعها فوراً: وسوف يحدد موعد لتسديد الدين".

قالت السيدة توليفر مفكرة بالإفلاس، وليس باهتمام السيدة موس بها: "أوه عزيزتي، أوه عزيزتي!".

كانت السيدة موس المسكينة تصغي بخضوع تام، وهي ترتعش خوفاً وحزناً، بينما حدقت ماغي بكآبة حائرة إلى توم لترى فيما إذا كان قد فهم هذه المعضلة.

أما توم فكان يحدق بغطاء الطاولة وهو شارد الذهن.

أكمل السيد غليك حديث زوجته: "كما قلت سابقاً، السيد توليفر مفلس تماماً، وحتى تسديد الثلاثمائة جنيه لن يعينه كثيراً في هذه المحنة الصعبة لانعلم ربما استعاد عافيته، ولو بشكل جزئي، وربما أصبح عاجزاً. إنني متأسف جداً إن كنت أقسو عليك سيدة موس - ولكن هذا هو رأيي، من الأفضل دفع المبلغ في موعده لايجب عليك أن تؤاخذيني على كلامي، لأنني لاأقول إلا الحقيقة".

قال توم، وقد انتهى فجأة من تأمل غطاء الطاولة: "عماه، أعتقد أنه ليس من الحق أن تدفع عمتي المبلغ، إلا بناءً على رغبة والدي، أليس كذلك؟".

دهش السيد غليك، وتردد قليلاً قبل أن يقول :

"لماذا يا توم؟ إذاً أنت تعلم بأنه أتلف المذكرة التي تثبت إقراض المبلغ؟ علينا أن نبحث عنها: ما الذي جعلك تعتقد بأن دفع المبلغ سيكون خارجاً عن إرادة والدك؟".

قال توم، وقد توردَ وجهه، وحاول التكلم بحزم، بالرغم من خوفه الصبياني: "لماذا، أذكر تماماً قبل أن ألتحق بمدرسة السيد ستيلنغ، قال لي بابا في إحدى الليالي، عندما كنا جالسين معاً قرب الموقد، وما من أحد غيرنا في الغرفة ـــ".

تردد توم قليلاً، ثم استأنف حديثه

"قال لي شيئاً عن ماغي، ثم قال، "سأكون أخاً طيباً لأختي، على الرغم من أنها تزوجت ضد إرادتي - لقد أعطيتها النقود، ولن أفكر أبداً في استردادها منها: أفضل أن أخسر المال ولا أخسر أختي لن يحلَّ الفقر بأولادي بسبب هذا المبلغ "، ووالدي الآن طريح الفراش، وغير قادر على التعبير عما يجول في خاطره، لذلك لن أقوم بأي عمل مخالف لإرادته".

قال السيد غليك، الذي أسعفته مشاعره الطيبة لمسايرة رغبة توم، لم يستطع أن يتفادى اشمئزازه المعتاد لمثل هذا الطيش الذي لايكفل أية ضمانات للإنسان :

"حسنٌ يا بني، ولكن ينبغي علينا أن نتخذ الضمانات اللازمة، ونبحث عن

المذكرة، ونحتفظ بها. لاأحد يعلم ماذا سيحدث في الغد، افترض أن والدك أُفْلِس".

قاطعته زوجته بعنف: "سيد غليك فكر فيما تقوله جيداً. أنت تضع نفسك في موقع غير مناسب وتتدخل بشؤون الآخرين لاتكن متهوراً، وإلا تحملت نتائج خطئك".

قال السيد بوليت الذي أسرع في ابتلاع سكاكره لكي يعبر عن دهشته: "هذا ما لم أسمع به في حياتي كلها! تحتفظ بالمذكرة! أعتقد أن أي شخص سيدينُكَ ويخبر الشرطة عنك".

قالت السيدة توليفر: "حسنٌ، ولكن إن كانت قيمة المذكرة باهظة إلى هذا الحد، ألا نستطيع أن ندفع المذكرة، ونحتفظ بأثاث المنزل؟ نحن لانريد أن نخلق خلافاً بين عمك وعمتك موس، ولن نغضب والدك عندما يتحسن".

لم تفكر السيدة توليفر في السؤال الذي طرحته

قال السيد غليك: "بوه، بوه، بوه! النساء ليست لديهن معرفة بهذه الأمور. لاشيء يشكل ضماناً للسيد والسيدة موس سوى إتلاف تلك المذكرة".

قال توم بحماس: "إذاً آمل أن تساعدني في هذا الموضوع إن لم يتحسن والدي، سأشعر بالاستياء لمجرد التفكير بفعل أي عمل خارج عن إرادته وإنني واثق من أنه يتمنى لو أتذكر دائماً توصيته في تلك الليلة يجب عليّ أن أطيع والدي".

حتى السيدة غليك لم تستطع إلا أن توافق ضمنياً على كلام توم: أحست بأن دم عائلة دودسن يجري في عروقه أما ماغي فقد كان بودِّها لو تقفز فرحاً، وتعانق توم، غير أن عمتها موس متعتها من ذلك عندما نهضت نحو توم، وأمسكت بيده، وقالت بصوت مخنوق :

"حبيبي، طالما أن الله معك، فلا تكترث لما يحصل وإذا طلب والدك النقود، ثق تماماً بأنني والسيد موس سنسدد المبلغ، حتى ولو كان دون ضمان سوف نقوم بما يمليه علينا ضميرنا، وإذا كان أولادي لم يحظوا بمعيشة هانئة في هذه الحياة ،يكفيهم أن لهم أباً وأماً شريفين".

قال السيد غليك بعد أن أمعن التفكير في كلام توم :

"حسنٌ، لنتباحث بأمر الدائنين، ونفترض بأن والدك كان مفلساً. لقد فكرت في هذا لأنني حتى أنا كنت دائناً، وشهدت الكثير من أساليب الخداع إن كان والدك ينوي إعطاء النقود لعمتك، وعدم المطالبة بديونه، فكأنه يساهم في الاستغناء عن المذكرة التي تؤمن له الضمان، قبل أن يجد حلاً لقضيته البائسة

إنــه يقــرر بــذلك أن يعــيش دائمــاً في فقــر مــدقع. ولكــن هنالــك الكــثير مــن الأمــور لاتستطيع أن تفهمها الآن يا بني، أضاف السيد غليك، وهو يحدق بتوم مؤنباً :

"عنــدما يتعلــق الأمــر بأعمالــك، ربمــا تــضطر لأخــذ طعــام عــشاء رجــل مــا وتقديمه لرجل آخر على الفطور. أشك بأنك تفهم ما أقول؟".

قــال تــوم بحــزم: "أجــل أفهــم مــا تقــول. أعلــم بأنــه عنــدما أســتدين مبلغــاً مــن أحــد الأشــخاص، فلــيس لــدي الحــق في إعطائــه لــشخص آخــر. والــدي كــان علــى حــق عندما قرر إعطاء النقود لعمتي قبل أن يقع في شرك الديون".

قــال الــسيد غليــك بــصراحة: "حــسنٌ فعلــت يــا بــني! لاأعتقــد بأنــك ولــد حــاد جــداً. ولكــن ربمــا تخلــص والــدكَ مــن المــذكرة. دعنــا نــذهب، ونبحــث عنــها في الخزانة".

همست ماغي: "إنها في غرفة بابا. لنرافقهما أيضاً يا عمتي".

الفصل الرابع

تلاشي بريق أمل

بعد حالة التشنج التي تعرض لها السيد توليفر، ثم سقوطه عن ظهر حصانه، أصبح الآن غير مبال في أغلب الأوقات، حتى أنه لم يشعر بدخول الحشد إلى غرفته كان مستلقياً بهدوء تام، مغمضاً عينيه طوال هذا الصباح، حتى أن ماغي أخبرت عمتها موس بأنه يجب عليها توقع الأسوأ، وربما لن يتعرف عليها.

دخلوا بهدوء تام، جلست السيدة موس عند مقدمة السرير، بينما اتخذت ماغي مكانها القديم على السرير، ووضعت يدها على يد والدها، دون أن يشعر بها.

أما توم والسيد غليك فقد انشغلا بالبحث عن مفتاح صندوق قديم مصنوع من خشب السنديان، كان قد أحضره توم من مكتب والده نجحا في فتح الصندوق - الذي وضعه توم قبالة سرير والده، دون أن يثير ضجة.

همس السيد غليك: "هنالك صندوق صغير من القصدير، ربما وضع المذكرة فيه ارْفَعْهُ يا توم، أما أنا فسوف أبحث في هذه الصكوك العقارية - أعتقد أنها صكوك ملكية المنزل والطاحونة - وسأرى ماذا يوجد تحتها".

بينما كان السيد غليك يبحث في المخطوطات الورقية، ويسحب الصندوق إلى الخلف قليلاً، وقع غطاء الصندوق الثقيل، وأصدر دوياً عالياً، ضجّ في كل أرجاء المنزل.

ربما كان لذلك الصوت وقعٌ في النفس أكثر من مجرد الاهتزاز القوي الذي أصدره، وأثر في رجل منهك القوى غير مبال لما يحدث حوله ذلك الصندوق يخص والده، وجدّه وهو مقدس بحيث لايمكن لأحد لمسه لقد حُفظ داخل غرفة موصدة الأبواب ونوافذها محكمة الإغلاق في اللحظة ذاتها عندما توجهت كل العيون نحو مصدر الصوت، أجفل وحَدَّقَ بالصندوق، كانت المخطوطات الورقية بيد السيد غليك، بينما أمسك توم بصندوق القصدير، مدركاً أن الجميع ينظر إليه.

قال متسائلاً بلهجته الحادة: "ماذا تنوي أن تفعل بهذه الصكوك العقارية؟ تعال إلى هنا يا توم ماذا ستفعل بصندوقي هذا؟".

أطاعه توم وهو يرتعش: كانت تلك المرة الأولى التي يتعرف فيها والده عليه،

ولكن بدلاً من الكلام، كان أبوه يحدق بارتياب إلى السيد غليك والصكوك التي بيده.

قال بحدة: "ماذا يحدث هنا؟ لماذا تفتشان في أوراقي؟ هل سيطر واكيم على كل الممتلكات؟ لماذا لم تخبراني بما تنويان فعله؟".

قاطعه السيد غليك، الذي تقدم باتجاه السرير وقال بلطف: "لا، لا يا صديقي توليفر. لم يسيطر أي شخص بعد على ممتلكاتك. جئنا إلى هنا فقط لنبحث في الصندوق. كما تعلم أنت مريض وبحاجة إلى رعاية، لذلك قمنا بالاهتمام بأمورك العملية قليلاً. لكننا نأمل أن تسترد عافيتك فوراً وتقوم بأعمالك بنفسك".

نظر السيد توليفر حوله مفكراً - نظر إلى توم، والسيد غليك، وماغي، ثم بدا فجأة أنه قد أحس بوجود شخص ما يجلس عند مقدمة السرير، استدار بحدة، ورأى أخته.

قال بنبرة عاطفية وحزينة :

"إيه، حبيبتي! ماذا! هل أنت هنا؟ كيف تركت الأولاد وحدهم؟.

قالت السيدة موس الطيبة بحذر، حتى لاتثير مشاعره: "أوه، أخي، الحمد لله أنك استعدت صحتك - اعتقدت بأنك لن تتعرف علينا ثانية".

قال السيد توليفر بقلق وهو ينظر إلى ماغي: "ماذا! هل تعرضت لصدمة؟".

قال السيد غليك: "لقد سقطت عن ظهر حصانك - أصبت ببعض الرضوض - هذا كل ما في الأمر. نأمل أن تستعيد عافيتك في الحال".

أمعن السيد توليفر النظر في أغطية السرير، وظل صامتاً مدة دقيقتين أو ثلاث دقائق.

قال بصوت منخفض وهو ينظر إلى ماغي بسرعة: "إذاً لقد تلقيت الرسالة، يا صغيرتي؟".

"أجل، بابا، قالت ماغي بعاطفة جياشة. أحست وكأن والدها أُنقذ من موت محقق، وعاد إليها سليماً معافى.

"أين أمك؟ "، سأل وهو يتقبل قبلتها المشتاقة باستكانة وهدوء.

"إنها في الطابق الأرضي مع خالاتي: هل أستدعيها؟".

"أي، أي يا حبيبتي: المسكينة!، استدار إلى توم بينما غادرت ماغي الغرفة. إذا مت عليك أن تهتم بهما يا توم، أعلم بأنك جدير بالمسؤولية ولكن عليك أن تسدد ديون الجميع. وتذكر - هنالك خمسون جنيه من حق لوكي، أعطاني إياها لفترة قصيرة من الزمن لكي أستثمرها، عليك أن تدفعها قبل كل الديون".

هـز الـسيد غليـك رأسـه بـشكل لاإرادي، بـدا مهتمـاً بالقـضية أكثـر مـن الـسابق، لكن توم قال بثبات :

"حاضـر بابـا، ولكـن ألم تحـصل علـى مـذكرة ضـمان مـن عمـتي مـوس. مقابـل الثلاثمائة جنيه؟ جئنا لنبحث عنها. ماذا ترغب أن تفعل بشأنها يا بابا؟".

قال السيد توليفر:

"آه! إنـني سـعيد باهتمامـك يـا بـني ز لطالمـا كنـت متـساهلاً بـشأن المـال. عنـدما يتعلـق الأمـر بعمتـك إذا كـان بمقـدورها تـسديدها، فعليـك أن لاتخـسر أموالـك ولكنها على الأغلب عاجزة عن دفعها، تذكر، المذكرة في ذلك الصندوق الصغير!".

أضاف السيد توليفر وهو يستدير نحو أخته: "طالما كنت طيباً معك، يا حبيبتي، كما تعلمين، لقد غضبت منك كثيراً عندما تزوجت موس رغماً عن إرادتي".

في هـذه اللحظـة عـادت مـاغي وأمهـا، الـتي كانـت مهتاجـة فرحـاً بعـد أن سمعـت بأن زوجها استرد وعيه ثانية.

قال وهي تقبله :

"حـسنٌ، حبيـبتي، يجـب أن تـسامحيني إذا سـاء وضـعك أكثـر ممـا توقعـت. ولكـن هذا ليس خطئي إنه خطأ القانون "، أضاف بغضب :

"إنـه خطـأ الأنـذال! تـذكر هـذا يـا تـوم: عنـدما تـسنح لـك الفرصـة، لاتـتردد أبـداً في الاقتـصاص مـن واكـيم فـإن لم تفعـل، فأنـت لاتنتفـع لأي شـيء يـا بـني ربمـا اسـتطعت أن تجلـده بـسوط حـصانك ‒سـيرفع ضـدك دعـوى قـضائية - فالقـانون صنع لخدمة الأنذال".

تحركـت مـشاعر الـسيد تـوليفر، وتـورَّدَ وجهُـهُ غـضباً: أراد الـسيد غليـك أن يقـول شيئاً لكن السيد توليفر منعه عندما تحدث ثانية إلى زوجته :

"سـوف يبـذلون جهـدهم لكـي نـدفع لهـم جميـع الـديون، ومـع ذلـك اتركـي أثـاث منزلـك يـا حبيـبتي، ولا بـد أن أخواتـك سـوف يفعلـن شـيئاً مـا لأجلـكـــوتـوم سـوف يكـبر ويـصبح شـاباً بـالرغم مـن أنـني لاأسـتطيع التنبـؤ بمـا سـيفعلـــلكـنني أديـت واجـبي تجاهـه قـدر المـستطاعـعلمتـه لكـي يحـصل علـى ثقافـة جيـدةـــأمـا فتاتي الصغيرةـــسوف تكبر وتتزوجـــولكن، يا لها من حكاية بائسة!".

بعـد أن نطـق هـذه الكلمـات الأخـيرة بكـثير مـن الجهـد، انـتكس الرجـل المـسكين ثانية، وفقد الوعي.

هـذه المرة بـدا المـوت يقـترب منـه أكثـر، هـذا مـا أشـارت إليـه كلماتـه الأخـيرة، ولكـن مـع مـوت تـوليفر المـسكين لم يكـن هنالـك قفـزة نوعيـة، بـل حـصل انحـدار طويل تحت ظلال كثيفة.

أُرسل في طلب الدكتور ترنبول فوراً، وعندما سمع بما حدث، قال بأن هذا الشفاء الكامل، على الرغم من أنه مؤقت، كان باعثة أمل، وقد أثبتت حالته بأن الشفاء النهائي مستحيلاً مهما استعصت الحالة!

ولكن بدا واضحاً أن توم ركز اهتمامه على نقطتين أساسيتين - الأولى هي ضرورة إتلاف مذكرة عمه موس، والثانية هي دفع أموال لوكي في أقرب وقت وليس من سبيل لحل المشكلة إلا باستعمال ما ادخره وماغي من أموال في البنك.

و الآن تدرك عزيزي القارئ، بأن هنالك مواضيع، يستوعبها توم بشكل أسرع بكثير من استيعابه للتركيبات الكلاسيكية، أو البراهين الرياضية.

الفصل الخامس

إحباط توم

في اليوم التالي، عند الساعة العاشرة، شق توم طريقه إلى بلدة القديس أوغ ليزور عمه دين الذي كما قالت خالته كان سيأتي إلى المنزل في الليلة الماضية لحضور الاجتماع العائلي اعتقد توم بأن عمه دين هو الشخص المناسب لإسداء النصيحة لأنه رجل ناجح في عمله، وله مكانته الاجتماعية المرموقة.

كان صباح ضبابي، معتمٌ باردٌ، ينذر بهطول المطر - إنه أحد الصباحات التي يلجأ فيها حتى الناس السعداء إلى مأواهم أما توم فقد كان تعيساً جداً: أحس بالخضوع، وبأن المشقات المتوقعة تنتظره لتحبط من كبريائه واعتداده بنفسه، وعلى الرغم من تصميمه على أداء واجبه تجاه والده، إلا أن ذلك التصميم اختلط بمشاعر سخط وازدراء من المتعذر السيطرة عليها. لأن سوء الحظ رافقه بسبب نتائج أعمال والده، واللجوء إلى القانون لحل مشاكله.

بالفعل كان يلوم والده على تصرفاته، وخالاته وأعمامه كانوا على حق عندما قالوا له بأن والده مخطئ لكنه اعتقد أنه منواجب خالاته مساعدة أمه قدر ما يستطعن، ولم يشعر بالاستياء منهن، كما فعلت ماغي لأنهن لم يبدين كرماً أو تعاطفاً مع أبيه وأمه.

لم تكن هنالك أية دوافع لدى توم تجعله يتوقع أن يقدم أقاربه نقودهم عن طيب خاطر. إذ ما الذي يضطر الناس إلى إعطاء أموالهم بسخاء إلى أولئك الذين لم يعرفوا كيف يحافظون على أموالهم الخاصة؟

رأى توم أنه في هذه المعاملة القاسية، عدالة لهم، لكنه كان على ثقة بأنه لايستحق تلك القسوة أبداً. كما ويصعب عليه كثيراً أن يتحمل عاقبة تصرفات أبيه الجريئة، لكنه ما كان ليشكو أو يتذمر ويبحث عن أخطاء الآخرين، لأنه من الطبيعي أن لايمهدوا له الطريق لتصبح سهلة أمامه، بل عليهم إيجاد فرصة عمل تؤمن له مستوى معيشياً كريماً.

بنى المسكين توم آمالاً كبيرة بالحصول على مأوى وهو سجين هذا الطقس القارس الممطر، وسط ضباب ديسمبر الذي بدا له مجرد جزء من مشاكله البيتية

في عمر الست عشرة سنة، يكون العقل ميالاً للواقعية التي لاتخلو أبداً من أحلام اليقظة

وتـوم بـدوره، رسـم في مخيلتـه مخططـات مـستقبلية مزدهـرة لكنـه صـمم علـى الاعتمـاد علـى نفـسه في شـق طريقـه الـوعرة كـان يعلـم بـأن الـسيد غليـك والـسيد ديـن فقـيرا الحـال وفي أول حياتهمـا: لم يرغـب بادخـار المـال بـشكل بطـيء والتقاعـد مبكـراً بعـد تحـصيل ثـروة معقولـة مثـل عمـه غليـك، لكنـه كـان يطمـح ليـصبح مثـل عمـه الـسيد ديـن - بـأن يحـصل علـى مركـز مرمـوق في شـركة مـا، ويكـبر فيهـا بـسرعةلم يكـن هنالـك تواصـل بـين عائلتـه وعائلـة الـسيد ديـن منـذ آخـر ثـلاث سنوات، ممـا جعلـه متحمـساً أكثـر مـن التقـرُّب مـن عمـه ديـن. كـان واثقـاً مـن أن عمـه الـسيد غليـك لـن يـشجعه علـى القيـام بمـشروع كـبير، لـذلك فكـر في طـرح الفكـرة الملحـة علـى الـسيد دينلقَد سمـع والـده يقـول، منـذ زمـن بعيـد، بـأن ديـن رجـل نـاجح في عملـه، ويعـرف كيـف يتعامـل بلباقـة مـع الـضيوف، ممـا يجعـل الآخـرين سـعداء بـأن يـشاركوه العمـل ويقـدِّموا لـه أسـهماً في شـركاتهم: وهـذا مـا كان توم عازماً على القيام به.

أراد أن يثبـت لوالدتـه وأختـه ولجميـع النـاس بأنـه إنـسان يتحلـى بشخـصية قوية

رغبتـه الحثيثـة بتحقيـق طموحـه جعلتـه يتمنـى لـو يمـر الوقـت بـسرعة، أن تسرع الأيام والساعات والدقائق!

بالوقت الـذي كـان يعـبر فيـه الجـسر الحجـري فـوق نهـر الفلـوس، ويـدخل بلـدة القـديس أوغ، كـان يفكـر بأنـه سيـشتري طاحونـة والـده وأرضـه مـن جديـد عنـدما يـصبح رجـلاً ثريـاً، وسـوف يقـوم بإصـلاح المنـزل والعـيش فيـه: إنـه يفـضل ذلـك المكـان علـى أيـة بقعـة أخـرى في أصـقاع الأرض، وبمقـدوره أيـضاً شـراء عـدد كـبير من الأحصنة والكلاب

و بينمـا هـو يمـشي بخطـى ثابتـة، وتـصميم قـوي، سـابح في أحـلام يقظتـه، مـرّ بـه رجـل لم يـستطع التعـرف عليـه، وقـال لـه بـصوت أجـش: "واي، سـيد تـوم، كيـف حـال والـدك هـذا الـصباح؟". كـان ذلـك الرجـل مـن سـكان بلـدة القـديس أوغ - أحـد زبـائن والـدمتـضايق تـوم في تلـك اللحظـة، لأن الرجـل أفـسد عليـه أحلامـه الرائعـة، لكنه قال بلطف :

"لايزال متعباً جداً، أشكرك".

قـال الرجـل محـاولاً أن يبـدو متعاطفـاً مـع تـوم: "أي، إنهـا فرصـتك الوحيـدة أيها الشاب، أليس كذلك؟ - بعد أن خسرتم الدعوى القضائية".

احمـّر وجـه تـوم، وأكمـل سـيره دون تعليـق: أحـسّ، وكـأن ضـربة وُجِّهَـتْ إليـه، بالرغم من أنه أشاد بأهميته وقدرته على مواجهة الصعاب

خاطب الرجل بقالاً كان يقف في الجوار: "ذلك الشاب هو ابن توليفر".

قال البقال: "آه، أعتقد أنني عرفته، فهو يشبه عائلة أمه: إنها من سلالة دودسن.

يا له من شاب بهي الطلعة: ماذا علّمه والده؟".

"أوه، أعتقد أنه علّمه كيف يتعامل مع زبائن والده بازدراء، وأن يصبح سيداً أنيقاً - وليس أي شيء آخر".

أفاق توم من أحلامه ليواجه الواقع على حقيقته وهو يَغُذُ السير نحو مكاتب عمه، حيث توقع أن يجده هناك لكن الموظف أخبره بلهجة فيها ازدراء بسبب جهله، بأن عمه يتواجد صباحاً في البنك: كان من عادة السيد دين أن يذهب إلى البنك صباح كل خميس.

هناك في البنك، دخل توم إلى غرفة خاصة بعد أن أعطى اسمه للموظف.

كان السيد دين يدقق بنتائج الحسابات، وعندما دخل توم، رحبّ به، وقال:

"حسنٌ توم، آمل ألا يكون هناك خطب ما في المنزل؟ كيف حال والدك؟".

قال توم بعصبية: "إنه على حاله، أشكرك يا عماه جئت كي أقابلك في مكتبك".

"اجلس، اجلس "، قال السيد دين، وهو يعاود تدقيق حساباته من جديد.

بقي مدة نصف ساعة وهو منشغل مع الموظف المسؤول بمراجعة الحسابات، حتى بدأ توم يتململ، ويتساءل فيما إذا كان عليه الجلوس هكذا حتى انتهاء الدوام الرسمي.

فكر توم في قرارة نفسه: هل سيؤمن له عمه وظيفة في البنك؟ لكن العمل هنا ممل وباهت كان يفضل لو يحصل على عمل آخر يدر عليه أرباحاً طائلة بأسرع وقت ممكن. وأخيراً طرأ تغيير ما: أخذ عمه قلماً، وكتب شيئاً ما وقال :

"والآن اصعد إلى السيد توري، هلا سمحت يا سيد سبينس؟". بدت دقات الساعة الآن أقل صخباً وتواتراً على مسمع توم.

قال السيد دين بعد أن بقيا لوحدهما، وهو يتناول علبة المحارم :

"حسنٌ توم، ما العمل يا بني - ما العمل؟".

السيد دين الذي سمع من زوجته ما حدث في يوم الاجتماع العائلي، اعتقد أن توم قادم ليطلب مساعدته في إيجاد وسيلة لتفادي بيع الأثاث والممتلكات.

قال توم، وقد تلوّن خجلاً، وحاول التحدث بنبرة ملؤها الفخر والثقة بالنفس، بالرغم من الارتعاش الذي بدا واضحاً في صوته:

"أرجو أن تعذرني يا عماه لأنني ضايقتك بمجيئي، أنتَ بالنسبة لي الشخص الأفضل ليسدي لي نصيحة مفيدة".

قال السيد دين وهو يحدق بتوم بمزيد من الانتباه:

"آه! دعنا نسمع".

قال توم على الفور: "أريدك أن تؤمن لي وظيفة، أكسب من خلالها بعض النقود".

"وظيفة؟ "، قال السيد دين، ثم تناول رزمة من المحارم، وتمخط بها. كانت تلك العادة من أكثر العادات التي تستفز توم

قال السيد دين، وهو يلقي بنفسه للوراء ثانية: "واي، ولكن كم عمرك؟".

قال توم، أملاً أن يلاحظ عمه بزوغ الشعر القليل على ذقنه :

"ست عشر، أقصد بأنني سأكمل السبع عشرة سنة عما قريب".

"أعتقد أن والدك كان ينوي أن يجعل منك مهندساً؟".

"لكنني لاأعتقد أنه بمقدوري الحصول على المال الكافي حتى أكمل تعليمي، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح، ولكن الأشخاص الذين في مثل عمرك يا بني لايستطيعون كسب مال كثير.لقد حصلت على مستوى تعليمي جيد: أفترض أنك قادر على تدقيق الحسابات إيه؟ هل تفهم في مسك الدفاتر؟".

قال توم وهو يترنح: "لا، لقد كنت أتدرب، والسيد ستيلنغ يقول إنني حاذق في الكتابة هذه هي كتابتي "، وضع توم على الطاولة نسخة من القائمة التي كتبها البارحة

"آه، هذا جيد، هذا جيد. ولكن، تدرك جيداً، بأن أفضل كاتب في العالم لن يكون مفيداً إلا ليصبح موظفاً بنسخ المخطوطات، إذ كان لايعرف شيئاً عن مسك الدفاتر - أو تدقيق الحسابات ووظيفة الناسخ رخيصة الثمن، ولا تدر مالاً وفيراً. ولكن ماذا تعلمت أيضاً في المدرسة؟

لم يرهق السيد دين نفسه في تحصيل الثقافة أياً كان نوعها، ولم تكن لديه أدنى فكرة دقيقة عما يجري في المدارس الباهظة الثمن والمناهج الدراسية.

قال توم وهو يصمت قليلاً بين كل عبارة وأخرى، وكأنه يستعيد في ذاكرته عناوين الكتب التي درسها :

"تعلمنا اللاتينية - كم هائل من اللغة اللاتينية، وفي العام الماضي كتبت موضوعين، أحدهما باللاتينية والآخر بالإنكليزية، وتعلمنا عن تاريخ الإغريق والرومان، وقواعد ايكليد، وعلم الحساب ثم اعتدت على تلقي دروس الرسم،

وهنالك كتب أخرى كنا نقرؤها أو نتعلمها، منها الشعر الانكليزي، وكتاب هوريا بوليني وعلم البلاغة والبيان لبلير".[1]

أخذ السيد دين من جديد رزمة من المحارم، ولوى فمه: أحس، وكأنَّهُ مثل مجموعة من الأشخاص جديرين بالتقدير والاحترام، يقرؤون التعريفة الجديدة، وقد اكتشفوا كيف أن عدداً هائلاً من البضائع يتم استيرادها دون أن يعلموا عنها شيئاً :

بدا مثل شخص حريص في عمله، لم يشأ أن يتكلم بطيش عن مواد خام ليست لديه أية خبرة عنها. ربما عرف شيئاً عن هوريا بوليني ولكن بشكل عام، كانت هذه القائمة من المعلومات مصدر اشمئزاز تجاه توم المسكين.

أخيراً قال بفتور وسخرية: "حسنٌ، صار لك ثلاث سنوات، وأنت تتعلم هذه الأشياء - لابد أنك ماهر بها. ولكن ألم تتدرب على شيء عملي يفيدك في الحياة؟

تورد توم، وانفجر قائلاً بعد أن استرد حيويته :

"أفضل ألا أستخدم ذلك النوع من المعلومات التي تلقيتها يا عماه إنني لأحب اللاتينية وتلك الأشياء. لأعرف ما فائدة أن أتعلم كل تلك الكتب ما لم أعمل مُدَرِّساً في إحدى المدارس، ثم إنني لاأتقنها كفاية لكي أدرسها لغيري :

ولا أرغب بأن أمارس ذلك النوع من المهن. أفضل الدخول في أعمال تثبت رجولتي، وأكسب من خلالها ثقة الآخرين. وسأعيل أمي وأختي".

قال السيد دين بصفته رجلاً في الخمسين من عمره، له خبرة وباع طويل في المهنة، محاولاً كبح جماح ذلك الشاب الطموح :

"آه، أيها الشاب، القول أسهل بكثير من الفعل - القول أسهل بكثير من الفعل".

قال توم مغتاظاً لأن عمه لم يفهم قصده :

"ولكن هل حصلت على هذا العمل فوراً يا عماه؟، أقصد، ألم تنتقل من مكان إلى آخر حتى وصلت إلى ما أنت عليه بفضل قدراتك وسلوكك الجيد؟".

أما الكتاب الثاني للواعظ الاسكتلندي هوغ بلير (1718- 1800).

قال السيد دين وهو يأخذ أبعاده على كرسيه، مستعداً بكل تفاخر لسرد سيرته الذاتية :

---

[1] هوريا بوليني وعلم البيان والبلاغة لبلير: طبع الكتاب الأول عام 1790 لمؤلفه وليام بيلي (1743- 1805)، يهدف هذا الكتاب للتأكيد على أن الميثاق الجديد ليس مجرد خرافة

"أي، أي، سيدي، ولكن سأخبرك كيف وصلت إلى مركزي المرموق. لم يكن من خلال التربع على ظهر الحصان والتفاخر به. كنت دائماً متيقظاً لكل ما يدور حولي يا سيدي، لم أنظر أبداً للوراء، كرّست جلّ اهتمامي في المستقبل. واي، مجرد التفحص بما كان يجري في الطاحونة، أدركت أنه من المفترض ألا نبدد مبلغ خمسمائة جنيه سنوياً. لم أتلقَّ تعليماً كافياً، لكني ببساطة عرفت كيف أكون ماهراً في تدقيق الحسابات، كنت أتعلم هذا خلال ساعات العمل، بعد أن أنهي شحن البضائع. انظر هنا "، قال السيد دين، وهو يفتح كتاباً، ويشير إلى إحدى الصفحات :"هذه حسابات كتبت قسماً كبيراً منها، وقادر على منافسة كل من يدعي إمكانية التنبؤ بكل ما يحصل، بذلت جهداً شاقاً حتى اكتسبت خبرتي، كل هذا على حساب راحتي. تمعنت جيداً في طبيعة العمل الذي نقوم به، وحصلت على معرفة ممتازة بينما أمارس عملي.

واي، لست ميكانيكياً، ولا أدعي هذا - لكنني أستطيع ملاحظة أشياء بدقة لايمكن للميكانيكي التفكير بها أبداً، ولا أن تخطر بباله على الإطلاق. ليست هنالك أصناف معينة تشحن أو لاتشحن على ميناء ما أنا خبير بطبيعتها وبما يميزها. إن وصلت إلى ما وصلت إليه يا سيدي، فذلك لأنني أتأقلم مع أي وضع جديد، بحيث أكون مناسباً لكل الأعمال".

سحب السيد دين محارم مجدداً. كان متحمساً وهو يتحدث عن نفسه بكل فخر، متجاهلاً انطباع من يصغي إليه. لقد سنحت له الفرصة لتكرار ما يقوله عادة، ولم ينتبه إلى أنه لم يضع أمامه زجاجة النبيذ الأحمر اللون المفضل لديه.

قال توم بلهجة متذمرة نوعاً ما :

"حسنٌ عماه، هذا ما أرغب القيام به. هل أستطيع تحقيق ما حققته أنت بالأسلوب ذاته؟".

قال السيد دين، وهو يحدق بتوم بإمعان هادئ :

"بالأسلوب ذاته؟ هنالك مسألتان أو ثلاث تتعلق بهذا الشأن يا سيد توم يعتمد هذا على ماهية العمل الذي تريد أن تبدأ به وتميل إليه.

و فيما إذا كنت قد اخترت الطريق الصواب أم لا. ولكن سأقول لك شيئاً. لقد أخطأ أبوك المسكين عندما أرسلك للمدرسة لتحصيل الثقافة.هذا ليس من شأني، ولن أتدخل بخصوصياتك: وأعتقد أنه من واجبي مصارحتك برأيي. لقد حصلت على نوع من التعليم لايؤهلك لممارسة إلا الأعمال التي يقوم بها السيد ستيفن غيست، الذي لايفعل أي شيء على الإطلاق سوى توقيع الشيكات طوال

حياته، وربما يعلم بالإضافة إلى اللاتينية، مواضيع أخرى لاتفيده في شيء إلا حشو الذهن بمعلومات نظرية لاتدر مالاً.

قال توم متلهفاً: "ولكن عماه، لاأعرف لماذا تعيقني اللاتينية عن ممارسة العمل الذي أحب سوف أنساها كلها في الحال: هذا لايهم طالما تلقيت دروسي في المدرسة، وكنت دائماً على يقين بأن تلك المواد لن تنفعني أبداً في حياتي العملية - لم أكترث بها كنت أدرسها لأنها مفروضة عليّ في المنهاج".

"أي، أي، هذا جيد، ولكنه لايغير شيئاً مما كنت أقوله. ربما تنسى اللاتينية وتلك المواد المعقدة، لكنك بعد ذلك سوف تفتقد لأية مهارة في الحياة. ثم إنك ماذا تعرف عن العمل؟ لاشيء حتى مسك الدفاتر، غير قادر على البدء به، ولا يمكنك تدقيق الحسابات. دعني أصارحك القول، إذا رغبت بتحقيق شيء مفيد في حياتك، عليك أن تبدأ من تحت الصفر. لافائدة من أن تنسى الثقافة التي منحك إياها والدك، إن لم تكسب ميزة جديدة تدفعك بقوة إلى الأمام.

عضّ توم على شفتيه، أحس وكأن دموعه على وشك الانهمار، لكنه يفضل الموت على أن يدعها تنهمر.

تابع السيد دين :

"أنت ترغب بأن أساعدك بالحصول على عمل لائق، حسنٌ، لامانع لدي سوف أكون مسروراً للغاية، إن استطعت أن أقدم لك شيئاً ما يفيدك.ولكنكم أنتم شبان هذه الأيام تعتقدون بأن الأمور تسير بهذه البساطة: ليست لديكم أدنى فكرة عن المسافة الطويلة التي على المرء يقضيها مشياً على الأقدام حتى يصل إلى ظهر الحصان.

و الآن عليك أن تتذكر من أنت - أنت غلام في السادسة عشرة من عمره، لم يتمرن على أي شيء معين ما تعلمته في حياتك، ليس إلا مجموعة حصى ملقاة هنا وهنالك لاتنفع في شيء.

حسنٌ، عليك التدرب على عمل ما - ربما كيميائي أو صيدلاني: ومع لغتك اللاتينية سوف تنفع قليلاً في هذا المجال".

كان توم يهم بالحديث، لكن السيد دين رفع يده وقال :

"توقف! اسمع ما سأقوله لك. أنت لاترغب بأن تصبح قيد التمرين - أعرف هذا، أعرف - بأنك متحمس للوصول إلى تحقيق هدفك بأسرع ما يمكن - كما أنك لاتريد الوقوف خلف طاولة لخدمة الزبائن. ولو كنت موظفاً ناسخاً، عليك أن تجلس خلف مقعد، وتحدق بالحبر والورق طوال اليوم: لن تصبح

أكثر حكمة في نهاية العام مما كنت عليه في بدايته فالعالم ليس حبراً أو ورقاً، وإذا أردت تحقيق النجاح أيها الشاب، عليك أن تعرف متطلبات هذا العالم

و الآن أفضل ما تقوم به هو اتخاذ مكان لك في الميناء، أو في مخزن بضائع، حتى تتعود على طبيعة العمل - أنت لاترغب بهذا العمل لأنه عمل شاق يعرضك لبرودة الطقس وأنتِ شاب جميل للغاية ليس بمقدورك تحمل هذا".

صمت السيد دين ونظر بقسوة إلى توم الذي أحس بالتأكيد بصراع داخلي قبل أن يتمكن من الرد.

"في النهاية سأسعى لأعمل ما هو أفضل بالنسبة لي يا سيدي: سأتحمل كل الأعمال الشاقة".

"هذا جيد إذا كان باستطاعتك التحمل ولكن تذكر، لايكفي فقط أن تمسك بالحبل، عليك أن تسحبه بقوة إن اعتقدت بأنك قادر على النجاح بدون أن تملك خبرة كافية ومالاً وفيراً فأنت مخطئ أيها الغلام لن تحرز النجاح وأنت تحافظ على نظافة معطفك وأناقتك كي تحظى برضا الفتيات، وستكون بداية سيئة لشق طريقك الوعرة أنا لم أبدأ هكذا، أيها الشاب: عندما كنت في السادسة عشرة من عمري كانت رائحة القطران تفوح من ملابسي لم أكن أخجل من صنع قوالب الجبن لهذا السبب استطعت ارتداء أفضل الملابس وأكثرها أناقة، والعمل في أفضل شركات بلدة القديس أوغ".

سحب مزيداً من المحارم، وبدا مرتاحاً في كرسيه أكثر من السابق وهو معجب بمعطفه وسلسلته الذهبية

قال توم بصوت مرتعش قليلاً:

"أليس هنالك أي مكان في المكتب أبدأ العمل فيه يا عماه؟ أتمنى المباشرة بالعمل فوراً".

"انتظر لحظة، انتظر لحظة، لاينبغي علينا الاستعجال تذكر إن أمنت لك مكاناً للعمل لايتناسب مع سنك، لمجرد أنك ابن أخي، عندئذ سوف أتحمل المسؤولية بالنيابة عنك وليس هنالك سبب مقنع لعملك، كما تعرف، سوى خبرتك واجتهادك وليس لأنك ابن أخي بالرغم من أنك لاتجيد عمل أي شيء".

قال توم، وقد أحس بالإهانة لأنه غير جدير بالثقة :

"آمل أن لاأخيب أملك يا عماه".

"حسنٌ تفعل يا توم، حسنٌ تفعل! وأنا بدوري لاأرفض مساعدة من يساعدون أنفسهم هنالك شاب عمره اثنان وعشرون عاماً توليت أمره لقد

فعلت ما بوسعي لكي أخدمه وهو الآن محاسب من الدرجة الأولى، يسخر كل وقته للعمل".

قال توم بقلق، محاولاً أن يبرهن أنه على استعداد لتحمل أي عمل مرهق: "أفضل أن أتدرب على المحاسبة، هل أستطيع يا عماه؟".

"أجل، أجل باستطاعتك فعل ما هو مناسب لك ولكن-أه، سبينس لقد عدت ثانية حسنٌ توم، أعتقد أنني أنهيت ما في جعبتي بخصوص هذا الموضوع عليّ استئناف عملي من جديد. إلى اللقاء. سلّم على والدتك".

صافحه السيد دين وهو يصرفه بطريقة ودية، ولم يجرؤ توم على طرح المزيد من الأسئلة ولاسيما بحضور السيد سبينس وهكذا شق طريقه ثانية وسط جو رطب بارد. كان عليه أن يعرج على عمه غليك من أجل الأموال المودعة في البنك، لذلك شرع في رحلة ثانية، لكن الضباب تكاثف أكثر، ولم تكن الرؤية واضحة أمامه، وهو يجتاز الطريق على طول النهر، تفاجأ بلائحة موضوعة على يمين الطريق، كتب عليها بأحرف كبيرة "طاحونة دور لكت "، وكأن الهدف منها لفت النظر لقراءتها. إنها معروضة للبيع خلال الأسبوع القادم- وهذا سبب لحث السير أسرع والخروج من البلدة.

لم يتنبأ توم المسكين بما ينتظره مستقبلاً وهو يعاود الرجوع إلى منزله، لكنه أحس بأن القادم قاسٍ جداً عليه من المؤسف حقاً أن لايثق عمه دين بإمكاناته! ولأول مرة يصاب توم بالإحباط، وينهار وهو يشعر بأنه بالفعل جاهل تماماً، ولا ينفع لشيء. ترى من كان ذلك الشاب الذي حدثه عنه السيد دين، والذي احترف مهنة المحاسبة، وأصبح شاباً ناجحاً؟.

لقد اعتاد توم أن يكون راضياً بشكل كامل عن ذاته بالرغم مما كان يصيبه من إحباط شديد.

أما الآن فقد شعر بالضعف والفشل لأنه عرف أقل مما كان يعرفه شخص آخر. تمنى لو يتعرف على ذلك الشاب، ربما ساعده في تحقيق النجاح!

من انقضاء ساعتين، عندما كان توم يمشي باتجاه بلدة القديس أوغ، تراءى له المستقبل وكأنه طريق مغرٍ يؤدي إلى شاطئ رملي ناعم الملمس. وبعد أن صدم بالواقع، بدا الطريق مرصوفاً بحجارة خشنة وتلاشت الرمال الذهبية شيئاً فشيئاً!

قالت ماغي وهي تطوق توم بذراعيها :

"ماذا قال لك العم دين يا توم؟ هل سيؤمن لك وظيفة؟".

اقترب توم من موقد المطبخ ليجفف جسمه: "لا، لن يفعل لم يعدني بأي شيء.

أعتقد بأنني ما زلت شاباً لأمارس أي نوع من العمل".

"ولكن ألم يعاملك بلطف يا توم؟".

"بلطف؟ بوه! وما فائدة أن يتكلم معي بلطف؟ لاأكترث لكلامه اللطيف، ما يهمني هو الحصول على عمل ولكن يا لهذا الهراء! أمضيت عدة سنوات وأنا أتعلم اللاتينية وأشياء أخرى - لاتفيد شيئاً - والآن يقول لي عمي أنه يجب عليّ تعلم مسك الدفاتر وتدقيق الحسابات وأمور أخرى لقد قرر بأنني لاأنفع شيئاً".

تجمَّدَ توم وهو يراقب النار، وتعابير الألم مرسومة على فمه.

قالت ماغي محاولة إدخال البهجة قليلاً إلى نفسه الكئيبة: "لو تعلمت مسك الدفاتر بالطريقة الايطالية، لعلمتك يا توم".

"قال توم: "أنت تعلمينني! أجل هذه النغمة التي تكررينها دائماً".

قالت ماغي، واضعة خدها على كم معطفه: "عزيزي توم! كنت فقط أمزح".

تجهَّم توم وقال :

"تتصرفين دوماً بهذا الأسلوب يا ماغي تعتقدين أنك متفوقة عليّ، وعلى كل شخص أخر، وكم ترددت مراراً بأن أخبرك حقيقة مشاعري لاينبغي أن تتكلمي بالنيابة عني في حضور خالاتي وأعمامي، اتركي لي مهمة الاعتناء بك وبأمي تظنين بأنك واسعة الاطلاع والمعرفة أكثر من أي شخص، أنت تحاكمين الأمور بشكل خاطئ باستطاعتي تقدير المسائل الهامة أكثر منك".

يا لتوم المسكين! طالما أعتقد بأنه نال ثقافة ممتازة غير أنه أصيب بالإحباط، وأحس بالدونية: ولا بد له من أن يردّ اعتباره وإحساسه بالتفوق، فلم يجد إلا ماغي، يتفاخر عليها بقدراته الهائلة ماغي التي توردت خجلاً، وارتعشت شفتها بعد صراع داخلي بين العاطفة والإساءة، بالإضافة إلى إعجابها بشخصية توم ورباطة جأشه.

لم تجبه في الحال، لقد أوشكت الكلمات الغاضبة أن تنهمر من فمها، وعادت ثانية إلى مستقرها، فقالت ماغي أخيراً :

"أنت دائماً تظن بأنني مغرورة يا توم وتسيء فهمي، فأنا لاأقصد إهانتك وليس في نيتي أن أتفوق عليك - أعرف بأنك تصرفت البارحة بحكمة وعقل، إلا أنك تعاملني دائماً بقسوة يا توم".

بهذه الكلمات الأخيرة ازدادت مشاعر الاستياء ثانية

قال توم بحزن وعنف: "لا، لست قاسياً. إنني أعاملك بلطف دائماً وسأهتم بك إلى الأبد. عليك أن تفكري ملياً بما أقول".

دخلت والدتهما الآن، وانسحبت ماغي مع دموعها التي حبستها حتى تصبح بأمان وحدها عندما تصعد إلى الطابق العلوي كانت دموع مريرة للغاية :بدا كل شخص في العالم قاسياً جداً مع ماغي: لم يكن هنالك تسامح، ولا حب كما تصوَّرَتْ، عندما تخيلت العالم من جديد، ورسمت أحلاماً وردية في الكتب، وجدت أناساً عاطفيين إنسانيين يبهجون من يجلس معهم، ولا ينتقدون أخطاء الآخرين، ويفسدون عليهم مسراتهمأما العالم خارج نطاق الكتب فهو عالم تعيس، كما أحست ماغي إنه عالم يتصرف فيه البشر بشكل يناقض أقوالهم، يتظاهرون بمحبة أناس لايكنون لهم أية عاطفة فإذا كانت الحياة هكذا، لاحب فيها، لاإنسانية، فما تبقى لماغي في هذه الحياة الصعبة؟لا شيء سوى الفقر وصحبة مآسي أمها - وربما دقات قلب والدها الضعيفة ليس هنالك حزن بليغ يصيب الإنسان بالعجز والإحباط أكثر من حزنه الذي يعانيه في باكورة شبابه، وهو مقبل على الحياة بحيوية وروحه مفعمة بالتوق إلى الإنجاز وذاكرته لم تضج بعد بهموم ومآسي العالم!

ربما تنظر إلى ذلك اليأس السابق لأوانه، وكأن نظرتنا للمستقبل أضاءت حاضر ذاك المعاني الأعمى.

وقفت ماغي بثوبها البني اللون، وعيناها حمراوان وشعرها الكثيف مربوط للوراء، عند سرير والدها الذي استلقى في غفلة عما يحصل حوله.

حدقت ماغي بجدران الغرفة الباهتة، هذه الغرفة الحزينة التي كانت مركز العالم بالنسبة لماغي، التي امتلأ قلبها توقاً للفرح والجمال والسعادة، كانت متعطشة للمعرفة، ولسماع الموسيقى التي كانت تصدح في أذنها منذ زمن، ولن تعاود الرجوع إليها، كانت بأشد الحاجة لمن يسلي روحها حتى تهدأ في ذلك المنزل الكئيب.

فلا عجب إذاً، عندما يكون هناك هذا التناقض الرهيب المؤلم بين عالمها الداخلي وعالمها الخارجي!

الفصل السادس

تقدير المشاعر الإنسانية لصديق قديم

في ذلك الوقت المظلم من ديسمبر، استمر بيع أثاث المنزل حتى منتصف اليوم الثاني السيد توليفر، الذي أظهر اهتياجاً بدا كأثر مباشر لعودة تلك الانفعالات والتشنجات والإحساس باللامبالاة، كان مستلقياً بين الحياة والموت خلال الساعات الحرجة عندما وصلت ضجة المزاد إلى غرفته.

كان السيد ترنبول قد قرر بأن الوضع سيكون أقل مجازفة لو بقي في منزله، من أن ينقلوه إلى كوخ لوكي - الخطة التي اقترحها لوكي الطيب على السيدة توليفر، معتقداً بأن السيد سوف تسوء حالته أكثر عندما "يستيقظ "على صخب المزاد.

جلست الزوجة مع ولديها في غرفة صامتة كالسجن، يراقبون تلك الهيئة الضخمة المنهوكة القوى والممدة على السرير، وهم يرتعشون خوفاً من أن ينتبه ذلك الوجه الجامد فجأة مستجيباً للأصوات التي كانت تصل إلى مسامعهم بتكرار مؤلم يرغمهم على سماعها بقوة.

انتهى أخيراً ذلك المزاد المستعجل. توقفت تلك الأصوات الحادة عن الرنين. كانت مثل الصدى المزعج الذي يصدر عندما تدق مجسمات نحاسية فارغة. بدت السيدة توليفر وكأنها كبرت عشر سنوات خلال الساعات الثلاثين الأخيرة: لقد انهارت المسكينة تماماً، وهي تشهد بيع أثاث منزلها، كانت الأصوات الصاخبة تضج في أذنيها كالمطرقة المرعبة، فتبعث الرعشة والخوف في قلبها الضعيف.

قبل بدء المزاد، كانت كيزيا، خادمة المنزل ذات القلب الطيب والمزاج المتعكر، تسجل أسماء جميع القادمين لحضور المزاد كما لو أنهم أعداؤها بشكل شخصي. كم احتقرت أولئك القادمين لشراء حاجيات وخاصيات غيرهم!

كانت تنظف المنزل بشكل عشوائي لأن أولئك الناس سيعاودون الرجوع لأخذ مشترياتهم: وتحثّ الخطى نحو الردهة لتنظيفها، حيث جلس هناك حاجب المحكمة كالخنزير "يدخن غليونه "

اقترب موعد شرب الشاي، لذلك صممت كيزيا على ترتيب الردهة لأجل خاطر سيدتها.

كانت الساعة بين الخامسة والسادسة، تقريباً في الموعد المعتاد لشرب الشاي،

عندما صعدت للأعلى، وأخبرت السيد توم بأن لديه زائراً. كان زائره في المطبخ يقف بجانب نار الموقد الخامدة وفي ظل ضوء شمعة في البداية لم يتعرف توم على ذلك الشخص الذي بدا أنه يكبره بعامين كان يحدق به بعينيه الزرقاوين، وقد سحب خصلات شعره الحمراء إلى خلف عنقه، لكن توم لم يتذكره

قال صاحب خصلات الشعر الحمراء، مبتسماً كما لو أنه يخفي مشاعر الأسى التي أحس بها اتجاه رفيقه:

"سيد توم، أظن أنَّكَ لم تعرفني بعد "، أضاف، بينما توم يحدق به محاولاً التعرف عليه: "لكنني أود التحدث قليلاً إليك لو سمحت".

قالت كيزيا: "لقد أشعلت الموقد في ردهة الاستقبال".

"إذاً تفضل من هنا "، قال توم، متسائلاً في قرارة نفسه إن كان ذلك الشخص من ميناء غيتس، فسرح بخياله إلى تلك البقعة الخاصة، إذ من الممكن أن يكون عمه دين قد أرسل في طلبه ليخبره بأنه أمن له وظيفة في مكتبه

لم تُضَأ الردهة إلا بنار الموقد الساطعة التي نشرت بريقها على بضعة كراسٍ، ومكتب، وأرض عارية من أية سجادة، وطاولة - لا، ليست طاولة واحدة: كانت هناك طاولة ثانية في الزاوية، عليها كتاب الإنجيل وبضعةُ كتب أخرى

تأمل توم غرفة الاستقبال العارية تقريباً من الأثاث، قبل أن يفكر بالنظر ثانية إلى ذلك الوجه الذي أضاءته نار الموقد، فبدا خجولاً قليلاً، تساءل ذلك الغريب: "واي! إذاً لم تتذكر بوب، الذي التقط سكين جيبك يا سيد توم؟".

أخذ سكين جيبه في اللحظة نفسها، وفتح الشفرة الكبيرة لزيادة الإيضاح.

"ماذا! بوب جاكين! "، قال توم - ولكن ليس بإحساس مبهج لأنه شعر قليلاً بالخجل من علاقتهما الحميمة المرتبطة بسكين الجيب، ولم يكن واثقاً على الإطلاق من أن دوافع بوب لاسترجاع ذكراها كانت محط إعجاب كلي بها.

"أي، أي، بوب جاكين تذكر ذلك اليوم عندما تشاجرنا، قذفت بسكينك بعيداً، لكنك لم تستجب لي، تابعت السيرك متجاهلاً كلماتي وشتائمي لك".

تكلم بوب بصوت حاد مرتعش قليلاً، وفرك شفرة سكينه بكمه بعد أن أنهى حديثه

"حسنٌ، بوب، هل أستطيع أن أخدمك في شيء؟ "، قال توم بقليل من الاهتمام، أحس بأن استعادة الأحداث الماضية تفرض عليه تقديم العون لرفيقه، بالرغم من أنه لم يتذكر إلا شجارهما يوم افترقا.

أجاب توم وهو يغلق سكينه ويعيدها إلى جيبه، حيث بدا أنه يتحسس شيئاً

أخر: "واي، لاسيد توم". سمعت أنك في مشكلة كما يقول الآخرون لم آت لزيارتك كي أضايقك، ولا لأطلب منك سكيناً أخرى، لأنك أعطيتني واحدة منذ زمن بعيد. لقد كنت أفضل غلام أتشاجر معه في كل حياتي. كنت تجعلني أشعر بالخجل عندما أخطئ بحقك. لقد كنت أثق بك كثيراً وبقدراتك ومهاراتك في صيد الجرذان والسناجب والأرانب".

كان بوب ينوي إطالة الحديث أكثر لولا دخول ماغي الغرفة واندفاعها كالسهم لتلقي عليه نظرة ملؤها الدهشة والفضول. أدار خصلات شعره بكل احترام إلا أن ماغي أشاحت بوجهها عنه في الحال وهي تحدق بحقيبة الكتب المعلقة، لم يكن هناك أي كتاب، سوى الإنجيل وبضعة كتب أخرى موضوعة على طاولة صغيرة.

صرخت وهي تشبك يديها ببعضهما بعضاً: "أوه توم، أين الكتب؟ أعتقد أن عمي غليك قال بأنه سيشتريها - أليس كذلك؟ - هل هذا كل ما تبقى لنا من كتب؟".

أجاب توم بلا مبالاة ويأس: "أعتقد ذلك ولكن لماذا يشترون عدداً كبيراً من الكتب في حين لايشترون إلا القليل من الأثاث؟".

قالت ماغي وقد امتلأت عيناها دموعاً، واندفعت نحو الطاولة لترى ما هي الكتب التي تم المجازفة ببيعها: "أوه ولكن، توم، كتابنا الرائع رحلة الحاج الذي لونت رسومه بألوانك الخاصة، وصورة الحاج—أوه عزيزي!".

أضافت ماغي وهي تنشج بكاءً، "اعتقدت أننا لن نخسر أبداً هذه الكتب الثمينة - إننا نفقد كل شيء غالٍ على قلوبنا - سوف تكون نهاية حياتنا فارغة ومأساوية مثل بدايتها!".

ابتعدت ماغي عن الطاولة وألقت بنفسها على الكرسي، بينما استعدت دموع أخرى للانهمار مجدداً على خديها - وكانت ماغي غافلة تماماً عن وجود بوب الذي كان يراقبها بإمعان مثل حيوان أخرس ذكي.

أحس توم بأن مناقشة مسألة الكتب ليست على قدر من الأهمية تابع حديثه: "حسنٌ بوب، أفترض أنك جئت لزيارتي لأننا نتعرض لأزمة؟ هذا لأنك إنسان طيب للغاية".

قال بوب سوف أشرح لك الأمر يا سيد توم كما ترى أنني أعمل في مركب لنقل البضائع وأكسب معيشتي من خلال عملي وخلال الأسبوعين الماضيين كنت موفّقاً في عملي، طالما اعتقدت بأنني محظوظ في عملي لقد منحني السيد عشرة جنيهات إضافية، وقال بأنني غلام نشيط وأنا بدوري أبذل جهدي لكسب قوتي". وضع بوب النقود على الطاولة.

"فكرت كثيراً عندما حصلت على المال بأن أقوم بتجارة ما، فكرت بشراء سناجب وكلاب وحيوانات لصيد الجرذان خطرت ببالي مشاريع كثيرة".

"توقف بوب هنيهة، ثم أضاف بحزم :

"في النهاية قررت أن أشتري إوزة لأمي تطبخها على العشاء. ومعطفاً لي وقبعة مصنوعة من جلد الفقمة إنني محظوظ في عملي لذلك أرجو أن تقبل مني هذه النقود يا سيد توم وسوف أكون لك شاكراً. ربما لاتكفي، قد تعينك قليلاً في محنتك".

تورد توم، وقال بصوت مرتعش قليلاً، أعطاه سحراً مميزاً بالرغم من صرامته، وتفاخره الشديد بنفسه :

"إنك شخص في غاية اللطف يا بوب لن أنسى معروفك هذا بالرغم من أنني نسيت شكلك ولم أتعرف عليك هذا المساء في أول لقاء لنا بعد زمن طويل لاأستطيع أن أقبل النقود: لن آخُذَ منك ثروتك القليلة ثم إنها لن تلبي المطلوب".

قال بوب بحسرة: "لن تكفيك يا سيد توم؟ أرجوك لاتقل هذا، ولا تظن أنني بحاجة إليها. لست ولداً فقير الحال أقدم لأمي ما يكفيها من الطعام ثم حتى لو أنها أكلت فقط الخبز مع الماء، لأصبحت بدينة جداًإنني غلام محظوظ في عملي، وأنت في محنة يا سيد توم - ومن المفترض أن تقبل مساعدتي أرجوك اقبلها لأجل خاطري، وإلا اعتقدت بأنك تحمل لي الضغينة".

دفع بوب النقود إلى الأمام، وقبل أن يباشر توم بالكلام، قالت ماغي وهي تشبك يديها ببعضهما البعض وتنظر إلى بوب بأسف :

"أوه، إنني جداً متأسفة يا بوب - لم أظن أنك طيب لهذه الدرجة إنك أكثر الأشخاص لطفاً في هذا العالم!".

لم يدرك بوب أن ماغي كانت تعاني من صراع داخلي بين نظرتها له مذ كان ولداً، والآن بعد أن أصبح شاباً في منتهى اللطف، ابتسم لذلك المخلوق الجميل، حتى أنه حدث أمه في ذلك المساء عن جمال عيني ماغي

قال توم: "لا، حقاً يا بوب لاأستطيع أخذ النقود. ولا تظن أنني لاأقدر لك معروفك، لأنني رفضت أخذها. لاأرغب بأخذ شيء من أي إنسان، أودُ أن أعمل، وأكسب رزقي وهذه النقود لن تساعدني كثيراً في أزمتي دعني أصافحك بدلاً من أخذها".

لم يتردد بوب في مصافحته.

قالت ماغي: "دعني أرجع النقود إلى الحقيبة ثانية وستعود لزيارتنا يا بوب".

قال بوب باستياء: "لقد رغبت كثيراً في مساعدتك وأشعر كأنني جئت فقط لأريك النقود".

قال توم: "والآن لاتتضايق بوب، بوسعك أن تحقق بعض مشاريعك يوماً ما".

أخرج بوب النقود ثانية من حقيبته، ووضعها على الطاولة أعاد توم النقود وقال: "لا، بالفعل بوب، أشكرك من كل قلبي ولا أستطيع أخذها".

أضافت ماغي لمزيد من الإقناع: "ليس الآن - ربما في وقت لاحق إن احتاج توم أو والدي المال، فسوف نطلب منك، أليس كذلك يا توم؟ إننا نعتمد عليك في أزماتنا لأنك صديق مخلص، أليس كذلك، بوب؟".

قال بوب وهو مضطر لتقبل الأمر :

"أجل يا آنسة، أشكرك من دواعي سروري أن أقدم لك خدمة جليلة أتمنى أن نلتقي ثانية يا آنسة، وأتمنى لك حظاً طيباً يا توم، وأشكرك لأنك صافحتني بالرغم من رفضك للنقود".

دخلت كيزيا، لتسأل إن كان عليها إحضار الشاي الآن، فكانت مناسبة لإنهاء حديث بوب، واستعجاله بالمغادرة

الفصل السابع

كيفية ممارسة الدجاجة لحيلتها

مرت الأيام، ولم يلاحظ أي أحد ما طرأ من تحسُّنٍ بطيء على السيد توليفر، سوى الطبيب. كانت تلك الهيئة المشلولة تتحرك شيئاً فشيئاً، مثل جسد متجمد تحت كومة من الثلج، يكافح بقوة ليبقى على قيد الحياة.

مع بداية الأسبوع الثاني من كانون الثاني عرضت جميع الكمبيالات للبيع في شعبة في المحكمة العليا، لتنضم إلى بقية الممتلكات والأرض والطاحونة التي أصبحت رهناً البيع. حتى الطحان كان غافلاً عما يجري، وتخيل نفسه في اللحظات الأولى للصدمة وهو لايزال يفكر في وسيلة مناسبة للخروج من المأزق، وبخطة تنقذه من سوء الحظ عندما "يتماثل للشفاء".

أما الزوجة والولدان فكان كلهم أملاً بظهور شيء ما يغير مسار حياتهم ربما لأن السيد دين اهتم بالقضية واعترف أنه من الممكن أن تشتري شركة غيتس طاحونة دورلكت، ويسير العمل كما كان في السابق، ويبقى السيد توليفر مديراً للطاحونة. السيد دين لم يقرر أي شيء، بشأن القضية: كان السيد دين مضطراً لإخبار السيدة توليفر شيئاً من هذا القبيل عندما عرّج على الطاحونة ليفحص الكتب برفقة السيدة غليك والسيد غليك الذي أحس بالتعاطف مع عائلة السيد توليفر، أمواله كلها كانت قيد الرهن، لذلك لم يستطع المجازفة بأية مغامرة قد لاتعود بالفائدة على أقاربه. قرر أن يشتري بعض علب الشاي للسيدة توليفر.

بدا واضحاً أن للسيد دين نوايا حسنة في تقديم العون لعائلة توليفر. ففي أحد أيام عطلة عيد الميلاد أحضر لوسي إلى منزل خالتها، فأقبلت تلك الملاك الشقراء الصغيرة تنهال بقبلاتها الحارة ودموعها السخية على خدي ماغي الأسمرين.

و ربما أسئلة لوسي الملحة والمشفقة على ابن خالتها المسكين، لاقت أثرها في نفس العم دين واستحثته لإيجاد وظيفة مؤقتة لتوم في المخزن، ريثما يتلقى دروساً في مسك الدفاتر والحسابات.

ذلك يمكن أن يدخل البهجة إلى نفس الغلام، ويحيي في قلبه الأمل من جديد. بعد أن صعق بإفلاس أبيه و"فشله "، هذه الكلمة التي أحبطت توم لدرجة كبيرة. فأصبح يحس العالم من حوله وكأنه كتلة ضبابية باردة كالثلج فلا عجب أن يغضب قليلاً كلما تحدثت إليه أمه أو أخته!

ولكن كان يحدث كل هذا بينما تفكر السيدة توليفر بخطة تثني فيها واكيم عن عزمه بالإلحاح في طلب الطاحونةتخيل دجاجة أليفة محترمة تحاول أن تستعمل بعض الحيل لنيل مرادها. طالما كانت السيدة توليفر تعتقد بأن كل شيء يسير بشكل خاطئ، وأنها كانت مسالمة لأبعد حد في حياتها، وحان الوقت الآن لكي تتخذ قراراً حاسماً في المشاركة في العمل، وتقرير مصيرها ومصير عائلتها.

بدا واضحاً، أنه لم يخطر ببال أحد أن يتحدث إلى واكيم بشأن الطاحونة لذلك كان لابد من اتخاذ أقصر السبل للوصول إلى نهاية صحيحة وقد ثبت أنه لافائدة من لجوء السيد توليفر إلى القانون ومعارضة واكيم والإساءة إليه طوال عشر السنوات الأخيرة.

تولدت قناعة لدى السيدة توليفر بأن زوجها كان مخطئاً جداً عندما أوقعها في هذه المشكلة الكبيرة اعتقدت أيضاً أنه مخطئ في حكمه على واكيم من المحتمل أن يكون المحامي رجلاً متعقلاً للغاية - ولم لا؟ لقد تزوج من الآنسة كلنت، وعندما سمعت السيدة توليفر في ذلك الوقت بنبأ زواجه، ارتدت ثوبها الحريري الأزرق اللون، ولم تكن قد فكرت بعد بالسيد توليفر، ولم تسمع أية أخبار سيئة عن واكيم.

في الواقع كانت مستعدة لسماع رأي السيد واكيم بخصوص جميع المواضيع، أكثر من رغبتها بسماع رأي زوجها. في الحقيقة، إن كان ذلك المحامي يرى فيها سيدة محترمة ميالة لتقديم الإطراء له من خلال أجمل الكلمات، فلماذا لايصغي إذاً إلى أفكارها؟ لأنها ستشرح له المسألة بوضوح كما لم يفعل ذلك أي شخص من قبل عندئذ لن يطالب بالطاحونة بهدف النيل منها وإغاظتها.

يا لها من امرأة بريئة! اعتقدت أن مراقصتها له في فترة شبابهما في ساحة دارليه، مبرراً كافياً للتنازل عن حقه والمطالبة بالطاحونة.

كم شاركت الكثير من الرجال الرقص والذين نسيت أسماؤهم الآن!

احتفظت السيدة توليفر بهذه الاستنتاجات في سرها، لأنها عندما لمّحت أمام السيد دين والسيد غليك بأنها تفكر بالتحدث بنفسها إلى واكيم، قالا لها ": لا، لا، لا، وأضافا: "بوه، بوه، اتركي واكيم وشأنه "، بلهجة رجال لم يرغبوا في الإفصاح عما يجول في خاطرهم كما لم تجرؤ السيدة توليفر على ذكر الموضوع أمام ولديها لأنهما دائماً يعارضان كل ما تقوله والدتهما، ثم أنها لاحظت بأن توم مثل والده يعارض واكيم في كل شيء.

لكن هذا التركيز غير المعتاد على الأفكار أعطى السيدة توليفر حافزاً قوياً

وتصميماً على تنفيذ مخططها، وقبل يوم أو يومين من بدء المزاد، الذي كان سيعقد في ساحة الأسد الذهبي، عندما لم يعد هنالك أي وقت يضيِّعُ سدى، تابعت تطبيق خطتها بالحيلةو هكذا صممت على مرافقة توم في ذلك الصباح إلى شارع القديس أوغ، بحجة شراء بعض المخلل والكتشب من البقال، السيد هيند مارش، أصر توم على تأجيل موضوع شراء المواد الغذائية في الوقت الحاضر، لذلك عارضته والدته واعتبرت هذا إرثاً عن جدته، والدة أمه، التي ماتت عندما كانت أمه فتاة صغيرة.

وهكذا مشيا، حتى وصلا شارع دانيش، حيث يبيع السيد هيند مارش بقالته هناك، ليس بعيداً كثيراً عن مكتب السيد واكيم.

لم يكن ذلك السيد قد وصل إلى مكتبه بعد: هل ستجلس السيدة توليفر قرب الموقد في غرفته الخاصة وتنتظره؟ لم يمض وقت طويل حتى دخل المحامي متفحصاً تلك المرأة الشقراء البدينة التي نهضت لاستقباله - كان رجلاً طويل القامة نوعاً ما، معقوف الأنف له شعر كثيف حديدي اللون.إنك لم تر أبداً السيد واكيم من قبل، ولا بد أنك تتساءل إن كان حقاً رجلاً نذلاً وماكراً كما صوره لنا عقل الطحان.

يبدو واضحاً أن ذلك الطحان السريع الغضب، كان يفسر أي سوء حظ يمسه على أنه محاولة من الآخرين لتدمير حياته، وخلق المشاكل في هذا العالم المحير.

بينما من المفترض أن يكون هو معصوم من الأخطاء لذلك لابُدَّ من اختراع فرضية شيطانية لتفسير كل الأحداث لايزال بالإمكان أن تعتقد بأن المحامي لم يكن مذنباً تجاه السيد توليفر، ربما كان مجرد آلة ذكية تنجز عملها في غاية الدقة والإتقان، وصدف أن اقترب من تلك الآلة رجل مندفع مغامر جداً، وأمسك بعجلاتها السريعة، فدهسته فجأة، وحوّلته إلى لحمة مفرومة بشكل غير متوقع.

في الحقيقة من المستحيل أن تقرر شيئاً بشأن هذه القضية بمجرد إلقاء نظرة وحيدة على الشخص: إن الملامح البشرية رموز من الصعب قراءتها بسهولة، لكل رمز مفتاح ولا يمكن استبيان الحقائق دون فك تلك الرموز. ربما دَلَّ أنفه المعقوف على نذالته، حسب رأي السيد توليفر، لكن الملفت للانتباه في لباسه ياقة قميصه الطويلة التي تدل على هندام شيطاني يعبر أكثر عن النذالة.

قال السيد واكيم: "أعتقد أنك السيدة توليفر؟".

"أجل يا سيدي الآنسة إليزابيث دودسن كما عهدتني".

"أرجوك تفضلي بالجلوس هل تريدين مناقشتي بشأن العمل؟".

"أجل سيدي "، قالت السيدة توليفر، وقد بدأت تشعر بأن شجاعتها تخونها - إنها الآن حقيقة في حضرة ذلك الرجل الرهيب حدق بها السيد واكيم بصمت.

قالت أخيراً: "آمل يا سيدي، آمل يا سيدي ألا تعتقد بأنني أحمل ضغينة من ناحيتك لأن زوجي خسر الدعوى القضائية - فأنا لم أتربَّ على هذه الطريقة

واثقة من أنك تتذكر والدي، يا سيدي، فقد كان له أصدقاء حميميون في ساحة دارليه حيث كنا نذهب دائماً لحفلات الرقص هناك - آنسات دودسن، لابد أنك تعرف السيدة دين والسيدة غليك، إنهما أختاي أما بالنسبة لرفع الدعوى القضائية، وخسارة النقود وبيع الممتلكات فقد كنت منذ البداية رافضة لتصرفات زوجي الخاطئة ولا أستطيع فعل شيء حيال حظي التعيس وليس بوسع أحد أن يتهمني بسوء التصرف".

هزت السيدة توليفر برأسها قليلاً، وتأملت طرف منديلها المطرز.

قال السيد واكيم بتهذيب بارد: "لاأشك فيما تقولينه سيدة توليفر. ولكن هل لديك أسئلة ما تطرحينها عليّ؟".

"حسنٌ سيدي، أجل قلت لنفسي - قلت أنه لابد أنك تحمل بين جوارحك مشاعر إنسانية طيبة أما بالنسبة لزوجي فأنا لاأدافع عنه - وليس باستطاعتي فعل أي شيء - وبالنسبة لرفع الدعوى، فماذا بوسعي أن أفعل؟ عندما تلقّى الرسالة كانت صدمة كبيرة عليه أثرت على صحته فانهار منهوك القوى بعد أن علم أنك وضعت يدك على رهن الأرض لاأستطيع أن أصدق هذا، لأنك ستتصرف كسيد محترم".

قال السيد واكيم بحدة نوعاً ما: "ماذا تقصدين بكل هذا سيدة توليفر؟ ماالذي تبغين قوله؟".

قالت السيدة توليفر وهي ترتعش قليلاً، وتسرع أكثر في كلامها :

"واي، سيدي، لو تكرمت علينا، لو تكرمت علينا، وتنازلت عن شراء الطاحونة والأرض - الأرض لن تعني الكثير لكن زوجي سوف يصاب بالجنون إن وضعت يدك على الطاحونة".

قال السيد واكيم وكأنه تفاجأ بما قيل له: "ومن أخبرك أنني أنوي شراءها؟".

"لماذا سيدي، لم أقل شيئاً من تأليفي، ولم أفكر في تأليف قصص لاأساس لها من الصحة، لأن زوجي اعتاد دائماً أن يقول بأن المحامين مستعدون لشراء أي

شيء- أراضي أو بيوت - لأنهم يحصلون على ممتلكاتهم بأية طريقة ولم أقل بأنك رجل تتصرف بطريقة مخالفة لطريقة المحامين".

"آه، حسنٌ، ومن قال ذلك؟ "، سأل واكيم وهو يفتح درجه، ويحرك بعض الأشياء وهو يصفّر بصوت غير مسموع تقريباً.

"لماذا سيدي، إنه السيد غليك والسيد دين، قاما بجميع الترتيبات اللازمة: كما يعتقد السيد دين بأن شركة غيست سوف تشتري الطاحونة، وتسمح للسيد توليفر بالعمل لمصلحتها، إن لم تزايد عليها، وترفع ثمنها. ويكون من الأفضل لزوجي أن يبقى في مركزه، إن استطاع أن يسترد عافيته: فالطاحونة كانت لوالده من قبله، وجدُّه هو من بناها ورعاها، مع أنني لم أكن أكترث لهذه الأمور قبل زواجي به لأن عائلة دودسن لاتملك أية طاحونة لكنني الآن أصبحت ملمة بأمور الطواحين والسقاية والقانون".

"ماذا! شركة غيست ستحتفظ بالطاحونة، وتدفع الأجور لزوجك؟".

قالت السيدة توليفر المسكينة، وقد بدأت دموعها تشق طريقها: "أوه سيدي، من الصعوبة التفكير بأن يتقاضى زوجي أجره من الآخرين وهذا أفضل من أن تضيع الطاحونة، وتذهب للغرباء: ولو فكرت بالأمر فقط - إن اشتريت الطاحونة، عندئذ سوف تتدهور صحة زوجي أكثر ولن يتحسن أبداً".

"حسنٌ، إن اشتريت الطاحونة، وسمحت لزوجك بالتصرف فيها كمدير وأعطيته كامل الصلاحيات، فما رأيك عندئذ؟".

"أوه سيدي، أشك أنه يستطيع مواصلة العمل عندك لأن اسمك مثل السم بالنسبة له، وهو يعتبر بأنك سبب دماره وفقدان ثروته بعد أن كسبت القضية - وطالما أخبرته أنه مخطئ في تصرفاتهو اعتقادي".

صرخ السيد واكيم وقد نسي نفسه:

"إنه رجل عنيد، يا له من أحمق!".

خشيت السيدة توليفر من أن تسير الأمور عكس ما أرادت وخططت له من فقالت :

"أوه سيدي! لاأريد أن أناقض كلامك، وأعتقدُ بأن المرض قد غيَّر كثيراً من مسار تفكيره - لقد نسي الكثير من الأشياء التي كان يتحدث عنها باستمرارو إن حصل له مكروه، فلا بد أنك لن تنام مرتاح البال، ولاسيما أنك ساهمت في سوء حظ ذلك المسكين و مع ذلك أتمنى لك كل الخير يا سيدي، لقد نسيت إخبارك بأنني أتذكر جيداً يوم عرسك كما لو أنه حصل البارحة تماماً - كانت السيدة واكيم تدعى الآنسة كلنت، أعرف هذا، وابني زميل ابنك في الدراسة".

نهض السيد واكيم وفتح الباب، ونادى على أحد موظفيه

"يجب أن تعذريني لمقاطعتك سيدة توليفر، لدي أعمال كثيرة يجب أن أنجزها، وأعتقد أنه لايوجد أي سيء ضروري يمكن قوله بعد الآن".

قالت السيدة توليفر وهي تنهض: "ولكن أرجوك يا سيدي تذكر أن لاتتصرف ضد مصلحتي ومصلحة ولديَّ، أعترف بأن زوجي كان مخطئاً، لكنه نال جزاءه بما يكفي هنالك رجال يسيؤون للآخرين بسبب أفعالهم المشينة، لكن زوجي أساء لي ولعائلته ولنفسه - وهذا ما يثير الشفقة أكثر - أذهب كل يوم لأتفقد رفوف منزلي، وأتحسر على أشيائي الثمينة التي فقدتها".

قال السيد واكيم مستعجلاً وهو ينظر باتجاه الباب المفتوح: "أجل، أجل، سوف أتذكر".

"كما أرجوك أن لاتذكر شيئاً عن قدومي إليك، لأن ابني سوف يغضب مني كثيراً لأنني أذل نفسي أمامك، أعرف بأنه سيسبب لي المشاكل، وأنا في غنى عنها، لأن حياتي كلها مشاكل ولا أستطيع تحمل توبيخ ولديّ لي".

ارتعش صوت السيدة توليفر قليلاً، لم تستطع أن تتفوه بكلمة بعد أن تجاهلها المحامي، لكنها انحنت احتراماً، وانصرفت بصمت

قال السيد واكيم لموظفه بعد أن بقيا وحدهما: "في أي يوم سوف يتقرر بيع طاحونة دورلكت تلك؟ أين الكمبيالة؟".

"يوم الجمعة القادم: الجمعة، عند الساعة السادسة".

"أوه! اذهب إلى الدلال وينشيب، وانظر إن كان في منزله لديّ عمل لأجله، اطلب منه أن يحضر".

على الرغم من أن السيد واكيم، عندما دخل مكتبه في ذلك الصباح، لم تكن لديه نية في شراء طاحونة دورلكت، إلا أنه قرر ذلك مسبقاً: لقد اقترحت عليه السيدة توليفر عدة أفكار مثيرة، وهو بدوره كان سريعاً جداً في اتخاذ القرار المناسب: كان من أولئك الرجال الذين يعزمون أمرهم بسرعة ودون تهور، لأنهم يركزون دوافعهم في مسارات محددة، وليسوا في حاجة إلى التوفيق بين أهداف متناقضة

من المفترض أن يبادر السيد واكيم، مشاعر الكراهية المتأصلة التي يكنها له السيد توليفر. ولو أن السيد توليفر تسبب في أذية أو إغضاب المحامي، لما تردد هذا الأخير في الانتقام منه وعندما نعت السيد توليفر واكيم بالنذل أمام الحشد المجتمع حول طاولة العشاء، لم يبد زبائن المحامي أية استعدادات لسحب قضاياهم منه، بل استمتعوا باحتساء شراب البراندي

كانوا معتقدين بحقيقة مفادها أن "واكيم هو واكيم "، الرجل الذي جمع ثروة طائلة، ولديه منزل جميل وسط الأشجار في منطقة توفتن، ولديه المقدرة لتقديم أفخر أنواع النبيذ لجيرانه في حي القديس أوغ، وبالمحصلة فهو يشعر بالتفوق وبأنه حقق مرتبة متقدمة في الحياة حسب الرأي العام.إن البشرية ليس لديها أي استعداد للنظر بمنظار ضيق إلى تصرفات المنتصرين العظماء، عندما تقودهم انتصاراتهم إلى الطريق السليم، ولو كانت الأساليب ملتوية!

إذاً توليفر مجرد شيطان بائس ألحق به المحامي أشد الهزائم عدة مرات.لم يشعر واكيم بتأنيب الضمير لأنه مارس بعض الحيل ضد الطحان: لماذا إذاً يشعر بالكراهية اتجاه ذلك البائس الفاشل - ذلك الثور الهائج المثير للشفقة؟

عندما ينتقم الرجال الأثرياء، ولو بشكل بسيط، يكون لانتقامهم تأثيرٌ هائلٌ في الحياة.

لم يكن السيد واكيم ليتردد أبداً في الانتقام من ذلك الطحان الفظ، والآن أدخلت السيدة توليفر الفكرة إلى رأسه، بدت له فكرة سارة تحدث تغييراً جذرياً في حياة السيد توليفر. أن ترى عدوك ذليلاً فذلك يبعث في النفس الرضا والقناعة، ويزداد الرضا أكثر عندما تذله بإحسانك له.

هذا النوع من الانتقام يندرج تحت مقياس الفضيلة، والسيد واكيم لن يُفَوِّتَ على نفسه فرصة ذهبية كتلك.

لقد أحس مرة بهذه السعادة تغمره عندما وضع أحد أعدائه القدامى في مأوى للفقراء في بلدة القديس أوغ، كان قد ساهم في إعادة بنائه بمبالغ طائلة، والآن الفرصة مواتية له ليجعل أحد أعدائه خادماً له.

كان توليفر رجلاً معروفاً باعتزازه بشرفه، أما واكيم فكان حاذقاً بما فيه الكفاية، ولا يؤمن بوجود شيء اسمه "شرف "! بالإضافة إلى أنه كان مغرماً جداً بالسطو على الأراضي والممتلكات الريفية.هنالك أسباب وجيهة لشراء طاحونة دورلكت، أشياء لاتتعلق أبداً بمبدأ الانتقام بالإحسان إلى الطحان.لأن الطاحونة مصدر استثمار يدر أموالاً طائلة، بالإضافة إلى محاولة شركة غيست الحصول عليها.السيد واكيم والسيد غيست كانا صديقين وشريكين بمبدأ العمل، والمحامي لديه رغبة جامحة للسيطرة على مالك الطاحونة ومالك السفينة.لم يكن السيد واكيم مجرد رجل ماهر في أعماله فقط، بل كان ذائع الصيت بحبه للمجون والسهر، ومعروف بأنه زوج وأب مثالي.فمعظم الرجال كانوا سيتزوجون لو تعرضوا لمثل ظروفه، قيل عنه أنه أب حنون مع ابنه المشوه الذي يحاول أن يؤمن له مستقبلاً كريماً، وهذا مبرر آخر لشراء طاحونة دورلكت.

فبينما كانت السيدة توليفر تتحدث، فكَّرَ المحامي ببديهة سريعة، وضمن كل ظروف القضية، بأن تتم عملية الشراء في غضون بضع سنوات قادمة، وبذلك يؤمن لولده مركزاً مرموقاً في عالم لم يشأ اختياره له في تلك الظروف اتخذت السيدة توليفر على عاتقها أن تتصرف بشكل مقنع، يثني المحامي عن عزمه، لكنها على ما يبدو فتحت أمام ناظريه آفاقاً جديدة لم تكن تخطر بباله، وهكذا فشل طعم الصياد!

الفصل الثامن

أشعة الصباح تضيء الحطام

ذلك اليوم كان صافياً وبارداً جداً من أيام كانون الثاني، وكان أول من فكر بالنزول إلى الطابق السفلي، هو السيد توليفر: سطوع الشمس على أغصان أشجار الكستناء والسطوح المقابلة لنافذته جعلت صبره ينفد ويقرر النزول في الحال: اعتقد أن كل شيء سيبدو أكثر بهجة تحت أشعة الشمس الساطعة، لأنه لم يدرك بعد أن العراء يكسو المكان في الأسفل والفراغ ممتد على مد النظركان لديه انطباع في ذهنه أن الأحداث انتهت البارحة فقط عندما تلقى الرسالة من السيد غور.

وكانت هناك محاولات حثيثة لإقناعه بأن عدة أسابيع مرت على تلك الحادثة قضى فيها طريح الفراش، حتى أن السيد ترنبسول قد بدأ اليأس يدب في أوصاله لجعل مريضه يستعد لمواجهة الحقائق كما هيلكن الأسلوب المقنع والناجح يكون من خلال خوض تجربة جديدة - وليس باستعمال مجرد كلمات، يبقى أثرها ضعيفاً أمام هذه الكارثة التي ولدتها تجربته القديمةتلقت الزوجة والولدان خبر نزوله إلى الطابق السفلي، برعشة وخوفقالت السيدة توليفر بأنه يتوجب على توم تأجيل ذهابه إلى بلدة القديس أوغ - وأن عليه الانتظار لمشاهدة والده عندما ينزل للأسفل: وتوم بدوره وافق على تأجيل موعده، على الرغم من تمنعه الشديد داخلياً من مراقبة المشهد المؤلم بدأت قلوب الثلاثة تخفق بشدة خوفاً وحزناً. لأن شركة غيست لم تشتر الطاحونة: الأرض والطاحونة كلتاهما أصبحتا تحت رحمة السيد واكيم، الذي أبدى رغبته أمام السيد دين والسيد غليك والسيدة توليفر، بأن يسمح للسيد توليفر بالعمل كمدير عنده في حال شفائه، ولقد وضع هذا الاقتراح قيد النقاش العائلي وأجمع معظم الأقارب بأن عرضاً كهذا لاينبغي رفضه أبداً.

وهذه فرصة للسيد توليفر ليعيل زوجته وولديه دون مساعدة أقارب زوجته، أو حتى دون أن يتلقى إعانة خيرية تفقده هيبته واحترامه بين الناس، وتسيء للعائلة أيضاً!

السيدة غليك اعتبرت أنه من المفترض أن لايهين السيد توليفر نفسه أكثر من ذلك وأن يرتدع ويأخذ درساً مفيداً من تصرفاته الخاطئة ومن جرأته في التعامل مع الآخرين.

أما السيد غليك والسيد دين فقد كانا أقل صرامة وحزماً بهذا الخصوص، لكنهما اتفقا على أن توليفر أخطأ بما فيه الكفاية وكان حاد المزاج سريع الانفعال: أما واكيم فقد أبدى مشاعر طيبة - وهو لايحمل أية ضغينة في قلبه تجاه توليفر.

احتج توم على هذا الاقتراح: لم يشأ أن يرى والده تحت رحمة واكيم، إلا أن حزن أمه الشديد أخرسه، وجمَّده في مكانهكانت تتوسل له بشكل مستمر وتسأله "أوه حبيبي، ما الذي فعلته حتى أستحق ذلك البؤس الشديد، من بين كل النساء الأخريات؟ "، حتى أن ماغي بدأت تشك بأن فطنة أمها البائسة سوف تخونها تماماً.

عندما خرجا معاً من غرفة أبيهما قالت ماغي: "توم، علينا أن نمهد الموضوع لوالدنا قبل أن ينزل للأسفل يجب أولاً إبعاد ماما عن الجو. لأنها سوف تتعثر بكلمات تسيء له أكثر. اطلب من كيزيا استعدائها، وجعلها تنشغل في أعمال المطبخ بعض الوقت".

كانت كيزيا مخلصة لعملها، وصَرّحت عن نيتها بالبقاء في المنزل حتى يتعافى السيد سواء "بأجر أو بلا أجر".

نزلت السيدة توليفر بكل خضوع إلى الطابق السفلي: أن تتلقى الأوامر من خادمتها فهذه هي البقايا الأخيرة لكرامة منزلها - ولن يكون لديها قريباً أي خادمة توبخها.

كان السيد توليفر يرتاح في كرسيه قليلاً بعد جهد بذله لارتداء ملابسه، وجلس قربه كل من توم وماغي، عندما دخل لوكي ليسأل فيما إذا كان بمقدور السيد النزول.

"أي، أي لوكي، توقف قليلاً، اجلس "، قال السيد توليفر مشيراً بعصاه نحو الكرسي، وحدق به بنظرة مَنْ يتماثل للشفاء، كان مثل طفل يطيل النظر بمربيته. لأن لوكي طالما جلس ساعات طوال من الليل قرب سرير سيده منتظراً لحظة عودته لوعيه.

سأل السيد توليفر: "كيف وضعُ المياه الآن، إيه لوكي؟ لم يسدّ ديكس المياه عنك ثانية، إيه؟". "لايا سيدي، كل شيء على ما يرام".

"أي، لاأعتقد هذا: سوف يكون في عجلة من أمره ثانية، رايلي سوف يضبطه الآن.

هذا ما كنت أقوله لرايلي البارحةقلت".

اتكأ السيد توليفر للأمام، واضعاً مرفقيه على ذراعي الكرسي، وهو يحدق

بالأرض وكأنه يبحث عن شيء ما، ويبذل قصارى جهده لمشاهدة صور تتلاشى أمامه، مثل رجل يقاوم النعاس خوفاً من أن يغلبه نظرت ماغي إلى توم بحزن صامت - كان والدهما يعيش في ماضيه بعيداً جداً عن حاضره، الذي سيقتحم عما قريب تساؤلاته الحائرة، ويعيده إلى وعيه! كان توم مستعداً تقريباً للانصراف والهروب من تلك اللحظة المؤلمة.

قالت ماغي وهي تضع يدها عليه: "بابا، ألا تذكر بأن السيد رايلي قد مات؟".

قال السيد توليفر بحدة وهو يتفحص وجهها ملياً بنظرة حائرة:

"مات؟".

"أجل لقد مات، بجلطة دماغية منذ حوالي عام تقريباً، أذكر أنني سمعتك مرة تقول ستدفع له النقود، لقد ترك بناته في وضع سيء - إحداهن كانت تدرس في مدرسة الآنسة فيرسن، تلك المدرسة التي التحقت بها كما تعلم".

"آه؟ "، قال والدها وهو لايزال يتفحص وجهها بإمعان وحالما بدأ توم بالكلام استدار والده ليحدق به بنظرات متسائلة أيضاً، وكأنه تفاجأ بوجود هذين الشابين كلما سبح خياله في أجواء الماضي، سقط في حالة اللاوعي، واندهش عندما نظر إلى وجوههما: لأنه لم ير ذلك الغلام وتلك الفتاة الصغيرة اللذين شاهدهما في ذلك الماضي.

قال توم: "مضى وقت طويل منذ حصل شجار بينك وبين ديكس يا بابا. أذكر حديثك عنه من انقضاء ثلاث سنوات، قبل أن ألتحق بمدرسة السيد ستيلنغ.

لقد صار لي في تلك المدرسة ثلاث ستوات، ألا تذكر؟".

استند السيد توليفر للخلف ثانية، وقد طرأت في ذهنه عدة أفكار جديدة، قال بعد دقيقه أو اثنتين :

"أي، أي، لقد دفعت كمية من النقود ـ كنت مصمماً يا بني على منحك ثقافة ممتازة: لم أحصل على مستوى تعليمي جيد، لذلك حاولت أن أعوض فيك ما فقدته وهذه أفضل ثروة يكسبها المرء: هذا ما كنت أقوله دوماً ـ إذا كان على واكيم أن ينافسني ثانية".

لدى ذكر اسم واكيم اهتزت مشاعر جديدة، وبعد لحظة صمت بدأ ينظر إلى المعطف الذي يرتديه، ويتحسس جيبه، ثم استدار نحو توم، وقال بطريقته الحادة المعروفة:

"أين وضعوا رسالة غور؟".

كانت الرسالة قريبة منه، في الدرج، لأنه غالباً ما كان يسأل عنها من قبل.

سأل توم وهو يعطي الرسالة لأبيه: "هل تعرف مضمون الرسالة يا بابا؟".

أجاب السيد توليفر بغضب إلى حد ما: "كن واثقاً بأنني أعلم، وماذا يعني هذا؟ إن كان فيرلي غير قادر على جمع الثروة، فهنالك شخص ما يستطيع: هنالك كم هائل من الناس في كل العالم بالإضافة إلى فيرلي وهناك مذكرة مهمة عليّ استلامها. هيا اذهب يا لوكي، وأخبرهم كي يجهزوا لي الحصان والعربة بمقدوري النزول إلى بلدة القديس أوغ - إن السيد غور يتوقع مجيئي".

انفجرت ماغي متوسلة: "لاوالدي الحبيب! لقد مرّ زمن بعيد على هذا: صار لك صريع المرض عدة أسابيع - أكثر من شهرين تقريباً - لقد تغير كل شيء".

حدق السيد توليفر بالأشخاص الثلاثة مذعوراً: فكرة أن الكثير مما حدث، لم يسمع به، قيدته وجعلته أسير الغفلة، كل ما قيل له بدا في غاية الغرابة.

قال توم، مجيباً على حيرة والده :

"أجل، بابا. لست في حاجة لأن تجهد نفسك بالعمل حتى تتماثل للشفاء تماماً: في الوقت الحالي كل شيء مستقر - بخصوص الطاحونة والأرض والديون".

قال الوالد بغضب: "ما هو المستقر، إذاً؟".

قال لوكي: "لاتكترث لهذا كثيراً يا سيدي. بوسعك أن تدفع جميع المبالغ. هذا ما كنت أقوله لتوم - قلت إنَّكَ تستطيع تسديد ديونك".

أحس لوكي الطيب، بعد قضاء سنوات طويلة في الخدمة، أن من واجبه التعاطف مع أحزان سيده وعائلته. كان ينطق بهذه الكلمات على الدوام، وقد اعتاد على قولها لتوم مراراً وتكراراً كلما أبدى تمنعاً في قبول تسديد مبلغ خمسين جنيهاً من أموال الولدين المدخرة.

قال بغضب وحنق، وقد تورد وجهه، ولمعت عيناه: "أدفع جميع المبالغ؟ لماذا،ماذا،هل جعلوني مفلساً؟".

قالت ماغي التي أحست برهبة الكلمة: "أوه بابا، والدي الحبيب! تَحمَّل هذا - لأننا نحبك - سوف يحبك والداك إلى الأبد. توم سوف يسدد جميع المبالغ، هو يقول بأنه سيفعل عندما يصبح رجلاً".

أحست بأن والدها بدأ يرتعش - ارتعش صوته للغاية، عندما قال بعد بضع لحظات:

"أي، حبيبتي الصغيرة، ربما لن أعيش طويلاً".

قال توم بجهد بالغ:

"ربما سوف تعيش لترى ابنك يسدد جميع الديون يا بابا".

قال السيد توليفر وهو يهز رأسه ببطء: "أي، ولدي الصغير، ما كسر من الصعب إصلاحه ثانية: مازلت في السادسة عشرة من عمرك - والعمل شاق عليك كثيراً - لاينبغي عليك إلقاء الأعباء على كاهل والدك الآن، لقد حمله الأنذال فوق طاقته وأنا منحتك ثقافة جيدة - حتى تشق بها طريقك الوعرة".

شيء ما في حلقه خنق الكلمات الأخيرة. ذعر الولدان عندما شاهدا وجه والدهما قد تورَّد، لأنه غالباً ما كان يتغير لونه إلا عندما يتعرض لنوبة شلل، إلا أن التورد زال على الفور وشحب لون وجهه، وبدا مرتعشاً. لم يتفوه توم بكلمة: كان لايزال يقاوم رغبته بالانصراف والهروب من مشاهدة اللحظات المؤلمة. ظل والده هادئاً تماماً مدة دقيقة أو دقيقتين، لم يكن يجهد نفسه في التفكير بشيء.

قال في منتهى الهدوء، وقد تملكته ببساطة رغبة كبيرة لمعرفة ما حدث: "إذاً، لقد باعوا كل ممتلكاتي؟".

قال توم بقلق محاذراً أن يذكر بأن واكيم هو من اشترى الممتلكات: "لقد تم بيع كل الممتلكات يا بابا، ولا نعرف كل شيء بعد، فيما يتعلق بالطاحونة والأرض".

قالت ماغي: "بابا، لاينبغي أن تصاب بالدهشة عندما ترى المكان في الأسفل خالياً من كل أثاث أمّا كرسيك ومكتبك فما يزالان في مكانهما - لم يباعا".

قال السيد توليفر، وهو يتكئ على عصاه، ويمد يده الأخرى نحو لوكي: "دعنا نذهب - ساعدني بالنزول، يا لوكي - سوف أذهب لأرى كل شيء بأم عيني".

قال لوكي وهو يمد ذراعه لسيده: "آي، سيدي سوف تقرر بنفسك عندما ترى كل شيء: سوف تعتاد على الأمر. هذا ما كانت تقوله لي أمي".

هرعت ماغي للأسفل للتأكد بأن كل شيء على ما يرام في تلك الردهة الموحشة!حيث بدت النار المتقدة في الموقد وكأنها جزء من الدمار المخيم على كل شيء.

أدارت كرسي والدها، ودفعت الطاولة جانباً لتسهل له العبور، ثم وقفت مضطربة بقلب مرتعش تنتظر دخوله وتتأمل المكان المقفر لأول مرة.

تقدم توم أمامه، ووقف بجانب ماغي - أحست ماغي بأن الغرفة واسعة الأرجاء، ربما الحزن جعلها تبدو كبيرة جداً!

إلا أن مشاعر الولد مختلفة: أحس برغبة جامحة للانصراف، وذبح أسد نيمن[1]،

أو أداء أي عمل بطولي يثبت فيه رجولته، ويتخلص من ذلك الألم الفظيع.

وقف السيد توليفر عند الباب، مستنداً إلى لوكي، وهو يحملق بالأمكنة العارية، التي لم يستطع إلا أن يتخيل الأثاث موجوداً فيها. بدا وكأنه يستعيد كامل قواه من جديد.

قال ببطء متجهاً نحو كرسيه: "آه! لقد باعوا كل ممتلكاتي- باعوا كل شيء!".

ثم جلس وألقى بعصاه جانباً، بينما غادر لوكي الغرفة".

قال: "لقد تركوا كتاب الإنجيل الكبير. فيه أشياء كثيرة - صار له عندي منذ ولادتي وحتى زواجي - أحضره لي يا توم".

وضع الإنجيل أمامه مفتوحاً، وبينما كان يقرأ فيه بعينين باهتتين، دخلت السيدة توليفر الردهة، لكنها جثمت صامتة في مكانها وقد أصابتها الدهشة عندما وجدت زوجها هناك، والإنجيل العظيم أمامه.

قال وهو ينظر إلى البقعة التي أشار إليها بأصبعه: "آه، والدتي اسمها مارغريت بيتون - ماتت عندما كانت في السابعة والأربعين من عمرها: عائلتنا لاتُعَمِّر كثيراً إننا ولدا أمنا - أختي الحبيبة وأنا - سوف نخلد باكراً إلى راحتنا الأبدية".

صمت قليلاً وهو يتأمل سجل مولد أخته وزواجها، وكأن أفكاراً جديدة خطرت بباله: ثم حدق إلى توم فجأة، وقال بلهجة حادة لاتخلو من الذعر :

"لم يطالبوا موس بالأموال التي أقرضتها له، هل طالبوه؟".

قال توم: "لا، بابا، لقد أحرقت المذكرة".

عاود السيد توليفر القراءة ثانية، وقال على الفور:

"آه إليزابيث دودسن كانت في الثامنة عشرة عندما تزوجتها".

اقتربت السيدة توليفر، ونظرت إلى الصفحة، وقالت :

"كان ذلك في الخامس والعشرين من آذار".

نظر إليها زوجها بشوق، وقال :

"حبيبتي المسكينة، كنت جميلة جداً- كل شخص كان يعترف بجمالك - ولطالما أعجبت بنظراتك المميزة والآن تقدمت في العمر - وتتحملين ضعف إرادتي وقلة حيلتي- أقدر لك هذا - لقد تعاهدنا على أن نتشارك الأفراح والأتراح".

---

[1] أسد نيمين: قتل هذا الوحش كان من أول الأعمال الإثني عشر الشاقة التي أنجزها هيرقليس.

قالت السيدة البائسة، وقد ارتسمت نظرة قداسة غريبة على وجهها :

"لم أتخيل أن تصل بنا الأقدار إلى هذا الحظ التعيس - لقد زوجني والدي، وتحمَّل فراقي- لكي أصل إلى هذه الحالة!".

قالت ماغي: "أوه ماما، لاتتكلمي بهذه الطريقة".

"لا، أعرف بأنك لن تسمحي لأمك التعيسة أن تتفوه بكلمة- هذا ما اعتدت عليه طوال حياتي - والدك لم يأبه أبداً لما كنت أقوله - ولم أستفد شيئاً من تقديم توسلاتي له - و الآن لافائدة أيضاً من الرجاء ولا من الصلاة، حتى لو جثوت على يديّ وركبتيّ".

قال السيد توليفر، الذي أحس بشيء من الصواب في كلام زوجته: "لاتقولي هذا يا حبيبتي إن كان بمقدوري إصلاح ما حدث، فلن أرفض لك طلباً".

"إذاً علينا البقاء هنا وكسب عيشنا، ويمكنني العيش وسط إخوتي-و سأبقى زوجة مطيعة لك ولا أخالفك من بداية الأسبوع حتى نهاية الأسبوع والجميع يشهد بذلك- ولا أحد يتكلم عني إلا بالخير- لكنك تحاملت كثيراً على واكيم".

قال توم بصرامة :

"ماما، ليس هذا الوقت المناسب للحديث عن واكيم".

قال السيد توليفر: "دعها تتكلم قولي يا حبيبتي ماالذي تقصدينه؟".

"واي، الطاحونة والأرض وكل الممتلكات أصبحت بيد واكيم، لقد سيطر على كل شيء. ما الفائدة من معارضته الآن؟ - عندما يقترح عليك البقاء هنا، ويعاملك بلطف، ويسمح لك بأن تعمل مديراً لديه، وتتقاضى ثلاثين شلناً أسبوعياً، وتركب حصاناً تمتطيه إلى السوق؟ هذا أفضل من أن نعيش مشردين، أو نسكن في إحدى أكواخ القرية- ويعاني ولدانا من الفاقة والحرمان- كل هذا بسبب عنادك ومعاملتك القاسية مع الآخرين".

غاص السيد توليفر في كرسيه، وبدأ يرتجف

قال بصوت منخفض: "بوسعك أن تفعلي ما شئت يا حبيبتي لقد جلبت لك الفقر والمذلة- لم يعد هذا العالم يعني لي شيئاً- إنني مجرد رجل مفلس - لافائدة من العيش الآن، ليس هنالك ما أعيش لأجله".

قال توم: "بابا، إنني لم أوافق ماما، ولا أعمامي على ما قالوه، ولا أقبل أن تذلَّ نفسك أمام واكيم أستطيع الآن أن أكسب جنيهاً أسبوعياً، وأنت كذلك تستطيع أن تعمل شيئاً عندما تتعافى".

لا تقل المزيد يا توم، لاتقل المزيد: سمعت هذا اليوم ما يكفيني أعطني قبلة يا حبيبتي، ودعينا نتحمل مصائبنا معاً: لن نسترجع شبابنا أبداً- لقد عانيت الكثير من هذا العالم".

الفصل الثامن

بعد تلك اللحظة الأولى من نكران الذات والخضوع، عانى الطحان من صراع ذهني شديد، ليستعيد كامل قواه الجسدية والمعنوية، حتى يكون قادراً على مواجهة الظروف الصعبة التي وجد نفسه فيها فجأةً تلك الأعضاء الذابلة استكانت للأمر الواقع، وعندما يرهقنا المرض، يبدو من المستحيل مواجهة أي أمر، أو الإيفاء بوعود قطعناها على أنفسنا وأمام الآخرين.

مرت لحظات كثيرة وتوليفر المسكين يفكر كيف يفي بوعده تجاه زوجته، بدا الأمر غاية في الصعوبة: لقد وعدها بأن يلبي لها مطالبها دون أن يعرف ما هي تلك المطالب - لقد حملته فوق طاقته، كما لو أنها طلبت منه أن يحمل طناً من الأثقال فوق ظهره وهي بدورها أحست بأنها تتحمل مصاعب كثيرة لأنها تزوجت رجلاً مثله فكر في إمكانية أن يسدد جميع ديونه من راتبه، وأن يقبل بأي عمل يفرض عليه لقد عاش حياة سهلة، اعتاد على إعطاء الكثير من الأوامر، وممارسة القليل من العمل، ولم يكن لديه استعداد للبدء بأي عمل جديد. ولا بد له من تحمُل الأعمال الشاقة اليومية، ولا مفر من اعتماد زوجته على مساعدة أخواتها - بدا المشهد مؤلماً للغاية بالنسبة له، فقد سمحت أخواتها ببيع كل أشيائها الثمينة، ربما لأنهن أردن أن تتحامل على زوجها الذي وضعها في ذلك المأزق الحرج، وأن تشعر بأنه السبب في كل مصائبها.

لقد كان يستمع إلى عتابهم له، ومطالبتهم بأن يقبل بأي عمل لأجل خاطر زوجته، وهو يتحاشى أن تلتقي عيناه بعيونهم، وعندما أداروا له ظهورهم، كان يلاحقهم بعينين براقتين دون أن يحسوا بنظراته المسروقة ولم يكن بوسعه إلا الأخذ بنصيحتهم لأنه بحاجة لمساعدتهم! يا لها من مهانة حقيقية! ولكن أكثر ما كان يحز في قلبه تلك الأيام الغابرة عندما كان ولداً في عمر ابنه توم.لقد عاشت عائلة توليفر على تلك البقعة من الأرض عدة أجيال، وكان يجلس على مقعد منخفض في ليالي الشتاء الباردة، مصغياً إلى والده وهو يتحدث عن الطاحونة القديمة، قبل حادثة الطوفان الهائل الذي جرف معه كل شيء وألحق الضرر بالمزروعات والبشر، وكيف بنى جده طاحونة جديدة.

أحس بتعلق شديد بموطنه القديم كانت تشده إليه عاطفة جياشة، وترسم له الذكريات أحلى الأيام، كان يسمع صوت كل بوابة وكل باب، ويشعر بجمال الرابية وسطح المنزل، لقد ترعرع، ونشأ هنا وروحه معلقة بتراب ذلك المكان الدافئ راودته تلك الذكريات الرائعة ،و أصبحت ذاكرته قوية خلال ساعات الاستسلام.

في أحد أيام الظهيرة، وقف عند بوابة البستان يتأمل أرضه الطيبة، وقال: "أي، لوكي، أذكر اليوم الذي زرعوا فيه أشجار التفاح. كان والدي رجل ضخم البنية، يعمل بحيوية ونشاط وكأنه يراقص أشجار الحقل - وقد اعتدت على مرافقته خلال الأيام الباردة، وكنت ألحقه مثل جرو صغيرسوف تفتقدني الطاحونة القديمة يا لوكي هنالك قصة سمعت والدي يرويها منذ زمن بعيد، عندما تبدّل الطاحونة يديها، ويغضب النهر. لاغرابة في هذه القصة، فكل شيء ممكن الحدوث في هذا العالم المليء بالألغاز!".

قال لوكي متعاطفاً معه:

"أي سيدي، من سخرية الأقدار أن تتغلب الأيام علينا بهذا الشكل".

تابع السيد توليفر: "يبدو لي وكأن تلك الأحداث قد انتهت البارحة فقط، عندما انتهى أبي من رش بذور الشعير. أذكر ذلك اليوم، عندما انتهوا من جمع الشعير في بيت التخزين، في ذلك اليوم كانت تنتظرنا وليمة كبيرة وأنواع لذيذة من الحلوى - كانت أمي ماهرة في صنعها - كانت امرأة جميلة ذات عينين ساحرتين لونهما أسود غامق - حبيبتي الصغيرة تشبه جدتها كثيراً وكأنهما شقي بسلة واحدة "— هنا يضع السيد توليفر عصاه بين ساقيه، ويتناول منديله، فقد أحس بمتعة كبيرة، وهو يسرد حكايته النادرة

"كنت ولداً صغيراً، وكانت أمي متعلقة جداً بي وبأختي، كنت أسألها، ماما، هل سنأكل الحلوى اللذيذة كلما جمعنا الشعير في بيت المؤونة؟ وكانت تعدني دائماً بتناول أشهى الحلويات. ماتت وهي شابة، كنت أراقبها أينما ذهبت".

قال لوكي: "أي، سيدي، إن الأماكن التي تربينا فيها تبقى غالية على قلوبنا. والأيام لاتمضي في صالحنا. ومن المؤسف جداً أن يغير المرء موطنه".

"أخشى عليك يا لوكي، سوف تسكن في مكان سيء: لابد لي من فعل شيء ما حيال الطاحونة".

قال لوكي: "لاتكترث يا سيدي، لن يصيبني أي سوء. أخدمك منذ عشرين سنة وسأبقى ملازماً لك. وما عليك إلا أن تنتظر رحمة الله وفرجه".

انتهى حديثهما عند هذا الحد، لأن لوكي لم يُطِلْ كلامه العقيم والمعروف مسبقاً، والسيد توليفر آفاق من ذكرياته السعيدة التي لاتعود، ليشهد واقعه المؤلم، وفَكَّر بالصعوبات التي يتعرض لها الآن.

لاحظت ماغي أن والدها لم يشرب الشاي كالمعتاد في ذلك المساء، وبعد ذلك جلس في كرسيه، محدقاً بالأرض، وهو يحرك شفتيه ويهز رأسه من وقت لآخر. ثم نظر بقسوة إلى السيدة توليفر، التي كانت تحيك قبالته، وبعد ذلك نظر إلى

ماغي التي انحنت تخيط بجانب أمها. أدركت ماغي بأن قصة حزينة تدور في خلد والدها. التقط فجأة قضيباً معدنياً لتحريك النار وكسر فحمة كبيرة بشراسة

قالت زوجته محدقة به بخوف: "حبيبي سيد توليفر، بماذا تفكر؟ من العبث إتلاف الفحم بهذا الشكل، لم يتبقَّ لدينا مزيدٌ منه، ولا أعلم متى نحصل على كمية كافية من الفحم".

قالت ماغي: "لاأعتقد أنك على ما يرام هذه الليلة يا أبتاه، أليس كذلك؟ تبدو قلقلاً".

قال السيد توليفر بصبر نافذ: "وايَ، لماذا لم يأت توم؟".

قالت السيدة توليفر وهي تضع حياكتها جانباً، وتغادر الغرفة: "حبيبي! هل حان الوقت؟ يجب أن أذهب لأعد له العشاء".

قال السيد توليفر: "لم تدق الساعة الثامنة والنصف بعد. سوف يأتي في الحال. اذهبي، اذهبي، وأحضري الإنجيل الكبير، وافتحه أولاً، ثم أحضري قلماً وحبراً".

أطاعت ماغي، وهي في حيرة من أمرها: والدها لم يطلب أي شيء بعد ذلك، جلس مصغياً إلى وقع أقدام توم على الحصى الصغيرة، وإلى صوت الرياح التي تحركها، والتي كانت تزأر طاغية على كل الأصوات حولها. بدا في عينيه وميض غريب جعل الخوف يتسرب إلى قلب ماغي تمنت لو يصل توم في الحال.

قال السيد توليفر بطريقة مثيرة، عندما طرق الباب أخيراً: "ها قد جاء". ذهبت ماغي لتفتح الباب، وخرجت والدتها من المطبخ مسرعة وهي تقول: "توقفي قليلاً يا ماغي، سوف أفتحه بنفسي".

بدأت مشاعر الخوف تنتاب السيدة توليفر على ابنها، قالت، بينما كان يخلع قبعته ومعطفه: "عشاؤك جاهز قرب موقد المطبخ، يا ولدي عليك أن تتناوله، لن أحدثكَ حتى تنتهي".

قالت ماغي: "أعتقد أن بابا يريد التحدث إلى توم يا ماما، عليه أن يدخل أولاً إلى الردهة".

دخل توم والحزن مرسوم كالعادة على وجهه، ولكن وقع نظره في الحال على الإنجيل المفتوح والمحبرة، وحدّق بوالده، وقد ارتسمت علائم الدهشة والقلق على وجهه. قال والده: "تعال، تعال، لقد تأخرت - أريدك في أمر".

قال توم: "هل من خطب يا أبتاه؟".

قال السيد توليفر بحزم: "اجلسا هنا وأنت اجلس هنا يا توم، لدي ما أقوله لك، وأريدك أن تدونه في كتاب الإنجيل".

جلس الثلاثة قبالته، وهو يحدقون به بدأ يتكلم ببطء، وهو ينظر أولاً إلى زوجته

"لقد قررت يا حبيبتي، أن أفي بعهدي لك لم يعد هنالك مجال لأن نتحمل مصاعبنا سويةً عليّ أن أتحمل نتيجة خطئي لوحدي سأبقى في هذا المكان، وسأعمل عند واكيم - وسوف أخدمه كرجل شريف: ليس هناك أحد في عائلة توليفر إلا والشرف ميزته الأساسية، تذكر هذا جيداً يا توم "— هنا يرتفع صوته: "لقد تحاملوا عليّ، ورموني لأنني دفعت الفوائد هذا ليس خطئي - حصل ما حصل بسبب هؤلاء الأوغاد المنتشرين في أصقاع الأرض

لقد دفعت الثمن باهظاً - والآن سوف أضع رقبتي تحت النير - لأنك محققة بأن تقولي بأنني سببت لك المتاعب يا حبيبتي - وسوف أخدم الآخرين، وأقوم بعملي كرجل شريف على أكمل وجه، وسوف أعامله كما لو أنه ليس رجلاً وغداً: إنني رجل شريف، بالرغم من أنني لن أرفع رأسي عالياً بعد الآن، ولن أعتز بكرامتي - لقد أصبحت مثل شجرة هرمة حان قطعها - مثل شجرة هرمة حان قطعها".

صمت قليلاً، وحدق بالأرض ثم رفع رأسه فجأة، وهو يقول بنبرة عالية:

"لكنني لن أسامحه أبداً! أعرف ما يقولونه - أنه لم يتسبب أبداً في أذيتي بهذه الطريقة كان هاري العجوز يؤيد الأوغاد - كان في الدرك الأسفل في كل شيء - أعلم، أعلم - بأنه كان سيداً أنيقاً. يقولون بأنه ما كان عليّ أن ألتجئ للقانون

مَنْ كان سيفصل في ذلك النزاع؟! وهل من الممكن أن تتحقق العدالة؟ لم يشهد أحد ضده - أعرف ذلك، إنه واحد من السادة المتأنقين الذين يشترون ضمائر الفقراء، لأنه لو تخلى عنهم لأصبحوا شحاذين، يقدم لهم الإحسان مقابل سحق كرامتهم لن أسامحه! أتمنى أن يلحق به العار ويلازمه كل حياته، حتى يتنكر له ابنه، ويتمنى لو ينسى بأن كان له أباً وغداً. أتمنى أن يقترف خطأً، وتدوسه الأقدام! لن يفعل - إنه وغد محترف ولن يسمح للآخرين أن يثبتوا ضده أي شيء. إنه يجير القانون لمصلحته، ويتلاعب على الشرفاء. تذكر هذا جيداً يا توم - عليك ألا تنسى ما أقوله لك أبداً، إن كنت حقاً ولدي

سيحين الوقت كي تجعله يندم على ما اقترفت يداه- وربما لن أشهد ذلك اليوم لقد وضعت رأسي تحت النير، وانتهى الأمر. والآن اكتب - اكتب هذا في الإنجيل".

قالت ماغي وهي تجثو فوق ركبته، شاحبة مرتعشة: "أوه، بابا، ماذا تقول؟ إنه لعمل شرير أن تلعن الآخرين، وتحمل في قلبك الحقد والضغينة".

قال الأب بشراسة: "أقول لك، هذا ليس عملاً شريراً. الشر هو ما يفعله الأوغاد - إنه عمل الشيطان افعل كما أقول لك يا توم هيا اكتب".

قال توم بخضوع: "ماذا أكتب يا والدي؟".

"اكتب باسم والدك، ادوارد توليفر، الذي عمل تحت إمرة جون واكيم، الرجل الذي كان له دور في تدمير حياته، ولأنني أرغب بالالتزام بعهدي أمام زوجتي لأُصْلِحَ ما فات، وأجنبها التورط في مشاكل أكبر، ولأنني أتمنى الموت في موطني القديم، حيث ولدت، وولد أبي اكتب هذا بأسلوب صحيح - تعلم كيف يا بني - ثم اكتب، بأنني لن أسامح واكيم أبداً، لأنه أخطأ في حقي، ولأنني سأخدمه بشرف رغم كل آثامه، وأتمنى أن تحل عليه لعنتي اكتب ذلك".

ساد صمت قاتل بينما ينقل توم قلمه على طول الورقة: بدت السيدة توليفر مذعورة، وارتعشت ماغي مثل ورقة في مهب الريح.

قال السيد توليفر: "والآن دعني أسمع ما كتبته".

قرأ توم ببطء وبصوت عالٍ :

"والآن اكتب - اكتب بأنك ستتذكر ما فعله واكيم بوالدك، وستجعله يشعر بالندم حيال آثامه، إن جاء ذلك اليوم المناسب ووقع اسمك توماس توليفر".

قالت ماغي، وقد خنقها الخوف تقريباً :

"أوه، لا، بابا، والدي الحبيب! لاينبغي عليك أن تلزم توم بتلك الكلمات".

قال توم: "اهدئي، يا ماغي! سوف أكتب الكلمات".

الجزء الرابع

وادي الخزي والعار

الفصل الأول

إختلاف المذهب البروتستانتي

غير معروف بالنسبة لـ باسوت[1]

وأنت تتنزه على طول نهر الراين، في يوم صيفي، ربما انتابك إحساس بالوحشة بينما تتأمل أشعة الشمس الساقطة على تلك القرى المهدمة، التي تخبرك كيف ارتفع منسوب مياه النهر بسرعة هائلة، وانفجر غاضباً مدمراً كل ما فوق الأرض، مرغماً الجميع على هجر منازلهمربما فكرت بإجراء مقارنة غريبة، بين الأثر الذي يولده فينا منظر ذلك الحطام الكئيب للمنازل الفقيرة، والتي كانت في أحسن الأحوال مجرد رمز لحياة قذرة تافهة، وبين تلك المشاعر الحزينة التي تنتابنا عندما تتأمل بقايا قلاع الراين، التي انهارت، وتحولت إلى هذا التناسق ذي الانحدار الصخري الشديد الأخضر اللون الذي بدا، وكأن الطبيعة صنعته، مثل شجرة صنوبر جبليةتلك القلاع كأنها بنيت من قبل أناس امتلكوا قدرة هائلة في فن العمارة، ورثوها عن آبائهم العظماء. لكنها كانت أيام مجيدة ولت بعد حين!لقد دمرت بفضل جشع أولئك السارقين المحترفين - الذين سكنت الوحوش البرية في نفوسهم - كانوا خنازير مفترسة غرست أنيابها في كل مكان، كانت لديهم قوى شيطانية هائلة في السلب والدمار! مثلّوا مفارقة غريبة ما بين المطرب المتجول، والأميرة ذات الشفاه الرقيقة، والناسك الورع، وبين الإسرائيلي الجبان كان ذلك زمن المغامرات والصراعات الشرسة - لا، لم يكن هنالك فن ديني أو حماسة دينية، لأن الكاتدرائيات لم تُبْنَ في تلك الأيام، وهل كان الأباطرة العظماء يغادرون قصورهم الغريبة ويقضون نحبهم قبل أن يسطوا على القلاع الوثنية في الشرق المقدس؟ لذلك كانت قلاع الراين تثير فيّ مشاعر النشوة: إنها تنتمي إلى فترة تاريخية عظيمة من حياة الإنسانية، وتحثني على تخيل طور من أطوار البشرية

لكن هياكل القرى المدمرة على طول نهر الراين أرغمتني على الإحساس بأن الحياة البشرية قبيحة وتافهة وضيقة المعاني، حياة لاتزال تحبو إلى الوجود

---

[1] باسوت: العضو في الكنيسة والفيلسوف الفرنسي العظيم جاك باسوت (1627 – 1704) طبع كتابه " تاريخ الاختلاف في المذهب البروتستانتي والانكليزي " عام 1688

لتطمس معالم ذلك العري القبيح.

تولدّت لدي قناعة قاسية مفادها أن ذلك المشهد المؤلم من اللاوعي الإنساني كان يوماً ما وليد طاقة حيوية بشرية هائلة أصبحت طي النسيان.

ربما تولَّدَ لديك إحساس مشابه لهذا الشعور الجائر الذي يرخي بثقله على صدر الإنسان، عندما تراقب حياة عائلة موغلة في القدم، عاشت طويلاً على ضفاف نهر الفلوس، حياة حتى المآسي لاتكفي للتعبير عنها، إنها لم تصل إلى مستوى رواية مليئة بأحداث كوميدية وتراجيدية معاً. إنك تقول بأن حياة عائلتي توليفر ودودسن حياة قذرة - لم تتوج بمبادئ سامية، ولا برؤى رومانسية، ولا حتى واقعية، ولا إيمان بتحقيق الذات - لم تتأثر بتلك العواطف التي لايمكن ضبطها مما ساهم في خلق حالات داكنة من البؤس والجريمة - لم تكن حياة بسيطة، عبّرت فيها الطفولة عن مسراتها، وأطلقت العنان لجناحي البراءة لتحلق في فضاء رحب بعيداً عن كل القيود. وهنا يتمسك المرء بأفكار تقليدية وعادات عمياء دون أن يهذبها، ويصقلها بشكل حضاري - بالتأكيد هذا شكل من أكثر النماذج المبتذلة للحياة الإنسانية: التفاخر بركوب عربة ضخمة، والاعتزاز بالممتلكات الدنيوية الزائلة! وبمراقبة هؤلاء الناس من منظور ضيق، حتى بعد أن توقظهم قبضة سوء الحظ الحديدية من غفلتهم، يدرك المرء أن في حياتهم جانباً دينياً ضئيلاً، لايزال أقل مستوى من العقيدة المسيحية الواضحة للعيان. إيمانهم بالمحسوسات يبدو إلى حد ما كشكل من أشكال الإلحاد، ومبادئهم الأخلاقية، بالرغم من أنها تستند على قاعدة صلبة متماسكة، تبدو ضحلة المستوى ومجرد عادات توارثوها عن الأجداد.ليس بمقدورك أبداً، عزيزي القارئ المثالي، أن تعيش وسط أناس كهؤلاء، لأنك من المؤكد أن تبحث عن منفذ ينقذك من ذلك الجنون المخنوق كي تنطلق إلى عالم أكثر جمالاً وعظمة ونبلاً، سوف يثور غضبك من هؤلاء الرجال والنساء ذوي التفكير الضحل، الذين لم يخلقوا إلا لكثرة العدد وزيادة التناسل - إنه مظهر من مظاهر الكثافة السكانية لكي يحافظوا على النوع البشري على أرض يعيشون عليها - بهذه البساطة وبهذا الخصب كان النهر العظيم يتدفق إلى الأمام باعثاً الحياة في عروق بلدة انكليزية قديمة.

و أنا بدوري أشاركك هذا الإحساس بالضيق والاضطهاد النفسي، ولكن من الضرورة بمكان أن نفهم مدى تأثيره على حياة توم وماغي - وأثره على الكثيرين من أجيال الشباب ومستواهم الفكري المعاناة، سواء أكانت وليدة القاتل أو الضحية، والتي تنتمي إلى كل مرحلة تاريخية من تاريخ البشرية،

تجسد بهذا الأسلوب في كل بلدة، كما يمثلها المئات من القاطنين في المروج الكئيبة، ولسنا بحاجة لأن نخفف من حجم هذه المقارنة بين الأشياء الصغيرة، وبين تلك العظيمة، ألا يقول لنا المنطق بأنه من المفترض أن ترضخ الأشياء الصغيرة لتلك الأكثر عظمة منها؟ في علم الطبيعة، تعلمت أن البقاء للأقوى من المؤكد أن هذا ينطبق على الحياة البشرية!

بالتأكيد كانت الأفكار الدينية والأخلاقية لدى كل من عائلتي دودسن وتوليفر محددة للغاية، بهذا المعنى كان أفراد العائلتين جزءاً من سكان بريطانيا العظمى البروتستانتيين نظريتهم عن الحياة كان فيها جوهر الثبات، وكل النظريات التي آمنت بها العائلات الثرية والمحتشمة، ترعرعت، وازدهرت ولكن أثرها كان ضئيلاً جداً في مجال علم اللاهوت وإن كانت فتيات دودسن في أيام عزوبتهن، يفتحن كتاب الإنجيل في مناسبات خاصة، فذلك بسبب جفاف تويجات زهرة التوليب، دون أن يولين معاملة خاصة للمواضيع التاريخية وأمور التقوى والعقيدةكانت ديانتهن بسيطة، تميل إلى نوع من الإلحاد، لكنها لم تكن زندقة - إن اعتبرنا الزندقة خياراً بين اثنين - لأنهن لم يعرفن بوجود ديانة أخرى، إلا ديانة أولئك الذين يواظبون على الذهاب إلى الكنيسة، هذه العادات التي سرت في عروق العائلتين مثل داء الريو. وكيف لهم أن يعرفوا؟ فكاهن أبرشيتهم الريفية السعيدة لم يكن محباً للجدل، ولم يكن يضيع الفرصة أبداً في إلقاء جو من المزاح على رعايا الكنيسة من الإناث المتألقات اقتصرت ديانة عائلة دودسن على احترام وتبجيل كل ما هو وريث العادات والتقاليد: كان من الضروري أن يُعمّد المرء، وإلا لن يدفن في باحة الكنيسة، وينال القداسة قبل الموت كضمان ضد المخاطر الغامضة، ومن المهم استخدام أشخاص متأنقين لحمل النعش بشكل لائق حتى تكون الجنازة مهيبة تهز النفوسلم تكن عائلة دودسن لترهق نفسها في الغيبيات أو بأي شيء يتعلق بالأمور الخالدة، كان اهتمامها منحصراً بتقاليد العائلة وبالماديات التي توفر العيش الرغيد.

لم يكن شعار دودسن، أن يكون المرء شريفاً وفقيراً، بل كان شعار العائلة هو أن تكون شريفاً وغنياً معاً، بل من الأفضل أن تكون ثرياً أكثر من اللازم أن تعيش محترماً، وتموت بجنازة عظيمة ترفع من قدرك، انجاز من انجازات الوجود!

هنالك ميزة متقلبة الأطوار لدى شخصيات دودسن وهي ميزة الصدق التي يستخدمونها كيفما يشاؤون: الفضائل والرذائل محط إعجاب وفخر عندهم إنهم يكنون العداء لكل من يعارض عقيدتهم

المعتقد التقليدي ذاته سرى في عروق عائلة توليفر، لكنه عشش أكثر في نفوس الأثرياء منهم، وتضمن معتقدهم عناصر من الكرم والطيش، والعاطفة الحارة والاندفاع المحموم

لقد قيل بأن جد السيد توليفر انحدر من سلالة رالف توليفر، وهو شخص فائق الذكاء دمر نفسه كان يقرر كل شيء بنفسه، ويصغي بثقة إلى وجهة نظره فقط من ناحية أخرى، لم يسمع أي شخص عن أحد من عائلة دودسن أنه دمر نفسه: فهذا الأسلوب لم تنتهجه تلك العائلة أبداً.

إن كانت أفكار كهذه قد تبنتها عائلتا دودسن وتوليفر عن الحياة، من المؤكد أنك سوف تستنتج مسبقاً نمط المجتمع في بلدة القديس أوغ. وإن كان الناس يحملون الكثير من الأفكار الوثنية، وبالرغم من ذلك يعتقدون أنفسهم من رعاة الكنيسة المؤمنين، فلا غرابة إذاً أن يعتقد السيد توليفر، وهو الذي يواظب على الذهاب إلى الكنيسة بانتظام، بأن انتقامه مسجل كحق لديه في صفحات إنجيلهلذلك من غير اللائق التفوه بأية كلمة تندد بكاهن تلك الأبرشية الريفية الساحرة التي تنتسب إليها طاحونة دورلكت: كان رجل من عائلة عريقة وواعظ لايمكن إيقاع اللوم عليه في أي أمر - وقد حصل على مراتب شرف، وكوّن صداقات عديدة اعتبره السيد توليفر مَثَلاً له يستحق كل الاحترام، لأنه يؤدي واجبه تجاه الكنيسة وجميع الناس على أكمل وجه، واعتبر أيضاً أن الكنيسة مكان عام يكتسب المرء من خلاله الخبرة في الحياة، ولم يشأ أن يعلمه أحد كيف يستمد خبرته بشكل حسن. إن البذور الروحانية التي بعثرت على السيد توليفر، كان واضحاً أنها خالية من كل احتياطي يتطابق مع الحياة العملية، لذلك كانت الريح تذروها ثانية، ولم تجد أحداً يلملم شملها.

الفصل الثاني

العش الممزق تخترقه الأشواك

وسط الاضطراب الشديد هنالك شيءٌ ما داعمٌ يرافق الصدمات الأولى للمشكلة، تماماً كما يبعث فينا دائماً الألم المبرح، دافعاً قوياً يحثنا على مواجهة المصاعبفالأمل يولد من رحم الأحزان هكذا كانت الحياة تسير بطيئة، في وقت أصبح فيه الحزن تافهاً، ولم تعُدْ هناك قوة عاطفية جياشة تبطل مفعول الألم - في وقت توالت فيه الأيام برتابة قاتلة لايمكن توقعها - أصبح اليأس يهدد كل ما حوله، والروح فقيرة تواقة لمن ينعشها من جديد، والعين والأذن متكلفتان غير آبهتين لأسرار الكون، التي تعطي الإحساس بالنشوة والرضا بعد أن يطلع عليها المرءكانت ماغي بمسيرة حياتها القصيرة التي تجاوزت فقط الثلاث عشرة سنة، بحاجة ملحة لسكينة الروح. لقد شهدت تلك الفتاة في باكورة أيامها تجربة كفاح سابقة لأوانها وصراع بين الدافع الداخلي والواقع الخارجي الذي لايمكن مواجهته إلا بالتحليق في عالم الخيال واسترجاع ذكريات الطفولة الأول عندما كانت تفرغ طاقتها كلها بغرس أظافرها في لعبتها الخشبية وسط الرفوف المتآكلة التي نخرها السوس، في العلية، واللهفة العارمة لكتبها ولأحلام يقظتها التي طالما خلصتها من مآسيها. لقد كبرت ماغي، وتجاوزت كل شيء لكنها لم تفقد حكمتها وبصيرتها للأمور والثقة بالنفسهذه الميزات التي شجعت توم على التصرف برجولة والتخلي عن تفكيره الصبياني. والآن جعلها حظها التعيس تقف على بداية درب هادئ، وتعيش رتابة حزينة، جرفتها أكثر إلى قعر صراعها الداخليكان والدها قادراً على العمل ثانية، وكانت أموره مستقرة، وبدأ عمله كمدير عند واكيم. كان توم يمضي وقته جيئة وذهاباً كل صباح ومساء، وأصبح في الآونة الأخيرة أكثر صمتاً وهدوءاً في المنزل: وهل بقي في جعبته كلمات يتفوه بها؟ اليوم الذي يأتي يشبه سابقه والروتين قاتل النفس الإنسانية، وتوم المتلهف للحياة، التي كانت تخذله دوماً، حاول جاهداً أن يهزم سوء حظه بأماني وطموحات لاتقاوم

غرابة أطوار والديه كانت سبباً في ضجره ومضايقته كثيراً، علاقتهما عارية من كل حميمية مما أثر على بهجة جو المنزل، وبعث الملل في عيني توم الخالية من كل تعبير.

بدا من الصعب على السيدة توليفر أن تستعيد لطفها ونشاطها البيتي: وكيف

بإمكانها أن تستأنف حياتها بالحيوية نفسها؟ فالأشياء التي كانت تشعرها بالرضا عن النفس، ذهبت كلها مع الريح، خابت كل الآمال الصغيرة، وكل المشاريع والطموحات والاهتمامات الصغيرة السارة بأشيائها الثمينة، والتي استمتعت بها مدَّةَ ربع قرن من الزمن، ولّت بلمح البصر، وتركتها حائرة في حياتها الفارغة من كل مضمونلماذا يبتليها القدر بهذا الحظ التعيس، ويختارها من بين كل النساء الأخريات، بقي سؤال محير لايمكن الإجابة عليه، سؤال كانت تردده دائماً وتجري مقارنة بائسة بين حاضرها وماضيهامن المؤسف حقاً أن تشاهد تلك المرأة الجميلة وهي تذوي شيئاً فشيئاً، وتفقد الكثير من رونقها ووجها الوسيم، وتعاني من قلق ذهني وإرهاق جسدي كانت تطوف في أرجاء المنزل الفارغ بعد أن تنتهي من عملها، حتى تناشدها ماغي وترجوها خائفة أن تريح نفسها قليلاً وتقول لها بأن توم سوف يتضايق عندما يراها تؤذي صحتها، وترهق نفسها بالعمل الشاقوعلى الرغم من هذا العجز، كانت هناك ميزة مؤثرة اتسمت بها الأمومة وهي التضحية، الأمر الذي جعل ماغي تشعر بالعطف تجاه أمها المسكينة وسط أجواء المآسي المرهقة التي سببها ضعفها الفكري لم تكن تسمح لماغي بأداء أي عمل يثقل كاهلها، وكانت تؤنبها كلما حاولت مساعدتها وتقول لها: "دعي عنك يا ابنتي، سوف تصبح يداك قاسيتين جداً، هذا العمل لايناسبك، إنه عمل أمك، لكنني لم أعد أستطع الخياطة بعد الآن، لقد ضعف بصري".

كانت الأم لاتزال تسرّح شعر ابنتها بعناية، وقد أصبح شعرها الآن أكثر طولاً وكثافةً لم تكن ماغي طفلتها المدللة، ولكنها، بشكل عام، كانت تبدي اهتمامها بها عندما ترى فيها ما يرضيها، ولأن قلب الأم تحطم وصدم بأحزان غير متوقعة، تمنت أن تنقذ ابنتها من مصير تعيس وإن كان الأمل ضئيلاً!

تعاطف ماغي مع حالة أمها البائسة، كان أقل من تعاطفها مع أبيها الكئيب عندما كان طريح الفراش، بدا دائماً مثل طفل يعتمد على الآخرين في كل شيء - وكان غير مدرك تقريباً لحجم مشكلته، وماغي بدورها أحست برغبة عارمة وبقوة هائلة لتحمل كل المصاعب لأجل خاطر والدها المريض، أما الآن، فقد تحول ذلك الطفل المعتمد على غيره، إلى رجل صامت كئيب، استمر بهذه الحالة يوماً تلو الآخر، وأسبوعاً بعد أسبوع، حتى اختفى ذلك الوميض في عينيه، ولم يعد يشعر بأي شوق أو بهجة في الحياة.

لم يكن السيد توليفر يبتعد عن منزله: لم يذهب إلى السوق، ورفض كل الدعوات واللقاءات وأحاديث التسلية لم يستطع أن يتأقلم مع سوء حظه: لقد تحطم كبرياؤه، وأحس بالبرود في كل شيء، وسعى جاهداً من خلال أحلام يقظته أن يغير ظروفه التعيسة

حتى في الأوقات التي كان يتردد فيها واكيم على الأرض ممتطياً ظهر حصانه ومتفقداً أعماله، لم يكن السيد توليفر يتكدر منه مثلما كان يتضايق لدى اضطراره للذهاب إلى السوق ومقابلة الكثير من دائنيهإن الهدف الذي كرس له كل اهتمامه وتفكيره كان تسديد المبالغ لدائنيه ولتحقيق هذا الهدف لابد أن يغير ذلك الرجل المسرف من مسار حياته وأسلوب عيشه وهذا ما جعله يكره لقاء الناس أكثر. لم تستطع السيدة توليفر أن تتبع سياسة اقتصادية كافية لإرضائه، وهو بدوره لم يكن يأكل شيئاً بناءً على رغبته، وإنما يتناول كل ما يقدم إليه أما توم فعلى الرغم من بؤسه الشديد وتضايقه من عبوس والده الدائم ومن وحشة المنزل الكئيب، فقد حاول الدخول إلى قلب أبيه ومشاركته مشاعره ورغبته بتسديد الديون، فأحضر الغلام المسكين النقود التي ادَّخرها، وقدَّمها عن طيب خاطر إلى والده لكي يضعها في الصندوق القصديري الذي جمعت فيه الأموال اللازمة لدفع الديون كان مشهد ذلك الصندوق يجلب شيئاً من الأمل إلى نفس السيد توليفر عندما كان يتأمله - ولكن ربما تطلب ذلك عمراً مديداً - قبل أن يكتمل المبلغ، ويتخلص الطحان من كابوس الديون الذي يجثم بثقل فوق صدره بدا من الصعب تجميع مبلغ خمسمائة جنيه، من توفير ثلاثين شلناً أسبوعياً، وحتى بعد أن أضاف توم مدخراته إلى الصندوق

الإحساس بالكمال شعور ورثته السيدة توليفر عن عائلة دودسن، وسرى في دمها بشكل طبيعي كانت تحلم بأن يسدد زوجها ديونه، ويستعيد سمعته وكرامته، وبذلك يتسنى لها أن تسترجع كل ممتلكاتها الثمينة انتابها إحساس بالفطرة بأن أولئك الذين يقرضون أموالهم لأناس غير قادرين على تسديدها، لن يتمكنوا أبداً من استرداد أي شيء يخصهم

ولطالما تمتمت قليلاً بأن السيد توليفر رفض بشكل قطعي المطالبة باسترجاع أمواله من السيد والسيدة موس، لكنها كانت تقتصد كثيراً في معيشتها وترضى بالقليل، ولم تبدِ أيَّةَ معارضة إلا عندما ترغب بتحضير عشاء أفضل من المعتاد لأجل توم

ربما يكون هذا المفهوم الضيق عن الديون، الذي تبنته عائلة توليفر، مثيراً لضحك الكثير من القراء في هذه الأيام، ممن لديهم وجهات نظر تجارية ومفاهيم واسعة وفلسفات معمقة حول الحياة لكنني أروي لكم تاريخ أناس بسطاء جداً، ليس لديهم أية شكوك بمبادئ الاستقامة والشرف والكرامة

في ظل كل هذه الظروف المأساوية، احتفظ السيد توليفر بمشاعره تجاه

"صغيرته المدللة "التي كان وجودها حاجة ملحة بالنسبة له، بالرغم من أنها لم تكن كافية لتبعث البهجة في نفسه لاتزال رؤيتها مصدر فرح له، لكن المشاعر الأبوية القوية اختلطت الآن بإحساس بالمرارة والكآبةعندما كانت ماغي تفرغ من عملها ليلاً، كان من عادتها أن تجلس على كرسي منخفض بالقرب من ركبة والدها، وتسند خدها عليها. كم تمنت لو يمسد لها شعرها، أو يبدي ارتياحاً لوجود ابنة تحبه أكثر من كل العالم! لكنها لم تلق أية إجابة لعواطفها الجياشة، لامن والدها ولا من توم - معبودا حياتها.

إذ كان توم مرهقاً وشارد الذهن، ووالدها منشغلاً بآلامه، وهو يفكر كيف أن ابنته تكبر بسرعة - وسوف تصبح عما قريب امرأة، وكيف ستمضي حياتها؟ فلم تكن لديها فرصة مناسبة للزواج في هذا العالم البائس وكم امتعض من فكرة أن تتزوج ابنته من رجل فقير، وتعيش حياة بائسة، كما فعلت أخته الحبيبة: إن حدث هذا الأمر فلن يهدأ باله وسوف يقض مضجعه في قبره - فكر بأن صغيرته سوف تكبر، وتتزوج، وتنشغل بكثرة الأولاد، تماماً كما تفعل عمتها موسعندما تكون العقول الجاهلة محصورة بمجال ضيق للتجربة الشخصية، وتتعرض باستمرار لضغوطات سوء الحظ، يتزايد الصراع الداخلي، وتتفاقم حالة الحزن، وتتشعب الأفكار المؤلمة: الكلمات نفسها، والمشاهد ذاتها تتكرر في كل مرة، والمزاج نفسه يرافقها دوماً - تمر السنة على أولئك الأشخاص بالتواتر نفسه، بداية العام مثل نهايته، لايتغير أي شيء أبداً، وكأنهم مجرد آلات تستعد للسير على وتيرة حركية متماثلة

كان بعض الزوار يكسرون روتين بعض الأيام المتعاقبة وأصبح الأقارب يقومون بزيارات قصيرة جداً الآن: بالطبع، لايمكنهم المكوث طويلاً بانتظار الوجبات الشهية! كما أن صمت السيد توليفر وسط أصداء أصواتهم التي كانت تصدح في أجواء الغرفة العارية من كل أثاث، أضفى جواً من الكآبة والوحشة وإحساساً بعدم الرغبة بضيوفهأما بالنسبة إلى بقية المعارف - فقد ساد جو من البرود في التعامل مع الطبقات الفقيرة في العالم، والناس سعداء جداً بالابتعاد عنهم، كما يهجرون غرفة باردة موحشة: كائنات بشرية، مجرد رجال ونساء، دون أثاث، ودون أي مباهج يقدمونها لك، سبب كاف كي تهجرهم، وتتحاشى رفقتهم

في تلك الأوقات كانت هنالك عزلة موحشة تسود المجتمع المسيحي المتحضر لمالك هذه العائلات التي انحدرت فجأة من عرشها الدنيوي، وأصبحت أقل من المستوى المعتاد، إلا إذا انتسبت إلى كنيسة طائفية، تبعث فيها بعضاً من دفء العلاقات الأخوية

الفصل الثالث

صوت قادم من الماضي

في أحد أيام الظهيرة، عندما كانت أزهار أشجار الكستناء على وشك أن تتفتح، أحضرت ماغي كرسيها، وجلست عند الباب الأمامي واضعة كتاباً على ركبتيها. لم تحدق بعينيها السوداوين إلى الكتاب الموضوع أمامها، ولكن لم يبدُ أنهما مستمتعتان بأشعة الشمس التي اخترقت سطح شجيرة الياسمين الممتدة على الشرفة اليمينية، وألقت بظلال مورقة على خدها المستدير الشاحب، بدا وكأنهما تبحثان عن شيء ما غير مرئيلقد كان يوماً بائساً أكثر من المعتاد: فبعد زيارة له إلى واكيم، أصيب والدها بنوبة غضب، وعلى إثرها أفرغ ما في نفسه من حنق واهتياج، ولسبب تافه ضرب الولد الذي يخدم في الطاحونة تعرض من قبل لنوبة مشابهة وكان الضحية حصانه الذي أوسعه ضرباً، ذلك المشهد المثير ترك أثراً مخيفاً في نفس ماغي خشيت ماغي من تفاقم الوضع أكثر. ربما يأتي وقت، ويفرغ شحنة غضبه فيضرب أمه إن تفوهت بكلمة غير لائقة في تلك اللحظة الحرجةكانت خائفة من أحداث الأيام القادمة: فكرت في احتمال أن يزيد والدها من بؤس حاضره وسوء حظه، فيتصرف بطيش، ويسبب لهما العار، عندئذ يبدو من الصعب إصلاح ما قام بهكتاب توم المدرسي الذي وضعته على ركبتيها، لم يمنحها شجاعةً وثباتاً في ظل ضغط تلك المخاوف التي كانت تلح عليها، وتثير فكرها بصخب، ومرة تلو الأخرى امتلأت عيناها دموعاً، وهما تتجولان بغموض، لم تكن ترى أشجار الكستناء ولا الأفق البعيد، لكنها كانت تنظر فقط إلى مشاهد مستقبلية لاتترجم لها إلا مواقف الأسى التي يمكن أن تحدث في المنزل الكئيب

أفاقت من شرودها فجأةً، عندما سمعت صوت البوابة المفتوحة ووقع خطوات على الحصى الصغيرة لم يكن توم من دخل، وإنما شاب يرتدي قبعة مصنوعة من جلد الفقمة، ومعطفاً أنيقاً أزرق اللون، ويحمل ثقلاً على ظهره، ويحث خطاه بنشاط مثل كلب صيد متحمس

ماغي التي استرجعت في ذاكرتها فوراً كرم بوب، لم تستطع إلا أن ترحب به، فقالت مبتسمة وهي تنظر إليه: "أوه بوب، هذا أنت! إنني سعيدة جداً برؤيتك".

"أشكرك يا آنسة "، قال بوب، وهو يرفع قبعته كاشفاً عن وجه مبتهج، لكنه في الحال تخلص من بعض الارتباك الذي رافقه، بالنظر إلى كلبه، وهو يقول بلهجة اشمئزاز: "اذهب من هنا، كفاك ترنحاً!".

قالت ماغي: "أخي لم يأت بعد إلى المنزل، يا بوب إنه يتواجد دوماً في بلدة القديس أوغ أثناء النهار".

قال بوب: "حسنٌ يا آنسة، كنت سأسعد برؤية السيد توم - لكنني لم آت فقط لزيارته - انظري هنا!".

أنزل بوب مجموعة من الكتب الصغيرة مربوطة بحبل رفيع مع بعضها بعضاً. على كل حال، بدا واضحاً أن الكتب ليست هي الهدف الذي سعى بوب من خلاله أن يلفت انتباه ماغي، وإنما عن طريق شيء ما حمله تحت ذراعيه، ولفّه بمنديل أحمر اللون.

"انظري هنا! "، قال ثانية وهو يضع الرزمة الحمراء اللون، ويفتحها: "أحضرت هذه مع الكتب، آمل أن تعجبك، سمعتك مرة تتكلمين عن الصور، انظري هنا!".

كان في المنديل "تذكار "وست أو سبع لوحات من "معرض اللوحات "، من بينها لوحة لجورج الرابع وهو في أبهى حلته

تابع حديثه باستمتاع :

"توجد هنا لوحات لأنواع السادة كافةً، لهم معالم وشخصيات مختلفة، منهم الشجاع والبعض طموح- وهنا "، أضاف وهو يفتح "التذكار "، "صور لبعض السيدات إحداهن ذات شعر مجعد والأخرى شعرها أملس ناعم، وتلك تبتسم وهي تميل برأسها جانباً، وهذه تبدو وكأنها على وشك البكاء - انظري هنا - إنها تجلس مرتدية ملابس فخمة مثل السيدات اللواتي أراهن يخرجن من عرباتهن، ويدخلن القاعة القديمة للرقص".

قالت ماغي، وقد تأثرت كثيراً بهذا اللطف الشديد:

"وهل أحضرت كل هذا لأجلي يا بوب؟ يا لك من إنسان طيب القلب للغاية! وأخشى أنك دفعت مبلغاً كبيراً من النقود لشرائها".

قال بوب: "إنني مستعد لدفع ثلاثة أضعاف المبلغ لشراء أشياء تبعث في نفسك السرور يا آنسة. لن أنسى تلك اللحظة، عندما اضطربت بسبب الكتب التي تم بيعها. أعتقد أنك ستحبين هذه الكتب وكذلك اللوحات. كما آمل أن تطلبي مني كل ما تحتاجينه من كتب، سألبي لك كل رغباتك، تماماً كما يفعل توم".

قالت ماغي: "لا، حقاً بوب! إنني ممتنة لك كثيراً، وأشكر لك اهتمامك بي وعلى لطفك معي ومع توم لاأظن أن هنالك إنساناً اهتم بي لهذه الدرجة ليس لدي أصدقاء يعتنون بي".

قال بوب وهو يضع الرزمة ثانية، وقد أحس بالخجل بينما يتحدث مع فتاة مثل ماغي: "هل لديك كلبٌ يا آنسة! الكلاب أفضل الأصدقاء أكثر من أي مسيحي، ولكنني لاأستطيع أن أقدم لك مامبز، لأن قلبه سينفطر إن فارقني - إيه، مامبز، ما الذي تودُ أن تقوله؟ -(يميل مامبز صوبه ويهز ذيله) "سأحضر لك جرواً يا آنسة، على الرحب والسعة".

"لاأشكرك يا بوب لدينا كلب في الحديقة، وربما لاأرغب بالاحتفاظ بكلب خاص بي".

"إيه، هذا مؤسف: ربما تحصلين على جرو أصيل يمتلك من القدرات الكثير".

أضاف بوب فجأة وهو يرفع حمله ثانية: "حسنٌ، طاب مساؤك يا آنسة".

قالت ماغي: "هلا جئت عند المساء، لترى أخي يا بوب؟".

"أجل يا آنسة، أشكرك - سآتي في وقت لاحق إيه السيد توم شاب طيب".

أنزل الحمل ثانية

قالت ماغي مبدية اهتماماً بالكلب عساها تدخل السرور قليلاً إلى قلب سيده: "يبدو مامبز كلباً حسن الطباع، أليس كذلك؟".

قال بوب مبتسماً: "أجل يا آنسة، مامبز كلب لطيف، لن تجدي له مثيل في كل منطقة الفلوس - إنه يهتم بعمله جيداً ويخدم سيده بإخلاص".

بدت تعابير الرضا تظهر على وجه مامبز بعد هذا الإطراء الرائع

قالت ماغي: "هل أستطيع أن أربت على ظهره؟".

"إي، سوف يسعده هذا، مامبز يعرف رفاقه، ويخلص لهم ليس من الكلاب الذين يبيعون كل شيء مقابل كعكة زنجبيل: أحدثه دائماً حول الأمور التي تخصني، ويعرف كل أسراري حتى أنه يعرف كل شيء عن عمليتي السرية".

قالت ماغي: "عمليتك السرية! ما معنى هذا يا بوب؟".

قال بوب بسرعة: "إنها عملية عن النسيج الصوفي الذي أحمله للنساء العجائز كما تعلمين إنه حمل خفيف على ظهري أقتطع جزءاً منه لنفسي، ولا تعلم العجائز بذلك".

قالت ماغي بحدة: "ولكن بوب، هذا خداع: لاأحب سماع هذا الكلام منك".

قال بوب بأسف: "لاتحبين يا آنسة؟ إذاً أنا آسف لأنني قلت هراء كهذا. لكنني معتاد أن أتحدث مع مامبز عن أسراري، وهو لايشعر بأنني مخادع، ولاسيما أنني أتعامل مع نساء بخيلات، لايفكرن بحالي، ولا يكترثن لأمري، ولايسألنني كيف أتدبر قوت يومي لست مخادعاً، ولم أغش أي شخص لايريد

خداعي - يا آنسة إنني رجل شريف ولا أحب التعامل مع أولئك النسوة اللواتي يساومن كثيراً. طاب مساؤك يا آنسة".

"إلى اللقاء يا بوب. أشكرك جزيلاً على إحضارك الكتب لأجلي. أرجو أن تعاود المجيء ثانية لترى توم".

قال بوب وهو يخطو بضع خطوات للأمام، ثم يستدير نحوها قائلاً: "أجل يا آنسة، سوف أتخلى عن عمليتي السرية ولن أكررها ثانية، إن كنت تعتقدين بأنني مخادع".

ابتسمت ماغي، التي أحست بأنها عذراء مهمة في نظر بوب الذي كان يحدق بها بعينيه الزرقاوين وكأنه ينظر إلى معبود مقدس.

أخذ قبعته وابتعد.

إن أيام الفروسية والإقدام لم تنتهِ بعد، على الرغم من الترنيمة الحزينة العظيمة التي أطلقها بيورك[1] على تلك الأيام: إذ لا يزال هناك أناس قادرون على العشق بجنون، ومنه من يحلم بأن يلمس يد المرأة التي يهيم بها، أو حتى يداعب طرف ثوبها.

بوب الذي جاء بحمل ثقيل على ظهره، كان مولعاً كثيراً بعيني هذه العذراء السوداوين بدا مثل فارس مقدام مستعد لتحمل المصاعب وخوض المعارك وإلحاق الهزيمة بالعدو إكراماً لاسمها.

لكن ذلك البريق الذي ظهر في عيني ماغي، تلاشى بسرعة، وربما حل مكانه كآبة أكثر من السابق. أحست بحزن شديد ووهن في عزيمتها حتى أنها لم تشأ أن تجيب عن أية استفسارات حول كتب بوب، وضعتهم في غرفة نومها، وجلست على مقعدها الوحيد، دون حتى أن تنظر إلى الكتب. أسندت خدها على إطار النافذة، وهي تفكر بمقدار السعادة التي ملأت قلب بوب وبالفرق الشاسع بين قلبيهما!

لقد عمّق قدوم فصل الربيع المتألق، من إحساس ماغي بالوحدة، وبالحرمان الشديد من كل بهجة. تحول المكان الهادئ الذي ترعرعت فيه إلى منزل مقفر كئيب، امتزج الحزن مع الطعام والهواء الذي تنفسته، حتى أشعة الشمس ألقت خيوطها بكآبة على المنزل. كل العواطف، وكل المسرات التي صادفت تلك الطفلة البائسة، كانت تثير أعصابها بألم. لم يعد الآن وجود للموسيقى التي صدحت

---

[1] ترنيمة بيورك العظيمة: إدموند بيورك (1729 - 1797) سياسي وفيلسوف معروف بأفكاره عن الثورة الفرنسية (1790).

يوماً بلطف في أذنيها - ليس هنالك بيانو، ولا أصوات متناغمة، ولا آلات مثيرة للسعادة طوّقت روحها بذكريات جميلة وبعواطف متقدة. حتى أيام الدراسة لم تترك لها شيئاً سوى بضعة كتب مدرسية شكلت حالة اشمئزاز بالنسبة لها، ولم تعد تلك الكتب رفيقة دربها المواسية، لقد جرِّدت من كل دعم معنوي كل ما تعلمته في المدرسة تبدد هباءً منثوراً، تلاشت تلك القضايا الصعبة المطروحة حول المذهب المسيحي: لم يعد لتلك القضايا نكهة ولا لون - ولا قوة.

في بعض الأحيان اعتقدت ماغي أن بمقدورها الاكتفاء بتصوراتها الخيالية عن العالم، وإدراكه على أكمل وجه، إن استطاعت أن تقرأ جميع روايات سكوت وكل قصائد بايرون! - إذاً ربما وجدت في الكتب عزاءً لها يخلصها من متاعب الحياة اليومية والواقع الأليم. ولكن ما أرادته صعب التحقيق.استطاعت أن ترسم عالماً لها مليئاً بالأحلام الجميلة - لكن ذلك العالم الخيالي لن ينال رضاها الآن أرادت أن تجد تفسيراً لهذه الحياة الواقعية الشاقة: أب بائس يجلس صامتاً إلى مائدة الإفطار، وأم مرتبكة لها تصرفات وأفكار طفولية، تمضي الساعات باهتةً مملة، الفراغ يحيط بالجميع، والوحشة تخيم على المكان ببرود، وتأسر كل بهجة وسرور، الحاجة لبعض الإحساس بالعطف والحب، مشاعر جامدة طوقت روح توم الذي لم يعد يأبه لما تفكر به أخته، حتى أنهما لم يلعبا معاً ثانيةً، تبددت كل المسرات التي شهدتها في طفولتها: كم تمنت لو تحل لغز أحجية الحياة، وتفهم ما الذي حصل لقلبها الغض الذي يواجه المشاكل في وقت مبكر للغاية. "إن تعلمت دروساً واقعية وحكماً بالغة، كالتي يعرفها عظماء الرجال"، لابد إنها عندئذ ستكتشف أسرار الحياة، هكذا اعتقدت ماغي المسكينة! لو أنها فقط تملك كتباً تمكنها من بلوغ حكمة الرجال!

لم تكترث ماغي أبداً لأمر القديسين والمعذبين مثلما اهتمت بالحكماء والشعراء. لم تعرف سوى القليل عن القديسين والمعذبين، واستخلصت من خلال معرفتها الضئيلة نتيجة مفادها أن هؤلاء كانوا مجرد تدبير مؤقت ضد انتشار المذهب الكاثوليكي، وفي النهاية قضى الجميع نحبهم في سميثفيلد[1] في غمرة هذه التأملات نسيت ماغي كل ما يتعلق بكتب توم المدرسية، التي أرسلت إلى المنزل في صندوقه. لكنها وجدت بعضاً منها - القاموس اللاتيني والقواعد

---

[1] سميثفيلد: خلال حكم الملكة ماري، كان البروتستانتيون يموتون حرقاً وهم معلقون على الأوتاد في سميثفيلد في لندن.

اللاتينية، وكتاب ممزق لـ يوتروبياس[1]، وكتباً أخرى عن قواعد ايكليد.لا تزال القواعد اللاتينية وقواعد ايكليد والمنطق، خطوة جديرة بالاعتبار تتميز بها الحكمة الذكورية - تلك المعارف تجعل الرجال معتدين ومقتنعين بأنفسهم كثيراً، حتى أنهم يعيشون حياة رغيدة، ويحظون باحترام الجميع حتى و إن لم يستحقوه!

لكن المستقبل أمام ماغي كان مجرد سراب غامض بدأت تلك الطفلة المسكينة مشوارها بروح متعطشة للمعرفة، تقضم من شجرة المعرفة، وتملأ ساعات فراغها بتعلم القواعد اللاتينية والهندسة والمنطق عساها تضاهي بذلك العقلية الذكورية، وتشعر بأنها حققت إنجازاً يعادل هذه الدراسات الخاصة بالذكور، ولكي تثبت بأنها ليست حكراً عليهم.

واظبت على القراءة مدة أسبوع أو اثنين وبهمة قوية، وكأنها استعدت للسير باتجاه الأرض الموعودة وحدهاكانت تجلس أحياناً عند النافذة وبيدها كتابها، وعيناها تمعنان في أشياء غير مرئية، ثم تمتلآن دموعاً، وعندما تكون أمها خارج الغرفة، غالباً ما ينتهي من ذلك المشهد الحزين بالنشيج المؤلم ثارت ضد حظها العاثر، وأوهنت الوحدة عزيمتها، وانتابتها موجات من السخط والكراهية تجاه والدها وأمها اللذين تغيرا وتباعدا، وتجاه توم، الذي عاملهما بلا مبالاة ولم يستطع قراءة أفكارها بإمعان نتيجة لذلك حلقت بخيالها بحثاً عن عالم أقل قذارة ووحشة: سوف تلجأ إلى رجل عظيم الشأن - والتر سكوت ربما - وتخبره كم كانت ذكية وبائسة، وبالتأكيد سيفعل شيئاً لأجلها.

ولكن في غمرة شرودها، دخل والدها الغرفة فجأة في إحدى الأمسيات ودهش، لأنها لاتزال شاردة الذهن، ولم تلاحظ وجوده، فقال متذمراً :

"هيا، هل عليّ أن أحضر حذائي بنفسي؟ "، اخترق ذلك الصوت مسامع ماغي مثل سيف حاد: لقد أضاف حزناً آخر إلى حزنها، وكانت تفكر في تجاهله وهجره

هذه الظهيرة، جعل رؤية وجه بوب المنمش والمبتهج جعلها تتغير من مسار استيائها.

فكرت به كجزء من مشقات حياتها التي ألقت عبئاً ثقيلاً على كاهلها - أحست بأن عليها أن تتحمل هذا التوق اليائس لفعل شيء ما أكثر عظمة على هذه الأرض.

---

[1] يوترو بياس: مؤرخ روماني من القرن الرابع عشر كتب عينة عن التاريخ الروماني

تمنت لو استطاعت أن تكون مثل بوب، الشاب المقتنع بجهله، أو مثل توم اللامبالي، الذي لديه فكرة ما يكرس ذهنه لأجلها دون الاهتمام لأي شيء آخر يمكن أن يعترضهيا للطفلة المسكينة! حالما تسند برأسها على إطار النافذة، وتشبك يديها بقوة ببعضها بعضاً، وتضرب الأرض بقدمها، حتى تشعر بالوحشة وهي تواجه مصاعبها وكأنها الفتاة الوحيدة في هذا العالم المتمدن الذي يقف معترضاً روحاً لم تتدرب على حل الصراعات المحتملة، وفهم القوانين التي يتعذر إلغاؤها - القوانين التي فرضت عادات سائدة تحولت إلى أخلاقيات، وتطورت كي تشجع على مزيد من الخضوع والاستكانة والاتكالية، عادات أصبحت عقيدة راسخة لدى الكثيرين - إنها وحيدة أمام هذه المعضلة وكأن كل فتاة أخرى من جيلها تراقب الأحداث بعقلية قديمة، وقد تدربت على الخضوع والقبول بكل ما يفرض عليها، وتبددت الأيام الأولى، عندما كانت الحيوية في أوجها والدافع الإنساني بكامل قوته.

أخيراً حَدَّقت ماغي بالكتب الملقاة على رف النافذة، وهجرت أحلام يقظتها لتبحث بهمة فاترة بين أوراق "معرض اللوحات "، لكنها دفعتها في الحال جانباً لكي تتفحص مجموعة من الكتب الصغيرة ربطت بإحكام مع بعضها بعضاً."جماليات المشاهد "، "اقتصاد الحياة البشرية "، رسائل غريغوري "— كانت على اطلاع بمضامين كل هذه الكتب: "العام المسيحي "— كتاب فيه أناشيد دينية، وضعته ثانية في مكانه، ولكن، توماس كمبيز[1]؟ اعترض الاسم طريقها وهي تقرأ عناوين الكتب، أحست بالرضا الذي ينتاب كل امرئ عندما يحصل على بعض الأفكار التي تخرجه من عزلته وكآبته.

تناولت الكتاب الثقيل والقديم، بشيء من الفضول: قلّبت ماغي صفحاته، وقرأت وهي تشير بيد هادئة.

"اعلم بأن محبتك لنفسك ستسبب لك الأذية أكثر من أي شيء في العالم.إن واظبت على البحث عن مسراتك وتحقيق رغباتك فلن يهدأ بالك أبداً: لأن الشهوات لاتنتهي وفي كل درب ستجد معيقات تصدُك عن بلوغ المرادو أنى اتجهت عليك التحلي بالصبر، إن أردت بالفعل أن تحصل على السلامة الداخلية، والاستمتاع بعرش أبدي.

لو أردت أن تحقق المجد والسؤدد، عليك التفاني بعملك، واجتثاث الميول الغريبة الدفينة في نفسك عليك أن تقمع شهواتك، وتخمدها في مكانها عندئذ ستصل في الحال إلى لحظة السلام والطمأنينة".

---

[1] الراهب الأوغسطيني توماس كيمبز (1471 - 1379) كتب رسالة التقوى عن (محاكاة المسيح).

انتاب ماغي إحساس غريب بالرهبة وهي تقرأ الكتاب، وكأن موجة موسيقية مهيبة أيقظتها من نومها ليلاً، لكي تخبرها عن أرواح لاتزال متيقظة بينما روحها كانت في غيبوبة تابعت ماغي القراءة وهي تشير بيدها الهادئة، ولم تدرك أنها كانت تقرأ - بدت وكأنها تصغي إلى صوت منخفض يهمس لها —"لماذا تُحدِّق هنا، فهذا ليس مكان لراحتك الأبدية؟ عليك أن تبحث عن السكينة الأبدية في الجنة، أما الأغراض الدنيوية فهي مجرد وسيلة تستخدمها في رحلتك لتصل إلى الجنة كل ما على الأرض زائل، وأنت كذلك فان معها. فاحذر أن تفنى قبل تأدية رسالتك".

أخذت ماغي نفساً عميقاً، ودفعت شعرها الأسود الكثيف للوراء، كما لو أنها تريد أن تقرأ رؤيا مفاجئة بوضوح أكثر. إذاً، هذا هو لغز الحياة الذي سيمكنها من التخلي عن كل الأسرار الأخرى - هنا تكمن القوة اللامرئية والقدرة على بلوغ سمو مهيب دون مساعدة الكائنات المحيطة بنا، عزاء داخلي يحقق النشوة للإنسان أحست ماغي بقوة داخلية تحرضها على إيجاد حل لمشاكلها ومعاناتها والتركيز أكثر على مكامن السعادة الحقيقية في قلبها، وكأنها أصبحت مركز الكون، ولأول مرة استطاعت أن تدرك إمكانية تغيير الموقع الذي منه سعت إلى إرضاء رغباتها - وأن تنظر إلى الحياة بمنظار آخر أوضح لها بأنها جزءٌ بسيط من هذا الكل الذي توجهه العناية الإلهيةاستمرت ماغي بالقراءة حتى توارت الشمس خلف أشجار الصفصاف كانت ماغي لاتزال تبحث عن السعادة، وقد أحست بالنشوة بعد أن امتلكت مفتاحها. لم تكن تعلم شيئاً عن المذاهب والأنظمة - عن الروحانية أو عبادة الصامتين، لكن هذا الصوت القادم من العصور الوسطى كان الصلة المباشرة التي عكست تجربة وإيمانَ روح بشرية، وبلغ ذلك الصوت مسامع ماغي مثل رسالة ملحة.

وجدت ماغي في ذلك الصوت أملاً لها في الخلاص من سنوات وحدتها، دون مساعدة السلطات المؤسسة، والمرشدين المعنيين - لأن هؤلاء لم يكونوا في متناول اليد، وهي بأمس الحاجة للسلوى.

كانت حياتها لاتزال بالنسبة لها مجرد دراما، لذلك أصرت على أن تلعب دوراً فعالاً فيها. على سبيل المثال قررت أن تعمل في الخياطة، وتبيع الملابس لمحل في بلدة القديس أوغ، وبذلك تساهم في زيادة أموال الصندوق وإيفاء الديون.

لكن توم عنَّفها بقسوة، واعتبر عملها غير ضروري، قال توم: "لاأحب أن تعمل أختي أشياء كهذه، سأسدد الديون بنفسي، دون الحاجة إلى أن تذلي نفسك بهذه الطريقة".

بالتأكيد لم يخلو هذا الخطاب من لهجة عطف وود، لكن ماغي عازمة على أمرها، فاعتبرت تأنيب توم لها جزءاً من المعيقات التي تواجهها، فقد اعتادت على أسلوبه الفظ

قررت السير على الدرب الصعب، وهي خطوة نادراً ما نباشر بها لأنها تتطلب منا التخلي عن غرورنا - بأن نسلك درب الصبر والمعاناة

الكتب القديمة التي جعدت ثمار شجرة المعرفة - ألقيت جميعها جانباً، لأن ماغي قد أدارت ظهرها لذلك الطموح الفارغ، لتشارك الحكماء أفكارهم

قذفت الكتب بعيداً بطريقة تؤكد انتصارها على ذلك الوهم القاتل، فأثبتت بأنها ارتفعت فوق مستوى تلك الكتب واظبت فقط على قراءة ثلاثة كتب هي الإنجيل، توماس كمبيز، و"العام المسيحي". كانت تواقة كثيراً لتطوف أجواء الطبيعة والحياة، وتتعامل معها من منظورها الخاص

أحست أمها بأن ذلك التغيير كان لغزاً محيراً، وأعجبت بأن ترى ابنتها "تكبر بهذه السرعة "، من المدهش بالفعل أن تتحول تلك الطفلة "المتمردة "إلى فتاة خاضعة أصبحت الأم مولعة أكثر بابنتها السمراء الطويلة القامة وعلى الرغم من زهد ماغي بالحياة، فقد استسلمت لرغبة أمها في تسريح شعرها، ورفع تلك الخصل السوداء الكثيفة فوق رأسها، لتعاصر الموضة المثيرة للشفقة التي شاعت في تلك الأزمنة الرجعية

قالت السيدة توليفر: "حبيبتي، امنحي أمك فرصة للسعادة ولو قليلاً، إذ طالما عانيت معك وأنا أقنعك بتسريح شعرك كما أريد".

وهكذا فرحت ماغي وهي تبعث في نفس أمها السعادة، وتبهج يومها الكئيب الطويل، ووافقت على تزيين شعرها حسب رغبة أمها، ورفضت بإصرار أن تنظر إلى نفسها بالمرآة أحبت السيدة توليفر أن تلفت انتباه زوجها إلى شعر ماغي وفضائلها الأخرى غير المتوقعة، لكنه أجاب بأسلوب فظ: "أعرف ابنتي جيداً، لاشيء جديد بالنسبة لي ومن المثير للشفقة أن يسوء حظها بهذا الشكل لن تجد زوجاً مناسباً لها عندما تكبر".

لقد زاد جمال ماغي وذكاؤها من كآبته أكثر. أسف كثيراً على حظ ابنته العاثر، وتضايق أكثر لأنه السبب في سلبها حياة رغيدة لائقة بها. كان يعاني من صراع داخلي، يقمع من خلاله كل المشاعر النبيلة، ويغذي في نفسه حب الانتقام - لم يكن هناك مجال لأية أحاسيس إنسانية

لم يرغب السيد توليفر بأي نوع من المواساة الروحية - أراد أن يبعد عنه شبح الديون والمذلة، ولم يفكر إلا بتحقيق انتقامه!

الجزء الخامس

نباتات القمح والتير[1]

[1] التير: نبات علفي من الفصيلة القرنية

الفصل الأول

في أرجاء الأعماق الملتهبة

كانت غرفة جلوس العائلة غرفة طويلة لها نافذة على كل جانب، إحدى النافذتين تطل على مزرعة صغيرة على طول الرافد المتجه إلى ضفة نهر الفلوس، والأخرى تطل على فناء الطاحونةجلست ماغي وهي تقرأ قبالة النافذة الثانية عندما رأت السيد واكيم يدخل الفناء كالمعتاد، وهو يمتطي حصانه الجميل الأسود اللون، ولم يكن وحده كعادته شخص ما يرافقه - هيئة ترتدي عباءة، على ظهر مهر وسيم المنظر. لم يخطر في بال ماغي أن فيليب قد عاد، حتى أصبحا أمام النافذة، وكان يرفع قبعته احتراماً لها، بينما انتبه والده لحركته ورَمَقَهُ بنظرة جانبية، بدا مغتاظاً من كليهما. ابتعدت ماغي عن النافذة، وحملت كتبها، وصعدت إلى الطابق العلوي، لأن السيد واكيم كان يدخل أحياناً متفحصاً الكتب، كما أحست ماغي بأن وجود أبيها وأبيه سوف يسرق فرحة لقائهماربما يأتي يوم تستطيع فيه ماغي رؤيته ومصافحته بحرية، وأن تخبره بأنها لم تنس طيبته مع توم، وكل الكلمات العذبة التي أسمعها إياها في الماضي، بالرغم من أنهما لن يتمكنا أبداً أن يصبحا صديقين بعد الآن لم تعد رؤية فيليب تثير مشاعر ماغي ثانية: احتفظت في قرارة نفسها بامتنانها الطفولي وشفقتها عليه، وتذكرت فطنته، وخلال الأسابيع الأولى من وحدتها كانت تسترجع باستمرار صورته من بين الناس الذين عاملوها بلطف في مسيرة حياتها. وكانت تتمنى لو أنه أخ أو معلم لها، لكن أمانيها تتبخر دائماً في الهواءاعتقدت أن الأيام غيَّرت كثيراً من شخصية فيليب، ولم يعد مبالياً بها. ومع ذلك فقد تغيرت ملامح وجهه قليلاً - أصبح أكبر حجماً وازداد وجهه شحوباً. ولم يتغير شكل عينيه ذات اللون الرمادي وشعره المتموج البني اللون: ذلك التشوه أيقظ في نفسها الإحساس بالشفقة تجاهه، وبعد كل هذه التأملات، شعرت ماغي بأن عليها حقيقة أن تخاطبه ببعض الكلمات ربما مازال كئيباً، كما اعتاد دائماً أن يكون، وربما يرغب بأن ترمقه بنظرة لطيفة.

تساءلت ماغي إن كان لايزال يتذكر كيف اعتاد أن ينظر إلى عينيها بإمعان، قاومت رغبتها بالنزول، وحاولت أن تشغل نفسها بعملها ريثما يرحلان بقيت هكذا حتى لمحت فيليب ووالده على طول الطريق، فنزلت ثانية إلى الطابق السفلي

كان الوقت في أواخر تموز، وقد اعتادت ماغي أن تتمشى طويلاً، ولكنها هذا اليوم مشغولة جداً في عملها الذي عليها أن تنهيه في أقرب وقت ممكن، لذلك لم تخرج أبداً خلف البوابة، واقتنعت بالجلوس فقط عند باب المنزل عندما لم تكن مضطرة للذهاب إلى بلدة القديس أوغ، كانت تمضي وقتها بالتنزه في منطقة تمتد خلف "التلة "— وهي ارتفاع مكسو بالأشجار، الممتدة على طول جانب الطريق المؤدية إلى بوابة طاحونة دورلكت التي تحيط بها الحقول المعطاءة، ويتدفق إليها رافد من نهر الفلوس في أيام طفولتها اعتادت ماغي على هذا المكان، الذي أطلقت عليه اسم الأعماق الملتهبة، وكانت تحس برهبة عظيمة، وحاجة ماسة إلى شجاعة توم وشدة بأسه أثناء قيامهما برحلاتهما المتعكان بمقدورها الجلوس بهدوء على العشب الناعم في ظل أغصان شجرة الدردار، وتصغي إلى دندنة الحشرات، التي يشبه صوتها قرع أجراس صغيرة ترن في جو صامت، أو تراقب شعاع الشمس وهو يخترق الأغصان البعيدة، بلونه البرتقالي المحمر. استطاعت ماغي في باكورة أيامها أن تتجول بحرية في أرجاء الأعماق الملتهبة، وتشعر بمتعة الحياة الحقيقية.

بمقدورك أن تراها الآن وهي تتمشى على طريقها المفضل، وتدخل الأعماق من ممر ضيق يجتاز مجموعة من أشجار التنوب الكثيفة - تبدو للعيان بقامتها الطويلة وثوبها القديم وشالها الحريري اللون، ثم تتوارى عن الأنظار فتخلع قبعتها وتثبتها بذراعها.

يخيل للمرء عندما يراها بأنها أكبر من عمرها الحقيقي - وهو سبعة عشر عاماً - ربما بسبب نظرتها الحزينة ومظهرها الرزين، وربما بسبب قامتها واكتمال أنوثتها! لقد قاوم شبابها وصحتها جميع المشقات التي فرضها عليها حظها العاثر. والليالي التي أمضتها كئيبة مهمومة لم تسرق بريق عينيها، وتورد خديها المستديرين ورطوبة شفتيها الحمراوين الممتلئتين، وتلك النظرة العاطفية الحزينة بددت كل أشكال الدلع والدلال، فقد ومضت عيناها بلمعة مثل نار ملتهبة تريد إحراق مَنْ أمامها. ماغي كانت مرتاحة في تلك اللحظة، حيث استمتعت بهدوء النسيم العليل، وهي تتأمل أشجار التنوب الموغلة في القدم، وتفكر بأن تلك الأغصان المتكسرة كانت تدل على أنها تعرضت في الماضي لعاصفة قوية، لم تبق إلا على جذوع الأشجار المنتصبة بعناد.

وبينما كانت تحدق للأعلى، لمحت ظلاً يتحرك على الطريق المعشوشب أمامها، التفتت لترى فيليب واكيم، الذي رفع قبعته أولاً، ثم تورد خجلاً، وهو يتقدم نحوها، ويمد يده لمصافحتها. تلونت ماغي أيضاً من الدهشة، التي

تحولت على الفور إلى سعادة غمرتها. مدت يدها وهي تنظر إلى تلك الهيئة المشوهة قبالتها، بنظرة ملؤها الصراحة والوضوح، وقلب مفعم بمشاعر طفولية كانت تكنها له منذ زمن بعيد. كانت السباقة إلى البدء بالحديث قالت وهي تبتسم بفتور: "لقد أخفتني، لم يسبق لي أن قابلت أي إنسان هنا. كيف جئت تتمشى في هذا المكان؟ هل أتيت لرؤيتي".

أحست ماغي أنها عادت ثانية إلى طفولتها.

قال فيليب وهو لايزال مرتبكاً: "أجل جئت لأراك أتمنى رؤيتك دائماً. انتظرت البارحة فترة طويلة عند الضفة على أمل أن تخرجي، لكنك لم تأتي واليوم انتظرت أيضاً، وعندما رأيتك، لحقت بك ونزلت إلى الضفة أرجو أن لاتتضايقي من تصرفي هذا".

قالت ماغي وهي تتابع سيرها، وكأنها قصدت أن يرافقها فيليب: "لا، إنني سعيدة جداً بمجيئك، وأرتاح للغاية عندما أتحدث معك لم أنس أبداً كم كنت طيباً في الماضي مع توم، وكذلك معي، لكنني لم أكن واثقة بأنك سوف تتذكرنا حتى الآن لقد واجَهْنا صعوباتٍ ومشاكلَ كثيرة، وأعتقد أن المصائب تجعل الإنسان يعيد النظر في أحداث الماضي".

قال فيليب بخجل: "لاأستطيع أن أصدق بأنك تفكرين بي مثلما أفكر بك هل تعلمين بأنني رسمت لك صورة عندما نظرت إلي في ذلك الصباح، وقلت بأنك لن تنسيني أبداً؟".

سحب فيليب حقيبة صغيرة من جيبه، وفتحها. شاهدت ماغي صورتها في الطفولة، وهي متكئة إلى الطاولة، وخصلات شعرها السوداء خلف أذنيها، محدقة بفضاء رحب بعينين حالمتين غريبتين كانت لوحة بالألوان الزيتية.

قالت ماغي مبتسمةً، وقد تورّدت من الفرحة: "أوه عزيزي، كم كنت فتاة صغيرة غريبة الشكل! أذكر تسريحة شعري هذه بالفعل كنت مثل فتاة غجرية". أضافت ماغي بعد صمت قصير: "هل تظن بأنني أشبه هذه الصورة؟".

تدفقت كلمات ماغي بإحساس من الدلع، ونظرتها ماغي المعنة البراقة لم تضف ذلك الإحساس بالدلع على فيليب لقد تمنت بالفعل أن يحب فيليب وجهها الآن كما كان في الماضي وأحسَّت أنه يحمل مشاعر الحب والإعجاب نحوها. صمت فيليب فترة طويلة قبل أن يجيب بهدوء "لايا ماغي".

تلاشت قليلاً مشاعر البهجة عن وجه ماغي، وارتعشت شفتها بخفة هدأت نظرتها، لكنها لم تُشِحْ برأسها بعيداً، بينما تابع فيليب ببطء قائلاً :"أنت أجمل بكثير ممّا توقعت".

"أنــا؟ "، قالــت مــاغي، وقــد عــاد إليهــا توردهــا، وارتــسمت مــن جديــد ملامــح الفرحــة أبعــدت وجههــا عنــه، ومــشت بــضع خطــوات للأمــام وهــي صــامتة، وكأنهــا كانــت تتــأقلم مــع هــذه الفكــرة الجديــدة تعتقــد الفتيــات عــادة بــأن الهنــدام الأنيــق يبعــث في نفوســهن الإحــساس بالكبريــاء والغــرور، وإحجــام مــاغي عــن النظــر إلى نفــسها في المــرآة، كــان سبب زهــدها في كــل مبــاهج الــدنيا، وعــدم اهتمامهــا بــالتزيين، أكثر من رفضها لأن تتأمل وجهها بإمعان.

بــدا فيليــب مــستمتعاً بــصمتها. مــشى إلى جانبــها، مراقبــاً وجههــا كمــا لــو أنــه امتلــك الــدنيا بأكملــها وهــو معهــا. اجتــازا أشــجار التنــوب حتــى وصــلا إلى واد أخــضر محــاط تقريبــاً بمــدرج مــن الــورود البريــة ذات اللــون الأرجــواني الــشاحبوبينمــا كانــت الــورود تــسطع جمــالاً، تلاشــى البريــق الأخــاذ مــن عيني مــاغي توقفــت مــاغي، ونظــرت إلى فيليــب قانيــة، وقالــت بنــبرة جديــة حزينــة :"أتمنــى لــو نبقــى صــديقين - أقــصد، أن تكــون الــصداقة نافعــة لكلينــا. مــن المؤســف حقــاً أن أتحمــل عواقــب كــل شــيء: كــل مــا أحبــه، وأرغــب بــه بكــل جــوارحي، أفقــده بــسهولة، مــذ كنــت صــغيرة اعتــدتُ علــى فقــدان كــل شــيء أحبــه الكتــب القديمــة ذهبــت مــع الــريح، وتــوم تغيَّــر كــثيراً - وبابــا. إنــه كــالموت علــيَّ أن أفــارق كــل مــا أهــتم بــه وعلــيَّ مفارقتــك أيــضاً: لاينبغــي أن نهــتم ببعــضنا أبــداً. هــذا مــا أردت أن أحــدثك بــه أريــدك أن تعلــم أنــني وتــوم مغلوبــان علــى أمرنــا ولــيس بوســعنا فعــل مــا نــشاء. إن تــصرفت بطريقــة لامباليــة، ثــق تمامــاً بــأن تــصرفي لــيس وليــد مــشاعر بغــض أو تكبر - أو - أو أية مشاعر سيئة".

تكلمــت مــاغي في غايــة اللطــف والأســف، حتــى امــتلأت عيناهــا دموعــاً. ظهــرت تعاليم الألم على وجه فيليب وبدا ذلك التشوه مثيراً لشفقة ماغي.

أجــاب بــصوت خافــت: "أعــرف - أفهــم مــا تقــصدينه أعلــم الــسبب الــذي يجبرنــا علــى الفــراق ولكــن هــذا التــصرف خــاطئ يــا مــاغي - لاتغــضبي إن ناديتــك باسمــك - فأنــا معتــاد علــى لفــظ اسمــك في ذهــني دون أيــة ألقــاب - لــيس مــن الــصواب أن نــضحي بمــشاعرنا النبيلــة لأجــل خــاطر أحاســيس الآخــرين غــير المنطقيــة ســأتخلى عــن أشــياء كــثيرة لأجــل خــاطر والــدي، لكــنني لــن أتخلــى عــن صــداقة أو - أو رؤيــة من أحب، تلبية لرغبته التي لاأقتنع بصحتها".

قالــت مــاغي بنــبرة موســيقية: "لاأعــرف عنــدما أكــون في حالــة غــضب واســتياء، يبــدو لي أنــه بمقــدوري التخلــي عــن كــل شــيء، وأطيــل الــتفكير في هــذا الأمــر حتــى يُخَيَّــل إلي أنــني أســتطيع التخلــي عــن كــل واجبــاتي ولا فائــدة ترجــى مــن كــل هــذا الهــراء - فأســقط ضــحية صــراع ذهــني مــؤلم إنــني واثقــة تمامــاً أنــني مهمــا قلــت،

وفعلت - عليَّ في نهاية الأمر التخلي عن كل رغباتي، لكي لاأثقل العبء على كاهل والدي أكثر".

قال فيليب :"وهل سنثقل عليه إن التقينا في بعض الأحيان؟".

كان فيليب على وشك أن يقول شيئاً آخر، لكنه ضبط نفسه

أجابت ماغي بنبرة كئيبة: "أوه، إنني واثقة بأنه لايرغب بلقائنا. لاتسألني لماذا، ولا تَخُضْ معي أي نقاش من هذا النوع. والدي صارم جداً في بعض المسائل إنه لايشعر بالسعادة على الإطلاق".

قال فيليب بتهور: "ولا أنا، لست سعيداً أبداً".

سألت ماغي بلطف: "لماذا؟ على الأقل - أعتقد أنه ليس من حقي أن أسألك - لكنني آسفة جداً لأجلك".

استدار فيليب ليتابع السير، وكأنه لم يعد يطيق الوقوف، فخرجا من الوادي، واتجها بصمت نحو الأشجار والشجيرات بعد الجملة الأخيرة التي نطق بها فيليب، لم تجرؤ ماغي على الإصرار بأن يفترقا: أخيراً، قالت بخجل: "لقد شعرت بسعادة عارمة منذ تخليت عن التفكير بكل ما هو مبهج وميَّسر، ومنذ أصبحت لامبالية بتحقيق رغباتي لقد خُلقنا من أجل أن نعيش حياتنا كما هي - لأننا جديرون بالحياة التي تمنحنا فكراً حراً، وعندما نعرف جوهرها، ونتخلى عن تلبية غرائزنا نستطيع أن نعيش بحرية، عندئذ لن تقيدنا رغباتنا، علينا أن نفكر فقط في تقبل ما يكتبه القدر لنا، وفعل ما هم مطلوب منا".

قال فيليب بصبر نافذ: "لكنني لاأستطيع التخلي عن رغباتي يبدو لي أننا لانستطيع العيش دون رغبات وأماني نسعى لتحقيقها طالما أننا على قيد الحياة

هنالك أشياء جميلة وقيمة جديرة حقاً بأن نكدح للوصول إليها. كيف بمقدورنا التخلي عن الأشياء الجميلة، إلا إذا رضينا بأن نُخمد، ونقتل أحاسيسنا النبيلة؟ أشعر بالسعادة عندما أرى صوراً جميلة - أتمنى لو أستطيع رسم صور مشابهة لها. أبذل قصارى جهدي، ولا أستطيع فعل ما أريدهذا ما يؤلمني كثيراً، وسيؤلمني دائماً، حتى أفقد رغبتي بتحقيق ما أريد، كما تفقد عيني بريقها عندما أهرم ثم إن هنالك أشياء كثيرة أتوق لفعلها "- هنا تردد فيليب قليلاً، ثم قال - "أشياء يمتلكها رجال آخرون، بينما لاأستطيع امتلاكها. إن حياتي خالية من كل عظمة وجمال، أفضل الموت أحياناً".

"أوه فيليب، أتمنى أن لاتفكر بهذه الطريقة". وبدأ قلبها يخفق بشدة تعاطفاً مع حزن فيليب

قال وهو يستدير بسرعة محدقاً في وجهها بعينين رماديتين متوسلتين: "حسنٌ، سوف أرضى بحياتي كما هي، إن وافقت على مقابلتي بين الحين والآخر".

تردد فيليب قليلاً بعد أن لمح الخوف يعتري وجه ماغي، أشاح بوجهه ثانية، ثم قال بهدوء: "ليس لدي أصدقاء أبوح لهم بأسراري - لاأحد يهتم لأمري إن منحتني فرصة لقائك، وأظهرت اهتمامك بي - عندئذ سوف أعيش حياتي بسعادة".

قالت ماغي وهي تتلعثم: "ولكن كيف بوسعي مقابلتك، يا فيليب؟".

(هل تستطيع حقاً أن تكون طيبة معه؟ من الصعب قول كلمة "وداعاً "هذا اليوم ومن المؤلم أن تخاصمه ثانية).

"إن سمحت لي بأن أقابلك في بعض الأوقات - أتمشى معك هنا - سوف أكتفي برؤيتك مرة فقط أو مرتين كل شهر - هذا لن يفسد على أحد سعادته، وسوف يرطب لي حياتي، وينعشها. ثم إن كان هنالك أية خصومة بين أولئك الذين ننتمي إليهم، ينبغي علينا إخمادها من خلال تعزيز صداقتنا - أقصد أنه بمقدورنا مداواة الجروح التي حدثت في الماضي كما أعتقد أن والدي لن يحمل في قلبه الضغينة: أظن أنه أثبت عكس ذلك".

هزت ماغي رأسها ببطء، وصمتت وهي أسيرة أفكارها المتصارعة بدا أن لديها ميولاً لسبر أغوار نفس فيليب، والاحتفاظ برباط الصداقة معه كان يدل ليس على براءتها بل على طيبتها أيضاً. ربما أرادت مساعدته كي يشعر بالرضا في حياته الصوت الذي قال هذا بدا مثل موسيقى عذبة بالنسبة لماغي، إلا أن صوتاً آخر ألح على مسامعها بإصرار، صوت إنذار تعودت على الاستجابة له دائماً: صوتٌ يحذرها بأن لقاءً سرياً كهذا - يدل على أن شيئاً ما في غاية الخطورة وشيك الحدوث إن افتضح أمرهما - شيءٌ ما يسبب لها الألم، ويحدث موجة عارمة من الغضب ومع ذلك تعالى صوت موسيقى ثانية، يقنعها بأن الأخطاء يجسدها ضعف الآخرين، وبأن تضحية كهذه لن تسبب الأذى لأي إنسان من المؤلم أن يتحمل فيليب عواقب حب الانتقام من والده - فيليب المسكين - الذي ينفض عنه الناس لمجرد أنه مشوهفكرة أنه من الممكن أن يصبح حبيبها، أو أن مقابلتها له علانية تلقى المعارضة، لم تخطر ببالها أبداً، وقد لاحظ فيليب بوضوح غياب هذه الفكرة عن ذهنها - مما سبَّبَ له ألماً مضاعفاً، بالرغم من أن موافقتها واستجابتها لطلبه أمر غير محتمل أحس بألم مرير عندما تذكر كيف كانت ماغي تتعامل معه بكل صراحة ودون تقييد، عندما كانت طفلة

قالت أخيراً، مستديرة نحو الطريق الذي جاءت من خلاله: "لاأستطيع أن أجيبك بنعم أو لا. يجب عليَّ التروي حتى لاأقرر بشكل خاطئ".

"إذاً، هل بإمكاني المجيء غداً - أو بعد غد - أو في الأسبوع القادم؟".

قالت ماغي وهي تتلعثم ثانية: "أعتقد أنه من الأفضل كتابة رسالة أستطيع الذهاب إلى بلدة القديس أوغ، ووضع الرسالة في البريد".

قال فيليب متلهفاً: "أوه، لا، لن يكون هذا ناجعاً. ربما يرى والدي الرسالة - و- أعتقد أنه لايحمل في قلبه أية كراهية، ولكنه يتعامل مع الأمور بطريقة مختلفة عني: هو يأخذ اعتباراً عظيماً للثروة والمنصب أرجوك تعالي إلى هنا كي أراك أخبريني متى تستطيعين القدوم، أو إن كنت لاتريدين إخباري، سوف أتردد دائماً على هذا المكان حتى أتمكن من رؤيتك".

قالت ماغي: "أعتقد أن الخيار الأخير هو الأفضل، لأنني لست واثقة من أنه باستطاعتي المجيء إلى هنا في أوقات محددة".

أحست ماغي بارتياح كبير في تأجيل القرار. كانت حرة الآن في الاستمتاع بالدقائق القليلة التي جمعتها مع فيليب

بعد بضع لحظات من الصمت قالت ماغي وهي تنظر إلى فيليب مبتسمةً: "لاأستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بغرابة القدر، إننا نتلاقى الآن، ونتحدث مع بعضنا بعضاً، وكأننا لم نفترق إلا البارحة عندما كنا في لورتن. ومع ذلك طرأت علينا الكثير من التغييرات في غضون تلك السنوات الخمس - أعتقد أن فترة فراقنا هي خمس سنواتما هو شعورك بأنني مازِلْتُ ماغي التي عرفتها في الماضي؟ - لم أكن واثقة تماماً بأنك لن تتغير: أعرف بأنك فتى ذكي جداً. وبأن عليك أن تطلع على الخبرات، وتتعلم الكثير لكي توسع معارفك: لم أكن واثقة من أنك سوف تهتم بي الآن".

قال فيليب: "لم يكن لدي أي شك بأنك لم تتغيري مهما طال الزمان أقصد أن الأشياء التي جعلتني أحبك أكثر من أي شخص آخر لم تتغير فيك لاأريد شرح هذه المسألة: هنالك مشاعر أقوى منا تتحكم فينا، وتفرض علينا أموراً لانستطيع مقاومتها. لانستطيع التحري عن الطريقة التي أوصلتنا إلى مرحلة النشوة لقد رسم أحد أعظم الرسامين صورة غامضة لطفل مقدس، ولم يستطع أن يشرح كيف فعل ذلك، وكذلك نحن لايمكننا تفسير السبب الذي يجعلنا نشعر بأن ذلك الطفل مقدس هناك أنواع موسيقية محددة تطبع في نفسي أثراً عميقاً - فأصبح كلما أسمعها أسيراً لمفعولها القوي الذي لاأستطيع التخلص منه بسهولة، وعندما ينتهي ذلك التأثير، ربما أكون قادراً على إنجاز أعمال بطولية".

قـال مـاغي وهـي تقـبض يـديها ببعـضهما بعـضاً، بطريقتـها المتـهورة المعهـودة: "آه! أعـرف مـا الـذي تقـصده بـشأن الموسـيقى - أشـعر بهـذا جيـداً". أضـافت بنـبرة حزينـة: "كنـت أحـس بـذلك التـأثير القـوي عنـدما أصـغي لأي نـوع مـن أنـواع الموسيقى: أما الآن فليس بوسعي الاستماع إلا لموسيقى الأرغن في الكنيسة".

نظـر إليهـا فيليـب بـشفقة مـؤثرة: "وهـل تتـوقين لـسماع الموسـيقى يـا مـاغي؟ آه، لـديك فرصـة قليلـة جـداً للاسـتمتاع بجمـال الحيـاة هـل عنـدك الكـثير مـن الكتب؟ كنت مولعة جداً بالقراءة عندما كنت فتاة صغيرة".

عـادا أدراجهمـا إلى الـوادي، حيـث مـلأت المكـان ورود بريـة سـاحرة الجمـال، توقفـا في ظـل شـعاع مـسائي خـلاب، انعكـس عـن مجموعـة مـن الـورود ذات اللـون الأرجواني الشاحب

قالت ماغي بهدوء: "لا، لقد تخليت عن الكتب احتفظت بعدد قليل جداً".

كـان فيليـب قـد أخـرج مـن جيبـه مجلـداً صـغيراً، وكـان ينظـر إلى خلفيـة الكتـاب عنـدما قـال: "آه، هـذا هـو المجلـد الثـاني، أعتقـد أنَّـك تـرغبين بالاحتفـاظ بـه وضعته في جيبي لأنني كنت أقرأ مشهداً ليساعدني في رسم صورة".

نظـرت مـاغي أيـضاً إلى خلفيـة الكتـاب، وشـاهدت العنـوان: لقـد أنعـش ذاكرتهـا انطباع قديم له قوة فائقة

قالـت وهـي تأخـذ الكتـاب مـن يـدي فيليـب: "قرصـان البحـر "[1]، أوه، لقـد قـرأت هـذا الكتـاب مـرة، وصـلت في القـراءة، حيـث كانـت مينـا تتنـزه في العربـة، ولم أتمكـن مـن قـراءة البقيـة حاولـت أن أنـسج في مخـيلتي نهايـات عديـدة، ولكـن كانـت كلـها تعيـسة لم أسـتطع أن أتخيـل نهايـة سـعيدة لتلـك البدايـة المأسـاوية يـا لمينـا المسكينة! إنـني في تـوق شـديد لمعرفـة النهايـة الحقيقيـة للروايـةمنـذ وقـت طويـل لم يكـن بمقـدوري التحليـق بـذهني بعيـداً عـن جـزر شـتلاند - أصـبحت معتـادة على الإحساس بأن الريح تهب عليَّ من ناحية البحر الهائج".

تكلمت ماغي بسرعة، وعيناها تلتمعان

قـال فيليـب وهـو يراقبـها بـسعادة: "خـذي هـذا الكتـاب يـا مـاغي لـست في حاجـة إليـه الآن سـوف أرسـم لـك صـورة بديلـة - وأنـت تقفـين وسـط أشـجار التنوب الاسكتلندية، التي تلقي بظلالها على المنحدر".

لم تـسمع مـاغي كلمـة ممـا قـال: كانـت مـشغولة بقـراءة صـفحة اسـترعت انتباهـا. لكنـها فجـأة أغلقـت الكتـاب، وأعادتـه إلى فيليـب، وهـي تهـز رأسـها رافـضة، وكأنها تبعد عن ذهنها رؤى غير مستقرة تصورتها عندما قرأت الصفحة

---

[1] قرصان البحر: رواية كتبها السير والتر سكوت، طبعت عام 1821.

قال فيليب متوسلاً: "أرجوك خذيه يا ماغي، سوف يبعث في نفسك السرور".

قالت ماغي وهي تدفعه جانباً، وتتابع مسيرها: "لا، أشكرك سوف يشدني ثانية إلى هذا العالم ويجعلني أتعلق أكثر بالحياة الدنيا، كما اعتدت أن أكون - سوف يكشف لي أشياء كثيرة طالما أحببتها - وسوف يحرضني على رغبات الحياة ومباهجها".

"لكنك لن تظلي هكذا سجينة حظك العاثر: لماذا ترهقين نفسك بالتفكير بطريقة متشائمة؟ هذا الزهد يجعلنا ننظر إلى الحياة بمنظار ضيق، يا ماغي الشعر والفن والمعرفة كلها علوم مقدسة ونقية".

قالت ماغي وهي تغذُ السير بسرعة أكبر: "ليس بالنسبة لي لأن طموحي كبير جداً. يجب أن أنتظر - هذه الحياة لن تدوم طويلاً".

عندما وصلا إلى أشجار التنوب الاسكتلندية، وتابعت ماغي المشي عائدة إلى المنزل دون أن تتكلم، قال فيليب :

"لاتبتعدي دون أن تودِّعيني ينبغي عليَّ أن أقبلك ثانية، أليس كذلك؟".

"أوه، لا، لقد نسيت، إلى اللقاء "، قالت ماغي، بعد أن توقفت وصافحتهوداعُها له أثار مشاعرها بقوة تجاه فيليب، وبعد أن وقفا بضع لحظات يتبادلان النظرات بصمت، ويداهما متشابكتان، قالت ماغي وهي تسحب يدها :

إنني ممتنة لك كثيراً اهتمامك بي طوال كل تلك السنوات الفائتة من المفرح جداً أن نجد أناساً يكنون لنا المودة يا لها من نعمة حقيقية تلك التي يسبغها الله على قلبك، ويجعلك تهتم بفتاة صغيرة بائسة لم تعرفها إلا من مرور بضع أسابيع! أذكر جيداً عندما قلت لك، أنك تهتم بي أكثر مما يفعل توم".

قال فيليب بقلق: "آه، ماغي، لن تحبيني أبداً مثل ما تحبين أخيك". أجابت ماغي ببساطة: "ربما لا، تعلم بأن أول حدث أتذكره في حياتي، هو صحبتي مع توم قرب ضفاف نهر الفلوس، عندما كان يمسك بيدي: وكل ما حدث قبل ذلك لاأتذكره لن أنساك أبداً - بالرغم من أنه يجب علينا أن نفترق".

قال فيليب: "لاتقولي هذا يا ماغي لقد احتفظت بذكرى فتاة صغيرة عرفتها منذ خمس سنوات، ألا أستحق أن تحمل لي جزءاً بسيطاً من الود في قلبها؟ لاينبغي أن تضن عليَّ بصحبتها".

قالت ماغي: "هذا إن كنت حرة، لست كذلك - عليَّ الخضوع". ترددت ماغي لحظة، ثم أضافت، "أود أن أقول لك، أنه من الأفضل ألا تدخل في نقاش مع أخي، والاكتفاء بتقديم التحية له طلب مني مرة ألا أتحدث إليك ثانيةً، وهو

عنيد لايغير رأيهأوه عزيزي، الشمس تغيب لقد تأخرت كثيراً. "إلى اللقاء". صافحته ثانية

"سوف آتي إلى هنا كلما سنحت لي الفرصة، لكي أراك يا ماغي"."أجل، أجل "، قالت ماغي وهي تبتعد مسرعةً، وتوارت في الحال عن الأنظار خلف آخر شجرة تنوب، بينما ظل فيليب محدقاً خلفها بعينين ثابتتين لبضع دقائق وكأنه لايزال يراها أمامه.

عادت ماغي إلى المنزل، ولا تزال تعاني من صراع داخلي، وعاد فيليب كذلك، ولا يحمل في ذهنه سوى الأمل وذكريات اللقاء. لايمكنك توجيه اللوم بقسوة إلى فيليب كان يكبر ماغي بأربع أو خمس سنوات، ولديه إدراك كامل لمشاعره تجاهها. مما يمكنه من التنبؤ عن آراء الطرف الثالث بخصوص علاقته معها. ولا يفترض بك أن تعتقد بأنه يحمل مشاعر الأنانية في قلبه، أو أن باستطاعته الاقتناع بعلاقة كهذه دون أن يسعى جاهداً لإدخال شيء ما من السعادة إلى حياة ماغي - السعادة التي يتمنى أن يحققها لها دون أية مكاسب استطاع أن يتعاطف معها - وأن يمنحها الدعم والمؤازرة

لم تكن تصرفات ماغي معه توعده بعلاقة حب، مشاعرها اتجاهه لم تكن أكثر من مشاعر طفولية بريئة كانت تحملها بين جوارحها مذ كانت في الثانية عشرة من عمرها: ربما لن تحبه - ربما لم يسبق . أن أحبته امرأة: حسنٌ إذاً، سوف يتحمل كل ذلك، ويكتفي على الأقل بالسعادة التي يحس بها عندما يراها - ويبقى إلى جانبها. ويتعلق بأمل صعب المنال، أنها يمكن أن تحبه يوماً ما: ربما تتدفق المشاعر، وتزداد مع مرور الوقتإن استطاعت أيَّة امرأة أن تحبه بالفعل، بالتأكيد إن ماغي ستكون تلك المرأة: لقد حباها الله ثروة المحبة، وليس بمقدور أحد إنكار هذه الفضيلة إذاً - من المؤلم حقاً أن يذوي قلبٌ كقلبها وهو في أوج شبابه! هل يستطيع أن يكون عوناً لها، ويقنعها بأنها لاتعاني الحرمان؟ سيكون الملاك الحارس لها، سوف يفعل أي شيء، ويتحمَّل كل الصعاب، لأجل خاطرها - لكنه لن يتحمل أبداً أن تغيب عن ناظريه.

الفصل الثاني

الخالة غليك تتعلم من خبرة بوب الواسعة

بينما كانت ماغي تعاني من صراع داخلي يرهق روحها، صراع مبهم يلقي بظلال متوحشة تجثم بثقل على قلبها، كان توم منهمكاً بكفاح أكثر مشاكسةً وعنفاً، محاولاً القبض على المعيقات التي تعترضه، وكسب مزيد من الغزواتهكذا كان يحدث منذ أيام هكتور، مروِّض الأحصنة[1]: داخل البوابات، كانت النساء ذوات الشعر المنساب، يرفعن أيديهن، ويتضرعن للآلهة، وهن يراقبن صراعات العالم عن بعد، ويمضين أيامهن الطويلة والمملة بالذكريات والمخاوف؛ أما في الخارج، فكان الرجال يخوضون معارك شرسة، ويخمدون الذاكرة بالسعي الحثيث لتحقيق المراد، ويفتقدون الإحساس بالخوف وحتى بالجراح الدامية، في غمرة ذلك اللهاث المتسارع.

بعد أن أدركت طبيعة توم، لاأعتقد أنه شاب سيستسلم للفشل، ويغض النظر عن الأمنيات التي يسعى لتحقيقها: من المحتمل أن يسانده المحاربون، على الرغم من نجاحه القليل في المجال الكلاسيكي لم يرغب توم أن يحرز نجاحاً في هذا المجال، ولكن بعد أن كبر أحس بضرورة أن يكرس اهتمامه لأعمال لايرغب بها. الآن ازدادت قوة توم واعتزازه بنفسه، وتمسكه بطموحاته الشخصية، مما جعله يبذل قصارى جهده للتغلب على المصاعب والاحباطات عمه دين الذي راقبه عن كثب، بدأ في الحال يكّون فكرة جديدة عنه، ويشعر بالفخر نوعاً ما بأن يعمل في شركته.

بدا واضحاً أن توم أحس بفضل ولطف عمه الذي وافق على أن يؤمن له عملاً في المخزن، وربما بعد فترة تزداد ثقة عمه به، ويسمح له بالسفر لشراء بضائع متنوعة للشركة، تلك البضائع التي لست في حاجة لأن أخرش بها مسامع القارئ عندما كان السيد دين يجلس وحيداً ليحتسي نبيذه، كان يطلب من توم الجلوس معه، ويقضي ساعة في شرح التعاليم المتعلقة بالاستيراد والتصدير، موضوع كهذا استطرد السيد دين في شرحه ولاسيما هو يشرب الخمرة شيئاً فشيئاً يزداد راتب توم، وكل ما يحصل عليه، يذهب فوراً إلى الصندوق القصديري، باستثناء نفقات طعامه ولباسه.

---

[1] هكتور، مروض الأحصنة: هذه الكلمات مقتبسة من الإلياذة لهوميروس.

كما أنه تحاشى الرفقة، لكي لايضطر إلى زيادة التكاليف رغماً عن إرادته.

تدرب توم على أن يكون صناعياً ناجحاً، وكانت لديه رغبة قوية لإثبات قدراته، تماماً مثل مروض الأحصنة - وأن يبدو متميزاً في نظر جميع الجيران. صمم على تحقيق أهدافه إن عاجلاً أم آجلاً، إلا أن خبرته العملية علمته أن الوصول لبلوغ المراد لايمكن إلا من خلال الامتناع عن الملذات وإنكار الذات: هنالك عقبات لابد من تخطيها، وكانت أولاها تسديد ديون والده.أحس توم بأن رأي العامة بوالده ليس كما يجب، وبأن الجميع ينتقدون تصرفات أبيه الطائشة في الماضي، لكن خبرته المتزايدة علمته أن يتجاوز كل تلك الانتقادات بصمت، فهو ليس موضع لوم الآخرين: لم تكن العائلة تميل للتعاطف معه، وهو بدوره، لم تظهر على وجهه أية إشراقة خلال الساعات القليلة التي أمضاها في المنزل.شعرت ماغي بالرهبة منه، لكنها قاومت ذلك بأفكارها الواسعة ووعيها، ومع ذلك لم يبد هذا حلاً ناجعاً للصراع.

بإمكانك أن تتصور بوضوح أن توم يختلف عن والده، ويميل للتعاطف مع خالاته وأعمامه، فالتقارير والنبوءات المفضلة لدى السيد دين التي كان يوجهها إلى السيد غليك، كانت تتعلق بالجدال حول مؤهلات توم للعمل، التي بدأت تأخذ طابعاً أكثر استحساناً لديهما.

بدا من المحتمل أن باستطاعته تسديد ديون العائلة دون أن يحمل الآخرين أية نفقات أو إرباكات.طالما كانت السيدة دين تعتقد بأن تلك السحنة الرائعة التي تميز بها توم والتي ورثها عن عائلة دودسن، سوف تؤتي ثمارها المرجوة، أما الهفوات الصغيرة التي ارتكبها في طفولته مثل اللحاق بالطاووس وأذية الحيوانات، وعدم احترامه لخالاته بشكل عام، فهذا مرده لتأثير خفيف من عائلة توليفر. ذلك التأثير الذي تجاوزه توم بلا شك. أما السيد غليك، فقد حاول أن تكون علاقته أكثر عفوية مع توم، والسيدة غليك ارتأت أن تتكلم بالاستعانة بكتاب، كما كان يفعل البعض.

السيد بوليت، بعد فترة تفكير صامت ريثما ينتهي من مضغ سكا كره، توصل إلى نتيجة مفادها، أنه عندما يصبح الشاب ناضجاً، ويؤدِّي عمله بشكل حسن، يكون من الأفضل ألا يتدخل به أثناء ذلك، لم يبد توم ميولاً للاعتماد على أي إنسان، إلا على نفسه على الرغم من حساسيته الطبيعية نحو تقبل آراء المفضلين لديه، كان توم سعيداً بأن يعامله العم غليك بطريقة ودية أثناء ساعات العمل، وأحسَّ بالسرور عندما دعاه السيد غليك لتناول الغداء في منزله، بالرغم من أنه كان يفضل الامتناع عن قبول الدعوة لأنه لم يكن واثقاً من دقته في المواعيد.

ولكن منذ مرور عام تقريباً حدث شيء ما حرّض توم على اختبار ميول عمه الودية.

بوب جاكين، الذي نادراً ما كان يعود من جولاته دون أن يزور توم وماغي، في إحدى الأمسيات انتظره على الجسر بينما كان قادماً من منزله في بلدة القديس أوغ، ليتجاذبا أطراف الحديث برهة قصيرة سأل بوب السيد توم إن سبق له أن فكر بكسب المال عن طريق العمل بالتجارة لحسابه الخاص سأل توم: "التجارة، وكيف؟".

واي، بإرسال القليل من الحمولة إلى الموانئ الأجنبية، الآن لبوب صديق حميم يساعده بهذه الطريقة لشحن بضائع لاسهم، ومن دواعي سروره أن يؤدي خدمة مماثلة للسيد توم على المنوال ذاته اهتم توم بالموضوع على الفور، وتوسّل إلى بوب أن يعطيه إيضاحاً مفصلاً للعملية، وهو يتساءل كيف لم تخطر بباله هذه الخطة من قبل كان سعيداً جداً في رسم توقعات متفائلة تغير من ذلك التدفق المالي البطيء الذي يصل إلى الصدوق القصديري، وتحقيق رصيد إضافي في أقصر وقت ممكن حتى أنه عزم أمره حالاً لكي يستشير والده في الموضوع، ويحصل على موافقته لزيادة المدخرات اللازمة لتسديد الديون، من خلال شراء حمولة صغيرة وشحنها على حسابه الخاص كان يفضل أن لايستشير والده، لولا أن وضع آخر ما تبقّى له من نقود في الصندوق القصديري جميع المدخرات حفظت في الصندوق بناء على رغبة والده، خشية أن يفقدها.

مهد توم للموضوع بحرص، عندما كان جالساً إلى جانب الموقد مع والده في تلك الأمسية، بينما أصغى إليه السيد توليفر، وهو مُتَّكئ للأمام في كرسيه ويحدق في وجه توم بطريقة مرتابة كان لديه دافع قوي للرفض، لكنه خشي من طموحات توم، وبما أنه أب "سيء الحظ"، أفقده ذلك الشعور الثقة بنفسه، ولم يستطع لعب دور السيد.

أخرج مفتاح المكتب من جيبه، وأحضر الصندوق القصديري - ببطء، وكأنه كان يحاول تأخير حدوث لحظة فراق مؤلمة بعد ذلك جلس قبالة الطاولة وفتح الصندوق بذلك المفتاح الصغير الذي كان يلامسه بأصابعه وهو في جيبه، طوال تلك اللحظات المملة كان في الصندوق الشيكات المتسخة والجنيهات البراقة، بدأ يعدها على الطاولة - إنها مئة وستة عشر جنيهاً فقط في غضون عامين، وبعد كل هذا العناء.

قال: "كم تريد؟"، نطق الكلمات وكأنها ألهبت شفتيه.

قال توم: "افترض يا والدي أنني أبدأ مشروعي بمبلغ قدره ستة وثلاثون جنيها".

فصل السيد توليفر هذا المبلغ عن البقية، ووضع يده عليه وقال: "هذا مقدار ما أستطيع أن أدخره خلال عام".

"أجل بابا: إنه عمل بطيء للغاية - أن تدخر من النقود القليلة التي تكسبها - بهذه الطريقة سوف نضاعف من مدخراتنا".

قال الأب ولا يزال واضعاً يده فوق المبلغ: "أي، يا بني، ولكن من المحتمل أن تخسرها - ربما تضيع عام من عمري - ولم يعد لدي الكثير".

صمت توم

"لاتثق بالحظ يا بني إن خسرت عاماً من عمري، سوف لن أسترده ثانية - وسوف يتغلب علي الموت لامحالة".

ارتعش صوت السيد توليفر، وظل توم صامتاً بضع دقائق قبل أن يقول: "سوف أتخلى عن المشروع يا أبتي، إن كنت تعارضه بهذه القوة".

لكن توم لم يرغب بالتخلي عن المشروع، لذلك قرر أن يطلب من عمه غليك أن يسعفه بمبلغ عشرين جنيهاً، مقابل الحصول على خمسة بالمئة من الأرباح.

كان ذلك بالفعل طلباً متواضعاً. وهكذا عندما استدعاه بوب في اليوم التالي إلى الميناء، ليعرف نتيجة قراره، اقترح عليه توم ضرورة الذهاب سوية إلى عمه غليك لمناقشة العمل معه، فقد أحس توم بأن لسان بوب الطليق سوف ينقذه من بعض الإرباكات.

السيد غليك، أثناء خلوته السعيدة في ظهيرة أحد أيام آب الحارة، والتي تدوم أربع ساعات يومياً كان يعد أشجار الفاكهة الممتدة على طول السور ليتأكد بنفسه من أن المقدار الإجمالي لم يتغير منذ البارحة عندما دخل توم، بدا السيد غليك مندهشاً جداً لرؤية رفيقه: ذلك الشاب الذي يحمل ثقلاً على ظهره - لأن بوب كان مجهزاً لخوض رحلة جديدة في تلك الأثناء - وبصحبة كلبه المندفع، الذي يترنح بحركة متثاقلة من جانب لآخر. النظارات التي وضعها السيد غليك ساعدته على إحصاء عدد الفاكهة بشكل جيد، لكنه ذعر لرؤية ذلك المشهد الغريب.

"هيه! هيه! أبعد ذلك الكلب من هنا، إذا سمحت "، صرخ السيد غليك وهو يختطف عصا ويلوح بها وكأنه يحمل ترساً، بينما كان الزوار يبعدون عنه مسافة ثلاث ياردات.

قال بوب وهو يرفسه: "ابتعد يا مامبز. إنه هادئ مثل الخروف يا سيدي".

زمجر الكلب بصوت منخفض، بعد أن سمع رأي بوب فيه، وانهزم خلف سيده.

قال السيد غليك: "واي، ماذا يعني هذا يا توم؟ هل أحضرت معلومات عن الأوغاد الذين يريدون قطع أشجاري؟".

قال توم: "لايا سيدي جئت لأبحث معك موضوعاً يخصني".

قال السيد غليك، بعد أن استعاد بشاشة وجهه "أي - حسنٌ، ولكن ماذا يعمل الكلب هنا؟".

كان بوب مستعداً للإجابة فوراً، قال: "هذا الكلب لي، يا سيدي والموضوع الذي جئنا لمناقشته معك، أنا من اقترحته على السيد توم، لأنه صديق حميم لي منذ الطفولة: كنا نخيف الطيور معاً يا سيدي وعندما يحالفه الحظ، أكون سعيداً جداً لأجله، لذلك أتمنى أن يحصل على الفرصة المناسبة، ويؤمن مبلغاً من المال لشحن بضائعه على حسابه الخاص - وعندما يربح سوف يعطيك نسبة من الأرباح. سأذهب بنفسي إلى لاسم، وأشتري البضائع للسيد توم، كما أشتري بضائعي تماماً. والرجل الذي يشحن البضائع أعرفه جيداً، إنه رجل حازم، ولديه عائلة هناك في البلدة اسمه سولت - إن كنت لاتصدقني، أستطيع أن آخذك إليه".

وقف العم غليك فاتحاً فاهه، وقد اعترته الدهشة من هذا الشاب الذي يثرثر دون أي ارتباك، حتى أن السيد غليك بالكاد استطاع أن يستوعب كل ما قاله.

حدق إلى بوب، من فوق نظارته أولاً، ثم من خلالها، ثم نظر إليه ثانية من فوقها. أما توم، الذي لم يكن لديه أدنى شك في الانطباع الذي تركته تلك الثرثرة في نفس عمه، فقد تمنى لو أنه لم يحضر ذلك الشخص ليتكلم نيابة عنه: بدا حديث بوب خالياً من اللباقة والاحتشام، ولاسيما أن هنالك شخصاً ثالثاً بالإضافة إلى توم كان يصغي إليه.

أخيراً قال السيد غليك: "يبدو أنك شخص ذكي".

استدار بوب، مشيحاً برأسه جانباً: "أي، أنت على حق يا سيدي أعتقد أن رأسي مليء بالأفكار والخطط. لولا كلبي مامبز، لتعثرت كثيراً في حياتي إنه يساعدني ويصغي إلي بانتباه. أعتقد أنه كان علي الالتحاق بالمدرسة. قلت لوالدتي مرة "كان عليك إرسالي إلى المدرسة لتمكنت عندئذ من قراءة كتب ممتعة توسع خيالي أكثر. أجل يا سيدي، والآن تعيش أمي مرتاحة البال تأكل ما لذ وطاب من الأطعمة لأنني أكسب مالاً وفيراً، وباستطاعتي أيضاً الحصول

على زوجة والإنفاق عليها. لكن الحصول على زوجة ليس بالأمر السهل - فمن المحتمل أن لايحبها مامبز".

السيد غليك الذي اعتبر نفسه رجلاً مرحاً منذ تقاعده من عمله، بدأ يشعر بأن بوب شاباً مسلياً، لكنه لازال يرفض الاعتراف بذلك، مما جعله محافظاً على أسلوبه الجدي.

قال: "آه، أعتقد أنك تنفق الكثير من المال، وإلا لما احتفظت بذلك الكلب لضخم، الذي يأكل ما يعادل ما يأكله مسيحيًان إنه لأمر مخزي - ياللعار!". تكلم بنبرة حزينة أكثر منها غاضبة، وأضاف بسرعة - "ولكن، هيا، لنسمع المزيد عن هذا العمل يا توم أعتقد أنك بحاجة لمبلغ قليل من المال لكي تباشر مغامرتك معه. ولكن أين أموالك الخاصة؟ لم تنفقها كلها، أليس كذلك؟".

قال توم وقد تورد وجهه: "لايا سيدي، والدي لايرغب في خوض مغامرة من ذلك النوع، وأنا لاأريد الضغط عليه أكثر. إن استطعت الحصول على عشرين أو ثلاثين جنيهاً لكي تساعدني على البدء بعملي، سوف أدفع مقابلها خمسة بالمئة، عندئذ أتمكن بالتدريج من جمع رصيد مالي ضئيل خاص بي، وأتابع عملي دون أن استقرض من أحد".

قال السيد غليك مؤكداً: "أي، أي، إنها ليست فكرة سيئة، وسأساعدك قدر ما أستطيع. ومن الأفضل أن أرى ذلك الرجل الذي يدعى سولت ثم هذا الصديق الذي يود شراء البضائع لأجلك ربما من الأفضل لك أن تحصل على ضمان منه إذا أردت تحقيق الربح؟ "، أضاف العجوز الحذر، وهو يحدق إلى بوب من فوق نظارته.

قال توم: "لاأعتقد أن هذا عمل ضروري يا عماه على الأقل هذا ليس ضرورياً بالنسبة لي، لأنني أعرف بوب جيداً، ولكن من الصواب أن تحصل أنت على ضمان".

قال السيد غليك وهو ينظر إلى بوب: "أفترض أنك ستحصل على نسبتك من الشراء، أليس كذلك؟".

أجاب بوب بلهجة ساخطة إلى حد ما: "لايا سيدي، لم أطرح هذا العرض على السيد توم لكي أربح عن طريقه. عندما أمارس الحيل على الآخرين سيبدو الأمر مضحكاً ومثيراً للسخرية".

قال السيد غليك: "حسنٌ، ولكن من الصواب أن تحصل على نسبة لقاء أتعابك. لم أسمع أبداً عن أناس يؤدون خدماتهم دون مقابل. يبدو هذا التصرف في غاية السوء".

قال بوب الذي بدأ يدرك قواعد اللعبة: "حسنٌ، إذاً، سوف أخبرك ما الذي أحصل عليه، في نهاية الأمر تكون النقود في جيبي: - أحصل على ثقة الآخرين بي، دون أن أحقق عملية شراء كبيرة هذا ما أفكر به يا سيدي! إنني شاب حاذق - أجل إنني كذلك".

ينبعث صوت حاد من نافذة الردهة.

"سيد غليك، سيد غليك، أرجوك تعال لتحتسي الشاي، ألا تريد المجيء؟ - وهل ستطيل الوقوف مع الحمالين حتى يغتالوك في ضوء النهار".

قال السيد غليك: "يغتالونني؟ عمَّاذا تتحدث هذه المرأة؟ هذا ابن أختك توم، قادم بخصوص عمل".

"يغتالونك - أجل - لم يمض زمن بعيد عن اغتيال حمّال لامرأة شابة في مكان منعزل، لقد سرق أموالها، ورمى جسدها في قناة للري".

قال السيد غليك بلطف: "أبداً، أبداً، أنت تتوهمين حدوث أشياء كهذه".

"حسن سيد غليك - أنت مغرم فقط في دحض كل ما أقوله، إن جاء ابن أختي بخصوص العمل، فمن اللائق أكثر أن تدخله المنزل، وتعطي فرصة لخالته كي تتعرف على نوع العمل، بدلاً من الهمس في الزوايا بتلك الطريقة المدبرة والمجحفة".

قال السيد غليك: "حسن، حسن، سوف ندخل الآن".

صرخت السيدة وهي تنظر إلى بوب، متجاهلة المسافة التي تفصل بينهما: "لاحاجة لبقائك هنا. لانريد منك أي شيء. أنا لاأتعامل مع الحمالين تأكد أنك أغلقت البوابة خلفك".

قال السيد غليك: "انتظري قليلاً، لاتتسرعي لم أكمل عملي بعد مع ذلك الشاب ادخل يا توم، هيا ادخل "، أضاف وهو يتقدم نحو النافذة الفرنسية الصنع.

قالت السيدة غليك بلهجة جازمة: "سيد غليك، إن أردت السماح لذلك الرجل بالدخول وكلبه، وتلويث سجادتي، على مرأى من عيني، عليك أن تكون طيباً معي، وتعلمني بالأمر. للزوجة الحق في معرفة مواعيد زوارها، كما أعتقد".

قال بوب وهو يتحسس قبعته: "لاتقلقي يا سيدتي، سوف نبقى في الخارج - مامبز وأنا. يعرف مامبز رفيقه. من المدهش حقاً أن يتعرف على السيدات الجميلات مثلك - وأن يولع بهن بشكل خاص عندما يتأنقن"أضاف بوب، وهو يمدد ظهره على الحصى: "من المؤسف جداً أن لاتتعامل سيدة جميلة مثلك مع حمال، وتذهب بدلاً عن ذلك إلى المحلات التي تعرض ألبسة على الموضة: من

البدهي أنه يتوجب عليك دفع ثلاثة أضعاف ما تدفعينه لحمّال مثلي، بما أنها الطريقة المعتادة للحصول على البضائع، فصاحب المحل غير مضطر لأن يحبس أنفاسه حتى يحصل على أجوره، كما يفعل الحمال المسكين الذي يكتم غيظه، بينما يرى الآخرين يعصرون جهده حتى آخر رمق ولكن ماما!، أنت الأعلم بما يناسبك - بوسعك أن تعتبريهم تجاراً".

"أجل، أخمن أنني أستطيع اعتبارهم تجاراً، كما أعتبر الحمالين أيضاً".

قالت السيدة غليك، محاولة أن تظهر بأن إطراء بوب لم يكن له تأثير عليها بينما كان زوجها واقفاً خلفها، ويضع يديه في جيبه مبعداً بين ساقيه وهو يغمز، ويبتسم بمرح بعد أن أحبطت مساعي زوجته.

قال بوب: "أي، لتكوني أكثر ثقة بي يا ماما، أعرف بأنك كنت تتعاملين مع الحمالين في فترة شبابك - قبل أن يحالفك الحظ بالتعرف على هذا السيد. أعلم أين كنت تسكنين رأيت منزلك عدة مرات - إنه قريب من ساحة دارليه - بناء حجري له درج".

قالت السيدة غليك وهي تسكب الشاي: "آه، إذاً فأنت تعرف شيئاً ما عن عائلتي هل يمت إليك بصلة ذلك الحمال الذي لديه ارتخاء في أحد جفني عينيه، والذي اعتاد على إحضار أقمشة ايرلندية؟".

قال بوب متملصاً: "لاحظي الآن! هل تعلمين بأنني أذكر بأن أفضل الصفقات التي قمت بها في حياتك كانت تلك الصفقات مع الحمالين؟ تدركين أن ذلك الحمال الذي يعاني من ارتخاء في جفنه، أفضل من صاحب محل سوف يكون من دواعي سروري الذهاب بحملي إلى ذلك البيت الحجري، حيث تخرج الشابات الجميلات، ويشترين بضاعتي واي ماما، انظري إلى الملابس القطنية الآن، وتذكري تلك التي كنت ترتدينها في الماضي، واي، لن تحبذي ارتداءها الآن، ولن تقبلي على شرائها، كما لن يشتريها أحد من عائلتك سوف تشتري ملابس من الطراز الأول".

قالت السيدة غليك وهي تشعر بأنها حققت انتصاراً بفضل ذكائها الذي لايضاهى: "أجل، أفضل ملابس من الطراز الأول ومثلك لايمكنه اقتناؤها: ليس لديك أي شيء من الطراز المتاز سوى صفقاتك سيد غليك ألا تجلس لتحتسي شايك؟، توم يوجد فنجان لأجلك".

قال بوب: "إنك على حق ماما. بضاعتي لاتناسب سيدات مثلك لقد ولى زمني لم تعد بضاعتي مناسبة للأثرياء. لا، لاماما لن أعرض بضاعتي أمامك فأنا غلام غير مناسب".

قالت السيدة غليك: "لماذا، ما نوع البضاعة التي بحوزتك؟ أشياء ذات ألوان جميلة - أفترض أنها مجموعة من الشالات؟".

قال بوب: "لدي جميع الأنواع، ماما، جميع الأنواع ولكن لو سمحت دعينا نتوقف عن هذا الجدال فأنا هنا لأناقش عملاً يخصُ توم، ولست أبغي احتكار الوقت لنفسي".

قالت السيدة غليك، التي أغراها فضول مضاعف، فكانت مضطرة للتنازل عن أحدهما لفترة قصيرة: وما هو ذلك العمل الذي لاأعرف عنه شيئاً؟".

قال السيد غليك بلطف :"هناك مخطط صغير في ذهن ابن أختك، كما أعتقد. مخطط لجمع المال :وهذا هو عين الصواب بالنسبة لشاب مثله قادر على جمع ثروة في بداية حياته، إيه جين؟".

"آمل ألا تكون خطة يتوقع فيها أن يقوم أصدقاؤه بكل الأعباء: هذه طريقة تفكير الشباب في هذه الأيام ماذا يفعل هذا الحمال هنا؟ أليس بمقدورك أن تعبر عن حاجتك يا توم، وتسمح لخالتك بالتعرف على ما يدور في ذهنك، كما ينبغي أن يفعل كل ابن أخت؟".

قال توم محاولاً كبح جماح الاضطراب الذي يسببه دائماً صوت الخالة غليك: "إنه بوب جاكين يا خالتي أعرفه مذ كنا صغاراً. إنه إنسان طيب القلب جداً. ومستعد دائماً لتقديم خدماته لي لديه خبرة في شحن البضائع إلى الخارج - جزء بسيط من الحمولة بمثابة نوع خاص من المضاربة، وهو يعتقد أنني لو تمكنت من أداء عمل مماثل، لجمعت بعض المال هنالك منفعة كبيرة من ذلك العمل".

سألته الخالة غليك بلهفة: "منفعة كبيرة؟ وكم تقدر هذه المنفعة الكبيرة؟".

"عشر أو اثنتي عشرة بالمئة، كما يقول بوب، بعد دفع التكاليف".

قالت السيدة غليك، وهي تستدير نحو زوجها، وتحدق به بإمعان: "إذاً، لماذا لم تطلعني على ذلك الأمر يا سيد غليك؟ ألم تكن تقول لي دائماً بأنه لايمكن الحصول على أكثر من خمس بالمئة".

قال السيد غليك: "بوه، بوه، هذا هراء يا زوجتي الطيبة لايمكنك الخوض في غمار التجارة، هل تستطيعين؟ وليس بوسعك الحصول على أكثر من خمس بالمئة مع الضمان".

قال بوب: "أستطيع أن أجد لك طريقة لضمان نسبة أكبر، وعلى الرحب والسعة، ماما. إن وافقت على إقراض توم مبلغ بسيط من المال، سوف يدفع لك ست أو سبع بالمئة، ويحصل على مقدار ضئيل لنفسه، وسيدة لطيفة مثلك سيكون من دواعي سرورها تحقيق مكسب ولو بسيط لابن أختها".

قـال الـسيد غليـك: "مـاذا قلـت سـيدة غليـك؟ لـدي فكـرة عـن الموضـوع. إن أعطيت توم مبلغاً من المال، سوف أكسب نسبة لابأس بها".

"سـيد غليـك، لـن تنـال مـني! سـوف تـذهب فيمـا بعـد إلى أولئـك الأفـاقين وتطلعهم على أسراي، فيهرعون إلى سلبي أموالي".

"حـسن، حـسن، كمـا كنـت أقـول لـك، إن رغبـت بالاشـتراك معـي بمبلـغ عـشرين جنيهـاً، باسـتطاعتك ذلـك - سـأجعلها لـك خمـسين جنيهـاً. وهـذا اقـتراح جيـد، إيـه توم؟".

قالـت زوجتـه: "آمـل ألا تعتمـد علـي سـيد غليـك لـيس لـدي شـك في أنـك حريص على أموالي".

قـال الـسيد غليـك بحيويـة: "حـسنٌ إذاً، سـوف نقـوم بالمـشروع دون مـشاركتك سأرافقك للتعرف على سولت هذا "، أضاف وهو يستدير نحو بوب

قالـت الـسيدة غليـك: "أفـترض الآن أنـك ستباشـر في الموضـوع سـيد غليـك، وتريـد إقـصائي عـن كـل مـا يخـص عمـل ابـن أختي.لم أقـل أبـداً بـأنني لاأود استثمار أمـوالي - ولم أقـل بـأن المبلـغ سـيكون عـشرين جنيهـاً. بـالرغم مـن أنـك مـستعد دائمـاً للكلام بالنيابـة عـني - سـيعرف يومـاً مـا بـأن خالتـه علـى صـواب لأنهـا لاتريـد المغامرة بأموال ادخرتها لأجله، وأنها حريصة على عدم تبديدها بسهولة".

"أي، هـذا يعـني أنهـا مغـامرة ممتعـة "، قـال الـسيد غليـك بـشيء مـن عـدم اللباقـة وهـو يغمـز تـوم، الـذي لم يـستطع أن يتمالـك نفـسه فابتـسم لكـن بـوب كـبح جماح ثورة الغضب التي كانت ستطلقها السيدة غليك

قـال بإعجـاب: "أي، مامـا، أنـت تـدركين تمامـاً مـا تريـدين فعلـه وهـذا هـو عـين الـصواب مـن المفيـد أن يكـون للمـرء أقـارب طيبـون لقـد بـدأت عملـي بعـشرة جنيهـات، اسـتثمرتها بـشكل جيـد فأصـبحت ثلاثـين جنيهـاً وكـل هـذا بفـضل أقـاربي الطيبين وبمساندة أمي لي وبمقدور أي شاب نشيط زيادة رأسماله بالعمل".

قالـت الـسيدة غليـك بلهجـة أمومـيـة، وهـي تبتعـد عـن طاولـة الـشاي، وتطـوي منديلها: "وهل لديك بضاعة جيدة الآن؟".

"إيه، ماما، ربما لاتليق بك بما فيه الكفاية".

قالـت الـسيدة غليـك وهـي مـا زالـت محافظـة علـى لهجتـها الأموميـة: "ولكـن دعني أرَ إن كانت البضاعة معطوبة قليلاً فهذا لايمنع أنها ذات جودة".

قال بوب وهو يرفـع حملـه، ويضعه علـى كتفيـه: "لا، مامـا. أعـرف مكانتي جيداً. لم أحضر إلى هنا لكي أعرض بضاعة سيئة أمام سيدة مثلك. سوف أريك فيما بعد بضاعة ذات جودة عالية إنني في خدمتك سيدي، إن أردت مرافقتي لرؤية سولت".

قال السيد غليك الذي لم يرغب بإنهاء الحوار: "كل شيء جيد في وقته المناسب هل تريد الذهاب إلى الميناء يا توم؟".

"لايا سيدي، لقد غادرت الميناء وتركت بديلاً عني هناك".

"تعال وأنزل حملك لأرى بضاعتك "، قالت السيدة غليك، وهي تسحب كرسيها نحو النافذة، وتجلس بكبرياء.

قال بوب متوسلاً: "لاتطلبي مني هذا. ماما".

قالت السيدة غليك بصرامة: "لاأريد مزيداً من النقاش، افعل فقط ما طلبته منك".

قال بوب وهو ينزل حمله ببطء على الدرج، ويفك الأربطة رغماً عن إرادته: "إيه ماما، إنني ولدٌ مقيت - إنني كذلك ولكن كل ما تأمرين به سوف ينفذ".

(كان يتلعثم كثيراً بين كل جملة وأخرى).

"هذه البضاعة لاتناسبك سوف أشعر بالأسف الشديد لأجلك فكري في أولئك السيدات الفقيرات اللواتي يقطن في القرى، ولا يتجرأن على الابتعاد عن منازلهم بضع ياردات سيكون من المؤسف حقاً أن يشتري أي شخص آخر بضاعتهن البسيطة انظري هنا الآن "، تابع بوب حديثه بعد أن تخلص من تلعثمه وانسابت الكلمات بسرعة من فمه "

"توجد هنا قطعة قماش تجعل السيدة أكثر جمالاً، وتساوي مبلغ شلنين -- ولماذا؟ لماذا، لأنها ناعمة الملمس مثل فراشة أعتقد أن هذا النوع من القماش الرخيص قد صمم لأجل النساء الجميلات اللواتي لايملكن مالاً وفيراً. لكن يوجد نوع من القماش مخصص للسيدات الثريات مثلك ماما، وثمنها خمسة جنيهات".

قالت السيدة غليك بنبرة حادة: "أجل، ولكن ما من شخص يريد شراء بضائع باهظة الثمن ضع هذه الأقمشة الملونة - كي أراها وأتفحصها".

قال بوب وهو يقذف الأقمشة جانباً بإحساس من اليأس: "إيه، ماما، أخبرتك عنها من قبل توجد هنا قطعة قماش من القطن الرقيق - ما فائدة أن تنظري إليها؟ إذا نظرت إلى أقمشة الفقراء، ربما تفقدين شهيتك في الشراء. هذا القماش القطني لبسته أميرات فيكتوريا- "و أضاف بوب وهو يرمي قطعة القماش جانباً، وكأنه يحاول إخفاءها عن ناظري السيدة غليك، "هذه بعشرة شلنات، ودون المعطوب منها سيكون ثمن الجميع خمسة وعشرين شلناً - ولا بنساً أقل من هذا الثمن ولكن سأقدم لك نصيحة ماما، إن أي من هذه الأقمشة لاتناسبك ،وبوسعك دفع ثلاثة أضعاف لشراء قماش من النوع الجديد. سوف أخدمك وأحضر لك".

قالت السيدة غليك: "أحضر لي ذلك القماش إنه مصنوع من جلد الجاموس - وأنا مولعة بالجواميس".

قال بوب بنبرة فيها استياء واشمئزاز: "إيه، ولكنه قماش معطوب، لاشأن لك به، ماما - ستعطينه للطباخة، أعلم بأنك ستفعلين - سيبدو الأمر مؤلماً - سوف تبدو فيه مثل سيدة - هذا القماش غير ملائم للخادمات".

قالت السيدة غليك بحزم: "أحضره، ودعني أَرَهُ".

أطاع بوب أمرها متظاهراً بعدم الرضا.

"انظري هنالك الأفضل! "، قال بوب، بينما كانت السيدة غليك مشغولة بتفحص المسافة المعطوبة، وألقت قطعة القماش على رأسها إلى الخلف لترى مقدار مايبدو عليها من العطب

قالت بشكل قطعي وهي ترميها: "سوف أدفع لك ستة شلنات".

"ألم أقل لك، ماما، بأنك ستشعرين بالاشمئزاز من رؤية بضاعتي؟ أرى أن هذه المساحة المعطوبة أثارت في نفسك القرف "، قال بوب وهو يطوي القماش بأقصى سرعة، وينوي الانصراف بحمولته

"لقد اعتدت على رؤية بضاعة ذات جودة عالية، عندما كنت تعيشين في المنزل الحجري أخبرتك بأن بضاعتي تناسب فقط عامة الشعب السيد بيبر كانت ستدفع لي عشرة شلنات ثمناً لهذا القماش، وتتأسف لأنها لم تدفع المزيد".

قالت السيدة غليك: "حسنٌ، سبعة شلنات".

قال بوب: "غضي النظر عن هذه القطعة ماما، توجد هنا قطعة قماش من الحرير، إذا أردت أن تريها قبل أن أحزم أمتعتي: فقط لكي تعلمي كم بضاعتي جميلة: انظري هنا، إنها قماشة جميلة ومرقطة، لكن اللون الأصفر الذي فيها غير مناسب لشكلها. لولا لونها الأصفر، لما استطعت شراءها. عندما بدأت عملي كنت جاهلاً مثل خنزير - كان بالنسبة لي القماش القطني والحريري على حد السواء. لقد دفعت ثمن هذه القطعة الحريرية خمسة شلنات وثمانية بنسات - وإن قلت غير هذا، أكون كاذباً: لن أطلب منك ثمنها إلا كما اشتريتها خمسة شلنات وثمانية بنسات - ولا بنس زيادة - فأنا لاأحب أن أغضب السيدات خمسة شلنات وثمانية بنسات ثمن ست ياردات من هذه القطعة، هو ثمن رخيص جداً".

قالت السيدة غليك: "أفكر في شراء ثلاث ياردات منها".

قال بوب: "لماذا، لايوجد منها سوى ست ياردات لاماما، إنها لاتستحق هذا التردد، بمقدورك الذهاب غداً إلى المحل وشراء قطعة مشابهة لها تماماً. لكنك

سوف تدفعين ثمنها ثلاثة أضعاف فقط - وماذا يعني هذا بالنسبة لسيدة مثلك؟".

حزم أمتعته بتصميم واستعد للمغادرة

قالت السيدة غليك: "تعال، أرني تلك القطعة من القماش القطني. سوف أدفع ثمنها ثمانية شلنات".

قال بوب وهو ينظر للأعلى بوجه ضاحك: "إنك تمزحين ماما".

قالت السيدة غليك بشكل قطعي: "حسنٌ، أعطني إياها".

"ماما، إن أعطيتك القطعة بعشرة شلنات، أرجو أن تكوني طيبة معي، ولا تخبري أحداً بهذا السعر، لأنني سأكون محط سخرية الآخرين. عندئذ لا أستطيع بيع بضاعتي بالثمن الذي تستحقه، وسوف يكتشف الآخرون بأنني متساهل في المساومة فيدفعون كما يشاؤون ويبخسون حقي. إنني سعيد بأنك لم تصري على شراء القطعة الحريرية، وإلا كنت سأخسر أفضل صفقتين للسيدة بيير - لأنها زبونة نادرة".

قالت السيدة غليك وهي تنظر بتوق إلى أنواع القماش الرخيص: "دعني أرى تلك القطعة الحريرية من ثانية".

قال بوب: "حسنٌ، لايمكنني أن أرفض لك طلباً، ماما، إيه! انظري هذه بضاعة لاسهيم الحقيقية. هذا النوع من البضائع الذي نصحت به السيد توم إنها بضاعة جيدة تلقى إعجاب أي شخص وبمقدوره الحصول عليها بسعر زهيد. لو كنت سيدة تملك حفنة قليلة من النقود! - لماذا، أعرف سيدة دفعت ثلاثين جنيهاً لكي تستثمرها في هذه البضائع. أعطت المبلغ لشاب مثلي وهو بدوره استثمر أموالها، ودفع لها ثمانية بالمئة، وهي الآن سيدة في غاية الثراء مثل سيدة يهودية. لقد نسيت اسمها، إنها لاتسكن في هذه البلدة. والآن ماما، أعطني القطعة لو سمحت".

قالت السيدة غليك: "إذاً هذه خمسة عشر شلناً ثمناً للقطعتين. لكنه ثمن باهظ للغاية".

"لاماما، لن تقولي هذا عندما ترتدينها، وتصلي في الكنيسة. بالفعل ثمنها زهيد جداً، والآن سيدي "، تابع بوب، وهو يحزم أمتعته، "سوف أكون سعيداً جداً إن ساعدت توم في زيادة رصيده. إيه أتمنى لو كان بحوزتي عشرون جنيهاً".

قالت السيدة غليك بينما يأخذ زوجها قبعته: "توقف قليلاً، سيد غليك. لم تعطني فرصة للكلام. إنك تذهب الآن، وتنهي كل شيء بخصوص هذا العمل، ثم تعود لتخبرني بأن الوقت متأخر جداً للكلام وكأنني لست خالته!".

قال السيد غليك بسرعة: "حسنٌ، سيدة غليك، هيا قولي ما تقصدينه بهذا الكلام".

"حسنٌ إذاً، أرغب بأن لايتم فعل أي شيء دون معرفتي أنا لاأقول بأنني لن أغامر بمبلغ عشرين جنيهاً، إن سار كل شيء على ما يرام، وحصلت على ضمان وإن وافقت على ذلك يا توم"، تستدير نحو ابن أختها بشكل مؤثر، "آمل ألا تنسى فضلي عليك أبداً، وأن تكون شاكراً لخالتك كما تعرف، أقصد أن تدفع لي الفائدة - لن أكتب عليك أية سندات، نحن لانتقيد بهذه الرسميات في عائلتي.

قال توم بفخر إلى حد ما: "أشكرك خالتي، أفضل أن تعطيني النقود كدين أسدده فيما بعد".

"رائع جداً: هذه هي عادات عائلة دودسن"، قالت السيدة غليك وهي تنهض لتأخذ حياكتها بعد أن أفرغت كل ما في جعبتها.

بدأ السيد غليك بطرح عدة أسئلة لكي يشعر بالرضا الكافي لضمان المشروع الذي ساهمت به الخالة غليك بمبلغ عشرين جنيهاًو في هذا السياق تنكشف أمامك حقيقة ربما تثير في نفسك الدهشة - كان توم يكدس المال دون علم والده لتغطية العجز الذي يعانون منه لم يضيع توم أية فرصة في الحصول على معلومات تغني مشروعه الصغير. أخفى الأمر عن والده، لأنه تأثر بذلك الخليط الغريب من المشاعر المتناقضة، التي غالباً ما تعكس حقيقة متساوية بالنسبة إلى أولئك الذين يوجهون اللوم لأفعاله، وبالنسبة إلى من يكنون الإعجاب بها: فمن ناحية لم يكن هنالك ميول لمنح الثقة التي يمكن أن تلاحظ بين أفراد العائلة - ذلك الاشمئزاز الأُسري الذي يفسد أكثر العلاقات قداسة في حياتنا، ومن ناحية أخرى، كانت هنالك رغبة ليفاجأ والده بفرحة عظيمة لم يدرك أنه من الأفضل أن يعيش في آمل جديد، ويبعد عن مخيلته ذلك الهوس بانتظار فرصة مفاجئة للغاية.

في الوقت الذي كانت فيه ماغي تلتقي فيليب لأول مرة، كان توم قد جمع مئة وخمسين جنيهاً من رأسماله الخاص ،وبينما كانا يتمشيان تحت ضوء المساء في الأعماق الحمراء، كان توم أيضاً يشق طريقه في ضوء المساء، نحو لاسهيم، وهو يشعر بالفخر كونها الرحلة الأولى التي يقوم بها شخصياً بالنيابة عن شركة غيست، ويفكر بعمق بالفرصة التي ستسنح له مع نهاية عام آخر، أن يضاعف أرباحه، ويرفع عن كاهل أبيه عبء الديون ويخلص اسمه من العار، وربما - لأنه سيصبح في ربيعه الواحد والعشرين - عليه أن يضمن بداية جديدة لنفسه، ويشق بها دربه إلى الأعلى. ألا يستحق هذا؟ كان واثقاً تماماً من أنه جدير بذلك.

الفصل الثالث

التوازن المترنح

قلت إن ماغي عادت إلى منزلها في ذلك المساء، من ربوع الأعماق الحمراء وهي في حالة صراع فكري تدرك عزيزي القارئ، بما فيه الكفاية من خلال لقائها مع فيليب، ماهية ذلك الصراع يظهر فجأة شق داخل ذلك الجدار الصخري الذي حجبه واد ضيق من الخضوع، عن العالم الخارجي، حيث كان المشهد الوحيد أمامها سماء فسيحة لايمكن سبر أغوارها، فبدأت بعض المباهج الدنيوية تخترق ذلك الجدار، ولم تعد بعيدة المنال عنها. يوسعها اقتناء بعض الكتب، واكتساب أفكار ومعارف وعواطف - بإمكانها أن تشهد ذلك الترتيب الإلهي للكون الذي لم يحكم بعد على عقلها بالنفي عنه، وسوف تكون هناك أيضاً علاقة حميمة تربطها بفيليب، الذي بدت عليه التعاسة بشكل واضح، وربما كانت فرصة للسمو بفكرها إلى مآرب أكثر أهمية - ربما لايمكن لمثل هذه المشاعر النبيلة والإخلاص والصدق، أن يمتلكها إنسان يتسم بمعرفة واسعة: وهل ينبغي أن يطوقها القدر دائماً بهذا السجن الاستسلامي؟ إن الصداقة التي تربطها بفيليب، شيء في منتهى السمو والطيبة، ولا يمكن لأحد أن يلومها عليها، والدوافع التي تمنع صداقة كهذه، لامبرر لها ولا يستسيغها أي منطق - حتى المبادئ المسيحية لم تمنع صداقة كهذه!

لكن التحذيرات الرتيبة القاسية انهالت عليها مرة تلو الأخرى - تنبئها بأنها سوف تفقد البساطة ولوضوح في حياتها إن أرادت الاعتراف بمبدأ السرية اعتقدت بأنها امتلكت القوة الكافية للاستجابة للتحذيرات، قبل أن تسمح لنفسها بالذهاب في إحدى لأمسيات، خلال الأسبوع القادم إلى الأعماق الحمراء.

وبينما عزمت أمرها أن تقول وداعاً لكل العواطف التي تربطها بفيليب، ارتعشت أمام كل ما يبعث في نفسها القسوة والكره، أحست بأن الكون لايطاق دون حب أو صداقة، لايمكنها تجاهل نظراته التي تحمل كل الإعجاب والعاطفة ولا الإحساس بأن ذكريات الطفولة جمعتهما يوماً، كل هذا جعل موقفها أكثر حكمةً وتعقلاً، لأنها متأكدة من أن فيليب سوف يصغي إليها باهتمام، لم تشهده من أي إنسان غيره!

مرت عليها نصف ساعة من الزمن ثقيلة على قلبها، وجدت صعوبة في أن تدير له ظهرها، ومع ذلك قالت ما كانت تنوي قوله، بدت رابطة الجأش وحزينة معاً :

"فيليب، لقد قررت - من الأسلم لكلينا أن نتخلى عن بعضنا بعضاً، وننسى كل شيء إلا الذكريات لايمكنني أن أقابلك بشكل علني - انتظر . أعرف ماالذي ستقوله - أسلوب السرية لايتبعه إلا الأشخاص الذين يحمون بين جوارحهم مشاعر آثمة، والسرية طريقة سيئة مهما كانت نتائجها. أشعر بأن قراري سوف يسيء لي، ولك أيضاً. إن افتضح أمرنا لن نواجه أمامنا إلا البؤس - الخوف والغضب، وبالنتيجة علينا أن نفترق بعد كل هذه المعاناة، وسوف يبدو الأمر أكثر صعوبة مما سبق".

تورد وجه فيليب، وارتسمت عليه في الحال تعابير شوق فياضة، وكأنه يحاول مقاومة هذا القرار بكل ما استطاع من قوة لكنه ضبط نفسه، وقال بهدوئه المعهود: "حسن ماغي، إن كان علينا أن نفترق، فلنحاول أن ننسى الأمر مدة نصف ساعة: دعينا نتحدث قليلاً - ونستمتع بوقتنا للمرة الأخيرة".

أمسك بيدها، أحست ماغي أنه لامبرر لأن تسحبها: هدوءه جعلها واثقة من الألم الذي سببته له، فحاولت أن تثبت أنها مرغمة على اتخاذ قرارها الصعب تمشيا معاً بصمت وويداهما متشابكان.

قال فيليب: "دعينا نجلس في الوادي، حيث ستكون المرة الأخيرة انظري كيف تمتد الورود على أرجاء الأرض، وتنشر تويجاتها الشفافة فوقها!".

جلسا عند شجرة الصفصاف المائلة.

قال فيليب: "لقد بدأت أرسم لوحة لك بين أشجار التنوب الاسكتلندية، يا ماغي، لذلك أرجو أن تسمحي لي بالتمعن في وجهك قليلاً بينما تمكثين هنا - بما أنني لن أرى هذا الوجه الجميل ثانية أرجوك استديري نحوي".

قال كلماته بنبرة متوسلة، حتى بدا من الصعوبة للغاية بالنسبة لماغي أن ترفض طلبه.

الوجه البراق الممتلئ، الذي توجته عينان سوداوان ملتمعتان اتجه نحوه بقداسة مثل وجه إله يستحق العبادة.

قالت مبتسمة: "إذاً سوف أجلس لكي ترسم لي صورة ثانية هل ستكون أكبر حجماً من الأخرى؟".

"أوه أجل، أكبر بكثير. إنها لوحة زيتية سوف تبدين مثل حورية بحر طويلة القامة، سمراء وقوية ونبيلة، وكأنها من مفرزات إحدى أشجار التنوب، عندما تلقي أغصانها بظلالها على العشب أثناء فترة الظهيرة".

"يبدو أنك تفكر الآن في الرسم أكثر من أي شيء آخر، يا فيليب؟".

قال فيليب بنبرة حزينة: "ربما، أفكر في أشياء كثيرة - رش كل أنواع البذور،

والحصول على موسم حصاد سيء. إن اللعنة تلاحقني وتحكم علي بالسعي في الاتجاهات كافة، المهارة الفعالة لايمكن بلوغها في أي منها. أهتم بالرسم، وبالموسيقى، والأدب الكلاسيكي، وأدب القرون الوسطى، والأدب الحديث: أحلق في جميع الاتجاهات، لكنني لاأستمر في الطيران بأي اتجاه محدد".

قالت ماغي بأسلوب موسيقي: "بالتأكيد تشعر بالسعادة في تذوق كل أنواع الأدب - والاستمتاع بأشياء كثيرة تحمل معاني إنسانية غنية يبدو لي دائماً أن تحقيق نوع واحد من المهارات، مجرد حماقة ذكية نواسي أنفسنا بها".

قال فيليب بمرارة: "ربما شعرت بالسعادة في تذوق عدة أنواع من الأدب، فيما إذا كنت مثل بقية الشبان ربما حققت القوة والتميز حتى لو كنت دون المستوى الوسط، كما يفعلون هم، كنت على الأقل راضياً عن الانجازات البسيطة التي أحققها حتى لو لم تكن عظيمة ربما تقبلت المجتمع في بلدة القديس أوغ كما هو. لاشيء يجعل هذه الحياة تستحق السعي لبلوغ المال، الإبداع هو الكفيل بالارتقاء بالحياة إلى مستوى السمو، والترفع عن المباهج الزائلة أجل - هنالك شيء واحد يجعل الحياة أكثر سعادة: العاطفة بالاضافة إلى الإبداع".

لم تسمع ماغي الكلمات الأخيرة: كانت تصارع الإحساس الذي ولدته كلمات فيليب في نفسها وجعلتها تستاء ثانية من قدرها.

قالت: "أفهم ما تقصده، بالرغم من أنني لم أكتسب من المعارف مثلما اكتسبت اعتدت أن لاأتحمل الحياة الرتيبة، أتمنى دوماً أن أقوم بأشياء لها تأثيرها الفعال على الآخرين، إنني أمارس حياتي دون جدوى وبرتابة قاتلة، ولا أعرف شيئاً عن الأحداث العظيمةولكن عزيزي فيليب، أعتقد أننا مجرد أطفال، نتلقى الرعاية ممَّن هم أكثر حكمة منا. ليس من الصواب أن نستكين، ونستسلم بشكل كلي لإرادة الآخرين، أليس كذلك؟ لقد وجدت طمأنينة عظيمة في الاستكانة خلال آخر سنتين أو ثلاث سنوات - حتى أنني شعرت بالبهجة وأنا أخمد إرادتي".

قال فيليب بصرامة: "أجل، ماغي، وتغلقين على نفسك داخل إطار متعصب ضيق مخادع، إنها وسيلة مؤلمة للهروب من الذات والتقوقع داخل حجر معتم كئيب الإحساس بالبهجة والسلام ليس دليلاً على الاستسلام، بل الاستسلام هو الرضوخ للألم الذي يلفنا من كل النواحي الطمأنينة لاتتولد عن الجهل، بل عن معرفة كل ما يحدث من حولنا، والحياة أوسع من أن نغلق أبوابها ونرضى بالواقع المفروض علينا. لست ممن يستسلمون: ولست واثقاً من أن الحياة ستكون طويلة بما فيه الكفاية لكي نتعلم منها ذلك الدرس. أنت لست مستكينة ولا مستسلمة: إنك فقط تحاولين إيهام نفسك".

ارتعشت شفتا ماغي، أحست بأن كلام فيليب فيه شيء من الحقيقة المؤلمة كان فيليب يعي كل كلمة قالها، لقد نطقها بأسلوب صارم كردة فعل على قرارها المعارض لكل أمانيه وجه ماغي بدا أكثر براءة، وامتلأت عيناها دموعاً مما أحدث في نفسه أثراً عميقاً فتخلص من مشاعر الأنا. أمسك بيدها وقال بلطف:

"دعينا لانفكر بأشياء كهذه يا ماغي، لنستمتع بوقتنا خلال هذه نصف الساعة القصيرة لنفكر فقط في اللحظة التي تجمعنا سوية سوف نبقى صديقين على الرغم من كل الأشياء التي تفرقنا. وسوف نتذكر دائماً بعضنا بعضاً وأيامنا الحلوة سأبقى سعيداً وأنا بالقرب منك، وسوف أبتهج بالحياة طالما أنك على قيد الحياة، لأنني مؤمن دائماً بأن الفرصة آتية وأتمكن من تقديم المساعدة لك بأية طريقة".

قالت ماغي وهي تبتسم وسط ضباب كثيف من الدموع: "يا لك من أخ طيب القلب يا فيليب! أعتقد أنني سعيدة أيضاً بمحبتي لك، لقد جعلتني أرضى عن نفسي، إنك تظهر لي مشاعر الحب والتسامح. لطالما تمنيت لو استطاع توم أن يحمل لي في قلبه المشاعر ذاتها لم أشعر بالرضا عن أي شيء في حياتي ربما لأنني لاأملك الأدوات التي تمنحني السعادة الدنيوية. لم أشعر بأنني أتلقى ما يكفيني من الموسيقا - أريد مزيداً من الآلات الموسيقية تشاركني حزني - أرغب بالاستماع إلى أصوات أكثر عمقاً. هل سبق لك أن غنيت يا فيليب؟ "، أضافت فجأة، وكأنها نسيت تماماً كل همومها.

قال: "أجل ، أغني كل يوم تقريباً. صوتي معتدل - مثل كل شيء آخر أتصف به".

"أوه غني لي شيئاً— أغنية واحدة فقط يمكني الاستماع إليك قبل مغادرتي - غني لي شيئاً اعتدت أن تغنيه في لورتن في أحد أيام ظهيرة السبت عندما كنا نجلس في ردهة الاستقبال، وكنت أغطي رأسي بثوبي كي أتمكن من الاستماع بوضوح".

"أعرف "قال فيليب، ودست ماغي وجهها بين يديها، بينما غنى فيليب على انفراد برقة بالغة: "الحب يداعب عينيها بمرح "، ثم قال "هذه هي الأغنية أليس كذلك؟".

قالت ماغي وهي تحدق للأعلى: "أوه، لا، لن أبقى هنا. هذه الأغنية سوف تأسرني من جديد. دعنا نتمشّ يا فيليب، علي العودة للمنزل".

ابتعدت ماغي، لذلك كان مضطراً أن ينهض، ويلحق بها.

"قال بنبرة احتجاج: "ماغي، لاتكوني كئيبة ومنعزلة تجعلينني أشعر بالبؤس

الشديد عندما أراك تستسلمين للحزن والحرمان بهذا الشكل في طفولتك كنت تضجين حيويةً وإقبالاً على الحياة: أعتقد بأنك ستصبحين امرأة لامعة - تتسم بالفطنة والخيال الخصب هذه السمات لاتزال متألقة في وجهك، حتى بعد أن أسدلت عليه خمار الكآبة والسكون".

قالت ماغي: "ولماذا تحدثني بهذه القسوة يا فيليب؟".

"لأنني أخمن نتائج سيئة إن بقيت على هذا المنوال: لايمكنك الاستمرار في تعذيب نفسك". قال ماغي متحدية: "لدي القوة الكافية للاستمرار".

"لا، لن تستطيعي يا ماغي: لاأحد يمنح القوة لفعل أشياء غير طبيعية. إنه جرد جبن، أن تطلبي السلامة في تطبيق السلبيات ما من شخص يصبح قوياً بهذا الأسلوب سوف تنقادين إلى العالم يوماً ما، عندئذ سوف تثور عليك كل خصالك الحميدة التي تتنكرين بها الآن، وتهاجمك بشهية مثل وحش كاسر".

ذعرت ماغي، وحدقت إلى فيليب والخوف يعتري وجهها.

"فيليب، كيف تجرؤ على إثارة مشاعري بهذه الطريقة؟ إنك شيطان".

"لا، لست كذلك، الحب يعطيك القدرة على التبصر في العواقب، وغالباً ما تمكنك البصيرة من التنبؤ بما سيحدث يا ماغي أصغي إليّ - اسمحي لي أن أزودك بالكتب، وأن أراك في بعض الأحيان - سوف أكون أخاً ومعلماً لك كما كنت تقولين في لورتن ليس الخطأ في أن تقابليني، الخطأ أن تقترفي هذا الانتحار الطويل الأمد".

أحست ماغي بعجزها عن الكلام هزت رأسها، وتابعت سيرها بصمت، حتى وصلا إلى نهاية الطريق الذي امتدت على طوله أشجار التنوب الاسكتلندية، وحركت يدها بطريقة تشير إلى أنها أرادت توديعه.

"إذاً هل تريدين إبعادي عن هذا المكان يا ماغي؟ بالتأكيد يمكنني القدوم والتنزه هنا في بعض الأحيان؟ وإن قابلتك هنا بمحض المصادفة، فهذا لايعني بأننا نلتقي سراً؟".

إنها اللحظة التي يبدو فيها قرارنا من المتعذر تغييره أو إلغاؤه - عندما يغلق القدر بواباته الحديدية، ويحكم الطوق علينا - لكي يختبر قوتنا. إذاً بعد كل هذه الساعات من التفكير والترسيخ القناعات، نحاول إلغاء كل مغالطة تناقض صراعاتنا الطويلة الأمد، ونبتهج بالهزيمة التي نحبها أكثر مما نحب الانتصار.

بدت ماغي مصابةً بالصدمة التي ترافق كل إحساس بالراحة لاحظ فيليب تلك الصدمة، وافترقا بصمت.

كان لدى فيليب قليل من الأمل بأن تستعيد ماغي قوة مشاعرها تجاهه، وهذا سيكون أفضل لمستقبلها، ولاسيما عندما تتلاشى المعيقات العائلية التافهة التي تحجز حريتها، كما أنه لاينبغي التضحية بالحاضر - ولا بد لها من اكتساب الثقافة التي تعينها في التسامي فوق كل المشاكل المبتذلة لو نتمكن فقط من معالجة الأمور بشكل منطقي والتبصر بشكل جيد في نتائج أفعالنا، لأدركنا دائماً بأن هنالك حكمة في إعطاء المبررات لتلك الأفعال: عندما نتبنى وجهة نظر العناية الإلهية التي تتولى تدبر كل الأمور، أو نتبنى فكرة فيلسوف الذي يتعقب نتائج تلك الأمور، سوف نجد أنه من الممكن أن تتولد لدينا قناعة تامة في اختيار ما هو أكثر قبولاً بالنسبة لنا في اللحظة الراهنة. وبهذه الطريقة برر فيليب مساعيه لحميدة للتغلب على ردة فل ماغي السريعة اتجاه مبدأ السرية، الذي حسب رأيها يولد مزيداً من البؤس بالنسبة إلى أولئك الذين يوجهون الانتقاد لها. ولكن هنالك عاطفة فياضة في قلبه جعلته يبتعد قليلاً عن دوافعه وتبريراته. شدة توقه لرؤية ماغي، وإدخال الفرحة إلى حياتها، زادت من وحشية ذلك لدافع القوي ليختطف السعادة المرسومة أمامه. لم يكن لديه ميول لمشاركة الرجال العاديين حياتهم: عاش حياته بشكل استثنائي، وأقصى نفسه عن الآخرين.

حتى بالنسبة إلى ماغي كان مجرد استثناء: بدا واضحاً أن فكرة كونه حبيبها لن تختمر في ذهنها أبداً.

لا تقسُ كثيراً، عزيزي القارئ، على فيليب فالأشخاص القبيحون والمشوهون لديهم حاجة ماسة للفضائل الاستثنائية، لأنه من المحتمل جداً أن يعانوا من قلق شديد دونها: النظرية التي تقول بأن الفضائل الاستثنائية تنبع كنتيجة مباشرة من الأضرار (الخسائر) الشخصية، ربما تكون جائرة قليلاً.

إغراءات الجمال غير محدودة، لكني أتصور أنها تحمل في طياتها الصلة نفسها بإغراءات القبح، تماماً كالإغراء الذي يجعل المرء يفرط في شهواته أمام وليمة عامرة، حيث المباهج متنوعة أمام حاسة النظر والسمع وكذلك حاسة الذوق،، لكنه يصل إلى درجة الإغراءات التي تهاجم الإحساس باليأس والجوع (أي يصبح شرهاً).

ألا يقف برج الجوع[1] مثالاً حياً أمامنا لأقصى محاكمة لما هو إنساني فينا؟

---

[1] برج الجوع: البرج الذي احتجز فيه أوغلينو في الجزء 33 من كتاب "جحيم دانتي". دانتي الشاعر الايطالي (1265 - 1321) معروف بأفكاره عن الجحيم عبر عنها في الكوميديا الإلهية

لم يحظ فيليب بمشاعر أمومية بما فيه الكفاية، تلك المشاعر التي يتغذى عليها كل إنسان منذ طفولته، ولأن حاجتنا للحب عظيمة، نتشبث بمزيد من الحنان والعطف لأننا غير واثقين كثيراً من أننا سنكسب اللعبة التي اسمها الحياة والإحساس الذي يشده إلى عاطفة تربطه بأبيه، أفسده إدراكه الحاد لأخطاء والده

بقي فيليب بمعزل عن الحياة العملية، أحس باشمئزاز من المباهج الدنيوية، وبالعار كونه ابن مشوه لم يتلق العاطفة الكافية

ربما لايمكن للطبيعة البشرية أن تتخلص من خبث لامفر منه، يولد نتيجة ظروف عادية، حتى تأتي قوة خيرة وتنتصر على ذلك الخبث، ومن النادر أن تأتي هذه القوة في عمر الثانية والعشرين إلا أن تلك القوة كانت موجودة عند فيليب ومتجذرة في أعماقه، لكن حتى الشمس نفسها تبدو باهتة عندما يتكاثف عليها ضباب الصباح.

الفصل الرابع

مشهد حب آخر

في الأيام الأولى من نيسان، بعد مرور سنة تقريباً على الفراق المريب الذي شهدتَ أحداثه، عزيزي القارئ، بإمكانك إن أحببت، أن ترى ماغي ثانية وهي تدخل ربوع الأعماق الحمراء عبر مجموعة من أشجار التنوب الاسكتلندية.

الوقت عند الظهيرة، والنسائم الربيعية الباردة جعلتها تسحب شالها الطويل وتلف نفسها به، وتغذُّ السير برشاقة بخطوات سريعة إلى حد ما، بالرغم من أنها كانت تتلفت وراءها، كالمعتاد، ريثما تدخل إلى أعماق شجيراتها الحبيبة كانت نظراتها متسائلة، وفيها شوق أكثر مما كان في حزيران الماضي، وابتسامة تحوم على شفتيها، وكأن كلاماً مرحاً كان بانتظار مستمع محدد. لم يمض وقت طويل على ظهور ذلك المستمع.

قالت ماغي وهي تسحب كتاباً من تحت شالها :"هذه الكورين[1]، خذها".

كنت على حق عندما قلت لي بأنها لن تفيدني في شيء، لكنك لم تكن محقاً في اعتقادك أنني أتمنى أن أكون مثلها".

"ألا ترغبين حقاً يا ماغي أن تكوني الميوس[2] العاشرة؟، قال فيليب وهو يحدق ملياً في وجه ماغي كما نحدق في أول الغيوم التي تتلاشى كي تبشرنا بسماء ساطعة أكثر من ذي قبل. قالت ماغي، وهي تضحك: "لاعلى الإطلاق أعتقد أن الميوسات كانت آلهة غير مرتاحة - مجبرة دائماً على حمل آلات موسيقية ترافقها أنى ذهبت كما تعلم، إن حملت قيثارة في هذا الجو، يتوجب علي تغطيتها بقماش قطني أخضر اللون - وأنا واثقة من أنني سأنساها في مكان ما عن غير قصد".

"إذاً أنت توافقينني الرأي بأنك لاتميلين إلى الكورين؟".

قالت ماغي: "لم أنته من قراءة الكتاب حالما وصلت إلى الفصل الذي يحكي عن الشابة ذات الشعر الأشقر التي كانت تقرأ في المنتزه، أغلقت الكتاب، وقررت أن لاأتابع القراءة تنبأت بأن تلك الفتاة الشقراء سوف تسرق كل الحب من

---

(1) الكورين: رواية كتبتها عام (1807) مدام ستيل (1766- 1817) البطلة فيها ذات شعر أسود وصديقتها لوسي شقراء (والتي تنبأت لها ماغي) بأن تكون مصدر الانتصار في الحب

(2) الميوس: حسب الأسطورة الرومانية واليونانية، هي اسم لكل من الآلهة التسعة التي تترأس كل الفنون والعلوم، والميوس قوة تجسدها امرأة تكون مصدر الوحي والإلهام بالنسبة للفنان المبدع.. المترجمة

الكورين، وتجعلها بائسة إنني مصممة على عدم قراءة الكتب التي تسرق فيها النساء الشقراوات كل معاني السعادة. بدأت أشعر بالاستياء منهن.

إن أعطيتني قصة تحكي عن بطولة المرأة السمراء وانتصارها، سوف أستعيد التوازن النفسي أريد أن أنتقم لكل من ريبيكا وفلورا ماكيفر، ومينا[1] وجميع البطلات السمراوات التعيسات. بما أنك معلمي، عليك أن تحميني من أذية الشقراوات - إنك تتحدث دائماً عن ضرورة منع أذية النفس".

"حسنٌ، ربما سوف تنتقمين للنساء السمراوات من خلال شخصك، وتبعدي الحب عن ابنة خالتك لوسي إنها واثقة أن هنالك شاب وسيم من بلدة القديس أوغ ينحني عند أقدامها إجلالاً لجمالها: أما أنت فعليك فقط أن تتألقي أمامه - جمال ابنة خالتك الصغيرة سوف يخمد عندما تلقين بسحر تألقك".

قالت ماغي وقد بدا عليها الاستياء: "فيليب، ليس من اللائق أن تطبق هذا الهراء على أي شخص واقعي وكأنني، بملابسي القديمة هذه ورغبتي في تحقيق البراعة والإتقان، يمكن أن أكون منافسة لابنة خالتي الحبيبة لوسي، التي تعرف وتفعل كل الأشياء التي تجعلها أكثر سحراً

وجمالاً، كما أنها أجمل مني بعشر مرات - حتى لو كنت مكروهة بسبب رغبتي في منافستها. بالاضافة إلى أنني لاأذهب لزيارة خالتي دين، إلا إن كانت لوسي الحبيبة هناك، فهي تحبني، وتأتي لتراني، وسوف تسعد كثيراً كلما أذهب لرؤيتها".

قال فيليب مندهشاً: "ماغي، ليس من اللائق بك أن تأخذي المزاح على محمل من الجد. يجب عليك أن تذهبي إلى بلدة القديس أوغ وتتخلصي من هذه الكآبة".

قالت ماغي مبتسمة: "حسنٌ، إن كنت تقصد المزاح، أقول لك أن مزاحك بائس، لكنني أعتقد أن توبيخك لي فيه كثير من الطيبة أظن أنك تريد تذكيري برغبتي أن أكون محط الإعجاب لدى كل شخص.

ليس هذا بيت القصيد - لست غيورة على النساء السمراوات - لأنني فتاة سمراء. بل السبب الرئيسي هو إنني أهتم دائماً بالناس التعساء: لو تخلى الجميع عن فتاة شقراء كنت سأشعر بالتعاطف الشديد تجاهها. طالما وقفت في صف العاشق المنبوذ في القصص.

قال فيليب وقد تورد قليلاً: "إذاً فأنت لاترفضين أبداً محبة أي شخص، أليس كذلك يا ماغي، هل ترفضين؟".

---

[1] بطلات رواية سكوت .

قالت ماغي بتردد: "لاأعرف "، ثم قالت بابتسامة مشرقة: "أعتقد أنني أرفض محبة الشخص إن كان مخادعاً، ومع ذلك، إن أظهر خضوعاً شديداً، سيرقُ قلبي له".

قال فيليب بكثير من الجهد: "طالما تساءلت يا ماغي إن كنت تستطيعين أن تحبي رجلاً لايمكن للنساء الأخريات أن يبادلنه الحب أبداً".

قالت ماغي وهي تضحك: "هذا يعتمد على السبب الذي جعل النساء تنفر منه ربما كان شخصاً مثيراً للاشمئزاز. ربما حدق بهن من خلال نظارته الملتصقة بعينيه، فبدا وجهه بشعاً مثلما يفعل الشاب توري. أعتقد بأن النساء لايغرمن بهذا النوع من الشبان، لكنني لاأشعر بالشفقة تجاه توري. لاأشفق أبداً على الأشخاص المخادعين، لأنهم يدافعون عن أنفسهم بأسلوب الاحتيال".

"افترضي يا ماغي، افترضي أنه ليس رجلاً مخادعاً - ولا يستخدم أبداً أساليب المكر والاحتيال ليدافع عن نفسه - رجل عانى الكثير منذ طفولته - وكنت بالنسبة له نجمة حياته التي تضيء دربه - رجل أحبك وعبدك، لدرجة أنه أحس بسعادة لاتوصف لأنك سمحت له بأن يراك للحظات قصيرة".

صمت فيليب، وكتم في نفسه إحساساً بالألم والخوف خشية أن يفسد عليه اعترافه هذه السعادة العارمة - أحس بالألم ذاته الذي خبأه بين جوارحه بسبب حبه الصامت الذي دام شهوراً طويلة.

واعظ أخلاقي أخبره بأنه مغفل بسبب إفصاحه عن كل مشاعره.

أما ماغي فقد بدت هذا الصباح عفوية لامبالية. لم تعد غير مبالية الآن. فوجئت بعواطف فيليب ونبرته غير المألوفة.

استدارت بسرعة وحدقت به، وهو يتكلم، طرأ تغيير واضح غير تعابير وجهها - ظهرت عليها تلك الملامح التي نلاحظها في وجوه أولئك الذين يسمعون أخباراً جديدة تجعلهم يعيدون النظر في تسوية كل تصوراتهم للماضي.

لم تنبس ببنت شفة، وتابعت السير نحو جذع شجرة ساقطة، جلست هناك، وكأن قدميها لم تَعُدا قادرتين على حملها. كانت ترتجف.

قال فيليب وقد ازداد خوفه أكثر من صمت ماغي: "ماغي، كم كنت أحمق عندما قلت هذا - أرجوك انسي كل ما قلته سوف أكون راضياً لو سارت الأمور كسابق عهدها".

النبرة الحزينة التي تكلم بها فيليب شجعت ماغي لأن تقول شيئاً ما "إنني مندهشة يا فيليب - لم يخطر هذا في بالي".

وبعد أن قالت هذه الكلمات بجهد كبير، انسابت من عينيها دموع غزيرة

قال فيليب باندفاع: "هل دفعك حديثي لأن تكرهيني يا ماغي؟ هل تعتقدين بأنني شخص أحمق طائش؟".

قالت ماغي: "أوه فيليب! كيف تفكر بأنني أحمل لك مشاعر كهذه؟ - وكأنني لست شاكرة لنعمة الحب ولكن لم يخطر ببالي على الإطلاق أن تكون حبيبي. بدا الأمر في غاية الغرابة - وكأنني أعيش في حلم - أو أقرأ قصة من القصص التي يمكن للمرء أن يتخيلها - لم أتصور أبداً أن يكون لي حبيبٌ".

قال فيليب وهو يجلس إلى جانبها، ويمسك يدها بإحساس من البهجة والأمل: "إذاً، هل باستطاعتك أن تتحملي فكرة أن أكون حبيبك يا ماغي؟ هل تحبينني؟".

شحب لون ماغي: بدا من الصعب عليها الإجابة على هذا السؤال المباشر. لكن عينيها تقابلتا مع عيني فيليب، اللتين كانتا في هذه اللحظة تشعان جمالاً وحباً متوسلاً. تكلمت بتردد، على الرغم من أن صوتها بدا عذباً وحنوناً وطفولياً:

"أعتقد أنه ليس باستطاعتي أن أحب أي شخص أكثر منك "، صمتت برهة قصيرة، ثم أضافت: "ومن الأفضل لنا أن لانتحدث عن هذا الموضوع أكثر - هلا سمحت يا فيليب؟ تعلم أنه ليس بمقدورنا حتى الاحتفاظ بصداقتنا، إن افتضح أمرنا. لم أشعر أبداً أنه لي الحق في الإحجام عن مقابلتك، والآن تزداد مخاوفي أكثر مما قبل، وهذا سيؤدي إلى كارثة".

"ما من كارثة يا ماغي لقد جعلت المخاوف تتغلب عليك، وأمضيت عاماً مليئاً خدرك بتصورات مريعة، بدلاً من إنعاش شخصيتك الحقيقية".

هزت ماغي رأسها :

"أعرف هذا، وأدرك كم أنك لطيف معي للغاية - حديثك والكتب التي تقدمها لي، والمشاعر الإنسانية التي أحسُ بها عندما أرافقك في المتنزه، وأستطيع أن أفصح لك عما يدور في خلدي لكن القلق ينتابني ثانية: يجعلني أفكر كثيراً بالعالم من حولي - أسأم من منزلي - ومن نفسي حتى أنني أشعر بالسأم من والدي ووالدتي أعتقد أن العام الذي وصفته بأنه خدرني كان الأفضل - بالنسبة لي - على الأقل كانت رغباتي الأنانية مخدرة".

نهض فيليب ثانية، وكان يتمشى جيئة وذهاباً بصبر نافذ.

"لاماغي، لديك أفكار خاطئة عن كيفية التحكم بالنفس، كما أخبرتك سابقاً. ما تسمينه التحكم بالنفس هو مجرد - تعامٍ عن مواجهة الحقائق وانهزام كلي من الاعتراف بكل شيء إلا تأثير العواطف - هذا نوع من ثقافة المس الأحادي التي تسيطر عليك".

تكلم بأسلوب غاضب إلى حد ما، لكنه عاود الجلوس ثانية بجانبها، وأمسك يدها.

"لاتحاولي الآن أن تفكري بالماضي يا ماغي، فكري فقط في حبك إن كنت حقاً تستطيعين أن تبادليني الحب من كل قلبك، سوف تزول كل العوائق في الحال: إننا بحاجة فقط للانتظار. بوسعي أن أعيش على الأمل انظري إلي يا ماغي، قولي لي مرة أخرى، أنه بإمكانك أن تحبيني لاتشيحي بوجهك بعيداً عني، وانظري إلى تلك الشجرة المشقوقة (المنشطرة)، فهذا فأل سيء".

استدارت، ونظرت إليه بعينيها السوداوين الواسعتين وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة

هيا يا ماغي قولي كلمة واحدة تدخل الفرحة إلى القلب هل تذكرين عندما طلبت منك أن تقبليني؟ - وأعطيتني وعداً بأن تقبليني عندما نتقابل ثانية لكنك لم تحفظي العهد أبداً".

أحست ماغي بالراحة وهي تسترجع ذكريات الطفولة التي جعلت الحاضر يبدو أقل غرابة بالنسبة لها. قبلته ببساطة وهدوء كما فعلت عندما كانت في ربيعها الثاني عشر. لمعت عينا فيليب بالبهجة، نطق كلمات تدل على عدم رضاه: "لاتبدين سعيدة بما فيه الكفاية يا ماغي: إنك تجبرين نفسك على محبتي، من منطلق الشفقة".

قالت ماغي وهي تهز رأسها بأسلوبها الطفو لي المعتاد: "أبداً يا فيليب إنني أقول حقيقة مشاعري يبدو كل شيء غريباً وجديداً بالنسبة لي، ولكن لاأظن أنه باستطاعتي أن أحب أي شخص أكثر مما أحبك أتمنى أن أعيش معك - وأمنحك السعادة طالما كنت سعيدة وأنا بجانبك منذ أيام الطفولة ثمة شيء واحد فقط ليس باستطاعتي فعله لأجلك: سوف لن أقوم بأي تصرف يجرح مشاعر والدي عليك ألا تطالبني بهذا".

"لا، ماغي، لن أطالبك بشيء - سوف أتحمل كل المصاعب لأجل خاطرك - سوف أنتظر عاماً آخر لكي أحصل على قبلة منك، إذا منحتني مكانة عزيزة في قلبك".

قالت ماغي مبتسمة: "لا، لن أجعلك تنتظر طويلاً". ثم أضافت بأسلوب جدي، وهي تنهض من مقعدها :

"ماذا سيقول والداك عن علاقتنا يا فيليب؟ أوه، من المستحيل أن نكون أكثر من صديقين - أخت وأخ في السر كما اعتدنا دائماً. دعنا نتخلَّ عن التفكير بأي شيء آخر".

"لا يا ماغي، لاأستطيع التخلي عن كل شيء بهذه البساطة - إلا إذا كنت تخدعينني - إلا إذا كنت تحبينني بالفعل وكأنني أخ لك أخبريني الحقيقة".

"لقد قلت الحقيقة يا فيليب لم أشعر بالسعادة إلا وأنا برفقتك - مذ كنت فتاة صغيرة في تلك الأيام عندما كان توم طيباً معي وأنت بالنسبة لي العالم كله: بمقدورك إخباري بكل ما أريد معرفتهأعتقد أنني لاأشعر بالسأم من صحبتك أبداً".

ساراً معاً يداً بيد، وهما ينظران إلى بعضهما بعضاً. كانت ماغي تسرع الخُطا، لأنها أحست أن وقت الفراق قد حان، مما جعلها تبدو أكثر قلقاً، خشية أن تترك انطباعاً مؤلماً في نفس فيليب من غير قصد.

كانت تلك إحدى اللحظات الخطيرة عندما يكون الكلام أكثر صدقاً - وتتدفق المشاعر بقوة مثل المؤشرات التي تنذر بالفيضان.

توقفا ليفترقا وسط أشجار التنوب الاسكتلندية.

"إذاً ستكون حياتي مفعمة بالأمل يا ماغي - سوف أكون أكثر سعادة من أي رجل في العالم، على الرغم من كل شيء؟ سوف تربطنا علاقة مقدسة، سواء افترقنا أم لا، أليس كذلك؟".

"أجل يا فيليب: إنني لاأرغب أبداً بالفراق: أتمنى أن أدخل السعادة إلى حياتك".

"إنني بانتظار شيء آخر - أتساءل إن كنت سأحصل عليه".

ابتسمت ماغي، ودموعها تتلألأ، ثم توقفت بقامتها الطويلة، وانحنت قليلاً مقبلة ذلك الوجه الشاحب الذي ارتسمت عليه مشاعر الحب والخوف والتَّوسُل - مثل المشاعر التي يعبر عنها وجه امرأة.

لقد أحست إذاً بلحظة سعادة حقيقية - لحظة تؤمن فيها بأن التضحية لأجل هذا الحب سوف يمنحها الرضا أكثر.

ابتعدت مسرعة نحو المنزل، وهي تشعر بأن عهداً جديداً قد بدأ خصيصاً لأجلها.

لا بد أن تتلاشى الأحلام الغامضة شيئاً فشيئاً، وأن تتغلغل كل الأفكار والعواطف إلى حياتها الواقعية اليومية.

الفصل الخامس

الشجرة المفلوقة [المنشطرة]

نادراً ما تفتضح الأسرار وفقاً لأي برنامج خطط له خوفنا مسبقاً. غالباً ما ينتابنا الخوف بعد رؤية مشاعر دراميةٍ مرعبة، تعود لتسكن في مخيلتنا على الرغم من أفضل الاحتمالات الجدلية التي نتوقعها، وطوال فترة عام، كانت ماغي تعاني من عبء السرية الذي أثقل كاهلها، وطغى على معظم تفكيرها، فتوقعت دائماً أن يكتشف أمرها وهي تلتقي فيليب في الأعماق الحمراء من خلال لقاء مفاجئ مع والدها أو مع توم.

أدركت أن هذا الاحتمال لم يكن من ضمن الأحداث المتوقعة، لكن المشهد كان يلح عليها بإصرار، ويثير مخاوفها الداخلية.

تلك الاقتراحات القليلة غير المباشرة التي تعتمد على مصادفات تافهة وعبارات ذهنية لاتحصى، تشكل الوسيلة المفضلة لترجمة الواقع، لكنها ليست المادة المناسبة لإعمال الخيال فيها.

من المؤكد أنه من بين الأشخاص الذين أبعدت ماغي مخاوفها عنهم كانت خالتها بوليت، التي لم تكن تسكن في بلدة القديس أوغ، ولم تملك عيناً ثاقبة ومزاجاً حاداً مثل الخالة غليك - ومع ذلك فقد رأى سرها النور من خلال الخالة بوليت.

لم تقطن في بلدة القديس أوغ، وإنما على الطريق الممتدة من مزرعة غارم والمؤدية إلى الأعماق الحمراء التي تدخلها ماغي من الجهة المقابلة.

بعد يوم من آخر لقاء لماغي مع فيليب، وكونه صادف يوم الأحد الذي التزم به السيد بوليت لحضور جنازة في كنيسة القديس أوغ، استغلت السيدة بوليت هذه المناسبة لتتناول وجبة الغداء مع أختها عليك، وتحتسي الشاي مع أختها المسكينة توليفر.

الأحد كان اليوم الأول من الأسبوع الذي يمكث فيه توم في البيت فترة الظهيرة، حيث بدا اليوم مشرقاً مبتهجاً، وهو يتجاذب أطراف الحديث مع والده، وشمل أخته في الدعوة أيضاً "تعالي يا ماغي، هيا تعالي أيضاً!".

عندما كان يتمشى فترة الظهيرة بصحبة والدته في الحديقة لمشاهدة براعم أشجار الكرز التي كانت على وشك التفتح. كان سعيداً بأخته منذ أن أصبحت أقل غرابة وزهداً بالحياة، حتى أنه أصبح فخوراً بها: فقد ردد أشخاص كثيرون

على مسامعه بأن أخته فتاة رائعة الجمال واليوم بدا وجهها متألقاً بشكل غريب، فيه إحساس بالمتعة يشوبه شك كثير وألم ممزوج بالفرح.

قالت الخالة بوليت وهي تهز رأسها بحزن، بينما كان الجميع جالسين إلى طاولة الشاي: "تبدين على أفضل ما يرام يا حبيبتي لم أكن أعلم بأن ابنتك ستكون بهذا الجمال يا توليفر. ولكن عليك أن ترتدي ملابس زاهية اللون يا حبيبتي :ذلك الثوب الأزرق اللون الذي أعطتك إياه خالتك غليك غير مناسب لك لم تحسن جين الاختيار. لماذا لاترتدين ثوباً مثل ثوبي؟".

"إنه ثوب جميل وأنيق جداً يا خالتي أعتقد أنه يبعث في نفسي البهجة - على الأقل هو مناسب لبقية الملابس التي يجب علي أن أرتديها معه".

"من البديهي أن أقدم ملابسي الجميلة لمن يحتاجها - أشياء كهذه أشتريها كل عام، ولا ألبس معظمها. أما بالنسبة إلى لوسي، فلا أعطيها شيئاً منها، لأنها تحصل على كل ما تريد والخيارات أمامها متعددة: إن الأخت دين ترفع رأسها بشموخ افتخاراً بها. بالرغم من أنها تبدو شاحبة اللون بشكل مخيف، يا للمسكينة! - أشك أن هذا الكبد الضعيف سوف يعينها على الاستمرار بالحياة بقوة هذا ما قاله الكاهن الجديد، الدكتور كين، في موعظة اليوم أثناء الجنازة".

قالت السيدة توليفر: "آه، إنه واعظ ماهر، في كل المجالات - أليس كذلك يا صوفي؟".

تابعت السيدة بوليت مركزة نظرها باتجاه واحد بطريقة تأملية: "واي، لقد بوركت لوسي في هذا ليوم إنني فخورة بها. أتوقع لها مستقبلاً باهراً".

قال السيد بوليت الذي يبحث في علم دراسة أصل الكلمات بلا فائدة: "يقولون بأن الآنسة لوسي تدعى جرس كنيسة القديس أوغ: إنها كلمة غريبة".

قال السيد توليفر بعد أن أحس بالغيرة على ماغي: "بوه! إنها فتاة صغيرة القد، وليست بهذا الجمال لكن الريش الجميل يصنع طيوراً جميلة لاأجد شيئاً يستحق الإعجاب بذلك النوع من النساء الصغيرات القد، إذ يبدو مظهرهن سخيفاً بجانب الرجال - فليس هنالك نسبة بين أحجامهن وأحجام الرجال عندما اخترت زوجتي، أعجبني فيها حسن التناسق - فهي ليست ضخمة ولا صغيرة القد".

ابتسمت الزوجة المسكينة، ذات الجمال الذابل، بلطف.

قال العم بوليت: "ليس كل الرجال ذوي قامات ضخمة من الممكن أن يكون الشاب بهي الطلعة مع أن قامته لاتتجاوز الستة أقدام، مثل السيد توم".

قالت الخالة بوليت: "آه، إن الحديث عن الأشخاص الضخمين والأقزام أمر

مثير للشفقة -من المؤسف حقاً أن ترى أشخاصاً غير مستقيمي القامة هناك ابن المحامي واكيم - لقد رأيته اليوم في الكنيسة

يا عزيزي، يا عزيزي! يقولون إنه فتى غريب الأطوار، ويحب العزلة - لايميل إلى مصاحبة الرفاق لاأجد غرابة في طباعه هذه إذ طالما كان يتعثر وهو يسلك الطريق المؤدية إلى الأعماق الحمراء عبر الأشجار الشائكة".

أحست ماغي برعشة رهيبة تسري في جسدها ولاسيما أن توم كان يجلس قبالتها فخشيت أن يبدو عليها القلق أو أية ملامح غريبة من شأنها أن تفضح أمرها.

لدى ذكر اسم فيليب توردت ماغي، وزاد توردها ليكشف النقاب عن خفايا حكايتها، حتى أن ذكر اسم الأعماق الحمراء جعلها تشعر وكأن سرها قد كشف بالكامل، فلم تجرؤ على الإمساك بملعقة الشاي خشية أن ترتجف يداها.

جلست صامتة، وشبكت يديها ببعضهما بعضاً تحت الطاولة، ولم تمتلك الشجاعة الكافية لتنظر حولها.

لحسن الحظ، والدها كان يجلس على الجانب المجاور لها، خلف عمتها بوليت، ولم يتسن له رؤية وجهها.

أحست بالراحة بعد أن تكلمت أمها - التي حاولت تغيير مسار الحديث، لأن السيدة توليفر كانت تخشى دائماً من ذكر اسم واكيم في حضور زوجها.

و بالتدريج استعادت ماغي هدوءها وتمكنت من رفع بصرها ثانية، تلاقت عيناها مع عيني توم، لكنه أشاح بوجهه في الحال بعيداً عنها، فذهبت إلى سريرها في تلك الليلة، وهي تتساءل إن كان توم قد أحس باضطرابها أو انتابه شك من تغير ملامحها.

ربما لا: ربما ظن أنها ذعرت لدى ذكر اسم واكيم أمام والدها: كان ذلك التفسير التي افترضته أمها. كان واكيم بالنسبة لوالدها مثل مرض مُعْدٍ عليه تجنبه، لكنه كان يستشيط غضباً لدى ذكر سيرته أمامه

توم كان حاذقاً بما فيه الكفاية بحيث لن يقبل بتفسير كهذا: لقد لاحظ بأن هنالك شيئاً مختلفاً تماماً عن القلق الذي يمكن أن تشعر به ماغي على والدها. وذلك الاضطراب المبالغ به أكد له فرضيته حاول أن يسترجع تفاصيل حياتية تؤكد شكوكه، فتذكر كيف كانت والدته توبخ ماغي لأنها تتنزه في الأعماق الحمراء بينما الأرض كانت رطبة، فتعود ماغي للمنزل بحذاء موحل بتربة حمراء اللون

مازال توم يحتفظ بمشاعره البغيضة تجاه عاهة فيليب كان بطبعه يشمئز

من كل شيء مخالف للطبيعة البشرية وإعطاء الحب لرجل مشوه سيكون في غاية الغرابة بالنسبة لامرأة ولكن إن كانت بالفعل على علاقة مع فيليب مهما كان نوع تلك العلاقة، فلا بد من وضع حد لهذا الهراء في الحال: لقد كانت تعصي أوامر والدها، وتتجاهل مشاعره، ولا تبالي بتوصيات أخيها، بالإضافة إلى اللقاءات السرية

صباح اليوم الثاني غادر المنزل وهو في حالة تفكير عميق، وذهن مضطرب، مما جعل الأحداث رهينة مصادفات محملة بمعاني كثيرة في تلك الظهيرة، عند حوالي الساعة الثالثة والنصف، كان توم واقفاً على الميناء، يتحدث مع بوب جاكين عن إمكانية وصول بضائع جديدة في ظرف يوم أو يومين، والفوائد المرجوة لكليهما.

قال بوب بأسلوب اعتراضي، وهو يحدق في الحقول الممتدة على الطرف الآخر من النهر :

"إيه، إنه ذلك الشاب الأحدب، ابن واكيم أعرفه، ألمح ظله من بعيد، وهو يتمشى على الجانب الآخر من النهر".

لمعت في ذهن توم فكرة مفاجئة قال: "عليّ الذهاب يا بوب ينبغي إحضار شيء". وانطلق مسرعاً نحو المخزن حيث كتب ملاحظة لأحد الأشخاص كي يحلّ محله - قال فيها أنه استدعي على الفور إلى المنزل وبخطى مسرعة سلك أقصر طريق إلى البوابة، توقف هنالك لحظة ثم فتحها بشكل متعمد، لكي يتمشى بهدوء نحو المنزل عندما خرجت ماغي من الباب الأمامي، وهي ترتدي شالها وقبعتها، تأكدت شكوكه، وانتظرها عند البوابة

عندما شاهدته ارتبكت كثيراً.

قالت ماغي بصوت منخفض مرتعش: "توم، كيف جئت إلى المنزل؟ هل هنالك أي خطب؟ "

قال توم بلهجة مركزة وهو مقطب الجبين: "جئت لأرافقَكِ إلى الأعماق الحمراء وأقابل فيليب واكيم".

جثمت ماغي في مكانها بلا حراك - شاحبة باردة إذاً، لقد علم توم بكل شيء. قالت أخيراً: "لست ذاهبة إلى أي مكان "، واستدارت عائدة

"أجل، إنك ذاهبة، لكنني أريدك أن تبدئي الكلام أولاً. أين والدي؟".

"في الخارج، على ظهر حصانه".

"ووالدتي؟".

"أظن أنها في الباحة، مع الطيور الداجنة".

"إذاً بمقدوري الدخول دون أن تراني؟".

مشيا معاً. قال توم لماغي وهما يدخلان الردهة: "ادخلي إلى هنا".

أطاعته، وأغلق الباب خلفها.

"والآن يا ماغي، أخبريني في هذه اللحظة عن كل شيء حدث بينك وبين فيليب واكيم".

"قالت ماغي، وهي لاتزال ترتعش :"هل علم والدي بأي شيء؟".

أجاب توم بسخط: "لا. لكنه سيعلم، إن حاولت خداعي أكثر".

قالت ماغي وقد استاءت لدى سماعها هذه الكلمة: "لاأرغب بخداع أحد".

"أخبريني بكامل القصة".

"ربما تعرفها".

"لايهم إن كنت أعرفها أم لا. أخبريني ما حدث بالضبط، وإلا سأطلع والدك على كل شيء".

"إذاً سوف أخبرك لأجل خاطر بابا".

"أجل تعترفين بأنه لديك مشاعر تجاه أبيك، في حين تحتقرين مشاعره بقوة".

قالت ماغي بسخرية مهينة: "لاتخطئ معي يا توم".

أجاب توم باعتزاز: "ليس لدي ما أقوله غير هذا: أخبريني ما حدث بينك وبين فيليب واكيم متى تقابلتما أول مرة في الأعماق الحمراء؟".

"منذ عام "، قالت ماغي بهدوء. اللهجة الحادة التي تكلم بها توم جعلتها تدافع بقوة عن موقفها. "لست بحاجة لطرح المزيد من الأسئلة. أصبحنا صديقينْ منذ عام كنا نتقابل ونتمشى معاً. لقد أعارني كتباً.

"هل هذا كل ما في الأمر؟ "، قال توم وهو يحدق بها بعبوس

صممت ماغي للحظة، ثم صممت على الاعتراف بكل شيء لكي تضع حداً لاتهام توم لها بالخداع، فقالت بكبرياء:

"لا، ليس تماماً. يوم السبت أخبرني بأنه يحبني لقد فاجأني - إذ طالما كان بالنسبة لي صديقاً عزيزاً".

قال توم باشمئزاز: "وأنت شجعته على الأمر؟".

"أخبرته بأنني أحبه أيضاً".

صمت توم لبضع لحظات، وهو ينظر بتجهُم إلى الأرض، واضعاً يديه في جيبه أخيراً، رفع بصره، وقال ببرود :

"والآن يا ماغي، لن أقول لك سوى جملتين، إما أن تقسمي، وتضعي يدك

على إنجيل والدي، وتتعهدي بأنك لن تقابلي فيليب واكيم أبداً في السر، أو ترفضي طلبي، عندئذ أخبر والدي بكل شيء. والنتيجة ستكون سيئة بالطبع بعد أن يعرف بأن ابنته مخادعة تعصي أوامره، وتفقد احترامها لنفسها من خلال المقابلات السرية مع ابن رجل كان سبباً في دمار والدها وتحطيم مستقبله اختاري!".

أنهى توم كلامه جازماً ببرود، وهو يصعد ليحضر الإنجيل الكبير، فتحه على صفحة خالية من الكتابة.

كانت تلك صدمة مفاجئة لماغي.

قالت وقد تغيرت لهجتها من الكبرياء إلى التوسل: "توم، لاتطلب مني ذلك أعدك بأن أتخلى عن كل ما يربطني بفيليب، إن سمحت لي برؤيته حالاً، أو حتى أن أكتب له وأوضح الأمر - أحس بعاطفة تجاه فيليب إنه شاب تعيس".

"لاأرغب بسماع أي إيضاح عن مشاعرك قلت ما أعنيه بالضبط ومقتنع بكل كلامي: اختاري - وبسرعة، قبل أن تدخل ماما".

"سوف أعطيك عهداً بتنفيذ كل ما تطلبه مني، وهذا بمثابة القسم على الإنجيل لاأريد أن ألتزم بأي قسم".

قال توم: "افعلي ما قلته لك لايمكنني الوثوق بك يا ماغي ضعي يدك على الإنجيل وقولي، سوف أقطع كل صلة تربطني بفيليب واكيم من الآن فصاعداً. وإلا سوف تجلبين العار لاسمنا، والأسى لوالدي، فما فائدة كل هذا لجهد الذي أبذله لكي أسدد ديون والدي، إن كنت ستغضبينه بتصرفك، بعد أن يرفع رأسه ثانية باسترداد اسم العائلة؟".

قالت ماغي وهي تشبك يديها ببعضهما بعضاً، وقد التمع في ذهنها إحساس مفاجئ بالفرحة طغى على مشاعر البؤس :

"أوه توم - هل سيتم تسديد الديون في الحال؟".

قال توم: "إن سارت الأمور كما أتوقع"، ثم أضاف، بصوت مرتعش بالسخط: "ولكن، بينما أسعى جاهداً وأعمل لأمنح والدي شيئاً من سلامة الذهن قبل أن يموت - تسيئين بدورك إلى مكانة العائلة واحترامها - تفعلين كل ما في وسعك لتدمير كل شيء".

أحست ماغي بأن ضميرها يؤنبها بشدة: للحظة، توقفت عن الدفاع عن نفسها، ووجهت اللوم لتصرفاتها، وقدمت التبريرات لأخيها.

قالت بصوت منخفض: "لقد كان خطئي - أحسست بوحدة قاتلة - وشعرت بالأسف لأجل فيليب وأعتقد أن العداوة والبغضاء يحملان كل معاني الشر".

قال توم: "يا للهراء! واجبك واضح بما فيه الكفاية لاتتفوهي بالمزيد، والتزمي فقط بما أخبرتك به".

"عليّ أن أتحدث أكثر مع فيليب".

"سوف تذهبين معي الآن، وتحدثينه".

"وعدتك بأن لاأتكلم معه أو أقابله أو أكتب له ثانية دون معرفتك هذا هو الشيء الوحيد الذي أريد قوله له سوف أضع يدي على الإنجيل إن أحببت".

"إذاً، قولي هذا الكلام".

وضعت ماغي يدها على الإنجيل، وكرَّرتْ وعدها. أغلق توم الكتاب، وقال: والآن دعينا نذهب".

مشيا بصمت كانت ماغي حزينة لأجل فيليب الذي سيصاب بالصدمة عندما تنهال على مسامعه كلمات توم المزعجة، وشعرت أنه لاجدوى من إيجاد حل مفيد، ومن الأفضل الرضوخ والقبول بما سيحدث بينما شعر توم بالاشمئزاز من فيليب، ولم يمنح نعمة التساؤل عن سبب قرفه منه ولدافع القوي الذي يجعله يكن له الكراهية والبغضاء، كان واثقاً تماماً من أن دوافعه وأفعاله صحيحة ولا تشوبها شائبة.

كم تمنت ماغي لو يحدث طارئ ما، ولو لمرة واحدة فقط، ويمنع فيليب من المجيء. عندئذ سوف تتأخر ساعة الأسى والفراق - وربما تستطيع إقناع توم بأن تكتب له، وتبرر سبب نهاية علاقتهما.

بدأ قلبها يخفق بشدة عندما وصلا أشجار التنوب الاسكتلندية اعتقدت ماغي أن ساعة الصفر قد حانت، إذ كان فيليب يقابلها دائماً حالما تتوارى خلف تلك الأشجار. لكنهما اجتازا المساحة الخضراء المفتوحة، ودخلا ممراً ضيقاً من الشجيرات بالقرب من التلة استدارا ثانية، واقتربا من فيليب سادت لحظة صمت، حدق فيها فيليب في وجه ماغي وهو في حالة حيرة وجد جواباً له من خلال الشفتين الشاحبتين المفتوحتين، والعينين الواسعتين اللتين امتلأتا خوفاً واضطراباً - سبقها خيالها وهي تشاهد أخاها القوي البنية ممسكاً بجسد فيليب الضعيف، وهو يدفعه بقسوة.

قال توم بلهجة ساخرة فظة، حالما التقت عينيا فيليب بعينيه ثانية: "هل تعتبر أن هذا من تصرفات الأسياد يا سيد؟".

أجاب فيليب بتعجرف: "ماذا تقصد؟".

"ماذا أقصد؟ ابق بعيداً عني، حتى لاأضطر أن أصفعك، وأقول لك ما أقصده أقصد، أنك تستغل حماقة وجهل فتاة شابة لتقابلها بشكل سري.

أقصد أنك تحاول الإساءة إلى مكانة واحترام عائلة ذات سمعة طيبة".

قاطعه فيليب باندفاع: "أنا لاأسمح لك ليس بوسعي أن أعبث بأي شيء يؤثر على سعادة أختك إنها غالية على قلبي أكثر مما هي غالية على قلبك، وإنني أحافظ على سمعتها وشرفها أكثر مما تفعل أنت، إنني مستعد أن أهبها حياتي كلها".

"لاتتحدث أمامي بهذا الهراء يا سيدي! هل تدّعي بأنك لاتعرف مقدار الأذى الذي تسببه لها عندما تقابلها كلّ أسبوع؟ هل تدَّعي بأن لديك الحق في مبادلتها الحب حتى لو كنت زوجاً غير مناسب، وحتى وإن كان والدك ووالدها غير راضين عن زواجكما؟ وأنت - أنت تحاول استغلال عواطف فتاة جميلة لم تبلغ بعد الثامنة عشرة من عمرها، وقد أوصدت أبواب العالم في وجهها بسبب سوء حظ والدها! هذا هو مبدؤك المنحرف عن الشرف، أليس كذلك؟ أما أنا فأسميه خيانة عظمى - أسميه استغلالاً للظروف القاسية لكسب كل ما هو نافع لك".

قال فيليب بمرارة، وقد اهتزت مشاعره في الصميم: "من الرجولة أن تتحدث بهذه الطريقة فالعمالقة لهم حق قديم منذ الأزل في ارتكاب الحماقات والإساءة بكل جرأة لمن حولهم إنك عاجز حتى عن فهم المشاعر التي أكنها لأختك أحمل لها عواطف جياشة حتى أنني أرغب بصداقتك".

قال توم بازدراء :

"إنني آسف جداً لعدم استطاعتي فهم مشاعرك وما أتمناه منك هو أن تفهمني - وتدرك بأنني سوف أهتم بأختي، وإذا تجرأت على المحاولة فقط بالاقتراب منها، أو الكتابة لها، عندئذ لن يسعفك جسدك النحيل سوف أسحقك - وأجعل منك سخرية أمام العامة".

صرخت ماغي بصوت مرتعش: "توم، لن أتحمل سماع المزيد - لن أصغي أكثر من ذلك".

حاول فيليب أن يتكلم بصعوبة فقال: "انتظري يا ماغي! "، ثم حدق في وجه توم: "لقد أحضرت أختك إلى هنا، وجعلتها تشهد أهانتك لي تظن أنك تتصرف بشكل سليم وأنت مخطئ اسمح لأختك بالكلام إن قالت بأنها ملتزمة بالتخلي عني، عندئذ سوف أفعل كل ما تريد".

قالت ماغي متوسلة: "هذا لأجل خاطر والدي يا فيليب توم يهددني بإخبار بابا - الذي لن يتحمل نبأ كهذا: لقد وعدته، وأقسمت أن أنهي علاقتنا، وأن لانتقابل دون علم أخي".

"يكفي هذا يا ماغي لن أتحدى رغبتك، ولكن أتمنى أن تقرري بكل حرية ولكن ثقي بي - تذكري أنني أتمنى الخير لك ولكل من يخصك".

قال توم، بعد أن استشاط غضباً بسبب موقف فيليب النبيل :

"أجل، بوسعك أن تتحدث عن رغبتك بالخير لها، ولكل من يخصها الآن: هل كنت تتمنى لها الخير قبل ذلك؟".

"ربما. ولكن أتمنى أن تحظى بصديق طيب القلب - يعرف كيف يصونها، ويعاملها بأسلوب عادل أفضل مما يعاملها به أخوها الفظ، ذو الفكر الضيق، والذي تغدق عليه دائماً بعواطفها الجياشة".

"أجل، صداقتي معها تختلف عن صداقتك، وسوف أخبرك عن أسلوبي في الصداقة: سوف أنقذها من عصيان أوامر والدي، وتلطيخ سمعته: سوف أمنعها من أن ترمي نفسها بين أحضانك - وتجعل من نفسها أضحوكة يهزأ بها والدك، لأنها لاتناسب ابنه بما فيه الكفاية تعلم جيداً ماهية المعاملة التي تستعد لتقديمها لها. إنني لاأخدعها بالكلام المعسول: أستطيع التعبير عن نفسي من خلال الأفعال فقط هيا يا ماغي، لنذهب".

أمسك ماغي من معصمها الأيمن بينما كان يتكلم، ومدَّتْ يدها اليسرى نحو فيليب الذي أمسكها في الحال، وهو ينظر إليها بشوق، ثم أسرع مبتعداً عنها.

سار توم وماغي بضع ياردات وهما في حالة صمت كان لايزال ممسكاً بمعصمها بخفة، وكأنه يبعد المذنب عن مسرح الجريمة أخيراً، سحبت ماغي يدها بعنف، واستجمعت قواها وانفجرت غضباً :

"لاتعتقد أن تصرفك سليم يا توم، أو أنني أخضع لإرادتك إنني أحتقر الأسلوب الذي تعاملت به مع فيليب: أكره طريقتك في إهانته والتلميح إلى عاهته بسخرية واشمئزاز طوال حياتك، وأنت تؤنب الآخرين، وتعتقد أنك على صواب في كل تصرفاتك: هذا لأنك محدود التفكير وليس لديك قدرة على استيعاب الآخرين، فلا ترى الحق إلا معك، وتحسب أن أهدافك التافهة هي الأفضل".

قال توم ببرود: "بالتأكيد، لاأعتقد بأن أسلوبك هو الأفضل ولا حتى أهدافك إذا كان تصرفك مع فيليب واكيم سليماً، فلماذا تخشين أن يفتضح أمركما؟ أجيبيني أعرف ما الذي أسعى إليه من خلال تصرفي، وقد نجحت في ذلك، ولكن رجاءً قولي لي، ما الذي حققته لنفسك أو لأي شخص آخرمن خلال تصرفك؟".

قالت ماغي وهي لاتزال غاضبة: "لاأريد الدفاع عن نفسي أعلم أنني طالما ارتكبت الأخطاء باستمرار. مع أنني كنت أخطئ، لم أشعر أبداً بأنك متعاطف معي عندما كنت ترتكب خطأً ما - كنت أحس بالأسف الشديد، وأتألم لأجلك، ولا أتمنى معاقبتك وطالما كنت تستمتع بمعاقبتي - وتعاملني بقسوة دائماً: حتى عندما كنت فتاة صغيرة، وأحبك أكثر من أي شخص في العالم، كنت تتركني أذهب باكية إلى السرير دون أن تسامحني. ليس عندك شفقة: ولا تحس بآثامك أبداً. من الإثم أن يكون المرء متحجر القلب، فالقسوة لاتناسب الحياة - حسب تعاليم المسيح. إنك مجرد يهودي حقود. لاتشكر الله إلا من أجل مصالحك - تعتقد أنك تمتلك فضائل عظيمة تخولك كسب كل شيء. أنت شخص لاتبالي بأحد حتى أنك لاتشعر بأن خصالك اللامعة هي مجرد ظلام

قال توم بسخرية وبرود: "حسنٌ، إن كانت مشاعرك أفضل بكثير من مشاعري، دعينا نرَ كيف تستعملينها في تصرفات سليمة، أفضل من تلك التي تنتهجينها لتجلبي العار للعائلة كلها. رجاءً، قولي لي كيف تظهرين حبك، الذي تتحدثين عنه، سواء لي أو لوالدي؟ بمعصيتنا وخداعنا!. أما أنا فلدي أسلوب آخر في إظهار عواطفي".

"هذا لأنك رجل يا توم، وتمتلك القوة والسلطة، وبوسعك أن تفعل أي شيء في هذا العالم".

"إذاً، إن كنت لاتستطيعين فعل أي شيء، فعليك الرضوخ لأولئك الأكثر قدرة منك".

"سوف أرضخ لمن أشعر بأنهم على حق. سوف أرضخ لكل الأوامر غير المنطقية التي يصدرها والدي، لكنني لن أرضخ لأوامرك أبداً. إنك تتباهى بفضائلك، وكأنها ترشدك للصواب كما فعلت اليوم لاتظن بأنني سأتخلى عن فيليب واكيم التشوه الذي تعيّره به، هو ما يجعلني أتعلق به أكثر، وأهتم لأمره".

قال توم ببرود أكثر من السابق :

"حسنٌ جداً - هذه نظرتك للأمور، ولست بحاجة لقول المزيد لتُظهري الفرق الشاسع بيننا. دعينا نتذكر هذا في المستقبل، ونلتزم الآن بالصمت".

عاد توم إلى بلدة القديس أوغ، لينجز عمله مع العم دين، ويتلقى التوجيهات اللازمة للرحلة التي عليه الاستعداد لها صباح اليوم التالي.

أما ماغي فقد عادت إلى غرفتها لتسكب كل ذلك الاحتجاج الساخط، الذي أقفل توم في وجهه القضبان الحديدية، على شكل دموع مريرة. إذاً، بعد أن تجاوزت موجة الغضب، استعادت ذكريات أيامها المرحة التي انتهت اليوم ببؤس، وعكّرَتْ عليها بساطة حياتها وصفائها.

اعتادت أن تفكر بأشياء عظيمة تمكنت من امتلاكها، واعتقدت أنها بلغت مرحلة السمو الدائم الذي تفوق على الإغراءات والصراعات الدنيوية. أما الآن فقد وقعت ضحية صراع محموم مع عواطفها وعواطف الآخرين.

إذاً فالراحة الكاملة التي حلمت بها منذ انقضاء عامين ليست بقريبة المنال. أمامها عقبات جديدة - وربما فشل أكبر. لو أحست بأنها مخطئة بشكل كامل، وبأن توم على حق تماماً لاستطاعت في الحال أن تستعيد توازنها الداخلي بشكل أفضل، لكن توبتها وخضوعها الآن سوف يسببان لها الإساءة، ولن تكسب أي شيء إلا السخط. لقد انفطر قلبها لأجل فيليب: تذكرت الكلمات المهينة التي وجهت إليه، أحست بأن الإهانة وجهت إليها، مما جعلها تضرب الأرض بقدمها، وتشد بأصابعها على راحة كفها.

مع ذلك، كيف أحست بالراحة بعد هذا الفراق الإجباري عن فيليب؟ بالتأكيد لأنها تخلصت من عبء اللقاء السري، ومهما كلف الثمن.

الفصل السادس

النصر الصعب المنال

بعد مرور ثلاثة أسابيع، عندما كانت طاحونة دورلكت في أجمل حلة لها في كل أيام السنة - فأشجار الكستناء الضخمة مزدهرة والعشب غزير مليء بأزهار الربيع التي احتضنها بقوة - عاد توم توليفر في تلك الأمسية إلى المنزل في وقت أبكر من المعتاد، وبينما كان يعبر الجسر، تأمل المنزل ذا القرميد الأحمر البهي المنظر، بإحساس عاطفي متعمق في جذوره، ذلك المنزل الذي بدا دائماً مفرحاً، أصبحت غرفه عارية من كل أثاث، والقلوب بداخله بائسة.

تألقت عينا توم الزرقاوين الباهتتين بوميض سار جداً وهو يرمق نوافذ المنزل: اختفى ذلك العبوس الذي ظهر من خلال تجعد جبينه، لكنه تناسب مع مظهر لائق، بدا في هيئة جديدة تدل على قوة إرادة صاحبها دون استخدام القسوة، حيث ارتسمت تعابير أكثر لطفاً على عينيه وثغره أصبحت خطوته أكثر ثباتاً وسرعة، وثارت زوايا نعمه ضد ذلك الضغط الذي يمنع الابتسامة من إطلاق عنانها.

لم تلتفت الأنظار في الردهة بعد نحو الجسر، وكانت المجموعة جالسة هناك في حالة صمت غير متوقع - بدا السيد توليفر سئماً وهو جالس في كرسيه، يتأمل ماغي التي انهمكت في خياطتها بنظرة مرهقة، بينما كانت أمها تحضر الشاي.

أصيب الجميع بالدهشة عندما سمعوا صوت وقع أقدام مألوف.

قال والده: "ما الأمر يا توم؟ لقد جئت باكراً أكثر من المعتاد".

"أوه، لقد أنهيت عملي، لذلك عدت باكراً. حسنٌ ماما!".

انطلق توم نحو أمه، وقبّلها، وهذه إشارة إلى أن مزاجه جيد على غير عادته.

طوال فترة الأسابيع الثلاثة التي مرت بالكاد تكلم مع ماغي أو نظر إليها، هو بطبعه كتوم قليل الكلام وهذا ما لم يلفت انتباه والديه للأمر.

قال توم بعد أن انتهوا من شرب الشاي :

"بابا، هل تعرف بالضبط مقدار المبلغ الموجود في الصندوق القصديري؟".

قال السيد توليفر: "مئة وثلاثة وتسعين جنيهاً فقط لقد ساهمت قليلاً في جمع المبلغ —والشبان يودون أن يتصرفوا بأموالهم كيفما يشاؤون مع ذلك لم أفعل ما يحلو لي عندما كنت في عمرك".

تكلم باستياء وخجل.

قال توم: "هل أنت متأكد من المبلغ يا بابا؟ أتمنى أن تحضر الصندوق القصديري أعتقد أنك لم تحصِ المبلغ بشكل جيد".

قال والده بحدة: "كيف أخطئ في إحصاء المبلغ؟ غالباً ما أعد النقود بحرص، سأحضره، إن لم تكن تصدقني".

إحصاء النقود كان حدثاً مهماً بالنسبة للسيد توليفر، وإحضار الصندوق القصديري وعد النقود كان يخفف من عبء حياته الكئيبة

"لاتخرجي من الغرفة يا ماما"، قال توم عندما رأى والدته تهم بالخروج بعد أن صعد والده للأعلى.

قالت السيدة توليفر: "ألا تستطيع ماغي الخروج؟ لابد أن يأخذ شخصٌ الصينية ويرتب الأواني".

قال توم بلا مبالاة: "لتفعل ما تشاء".

قفز قلب ماغي فرحاً لاعتقادها بأن توم على وشك أن يخبر والده بأن الديون سوف تسدد - وبأن توم سيزف الخبر السعيد لوالديها أثناء غيابها! حملت الصينية، وعادت إلى الغرفة على الفور. في تلك اللحظة لم تشعر بالإساءة بعد أن سيطرت عليها المفاجأة.

جلس توم عند زاوية الطاولة بالقرب من والده الذي أحضر الصندوق ثم فتحه، وسقط ضوء المساء الأحمر اللون ليسطع على النقود، ويظهر الكآبة التي غمرت عيني الأب السوداوين، والفرحة المكبوتة في وجه الابن ذي السحنة الشقراء. جلست الأم وابنتها على الطرف الآخر من الطاولة، الأولى بصبر نافد، والأخرى تتوقع المفاجأة بقلب مرتعش.

عد السيد توليفر النقود على الطاولة، ثم قال محدقاً بحدة إلى توم :

"والآن! ترى أنني لم أخطئ".

صمت وهو ينظر إلى النقود بكآبة مريرة.

"إننا بحاجة لثلاثمائة جنيه أخرى - سوف تكون لحظة سعيدة في حياتي عندما أستطيع جمعها. إن هذا العالم يقسو عليّ كثيراً. إننا بحاجة لأربع سنوات أخرى حتى نجمع المبلغ بالكامل-عليّ أن أثق بقدرتك على تسديدها "، تابع كلامه بصوت مرتعش: "ربما تستطيع جمعها- وربما لن أعيش حتى أشهد تلك اللحظة".

تفحص وجه توم برغبة فيها كثير من الشك.

قال توم بحزم وحيوية: "لا، بابا. ستعيش حتى تشهد لحظة تسديد الديون وسوف تدفعها بنفسك".

كانت لهجته تشير إلى نبوءة ما أكثر من مجرد أمل أو قرار. سرت صدمة كهربائية خفيفة في جسد السيد توليفر، وحدق في وجه توم بنظرة حيرة وشوق، بينما لم تستطع ماغي أن تتمالك نفسها، فاندفعت نحو والدها، وانحنت قربه صمت توم قليلاً قبل أن يتابع كلامه "منذ مرور فترة قصيرة، أقرضني العم غليك بعض المال لكي أستثمره في التجارة والآن لدي ثلاثمائة وعشرون جنيهاً في البنك".

حالما نطق كلماته الأخيرة، طوقته أمه بذراعيها، وقالت وهي نصف باكية: "أوه، ولدي، عرفت بأنك ستكون نافعاً لنا عندما تصبح رجلاً".

لكن والده كان صامتاً: تدفق فيضان عاطفي سيطر على كل أنواع الكلام أحس كل من توم وماغي بالخوف خشية أن تؤثر صدمة الفرح على والدهما فتكون قاتلة الدموع المباركة أدخلت إليه إحساساً بالراحة انتفخ الصدر الواسع، وغاصت عضلات الوجه، وبدأ الرجل الأشيب ينتحب بصوت عال. خمدت موجة البكاء بالتدريج وجلس بهدوء محاولاً أن يستعيد أنفاسه الطبيعية نظر أخيراً إلى زوجته وقال بنبرة لطيفة :

"حبيبتي، عليك أن تقبليني الآن - لقد أصلح الغلام الأمر وعوّضك عن الأحزان عليك أن تستعيدي الأمل ثانية".

عندما قبلته، وأمسك يَدَها لحظة، فكر ثانية في النقود. قال، وهو يتحسس الجنيهات فوق الطاولة: "أتمنى أن تحضر النقود لأراها يا توم أريد أن أتأكد أكثر ".

قال توم: "سوف تراها غداً يا بابا. لقد أعطى عمي دين موعداً للدائنين لكي يجتمعوا غداً في ساحة الأسد الذهبي، كما أعدّ عشاءً على شرفهم عند الساعة الثانية سوف يحضر أيضاً العم غليك لقد أنزل إعلاناً عن الدعوة يوم السبت".

قال السيد توليفر، وقد لمعت عيناه ببريق الانتصار :

"إذاً يعرف واكيم بالأمر! آه! أشعر براحة عظيمة. وليس لدينا مشروب في المنزل، هل عندنا يا حبيبتي؟".

قالت السيدة توليفر وهي تسحب رزمة مفاتيح: "أجل، لدينا بعض البراندي أحضرته لي أختي دين عندما كنت مريضة".

"إذاً أحضريه لي - أشعر بقليل من الوهن".

قال بصوت قوي النبرة، بعد أن شرب بعض البراندي ممزوجاً بالماء: "توم يا ولدي، سوف نلقي أمامهم خطاباً. سوف أخبرهم بأنك أنت من سددت القسم الأكبر من الديون أخيراً سوف يدركون بأنني رجل شريف، ولديّ ابن شريف آه!

سوف يتمنى واكيم لو أن له ولداً مثل ولدي - ولد سليم البنية بدلاً من ذلك المخلوق الأحدب المسكين! سوف نشهد لحظة الانتصار يا ولدي، عندما تسحق واكيم، وابنه تحت قدميك ولن يمنعك أي شيء من أن تصبح رجلاً غنياً غني بما فيه الكفاية - تذكر هذا - وحاول أن تستعيد الطاحونة القديمة من جديد".

تراجع السيد توليفر في كرسيه إلى الوراء: انتشى في لحظة فرح وهو يتخيل أمامه ثروة عظيمة، بعد أن انشغل فكره زمناً طويلاً باستياء مرير، وهواجس خوف من المستقبل لكن إحساساً ما منعه من التنبؤ بالثروة العظيمة.

قال فجأة وهو يمد يده: "صافحني يا ولدي إنه لأمر عظيم أن يكون للإنسان ولد نافع يفتخر به إنني محظوظ بك".

لم يشهد توم مثل تلك اللحظة الرائعة أبداً، أما ماغي، فلم تستطع نسيان مآسيها.

لقد كان توم طيباً، وخلال اللحظات الحلوة التي نشعر فيها بالرضا والاستكانة والامتنان لله، لانكترث كثيراً لأخطاء الآخرين لم تعد ماغي تتذكر أخطاء توم وفي ذلك المساء لم تشعر بالغيرة للمرة الأولى في حياتها، بدت بعيدة تماماً ومقصية عن ذاكرة والدها. دارت أحاديث كثيرة قبل الخلود للنوم أحس السيد توليفر بفضول شديد لسماع أدق التفاصيل عن مغامرات توم في التجارة، كان يصغي إليه بفرح واستمتاع تمنى السيد توليفر لو يسرد له توم كل الأحداث الصغيرة، أما دور بوب جاكين في العمل فقد فجر في نفسه تدفقات عاطفية تجاه ذلك الحمّال اللامع كان تاريخ بوب الصبياني، معروف بالنسبة للسيد توليفر، الذي انتابه إحساس بالدهشة وهو يستعيد ذكرى الأحداث الماضية لطفولة رجال عظماء.

من المثير الاهتمام بسرد الأحداث لكي يتعزز لديه إحساس بالانتصار على واكيم ومن وقت لآخر منحه ذلك الشعور قدرة على تخيل عظمة غير محدودة.

مضت عدة ساعات في تلك الليلة حتى استطاع السيد توليفر الاستسلام للنوم، وعندما غط في نومه، تكاثفت على مخيلته كوابيس مريعة عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً، بعد أن كانت السيدة توليفر نهضت من فراشها، ذعرت عندما سمعته يطلق صرخة هادئة، ويحدق بجدران غرفة النوم بطريقة مرتبكة.

قالت زوجته: "ما الأمر، سيد توليفر؟". نظر إليها، ولا تزال تعابير الحيرة مرسومة على وجهه، وقال أخيراً :

"آه! كنت أحلم هل أثرت ضجة؟ أعتقد أنني قبضت عليه".

الفصل السابع

يوم الحساب

كانت تغلب على السيد توليفر بشكل أساسي صفة الرجل الرصين - وكان قادراً على الرضوخ لقدره دون الاشمئزاز منه، ولم يتجاوز أبداً حدود الاعتدال. ومن الطبيعي أن يتحلى بطبع الرجل المتهور، الذي لايتوق كثيراً إلى صب الزيت على النار، ترجم طبعه الطائش برغبته باحتساء البراندي مما يدل أن الفرحة المفاجئة جداً كانت صدمة خطيرة كسرت طوق الكآبة الذي أحاط به مدة أربع سنوات من التجهم ورحلة الحياة القاسية غير المعتادة.

لكن تلك اللحظة المترنحة المريبة الأولى قد انتهت، وفي اليوم التالي، عندما كان جالساً إلى الطاولة مع دائنيه، بدت عيناه أكثر لطفاً، وتوَرَّدَ خداه غبطة، مدركاً أنه على وشك أن يسترد اعتباره وكرامته مرة أخرى، كان أكثر اعتزازاً وثقة بنفسه، وبدا حسن المزاج دافئ القلب، عاد توليفر أيام زمان، لم يكن توليفر الذي شاهدناه منذ أسبوع، شخص يمتطي حصانه مثقل بهموم أربع سنوات من الفشل والدين الذي أطبق بقسوة فوق صدره - مطأطئ الرأس لايجرؤ على النظر إلى أولئك الذين فرضوا وجودهم عليه بالقوة أكد في خطابه على مبادئ الشرف التي طالما آمن بها، وألقاه بأسلوب مشوق وبنبرته الواثقة المعهودة، مشيراً إلى الأنذال والحظ العاثر الذي لم يحالفه، لكنه في نهاية الأمر وإلى حد ما انتصر على مصاعبه ببذل الكثير من الجهود المضنية وبمساعدة ابنه الطيب، واسترسل في قصته وشرح كيف تمكن توم من تأمين المبلغ المطلوب.

إن مسحة الاضطراب والانتصار المعادي انضهرت لبرهة قصيرة في إحساس أبوي نقي بالافتخار والسرور، عندما احتسوا الشراب بصحة توم، وانتهز العم دين المناسبة ليثني على سلوك توم وشخصيته بشكل عام، حتى توم نفسه نهض وألقى خطاباً عن حياته بالكاد استطاع أن يختصر خطابه: شكر السادة على شرف حضورهم كان سعيداً لأنه استطاع مساعدة والده في استرداد كرامته واسمه المشرف، وتمنى من ناحيته، أن لايلطخ اسم العائلة ثانية.

أعقب الخطاب موجة هائلة من التصفيق الحار، وبدا توم متألقاً جداً معتزاً بنفسه، حتى أن السيد توليفر أشار، بطريقة توضيحية كيف أنفق مالاً كثيراً لكي يمنح توم ثقافة جيدة.

انتهت الحفلة بطريقة لائقة جداً عند الساعة الخامسة. بقي توم في بلدة القديس أوغ ليستعد لبعض الأعمال، بينما امتطى السيد توليفر حصانه عائداً للمنزل، وهناك سرد ما حدث في الاحتفال "لزوجته المسكينة وابنته المدللة".

الإحساس بالغبطة الذي انتابه كان ضعيفاً نتيجة لدوافع أخرى وضعت حداً لشعوره الانتصار.

في ذلك اليوم لم يشأ أن يسلك أي طريق مهجور، ركب حصانه ببطء، وانطلق برأس مرفوع وهو ينقل ناظريه بكل حرية، على طول الطريق الرئيسي المؤدي إلى الجسر. لماذا لم يقابل واكيم هناك؟ سؤال ألح عليه بفضول، وأزعجه أنه لم يلتقه؛ ربما غادر واكيم البلدة اليوم لكي يتجنب رؤية أو سماع أي حدث مشرف للسيد توليفر قد يسبب له إرباكات تعيسة إذ لو قابله واكيم، لتجرأ السيد توليفر على التحديق به بملء عينيه، وربما ابتعد أولئك الأنذال عن طريقه لكي يتجنبوا جرأته المهيمنة.

سوف يدرك عما قريب أن ذلك الرجل الشريف لن يكون في خدمته بعد الآن، ولن يسخره لكي يحقق مكاسب غير شريفة. ربما بدأ الحظ يحالفه من جديد، ربما لايفوز الشيطان دائماً بأفضل الانجازات في هذا العالم!

مع هذا الهيجان الداخلي الصامت، اقترب السيد توليفر من بوابة طاحونة دورلكت، بحيث تسنى له رؤية شخص معروف جداً خارجاً منها وهو يمتطي ظهر حصان جميل أسود. التقيا على بعد خمس ياردات من البوابات، ما بين أشجار الكستناء الضخمة وأشجار الدردار وبين الضفة المرتفعة. قال واكيم فجأة وبنبرة متعجرفة أكثر من العادة :

"توليفر، يا لها من حيل حمقاء تلك التي تفعلها - تنشر هذه الكتل القاسية على مقربة من هنا. لقد أخبرتك كيف تتصرف، ولكنكم أنتم الرجال لاتتعلمون أبداً كيفية الزراعة".

قال توليفر وقد استشاط غضباً فجأة: "أوه! إذاً فلتبحث عن شخص آخر يدير لك أمور الزراعة، ولتعلمه كيفية الزراعة".

قال واكيم وقد اعتقد بالفعل أن لهجة السيد توليفر تشير إلى أنه سكران، لأن وجهه كان متورداً وعينيه تلتمعان: "أعتقد أنك ثمل".

قال توليفر: "لا. لست ثملاً. لاأريد أن أسكر حتى أبقى صاحياً بعد أن قررت بأن لاأعمل بعد الآن في خدمة رجل وغد".

"حسن جداً! بمقدورك مغادرة منزلي غداً: تحكم بلسانك السليط، ودعني أمر".

(شدّ السيد توليفر لجام حصانه، واعترض طريق واكيم).

قال توليفر وقد أصبح أكثر شراسة: "لا، لن أدعك تمر. سوف أقول لك أولاً ما يدور في خلدي إنك محتال محترف، وتستحق الشنق - إنك".

"دعني أذهب في حال سبيلي أيها المتوحش الجاهل، وإلا سحقتك تحت أقدام حصاني".

أطلق السيد توليفر العنان لحصانه ورفع سوطه، واندفع للأمام، بينما صهل حصان واكيم وتعثر للوراء، ملقياً راكبه عن السرج ليسقطه أرضاً. سارع واكيم إلى إرخاء لجام الحصان في الحال، وبينما كان الحصان يتعثر بضع خطوات ثم يستعيد توازنه، حاول واكيم أن يمتطي ظهر حصانه من جديد بعد أن أصيب بكدمة بسيطة ولكن قبل أن يتمكن من النهوض ثانية، كان توليفر قد طرح أرضاً. مشهد ذلك الرجل المستبد الذي بدأ يفقد قوته والذي أثار الكراهية في قلب توليفر لزمن طويل، حرض في نفس ذلك الأخير رغبة جنونية في الانتقام اندفع نحو واكيم، الذي كان لايزال يحاول النهوض، وأمسكه من ذراعه الأيسر بحيث ألقى توليفر كامل ثقله على ذراعه الأيمن". الذي استقر على الأرض، وبدأ يجلده بسوطه بشراسة

صرخ واكيم طالباً المساعدة، ولكن ما من مغيث، حتى سمع صوت صراخ امرأة، بابا، بابا!

فجأة أحس واكيم أن شيئاً ما قبض على ذراع السيد توليفر، لأن الجلد بالسوط توقف، وتراخت القبضة التي كانت تطوق ذراعه.

قال توليفر: "ابتعدي من هنا - اذهبي!". نهض المحامي ببطء، وبينما كان يدير رأسه، شاهد فتاة تمسك بذراعي توليفر بأقصى ما استطاعت من قوة.

صرخت ماغي عندما سمعت صوت وقع خطوات قادم من بعيد: "أوه لوكي - ماما - تعالا وساعدا السيد واكيم!".

خاطب واكيم لوكي: "ساعدني لكي أركب ذلك الحصان المنخفض الظهر، ومن ثم ربما أستطيع تدبر أمري: بالرغم من أن - اللعنة عليها - أعتقد أن هذا الذراع مرضوض".

و بصعوبة إلى حد ما، سحب واكيم نحو ظهر حصان توليفر. ثم استدار نحو الطحان وقال بحقد ": "سوف تدفع الثمن يا سيدي ابنتك شاهدة على أنك أهنتني".

قال السيد توليفر بصوت خشن شرس: "لاأكترث لأمرك. اذهب من هنا، وأخبر الجميع بأنني ضربتك بالسوط أخبرهم بأنني فعلت أشياء أكثر غرابة في هذا العالم".

خاطب واكيم لوكي قائلاً: "اركب حصاني، ورافقني إلى المنزل".

"بابا، ادخل المنزل!". قالت ماغي متوسلة وبعد أن شاهدت واكيم منطلقاً بعيداً على حصانه، ولم يعد هنالك إمكانية لحصول مزيد من الشجار، وهنت عزيمتها وانفجرت في موجة هستيرية من البكاء بينما وقفت بجانبها السيدة توليفر ترتعش خوفاً. ولكن بعد أن تراخت قبضتها عن الإمساك بذراعي والدها، لاحظت ماغي بأنه بدأ يتكئ عليها. أوقفت الدهشة موجة البكاء الهستيرية.

قال: "أشعر بالمرض - والوهن. ساعديني يا حبيبتي - أحس بالدوار - ينتابني ألم في رأسي".

مشى ببطء تساندانه كل من زوجته وابنته، وترنح نحو كرسيه. تلاشى ذلك اللون الأرجواني تقريباً وتحول إلى شحوب، وأصبحت يده باردة.

قالت السيدة توليفر: "أليس من الأفضل أن نرسل في طلب الطبيب؟".

بدا مريضاً جداً حتى أنه لم يسمعها، وحالما قالت لماغي: "هيا اذهبي، واستدعي شخصاً لإحضار الطبيب"، حدق فيها بإمعان وقال، "دكتور؟ لا- لاأريد دكتوراً. إن رأسي يؤلمني - هذا كل ما في الأمر. ساعديني كي آوي إلى الفراش".

نهاية مأساوية لنهار أشرق على الجميع، بدت مثل بداية لأزمنة أفضل! لكن البذور الهجينة لابد أن تتحمل حصاداً هجيناً.

بعد نصف ساعة من استلقاء والده عاد توم إلى المنزل. كان بوب جاكين برفقته - جاء كي يهنئ "السيد العجوز"، وهو يشعر بالفخر لأنه ساهم في جلب الحظ السعيد للسيد توم، الذي كان على ثقة بأن والده سوف يبتهج كثيراً في إنهاء يومه بحديث شيق مع بوب. ولكن توم أمضى الليلة بتوقعات كئيبة لنتائج سيئة كان لابد أن تعقب هذا الهيجان المجنون الذي أطلقه والده بعد فترة حقد طويلة ومكبوتة. بعد سماعه بالأنباء المؤلمة، جلس صامتاً: فقد كل رغبة بأن يطلب من والدته وأخته إعداد العشاء - بالكاد سألتاه إن كان يريد تناول الطعام.

من الواضح أن المجرى المختلط لشبكة حياتهم كان ملتوياً بشكل غريب للغاية، حتى أنه ما من فرحة تحدث دون أن يعقبها مباشرة ألم. كان توم كئيباً لإحساسه بأن جهده الاستثنائي لابد أن يتبدد دائماً بفضل أخطاء الآخرين: كانت ماغي تعاني من عذاب اللحظة التي اندفعت ورمت فيها بنفسها على ذراع

والـدها، وانتابهـا هـاجس غـامض بحلـول مـشاهد بائـسة وشـيكة الحـدوث لم يـشعر أي أحـد مـن الثلاثـة بـأي خـوف مـن نـوع خـاص بمـا يتعلـق بـصحة الـسيد تـوليفر: لم تكـن مؤشـرات المـرض تـدل علـى أنـه تعـرض لـصدمة خطـيرة كـالتي أصـابته مـن قبـل، وبـدت حالتـه مجـرد نتيجـة وخيمـة لعاطفتـه القويـة، وجهـد بذلـه بعـد عـدة سـاعات مـن لحظـات اسـتمتاع غـير معتـادة، وهـذا مـن شـأنه أن يـسقطه صـريع المرض من المحتمل أن تكون الراحة هي العلاج الشافي له الآن.

سئم تـوم مـن يومـه الحافـل، واستـسلم في الحـال للنـوم، نـام وهـو يـشخر: أحـس وكأنـه خلـد لفراشـه منـذ لحظـات فقـط، عنـدما اسـتيقظ لـيرى والدتـه تقـف بجانبه في ظل أشعة الصباح الباكر الرمادي اللون.

"ولـدي، عليـك أن تنـهض في هـذه اللحظـة: لقـد أرسـلت في طلـب الطبيـب، ووالدك يريد رؤيتك أنت وماغي الآن".

"هل حالته سيئة يا ماما؟".

"إنه مريض جداً، وعانى طوال الليل من ألم في رأسه، لم يشتك أبداً - قال لي فجأة: حبيبتي اذهبي، واستدعي الولد والفتاة أخبريهما أن يسرعا في المجيء".

مـاغي وتـوم ارتـديا ملابـسهما بـسرعة، وبـرودة الـصباح البـاكر تـسري قـشعريرة في جـسديهما، وصـلا إلى غرفـة والـديهما في اللحظـة نفـسها تقريبـاً. كـان يترقـب وصـولهما وتعـاليم الألم مرسـومة علـى جبينـه، لكـن نظـرات قلـق حـاد كانـت واضـحة في عينيـه وقفـت الـسيدة تـوليفر عنـد مـؤخرة الـسرير، مـذعورة ترتجـف بـدت مرهقـة وزاد الإنهـاك مـن عمرهـا عـدة سـنوات كانـت مـاغي أول مـن وقفـت بجانبـه، لكن نظرات والدها كانت تتجه نحو توم، الذي وقف بالقرب منها.

"تـوم ن يـا ولـدي، لقـد حانـت سـاعة مـوتي ولـن أنهـض ثانيـة إن هـذا العـالم أثقـل كـثيراً علـى كـاهلي يـا ولـدي، لكنـك فعلـت مـا بوسـعك، يـا بـني هيـا صـافحني ثانية قبل أن أودعك للأبد".

تـشابكت يـدا الابـن والولـد وحـدقا ببعـضهما للحظـة ثـم قـال تـوم، محـاولاً أن يـتكلم بـشجاعة: "هـل لـديك أيـة أمنيـة يـا بابـا - بمقـدوري أن أحققهـا لأجلـك، عندما. . . .".

"أجل يا ولدي سوف تحاول استرجاع الطاحونة القديمة".

"نعم بابا".

"ووالدتك - حاول أن تعوضها سنين الألم قدر ما تستطيع وابنتي المدللة . . .".

حول الأب نظره نحو ماغي ونظر إليها بلهفة أكثر من المعتاد، بينما جثت بقلب منفطر على ركبتيها، كي تصبح أقرب إلى ذلك الوجه المنهك الذي استحضرت فيه أعمق معاني الحب طوال السنين التي مضت

"عليك أن تعتني بها جيداً يا توم-لا تضايق حبيبتي المدللة-سوف يأتي شخص ما ويبادلها الحب ويأخذ دورك يجب أن تكون طيباً مع أختك يا ولدي طالما كنت طيباً مع أختي قبليني يا ماغي-هيا يا حبيبتي-توم عليك أن تجهز قبراً من القرميد بحيث يكفيني وأمك كي نستلقي معاً".

أشاح بوجهه عن الجميع عندما قال هذه الكلمات، ولاذ بالصمت لبضع دقائق بينما وقفوا يراقبونه، ولا يجرؤون على الإتيان بأية حركة كانت شمس الصباح تزداد دفئاً وتتضح أشعتها أكثر فأكثر، فاستطاعوا رؤية وجهه المثقل بالهموم، وعينيه الكئيبتين ولكن نظر أخيراً إلى توم وقال :

"لقد أديت دوري - وضربته أخذت العدالة مجراها. لم أشأ فعل أي شيء سوى تحقيق العدالة".

قالت ماغي وقلق خفي يسيطر على حزنها: "ولكن بابا، والدي الحبيب، ألن تسامحه - ألن تسامح الجميع الآن؟".

لم يحرك ناظريه نحوها، وقال: "

"لا، يا ابنتي المدللة لن أسامحه-لماذا أسامحه؟ لاأستطيع أن أحب الأنذال-".

ازدادت خشونة صوته، لكنه أراد أن يقول شيئاً ما، حرك شفتيه ثانية، وحاول الكلام عبثاً.

أخيراً شقت الكلمات طريقها بصعوبة

"هل يسامح الله الأنذال؟- حتى لو سامحهم، فلن يعاقبني لأنني لم أستطع مسامحتهم".

حرك يديه بصعوبة، وكأنه أراد فك قيود أثقلتهما. مرتين أو ثلاث مرات، وردد كلمات مهزومة: "هذا العالم- ظالم للغاية-رجل شريف-لغز محير-".

تحولت الكلمات حالاً إلى تمتمات، ولم يعد بمقدور العينين رؤية أي شيء، انطفأ بريقهما، ثم سادت لحظة صمت نهائية

لم تكن لحظة الموت لمدة ساعة أو أكثر كان الصدر يرتفع، وينخفض، واستمر يتنفس بصعوبة، حتى بدأ نفسه يتباطأ بالتدريج، بينما تجمعت قطرات ندى باردة فوق جبهته

أخيراً خيم صمت مطلق، وغادرت روح كئيبة مضنية جسد توليفر المسكين، وامتزجت بأحجية هذا العالم المؤلم

وصلت الآن المساعدة: "كان هناك لوكي وزوجته، ووصل الدكتور ترنبول، متأخراً جداً فلم يتفوه بكلمة سوى أنه قال :"هذا هو الموت".

نزل توم وماغي سوية إلى الطابق السفلي، ودخلا الغرفة حيث كان مكان والدهما شاغراً. نظرا إلى البقعة نفسها، وقالت ماغي :

"سامحني يا توم - دعنا نحب بعضنا بعضاً إلى الأبد".

وتعانقا، وذرفا الدموع معاً.

الجزء السادس

الإغواء الشديد

الفصل الأول

ثنائي في الجنة

غرفة الاستقبال ذات الأثاث الحديث، والبيانو الفخم المفتوح، وتلك الإطلالة المبهجة على حديقة فسيحة تؤدي إلى منزل بالقرب من نهر الفلوس، هو منزل السيد دين. تلك الآنسة الصغيرة الأنيقة، التي تتموج خصلات شعرها ذات اللون البني الفاتح، والتي كانت مشغولة بمداعبتها بأصابعها، هي بالطبع لوسي دين، وذلك الشاب الوسيم الذي يتكئ للأسفل من كرسيه لكي ينتزع المقص فيبدو مثل "الملك تشارلز "وهو ينحني عند قدمي السيدة الشابة، ليس إلا السيد ستيفن غيست، الذي يشير خاتمه الماسي، ومظهره اللائق إلى النعيم الذي يتمتع به نتيجة الثروة التي توفرها له أضخم طاحونة وأعظم ميناء في بلدة القديس أوغ. هناك تفاهة واضحة في التعامل مع المقص، لكنك تدرك في الحال، عزيزي القارئ، بفطنتك أنه يوجد مخطط في ذلك التصرف يستحق بشكل رئيسي ذلك الرأس الكبير والمعالم الجذابة لشاب وسيم، لأنك تلاحظ كيف تسعى لوسي للإمساك بالمقص، وتدفع خصلات شعرها للوراء، وهي ترفع عينيها البندقيتين اللطيفتين، ملقية ابتسامتها اللعوب على ذلك الوجه الذي يقع تقريباً عند مستوى قدميها، ويمسك بكف راحتها البيضاء قائلاً: "أعطني مقصي، أرجوك".

انزلق ذلك المقص الأحمق بعيداً جداً عن أصابع قدميها، وحاول هرقليس الإمساك به عبثاً.

"اللعنة على ذلك المقص! اسحبيه باتجاهك من فضلك".

قالت الآنسة لوسي بأسلوب مشاكس: "اسحبه بيدك الأخرى".

"أوه، لكن هذه هي يدي اليسرى: لست أعْسَرَ. تضحك لوسي، وتسحب المقص بأطراف أصابعها الناعمة الصغيرة وفقاً لذلك، يراقب حركة المقص بحيث يتسنى له استعادته ثانية

قالت لوسي وهي تضع المقص في جيبها: "لا، لا لن تسترد المقص ثانية - لقد استنفذت كامل قواك به - والآن لا تجعل مني يزمجر ثانية اجلس وتصرف بشكل لائق، وبعدها سوف أخبرك بعض الأخبار".

قال ستيفن وهو يستند إلى الوراء، واضعاً ذراعه الأيمن على زاوية كرسيه: "ما هي هذه الأخبار؟". اتخذ وضعية في جلوسه، وكأنه يستعد ليلتقط له

صورة تمثل شاباً يلفت الأنظار بوسامته، في ربيعه الخامس والعشرين، له جبهة مربعة الشكل، وقامة منتصبة، وشعر قصير بني غامق، يتموج في نهايته، مثل شرا شيب عرنوس الذرة الكثيفة، ونظرة نصف متحمسة، ونصف ساخرة تشعُ من عينين ارتسم فوقهما بوضوح وإتقان حاجبان أفقيان.

"هل هي أخبار مهمة للغاية؟".

"أجل - مهمة جداً. خمن ما هي".

"سوف تغيرين نظام الحمية لـ ميني، وتقدمين له ثلاث كعكات منقوعة يومياً؟".

"خطأ تماماً".

"حسنٌ إذاً، قام الدكتور كين بتقديم موعظة قاسية، وأنتن السيدات قلتن - هذا مذهب صعب، من يستطيع تحمله؟".

قالت لوسي وهي تسوي فمها الصغير باهتمام :

"ياللعار! من المثير للكآبة أن لاتخمن أخباري، لأنني ذكرت لك شيئاً عنها منذ فترة قصيرة".

"ذكرت لي عدة أشياء منذ فترة قصيرة هل يجعلك تسلطك الأنثوي تعتقدين بأن مجرد ذكرك لأمر من الأمور الكثيرة، كفيل بأن يلزمني بفهم ما يدور في خلدك مباشرة؟".

"أجل، أعلم أنك تعتقد بأنني حمقاء".

"أعتقد أنك في منتهى الجاذبية".

"وحماقتي جزء من جاذبيتي؟".

"لم أقل ذلك".

"لكنني أعلم بأنك تحب النساء التافهات إلى حد ما. فيليب واكيم ذكر مرة هذا الأمر: قال ذلك في أحد الأيام عندما كنت غائباً عن المجلس "أوه، أعرف أن فيل شرسٌ بهذا الخصوص، إنه يعالج المسألة من منظوره الشخصي أعتقد أنه لابد أن يهيم بحب سيدة مجهولة - سيدة عظيمة مثل تيريس قابلها في الخارج بعيداً عن الأعين".

قالت لوسي: "عما قريب! لم أكتشف بعد إن كانت ابنة خالتي ماغي سوف تعترض على رؤية فيليب، كما يفعل أخوها. لن يقبل توم أن يدخل غرفة يتواجد فيها فيليب: ربما تتصرف ماغي مثله، عند ذلك لن يكون بمقدورنا أن نغني غناءً جماعياً، أليس كذلك؟".

سأل ستيفن وقد بدا عليه أنه تضايق قليلاً: "ماذا! وهل ابنة خالتك قادمة لتمكث معك؟".

"أجـل، كانـت هـي تلـك الأخبـار الـتي أردت أن أزفهـا إليـك، والـتي نـسيتَ بـأنني ذكرتهـا أمامـك مـن قبـل سـوف تغـادر موطنـها، الـذي عاشـت فيـه حـوالي عـامين منـذ وفـاة والـدها، يـا للفتـاة المسكينة! وسـوف تمكـث معـي مـدة شـهراً أو اثـنين - آمـل أن تبقى معي عدة شهور".

"وهل أنا ملزم بأن أشعر بالسعادة بعد تلقي تلك الأنباء؟".

قالـت لوسـي بعـد أن أحـست بـأن مـشاعرها قـد جرحـت: "أوه، لا، لاعلـى الإطـلاق إنـني سـعيدة جـداً ولكـن هـذا لـيس مـبرراً لكـي تـشعر بـدورك بالـسعادة أيضاً. لاتوجد أية فتاة في العالم أحبها بهذا القدر كما أحب ابنة خالتي ماغي".

"وسـوف تـصبحين غـير مباليـة بـي كمـا أعتقـد، عنـدما تـأتي ابنـة خالتـك، ولـن تكـون هنالـك إمكانيـة للجلـوس معـك علـى انفـراد بعـد الآن، إلا إذا عثـرت لهـا علـى معجـب يبادلهـا الحـديث مـا سـبب العـداء لفيليـب؟ ربمـا إنـه شـاب واسـع الحيلـة والدهاء".

"إنـه شـجار عـائلي مـع والـد فيليـب أعتقـد أن الظـروف كانـت قاسـية ومؤلمـة جـداً لم أفهمهـا بـشكل جيـد علـى الإطـلاق ولم أعـرف حيثياتهـا. كـان عمـي تـوليفر رجـلاً قليـل الحـظ، وفقـد كـل ثروتـه، وكمـا أعتقـد أنـه حمّـل الـسيد واكـيم وزر فـشله وسـبب ضـياع ثروتـه. لقـد اشـترى الـسيد واكـيم طاحونـة دورلكـت، المكـان الـذي أمضى فيه العم توليفر كل حياته. لابد أنك تتذكر عمي توليفر، أليس كذلك؟".

أجـاب سـتيفن بـلا مبـالاة إلى حـد مـا: "لا، أسمـع دائمـاً بكـثير مـن الأسمـاء، وأجـرؤ علـى القـول أنـني عرفـت الرجـل بالـشكل، بعيـداً عـن اسمـه أعـرف نـصف الجيران بالأسماء أو بالوجوه بهذه الطريقة المفككة".

"لقـد كـان رجـلاً حـاد المـزاج. عنـدما كنـت صـغيرة، أذكـر أنـني كنـت أذهـب لزيـارة أولاد خـالتي، ولطالمـا كـان يخـيفني بطريقـة حديثـه معـي وكأنـه كـان غاضـباً. أخبرنـي بابـا أن شـجاراً فظيعـاً حـدث بـين الـسيد واكـيم والعـم تـوليفر قبـل موتـه بيـوم، لكنـه تـوارى بعـد ذلـك عـن الأنظـار. جـرت هـذه الأحـداث عنـدما كنـت في لنـدن يقـول بابـا أن عمي مخطئ تماماً في كثير من النواحي: لقد تغلغل الحقد في قلبه.

لكن توم وماغي يشعران بالألم الشديد عندما يتذكران هـذه الأشياء. لقـد عانيـا مـن مشاكل كثيرة - كثيرة جداً. كانت ماغي معي في المدرسة منذ ست سنوات مضت، عنـدما تركت المدرسة بسبب إفلاس والـدها، ومنـذ ذلـك الحـين لم تعـرف معنـى الـسعادة. إنهـا في وضع حرج للغاية منذ وفاة والـدها، فهـي مصممة علـى الاعتمـاد علـى نفسها، وتـرفض العيش مع الخالة بوليت، وبصعوبة أقنعتها بالمجيء لزيارتي، لأن مامـا الحبيبـة مريـضة، وكل شيء يبدو كئيباً. لهذا السبب طلبت منها القدوم الآن، وآخذ عطلة طويلة".

قال ستيفن وهو يرمقها بابتسامة معجب: "إنك لطيفة كالملاك، وسيكون الأمر أكثر متعة إن ورثت ميزات الحديث عن أمها".

"خالتي المسكينة! إنك تقسو عليها عندما تتحدث عنها بلهجة ساخرة. إنني أقدرها كثيراً، فهي ترتب المنزل بشكل أنيق للغاية - أفضل مما تفعل أية امرأة غريبة - وكانت خير معين لي في مرض ماما".

"أجل، إنها تصنع أفضل كعكة بالكريما والكرز. أعتقد أن ابنتها لها حضور قوي، فتاة شقراء بدينة، عيناها مستديرتان وزرقاوان، وتحدقان بنا بصمت".

صرخت لوسي وهي تضحك بخبث، وتشبك يديها ببعضهما البعض: "أوه نعم!هذه بالضبط ابنة خالتي ماغي لابد أن تتعرف عليها!".

"لا، حقاً: إنني أخمن فقط كيف يجب أن تكون ابنة السيدة توليفر، ثم إن تضايقت من وجود فيليب، فعلينا أن نعتذر لها".

"ولكن آمل أن لاتتضايق. سأطلب منك أن تعرِّج على منزل فيليب، وتخبره بأن ماغي قادمة إلى هنا غداً. إنه يتفهم مشاعر توم نحوه، ويتحاشى الظهور أمامه، لذلك سوف يستوعب الأمر جيداً إن تخبره، بأنني طلبت منك أن تحذره من المجيء إلى هنا حتى أرسل في طلبه".

"أعتقد أنه من الأفضل أن تكتبي رسالة لطيفة أعطيها له - تعلمين أن فيل شديد الحساسية، أتفه الأمور من الممكن أن تضايقه، ونحن نعمل بجد كي نكسبه. لاأستطيع إغواءه أبداً في القدوم إلى المنتزه: فهو لايحب أخواتي، كما أعتقد. ولكن بمقدورك بلمستك الحنونة أن تهدئي من روعه"راقب ستيفن اليد الصغيرة وهي تتجه نحو الطاولة، لمسها برقة بشفتيه. أحست لوسي الصغيرة بالفخر والسعادة. عاشت مع ستيفن لحظات غزل صامت، جسدت أكثر العواطف عذوبة وأنقاها - فكل منهما واثق من محبة الآخر، لكن لم يحدث أي إعلان رسمي يفضح حبهما، تبادلا التنبؤ بمشاعرهما، مترفعين عن استعمال كلمات تافهة، والإيماءات الخفيفة، واكتفيا بصمت مشوق فاح مثل رائحة الياسمين. لكن وضوح مشاعرهما جعل الياسمين يجتمع على شكل شجيرة كبيرة.

قالت لوسي الماكرة وهي تتجه نحو مقعدها: "ولكن من الغرابة حقاً أن تتنبأ بمظهر وسلوك ماغي بهذه الدقة. إذ من الممكن أن تشبه أخاها، كما تعلم، وتوم عيناه ليستا مستديرتين، ولايجرؤ على التحديق بالآخرين".

"أوه، أفترض أنه يشبه أباه: يبدو فخوراً بنفسه مثل توليفر. بالرغم من اعتقادي أن صحبته ليست ممتعة كثيراً".

إنني أكن لتوم كل المودة. هو من أعطاني ميني بعد أن فقدت لولو، وبابا

معجب به كثيراً: يقول بأن لدى توم مبادئ قيمة لقد ساعد والده في تسديد جميع ديونه قبل وفاته".

"أوه، آه، سمعت عن ذلك سمعت والدك ووالدي يتحدثان عن هذا منذ فترة وجيزة، بعد الغداء، في أحد نقاشاتهم اللامتناهية حول العمل يفكران في عمل شيء ما لصالح توليفر الشاب: لقد أنقذهما من خسارة محتملة، بطريقة مدهشة للغاية، مثل تورين[1]، وذلك بعد أن أخبرهما عن إفلاس البنك، أو شيء من هذا القبيل لكنني كنت نعساناً، ولم أفهم الأمر جيداً".

نهض ستيفن من مقعده، وتهادى نحو البيانو، وهو يدندن بصوت عالي الطبقة، "صحبة لطيفة". قال عندما شاهد لوسي تنهض: "تعالي وشاركيني الغناء".

"ماذا! صحبة لطيفة؟، لاأعتقد أنها تناسب صوتك".

"لايهم، فهي تتناسب تماماً مع مشاعري، وهذه الميزة يستخدمها فيليب لتكون العنصر الأساسي في تقديم غناء جيد. لاحظت أن الكثير من الرجال أصواتهم غير مؤثرة يتبعون عادة هذا الرأي".

قالت لوسي وهي تجلس على البيانو: "إن فيليب يعتمد على الأسلوب الخطابي في الغناء. يقول أنه نوع من التملق كي يجعل الشخص راضياً عن نفسه، وكأنه كتب من أجل مهرجان للاحتفال بعيد ميلاد دوق ألماني عظيم الشأن".

"أوه بوه! إنه يمثل آدم الذي هبط من الجنة بمزاج حاد. أما نحن فنمثل آدم وحواء اللّذين لم يخرجا بعد من الجنة والآن سوف تغنين وتقومين بواجب المرأة بالكامل - ومن منطلق هذه الطاعة تزداد سعادتي واعتزازي بنفسي،".

قالت لوسي وقد بدأت تشاركه العزف: "أوه لا، لن أحترم آدم المتسلط، كالذي تجسده في شخصك". بالتأكيد إن الغزل الوحيد الذي لايمكن أن تنال منه الشكوك والمخاوف هو ذلك الغزل الذي يحدث بين المحبين عندما ينشدون أغنية معاً. حيث تتلاقى أعمق الأحاسيس من خلال إظهار كافة درجات الصوت ولكن في المقاطعات التي يقدس أناسها الموسيقى لدرجة عالية، في ذلك الزمن البعيد، كيف استطاع الموسيقيون أن يتحاشوا السقوط في شرك الحب مع بعضهم البعض؟ حتى المبدأ السياسي لابد أن يعاني من خطر الضعف في ظل ظروف كهذه في هذه الحالة أطلقت الأصوات بكل عنفوان وقوة :

---

[1] ديك تورين (1705- 1739) هو قاطع طريق.

مع هذه البهجة يبدو كل شيء جديداً
و تصبح الحياة سعيدة باستمرار".
اعتقد بأنهما أنشدا كل الأغاني.

بعد أن انتهيا. قالت لوسي: "حسنٌ والآن أغنية رافائيل العظيمة".

قال ستيفن وهو ينظر إلى ساعته: "تلك الأصوات تستحق التكريم بحق المسيح، الساعة الواحدة والنصف تقريباً. حسنٌ باستطاعتي أن أنشد هذه الأغنية".

تقبل ستيفن نظرات الإعجاب برحابة صدر: عندما يكون أمام المغني جمهور مؤلف من أكثر من شخص، عندئذ تتضارب الآراء.

سيدة ميني ذهلت بأناشيده، لكن ميني الذي كان يطوق نفسه بدفء، في سلته، ارتعش، وقفز منها حالما صدحت الموسيقى، ولم يستطع إجبار أذنيه على سماع المزيد، واستطاع ذلك الكلب الصغير الأليف الهروب من قدر مشؤوم

قال ستيفن وهو يزرزر معطفه، بعد أن انتهى من الغناء وكان يبتسم من علٍ بقامته الطويلة، ويرمق بحب، تلك الآنسة الصغيرة التي جلست تعزف: "صحبة لطيفة لن تدوم سعادتي، لأنه يجب علي العودة للمنزل أعدك بأن أحضر عند العشاء".

"إذاً لن تتمكن من زيارة فيليب؟ ولكن لاداعي لزيارتك: لقد ذكرتك كل شيء في مذكرتي "سوف تكونين مشغولة بابنة خالتك، أليس كذلك؟".

"أجل، سوف نعد حفلة عائلية صغيرة سوف يشاركنا ابن خالتي توم العشاء، ولأول مرة سوف تصطحب خالتي المسكينة ولديها معاً. ستكون حفلة رائعة جداً، أعتقد أننا سوف نستمتع بها كثيراً".

"ولكن هل أستطيع أن أحضر في اليوم التالي؟".

"أوه، أجل! تعال لكي تتعرف على ابنة خالتي ماغي - بالرغم من أن أمك لم ترها من قبل، لكنك وصفتها بشكل جيد".

"إذاً، إلى اللقاء". ضغطت اليدان على بعضهما بعضاً أثناء تشابكهما، وتبادلت العيون نظرات عابرة، تركت أثرها على السيدة الصغيرة من خلال التورد الخفيف الذي طرأ عليها، وابتسامة غمرت وجهها جعلتها تفضل التجوال في الغرفة جيئة وذهاباً على الجلوس بهدوء ومعاودة التطريز.

على الأقل كان هذا ما أحست به لوسي، وآمل عزيزي القارئ، أن لاتعد هذا التأثر دلالة على الغرور الذي يسيطر على دوافع عاطفية كانت لوسي بطبيعتها تميل للخير والعطاء. حتى أنني أميل للاعتقاد بأن غرورها الصغير محمل بالخير.

بالرغم من أنك تراها تتمشى جيئة وذهاباً وهي تحس بنشوة الانتصار التي ينبض بها قلبها الأنثوي الصغير، لأنها ترى في الشخص الذي أحبها الميزات الرئيسية التي أوحى لها بها عالمها الضيق، مع ذلك يمكنك أن تلمح في عينيها البندقيتين، وميضاً يشع بالرحمة، ويضيع فيه الزهو الشخصيو إن كانت حقاً تشعر بالسعادة بهذا الحب الجديد فلأنه سوف يملأ عليها فراغ أيامها الهادئة، ويشحنها بعواطف متقدة ذلك التغير اللحظي انعكس من خلال مسارين، أحدهما مشاعرها تجاه ستيفن، والآخر إقبالها على الحياة بفضل زيارة ماغي لها، إذ عليها الاستعداد لاستقبالها على أحسن وجه ومعاملتها كأعظم زائرة - لا، بل أفضل، عليها إحضار أجملَ أنواع الزهور الربيعية ووضعها على الطاولة سوف تستمتع ماغي بالنظر إليها - كم كانت مغرمة جداً بالأشياء الجميلة! والخالة توليفر المسكينة التي لم يحسب لها أحد أي حساب - سوف تبتهج عندما تستقبلها لوسي، وتشرب نخب صحتها.

من الواضح أنه ليس لدى لوسي وقت إضافي تخصصه للسباحة في بحر أحلام يقظتها، أو الانشغال بقضايا حب تغمرها بالسعادة بهذه الفكرة التي استحوذت عليها مشت نحو الباب لكنها توقفت هناك.

قالت وهي تنحني منتظرة جواباً من ذلك المخلوق الصغير، وهي ترفع رأسه الناعم، وتلتصق به بخدها المتورد: "إذاً ما الأمر يا ميني؟ هل اعتقدت بأنني سأذهب من دونك؟ هيا تعال معي لزيارة سنباد".

سنباد حصان كستنائي اللون، كانت لوسي تطعمه دائماً بيديها عندما يسرح في المرج. كانت مولعة بإطعام الحيوانات غير القادرة على الاعتناء بنفسها، وتستمتع وهي تراقب طيور الكناري المشغولة بالتقاط البذور الغضَّة بمناقيرها، مصدرة أصوات غرغرة خفيفة، وتلك الأنواع من المخلوقات الصغيرة والتي سوف أدعوها "القوارض الأكثر شيوعاً "، حتى لاتبدو بالغة السخافة

هل كان ستيفن غيتس محقاً في قراره باختيار هذه العذراء ممشوقة القوام ذات الثمانية عشر ربيعاً، وهل كان رأيه سديداً بأنها مثال للزوجة التي لايندم الرجل من الزواج بها؟ - امرأة تحب الآخرين، وتراعي مشاعرهم، وتهتم برغباتهم، لاتتعامل مع الناس بأسلوب سطحي، ولا تعرف التملق، بل تخاطبهم بمنتهى الصدق، وتقرأ جيداً نصف آلامهم المخيفة، وتسعد كثيراً عندما تدخل جزءاً بسيطاً من الفرحة إلى قلوبهم؟ ربما سبب إعجابه الرئيس بها لم يرتكز بدقة على هذه الميزة النادرة - ربما استحسن اختياره لها لسبب أساسي هم أنها لم تلفت انتباهه كفتاة نادرة تسترعي الانتباه يحب الرجل أن تكون زوجته

جميلة: حسنٌ ،لقد كانت لوسي فتاة جميلة، ولكن ليس إلى حد الجنون يحب الرجل أن تكون زوجته مصقولة الشخصية، لطيفة، عاطفية، وليست حمقاء، وجميع هذه الخصال تتمتع بها لوسي لم يدهش ستيفن من مشاعره نحوها، وكان مدركاً لرأيه السديد في تفضيل لوسي على الآنسة ليبرن، ابنة نائب بريطاني، على الرغم من أن لوسي كانت مجرد ابنة شريك ثانوي لوالده، بالاضافة إلى أنه كان عليه التغلب على خيبة أمله بوالده وأخواته - فرصة مواتية تجعل شاباً مثله يعي أن كرامة ينبغي صونها. أدرك ستيفن بأنه شاب مستقل، وله الحرية في اختيار الزوجة التي من المحتمل أن تجعله سعيداً، وأن يرضخ لأية اعتبارات غير مباشرة قرر أن يختار لوسي: كانت حبيبته صغيرة السن، وتمثل مثالاً للمرأة التي يحب

الفصل الثاني

الانطباعات الأولى

قالت لوسي: "إنه ذكي جداً يا ماغي". كانت منحنية على ركبتيها عند قدمي ماغي، بعد أن جلست تلك الآنسة السمراء في كرسي ناعم قرمزي اللون.

"إنني على ثقة بأنك سوف تحبينه. آمل أن لايخيب ظني".

قالت ماغي مبتسمة وهي ترفع واحدة من خصلات شعر لوسي الطويلة، التي التمعت تحت شعاع الشمس: "أحس أنني سوف أخيب ظنك. فالسيد الذي يعتقد بأنه محط إعجاب في نظر لوسي يجب أن يتوقع بأنه سيتعرض لانتقاد حاد".

"حقاً إنه رائع في نظري. وأحياناً عندما يكون بعيداً، أحس بأنه لايحبني حقيقة. ولا أشكُ أبداً في محبته عندما يكون برفقتي - بالرغم من أنني لاأطيق أن يعلم أي إنسان ما يدور في خلدي يا ماغي".

قالت ماغي مازحة: "أوه، إذاً إن لم أوافق عليه: باستطاعتك رفضه ما دمت لست مخطوبة له".

قالت لوسي غير عابئة كثيراً بدعابة ماغي: "أفضل أن لاأكون مخطوبة عندما يكون الشابان مخطوبين سوف يفكران في الحال بالزواج القريب. وبالنسبة لي أحب أن يجري كل شيء على طبيعته ولفترة طويلة. أشعر أحياناً بالخوف الشديد من أن يطرح ستيفن الموضوع على بابا، كما أخشى أن يصدر عنه تصرف في اليوم الآخر، إنني واثقة بأنهما يتوقعان ذلك. وأخوات ستيفن لايبدين لي مودة كبيرة. أعتقد أنهن لايحبذن اهتمام أخيهن بي، وهذا أمر طبيعي جداً. إذ يبدو أن مكاناً فسيحاً مثل بيت المنتزه لايناسب فتاة صغيرة، ليس لها شأن عظيم مثلي".

قالت ماغي ضاحكة: "لكننا لانتوقع أن يكون الناس ذوي قامات ضخمة قياساً بالمنازل التي يسكنون فيها: كالأفاعي مثلاً. ولكن هل لأخوات السيد ستيفن قامات ضخمة؟".

قالت لوسي بلهجة نصف مهذبة بعد هذه الملاحظة العنيفة: "أوه لا، إنهن غير جميلات، أقصد، لسن على قدر كبير من الجمال. لكنه - يبدو على الأقل أكثر وسامة بشكل عام".

"مع أنك غير قادرة على الاعتراف بذلك الرأي؟".

قالت لوسي وقد تورد جبينها وعنقها: "أوه، لاأعلم لاينبغي للمرء أن يطرح توقعات عشوائية، ربما يخيب أمله لقد أعددت له مفاجئة رائعة، سوف تثير البهجة في نفسه كثيراً، ومع ذلك لن أخبرك ما هي".

نهضت لوسي مبتعدة عن ماغي مسافة قصيرة وهي تميل برأسها الجميل على جانب واحد، وكأنها كانت تستعد لالتقاط صورة لماغي.

"قفي لحظة يا ماغي".

"والآن ما هي مفاجأتك السارة؟". قالت ماغي مبتسمة بفتور وهي تنهض من كرسيها، وتحدق من عل إلى ابنة خالتها النحيلة القامة.

تأملت لوسي تلك القامة الطويلة بصمت مدة من دقيقة أو اثنتين، ثم قالت: "لاأعرف سر جاذبيتك يا ماغي، الذي يجعلك تبدين بارعة الجمال في ملابسك الرثة، بالرغم من أنك بحاجة الآن لارتداء فستان جديد، ولكن هل تعلمين، كنت ليلة أمس أحاول أن أتخيلك تلبسين فستاناً أنيقاً على الطراز الحديث أتساءل كم كانت ماري أنطوانيت تبدو جميلة وهي ترتدي فستانها بأكمامه المرفوعة حتى المرفقين والآن، إن كان عليّ ارتداء ملابس رثة، عندئذ لن أثير انتباه أحد، سوف أبدو مجرد كتلة بالية".

قالت ماغي بسخرية حادة: "أوه، تماماً. سوف تكونين مضطرة للخروج خلسة من الغرفة، وستجدين نفسك في وضع حرج تماماً مثل ساندريلا. والآن هل يمكنني الجلوس؟".

"أجل، تستطيعين الجلوس". قالت لوسي ضاحكة، ثم استأنفت كلامها بجدية، وهي تنزع مشبكها كبير الحجم: "عليك أن تغيري هذه المشابك يا ماغي، فهي تجعلك تبدين حمقاء؟".

"لن تؤثر على جاذبيتي مع هذه الملابس الرثة التي أرتديها دوماً؟

قالت ماغي وهي تجلس باستسلام، بينما جثت لوسي ثانية وانتزعت ذلك المشبك الجدير بالازدراء. "كم أتمنى لو كانت ماما معجبة بي مثلك، ليلة البارحة كانت غاضبة وقلقة لأن هذا أفضل ثوب لدي لقد ادخرت نقودي لأتلقى بعض الدروس، لن أحظى بمكانة أفضل دون صقل شخصيتي وإتقان عمل ما".

أطلقت ماغي تنهيدة خفيفة.

قالت لوسي وهي تثبت مشبكاً كبير الحجم تحت عنق ماغي الجميل: "أنت تنسين بأنك تركت تلك المدرسة الداخلية الموحشة وما عدت تعرفين فتيات صغير لكي تصلحي لهن ملابسهن".

قالت ماغي: "أجل، أصبحت حالتي مشابهة لحالة ذلك الدب الأبيض المسكين القلق الذي شاهدته في المعرض. فكرت أنه لابد أن يتسم بالحماقة الشديدة بعد أن اكتسب عادة الاستدارة إلى الوراء وإلى الأمام في تلك المساحة الضيقة، حتى أنه وإن أطلقوا سراحه سوف يثابر على أداء الحركات نفسها. إن المرء يكتسب عادة سيئة كونه تعيساً".

"سوف أعلمك مبدأ السعادة الذي سيساعدك على التخلي عن تلك العادة السيئة "، قالت لوسي وهي تلصق المشبك الأسود اللون خلسة في ياقتها، بينما حدقت إلى ماغي بعاطفة جياشة.

قالت ماغي بنبرة ملؤها الإعجاب :

"حبيبتي الصغيرة، إنك تستمتعين كثيراً بإدخال السعادة إلى قلوب الآخرين، أعتقد أنك تعملين جاهدة لأجل سعادة الناس بدون أن يؤثر هذا على سعادتك أتمنى لو كنت مثلك".

قالت لوسي: "لاأحس بالتعب عندما أسعى لإسعاد الآخرين , طالما كنت أشعر بسعادة عارمة. لاأعرف إن كان بمقدوري تحمل الكثير من المصائب، لم أواجه أي مصيبة سوى موت ماما المسكينة. إنني واثقة يا ماغي من أنك قادرة تماماً على إسعاد الآخرين ومبادلتهم مشاعر طيبة كما أفعل أنا".

قالت ماغي وهي تهز رأسها ببطء :

"لا، لوسي لاأستمتع بإسعاد الآخرين كما تفعلين أنت - وإلا لكنت أكثر قناعة بقدري. أحس بالناس عندما يواجهون المصائب، ولا أظن أنَّ باستطاعتي جعل أي إنسان تعيساً، ومع ذلك غالباً ما ينتابني شعور بأنني أكره نفسي، لأنني أغضب أحياناً عندما أرى الآخرين سعداء. أعتقد أنني أصبح أسوأ كلما كبرت أكثر - وتزداد أنانيتي. يبدو لي الأمر فظيعاً للغاية".

قالت لوسي بلهجة احتجاج: "والآن يا ماغي، بالنسبة لي لاأؤمن بهذا المبدأ. كل هذا مجرد وهم كئيب - لأنك مصابة بالكآبة بسبب الحياة المرهقة والحزينة التي عشتها".

"حسنٌ، ربما "، قالت ماغي، وقد عزمت أمرها على إبعاد تلك الغيوم السوداء التي حامت فوق وجهها واستبدالها بابتسامة مشرقة وألقت بنفسها في كرسيها إلى الوراء.

"ربما مصدر كآبتي الحياة القاسية التي عشتها. دعينا نأمل الأفضل، ونقرأ هذا الكتاب الساحر لمؤلفه جيفري كريون"أخذت ماغي "الكتاب المسرحي "، الذي وضع أمامها على الطاولة.

"هل يبدو هذا المشبك الصغير مناسباً عليّ؟ "، قالت لوسي وهي تنظر إلى نفسها في مرآة الموقد.

"أو لا، سوف يضطر السيد غيست للخروج من الغرفة ثانية إن رآه على ثوبك أرجوك أسرعي، وضعي مشبكاً آخر".

أسرعت لوسي بالخروج من الغرفة، لكن ماغي لم تنتهز الفرصة لمطالعة كتابها: تركته يسقط عن ركبتيها، بينما جالت ببصرها نحو النافذة، حيث استطاعت رؤية أشعة الشمس وهي تلقي بنورها على مجموعة رائعة من الأزهار الربيعية وعلى سياج طويل من أشجار الغار - كما نشرت الشمس أشعتها الذهبية خلف ذلك السياج، وعلى امتداد نهر الفلوس الفضي الحنون، الذي بدا على هذه المسافة، وكأنه يغط في نومه في عطلة صباحية

انبعثت رائحة الحديقة الندية، العذبة من خلال النافذة المفتوحة، وكانت الطيور مشغولة بالتحليق تارة، واللجوء إلى أغصان الأشجار تارة أخرى، كانت تغرد، وتصدر أصوات غرغرة وبالرغم من هذه المشاهد التي تبعث الفرحة في النفوس، امتلأت عيني ماغي بالدموع تلك المناظر القديمة حرضت في ذاكرتها حوادث ماضية، وكأنها شهدت البارحة فقط أياماً ابتهجت فيها مع والدتها، وشاركت توم مشاعر الأخوة والصداقة.

إحساسها بالحرمان جعلها تتوق إلى الأيام الغابرة التي أصبح حاضرها زائلاً: فكرت في أن مستقبلها من المحتمل أن يكون أكثر سوءاً من ماضيها، فبعد سنوات من الشجب والاستنكار، اجتاحتها الرغبة العارمة والتوق الشديد للماضي: لكنها وجدت أياماً حزينة وقاسية - استرجعت ذكريات حياة بائسة، وقلقة صوت الباب المفتوح أفاقها من أحلام يقظتها، فمسحت دموعها بسرعة، وبدأت تقلب صفحات كتابها.

بدأت لوسي بالكلام حالما دخلت الغرفة: "أعلم يا ماغي، هنالك مصدر وحيد للسعادة، سوف لن تتمكن كآبتك الشديدة من مقاومتها أبداً. إنها الموسيقى، وأنوي أن أجعلك تنغمسين فيها. أريدك أن توقظي موهبتك ثانية في العزف، كما اعتدت أن تفعلي وبشكل أفضل مني عندما كنا في لاسهم".

قالت ماغي: "سوف تضحكين إن رأيتني أعزف للفتيات الصغيرات، فقط لأجل خاطر مداعبة مفاتيح البيانو الحبيبة ولا أعرف إن كان بمقدوري معاودة العزف، أظن أنني عاجزة الآن عن عزف أية أغنية أكثر صعوبة من أغنية "اذهب، فالرعاية كئيبة! "[1]

---

[1] اذهب فالرعاية كئيبة: أغنية من القرن السابع عشر.

قالت لوسي وهي تأخذ تطريزها: "أحس بالسعادة العارمة التي تكتنفك عندما تعزفين وفرقة الغناء الجماعي تلتف من حولك، وبمقدورنا استرجاع كل تلك الذكريات المبهجة، لو أنك فقط تسترجعين ثقتك بالقدرة على استئناف حياة سعيدة تاماً كما يفعل توم".

قالت ماغي مبتسمة: "أعتقد أنه لايوجد أي شيء على الإطلاق يمكنه كسب ثقتي".

"عليّ قول شيء محدد. إننا بحاجة إلى أصوات مميزة بلدة القديس أوغ تعيسة للغاية، وليس فيها موسيقيين محترفين في الواقع ليس هنالك سوى ستيفن وفيليب واكيم قادرين على الإلمام بالموسيقى". رفعت لوسي ببصرها عندما لفظت الجملة الأخيرة، فشاهدت تغيراً في وجه ماغي

"هل يزعجك أن تسمعي هذا الاسم يا ماغي؟ إن أزعجتك، لن أتفوه باسمه ثانية أعرف أن توم يتحاشى رؤيته قدر ما يستطيع".

"لاأكترث لما يفعله توم"، قالت ماغي، وهي تنهض باتجاه النافذة، وكأنها أرادت مد بصرها على أفق أكثر اتساعاً.

"طالما كنت أحمل مشاعر طيبة لفيليب واكيم منذ صغري، عندما تعرفت عليه في لورتن. لقد كان طيباً للغاية ومتسامحاً مع توم عندما جرح قدمه".

قالت لوسي: "أوه، إنني جد سعيدة! إذاً لن تمانعي في مجيئه في بعض الأحيان، وبذلك نستطيع العزف والغناء بشكل أفضل مما لو كنا دونه. إنني معجبة جداً بفيليب واكيم، وأتمنى لو لم يكن كئيباً ومهموماً بسبب عاهته أعتقد أن تشوهه هو السبب في حزنه الشديد - وإحساسه بالمرارة أحياناً. بالتأكيد من المثير للشفقة رؤية جسده الأحدب صغير القد ووجهه الشاحب وسط أناس ذوي أجساد قوية وضخمة".

"ولكن، لوسي"، قالت ماغي، محاولة كبح جماح موجة الثرثرة المتدفقة تلك....

"آه، إنه جرس الباب لابد أن الطارق هو ستيفن"، تابعت لوسي، بدون أن تلاحظ ماغي وهي تبذل جهداً ضئيلاً لكي تتكلم "من المزايا التي تجعلني معجبة بستيفن، أنه صديق رائع لفيليب أكثر من أي شخص آخر".

ليست الفرصة مواتية الآن لكي نتكلم يا ماغي: حيث فتح باب ردهة الاستقبال، وكان ميني قد زمجر قليلاً لدى دخول شاب طويل القامة، اتجه نحو لوسي ممسكاً بيدها وهو يرمقها بنظرة مهذبة، وحنونة إلى حد ما، وبدا غير مدرك لوجود أي شخص آخر.

"دعني أقدم لك ابنة خالتي، الآنسة توليفر "، قالت لوسي، وهي تستدير باستمتاع نحو ماغي بطريقة خبيثة.

"هذه هو السيد ستيفن غيست".

في لحظة ما لم يكن بوسع ستيفن إخفاء دهشته من رؤية هذه الحورية ذات القامة الطويلة والعينين الداكنتين والشعر الحالك السواد، ولأول مرة أحست ماغي بالخجل من رؤية شخص ينحني لها باحترام شديد حتى أنها توردت كثيراً.

هذه التجربة الجديدة كانت مستساغة لها جداً - مستساغة لدرجة أنها طغت على عاطفتها السابقة اتجاه فيليب.

ظهر وميض جديد في عينيها، وتوردٌ شديد على خديها، وهي تجلس.

قالت لوسي، وهي تضحك منتشية بانتصارها: "آمل أنك أدركت مدى صحة توقعاتك، التي أدليت بها البارحة".

كانت مستمتعة جداً وهي ترى حبيبها مرتبكاً.

"لقد خدعتني ابنة خالتك هذه، يا آنسة توليفر "، قال ستيفن، وهو يجلس بالقرب من لوسي، وينحني ليداعب ميني - وهو ينظر خلسة إلى ماغي "قالت لي بأن شعرك أشقر وعينيك زرقاوان".

احتجت لوسي: "لا، أنت من قلت هذا. أردت فقط أن لاأضعف ثقتك بحاستك السادسة".

قال ستيفن: "أتمنى دائماً أن يخطئ حدسي، وأواجه واقعاً أجمل بكثير مما توقعته".

قالت ماغي: "لقد أثبت الآن بأن قادر على التأقلم مع المفاجآت ،وقلت أشياء ملزم بقولها في ظل ظروف كهذه".

توردت قليلاً وهي تنظر إليه: "بدا واضحاً بالنسبة لها أنه كان يحيك مسبقاً مخططاً ساخراً عنها. قالت لوسي بأنه شخص يميل للسخرية، وأضافت ماغي من عندها - "ومخادع إلى حد ما".

الانطباع الأول عن ستيفن كان، "شيطان يثير الرعب". الانطباع الثاني، عندما انحنت لتتابع تطريزها، كان، "أتمنى لو تنظر إليّ ثانية". وكان الجواب: "أعتقد أن جميع كلمات الإطراء نابغة من إحساس حقيقي، يكون الرجل شاكراً بالفعل عندما يقول "أشكرك". من الصعوبة بالنسبة له استعمال كلمات مماثلة يتداولها الجميع - ألا تعتقدين ذلك، يا آنسة توليفر؟".

قالت ماغي وهي تنظر إليه بشكل مباشر: "لا، عندما نستعمل كلمات شائعة

في مناسبات عظيمة، تبدو لافتة للنظر، لأننا نحس على الفور بأنها تحمل في طياتها معاني مماثلة لتلك التي تحمل اليافطات (المانشيتات) القديمة، أو تبدو مثل الملابس اليومية المعلقة في مكان مقدس".

قال ستيفن، ولم يدرك حقيقة ما الذي قاله عندما نظرت إليه ماغي: "إذاً يجب أن أستعمل مديحاً بأسلوب فصحي حتى يرتقي بمستوى المناسبة".

"لايمكن لمديح أن يكون فصحياً، إلا إذا كان مجرد تعبير لامبال". قالت ماغي وقد توردت قليلاً.

أحست لوسي بالذعر إلى حد ما: اعتقدت أن ستيفن وماغي لن يصبحا صديقين.

كانت تخشى دائماً أن تبدو ماغي غريبة الأطوار أمام ذلك الشاب الساخر. تدخلت بينهما: "لماذا، حبيبتي ماغي، إنك دائماً تشعرين بالسعادة عندما يبدي أحدهم إعجابه بك، لكنك الآن، كما أعتقد، تتذمرين لأن شخص ما يغامر بإبداء إعجابه بك".

قالت ماغي: "لا، على الإطلاق. أحب أن أكون محط إعجاب الآخرين، لكن كلمات الإطراء لاتجعلني أحس بالسعادة".

قال ستيفن: "لن أسمعك مديحاً مرة أخرى آنسة توليفر".

"أشكرك، هذا إثبات على احترامك لي".

يا لماغي المسكينة! إنها ليست معتادة على أجواء المجتمع حتى أنها تعجز على التعامل مع أمور كهذه كمسألة اعتيادية، وهي التي عاشت حياتها بصدق، لاتنطق كلماتها لمجرد الكلام، لذلك كان لابد أن تختلف عن أولئك السيدات اللواتي لهن خبرة بالمجتمع، واللواتي يبالغن في مشاعرهن أثناء مناسبات سخيفة للغاية.

ولكنها أدركت أنها مختلفة عن الأخريات في هذه اللحظة. صحيح أنها أبدت اعتراضاً ظاهرياً على كلمات المديح والإطراء، وقالت مرة لفيليب وبأسلوب غير مهذب، أنها لاترى سبباً مقنعاً في مديح النساء بشكل متكلف وإقناعهن بأنهن جميلات، تماماً مثلما نقول للمسنين بأن مظهرهم يوحي بالوقار: ومع ذلك فإن اضطرابها أثناء وجود السيد ستيفن غيست، واهتمامها بحديثه عنها باستخفاف قبل أن يراها، كان بالتأكيد أمراً غير معقول، وحالما لاذت بالصمت بدأت تشعر بالخجل من نفسها. لم يحدث أنها اضطربت بسبب إحساسها بعاطفة ممتعة، تماماً مثل شعورنا بالرضا عندما نعتاد على طقس حار، وتسقط علينا قطرة بريئة من الماء البارد فنحس بوخزه مفاجئة.

كان ستيفن شاباً حسن التربية، وبدا أنه قد أدرك خلفية المحادثة السابقة والإرباكات التي انعكست عنها، لذلك شرع في الحال بالحديث عن مسائل عملية، فسأل لوسي عن موعد البازار، وهكذا أصبح الجو مناسباً لمراقبتها عن كسب وبشكل عفوي، وتأمل نظراتها وردود فعلها من المواضيع المطروحة.

أجابت لوسي: "أعتقد يوماً ما خلال الشهر القادم لكن أخواتك مستعدات للبازار أكثر مني: سيحصلن على أكبر منصة لعرض المبيعات".

"آه، أجل، إنهن يشتغلن مصنوعاتهن في غرفهن الخاصة، حيث لايمكنني التطفل عليهن. ألاحظ أنك لست مهتمة بتطريز ملابس مزخرفة على الطراز الحديث، آنسة توليفر".

قالت ماغي: "لا، ليس باستطاعتي خياطة ملابس ممتعة وأنيقة، لاأجيد سوى خياطة القمصان".

قالت لوسي: "خياطتك البسيطة رائعة الجمال يا ماغي حتى أنني أفكر في أخذ نموذج منها لعرضه في البازار. يبدو لي أن خياطتك المنتقاة بعناية لغز محير - إذ طالما كنت تمقتين هذا النوع من الخياطة البسيطة".

قالت ماغي وهي ترفع بصرها بهدوء: "إنه لغز من السهل تفسيره يا عزيزتي، فالخياطة البسيطة هي المصدر الوحيد الذي يدر عليّ المال، لذلك فأنا مضطرة للمحاولة وإتقان العمل أكثر".

لوسي، ببساطتها وطيبتها المعهودتين، تورّدت قليلاً: لم ترغب أن يسمع ستيفن مثل هذه الكلمات الواضحة من ماغي ربما كان هنالك شيء من الإحساس بالفخر في اعتراف من ذلك النوع: الاعتزاز والفخر بالفقر الذي لن يكون مصدر عار تخجل منه ماغي، التي اخترعت وسيلة أخرى لإثارة جمالها في نظر ستيفن: لست على ثقة من أن الاعتراف الهادئ بخياطة ملابس بسيطة والاعتزاز بالفقر يكفيان لجعل المرء يبدو جميلاً. لكن هذا التواضع والصدق، قد أسعفهما الجمال، وساعدا ماغي في أن تبدو مختلفة عن النساء الأخريات أكثر مما بدت عليه في السابق.

تابعت ماغي: "ولكن باستطاعتي أن أُحيكَ ملابس قد تنفع للعرض في البازار يا لوسي".

"أوه، بالطبع سوف تنفع. سوف تحيكين غداً ملابس صوفية قرمزية اللون لكن أختك من أكثر النساء الماهرات في النحت"، تابعت لوسي وهي تستدير نحو ستيفن، "لديها موهبة في رسم صور من مخيلتها. إنها تصنع تمثالاً رائعاً للدكتور كين استوحته بشكل كلي من خيالها الواسع".

"لم، لا، إن كان بمقدورها رسم العينين قريبتين جداً من بعضهما البعض، ورسم زوايا الفم بعيدين جداً عن بعضهما، فصنع تماثيل مشابهة للأشخاص أمر ملفت للانتباه في بلدة القديس أوغ".

قالت لوسي، وقد بدا عليها التضايق: "تبدو فظاً للغاية ليس من اللائق أن تتكلم عن الدكتور كين بهذه اللهجة التي تخلو من الاحترام".

"لم أتكلم بعدم احترام عن الدكتور كين؟ حاشا لله! لكنني لست ملزماً باحترام تمثال تشهيري له أعتقد أن الدكتور كين من أكثر الأشخاص وسامة في العالم لكنني لاأكترث كثيراً لذلك الشمعدان الطويل الذي يضعه على طاولة العشاء الرباني، ولست على استعداد لتفكير مزاجي بالاستيقاظ باكراً كل صباح لتأدية صلوات مبكرة لكن الرجل الوحيد من بين كل الأشخاص الذين عرفتهم بشكل شخصي، يتميز بقدرته على العطاء - رجل مقتنع بأن يكون أثاث منزله من خشب الشوح، وينفق ثلثي دخله من أجل الفقراء. إنها ميزة رائعة يتحلى بها - لقد آوى في منزله ذلك الغلام المسكين غراتن الذي أطلق النار على والدته بالخطأ.

يقدم التضحيات لإنقاذ ذلك الفتى المسكين أراه دائماً يصطحبه معه".

"هذا رائع حقاً "، قالت ماغي وهي تسقط تطريزها على الأرض، وتصغي باهتمام "لم أسمع أبداً عن أي إنسان يفعل أشياء كهذه".

قال ستيفن: "ولا بوسع المرء إلا أن يكنَّ الإعجاب لشخص مثل كين إن الرجل خلوق للغاية".

قالت لوسي: "آوه، أعتقد أنه رجل كامل!".

قال ستيفن وهو يهز برأسه باستهزاء: "لا، لاأوافقك الرأي".

"والآن، ما هو النقص الذي تراه فيه؟".

"إنه أنجليكاني".

قالت لوسي باهتمام: "حسنٌ، أعتقد أن هؤلاء لديهم أفكار صائبة".

قال ستيفن: "هذا يجعل المسألة مجردة، ولكن من وجهة نظر برلمانية فالأمر مختلف فهو يفرق في تعامله بين المنشقين وأولئك الذين يترددون على الكنيسة بانتظام، وسيناتور مناهض مثلي، قدم خدمات جليلة للبلد، يجد معاملة كتلك غير مناسبة عندما ينال شرف تمثيل البرلمان في بلدة القديس أوغ".

"هل تفكر حقاً في تمثيل البرلمان؟ "، قالت لوسي، وقد تألقت عيناها بفخر وسعادة حتى أنها نسيت الخوض في جدال حول مسألة الأنجليكانية".

"بالتأكيد - ولاسيما أن السيد ليبرن العجوز أصيب بداء النقرس وضعفت

شعبيته، بالاضافة إلى المواهب التي أتحلى بها "— هنا يتباهى ستيفن بنفسه، ويفرك شعره بيديه الكبيرتين البيضاويين بمرح وهو معجب بنفسه كثيراً".

"المواهب التي أتميز بها تتطلب مني مسؤوليات عظيمة ألا تعتقدين ذلك آنسة توليفر؟".

قالت ماغي مبتسمة دون أن تنظر إليه: "أجل، لاينبغي لمثل هذه الطلاقة والاعتداد بالنفس أن تضيعا سدى في مناسبات خاصة".

قال ستيفن: "آه، ألاحظ أنك نافذة البصيرة".

"لقد اكتشفتَ مسبقاً بأنني ثرثارة وجريئة أعتقد أن الناس السطحيين لايلاحظون ذلك - ولا يدركون بأنها سمات أخلاقية".

فكر ستيفن بينما كانت مستمعتاه تضحكان: "لم تكن تنظر إليَّ عندما تحدثت عن مواهبي لابد أن أطرح أحاديث أخرى".

هل تنوي لوسي حضور معرض الكتاب في الأسبوع القادم؟ كان ذلك سؤالاً مطروحاً. وكعادته شرع ستيفن في مناقشة مواضيع لاتعرف عنها النساء أي شيء، لكي يلفت انتباههن، ويثير إعجابهن بعلومه الواسعة بدأ يتحدث عن بحث باكلاند[1]، الذي قرأه للتو. انشرح صدره عندما شاهد ماغي تهمل عملها وتدعه يسقط على الأرض، وبالتدريج انهمكت كثيراً في قصته الرائعة التي تتحدث عن علم الجيولوجيا حتى أنها جلست تحدق به باهتمام، وهي تتكئ إلى الأمام بذراعين متشابكتين، ولم تنتبه إلى نفسها وكأنها كانت تجلس قبالة بروفيسور مخضرم.

كان مفتوناً للغاية بهذه النظرة الواضحة والمعمقة، حتى أنه نسي أخيراً أن يعير أي اهتمام للوسي، لكن تلك الطفلة الرقيقة كانت مبتهجة لأن ستيفن يسعى جاهداً ليثبت إلى ماغي كم أنه شاب ذكي، وبذلك من المؤكد أن يصبحا صديقين ودودين بعد كل هذا العناء.

"سوف أحضر لك الكتاب، هل أحضره آنسة توليفر؟ "، قال ستيفن عندما أدرك بأن ذاكرته لاتسعفه إلا بمعلومات سطحية عن الكتاب هناك شرح مستفيض في الكتاب سوف ترغبين بقراءته".

"أوه، أشكرك "، قالت ماغي، وقد توردت بعد توجيه الكلام إليها بشكل مباشر، فتناولت عملها واستأنفته من جديد.

تدخلت لوسي: "لا، لا. يجب أن أمنعك من إقحام ماغي في قراءة الكتب،

---

[1] بحث عن علم الجيولوجيا للمؤلف وليام باكلاند (1786 - 1856).

سوف تبتعد عني إن انشغلت كثيراً بقراءة الكتب، وهي بحاجة لقضاء وقت ممتع في الركوب بالزورق، ومبادلة الأحاديث، والنزهات وقيادة العربة: إنها بحاجة لوقت من الراحة".

قال ستيفن وهو ينظر إلى ساعته: "لدي اقتراح! هل نذهب في نزهة بالقارب الآن؟ سوف تكون حركة المد مناسبة لنا لكي نسلك طريق توفتن، وباستطاعتنا العودة مشياً على الأقدام".

كان الاقتراح مبهجاً بالنسبة لماغي، لأنها لم تخرج في نزهة إلى النهر منذ عدة سنين عندما ذهبت لترتدي قبعتها، مشت لوسي الهوينى لكي تعطي الأوامر للخادمة، وانتهزت الفرصة لتخبر ستيفن بأن ماغي على استعداد لمقابلة فيليب وليس لديها أي اعتراض، لذلك كان من المحزن أنها أرسلت تلك المذكرة له قبل البارحة ستكتب رسالة أخرى غداً وتدعوه لمقابلة ماغي.

قال ستيفن: "سأدعوه غداً، وأحضره معي عند المساء، هل هذا مناسب؟ سوف ترغب أخواتي بزيارتك إن علمن بأنك تستضيفين ابنة خالتك هنا".

قالت لوسي: "أوه، أجل، أرجوك أحضره معك سوف تسعد ماغي كثيراً، وتكون شاكرة لك، أليس كذلك؟ "أضافت بنبرة متوسلة "أليست مخلوقة نبيلة وبهية الطلعة؟".

قال ستيفن مبتسماً: "إنها فارعة الطول، وشرسة قليلاً. تعلمين أنها لاتمثل النموذج الذي أفضله من النساء".

أعزائي القراء، من يملك منكم القدرة على التفكير بشكل منطقي أكثر مما ينساق وراء تصديق ما ينطق به اللسان فقط سوف يدرك بخياله أن ستيفن الذي لم يبد إعجابه بماغي علناً، كان يعلم أنه خلال هذه الرحلة البحرية سوف تعطيه ماغي يدها مرتين على الأقل لكي يساعدها في الصعود والنزول من القارب ماذا إذاً؟ هل وقع في حب هذه الفتاة المدهشة من النظرة الأولى؟ بالتأكيد لا.

عواطف كهذه لانسمع عنها أبداً في الحياة الواقعية بالاضافة، إلى أنه وقع في الحب من قبل، وهو مرتبط تقريباً بأعز مخلوقة صغيرة في العالم، وليس هو بالرجل الأحمق حتى يضع نفسه في موقع حرج بهذه الطريقة

ولكن شاباً مثله في ربيعه الخامس والعشرين لابد أن يتأثر كثيراً عندما تبدي فتاة وسيمة إعجاباً به ومن الطبيعي أن يستمتع بجمالها وبنظراتها المعمقة، على الأقل في ظل هذه الظروف الراهنة

و حقيقة الأمر أنه يوجد شيء ما يثير الانتباه في هذه الفتاة، فقرها

ومشاكلها: وما يبعث على السرور أن يرى المرء عمق الصداقة بين فتاة وابنة خالتها. بشكل عام، اعترف ستيفن أنه لم يكن مغرماً بالنساء اللواتي يتميزن بشخصيات غريبة - ولكن يبدو هنا أن الغرابة قد فاقت الحدود، والرجل ليس مضطراً للزواج بهذا النمط من النساء، لماذا، بالتأكيد لأنهن يحدثن تغييراً ملحوظاً في العلاقات الاجتماعية.

خيبت ماغي أمل ستيفن، ولم تعره اهتماماً في أول ربع ساعة: كانت منهمكة جداً بتأمل الضفاف القديمة التي عرفتها جيداً. أحست بالوحدة، وهي بعيدة عن فيليب - الشخص الوحيد الذي أحبها بكل إخلاص، عندما كانت في أمس الحاجة للحب ولكن في الحال، استرعت انتباهها حركة التجديف المتناغمة، وفكرت بأنه يمكنها تعلم كيفية التجديف أيقظتها هذه الفكرة من حلم يقظتها، وطلبت من ستيفن أن تأخذ أحد المجدافين بدا واضحاً أنها بحاجة لكثير من التدريب، وبأنها طموحة للغاية لنيل المراد. جعلها التدريب أكثر حمية فتدفقت الدماء بحرارة إلى رأسها وتورد خداها، وكانت ميالة لتلقي درسها بمرح.

قالت ماغي، وقد بدت متألقة وهي تجدف: "لن أكون راضية عن نفسي حتى أمسك بالمجدافين معاً، وأبحر بك أنت ولوسي".

نعلم أن ماغي كانت متحمسة حتى أنها نسيت ما كانت تفعله، واختارت لحظة غير مناسبة للإدلاء بملاحظتها: انزلقت قدمها، لكن السيد ستيفن أمسك يدها بكل سعادة، وجعلها تحافظ على توازنها بقبضته المحكمة.

"آمل ألا تكوني قد تأذيت على الإطلاق؟ "، قال وهو ينحني محدقاً في وجهها بقلق بدا الأمر في غاية الجاذبية عندما تتلقى فتاة الرعاية والاهتمام أكثر قوة وطولاً منها. لم تحس ماغي أبداً بمثل هذا الشعور من قبل.

عندما عادوا للمنزل ثانية، وجدوا العم والخالة بوليت جالسين مع السيدة توليفر في ردهة الاستقبال، فاستعجل ستيفن الرحيل، واعداً بالعودة مساءً.

قالت لوسي: "أرجوك أحضر معك مجلد بيرسل الذي أخذته أريد أن أسمع ماغي أفضل أغنياتك".

الخالة بوليت التي كانت واثقة من أنه سوف توجه دعوة إلى ماغي لترافق لوسي إلى المنتزه، أصيبت بالصدمة عندما رأت ماغي في تلك الملابس الرثة، وهذا سوف يلحق عاراً بالعائلة من الصعب إصلاحه في حال اختلطت بالمجتمع الراقي في بلدة القديس أوغ. لذلك كان من الأنسب اختيار بعض الملابس من خزانة السيدة بوليت العامرة بها.

في الواقع يجب على ماغي ارتداء فستان للسهرة بأسرع وقت ممكن، ولاسيما أن لها نفس قياس السيدة بوليت

قالت السيدة بوليت: "لكنها عريضة عند المنكبين أكثر مني - وسوف يبدو عليها الفستان غير مناسب، وإلا عليها ارتداء ذلك الثوب الأسود اللون المطرز دون إجراء أي تغييرات عليه". أضافت السيدة بوليت بحزن، وهي ترفع ذراع ماغي الكبيرة الحجم: "لن تناسبها الأكمام".

قالت لوسي: "أوه لاتزعجي نفسك بهذا الأمر يا خالة: أرجوك أرسلي لنا فقط ذلك الفستان".

"لاأقصد بأن ماغي تحتاج لأكمام طويلة، لدي وفرة في القماش الأسود باستطاعتها استعماله للزركشة سوف تبدو ذراعاها جميلتين".

قالت السيدة توليفر: "لدى ماغي ذراعان جميلتان إنها تشبهني - لكن ذراعي بيضاوي اللون، أتمنى لو كان لها سحنة عائلتنا".

قالت لوسي وهي تربت على كتف خالتها توليفر: "ما هذا الهراء يا خالتي! أنت لاتفهمين أشياء كهذه سوف يعجب الرسام بجمال سحنة ماغي".

قالت السيدة توليفر بخضوع: "ربما يا حبيبتي فأنت تعرفين بهذه الأمور أكثر مني لكن الناس المحترمين لايحبذون ذوات البشرة السمراء".

قال العم بوليت، الذي وجد شيئاً مهماً للغاية في حديث السيدات بينما كان يمتص سكا كره: "لا، بالرغم من أن هنالك أغنية عن "الفتاة الشقراء "[1]، لكنني أعتقد أنها كانت مجنونة - قطة مجنونة - ولكن لاأستطيع تذكر الأغنية تماماً".

"أوه عزيزي، عزيزي! "، قالت ماغي، ضاحكةً، ولكن بصبر نافذ، "أعتقد أن هذا سيضع حداً للحديث عن سحنتي السمراء، إن طال النقاش كثيراً على هذا المنوال".

---

[1] قصيدة غنائية من القرن الخامس عشر.

الفصل الثالث

لحظات سرية

عندما صعدت ماغي إلى غرفتها في تلك الليلة، بدا واضحاً أنها لاتميل على الإطلاق إلى الخلود للنوم وضعت شمعتها على أول طاولة قريبة منها، وأخذت تتمشى جيئةً وذهاباً في غرفتها الواسعة الأرجاء، وبخطوات ثابتة منتظمة، سريعة إلى حد ما، والتي أظهرت بوضوح أنها كانت تنفس عن مشاعر فياضة استمتعت بها للحظات أثناء التدريب على التجديف تألقت عيناها وخداها بشكل محموم، دفعت برأسها إلى الوراء، وشبكت يديها ببعضهما بعضاً موجهة راحتي كفيها إلى الخارج، وكان ذلك الوضع التشابكي المتوتر مناسباً لحالة الاستغراق الفكري.

هل حدث أي شيء مثير للاهتمام؟

لا شيء من المحتمل يمكن أن تعتبره مهماً من الدرجة الممتازة كانت تسمع أغنية عذبة الألحان - تصدر عن صوت حنون - ثم تحولت إلى أغنية محلية يغنيها هاوٍ على الطراز الحديث، بحيث تترك أثراً سلبياً لدى المستمع الحاذق ومن تحت حاجبين أفقيين مرسومين بإتقان، ومضت نظرة بدا واضحاً أنها انشدّت تحت تأثير ذلك الصوتأشياء كهذه لاتعمل أثراً قوياً في نفس شابة نالت ثقافة جيدة، وتميزت بفكر متوازن بشكل تام، وحظيت بمنافع ثروة مجتمع مهذب، وتدربت على مختلف العلوم والمهن الراقية ولو كانت ماغي هي تلك الشابة، فمن المحتمل عزيزي القارئ ألا تعرف أي شيء عن حياتها: عندئذ سوف تخلو حياتها من أي شيء يستحق الذكر أو الكتابة، لأن النساء الأكثر رفاهية مثل الأمم السعيدة، ليس لديهن تاريخ.

أما في حالة ماغي المسكينة ذات الأعصاب المتوترة، والروح المتعطشة - والتي تركت مدرسة من الدرجة الثالثة وانشغلت بمهام تافهة - هذه المسائل السخيفة لابد أن تحدث أثرها السلبي وتهيج مشاعر وخيال ماغي بطريقة غامضة حتى هي نفسها لم تعرف ماهيتها.

لم تتدفق مشاعرها إعجاباً بالسيد ستيفن غيست، ولم يهدأ بالها لأنه أمعن بها بإعجاب، كل ما في الأمر أنها عثرت على عالم الحب والجمال والسعادة المغيَّب عنها، عالم يتضمن الغموض وصوراً متنوعة من كل أطياف الشعر والرومانسية التي قرأت عنها، أو تخيلتها في أحلام يقظتها. استرجعت في ذاكرتها

مرة أو مرتين لحظات الوحدة التي طالما أحست بها، لكن تلك الحالة ولّت بلا رجعة، وتراجعت عن التفكير بها أو تذكرها.

كانت الموسيقى عنيفة أثارت هدوءها - موسيقى بيرسل، بقدرتها على تنشيط المخيلات والعاطفة القوية فلم تتمكن من البقاء أسيرة لذكريات ذلك الماضي البائس والمنعزل عادت ثانية إلى ألقها وإشراقتها عندما لاحظت بأن الباب يفتح: بالطبع كانت ابنة خالتها التي دخلت الغرفة ثوبها الأبيض اللون الفضفاض.

قالت لوسي مندهشة: "لماذا، ماغي، إنك طفلة مشاكسة، ألم تستعدي للنوم بعد؟ وعدتك بأن لاأحضر إلى هنا لاعتقادي بأنك مرهقة، وتريدين النوم فوراً. تبدين وكأنك تستعدين لحضور حفلة رقص هيا، هيا، ارتدي ملابسك، وسرحي شعرك".

"حسنٌ، يبدو أنك غير مستعدة كثيراً للنوم "، أجابت ماغي بسرعة، وهي تأخذ ثوبها القطني الوردي اللون، وتنظر إلى شعر لوسي الأشقر والمسرّح إلى الخلف بشكل فوضوي.

"أوه، ليس لدي أي شيء أفعله سوف أجلس، وأتبادل معك أطراف الحديث حتى أشعر حقيقة بأنك استسلمت للنعاس".

بينما وقفت ماغي تسّرح شعرها الطويل الأسود المنساب على ثوبها، جلست لوسي بالقرب من الطاولة، تراقبها بحنان، وهي تميل برأسها جانباً، مثل كلبة جميلة.

إن تبادر إلى ذهنك عزيزي القارئ وأعتقدتَ أنه من غير المعقول أن تتحدث سيدات شابات عن أسرارهن في وضع كهذا، أستميحك عذراً، وأذكرك بأن الحياة البشرية تؤسس ظروفاً لحالات استثنائية عديدة.

"هل استمتعت الليلة بسماع الموسيقى يا ماغي؟".

"أوه، أجل، هذا ما منعني من الإحساس بالنعاس أعتقد أنني عندما أستمع دائماً للموسيقى، لن تكون لدي مطالب دنيوية أخرى للموسيقى أثر قوي في نفسي، إنها تمنحني القوة والنشاط، وتضخ الأفكار إلى عقلي بغزارة

عندما أنتشي بسماع الموسيقى، أحس بأن الحياة سهلة، ولا تتطلب منا أي جهد كي نستمر فيها. أما الأوقات التي لاأسمع فيها الموسيقى، فتبدو ثقيلة تربض بقسوة فوق صدري".

"وستيفن يملك صوتاً رائعاً، أليس كذلك؟".

قالت ماغي وهي تضحك، وتقذف بشعرها الطويل إلى الوراء: "حسنٌ ربما

لايحق لواحدة منا أن تحكم على صوته فأنت متحيزة معه، وأنا أعتقد أن أي صوت أسمعه يكون في غاية الروعة".

"أخبريني ما هو رأيك فيه بالضبط قولي بوضوح".

"أوه، أعتقد أن عليك أن تروضيه قليلاً. لاينبغي للعاشق أن يحس بالراحة، وبالثقة بالنفس. عليه أن يرتعش من الحب".

"هذا هراء يا ماغي! وكأنه بوسع أي شخص أن يرتعش أمامي! أعلم - أنك تعتقدين بأنه مخادع، ولكنك لاتحملين له الكراهية، أليس كذلك؟".

"أكرهه! لا. وهل من عادتي أن أحمل الكراهية للناس، وأنا من أجد صعوبة في بلوغ السعادة؟ بالاضافة إلى ذلك، هل بمقدوري أن أكره شخصاً سوف يحقق لك السعادة، يا حبيبتي!".

قرصت ماغي ذقن لوسي المغمز.

قالت لوسي بسعادة: "سوف نستمع بالمزيد من الموسيقى مساء الغد، لأن ستيفن سوف يحضر معه فيليب واكيم".

قالت ماغي وقد أصبحت شاحبة: "أوه لوسي، لايمكنني رؤيتهعلى الأقل، لاأستطيع مقابلته إلا خفية عن توم".

قالت لوسي مشدوهة: "هل توم مستبد إلى هذه الدرجة؟ إذاً سوف أتحمل المسؤولية - أخبريه بأنه خطئي".

قالت ماغي متلعثمة: "ولكن، حبيبتي، لقد عاهدت توم بكل صدق - قبل وفاة والدي - عاهدته بأن لاأكلم فيليب دون معرفته وموافقته وأخشى أن أفاتح توم بالموضوع - حتى لاأتشاجر معه ثانية".

"ولكنني لم أسمع أبداً أي شيئاً غريباً وغير مقبول قيل عنه إذاً ماذا بوسع فيليب المسكين أن يفعل؟ هل يمكنني التحدث مع توم بشأنه؟".

قالت ماغي: "أوه، لا، أرجوك لاتفعلي. سأحدثه بنفسي غداً، وأخبره بأنك أنت من ترغبين بحضور فيليب فكرت من قبل بأن أطلب منه أن يحلني من وعدي ولكنني لاأملك الشجاعة الكافية لجزم أمري".

ساد الصمت لبضع لحظات، ثم قالت لوسي: "ماغي، إنك تخفين عني أسرارك، بينما أصارحك بكل شيء".

أشاحت ماغي بوجهها بعيداً عن لوسي وهي مستغرقة بالتفكير. ثم استدارت نحوها وقالت: "لابد أن أخبرك عن فيليب ولكن عليك أن تحفظي السر يا لوسي، ولا تبوحي به أمام أي إنسان على الإطلاق حتى فيليب نفسه، أو إلى السيد ستيفن غيست".

دام سرد الحكاية لفترة طويلة، لأن ماغي لم تعرف أبداً طعم الراحة التي يحس بها المرء عندما يفشي كُلَّ أسراره أمام إنسان عزيز على قلبه: لم تكن قد أخبرت لوسي من قبل عن أدق التفاصيل في حياتها، فانحنى ذلك الوجه الجميل نحوها مصغياً باهتمام عاطفي، وكانت اليد الصغيرة تضغط عليها، وتشجعها على متابعة الكلام هناك موضوعان لم تستطع التوسع في شرحهما أو أن تكون منشرحة الصدر بعد البوح بهما، فالغضب لايزال يكتنفها كلما تذكرت الإهانات التي وجهها توم إلى فيليب لم تتحمل على الإطلاق أن يعلم أي إنسان بالأمر - لأجل خاطر توم وفيليب معاً. ولم تتمكن من إخبار لوسي بالمشهد الأخير الذي دار بين واكيم ووالدها، بالرغم من أن هذا المشهد هو الذي جعلها تحس بوجود عائق جديد بينها وبين فيليب اكتفت بالقول بأن توم كان على حق في تقديره للأمور، وأن مسألة الحب والزواج بفيليب تتعلق بالعائلتين معاً. بالطبع لن يوافق والد فيليب أبداً.

قالت ماغي مبتسمة والدموع تترقرق في عينيها: "والآن ها قد علمت بقصتي تلاحظين أنني أشبه السير أندرو آغوشيك[1] - لقد جربت العشق مرة".

قالت لوسي: "آه، أدرك الآن أنك تعرفين كل شيء عن مؤلفات شكسبير، وبأنك تعلمت الكثير منذ تركت المدرسة، ولطالما كان يبدو لي هذا بمثابة سحر - أو جزء من غرابتك وغموضك بشكل عام".

استغرقت في التفكير قليلاً وهي تحدق للأسفل، ثم أضافت وهي تنظر إلى ماغي: "إنه لأمر رائع للغاية أن تحبي فيليب: أعتقد أنه لن يحظى بمثل هذه السعادة وحسب رأيي، لايجب أن تتخلي عنه أبداً. صحيح أنه توجد الكثير من العقبات أمامكما، ولكنها سوف تزول مع مرور الوقت".

هزت ماغي برأسها.

تابعت لوسي: "أجل، أجل إنني متفائلة بخصوص هذا الأمر. إنه حب فيه شيء من الرومانسية - حب استثنائي خارج عن المألوف بين البشر - وما قدّر لك سوف يحدث لامحالة. سوف يهيم بك فيليب مثل الزوج الذي يحكى عنه في القصص الخيالية أوه، سوف أسعى جاهدة لإقناع الآخرين به، عندئذ تتزوجين فيليب عندما أتزوج - بشخص آخر. ألن يكون هذا الحل نهاية سعيدة لكل مشاكل حبيبتي ماغي البائسة؟".

حاولت ماغي أن تبتسم، لكنها ارتجفت وكأنها أحست بقشعريرة مفاجئة.

---

[1] أحدى شخصيات شكسبير في مسرحية "الليلة الثانية عشرة".

قالت لوسي: "آه، حبيبتي، إنك ترتعشين وجسمك بارد، عليك الذهاب للنوم، وكذلك سأفعل لأعلم كم صارت الساعة الآن".

تبادلتا القبل، وانصرفت لوسي - وقد تملّكها إحساس عظيم بالثقة بصدق مشاعرها وحدسها القوي.

لقد كانت ماغي فتاة صادقة للغاية: طبيعتها لاتسمح لها إلا أن تكون كذلك لكن من التهور البوح بكل الأسرار في بعض الأحيان، حتى وإن كانت صادقة

الفصل الرابع

أخ وأخت

كانت ماغي مضطرة للذهاب إلى توم عند منتصف النهار، لأنه يتواجد في مسكنه في هذا الوقت ليتناول الغداء، وإلا لن تجده في وقت آخر. لم يكن توم يستأجر في منزل للغرباء. كان بصحبته صديقنا بوب جاكين الذي تزوج من حوالي شهر بعد موافقة مامبز ضمنياً، وليس هذا وحسب بل سكن في أحد المنازل الغريبة والقديمة ذات الممرات المدهشة، بالقرب من جدول ماء، بحيث كما أشار بوب، بوسع زوجته ووالدته تسديد مصاريفهما من خلال تأجير "قاربين للنزهات "، كان بوب قد استثمر بعضاً من مدخراته لشرائهما. بالإضافة إلى أنه كان يؤجر توم أحد غرف المنزل، في ظل هذه الظروف، وبعيداً عن توفر الشروط الصحية المناسبة، ماالذي يمكن أن يكون الأفضل بالنسبة له والسيد توم هو المستأجر؟

كانت زوجة بوب مَنْ فتحت الباب لماغي إنها امرأة صغيرة القد، كانت مثل لعبة هولندية، تبدو بالمقارنة مع والدة بوب، التي ملأت الممر بمؤخرتها، مناسبة جداً لتكون إحدى الهيئات البشرية التي يجد فيها الفنان نموذجاً لإظهار التناسب الجسدي انحنت تلك المرأة البالغة الصغر باحترام وحدقت إلى ماغي بشيء من الرهبة حالما فتحت الباب، لكن الكلمات انسابت بسرعة "هل أخي في المنزل؟ "، لفظتها ماغي مبتسمة، مما جعلها تستدير بمتعة مفاجئة وتقول: "إيه، ماما، ماما - أخبري بوب إنها الآنسة ماغي! تفضلي يا آنسة لو تكرمت "، فتحت باباً جانبياً، وأفسحت المجال للزائرة لتدخل من ذلك الممر الضيق.

تزاحمت في ذاكرة ماغي ذكريات حزينة عندما دخلت تلك الردهة الصغيرة التي دعاها توم المسكين باسم "بيت "— ذلك الاسم الذي كان يعني الكثير بالنسبة لها وإلى توم منذ مرور عدة سنوات، كان يرمز إلى أشياء مألوفة وغالية على قلبيهما. والآن، تغيّر كل شيء، وبدا كل ما في هذه الغرفة الجديدة غريباً عنها: أول شيء استقرت عليه عيناها كان كتاب الإنجيل القديم والضخم، ولم يكن من المحتمل أن يشتت المشهد تلك الذكريات القديمة جثمت في مكانها صامتة.

"لو تفضلت بالجلوس يا آنسة "، قالت السيدة جاكين، وهي تمسح كرسياً نظيفاً جداً بمريولها، ثم ترفعه وتنظر إليه بارتباك، وتحدق إلى ماغي بدهشة

"إذاً بوب موجود في المنزل؟ "، قالت ماغي، بعد أن أفاقت من ذكرياتها، وهي تنظر مبتسمة إلى تلك اللعبة الهولندية الخجولة

قالت السيدة جاكين وهي تنصرف: "آجل يا آنسة، عليه أولاً أن يغتسل ويلبس ثيابه - سأذهب لكي أستدعيه".

عادت في الحال وقد بدت أكثر شجاعة وهي برفقة زوجها الذي كان يتقدمها، والتألق يشع من عينيه الزرقاوين والإشراقة بادية على أسنان بيضاء مصفوفة بانتظام، انحنى باحترام ملقياً التحية

قالت ماغي وهي تتقدم نحو الأمام، وتمد يدها إليه: "كيف حالك، بوب؟ في نيتي دائماً زيارة زوجتك، وسوف أحضر في يوم آخر لأجل هذا الهدف إن لم يكن لديها مانع. ولكنني مضطرة اليوم إلى المجيء في هذا الوقت، لكي أتحدث مع أخي".

"سوف يحضر بعد قليل يا آنسة إنه يعمل بجد. سوف يكون من أهم الرجال في هذا الجوار - وسوف تدركين صحة كلامي".

"حسنٌ بوب، إنني واثقة بأنه مدين لك كثيراً، مهما حقق من انجازات: اعترف بذلك عندما كان يتحدث عنك في تلك الليلة".

"إيه، آنسة، هذه طريقته في الكلام، هو لايملك لساناً سليطاً مثلي

لا أستطيع منع نفسي من المغالاة في الحديث حالما أبدأ. تبدين مميزة يا آنسة، إنني سعيد برؤيتك ما رأيك يا حبيبتي؟ "- هنا استدار بوب نحو زوجته "أليس كلامي صحيحاً؟ مع أنني لاأجيد كثيراً استعمال كلمات الإطراء".

كانت السيدة بوب تراقب ماغي بوقار، واستطاعت الآن أن تبتسم وتقول: "إنني تواقة أيضاً للتعرف عليك آنسة ماغي، لأن زوجي يتحدث عنك كثيراً بلسانه السليط، وكأنه مصاب بالدوار، حتى أنه لم يغازلني مرة".

قال بوب وقد بدا أكثر حماقة: "حسنٌ، حسنٌ، اذهبي وتفقدي الملابس البالية، ربما يحتاجها السيد توم في أي وقت".

قالت ماغي مبتسمة :

"آمل أن يكون مامبز ودوداً مع السيدة جاكين أذكر أنك كنت تقول بأنه لايحبذ زواجك".

قال بوب بابتسامة عريضة: "إيه يا آنسة، لقد غير رأيه عندما رأى كم هي صغيرة القد. يتظاهر معظم الأوقات بأنه لايراها، أو أنه يعتقد بأنها صغيرة السن ولكن بالنسبة للسيد توم، يا آنسة "، قال بوب وهو يخفض صوته وقد بدا أكثر جدية: "لقد أصبح في الآونة الأخيرة سريع الغضب، قاسي القلب شديد الاكتئاب يجلس وحده أثناء الليل أمام الموقد.

شاب مثله يجب أن يكون أكثر حيوية وتألقاً. تقول زوجتي، عندما تذهب أحياناً لتنظيف غرفته، أنه لايعيرها اهتماماً، يجلس قبالة الموقد شارد الذهن وكأنه يراقب أحد ما".

قالت ماغي: "إنه يفكر كثيراً في عمله".

قال بوب بصوت منخفض أكثر: "أي، ألا تعتقدين أن هنالك سبباً آخر يا آنسة؟ السيد توم شخص كتوم، أنا ولد حاذق، وأستطيع فهمه جيداً، شعرت في عيد الميلاد الماضي أنه عاشق كان بصحبة كلب صغير أسود من سلالة نادرة تقريباً. لقد طرأت عليه تغييرات كثيرة أخبرك بهذا لأنني واثق بأنك ستعملين جاهدة لمساعدته قدر الإمكان إنه منعزل عن الآخرين ولا يحس بوجود أحد، ولا ينضم إلى رفاقه في معظم الأحيان".

"أخشى أنه ليس بمقدوري التأثير عليه كثيراً "، قالت ماغي وقد تأثرت كثيراً باقتراح بوب لم يخطر ببالها أبداً أن توم يمكن أن يكون متورطاً في الحب يا للمسكين! - ويقع في حب لوسي أيضاً! ربما يتوهم بوب ويتخيل أشياء لاأساس لها من الصحة وجود الكلب معه لايعني شيئاً، إنه ليس أكثر من هدية من ابنة خالته لكن بوب قال: "ها هو السيد توم "، وفُتح الباب الخارجي

قالت ماغي حالما غادر بوب الغرفة: "ليس هنالك وقت نضيعه يا توم يجب أن أطلعك في الحال عن السبب الذي دعاني للمجيء، وإلا سوف أؤخرك عن تناول غدائكَ".

وقف توم مديراً ظهره للموقد، بينما جلست ماغي قبالة الضوء لاحظ بأنها كانت ترتعش، عرف بحدسه القوي الموضوع الذي سوف تتكلم عنه جعل ذلك الحدس صوته أكثر قساوة وبرودة عندما قال: "ما الأمر؟".

أثارت هذه اللهجة روح التمرد في نفس ماغي، فصاغت طلبها بشكل مختلف تماماً عن الشكل الذي صممت على طرحه نهضت من مقعدها، وهي ترمق توم بنظرة مباشرة وقالت: "أريدك أن تحلني من عهدي بشأن فيليب واكيم أو، وعدتك بأن لاأقابله دون علمك جئت الآن لأخبرك برغبتي في مقابلته".

قال توم ببرود أكثر: "حسنٌ جداً".

ولكن ما إن انتهت ماغي من التحدث بتلك اللهجة المتمردة، حتى أصابها الندم، وأحست بالغربة تبعدها عن أخيها.

"ليس لأجلي يا عزيزي توم لاتغضب لم أطلب منك هذا لأجلي فقط، تعلم أن فيليب صديق لوسي، وهي ترغب بمجيئه - لقد دعته للحضور هذا المساء،

وأخبرتها أنني لاأستطيع مقابلته من دون معرفة توم سأراه في حضرة الآخرين لن يدور أي حديث سري بيننا ثانية".

أشاح توم بوجهه عن ماغي، مقطباً جبينه لفترة قصيرة ثم استدار نحوها، وقال ببطء وحزم :

"تعلمين رأيي في هذا الموضوع يا ماغي لاداعي لتكرار الحديث نفسه الذي قلته منذ مضي عام عندما كان والدي على قيد الحياة، كنت أشعر بأنه علي فرض سيطرتي المطلقة عليك، لكي أمنعك من إلحاق العار باسمه أو باسمك وباسم العائلة كلها. ولكن اختلف الوضع الآن، علي أن أترك لك حرية الاختيار. ترغبين بأن تكوني مستقلة بقرارك - قلت لي هذا بعد موت والدي رأيي لن يغير أي شيء في قرارك إن كنت تفكرين بأن فيليب واكيم حبيب لك من جديد، فعليك أن تتخلي عني".

"لاأريد التخلي عنك، عزيزي توم - إن بقي الوضع كما هو: أعتقد أنه سيؤدي إلى البؤس لكنني أتمنى أن نصبح صديقين له من جديد. كما أن لوسي ترغب بذلك".

تلاشى قليلاً العبوس الذي ارتسم على وجه توم

"لامانع إن قابلته في بيت خالتي - ولا أريدك أن تثيري ضجة حول هذا الأمر. ولكنني لاأثق بك يا ماغي سوف تغامرين بفعل شيء دون علمي".

كانت تلك إهانة مؤلمة بدأت ماغي ترتعش.

"لماذا تقول هذا يا توم؟ إنك قاسي القلب جداً. هل سبق أن قمت بأي عمل غير مناسب؟ ثم إنني التزمت بوعدي عندماكانت حياتي مريرة للغاية، وكنت أعاني أكثر مما عانيت".

كانت مضطرة لأن تتصرف مثل طفلة - سوف تنهمر الدموع عندما لم تكن ماغي في حالة غضب، كانت تعتمد على كلمات اللطف والقسوة، كما تعتمد زهرة الربيع على أشعة الشمس الدافئة وعلى البرودة لكي تنمو: الحاجة للحب كانت تجعلها دائماً مستكينة، وكتومة كما كانت تخمدها، في الأيام الغابرة، في العلية القديمة لكن طيبة الأخ تدفقت بغزارة وضع يده بلطف على ذراعها وقال برقة :

"والآن أصغي إلي يا ماغي سوف أقول لك ما الذي أقصده بكلامي إنك تبالغين دائماً في ردود أفعالك - ليس لديك قدرة على المحاكمة المنطقية وضبط النفس، ومع ذلك تعتقدين أنك على دراية بكل شيء، ولا تقبلين النصيحة من أحد. تعلمين أنني لم أستطع تأمين مسكن مناسب لك لقد رحبت

بك الخالة بوليت في منزلها الواسع، وبمقدورك العيش بكرامة وسط أقاربك، حتى أتمكن من تجهيز منزل يأويك أنت ووالدتي وهذا جل ما أتمناه بودي لو تكون أختي سيدة محترمة، وسوف أقدم لك كل ما أستطيع، كما كان يرغب والدي، حتى تَحظَيْ بالزوج المناسب أفكارنا متناقضة تماماً ولا نتفق أبداً في وجهات النظر، ولا يمكنك أن تتخلي عن أفكارك التي تؤمنين بها بقوة ومع ذلك تدركين جيداً بأن أخاك، الذي يجوب أنحاء العالم ويقابل البشر من الأجناس كافة، من الضروري أن يكون على علم بحقائق الأمور وخبرة بما هو مناسب ومحترم لأخته أكثر مما تعرف هي تعتقدين بأنني فظ، أنا لاأستعمل أسلوبي الفظ إلا لمصلحتك، لأنني واثق من أن ما أقوله هو الصحيح".

قالت ماغي وهي تحاول كبح جماح دموعها السخية: "أجل - أعلم - يا عزيزي توم أعلم بأنك تبذل ما في وسعك من أجلي: أعلم بأنك تعمل فوق طاقتك إنني ممتنة لك جزيلاً ولكنك، بالفعل، لاتستطيع أن تقرر بالنيابة عني - لدينا شخصيتان مختلفتان للغاية لاتدرك أن هنالك أشياء لها تأثير قوي علي أكثر مما تؤثر عليك".

"أجل أعرف: أعرف هذا جيداً. أعرف كيف تشعرين تجاه المسائل التي تؤثر على اسم عائلتنا، وعلى كرامتك كامرأة في مقتبل العمر، تتلقى رسائل سرية من فيليب واكيم هذا الأمر يثير اشمئزازي، ولا أقبل أن تلطخ أختي اسمها واسم العائلة بارتباطها بشاب، يكن الحقد والكراهية لنا جميعاً، وسوف يحتقرك دوماً.

عندما كان والدي على قيد الحياة، كنت واثقاً من أن هنالك شيئاً ما يمنعك من التفكير بفيليب واكيم كحبيب لك لكنني الآن لست واثقاً منك - لست متأكداً من أنك سوف لن تعاودي التفكير بلقائه سراً. فأنت تشعرين بالسعادة عندما تدخلين الفرحة إلى قلوب الآخرين وإن كان هذا على حساب سعادتك، وهذا الشعور بإنكار الذات يجعلني لاأثق أبداً بتصرفاتك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لست قادرةً على الاعتراف بخطئك، تكابرين ولا تقاومين بحزم تصرفك الخاطئ".

تضمنت كلمات توم حقائق مرة وفظيعة - تلك الحقيقة الظاهرية القاسية التي لايمكن أن يدركها سوى الأشخاص ذوي القلوب المتحجرة والخيال الضيق الأفق.

كانت ماغي دائماً تتلوى ألماً من محاكمة توم هذه: كانت ثائرة وخاضعة في اللحظة ذاتها: بدا وكأنه وضع مرآة أمامها لكي يظهر لها مدى حماقتها

وضعفها - وكأنه كان يتكلم بصوت المنجم الذي يتنبأ لها عن إخفاقاتها التي ستعاني منها في المستقبل - ومع ذلك كان لديها رأيها الخاص: قالت في داخلها بأنه شخص ظالم وضيق الأفق، ولا يحس بأهمية تلك الحاجات الذهنية التي غالباً ما كانت مصدر الأعمال الخاطئة أو الأفعال السخيفة المنافية للعقل التي جعلت حياتها أحجية بالنسبة له

لم تجب على الفور: كان قلبها محبطاً للغاية، فجلست، وأسندت ذراعها على الطاولة ولا جدوى من محاولتها جعل توم يحس بأنها كانت قريبة منه إنه يثور ضدها دائماً. تذكرت بعد سماع كلماته المبطنة، المشهد الأخير الذي دار بين والدها وبين السيد واكيم، فطوقتها في الحال تلك الذكريات المؤلمة

لا إنها لاتتعامل مع أمور كهذه بلا مبالاة، ولا ينبغي على توم أن يوجه إليها اتهامات ظالمة حدقت إلى توم بوقار واهتمام وقالت :

"لايمكن أن أعلمك كيف تثق بي، يا توم، مهما حاولت إقناعك وأستطيع تقدير الأمور بشكل صحيح كما تفعل أنت ومن غير الصواب أن تطرح فكرة الزواج، لم أعد أفكر به كحبيب-إنني أقول الحقيقة، وليس لديك الحق في تكذيبي لقد التزمت بوعد قطعته أمامك علي الآن أن أتجنب أية علاقة خاصة تربطني بفيليب، ينبغي أن أتعامل معه كصديق فقط ربما تعتقد بأنني غير قادرة على اتخاذ قرار حاسم، على الأقل لايجب أن تعاملني باحتقار وقسوة بناء على أخطاء لم أرتكبها بعد".

قال توم بلطف :

"حسن ماغي، لاأريد تعقيد المسائل أعتقد أنه من الأفضل لك مقابلة فيليب واكيم، إن ترغب لوسي باستدعائه إلى منزلها. أصدق ما تقولينه - على الأقل أعلم بأنك واثقة مما تقولين: ليس باستطاعتي إلا أن أحذرك

أتمنى أن أكون لك أخاً طيباً وألا تضطريني لأكون غير ذلك".

ارتعش صوت توم قليلاً عندما نطق العبارة الأخيرة، واستحضرت ماغي بعاطفة متقدة فجأة ذكريات الطفولة التي جمعتها بأخيها، عندما كانا يأكلان الحلوى سويةً أثناء الاحتفال بالأعياد الدينية نهضت ووضعت يديها على كتف توم

عزيزي توم، أعلم بأنك تتمنى أن تكون طيباً معي أعرف بأنك تتحمل الكثير من مصاعب العمل، وتبذل كل ما في جهدك، أود أن أكون عوناً لك - وليس مصدر إزعاج. لاتعتقد بأنني مشاكسة الآن، أليس كذلك؟".

قابل توم ذلك الوجه المتلهف بابتسامة: كان عندما يبتسم تظهر ابتساماته في غاية الروعة، لأن عينيه الرماديتين تشعان حناناً تحت جبين مقطب

"لا، يا ماغي".

"لن أخيب املك".

"آمل ذلك".

"وهل أستطيع الحضور إلى هنا لكي أعد لك الشاي، وأزور زوجة بوب ذات القد الصغير جداً؟".

"أجل، ولكن غادري الآن، فليس لدي وقت أضيعه "، قال توم وهو ينظر إلى ساعته

"ليس قبل أن تعطيني قبلة".

انحنى توم ليقبل خدها، ثم قال: "والآن! كوني فتاة طيبة لدي أعمال كثيرة اليوم سوف أذهب في فترة الظهيرة إلى عمي دين لاستشارته في أمر".

"هل ستأتي لزيارة العمة غليك غداً؟ سوف نتناول جميعنا الغداء باكراً، لكي نذهب إلى هناك ونشرب الشاي يجب أن تأتي: أخبرتني لوسي بأن ألح عليك بالمجيء".

"أوه بوه! لدي أعمال كثيرة "، قال توم وهو يرن جرسه بعنف ثم ينزل حبل الجرس الصغير للأسفل.

"لقد أخفتني - سأنصرف "، قالت ماغي، وهي تنصرف ضاحكة، بينما قذف توم وبهدوء ذكوري حبل الجرس حتى نهاية الغرفة - لم يبتعد أكثر من ذلك: حركة يتميز بها بعض الرجال الواقعيين أو البارزين الذين نالوا مراكز مرموقة في العالم، في مرحلة مبكرة، وكانت لديهم آمال وطموحات كبيرة جداً يتغنون بها في منازل مستأجرة صغيرة جداً.

الفصل الخامس

يظهر كيف فتح توم المحارة

في فترة ما بعد الظهيرة من اليوم نفسه، جلسا في غرفة خاصة في البنك، قال السيد دين: "والآن يا توم بعد أن حققنا مرحلة صعبة في عالم الأعمال، هنالك مسألة أخرى أريد مناقشتها معك بما أنك ستشهد زمناً ضبابياً إلى حد ما خلال الأسابيع القليلة القادمة، وسوف تكون بحاجة إلى توقعات جيدة تحافظ على معنوياتك العالية".

انتظر توم أن يدخل عمه في الموضوع مباشرة، بأعصاب أكثر هدوءاً مما كان عليه في مناسبات سابقة، بينما أخذ عمه منديله، وأخذ ينظف أنفه.

قال السيد دين أخيراً وهو يلقي بنفسه إلى الوراء :

"كما تلاحظ يا توم، فالعالم الآن يسير بخطى أسرع مما كان عليه عندما كنت شاباً مثلك منذ أربعين عاماً، عندما كنت أصغر منك سناً وأقوى بنية، رجل توقع أن يحقق أفضل مما يطمح إليه في الحياة لم يكن التطور سريعاً بهذا الشكل: لقد ارتديت أفضل بدله عندي مدة ست سنوات كان كل شيء يسير ببطء شديد يا سيدي - أقصد مع مراعاة مصاريف الإنفاق.

بعد اكتشاف قوة البخار، كما ترى ،حدث تغيير ملحوظ، وسارت عجلة الحظ لمصلحة رجال الأعمال المعاصرين، كما قال السيد ستيفن غيست في عشاء الذكرى السنوية لاأجد خطأ في هذا التغيير السريع، كما يفعل بعض الناس فالتجارة يا سيدي، تفتح آفاقاً جديدة أمام الرجل، وعندما تزداد كثافة السكان بشكل هائل، لابد للعالم أن يستعمل قدراته واختراعاته بشكل أو بآخر. أعرف بأنني أديت عملي مثل أي رجل أعمال عادي قال أحدهم إنه لعمل رائع أن تساهم في نمو سنبلتين من القمح، ولكنني أقول يا سيدي، إنه لشيء رائع أيضاً يا سيدي أن تطعم أفواه أولئك الجياع من حبوب القمح. وهذا هو مساري في العمل وحسب اعتقادي هذا ما يمنح الرجل مكانة مشرفة بين أقرانه".

أدرك توم أن المسألة التي أراد عمه مناقشتها لم تكن ملحة، فالسيد دين كان رجلاً عملياً وواقعياً جداً. بحيث لن يسمح لذكريات الأحداث الماضية أن تعيق تقدم تجارته

بالفعل، خلال شهر أو شهرين طرحت أمام توم بعض المؤشرات التي مكنته من أن يخمن بأنه سوف يسمع بعض الاقتراحات التي تخدم مصلحته

مــع بدايــة الخطــاب الأخــير مــد ســاقيه ودس يديــه في جيوبــه، واســتعد لطــرح بعــض التفــصيلات المسهبة، الــتي تظهــر بــأن الــسيد ديــن قــد حظــي بالنجــاح بفــضل مزايــاه الخاصــة، وبــأن مــا أراد قولــه إلى الــشبان، بــشكل عــام، أنهــم إذا لم ينــالوا النجــاح أيــضاً، فهــذا مــرده لأنهــم لايتمتعــون بخــصال حميــدة تؤهلــهم للنجــاح. اندهش توم عندما وجه إليه عمه سؤالاً بشكل مباشر.

"دعــني أســألك يــا تــوم - لقــد مــضى ســبع ســنوات منــذ أتيــت إلي لتتقــدم بطلــب وظيفة أليس كذلك؟

"أجل، سيدي، عمري الآن ثلاثة وعشرون عاماً".

"آه - ومــع ذلــك مــن الأفــضل أن لاتحــدد عمــرك بدقــة: ســوف يتقــدم بــك الــسن أكثــر، وتكتــسب خــبرة أفــضل في العمــل كلمــا كــبرت. أذكــر جيــداً عنــدما جئــت إلي تطلــب وظيفــة: لمــست عنــدك شــيئاً مــن الــشجاعة، وهــذا مــا دفعــني إلى تــشجيعك ودعمــك. وإنــني ســعيد بــأنني كنــت علــى صــواب - وغالبــاً مــا يكــون رأيــي ســديداً في الحكــم علــى الآخــرين. لقــد كنــت محرجــاً قلــيلاً عنــدما أمنــت لــك وظيفــة لأنــني خــشيت أن تخيــب أملــي، لكنــك كنــت حقــاً جــديراً بالثقــة، ولــو كــان عنــدي ولــد، لسعدت كثيراً بأن يكون مثلك".

كرر السيد دين عبارته ثانية :

"أجل لسعدت كثيراً بأن يكون مثلك".

قال توم باعتزاز: "إنني جد سعيد أن أنال رضاك يا سيدي، إنني أبذل أقصى جهدي".

"أجــل تــوم لقــد نلــت رضــاي. لاأتحــدث عــن تــصرفك كــابن لي، مــع ذلــك يعنــيني وحــسب رأيــي أنــك ابــن جــدير بالثقــة مــايهمني الآن، أنــك أظهــرت كفــاءة كرجــل أعمــال وشــريك في شــركتنا. عملنــا في الــشركة رائــع يــا ســيدي - ولــيس هنالــك مــبرر يمنــع التطــور والازدهــار بــشكل دائــم: إنهــا عاصــمة مزدهــرة، وهنالــك مجــالات عديــدة للنمــو، ولكــن هنالــك شــيء آخــر يتطلــب الازدهــار في كــل نــواحي العمــل، كــبيراً كــان أم صــغيراً وبحاجــة إلى رجــال يترأســون العمــل وأهــلٌ للثقــة. والآن هــذا مــا أدركتــه أنــا والــسيد غيــست بوضــوح. منــذ ثــلاث ســنوات، أشــركنا جيــل في العمــل: أعطينــاه حــصة في الطاحونــة. ولمــاذا؟ لمــاذا، لأن جيــل شــخص قــدم خــدمات جليلــة تــستحق الــشكر والثنــاء. ومــع أن جيــل أقــدم منــك في المهنــة بعــشر ســنوات هنالــك نقاط أخرى لمصلحتك أكثر منه".

بــدأ تــوم يفقــد أعــصابه قلــيلاً بينمــا تــابع الــسيد ديــن حديثــه: كــان يعــي تمامــاً بأنــه يحمــل في ذهنــه أفكــاراً لــن ترضــي عمــه، لأنهــا ببــساطة كانــت اقتراحــاً جديــداً أكثر منها قبولاً للفرضية التي تنبأ بها.

تابع السيد دين بعد أن أنهى آخر عباراته اللاسعة: "من البديهي أن أفضلك على الآخرين كونك بمثابة ابن أخي، ولكنني لاأنكر أنه حتى ولو لم تكن قريبي على الإطلاق، ليس بوسعي إلا أن أعترف بالخدمات القيمة التي قدمتها لنا ومهارتك العملية، تجعلنا نصمم على منحك حصة في العمل - ومن دواعي سرورنا أن نزيد أسهمك مع مرور السنين نعتقد أن هذا أفضل من زيادة مرتبك، وهذا سيمنحك أهمية ومكانة مرموقة في المستقبل وسوف تحمل عني عبء العمل عما قريب صحيح أنني أدير أعمالاً مهمة في الوقت الحاضر والحمد لله، ولكنني أتقدم في العمر - لاأحد ينكر ذلك

أخبرت السيد غيست بأنني سأناقش معك الموضوع وعندما تنهي عملك في الشمال، بمقدورنا مناقشة التفاصيل هذه خطوة عظيمة بالنسبة لشاب في عمره الثالث والعشرين، ولكنني مرغم على القول بأنك تستحق هذا الفضل".

"إنني شاكر لك وللسيد غيست، بالطبع أنا مدين لك يا سيدي، فأنت أول من منحني فرصة عمل ،وتحمل لأجلي الكثير". تكلم توم برعشة خفيفة، ثم صمت بعد ذلك

قال السيد دين:."أجل، أجل، لم أدخر جهداً كلما رأيت أنه من الضروري استعماله لمنفعة الآخرين لقد عانيت كثيراً لأقدم كل ما في وسعي إلى جيل - وإلا لما حقق ما حققه".

"هناك أمر واحد أريد ذكره أمامك، يا عماه لم يسبق أن تحدثت عنه من قبل إن كنت تتذكر، عندما تم بيع كل أملاك والدي، كان هنالك هدف من شراء شركتكم للطاحونة: أعلم أنك ترى في شرائها استثماراً ممتازاً للغاية، ولاسيما أنها استعملت بقوة البخار".

"كن على ثقة، كن على ثقة ولكن واكيم زايد علينا، ودفع سعراً مرتفعاً - لقد كرس جهده لهذا الأمر. إنه مولع بإلقاء عبء كل شيء على رؤوس الآخرين"

تابع توم: "ربما لافائدة ترجى من ذكر هذا في الوقت الحاضر. ولكن أتمنى أن تعرف ما يدور في ذهني بخصوص الطاحونة لدي مشاعر جياشة تجاهها. لقد كانت رغبة والدي قبل وفاته أن أبذل كل جهودي لاستردادها ثانية: إنها ملك للعائلة منذ خمسة أجيال لقد وعدت والدي، وبالاضافة إلى ذلك روحي متعلقة بهذا المكان لن أحب أي مكان آخر. وإن كنت ترى أنه من الأفضل شراء الطاحونة لأجل الشركة، سوف أبحث عن فرصة مناسبة لتحقيق رغبة والدي لاأتمنى ذكر شيء كهذا أمامك، ولطف منك أن تقدر لي خدماتي للشركة

ولكنني مستعد للتخلي عن أكثر الفرص القيمة في حياتي من أجل خاطر استرداد الطاحونة - أقصد استردادها بجهودي، وبالتدريج أسدد ثمنها".

استمع إيه السيد دين بانتباه، وبدا الآن مستغرقاً بالتفكير.

قال بعد برهة: "أفهم، أفهم، من المحتمل أن يتحقق الأمر، في حال وفرت أية فرصة لكي يتخلى فيها واكيم عن الملكية أرى هذا صعب المنال إنه يوكل مهمة حراستها إلى ذلك الشاب جيتسم، وإنني أدرك أسبابه الي دفعته لشراء الطاحونة".

قال توم: "ذلك الشاب جيتسم مجرد سمكة رخوة إنه مدمن على الشراب، ويقولون أنه لايتقن عمله لوكي أخبرني بذلك - طحاننا القديم يقول بأنه لن يستمر في العمل حتى يحصل تغيير ما. أعتقد إذا استمر الموضوع على هذه الحال، سوف يتخلى واكيم عن طيب خاطر عن الطاحونة يقول لوكي أنه غاضب جداً من الأسلوب الذي يتبع في العمل"..

"حسنٌ، توم سأبحث للمسألة وأناقشها مع السيد غيسبت وكما ترى يا توم من الصعوبة إنشاء فرع جديد ووضعه تحت مسؤوليتك، بدلاً من إبقائِكَ في وظيفتك التي سعينا لأجلها".

"سأكون قادراً على تسيير العمل في الطاحونة بشكل أفضل، حالما تتحسن الأحوال، ويتبدل هذا الوضع السيء لدي رغبة عارمة بالعمل ولا أتوق إلى أي شيء سوى العمل".

كان هنالك شيء ما يثير الشجون في ذلك الخطاب الذي يصدر عن شاب في ربيعه الثالث والعشرين.

"بوه، بوه! سوف تتزوج وتتحمل مسؤولية جديدة ولكن بالنسبة للطاحونة، لاينبغي علينا تقدير حساباتنا قبل أوانها. على كل حال، أعدك بأن أفكر في الموضوع جيداً، وعندما تعود سوف نتحدث ثانية والآن علي الذهاب لتناول الغداء. تعال صباح الغد وتناول الفطور معنا، وودع والدتك وأختك قبل أن تبدأ العمل".

الفصل السادس

شرح قوانين الجاذبية

من الواضح بالنسبة لك الآن، عزيزي القارئ، بأن ماغي قد أصبحت في مرحلة حساسة من حياتها لابد أن يعتبرها معظم الأشخاص المتعقلين فرصة عظيمة بالنسبة إلى امرأة في مقتبل العمر. امرأة انتهجت طريقاً جديدة إلى مجمع القديس أوغ المخملي، وتتمتع بمزايا تلفت الأنظار، ولكنها غير معروفة من قبل الحاضرين، وبهذه الحلة الجديدة المتواضعة التي قدمتها لها الخالة بوليت بمساعدة لوسي، تبدأ ماغي مرحلة جديدة في حياتها.

في أول حفلة مسائية تقيمها لوسي، كان هنالك شاب يدعى توري وقد تغيرت ملامح وجهه على غير عادته لكي يلفت انتباه "تلك الفتاة ذات العينين الغامضتين التي تجلس هناك في الزاوية "، وقفلت الكثير من السيدات الشابات عائدات إلى منازلهن وفي نيتهن ارتداء أثواب لها أكمام قصيرة ومزركشة بقماش من الدانتيل الأسود اللون، في الحفلة القادمة، وتصفيف شعورهن على شكل تاج خلف رؤوسهن - "تلك الفتاة قريبة الآنسة دين بدت رائعة الجمال".

في الواقع كانت ماغي المسكينة محط أنظار الجميع وفي موقع يحسدها عليه النساء. على الرغم من ماضيها المؤلم الذي لايفارقها، والمشاكل المستقبلية الحاضرة في ذهنها والتي تتوقع حدوثها في أية لحظة - كانت موضوع جدل في غرفة البلياردو المؤثثة حديثاً، وبين أوساط الأصدقاء الذين لايخفون سراً عن بعضهم البعض ولاسيما إن كان يتعلق بالجمال الآنسات غيست اللواتي شعرن بأنهن يتنازلن بحضور حفلة تقيمها عائلة من بلدة القديس أوغ، كن نموذجاً للزي الحديث هناك، اعترضن على تصرفات ماغي وانتقدنها. إذ لم تكن توافق فوراً على الملاحظات السارية في المجتمع المخملي، كما أشرن إلى أنها لاتعرف إن كانت تلك الملاحظات صحيحة أم لامما جعلها تبدو مثل فتاة خرقاء، لم تستطع الاندماج مع أحاديثهن. ولكن لابد من القول بأنه ليست السيدات فحسب من تحجمن عن التعرف على فتاة أدنى من مستواهن. لم تكن ماغي تتحلى بطباع تجعلها تتقبل المغازلة مما يدعو الرجال إلى اليأس من التقرب إليها، حتى أنها أثارت شفقة بعض النساء، لأنها غير مؤثرة في نفوس الرجال على الرغم من جمالها. يا للفتاة المسكينة! لم تكن تمتلك مزايا نساء المجتمع الراقي! لابد من الاعتراف بأنها لم تكن فتاة متكلفة :

اتسمت بالبساطة والعفوية لأنها عاشت وحيدة في ظل ظروف قاسية ولكن هنالك ما أثار غضب الآنسات غيست قليلاً، وهي العلاقة الحميمية بين لوسي وماغي لم يكن مقبولاً بالنسبة لهن أن تحصل علاقة زواج مع عائلات مثل عائلة غليك أو بوليت، ولكن لا جدوى من معارضة ستيفن، الذي يصر على رأيه، وبالتأكيد كنتيجة منطقية من الأفضل عدم إزعاج لوسي أيضاً - حتى وإن لم يحبوها. ومن الطبيعي أن تسعد لوسي عندما يعاملن ابنة خالتها المتعلقة بها كثيراً، بأسلوب لطيف، وستيفن بدوره سيثير ضجة إن لم يعاملنها بتهذيب

في ظل هذه الظروف، لم تكن الدعوة إلى منتزه منزل لوسي مرغوب بها، ولكن الآنسة دين معروفة ومميزة جداً في مجتمع بلدة القديس أوغ ولا يمكن تجاهلها بسهولة

وهكذا قُدمت ماغي إلى الحياة ولأول مرة كسيدة شابة، وعرفت كيف تستيقظ صباحاً دون أداء أي أمر عاجل هذا المشهد الجديد من الراحة والاستجمام بنسائم الربيع - وسط أجواء مبهجة تجعلها تستمتع بالهواء النظيف وبروائح الأزهار الربيعية، وبالإصغاء إلى كم هائل من الموسيقى والتهادي تحت أشعة الشمس والرحلات اللطيفة على ضفاف النهر - لايمكن لهذه السعادة أن تمر مرور الكرام دون منغصات، وبعد سنوات من الوحدة والكآبة، وخلال الأسبوع الأول من إقامتها مع لوسي، بدأت ماغي تنسى قليلاً ذكرياتها الحزينة وتوقعات المستقبل المخيف

بدت الحياة الآن مبهجة للغاية: كانت سعيدة وهي تبدل أثواباً أنيقة تظهر جمالها في وقت ربيعي مفرح. وكانت هنالك دائماً عيون تنتظرها وتحدق إليها بإعجاب، لم تعد متوارية عن الأنظار، وليس معرضة للوم والتقريع. كان مبعث سعادة لها أيضاً، عندما كان ستيفن يخرج برفقة لوسي في نزهة، فتجلس وحدها إلى البيانو، وتستعيد تلك الألفة الحميمية بين أصابعها ومفاتيح البيانو، فتبتهج كثيراً لإحساسها بأنها ما زالت تضج بالحيوية وبأن ابتعادها عن العزف لفترة طويلة لم يؤثر على روحها الشفافة - وكانت تفرح عندما تكرر عزف النغمات التي سمعتها في الليلة الفائتة حتى تكتشف طريقة عزفها بشكل صحيح فتصيغ لغة عاطفية حنونة

مجرد ذلك الانسجام الموسيقي كان يبعث الفرحة في نفس ماغي، التي غالباً ما كانت تسلي نفسها بقراءة أحد الكتب توقها لسماع الموسيقى لا يشير فقط إلى موهبتها العظيمة وتذوقها للألحان العذبة، ولكنه يدل أكثر على حساسيتها العالية وطبيعتها العاطفية فالموسيقا تمزج بين أخطائها وحسناتها في بحر

واحـد - وتُهـيجٌ عواطفهـا، لـيس هـذا فحـسب بـل تكبـت غرورهـا بجمالهـا فـلا تتخـذ صـفاتها الأنثويــة كمـصدر للإغــراء، وإنمــا تحلــق في فـضاء شـعري طمـوح. ولكنـك عزيـزي القـارئ، أدركـت ماهيـة شخـصية مـاغي منـذ وقـت بعيـد، لهـذا فأنـت بحاجـة إلى أن تتعـرف علـى تاريخهـا الـذي مـن الـصعب التنبـؤ بـه حتـى مـن قبـل أولئـك الــذين يتمتعــون بمعرفــة واســعة وأفــق رحــب ولأن مأســاة حياتنــا لاتخلــق مــن داخلنا.

يقــول نوفــاليز في أحــد أقوالــه المــأثورة: "الشخــصية جــزء مــن قــدرنا". إنهــا لاتـشكل القــدر بأكملــه هاملــت، أمــير الــدانيمارك، كــان شخــصاً مــتردداً ومغــامراً، وشــهدنا في النتيجــة أحــداثاً تراجيديــة كــثيرةولكــن لــو عــاش والــده عمــراً أطــول، ومـات عمـه في بـاكورة شـبابه، باسـتطاعتنا أن نتـصور عندئـذ أن يتـزوج هاملـت مـن أوفيليـا ويعـيش حيـاة هادئــة متمتعــاً برجاحــة العقـل علـى الـرغم مـن المـشاهد الكـثيرة الـتي تعـرض مناجـاة هاملـت لذاتــه، وبعـض عبـارات الاسـتهزاء المزاجيـة الـتي كـان يوجههـا إلى ابنــه بولونيـوس الجميلـة، مـن المحتمـل أن لاينطقهـا أو أن يتكلم بأسلوب فاضح غير مهذب عن والد زوجته.

إذاً، قــدر مــاغي مجهــول في الوقــت الحــالي، ولا بــد لنــا مــن الانتظــار حتــى يظهـر نفـسه مثـل مجـرى نهـر لم تتوضـح معالمـه علـى الخريطـة: كـل مـا نعرفـه هـو أن ذلــك النــهر سـريع الجريــان ويتــدفق بغــزارة، وبــأن جميــع الأنهــار مــصيرها إلى المـصب النـهائي نفـسه في ظـل تـألق مـسراتها الجديـدة، توقفـت مـاغي عـن الـتفكير بأحلامهـا المتلهفـة وقـدرها المـستقبلي، والقلـق الـذي كـان ينتابهـا بخـصوص لقائهـا الأول مــع فيليــب فقــد بريقــه ولم يعــد يــستحوذ علــى تفكيرهــا: ربمــا ودون أن تعــي ما في نفسها، تشعر بالأسف بسبب تأجيل اللقاء.

لم يحــضر فيليــب في تلــك الليلــة كمــا كــان متوقعــاً، وأخــبرهم الــسيد ســتيفن غيـست بأنــه مــن المحتمــل أن يكــون قــد ذهــب إلى الــساحل في رحلــة لرسـم بعـض المخططـات، ومـا مـن موعـد محـدد لعودتـه مـن المعـروف عـن فيليـب أنـه ينطلـق في رحلـة كهـذه دون أن يخـبر أي أحـد. لم يعـد حتـى اليـوم الثـاني عـشر، ليجـد مـذكرات لوســي بانتظــاره: غــادر دون أن يعــرف بوصــول مــاغي ربمــا احتــاج المــرء إلى تــسعة عـشر عامـاً أخـرى حتـى تتولـد لديـه قناعـة تامـة بالمـشاعر الـتي كانـت تعـج في فكـر مــاغي أثنــاء الاثــني عــشر يومــاً، وبــالمواقف المختلفــة الــتي كانــت تعتريهــا. المعرفــة الشخـصية الـتي تتولـد في أذهاننـا خـلال الأيـام الأولى يكـون لهـا دائمـاً هـذه الأهميـة بالنـسبة لنـا، وتحتـل مـساحة واسـعة في ذاكرتنـا أكثـر مـن المعرفـة الـتي تـدوم فـترات متعاقبة أطول، والتي لاتعج كثيراً بالاكتشافات والانطباعات الجديدة

خلال فترة تلك الأيام العشرة كان السيد ستيفن يمضي عدة ساعات وهو جالس بجانب لوسي، أو واقف قربها عند البيانو، أو يرافقها في بعض النزهات الخارجية: ازدادت درجة اهتماماته بشكل ملحوظ وأصبح أكثر دراية وحرصاً، وهذا من المفترض أن يتوقعه أي شخص كانت الفرحة تغمر قلب لوسي السعادة التي كانت تنعم بها وهي إلى جوار ستيفن بدت أكثر متعة بكثير في حضرة ماغي هناك الجدالات المازحة - والجدية أحياناً - كانت مستمرة بين ستيفن وماغي، وكانت محط إعجاب لوسي اللطيفة غير الفضولية، وأكثر من مرة تخيلت كم سيشكلون رباعياً مدهشاً من المغنين عندما تتزوج ماغي بفيليب

هل هو أمر من المتعذر تفسيره أن تستمتع فتاة مع حبيبها بوجود شخص ثالث، وألا تشعر بأقل قدر من الغيرة من أن تكون الأحاديث موجهة مباشرة وبشكل اعتيادي إلى ذلك الشخص الثالث؟ ليس إن كانت المسألة تتعلق بفتاة تتسم بطمأنينة القلب مثل لوسي، التي استحوذ على تفكيرها وبشكل مطلق اعتقاد أكيد بأنها تعرف حقيقة عواطف رفاقها ولا تميل أبداً إلى التشكيك بمصداقية ذلك الاعتقاد.

بالاضافة إلى أنها هي من كانت تجلس إلى جانب ستيفن، الذي يحيطها بذراعه، والذي تتفق معه في أمور كثيرة، وفي كل يوم كانت تشعر بالحنان ذاته الذي يبادلها إياه، وبالاهتمام ذاته والرعاية ذاتها. ترى هل كانت بالفعل المشاعر ذاتها؟ - بالنسبة إلى لوسي كانت مشاعره متأججة تجاهها ولا تتبدل أبداً. حتى ستيفن نفسه لم يحس بأن حالة ذهنية متغيرة تعتريه اهتماماته الشخصية كانت سخيفة بشكل نسبي بالنسبة إلى ماغي، وكان هنالك فرق واضح بينهما، منع من تجدد حدوث أي نوع من التودد كالذي حصل في اليوم الأول أثناء الرحلة في القارب لو دخل ستيفن الغرفة وكانت لوسي في الخارج - لو غادرت لوسي الغرفة وتركتهما وحدهما، ما كانا يتجاذبان أطراف الحديث: ربما بدا ستيفن منشغلاً بقراءة بعض الكتب الموسيقية، وأحنت ماغي رأسها باهتمام فوق عملها. كان كل واحد منهما مدركاً لوجود الآخر. ومع ذلك بدا كل منهما تواقاً لحدوث الشيء ذاته في اليوم التالي ولكنهما لم يتساءلا عن السبب، ولم يفكرا بالأمر ضمنياً ولم يطرح أي منهما على نفسه سؤالاً مفاده، لِمَ كل هذا الاهتمام؟ لمَ انتاب ماغي مجرد إحساس بأن الحياة أصبحت متجددة بالنسبة لها، وانغمست في تجربة مباشرة وفورية، من دون أن تحسب حساباً لنتائجها، أو تتساءل عن أسبابها. امتنع ستيفن بعناد من أن يطرح أي سؤال على نفسه، لن

يعترف أبداً في قرارة ذاته بأنه أحس بتأثير قوي يفرض نفسه عليه ويوجه سلوكه وعندما دخلت لوسي الغرفة ثانية، كانا جالسين بحرية أكثر مما سبق استطاعت لوسي أن تناقض وجهة نظر ستيفن وأن تهزأ به، وهو بدوره تمكن من الاحتجاج على كلامها وذكر لها نموذجاً عن تلك البطلة الساحرة الجمال، الآنسة صوفيا ويسترن[1] التي "كانت تهتم كثيراً بمشاعر الرجال وتحترمهم".

امتلكت ماغي الجرأة بالنظر مباشرة إلى ستيفن، الذي كانت تتحاشى النظر إليه مباشرة لسبب أو لآخر، عندما يكونان وحدهما في الغرفة، وتطورت الأمور لدرجة أنه طلب منها مشاركته العزف، بما أن لوسي كانت مشغولة بعمل البازار، وحثها على السرعة في الإيقاع، هذا بالتأكيد كان نقطة ضعف ماغي.

في أحد الأيام حيث كان من المفترض أن يعود فيليب - كانت لوسي قد ارتبطت بموعد لقضاء أمسيتها مع السيدة كين، التي تدهورت صحتها بسبب التهاب القصبات، فاضطرت أن تسلم عملها في البازار القادم إلى السيدات الأخريات، اللواتي كُنَّ يتمنَّينَ لو أن لوسي واحدة منهن. تم إبرام الموعد بحضور ستيفن، الذي سمع لوسي تقول بأنها ستتناول الغداء في وقت مبكر وتذهب عند الساعة السادسة لتعرج على الآنسة توري، التي لبت طلب السيدة كين.

صرخ ستيفن، حالما غادرت الآنسة توري الغرفة :

"هذه نتيجة أخرى من نتائج هذا البازار المعتوه، يجعل الشابات ينصرفن عن أداء واجباتهن في بيوتهن، إلى تطريز ملابس وحقائب! أود لو أعرف ما هي الوظيفة المناسبة للنساء، إذا لم يستطعن توفير الأسباب التي تجعل أزواجهن يلتزمون بيوتهم، ولا يشجعن العازبين على الخروج. إن استمر الوضع على هذه الحال، سوف تنحل روابط المجتمع".

قالت لوسي وهي تضحك: "حسنٌ، لن يستمر الوضع طويلاً، لأن موعد البازار يوم الاثنين فقط".

قال ستيفن: "الحمد لله! حتى كين نفسه قال مرةً إنه لايحبذ هذه الخطة تجعل العمل الخير يبدو سخيفاً، بما أن العامة من البريطانيين ليسوا منطقيين بشكل كاف حتى يتحملوا الضرائب المباشرة، لذلك لايملك سكان بلدة القديس أوغ دافعاً قوياً كفاية لبناء أو تقديم التبرعات للمدارس دون أن يتسموا بالحماقة".

قالت لوسي وقد جحظت عيناها البندقيتان بقلق: "هل قال ذلك؟ لم أسمعه من بل يتفوه بمثل هذه الترهات: أعتقد أنه يوافق على كل ما نقوم به".

---

[1] صوفيا ويسترن: بطلة قصة توم جونز (1749) للكاتب هنري فيلدنغ (1707-1754).

قال ستيفن مبتسماً بأسلوب عاطفي: "إنني واثق من أنه يوافق على كل أفعالكن. قرارك في الخروج الليلة يبدو بالنسبة لي عملاً آثماً، لكنني أعرف أن في طياته خير وإحسان".

"أوه، إنك تحسن الظن بي كثيراً "، قال لوسي وهي تهز رأسها، وقد توردت قليلاً، وانتهى النقاش عند هذا الحد. ولكنها فهمت ضمنياً أن ستيفن لن يأتي عند المساء، وبناء على هذا أطال فترة زيارته الصباحية أكثر، ولم يغادر حتى تجاوزت الساعة الرابعة.

كانت ماغي جالسة وحدها في ردهة الاستقبال، بعد فترة الغداء بوقت قصير، وبصحبتها ميني وقد وضعته في حضنها، بعد أن تركت عمها لشربه وسكره، وأمها لحياكتها، والتي كانت تستمر بالحياكة في غرفة الطعام حتى يحين موعد الشاي إذا لم يكن برفقتها أحد. كانت ماغي تنحني لتلاطف ذلك الحيوان الصغير الأليف، وتواسيه بما أن آنسته غائبة عنه، عندما سمعت وقع أقدام على الحصى مما جعلها ترفع نظرها، فرأت السيد ستيفن غيست يمشي باتجاه الحديقة، وكأنه قادم مباشرة من النهر.

من الغريب جداً أن يحضر مباشرة بعد الغداء! إذ غالباً ما كان يتذمر من أن ساعة الغداء عندهم متأخرة جداً فتعيقه عن التنزه ومع ذلك، كان هنالك بلباسه الأسود: لقد كان هنا منذ قليل ومن المفترض أن يذهب ثانية إلى النهر. أحست ماغي بتورد خديها وخفقان قلبها: من الطبيعي أن تضطرب هكذا، لأنها لم تكن معتادة على استقبال الزوار وحدها.

لقد رآها وهي تنظر إليه من خال النافذة المفتوحة، فرفع قبعته وهو يمشي نحوها، بدلاً من أن يدخل من الباب. تورد أيضاً وبدا بالتأكيد مثل غلام أحمق اتسم ببعض الذكاء والقدرة على الاعتداد بالنفس، بينما كان يمشي وهو يحمل بيده نوطة موسيقية، فقال بارتجال متردد: "إنك مندهشة لرؤيتي ثانية، يا آنسة توليفر - ينبغي أن أعتذر بسبب حضوري المفاجئ، أردت الدخول إلى البلدة، وأحضرت مساعدنا لكي يقلني بالقارب، لذلك اعتقدت أنه علي إحضار هذه النوطة الموسيقية لأجل ابنة خالتك: نسيت إحضارها هذا الصباح. هلا أعطيتها إياها؟".

"أجل، قالت ماغي، التي نهضت باضطراب وهي تحمل ميني بين ذراعيها، والآن، لم تعرف بالضبط ماذا تفعل، فجلست ثانية.

وضع ستيفن قبعته والنوطة الموسيقية، التي تدحرجت على الأرض، وجلس على كرسي بالقرب منها. لم يسبق له أن جلس بقربها من قبل، فأحس كلاهما بأن الوضع كان جديداً بشكل كلي

"حسنٌ، إنك تدللين هذا الخادم اللطيف! "، قال ستيفن وهو ينحني ليداعب أذني ذلك المخلوق الطويلتين اللتين تدليتا على ذراع ماغي لم تكن ملاحظة مثيرة للتفكير، وبما أن المتحدث لم يكملها، فمن الطبيعي أن تتوقف المحادثة عند هذا الحد.

بدا الأمر بالنسبة إلى ستيفن وكأنه حلم كان مضطراً أن يعيشه، واستغرب من نفسه طوال تلك الفترة - لماذا لم يستمر بمداعبة رأس ميني ومع ذلك كانت سعادة عارمة: تمنى فقط لو يجرؤ على التحديق في وجه ماغي مباشرة، وكذلك أن تبادله هي النظرات - بحيث يتسنى له الفوز بنظرة معمقة من تلك العينين الغريبتين الحادتين، عندئذ سوف يشعر بالرضا والسكينة اعتقد بأنه أصيب بحالة من المس الأحادي، في رغبته الحثيثة بالفوز بتلك النظرة المعمقة التي تشع من عيني ماغي التي كانت حائرة التفكير - لم تشعر إلا بوجود شخص يلازمها، وكأنه طائر يفرش جناحيه الواسعتين، ويحلق قربها في الظلام، حتى أنها كانت عاجزة عن رفع بصرها للأعلى، ولم تر أي شيء سوى فراء ميني المتموج الأسود.

لا بد أن تنتهي المسألة عند حد ما - ربما انتهت في الحال، وبدت لحظة كالتي نشهدها في الأحلام مدة دقائق معدودة أخيراً وقف ستيفن بجانب كرسيه، وأسند إحدى يديه إليها، ونظر إلى ماغي ترى ماالذي سيقوله؟

"إن مشهد غروب الشمس في غاية الروعة، ألا تخرجين وتتأملينه؟".

"لاأعرف "، قال ماغي، ثم تشجعت، ورفعت بصرها لتنظر من خلال النافذة، "إذا لم أذهب إلى عمي لألعب معه ورق الشدة".

ساد صمت: عاودت مداعبة ميني ثانية، لكنه لم يكن راضياً هذه المرة من مداعبتها - زمجر ليلاً".

"هل تحبين الجلوس وحيدة؟".

طرأت على وجه ماغي نظرة مثيرة، ونظرت إلى ستيفن، وقالت: "هل من غير التهذيب أن أقول لك "أجل؟".

قال ستيفن مبتهجاً بتلك النظرة ومصمماً على البقاء فترة أطول: "ربما سؤالي فيه شيء من التطفل على خلوتك ستجدين متسعاً من الوقت للجلوس وحدك بعد مغادرتي "، أضاف وهو ينظر إلى ساعته: "أعلم بأن السيد دين لايأتي حتى الساعة السابعة والنصف".

ساد صمت من جديد، كانت ماغي في هذه الأثناء تنظر بثبات نحو النافذة، حتى حركت رأسها بجهد كبير لتنظر ثانية إلى ميني، وقالت :

"أتمنى لو أن لوسي لم تخرج. لايمكننا الاستماع للموسيقى".

قال ستيفن: "سينضم إلينا غداً صوتاً جديداً. هلا أخبرت ابنة خالتك بأن صديقنا فيليب واكيم عاد من رحلته؟ شاهدته وأنا خارج من المنزل".

أجفلت ماغي قليلاً - بدا تأثير الاسم عليها أكثر من مجرد رعشة انتابتها في الحال من الرأس حتى القدم. لكن اسم فيليب استحضر إلى ذاكرتها صوراً جديدة، فضاعت الكلمات التي كانت مخبأة. نهضت من كرسيها فجأة، ووضعت ميني على وسادته، وذهبت نحو سلة لوسي الكبيرة المركونة في الزاوية كان ستيفن متضايقاً ومحبطاً: اعتقد أن ماغي ربما لم تحبذ سماع اسم واكيم بهذه الطريقة المفاجئة - لأنه علم من لوسي عن المشاكل العائلية بينهما. لاجدوى من بقائه فترة أطول. كانت ماغي جالسة إلى الطاولة تطرز ثوباً، وقد بدت لامبالية فخورة بنفسها: أما هو فقد بدا ساذجاً. زيارة إضافية وغير متوقعة كانت بالتأكيد سبباً يجعل من الرجل محط سخرية وازدراء. بالطبع كان يدور في ذهن ماغي، أنه تناول غداءه بسرعة في غرفته الخاصة من أجل أن يتسنى له العودة ثانية ورؤية ماغي على انفراد.

تصرف صبياني لشاب مصقول الشخصية من السادة، في ربيعه الخامس والعشرين ،وعلى قدر لابأس به من المعرفة بالمسائل الشرعية!

في هذه اللحظة تدحرجت بكرة الصوف التي تحيك منها ماغي، على طول الأرض، فاستعدت لالتقاطها. نهض ستيفن أيضاً، والتقط البكرة، تلاقت عيونهما، فتبادلا النظرات، شاهدت في عينيه نظرة حائرة متذمرة رسمت في نفس ماغي انطباعاً جديداً.

"إلى اللقاء "، قال ستيفن بنبرة فيها من الكآبة المتوسلة ذاتها التي ارتسمت في عينيه لم يجرؤ على مد يده لمصافحتها - بل اكتفى بدس يده في جيبه العميقتين، وهو يودعها.

اعتقدت ماغي أنها تصرفت بشكل غير مهذب

"هلا جلست فترة أطول؟ "قالتها بخجل.

"لا، أشكرك "، قال ستيفن، وبدت عيناه تحدقان إليها بشوق مثل رجل متعطش للماء ينظر إلى جدول ماء بعيد.

"القارب بانتظاري - ستخبرين ابنة خالتك؟".

"أجل".

"أقصد، تخبرينها بأنني أحضرت النوطة الموسيقية؟".

"أجل".

"وبأن فيليب عاد من سفره".

"أجل". (لم تلاحظ ماغي اسم فيليب هذه المرة).

"ألا تخرجين معي قليلاً إلى الحديقة؟ "، قال ستيفن، بنبرة أكثر لطفاً، كان قلقاً من عدم موافقتها فيكون مرغماً على المغادرة، لكنها اتجهت نحو النافذة المفتوحة، فاضطر أن يأخذ قبعته، ومشى إلى جانبها، وفكّر في شيء يجعله راضياً.

"هلا أمسكت بذراعي "، قالها بنبرة منخفضة، وكأن الأمر سراً.

هنالك مكسب غريب تشعر به النساء في ذلك العرض: فالدعم هنا ليس مادياً، ولكن الإحساس بمساندة الآخر - وجود قوة ما لدى الآخر ومع ذلك لايشعر بامتلاكها - إنه شعور ضروري.

تمشيا معاً حول العشب الكثيف ونباتات السيتيسوس[1] المنتشرة، ولا يزالان يشعران وكأنهما في حلم غامض كالذي شعرا به من ربع ساعة، لو أن ستيفن يحصل فقط على تلك النظرة التي يتوق إليها بشغف أما ماغي فقد اعترتها مشاعر غامضة: - كيف وصلت إلى هنا؟ - لماذا خرجت؟ رفض الصمت الاستسلام.

قال ستيفن أخيراً: "احترسي أن تتعثري بالحجر".

"أوه، علي الدخول إلى المنزل الآن "، قالت ماغي، وقد أحس أن الحجر كان منقذاً لها في تلك اللحظة. "عمت مساءً".

سحبت يدها من تحت ذراعه على الفور، وهرولت نحو المنزل أدركت أن هذا التصرف المفاجئ عكس الارتباك ذاته الذي أحست به قبل نصف ساعة لم تفكر في شيء. لكنها دست نفسها في كرسي منخفض، وانهمرت دموعها.

"أوه فيليب، فيليب، أتمنى لو كنا معاً - نتمشى بهدوء - في الأعماق الحمراء".

راقبها ستيفن للحظة، ثم اتجه نحو القارب، الذي رسا في الميناء على الفور.

أمضى ليلته في غرفة البليارد، يدخن سيجاراً تلو الآخر. لكنه صمم ألا يفكر بشيء - وأن لايعترف بتأثير ماغي عليه طوال فترة وجودها في مخيلته كان يتأملها وهي تشبك ذراعه.

ولكن تملكته رغبة بالذهاب إلى المنزل تحت ضوء النجوم في جو يميل إلى البرودة قليلاً، في هذه اللحظة أحس بحماقته وقرر وقلبه يتألم على أن لايجلس لوحده مع ماغي ثانية.

---

[1] السيتيسوس: نبات من الفصيلة القرنية

كانت لحظة جنون: إنه يحب لوسي من كل قلبه، ومتعلق بها - ثمة رابطة قوية تجمعهما وهو بحاجة إليها كرجل شريف. تمنى لو لم يتعرف أبداً على الآنسة توليفر: سوف تكون زوجة محبوبة يهيم بها من يفكر بالارتباط بها، ولكن اختياره لن يقع عليها، لن يفكر بها لنفسه. هل تبادله المشاعر؟ تمنى لو لم تكن حقيقة مشاعرها مثل التي يحملها بين جوارحه نحوها. عليه أن يكبح جماح غرائزه في المستقبل.

ربما يجعل من نفسه أضحوكة، فكر في طريقة للشجار معها الشجار معها؟ وهل من الممكن الشجار مع مخلوق يملك تلك العينين - فيهما التحدي والاستنكار، التناقض والتشبث والتوسل المهيب - عينان مستبدتان مليئتان بصراعات شهية؟ مخلوق يأسره الحب ويأسر الآخر بفتنته.

كانت هناك تمتمات فيها الكثير من الاستغراب والتساؤل، تمتمات أنهت هذه المناجاة الداخلية للنفس، عندما ألقى ستيفن بعقب آخر سيجارة له، ودس يديه في جيبه، وتابع خطاه بهدوء عبر أرض تكسوها الجنبات والشجيرات.

الفصل السابع

عودة فيليب

كان صباح اليوم التالي ندياً: حيث من المحتمل أن يقوم الجيران من الذكور والذين ليس لهم ارتباطات ملزمة بالمهنة، بزيارة قصيرة إلى أصدقائهم المقربين. المطر الذي يمكن تحمله بحيث لن يعيق نزهة قصيرة، من المؤكد أن تشتد غزارته، ثم يتوقف رويداً رويداً، حتى أنه لايمكن لأي شيء أن يختصر الزيارة سوى شجار علني: الحقد الكامن لايمكن أن تؤتي ثماره على الإطلاق وإذا كان هناك عشاق في انكلترا، فما الذي يمكن أن يبعث البهجة في قلوبهم مثل صباح يوم ماطر؟

أشعة الشمس في انكلترا مريبة، والطقس غدار، وإن تجلس على العشب، فلا محالة تصاب بالزكام لكن المطر لايمكن أن يكون خائناً، بإمكانك تفاديه عندما ترتدي معطفاً مطرياً، حتى تستقر في المكان الذي تفضله - المكان الذي تجلس فيه الحبيبة، التي لأجلها تتحمل المشقات (لهذا السبب تكون النساء في الحال محط إعجاب وازدراء بآن واحد) ففي هذا الطقس لايمكن العثور على زائرات من السيدات يجبن الممرات.

قالت لوسي: "أعلم بأن ستيفن سيحضر في وقت مبكر هذا الصباح. من عادته أن يفعل ذلك عندما يكون الجو ماطراً".

لم تجب ماغي كانت غاضبة من ستيفن: بدأت تعتقد بأنه يجب عليها أن تكرهه، ولولا ذلك الجو الماطر، لذهبت إلى زيارة بيت خالتها غليك هذا الصباح، وبذلك تستطيع تفادي رؤيته لابد من التأقلم مع الوضع الحالي، لذلك يجب عليها أن تجد مسوغاً ما لبقاءها مع والدتها خارج الغرفة.

لكن ستيفن خَيَّبَ أمل لوسي، ولم يحضر مبكراً، كان هناك زائر آخر - جار أكثر قرباً - سبقه في الزيارة عندما دخل فيليب الغرفة، ذهب ليلقي التحية على ماغي، وهو يشعر بأن علاقتهما سرية وعليه عدم البوح بها علناً، ولكن عندما تقدمت ماغي ومدت له يدها، خمن في الحال أن لوسي على اطلاع بكل شيء وأنها تحظى بثقة ماغي في كتمان الأسرار. كانت لحظة مثيرة بالنسبة إليهما، ومع أن فيليب أمضى عدة ساعات في الاستعداد لهذه اللحظة، ولكن مثل بقية الأشخاص الذين يخوضون معترك الحياة، ويتوقعون أقل قدر ممكن من العاطفة الإنسانية أو التعاطف معهم نادراً ما فقد زمام السيطرة على نفسه

أو أبدى أية إشارة عاطفية تثير الانتباه بدا أكثر شحوباً قليلاً، وظهر توتر خفيف عند فتحتي أنفه وهو يتكلم بصوت يدل على اللامبالاة بالطقس البارد، كلها كانت دلالات عادة ما يستعملها فيليب في دراما داخلية لاتخلو من العنف

ماغي التي تمتلك قدرة أقل على كتمان مشاعرها، أحست أن عينيها تتسعان وتمتلئان بالدموع عندما تشابكت أيديهما ببعضهما بعضاً بصمت لم تكن دموعها مصدرها الإحساس بالألم: إنها مشابهة لتلك الدموع التي تذرفها النساء والأطفال عندما يجدون ملجأ آمناً يحميهم فيتشبثون به، ويحدقون خلفهم إلى الخطر الذي هددهم

أما فيليب، الذي اعتقد من مرور فترة قصيرة أن توم سوف سيؤنب ماغي، أصبح الآن الملجأ الذي ينقذها، ويمنحها القوة

وجدت عند فيليب فسحة مقدسة تحميها من تأثير الإغراء الذي عليها مقاومته أياً كان مصدره، لأنه يبعث الضوضاء في نفسها والبؤس كذلك هذا الإحساس الجديد تجاه علاقتها بفيليب ألغى كل بواعث القلق، مدت له يدها، وانهمرت دموعها دون تقييد داخلي توقعت لوسي ذلك المشهد، وامتلأ قلبها الحنون بالفرحة بعد لقاء ماغي بفيليب من جديد، وعلى الرغم من تقديرها الشديد لفيليب، لم تستطع مقاومة الانطباع الذي تولد في نفسها حتى أنها أعطت العذر لتوم في إحساسه المصدوم تجاه المفارقة الفيزيائية بينهما - شخص واقعي مثل ابن خالتها توم، لايحب الشعر ولا الحكايات الخرافية واستهلت الحديث على الفور، لتبعث جواً من الراحة

قالت بصوتها المرتعش العذب، مثل همسات العصافير الصغيرة :

"تصرف لائق منك أن تحضر إلى هنا فور وصولك لذلك أعذرك إن بقيت بعيداً هكذا، ولم تلق بالاً إلى أصدقائك الذين بانتظارك هيا، تفضل، واجلس هنا "، ذهبت لكي تسوي وضع الكرسي بحيث يرتاح في الجلوس، "وسوف تعامل هنا بشكل محترم "".

قال فيليب وهو يجلس: "أشكرك آنسة دين، لاأحد يشك في لطفك". مازحته لوسي قليلاً، لكن فيليب لم يكن يسمعها، لأنه كان مشغولاً بالنظر إلى ماغي، التي كانت أيضاً تحدق به بنظرة متفحصة حنونة كالتي تشع من عيوننا عندما نلتقي بصديق بعد طول بعاد - كم كانت لحظة البعاد طويلة! أحس فيليب وكأنه لم يفارقها إلا منذ الصباح - تذكر كل الأحاديث الودية التي جرت بينهما. اعتقد أنه قرأ في نظرة ماغي وسلوكها دليل على أنه حدث تغيير ما.

قالت ماغي: "إنني أستمتع بعطلة رائعة، أليس كذلك؟". لوسي بالنسبة لي

مثل عرّابة جميلة: تعاملني كالأميرة لاأفعل شيئاً هنا طوال اليوم، وتكتشف دائماً ماالذي أريده قبل أن أعرفه بنفسي".

قال فيليب: "إنني واثق من أنها سعيدة جداً بزيارتك كما ينبغي أن تكوني أكثر من مجرد مصدر سعادة للآخرين. تبدين في أحسن حال - إنك تستفيدين من هذا التغيير في حياتك".

استمر هذا النوع من المحادثة السطحية لفترة قصيرة حتى، قررت لوسي أن تضع حداً لها، مدعية أنها نسيت شيئاً ما، وعليها الانصراف بسرعة.

خلال لحظة استند كل من ماغي وفيليب إلى الأمام، وتشابكت الأيدي ثانية ببعضهما بعضاً، وفي عيونهما إحساس حزين بالرضا كالذي تشهده في عيون الأصدقاء الذين يتقابلون ولا تزال ذكريات أليمة تضج في ذاكرتهم.

"أخبرت أخي بأنني أرغب برؤيتك . فيليب - طلبت منه أن يحلني من وعدي، ووافق على ذلك".

ماغي، وبشكل متهور، رغبت في أن يعلم فيليب على الفور أنهما لايلتقيان سراً، لكنها سيطرت على نفسها. الأمور التي حدثت منذ صرح لها بحبه كانت مؤلمة جداً حتى إنها امتنعت عن الإشارة إليها. مجرد ذكر اسم أخيها سبب إهانة إلى فيليب - أخوها الذي أهانه. لكنه قدر مشاعرها في تلك اللحظة.

"إذاً باستطاعتنا أن نكون صديقين يا ماغي؟ لاتوجد عقبات أمامنا الآن؟".

قالت ماغي وهي تسحب يدها: "هل سيوافق والدك؟".

قال فيليب بخجل: "لن أتخلى عن علاقة تجمعنا يا ماغي هنالك أمور كثيرة لاأوافق والدي عليها كما أخبرتك من قبل يا ماغي، وهذه المسألة واحدة منها".

"إذاً لاتوجد معوقات أمام صداقتنا، فيليب - بإمكاننا أن نتقابل، ونتحدث في هذه الفترة التي أمضيتها هنا: لأنه عليّ المغادرة من جديد. أقصد عليّ الانتقال في الحال - إلى موقع جديد".

"هل هذا أمر لامفر منه يا ماغي؟".

"أجل لاينبغي أن أمكث هنا مدة طويلة الحياة هنا لاتناسبني عليّ البدء من جديد. لايمكنني العيش دائماً عالة على غيري - يجب أن أعتمد على نفسي - لاأستطيع العيش مع أخي - مع أنه طيب معي كثيراً إنه يلبي كل طلباتي عن طيب خاطر، لكنني لاأقبل أن يستمر الوضع هكذا".

صمت فيليب بضع لحظات، ثم قال بصوت ضعيف حاد يدل على أنه أحس بقمع حازم لعواطفه :"أليس هناك من بديل، ماغي؟ هل هي تلك الحياة، بعيداً

عن أولئك الذين يحبونك، التي تسمحين لنفسك بأن تتطلعي إليها؟"قالت وهي تنظر إليه متوسلة وكأنها تتوسل إليه أن يصدق بأنها مضطرة لهذا القرار: "أجل، فيليب على الأقل، إن استمرت الأمور هكذا، لايمكنني معرفة الحال الذي سأؤول إليه ولكنني بدأت أدرك أنه ليس باستطاعتي نيل السعادة من الحب فقط: إنه يمتزج دائماً بالألم والمرارة أتمنى أن أصنع عالماً آخرَ خارج إطاره كما يفعل الرجال".

"والآن، إنك تعودين إلى أفكارك القديمة في شكل جديد يا ماغي - الأفكار التي اعتدت على مناقضتها "قال فيليب بمرارة "إنك ترغبين باكتشاف أسلوب للتنازل يمكنك من الهروب من آلامك أقول لك للمرة الثانية، لايمكن تحقيق هذا النوع من الهروب إلا بإفساد أو تشويه طبيعة المرء.

كيف سأصبح، إن حاولت الهروب من الألم؟ ستكون السخرية والازدراء الأفيون الوحيد الذي التجأ إليه، إلا إذا سقطت في هاوية خداع النفس والجنون، والوهم بأنني الأفضل لأن الرجال لايحبذون شخصاً مثلي".

اتخذ الألم شكلاً مندفعاً بينما كان فيليب يتكلم: بدت الكلمات بوضوح أنها منفذ لتفريغ مشاعر آنية، بالإضافة إلى كونها رداً على كلام ماغي في تلك اللحظة ألح عليه الألم بقوة امتنع بحساسية واعتزاز عن التلميح ولو بشكل ضئيل، إلى كلمات الحب - الحب الذي تعاهدا عليه بدا، وكأنه يحاول أن يذكر ماغي بوعدها، الذي تحتقره، وتمقته الآن لم يستطع الاعتراف بأنه هو نفسه قد تغير. حبه لماغي أخذ طابعاً مبالغاً به، أحس بأنه استثناء - وبأنها، وكذلك كل شخص يرون فيه مجرد استثناء.

لكن ماغي فهمت مشاعره

قالت ماغي بأسلوبها الطفولي المعهود الذي كانت تستعمله عندما تحس بالندم، بعد أن يؤنبها فيليب :

"أجل فيليب، أعلم بأنك على حق إنني دائماً أهتم كثيراً بمشاعري، وأتجاهل مشاعر الآخرين إنني بحاجة إليك لكي تكشف لي أخطائي التي لاأراها وتعلمني ما أجهله: اعتدت أن تخبرني أشياء كثيرة تأكدت فيما بعد أنها حقيقية".

عندما قالت ماغي تلك العبارات كانت تسند مرفقها على الطاولة، وتتكئ برأسها على يدها وهي تنظر إلى فيليب بعاطفة، وندم إلى حد ما، بينما كان يحدق إليها وهو يسبح في الذكريات الماضية التي جمعتهما. هل أحسّ بأي تغيير من نوع خاص قد طرأ عليها؟ - شيء ما يتعلق بحبيب لوسي؟ جعلتها هذه

الفكــرة تــرتعش: أدركــت موقعهــا الحــالي، ورأت الأشــياء بمنظــار جديــد، بعــد أن تــذكرت مــا حــدث ليلــة أمــس أزاحــت ذراعهــا عــن الطاولــة لــتغير موقعهــا وكأنهــا تعرضت لوخزه صغيرة حادة مفاجئة

"مــا الأمــر مــاغي؟ هــل حــدث شــيء مــا؟ "، قــال فيليــب بقلــق يفــوق الوصــف - بما أن خياله لايسعفه إلا بالتفكير بقدر مشترك بينهما.

"لاشــيء "، قالــت مــاغي وقــد اســتثارت طاقتــها الكامنــة لاينبغــي أن يعلــم فيليــب أي شــيء يخلــق في ذهنــه تلــك الفكــرة البــشعة: هــي ســوف تمنعهــا بطريقتــها. كــررت "لاشــيء". مجــرد أفكــار خطــرت ببــالي اعتــدت أن تقــول دومــاً بــأنني أتــذكر مــشاهد مــن حيــاتي المتعبــة إنــني تواقــة جــداً لــسماع الموســيقا وكــل أنــواع رفاهيــة الــنفس، والآن تحقق لي كل هذا".

أخــذت تطريزهــا، وانــشغلت بــه بــشكل متعمــد، بينمــا كــان فيليــب يراقبــها، بارتيــاب محــاولاً أن يكتــشف إن كــان هنالــك خطــب مــا غــير هــذا الــوهم العــام الــذي أصــاب فكرهــا. كانــت مــاغي تتــأثر بطبعهــا بتلــك النظــرات الــتي تحــاول الــدخول إلى أعماقها. وسمع في الحال صوت جرس الباب

قالت ماغي بانفعال: "ما هذا الإعلان المخيف! أتساءل أين ذهبت لوسي".

لم تكــن لوســي صــماء، ولكــن بعــد فاصــل طويــل يكفــي لــلإدلاء بــبعض الملاحظات السرية، دخلت لتعلن مجيء ستيفن.

"حــسنٌ، صــديق قــديم "، قــال ســتيفن وهــو يتقــدم نحــو فيليــب مــصافحاً إيــاه بحــرارة، ويــنحني لمــاغي، وهــو يمــر بجانبــها، "إننــا ســعداء بعودتــك مــن جديــد، مــا أتمنــاه منــك فقــط أن تطلــع أصــدقاءك علــى موعــد رحيلــك، وأن لاتكــون مثــل العــصفور الــذي يختــار إقامتــه في أعلــى المنــزل، فتــذهب بــدون أن يعلــم الخــدم بموعــد مجيئــك فهــذه المــرة العــشرين تقريبــاً الــتي أتــردد فيهــا علــى درجــات منزلــك الــتي لاتنتــهي لكــي أصــل إلى غرفــة الرســم وفي النهايــة لاأجــدك هنــاك أمــور كهــذه تسبب الضيق للأصدقاء".

"زواري قليلــون جــداً - أرى أن الأمــر لايــستحق الإعــلان عــن رحيلــي "، قــال فيليب، وقد أحس بالقمع إلى حد ما بسبب حضور ستيفن المثير وصوته القوي.

"هل أنت بصحة جيدة هذا الصباح آنسة توليفر؟ "، قال ستيفن، وهو يستدير نحوها بتهذيب، ويرفع يده في الهواء ليؤدي نوعاً من الواجب الاجتماعي.

قالــت مــاغي بنــبرة لامبــالاة: "بــصحة جيــدة، أشــكرك". كــان فيليــب يراقبــهما بلهفــة، لكــن لوســي اعتــادت أن تــشهد تباينــاً في ســلوكهما مــع بعــضهما بعــضاً، وفكرت بأسف أنه توجد علاقة بينهما فيها شيء من النفور والكراهية المتبادلة

"ماغي ليست نموذجاً للمرأة التي تنال إعجاب ستيفن، وهي لاترتاح لبعض السمات التي يمتاز بها، وتعتبره مخادعاً "، كانت تلك الفكرة تلح بصمت في فكر لوسي لم يكمل ستيفن وماغي تبادل التحية حتى أحسًا بالإهانة نتيجة هذا البرود الذي يطوقهما. وطوال الفترة التي كان ستيفن يتحدث فيها ستيفن مع فيليب، ويسأله عن أخبار رحلته، كان يفكر بماغي كثيراً، لأنه لم يحاول إقحامها في حديثه مع فيليب كما كان يفعل عادة عندما يتحدث مع لوسي.

فكرت لوسي: "لاتبدو السعادة على فيليب وماغي إن اللقاء الأول بينهما بعد طول غياب كان له أثر حزين بالنسبة إلى كليهما".

قالت لستيفن: "أعتقد أن أناساً مثلنا لن يركضوا في هذا الجو الماطر. دعونا نستمع للموسيقا، ونتغلب على رطوبة الطقس قليلاً. علينا أن نستغل وجود فيليب وستيفن معاً. هيا شكلا ثنائياً لغناء أوبرا من "ما سانيللو"[1]: لم تسمعها ماغي، أعلم أنها ستعجبها كثيراً".

"هيا إذاً، برم، برم "، قال ستيفن وهو يتجه نحو البيانو، ويعزف قليلاً تمهيداً للأوبرا الثنائية.

قالت لوسي: "هيا أرجوك فيليب - سوف تستمتع بصحبتنا "، ثم أضافت وقد ارتسمت في عينيها نظرة متسائلة قلقة وعذبة كعادتها، لئلا تقترح أمراً لايستسيغه الآخر، وكانت تنظر بتوق إلى تطريزها الذي لم ينته بعد: "بعد ذلك بإمكاني الانصراف إلى عملي أنت تحب العزف كثيراً، أليس كذلك؟".

أشرق وجه فيليب بعد هذا الاقتراح، وبما أنه لاتوجد أية مشاعر إنسانية، باستثناء الخوف والأسى، لايمكن أن تجد راحة لها في الموسيقا، وفيليب كان على استعداد للعزف بأفضل ما يمكن، فقد تزاحمت المشاعر عليه في هذه اللحظة، خليط من الحب والغيرة والاستسلام والريبة الشرسة، كلها في آن واحد.

قال فيليب وهو يجلس إلى البيانو: "أوه بالطبع. إنها طريقة لاستكمال ما ينقصنا في حياتنا. سوف نشكل ثلاثياً غنائياً مع البيانو، ونصغي لأصواتنا جميعاً - أو نغني، ونرسم".

قال ستيفن "آه، إنك شخص محبوب بالنسبة لي لايمكنني أداء أي شيء بأصابعي فقط. أعتقد أن هذا ما يميز الرجال من ذوي الطاقات والإبداعات

---

[1] ماسانيللو: أوبرا من ماسانيللو عام (1828) لمؤلفها دانييل فرانسيس - اسبرت آوبر (1871 - 1782) وهي شائعة في العالم الذي يتكلم الانكليزية

العظيمة الميل إلى الهيمنة على كل الطاقات الكامنة في داخلي! - ألم تلاحظي هذا، آنسة توليفر؟".

أخطأ ستيفن دون أن ينتبه، وكعادته بدأ يوجه الحديث الهزلي إلى ماغي، التي لم تستطع إخفاء توردها فقالت متبسمة :

"أجل لاحظت الهيمنة على الطاقات الكامنة "، وفي تلك اللحظة كم تمنى فيليب لو لم تعجب ماغي بتلك الهيمنة

قالت لوسي: "هيا، هيا. موسيقى، موسيقى! سنناقش ميزات بعضنا البعض في وقت آخر".

دائماً كانت ماغي تحاول الانشغال عبثاً في عملها عندما تصدح الموسيقى. بذلت جهداً هذه المرة أكثر من أي يوم سابق، لأنها حاولت مقاومة الفكرة التي آمن بها ستيفن، وهي أنه أدرك كم كانت ماغي مهتمة إلى درجة كبيرة في غنائه، لكنها سعت إلى دحض هذه الفكرة بمقاومة تأثير غنائه عليها، ولأنها علمت أيضاً، أن من عادته دائماً الوقوف في مكان معين بحيث يتسنى له رؤيتها بشكل واضح.

ما من جدوى: في الحال ألقت بتطريزها جانباً، وضاعت كل نواياها في حالة غامضة من تدفق الإحساس الذي أوصى لها به الثنائي الغنائي - الإحساس الذي جعلها في الحال تشعر بالقوة والضعف بآن واحد: القوة بسبب كل هذه المتعة، والضعف الناتج عن مقاومة المشاعر.

عندما خفَّت درجة التوتر في العزف، أجفلت ماغي قليلاً بسبب ذلك التغيير، وأحست برعشة مفاجئة يا لماغي المسكينة!

بدت متألقة الجمال وهي تبدو شديدة التأثر بالطاقة العنيفة للصوت.

بإمكانك أن تراقبها وهي تتكئ إلى الأمام تشبك يديها ببعضهما بعضاً، وكأنها تحاول أن تبقى ثابتة في مكانها ،وقد سرت رعشة في كامل جسدها، بينما اتسعت عيناها، ولمعتا ببريق أخاذ، استرجع تعابير الطفولة التي كانت ترتسم على وجهها عندما تستعيد أكثر ذكرياتها سعادةً.

لوسي التي كانت بالقرب من البيانو، لم تستطع أن تقاوم القوة الدافئة التي جعلتها تذهب خلسة باتجاه ماغي، وتطبع قبلة حنونة على خدها. فيليب أيضاً لمحها بنظرة، وأحس أنه لم يسبق له أن رآها متأثرة لهذه الدرجة.

قالت لوسي وهي ترغب بتكرار الأغنية :

"هيا المزيد، المزيد! شيء ما يثير الروح من جديد. تقول ماغي دائماً أنها تحب هذا الاندفاع الشديد في الصوت".

قال ستيفن: "إذاً لابد أن نغني "دعونا نسلك الطريق،[1] - إنها مناسبة جداً لهذا الصباح الندي ولكن هل أنت مستعدة للتخلي الآن عن أكثر واجبات الحياة قداسة، وتنضمين للغناء معنا؟".

قالت لوسي وهي تضحك: "أوه، أجل إذا اخترت المقطوعة من أوبرا الشحاذ".

قال ستيفن بينما كان يبحث عن النوطه: "إنها فكرة عظيمة، أن نعزف مقطوعة من هذه الأوبرا المشهورة".

لاحظت لوسي أن فيليب كان يدندن أمام البيانو بشكل عشوائي: "أوه، هيا يا فيليب، اعزف لنا شيئاً ريثما يعثر ستيفن على النوطة شيء ممتع لم أسمعه من قبل".

قال فيليب وهو يركز على العزف بشكل أفضل: "ألا تعرفين هذا اللحن؟ إنه مأخوذ من أوبرا سونا مبولا[2] - آه! لاأعرف الأوبرا، لكنها تظهر كيف يقول الرَّجُل للبطلة بأنه سيحبها مدى الحياة حتى وإن فكرت في هجره لقد سمعتني أغنيها من قبل باللغة الانكليزية، "لاأزال أهيم بك "، لم يكن اختيار فيليب لهذه الأغنية اعتباطياً، بل عزفها متعمداً، ربما تكون أسلوباً غير مباشر للكشف عن مكنونات مشاعره التي لم يستطع البوح بها بشكل مباشر أمام ماغي، التي أحست بما كان يريد قوله، فانهمرت دموعها، وعندما بدأ الغناء، أدركت معنى العاطفة الكئيبة التي صدحت بها الموسيقى لم يتمتع ذلك الرَّجُل المتوسل بميزات الصوت الكافية، لكنه صوت ليس بغريب عنها: غنى لها بطريقة تعبر عن نفس مقهورة وكئيبة، تذكرت نزهاتهما وسط الأراضي المعشوشبة وتحت شجرة الدردار المائلة في الأعماق الحمراء.

بدت كلماته فيها تأنيب ولوم - هل كان فيليب يقصد هذا؟ تمنت لو استطاعت أن تشرح له الأمر بوضوح أكثر، وبأنها لاترغب في تجديد البؤس وإنعاش أي أمل بعودة الحب بينهما، لسبب وحيد وهو أن ذلك الحب يتناقض مع ظروفها الصعبة تأثرت كثيراً، ولم تنتش بالأغنية: وإنما الأغنية جعلتها تستعيد ذكريات وأفكاراً واضحة، وأحست بالندم وسط أجواء ممتعة

قال ستيفن، الذي كان ينتظر والنوطة الموسيقية في يده حتى انتهى فيليب من أغنيته :

"هذه طريقتكم أيها الرِّجال إنكم تفسدون أخلاق الجنس اللطيف، وتكسبون

---

[1] أغنية من أوبرا الشحاذ (1728).

[2] أوبرا سوناميولا (1831 لمؤلفها فنسنزو بيلليني (1801 - 1835).

تعاطفهن من خلال التعبير عن المشاعر الفياضة بالغناء. هذا الأسلوب يجعلكم عاجزين عن البوح بكل أحاسيسكم أما بالنسبة لي، عليّ أن أنشغل بنفسي، وأصنع دواءً مضاداً للسموم، عندما تكون الآنسة دين مستعدة لتغني نفسها وسط بكرات خيوط الغزل".

استدار ستيفن بحيوية وحرارة - "هل عليّ دفن نفسي في اليأس، والموت حباً لأجل جمال امرأة؟".

وبدا أنه غير الجو النفسي المخيم على الجميع، وأحدث تأثيراً جديداً.

لوسي التي كانت دائماً فخورة بستيفن، ومعجبة بكل تصرفاته، اتجهت نحو البيانو وهي تضحك، وترمقه بنظرات الإعجاب، أما ماغي، وعلى الرغم من محاولتها أن تقاوم تأثير الأغنية والمغني على روحها، فقد أحدث فيها ذلك التصرف الجريء مفعولاً خفياً وقوياً في نفسها.

قررت بغضب أن تتمالك نفسها، وتسيطر على مشاعرها، فأمسكت تطريزها، وتظاهرت بالانشغال الشديد في العمل، ولم تنظر إلى أحد أو تبد أية ملاحظة، حتى بدأ ثلاثتهم يغنون مقطوعة "دعونا نسلك الطريق".

كم أخشى أن يتولد لديها إحساس رقيق بالرضا المكتوم إن علمت بأن هذا الشاب الجريء والعنيد مفتون بها لدرجة كبيرة: كيف حصل هذا الانقلاب المفاجئ، فتحول بسرعة عن تصميمه في التعامل معها بلا مبالاة إلى رغبة مثيرة للحصول على إيماءة بسيطة منها - كلمة ما أو حتى نظرة منها. لم يمض وقت طويل قبل أن يجد فرصة مواتية لإظهار اهتمامه بها عندما صدحت موسيقى "العاصفة".

ماغي التي أحست بحاجتها إلى مسند قدم، كانت تتمشى في الغرفة لتحصل على واحد، في هذه الأثناء لم يكن ستيفن يغني، بل كان يراقب كل تحركاتها، فخمن على الفور ما كانت تبحث عنه، اندفع، وقدّم لها مسند القدم، وهو يرمقها بنظرة متوسلة أرغمت ماغي على مبادلتها بنظرة امتنان ثم حاول وضعه بشكل يريحها، وسألها إن كان موقعه مناسباً بين النافذة والموقد، وأن تسمح له بإزاحة طاولة العمل لترتاح أكثر - كل هذه التصرفات تستقطب فوراً الحنان في عيني المرأة وبالنسبة إلى ماغي لم تكن أشياء كهذه تحدث يومياً، كانت جديدة في حياتها. تلك النبرة الرقيقة أجبرتها على التحديق ملياً في ذلك الوجه الذي انحنى باتجاهها، لتقول له، "لا، أشكرك "، ولم يكن هنالك مجال لتفادي تلك النظرات المعمقة المتبادلة كالتي تبادلاها ليلة أمس.

كان تصرف مهذب اعتاد ستيفن القيام به، أما لوسي، التي كانت مشغولة

بالغنـاء، لم تنتبـه إلى تـصرفه ولكـن فيليـب لاحظـه بوضـوح، وزاد ذلـك مـن القلـق الـذي شـغل تفكـيره، وجعلـه يـشك في أكثـر الحـوادث تفاهـة، هـذا التـوق المفـاجئ في وجـه سـتيفن، والتغـيير الملحـوظ الـذي طـرأ علـى مـاغي، أظهـرا تباينـاً واضـحاً بالمقارنـة مـع إشـارات اللامبـالاة الـتي بـدت عليهمـا في أول الجلـسة، ممـا جعـل فيليب يتألم أكثر.

عـاود سـتيفن الغنـاء، لكـن فيليـب أحـس أن صـوته ثقيـل الوطـأة علـى أعـصابه للغاية، لم يعدْ يقوى على العزف بشكل جيد، بدا صوته نشازاً.

في حقيقـة الأمـر لم يـرَ أن هنالـك مـبرراً كافيـاً للـشك بوجـود أيـة مـشاعر خاصـة بـين سـتيفن ومـاغي، هكـذا حَلـل المـشهد بـشكل منطقـي، وتمنـى لـو لم يقفـل راجعـاً إلى المنـزل وفي الحـال لكـي يـدحض كـل شـكوكه، ويؤكـد بطلانهـا. أحـس فيليـب المـسكين، أن كـل رجـل يتقـرَّب مـن مـاغي، سـوف يقـع في غرامهـا بـشكل طبيعـي! ولكـن لايوجـد أيـة بـوادر سـعادة يمكـن أن تـنعم بهـا مـاغي، إن أغواهـا حـب سـتيفن غيـست، هـذه الفكـرة آلمتـه كـثيراً، وبـدأ يعـزف بـشكل سـيء وهـو شـارد الـذهن وسـط هـذه الـضوضاء الداخليـة الـصماء، وكانـت لوسـي تنظـر إليـه بدهـشة، عنـدما دخلـت الـسيدة تـوليفر الغرفـة لتـدعوهم لتنـاول الغـداء ،وكـان دخولهـا قـراراً مفاجئاً عفوياً لإنهاء العزف.

قال السيد دين، عندما دخلوا غرفة الطعام :

"آه، سـيد فيليـب، لم أرَكَ منـذ فـترة طويلـة أعتقـد أن والـدك لـيس في المنـزل، أليس كذلك؟ ذهبت لزيارته منذ مدة ،وقالوا لي أنه خارج البلدة".

أجاب فيليب: "ذهب إلى ميد بورت في عمل لعدة أيام، لكنه عاد الآن".

"إنه مولع بهوايته في الزراعة كما كان سابقاً إيه؟".

"أعتقـد ذلـك "أجـاب فيليـب وهـو منـدهش مـن هـذا الاهتمـام المفـاجئ بأخبـار والده

قـال الـسيد ديـن: "آه! أعتقـد أنـه يمتلـك بعـض الأراضـي علـى هـذا الجانـب مـن النهر بالاضافة إلى الجانب الأخر؟".

"أجل، عنده أراضٍ".

تابع السيد دين وهو يوزع فطيرة الحمام :

"آه! لابـد أنـه وجـد في الزراعـة عبئـاً ثقـيلاً - إنهـا هوايـة مكلفـة الـثمن. لـيست عنـدي هوايـة خاصـة بـي - ولا أنغمـس في أمـور كهـذه وأسـوأ الهوايـات هـي تلـك الـتي يعتقـد النـاس أن بمقـدورهم كـسب المـال مـن ورائهـا. إنهـم يـشبهون الـذين يبددون أموالهم سدىً".

تضايقت لوسي بسبب انتقاد والدها الصريح لتبذير السيد واكيم لكن هذا النقاش توقف عند هذا الحد، وبدا السيد دين صامتاً وشارد الذهن وهو يتناول طعامه، لكنها تساءلت عن سبب هذا الاهتمام بأخبار والد فيليب، واسترعاها فضول غير عادي لمعرفة الدوافع خلف هذه الاستفساراتوصمته اللاحق جعلها ترتاب في الأمر أكثر، وكانت على ثقة من أن وراء ذلك الصمت سبباً خاصاً جعله يطرح أسئلته

وبعد أن غادرت خالتها توليفر غرفة الطعام، وجدت لوسي الفرصة سانحة للاستفسار من أبيها عما حدث، فجلست على مقعد صغير قرب ركبة والدها. قالت وهي تسحب مقعدها الصغير :

"ألا تريد الذهاب الآن إلى النوم بابا، هل تريد؟".

ليس بعد "، قال السيد دين وهو يحدق إلى دورق الخمر. ثم أضاف وهو يفرك ذقنه ببرود: "ماذا تريدين؟ مزيداً من الجنيهات من أجل بازارك؟ إيه؟".

"لا، أريد أن أتحدث معك، وليس في نيتي طلب أي شيء. أود معرفة السبب الذي جعلك تسأل فيليب واكيم عن زراعة والده اليوم، بابا؟ بدا الأمر غريباً، لأنك نادراً ما تتكلم عن والده، ولماذا تهتم بأمره ،وبالمال الذي ينفقه من أجل ممارسة هوايته؟".

قال السيد دين، وهو يلوح بيده، وكأنه أراد إخماد فضولها وإبقاء الأمر غامضاً: "شيء ما يتعلق بالعمل".

"ولكن بابا، إنك تقول دوماً بأن السيد واكيم ربى فيليب كما يربي فتاة: كيف خطر في بالك أن تحصل منه على أخبار عمل والده؟ بدت تلك الأسئلة غريبة إلى حد ما. أحس فيليب بأنها غريبة".

"ماهذا الهراء يا طفلتي! "قال السيد دين، محاولاً أن يبرر تصرفه الاجتماعي "هناك إشاعة بأن طاحونة ومزرعة واكيم التي تقع على الجانب الآخر من النهر - طاحونة دورلكت، تعرفينها، طاحونة عمك توليفر - تقول الإشاعة بأن الطاحونة لاتعمل كما يجب أردت أن أستفسر من صديقك فيليب إن كان والده قد سئم من الزراعة".

قالت لوسي بلهفة :

"لماذا؟ هل ستشتري الطاحونة يا بابا، في حال تخلى عنها؟ أوه، أخبرني بكل شيء الآن لأن ماغي تقول بأن العائلة كلها متلهفة لليوم الذي يسترجع فيه توم الطاحونة. إنها الأمنية الأخيرة التي تمناها والدها قبل وفاته، وطلب من توم استرجاع الطاحونة".

"اسكتي، أنت ما زلت صغيرة لاينبغي أن تتفوهي بكلمة حول هذا الموضوع - هل تسمعين؟ هنالك فرصة ضئيلة جداً لاسترجاع الطاحونة، حتى أنه لايمكن لأي شخص انتزاع ملكيتها من السيد واكيم وإذا علم واكيم بنيتنا لاسترجاعها لمصلحة عائلة توليفر ثانية، سوف يتشبث بها أكثر، وسيكون الأمل ضعيفاً جداً باستردادها. بعد كل ما حدث يبدو لي من الطبيعي أن يتمسك بها. لقد تصرف مع عائلة توليفر بشكل لائق قبل أن تحدث تلك المشاكل ولكن بعد حادثة الحصان وضربه بالسوط، أظن المسألة في غاية الصعوبة".

قالت لوسي بشيء من الرصانة :

"والآن بابا، هل ستمنحني ثقتك؟ لاتسأل عن كل الأسباب التي دفعتني لقول ما سأقوله الآن - لكن لدي مبررات قوية وإنني حذرة للغاية - بالفعل إنني كذلك".

"حسنٌ، دعينا نسمع".

"أعتقد إن سمحت لي بأن أكسب ثقة فيليب - وأخبره برغبتك في الشراء، والأسباب الكامنة وراء هذه الرغبة - وهي أن ابن خالتي يتمنى استردادها، ولديه مبررات قوية لذلك - أعتقد عندئذ أن فيليب سيتفهم الأمر. أعلم بأنه لن يمانع".

قال السيد دين وقد بدت عليه الحيرة :

"لاأعرف كيف يمكن أن يتحقق هذا يا طفلتي لماذا سيهتم لأمرنا؟ "— بعد ذلك قال، وهو يرمق ابنته بنظرة معمقة: "لاتعتقدي بأن ذلك الغلام المسكين مغرم بك، حتى أنك تستطيعين إقناعه بما ترغبين؟".

(كان السيد دين واثقاً تماماً من مشاعر ابنته).

"لا، بابا، إنه لايكترث بي كثيراً - بل على العكس إنني أهتم به أكثر مما يفعل ولدي سببٌ كافٍ لقول هذا. لاتسألني ما هو. وإذا كنت تخمن ما هو، فلا تخبرني به وأعطني فرصة فقط لفعل ما أراه مناسباً".

نهضت لوسي من مقعدها لتجلس على ركبة والدها، وقبلته مع هذا الطلب الأخير.

قال وهو ينظر إليها بحبور :

"هل أنت واثقة من أنك لن تفسدي الأمر الآن؟".

"واثقة تماماً، بابا. إنني أتحلى بالحكمة، لقد ورثت كل مواهبك في العمل".

"حسنٌ، حسن وبالنسبة إلى الاعتراف بالحقيقة، أعتقد أنه لاتوجد أمامنا فرصة أخرى والآن دعيني أذهب إلى النوم".

الفصل الثامن

تغيير طفيف على واكيم

بعد مرور ثلاثة أيام على المحادثة التي جرت بين لوسي ووالدها، سعت جاهدة لتلتقي بفيليب أثناء زيارة ماغي إلى بيت خالتها غليك بقي فيليب طوال يوم كامل وهو يفكر بما قالته له لوسي في ذلك اللقاء، حتى عزم أمره بشكل نهائي، وقرر أن يفاتح والده بالموضوع. فكر في احتمال أن يبدل موقعه، ويجعل ماغي تحترمه، ويزيل على الأقل إحدى العقبات في طريقهما. أجرى حساباته، ورسم خططه ليجد فرصة مواتية للحديث مع والده راقبه جيداً، وبعد أن أدرك أن ليس لديه عمل ملح سوى تلك الجريدة التي كان يقرؤها، لحق به ووضع يده على كتفه وقال :

"بابا، هل تسمح بمرافقتي إلى حجرتي، لكي ترى رسوماتي؟ لقد رتبتها الآن".

قال واكيم وهو يرمق ابنه بنظرة حنان، ويضع جريدته :

"أشعر بالإرهاق الشديد بعد صعود تلك الدرجات التي لاتحصى. ولكن هيا بنا".

أول ملاحظة أبداها لدى دخوله غرفة الرسم كانت :

"هذا مكان جميل مناسب لك كثيراً يا فيل أليس كذلك؟". أحب أن يذكر نفسه وابنه أيضاً أنه أب مكافح يلبي طلبات ابنه لديه والد طيب ولن يكون لدى أميلي أي مبرر لتوجيه اللوم إليه، إذا عادت ثانية من قبرها! قال وهو يركز نظارته من فوق أنفه، ويجلس ليلقي نظرة عامة على الرسومات "هيا، هيا. لديك معرض مشهور هنا. أعتقد أنها لوحات بارعة لاتقل جمالاً عن لوحات ذلك الفنان في لندن - ماذا كان اسمه - إنه ليبرن الذي تكلفه لوحاته الكثير من المال".

هز فيليب رأسه وابتسم جلس على مقعده المخصص للرسم، وأمسك بيده قلم رصاص، وبدأ يرسم به إشارات تخفف من اضطرابه راقب والده عندما نهض، وتمشى ببطء في أرجاء الغرفة مذهولاً بتلك اللوحات المرسومة بإتقان، حتى وقف أمام لوحتين وضعتا بجانب بعضهما بعضاً - إحداهما أكبر حجماً من الأخرى - صنعت الصغرى من الجلد المدبوغ. قال واكيم وقد أصابته دهشة مفاجئة :

"يا إلهي! ما هذا اعتقدت أنك أقلعت عن رسم الأشخاص من هؤلاء؟".

في الحال أجاب فيليب بهدوء: "هاتان اللوحتان للشخص ذاته، ولكن في أعمار مختلفة".

"ومن ذلك الشخص؟". سأل واكيم وهو يحدق بحدة وارتياب في الصورة الكبيرة.

"الآنسة توليفر. اللوحة الصغيرة لها، رسمتها عندما كنت مع أخيها في مدرسة الملك لورتن: أما الأخرى الأكبر حجماً رسمتها عندما عدت من السفر".

تلون وجه واكيم، وتغيرت ملامحه، ولم يكترث لسقوط نظارته، كان ينظر إلى ابنه بشراسة عدة لحظات، وكأنه مستعد لسحق ذلك المخلوق الضعيف في مقعده لكنه رمى بنفسه ثانية في كرسيه، ودس يديه في جيبي بنطاله، وهو لايزال يحدق بابنه بغضب لم يبادله فيليب النظرات، وإنما كان جالساً بهدوء وهو يراقب طرف قلمه الرصاص.

"وهل تقصد أن تقول، بأنك كنت تقابلها منذ عودتك من الخارج؟". قال واكيم أخيراً، بعد عناء عقيم لاينفع معه الحقد، بما أن الضرب ممنوع".

أجل قابلتها عدة مرات على مدار السنة وقبل وفاة والدها. غالباً ما كنا نلتقي بين تلك الأشجار الكثيفة - في الأعماق الحمراء - بالقرب من طاحونة دورلكت. إنني أهتم لأمرها لدرجة كبيرة: وليس بمقدوري أن أحب أية امرأة غيرها. إنها تشغل تفكيري مذ كانت طفلة صغيرة".

"هيا أكمل يا سيدي! - ومتفق معها أيضاً على كل شيء طوال هذه المدة؟".

"لا، لم أخبرها بأني أحبها حتى يوم افترقنا، وهي وعدت أخاها بألا تقابلني ثانية، أو تراسلني. لست متأكداً من أنها تبادلني المشاعر ذاتها، أو أنها توافق على الزواج بي. ولكن إن وافقت - إن أحبتني بما فيه الكفاية - سوف أتزوجها".

"وهل هذا جزاء معروفي، وتسامُحي معك؟ "، قال واكيم، وقد شحب وجهه، وبدأ يرتعش تحت وطأة موجة غضب عارمة، حتى هب فيليب يدافع عن نفسه بهدوء.

قال وهو ينظر إلى والده لأول مرة: "لابابا، لست ناكراً للجميل. إنك والد متسامح معي، ولا تتوقع مني أن أضحي بكل فرص السعادة إرضاءً لمشاعرك التي لاأستطيع مشاركتك بها".

قال واكيم بحدة: "أعتقد أن معظم الأبناء يشاركون آباءهم في مشاعرهم تجاه مسألة ما. والد الفتاة كان متوحشاً وجاهلاً، كاد يقتلني في لحظة وكل البلدة تعرف هذا. وأخوها شاب وقح يعاملني بكل برود. لقد منعها من مقابلتك، كما تقول، سوف يهشم جسدك إرباً، إن لم تنتبه جيداً. ولن يسمح لك بتحقيق سعادتك العظيمة.

ولكن من الواضح أنك قررت وانتهى الأمر: افترض أنك تعرف النتائج جيداً.

بالطبع أنت مستقل عني وبإمكانك الاعتماد على نفسك: تستطيع الزواج بهذه الفتاة غداً، إن أحببت: إنك شاب بالغ في عمر الخامسة والعشرين - وبوسعك أن تشق طريقك بنفسك، كما أستطيع أن أسلك الطريق التي تناسبني لذلك لسنا بحاجة لمزيد من النقاش".

نهض واكيم، واتجه نحو الباب، ولكن شيء ما أمسكه من ظهره، وبدلاً من مغادرة الغرفة، جثم في مكانه صمت فيليب قليلاً، وعندما تكلم، كانت نبرته هادئة وحادة وواضحة أكثر من السابق.

"لا، لاأستطيع أن أتزوج الآنسة توليفر، حتى لو قبلت بي - لقد نشأت وأنا لاأستطيع مزاولة أية مهنة لاأستطيع أن أقدم لها الفقر بالإضافة إلى عاهتي الدائمة".

"آه، ثمة سبب يجعلك تتعلق بي بلا شك "قال واكيم ولايزال محتداً، على الرغم من أن كلمات فيليب الأخيرة أعطته وخزة أليمة: لقد أثارت في نفسه إحساساً كان عادياً مدة ربع قرن ألقى بنفسه ثانية على الكرسي

قال فيليب: "توقعت كل هذا. أعرف أن خلافات كهذه غالباً ما تحدث بين الأب والأبن ولو كنت أشبه بقية الشباب ممن هم في عمري، ربما أجبتك بغضب - عندئذ من المحتمل أن نفترق - وأتزوج بالمرأة التي أسعد معها بقية حياتي.

ولكن إن كان يرضيك أن تلغي كل شيء فعلته من أجلي، بإمكانك أن تحرمني من الشخص الوحيد الذي أجد معه معنى لحياتي".

توقف فيليب بينما بقي والده صامتاً.

"تعلم أن هذا الإحساس العميق بالكره والمرارة لايجلب سوى نتائج كارثية".

صرخ واكيم: "إحساس عميق بالكره والمرارة! ماذا تقصد؟ اللعنة! هل عليّ أن أحبَّ رجلاً جلدني بالسوط، وكاد يقتلني؟ بالإضافة إلى تهديد ابنه المغرور صاحب الدم البارد، بأنه لن ينسى ما حدث، وسوف ينتقم عندما تسنح له الفرصة".

قال فيليب الذي كان عنده مبررات للتعاطف قليلاً مع موقف توم: "لاأقصد الإهانات التي وجهوها إليك، مع أن مشاعر الانتقام لاتستحق منك أن تتذكر كل ما قيل بالتفصيل. أقصد أن لاتمتد هذه العداوة لتطال فتاة لاذنب لها، فتاة طيبة القلب لاشأن لها بكل ما حدث. إنها لاتتدخل في مشاكل العائلة".

"وما أهمية هذا؟ إننا لسنا بصدد ما تفعله الفتاة، لكنها تنتمي إلى العائلة وإنه لأمر مهين لك أن تفكر بالزواج من ابنة توليفر".

لأول مرة يفقد فيليب أعصابه في هذا الحوار، ويتورد وجهه غضباً.

قال بلهجة حادة :

"الآنسة تـوليفر لـديها كـل المـؤهلات الـتي تجعلـها مـن الطبقـات الراقيـة في المجتمـع. إنهـا في غايـة التهـذيب، وجميـع أصـدقائها، أينمـا كـانوا، يحملـون لهـا مـشاعر التقـدير والاحـترام، ويعترفـون بنزاهتـها وأخلاقهـا. أتـصور أن كـل سـكان بلدة القديس أوغ يصرحون علناً بأنها تتفوق علي بكل شيء".

رمـق واكـيم ابنـه بنظـرة غاضـبة، لكـن فيليـب لم يكـن ينظـر إليـه، وتـابع حديثـه، وكأنه يريد تفصيل مضمون كلماته الأخيرة :

"أخبرنـي عـن شـخص واحـد في البلـدة لـن يـصرح لـك بـأن تلـك المخلوقـة الجميلة ستورط نفسها عندما ترتبط بإنسان مثير للشفقة مثلي".

قـال واكـيم وهـو ينـهض ثانيـة، وقـد نـسي غـضبه، وتكلـم بنـبرة أبويـة حنونـة إلى حـد مـا: "ليـست هـي! عنـدما تـرتبط الفتـاة برجـل مـا، يـصبح الحـديث عـن عاهتـه سخيفاً".

قال فيليب: "ولكن الفتيات لايفضلن الارتباط برجال مشوهين".

قال واكيم بنبرة عنيفة إلى حد ما، محاولاً أن يستعيد هدوءه :

"حـسنٌ إذاً. إن لم تكـن مهتمـة بـك، بإمكانـك أن تـوفر علـى نفـسك خلـق أي شـجار معـي بالحـديث عنـها - وكـذلك تعفـيني مـن أن أسـبب لـك إزعاجـاً عنـدما أرفض أمراً لايمكن أن يحدث أبداً".

تهادى واكيم نحو الباب، دون أن ينظر حوله ثانية، وأغلقه خلفه بعنف

كـان فيليـب علـى ثقـة مـن أن والـده قـد تـأثر بكلامـه، لكـن المـشهد أثـار أعـصابه الحـساسة الـتي كانـت مثـل أعـصاب امـرأة قـرر ألا ينـزل لتنـاول الغـداء: لم يـستطع مواجهة والده ثانية في ذلك اليوم

كـان مـن عـادة واكـيم، إن لم يجـد لـه رفيقـاً يتـسلى معـه في المنـزل، يخـرج عنـد المـساء - وغالبـاً مـا كـان يخـرج عنـد الـساعة الـسابعة والنـصف، وبمـا أن الوقـت لايـزال مبكـراً علـى خروجـه، أقفـل واكـيم غرفتـه، وذهـب في نزهـة طويلـة، مـصمماً علـى ألا يعـود حتـى يخـرج والـده ثانيـة مـن المنـزل. صـعد في قـارب، ونـزل النـهر متوجهـاً إلى قريـة محببـة علـى قلبـه، حيـث تنـاول غـداءه، وتمـشى حتـى أصـبح الوقـت مناسـباً للعـودة. لم تكـن لديـه نيـة في إحـداث أي نـوع مـن الـشجار مـع والـده، ولكنه خشي من أن تطول فترة الإضراب عدة أسابيع.

صـعد إلى غرفتـه ثانيـة، ورمـى بنفـسه في كرسـي، بإحـساس شـديد بالإرهـاق، وتأمـل المنـاظر حولـه، حتـى استـسلم لغفـوة قـصيرة، تخيـل فيهـا مـاغي وهـي تنزلـق في جدول ماء يتلألأ، وهو ينظر إليها عاجزاً، حتى أفاق على وقع صوت مفاجئ

كان صوت فتح الباب، ولم يكد يغفو إلا بضع دقائق كان والده الذي دخل الغرفة، عندما تحرك فيليب ليخلي الكرسي ليجلس عليها والده، الذي قال: "ابق جالساً. أفضل أن أتمشى".

تمشى جيئة وذهاباً مرة أو مرتين، ثم وقف قبالة فيليب، واضعاً يديه في جيبه، وقال وكأنه يتبع الحديث الذي لم ينته من قبل :

"يبدو أن هذه الفتاة مغرمة بك يا فيل، وإلا لما وافقت على مقابلتك بهذه الطريقة".

بدأ قلب فيليب ينبض بسرعة، وطرأ على وجهه تورد خفيف ما لبث أن تلاشى فوراً. لم يكن من السهولة أن يجيب في اللحظة ذاتها.

"أحبتني في بلدة الملك لورتن، عندما كانت طفلة صغيرة، لأنني كنت أهتم بأخيها، وأجالسه على الدوام عندما جرح قدمه. لقد احتفظت بهذه الحادثة في ذاكرتها، واعتبرتني صديقاً لها منذ فترة طويلة لم تفكر بي كحبيب عندما قابلتني أول مرة".

قال واكيم وهو يتمشى ثانية: "حسنٌ، ولكنك اعترفت لها أخيراً بحبك. ماذا كان ردها؟".

"قالت بأنها تحبني أيضاً".

"اللعنة ما الذي تريده إذاً؟ هل هي فتاة متقلبة؟

قال فيليب متردداً: "إنها لاتزال صغيرة. أخشى أنها لم تعرف حقيقة مشاعرها بعد. أخشى أن يؤثر طول البعد بيننا والأحداث التي يمكن أن تفرقنا، على علاقتنا".

"ولكنها في البلدة. لقد رأيتها في الكنيسة. ألم تتحدث معها منذ عودتك؟".

"أجل، تحدثت معها في منزل السيد دين. ولم أستطع أن أطرح مقترحات جديدة لأسباب عديدة. ستزول إحدى العقبات إذا منحتني موافقتك - إذا رضيت أن تكون زوجة ابنك".

التزم واكيم الصمت وهو واقف أمام صورة ماغي.

قال أخيراً: "إنها لاتشبه والدتك يا فيل. رأيتها في الكنيسة - إنها أكثر وسامة من أمك - لديها عينان جميلتان وقامة فارعة، لكنها أكثر دهاءً وتمرداً، إيه؟".

"إنها حنونة وعاطفية جداً، وتتسم بالبساطة - ولا تتصنع مثل باقي النساء".

قال واكيم وهو ينظر إلى ابنه: "آه؟ ولكن والدتك أكثر أناقة: كان شعرها متموجاً بني اللون، ولها عينان رماديتان مثل عينيك. لايمكنك أن تتذكرها بشكل جيد. إنها امرأة ليس لها مثيل".

"إذاً لاينبغي عليك أن تفرض على أسلوب السعادة ذاته الذي حققته لنفسك يا أبتاه؟ لايمكن تكون لديك رابطة قوية جداً مثل التي شكلتها من انقضاء ثمانية وعشرين عاماً، عندما تزوجت بأمي، وعندما قويت عرى تلك الرابطة منذ ذلك الحين".

"آه، فيل - أنت الشخص الوحيد الذي تعرف أفضل جزء من حياتي"، قال واكيم وهو يمد يده إلى ابنه "علينا أن نحافظ على أفضل ذكرياتنا قدر المستطاع والآن، ماذا علي أن أفعل؟ عليك أن تنزل، وتخبرني هل علي الذهاب لزيارة هذه الفتاة ذات العينين الداكنتين؟".

وضمن هذا المسار أزيل الحاجز بينهما، واستطاع فيليب أن يتكلم بحرية، تكلم عن علاقتهما بعائلة توليفر - ورغبتها باسترجاع الطاحونة والأرض - وعن تحويل ملكيتها إلى شركة غيست كحل وسطي.

استطاع فيليب أن يغامر بطرح جميع المواضيع الآن، وكان يحاول إقناع والده بوجهة نظره، وهذا الأخير أبدى استعداداً للإذعان للأمر.

قال أخيراً بلهجة غاضبة إلى حد ما :

"لاأكترث لأمر الطاحونة لقد عانيت من مشاكل مؤخراً بسببها. ليدفعوا لي أتعابي عليها. هذا كل ما في الأمر. ولكن هنالك شيء واحد لاأريدك أن تسأليني عنه لن أقوم بأية صفقات مباشرة مع الشاب توليفر. ربما تستطيع أن تصفح عنه، لأجل خاطر أخته، لاأملك القدرة على الصفح عنه".

أترك لك عزيزي القارئ أن تتصور كيف ذهب فيليب بمعنويات عالية إلى السيد دين في اليوم التالي، ليخبره بأن السيد واكيم مستعد لإجراء المفاوضات، وكيف أحست لوسي بالفرحة العارمة بعد أن أثبتت لأبيها مهاراتها العملية أصيب السيد دين بالحيرة قليلاً، وشكَّ في قدرة الشباب على إزالة ذلك الحقد الكامن وإبعاده عن المسائل المالية فما كان يجري بين الشبان اعتبر بمثابة تدخل في العمل الحقيقي وهكذا بدا ذلك التدخل بالأمور العملية مبشراً بالخير بشكل كامل.

الفصل التاسع

البساطة في أبهى حلتها

بالتأكيد بلغت سيرة حياة ماغي ذروتها كعضو يحظى بإعجاب الجميع في مجتمع بلدة القديس أوغ في اليوم الذي بدأ فيه البازار، عندما تألقت ببساطتها وجمالها الأخاذ وهي ترتدي ثوبها القطني الأبيض، والذي أخذته على الأرجح من خزانة ملابس خالتها بوليت، بدت مميزة وسط جموع النساء التقليديات المتيّمات من حولها.

ربما لانلاحظ كم أن تصرفنا الاجتماعي مصطنع، حتى نشهد شخصاً يلفت أنظارنا بجماله وبساطته: دون توفر عنصر الجمال، نميل أكثر إلى وصف البساطة بالحماقة، لكن الجمال هو مَنْ يُحَصِّن البساطة، ويرفع من قيمتها.

كانت آنسات غيست يتسمن بحسن التربية، ما لايسمح لهن إظهار تعابير القرف أو الاشمئزاز أو الإدلاء بملاحظات تنتقد ماغي حيث جلست أمام منصة عرض مبيعاتها، ولكن بدا من الواضح اليوم أن الآنسة غيست وقفت شامخة جداً وهي ترفع رأسها للأعلى متباهية بنفسها، وكانت الآنسة لورا تتكلم، وتتحرَّك بطريقة محاولة إثارة انتباه الجميع على الدوامحضر جميع سكان بلدة القديس أوغ البازار، وهم في أجمل حللهم، بالإضافة إلى الذين جاؤوا من مسافات بعيدة، لكي يشاهدوا القاعة القديمة الفائقة الجمال ذات السطح المكشوف والألواح الخشبية المقوسة المصنوعة من خشب السنديان، والأبواب المثنية الضخمة التي صنعت أيضاً من خشب السنديان، والأنوار التي سطعت من ارتفاع على المعرض الذي ضم ألواناً متعددة: مكان جذاب للغاية مبني على الطراز القديم، حيث رسمت خطوط بألوان متباينة على الجدران، وتفرقت في المعرض هنا وهناك مجسمات لحيوانات من سلالات متنوعة.

قوس ضخم قطع الجدار العلوي من أحد طرفيه، وأحيط بفرقة موسيقية، خلفها غرفة مفتوحة، حيث انتشرت نباتات من إنتاج بيوت بلاستيكية.

في الواقع، إن الانسجام المتكامل لهذا البناء الموغل في القدم نال إعجاب الجميع فبدا ملبياً لهدف عصري، مما جعل البساطة حقيقة أكثر أناقة حتى أنه لم يكد شخص يدخل الغرفة دون أن ينقل ناظريه أكثر من مرة متأملاً ذلك البناء الجذاب بالقرب من الأقواس الضخمة الواقعة فوق الأوركسترا بناء حجري له زجاج مصقول، والذي كان من أحد التناقضات مع القاعة القديمة

وبالقرب من هذا المكان وضعت لوسي منصتها لعرض المبيعات ،لكي تتناسب مع أدوات بسيطة كبيرة الحجم أخذتها من السيدة كين لتعرضها بالنيابة عنها. أما ماغي فقد توسلت إلى لوسي لكي تسمح لها بالجلوس عند نهاية القاعة المفتوحة لبيع هذه الأدوات والمنتجات المزخرفة التي لم تعلم لماذا تستعملها النساء. ولكن حالاً بدت ملابس السادة، التي كانت تعرضها بين سلعها التجارية مثار اهتمام الجميع وتساؤلاتهم، فاندفعوا بفضول لتجريبها، مما جعل موقعها محط انتباههم.

السيدات اللواتي كن يفضلن بيع منتجات تخص النساء والابتعاد عن عرض ملابس الرجال، لاحظن ذلك الاهتمام الزائد بالبضائع المعروضة والتي بمقدور أي خياط صنعها. هذا الطلب الكبير على بضائع الآنسة توليفر جعلها تثير اهتمام الحاضرين.

كانت هنالك جرأة في نظرتها المباشرة، وخشونة غير محدودة في نمط جمالها، الأمر الذي جعلها، في نظر الرأي الأنثوي بشكل عام، أقل جاذبية من ابنة خالتها الآنسة دين، لأن سيدات بلدة القديس أوغ بنين ادعاءاتهن الافتراضية، وآراءهن بالآنسة دين، بناء على إعجاب السيد ستيفن غيست بها.

أما بالنسبة إلى لوسي الصغيرة المحبة، فقد أحست بمعنويات عالية هذا اليوم، بعد أن نجحت في إقناع والدها بإرجاع الطاحونة إلى عائلة توليفر، لم تحمل في قلبها سوى الفرحة، وهي ترى ماغي متألقة بين الحشود. صحيح أنها كانت تبدو ساحرة الجمال، وكان ستيفن يركّز جلّ اهتمامه بها في هذه المناسبة العامة، ومن منطق الغيرة والحماسة اشترى منها الأشياء التي شاهدها، عندما حاكتها، وساعدها في إقناع الزبائن من الرجال بشراء أكثر الأشياء العبثية المخنثة اختار أن يزيح قبعته جانباً ويرتدي طربوشاً قرمزياً من تطريزها، ولكن من يمتلكون نظرة سطحية يدركون فوراً أنه فعل ذلك ليس كإطراء إلى لوسي وإنما كإشارة إلى أنه يبذخ الكثير من المال من أجل هندامه.

قال الشاب توري عنه: "غيست شاب متباه بنفسه وبلبسه إلى درجة كبيرة ولكنه من الطبقة المترفة في بلدة القديس أوغ -يقولون إنه يحقق نجاحاً باهراً - ولو أن شخصاً آخر من طبقة أدنى حذا حذوه، لقال الجميع أنه يجعل من نفسه أضحوكة أمام الآخرين".

لم يشتر ستيفن أي شيء على الإطلاق من ماغي، حتى قالت له لوسي بنبرة غاضبة إلى حد ما: "انظر، الآن، كادت ماغي أن تبيع كل منتجاتها، ولم تشتر أي شيء منها حتى الآن هنالك بعض الأشياء الناعمة التي تدفئ المعصم - اذهب واشترِها".

قال ستيفن: "أوه، لاإنها تناسب أولئك الأشخاص الخياليين الذين يوهمون أنفسهم بالبرد في هذا الجو الدافئ على فيليب أن يشتري أشياء كهذه بالمناسبة لِمَ لَمْ يحضر؟".

"لايحبذ الدخول إلى أماكن مزدحمة بالبشر، مع أنني دعوته للمجيء. قال بأنه سيشتري البضائع التي لم يشتريها أحد مني اذهب الآن يا ستيفن واشترِ شيئاً من ماغي".

"لا، لا– انظري – لديها زبون: إنه السيد واكيم، لقد حضر بنفسه إلى هنا".

حولت لوسي نظرها باهتمام قلق نحو ماغي، لترى كيف كان هذا اللقاء الأول، مع رجل لابد أن تحمل له مزيجاً غريباً من المشاعر، سعدت بعد أن لاحظت بأن السيد واكيم تصرف بلباقة، ودخل في الحال بحديث عن أجور البازار، وبدا مهتماً بشراء بعض الأشياء، وهو يبتسم بلطف في وجه ماغي، لم يسترسل في الحديث، وكأنه لاحظ شحوبها وارتعاشها.

همس ستيفن إلى لوسي: "واي، لماذا يتودد واكيم بهذا الأسلوب إلى ابنة خالتك، ما هذه النخوة؟ لقد تحدثت عن شجار عائلي".

"آوه، آمل أن يزول في الحال ذلك الخلاف "، قالت لوسي، وقد أصبحت أقل حذراً بعد رضاها عما شاهدته لكن بدا أن ستيفن لم يلاحظ ذلك التغيير، وبينما كانت بعض النساء يصعدن لشراء حاجياتهن، تمشى ستيفن بتكاسل نحو الطرف الذي تجلس فيه ماغي، ووقف جانباً، ريثما ينتهي واكيم الذي تناول محفظته، من عقد صفقاته.

سمع واكيم وهو يقول لها: "لقد جاء ابني معي لكنه اختفى في ركن ما من هذا البناء، وترك لي مهمة التودد إلى النساء. أرجو أن تؤنبيه بسبب تصرفه الأخرق".

ابتسمت له، وانحنت احتراماً دون أن تتكلم، وبعد أن ابتعد، لاحظت أن ستيفن كان واقفاً قريباً منها، تظاهرت بالانشغال بِعَدِّ النقود لكي تتحاشى النظر إليه. كانت مسرورة لأنه كرس نفسه اليوم للاهتمام بلوسي، ولم يقترب صوبها. كانا قد استهلا صباحهما بإلقاء التحية بشكل لامبال، وسعدا كونهما بعيدين عن بعضهما بعضاً، مثل المريض الذي يتحسن دون استعمال المخدر، على الرغم من إخفاقاته السابقة في عزم أمره على اتخاذ القرار.

اقترب ستيفن خطوة خطوة وكأنه لم يرغب بالانسحاب، حتى وصل الطرف المفتوح في صالة العرض، وتوارى قليلاً خلف مجوعة من الأقمشة. تابعت ماغي عَدَّ نقودها حتى سمعت بشكل مفاجئ صوتاً لطيفاً عميقاً يقول لها "ألست مرهقة؟ دعيني أحضر لك شيئاً تأكلينه – فاكهة أو جيلي – هل تسمحين لي؟".

ارتعشت بعد سماع تلك النبرة غير المتوقعة، التي أحست وكأنها نغمة مفاجئة صدرت عن قيثارة بالقرب منها.

"آوه، لا، أشكرك "، قالت بصوت ضعيف، ونظرت إليه بشكل سريع، ألح عليها ستيفن بنبرة متوسلة أكثر من ذي قبل: "تبدين شاحبة جداً. واثق من أنك منهكة. لاينبغي أن أطيعك، علي إحضار شيء تأكلينه".

"لا، بالفعل لاأستطيع تناول أي شيء".

"هل أنت غاضبة مني؟ ما الخطأ الذي ارتكبته بحقّك؟ أرجوك انظري إلي".

"ابتعد من هنا أرجوك "، قالت ماغي وهي تنظر إليه بيأس، وفي الحال حولت نظرها عنه نحو الزاوية المقابلة للفرقة الموسيقية، والتي كانت متوارية إلى حد ما خلف ستار قديم باهت أخضر اللون. لم تكد ماغي تلفظ كلماتها المتوسلة حتى أصابها البؤس بسبب ما صدر عنها بشكل خارج عن إرادتها، ولكن ستيفن ابتعد في الحال، وهو يراقب الجهة التي تنظر إليها، فرأى فيليب واكيم جالساً في تلك الزاوية، التي مكنته من مراقبة الأحداث التي جرت في زاوية القاعة حيث كانت تجلس ماغي لمعت في ذهن ستيفن فكرة جديدة، وربط الأحداث ببعضها بعضاً، مشهد واكيم وهو يتودد إلى ماغي، وجواب لوسي عندما أبدى استغراباً من ذلك الاهتمام المفاجئ، مما جعله يقتنع بوجود علاقة ما تربط فيليب بماغي غير تلك التي سمع عنها عندما كانا في عمر الطفولة. وأكثر من دافع حرَّضه في الحال على مغادرة القاعة والصعود إلى الأعلى إلى غرفة المرطبات حيث كان فيليب يتمشى هناك، جلس خلفه ،ووضع يده على كتفه.

قال: "هل تقرأ من أجل رسم صورة يا فيل؟ بحق المسيح! ربما يكون المشهد من هذه الزاوية المظلمة موحياً أكثر، ولاسيما أن الستائر تواريك عن الأنظار".

قال فيليب بشكل مقتضب: "إنني أقرأ ملامح الوجوه".

"ماذا! هل تقرأ تعابير وجه الآنسة توليفر؟ أعتقد أنها في مزاج عَكِر اليوم لقد أرسلتني ابنة خالتها، ورجتني أن أحضر لها بعض المرطبات لكنها رفضت ضيافتي كالعادة. أعتقد أن هنالك شعوراً باللامبالاة يجمعنا: نادراً ما أحصل على شرف إسعادها".

قال فيليب، وقد تورد غضباً: "يالك من منافق!".

"ماذا! هل لأن التجربة علمتني أن أسعد الآخرين؟ أعترف بهذا الحق، توجد قوة تسبب لي الاضطراب هنا".

نهض فيليب فجأة وقال: "سأغادر".

"وكذلك أنا - سأغادر لكي أستنشق هواءً عذباً، هذا المكان يجعلني أختنق. أعتقد أنني فعلت كل ماهو مناسب بما فيه الكفاية".

نزل الصديقان معاً إلى الأسفل دون كلام استدار فيليب نحو الباب الخارجي إلى داخل الباحة، ولكن ستيفن الذي قال: "آوه، عما قريب، علي الدخول إلى هنا "، تابع على طول الممر إلى إحدى الغرف بالقرب من الجانب الآخر للبناء، والذي كان ملائماً ليصبح مكتبة للبلدة جلس وحده في الغرفة، والرجل لايطلب أي شيء أكثر من هذا، عندما يريد أن ينفض عن كاهله غبار العلاقات الرسمية، ألقى بنفسه في الكرسي واسترخى، وهو يحدق إلى جدار عال من القرميد بوجه متجهم.

آمل أن تكون قد أدركت عزيزي القارئ، بأن ستيفن لم يكن منافقاً، ومع ذلك فإن تقلباته بين إظهار مشاعره بصدق أمام ماغي وإخفاؤها عن الآخرين، كانت تؤيد ادعاء فيليب: في هذه الأثناء كانت ماغي جالسة خلف منصة مبيعاتها وهي ترتعش، وذلك الإحساس الأليم يغمر عينيها، وينبئ بتدفق دموع لامجال لتفاديها.

هل ستبقى حياتها على هذا المنوال؟ تصطدم دائماً بمفاجآت تجعلها تعاني من صراع داخلي؟ سمعت أصوات الناس من حولها وهم يدردشون لايبالون بها، تمنت لو تستطيع مواكبة الحياة مثلهم بهذه البساطة.

في تلك اللحظة دخل الدكتور كين لتوه إلى القاعة، وكان يتمشى وسط الجموع ويداه متشابكتان خلف ظهره ،وهو يلقي نظرةً عامة على الجميع، حتى ركز عينيه بإمعان على ماغي للمرة الأولى، وصدم بذلك الحزن الظاهر على وجهها الجميل.

كانت جالسة بهدوء تام بانتظار تدفق الزبائن في هذه الساعة المتأخرة من وقت الظهيرة: لقد اختار السادة بشكل رئيسي أن يتسوقوا عند منتصف النهار، حيث بدا أن منصة بيع ماغي تكاد تخلو من البضائع. ذلك الحزن البادي على وجهها، ألغى كل مقارنة بينها وبين رفيقاتها، اللواتي كن مشرقات متلهفات، ومشغولات بعملهن.

كان الدكتور كين قد قابل ذلك الوجه الذي أسره، ولفت انتباهه بشكل طبيعي في الكنيسة، وكذلك في إحدى زياراته العملية القصيرة إلى منزل السيد دين، لكنه لم يتحدث معها أكثر من ثلاث كلمات والآن تمشى باتجاهها، وماغي التي أحست باقتراب شخص ما، نهضت استعداداً لاستقباله.

شعرت وكأنها طفلة، كما اعتراها إحساس فطري بالراحة والسكينة، عندها

شاهدت وجه الدكتور كين الذي كان يحدق إليها: ذلك الوجه المنبسط الأسارير، الذي يغمره اللطف والاهتمام مما أثَّر في نفس ماغي، فبدا لها مبشراً بالخير. الأشخاص من ذوي الأعمار المتوسطة، الذين خاضوا أقوى تجاربهم العاطفية، والذين مع ذلك لاتزال ذاكراتهم تضج بها، ولا تكتفي فقط بالتأمل بالحياة، هؤلاء لابدّ أن يشكلوا نمطاً من رجال الكهنوت، الذين خاضوا حياة مهذبة ومقدسة لكي تصبح ملاذاً ومنفذاً لأولئك الضحايا الذين يتعثرون باكراً، ويقعون أسرى يأسهم الذاتي.

معظمنا، وفي مرحلة الشباب سوف نرحب بكاهن من ذلك النوع العادي سواء كان ينادي بمبادئ تتعلق بقوانين الكنيسة أم لا، لكننا نتجاوز مصاعب وهموم عمر التاسعة عشرة دون اللجوء إلى مساعدة كهذه، كما فعلت ماغي.

قال الدكتور كين: "ألا تشعرين بالإرهاق آنسة توليفر، وأنت جالسة حتى هذه الساعة؟".

"إلى حَدٍّ ما "، أجابت ماغي ببساطة دون أن تتكلف الابتسامة "وباستطاعتي إخبار السيدة كين أنك بعت بضائعها بسرعة هائلة "، أضاف: "سوف تكون ممتنة لك كثيراً".

"آوه، لم أفعل شيئاً: جاء السادة إلى هنا بسرعة فائقة لكي يشتروا ملابس ومعاطف مطرزة، ولا أعتقد بأن السيدات الأخريات سوف يبعن المزيد: "لاأعرف ماذا أقول بشأنهن".

ابتسم الدكتور كين: "آمل أن تكوني من رعايا الكنيسة الدائمين آنسة توليفر - ما رأيك؟ حتى الآن لاتزالين على مسافة بعيدة عنا".

"إنني أستعد لأدرِّس في إحدى المدارس، وسألتحق بها عما قريب".

"آه؟ أعتقد أنه من الأفضل لك البقاء وسط أصدقائك الذين يسكن معظمهم في هذا الجوار".

"آوه، يجب علي الذهاب "، قالت ماغي متلهفة وهي تنظر إلى الدكتور كين بثقة، وكأنها أرادت أن تخبره عن تاريخها بتلك الكلمات الثلاث".

كانت لحظة من اللحظات التي تكشف فيها الأسرار ضمنياً والتي تحدث أحياناً حتى بين الأشخاص الذين يتقابلون بشكل عابر - ربما في رحلة مسافة ميل، أو عندما يأخذون استراحة على جانب الطريق.

هنالك احتمال دائم أن نسمع كلمة، أو نشهد نظرة من غريب تجعلنا نشعر بمعنى الأخوة الإنسانية لكي نواصل حياتنا الصعبة بمزيد من الدعم.

قرأ الدكتور كين أفكار ماغي وقدر تلك الثقة التي أظهرتها في كلماتها القصيرة.

قال: "أفهمك أنت تشعرين أنه من الأسلم لك الذهاب ولكن آمل ألا يمنعنا هذا الأمر من اللقاء ثانية: ولن يكون عقبة أمامنا لكي نتعارف بشكل أفضل، عساي أتمكن من تقديم أية خدمة لك".

مدَّ يده، وضغط على يدها بلطف قبل أن يغادر.

فكر في قرارة نفسه :

"لديها مشكلة ما أو أنها مصدومة عاطفياً. يا للطفلة المسكينة! تحاول ألا تغطس عميقاً في المعاناة، وتتسامى بروحها العالية على التفاهات يوجد صدق بالغ في تلك العينين الجميلتين".

ربما تصاب بالدهشة عندما تجري مقارنة بين ماغي الصغيرة التي كانت تعطي تعليماتها للغجر بهدف تنصيب نفسها ملكة عليهم، وماغي اليوم التي لم تشعر بالسرور بالرغم من كل نظرات الإعجاب والابتسامات الموجهة إليها. لقد نسيت ماغي للحظات كل شيء يذكرها بجمالها. لو اختارت أن تقبل حب ستيفن غيست لها، ليُقدِّمَ لها حياة مرفهة، مع إمكانية اكتساب مزيد من الثقافة التي تعشقها. كانت هنالك أشياء أخرى أقوى من إرضاء الغرور - العاطفة والحنان لقد انجرفت كل هذه المشاعر مع تيار أقوى كان يسيطر عليها في ذلك اليوم، في ظل إلحاح الأحداث والدوافع الداخلية التي إنتابتها خلال الأسبوع الأخير.

لم يتحدث فيليب معها عن زوال العقبات بينهما وعن رأي والده بشأن هذا الأمر - لكنه أخبر لوسي بكل شيء، على أمل أن تظهر له ماغي فرحتها بعودة علاقتهما إن علمت بالأخبار من لوسي.

أحست ماغي بسيل هائل من المشاعر المتناقضة يتدفق عليها حتى عجزت عن البوح بأي شيء إلى لوسي، التي زفت إليها الأنباء السارة بوجه مبشر ممتلئ بالفرح. لوسي التي أصيبت بالدهشة لأنها لم تحدث في نفس ماغي إلا تأثيراً بسيطاً لم يتعدَّ صرخةَ فرح لأن أمنية والدها ستتحقق، ويستعيد توم الطاحونة ثانية مكافأة له على جهوده الحثيثة التي بذلها طوال عدة سنوات.

انشغلت لوسي في الأيام القليلة القادمة بتفاصيل التحضير للبازار التي سرقت كل اهتماماتها بأي شيء آخر، فلم تجر أية محادثات جديدة بخصوص هذه المواضيع التي كان من المحتمل أن تثير مشاعر أعمق. كان فيليب يتردد على المنزل أكثر من مرة، لكن ماغي لم تجرِ أيّةَ محادثة خاصة معه، وهكذا كان عليها أن تبقى وحيدة تعيش في صراع داخلي مع ذاتها دون تدخل من أحد.

ولكن عندما انتهى البازار، جلستا وحدهما ثانية تأخذان قسطاً من الراحة، قالت لوسي :

"عليك أن تتخلَّي عن قرارك بالبقاء مع عمتك موس يا ماغي: اكتبي لها مذكرة، وأخبريها بأنك غيرت رأيك بناء على طلبي، وسوف أرسل رجلاً يوصل إليها الرسالة لن تستاء منك وسيكون أمامك متَّسَع من الوقت للذهاب إليها فيما بعد، لاأريدك أن تخرجي من هنا بهذه الطريقة الآن".

"أجل حبيبتي، عليَّ حقاً أن أذهب، لاأستطيع العدول عن قراري لاأحب أن أهمل عمتي الحبيبة أو أتخلى عنها. ثم ليس لدي الوقت الكافي، لأن علي الانتقال إلى موقع جديد في الخامس والعشرين من حزيران".

"ماغي! "، قالت لوسي، وقد شحبت من الدهشة.

قال ماغي وهي تبذل جهداً كبيراً للسيطرة على انفعالاتها: "لم أخبرك يا عزيزتي لأنك كنت مشغولة جداً. وبعد فترة قصيرة كتبت إلى مربية الأطفال، الآنسة فيرنس، لكي أسألها إن كان هناك شاغر للعمل وفي اليوم التالي تلقيت منها رسالة تخبرني فيها بأنني أستطيع رعاية ثلاثة تلاميذ أيتام وأخذهم إلى الساحل خلال فترة العطل، ثم أكون مساعدة لها كمعلمة البارحة كتبت لها بأنني أقبل العرض".

صعقت لوسي، ولم تستطع أن تتفوه بكلمة لبضع لحظات.

قالت أخيراً :

"ماغي، كيف استطعت أن تتعاملي معي بهذه القسوة - ولم تخبريني عن الأمر - واتخذت القرار النهائي دون علمي - والآن! "، ترددت قليلاً، ثم أضافت "وفيليب؟ اعتقدت أن الأمور كانت تسير على أحسن حال آوه ماغي - ما السبب؟ اعدلي عن قرارك، دعيني أكتب الرسالة ليس هنالك أي مبرر الآن لكي تبتعدي عن فيليب".

قالت ماغي بصوت خافت: "أجل، هنالك مشاعر توم قال بأنه سيتخلى عني إن تزوجت فيليب أعلم أنه لن يحيد عن قراره - ما لم يحدث شيء يثنيه عن رأيه".

"ولكنني سأتحدث معه: إنه عائد هذا الأسبوع وهذه الأخبار الجيدة عن الطاحونة ستجعل قلبه يرق - سوف أحدثه بخصوص فيليب توم منسجم معي دائماً. لاأعتقد أنه عنيد إلى هذه الدرجة".

قالت ماغي بصوت كئيب: "ولكن يجب علي أن أذهب علي أن أغادر في وقت ما. لاتلحي علي بالبقاء، يا لوسي الحبيبة".

ظلت لوسي صامتة مدة دقيقتين أو ثلاث، وقد بدت شاردة الذهن انحنت أمام ابنة خالتها، ونظرت إليها باهتمام قَلِق وقالت :

"مـاغي، هـل يعـني هـذا أنـك لاتحـبين فيليـب بمـا فيـه الكفايـة حتـى تقبلـي الزواج به؟ - أخبريني، ثقي بي".

أمـسكت مـاغي يَـدَيْ لوسـي بإحكـام وهـي تلـزم الـصمت برهـة قـصيرة كانـت يـدا ماغي باردتين تماماً. ولكنها عندما تكلمت، بدا صوتها أكثر وضوحاً ونقاءً.

"أجـل لوسـي لقـد اخـترت أن أتزوجـه أعتقـد أنـه أفـضل شـاب يناسـبني - وبمقـدوره إدخـال الـسعادة إلى حيـاتي هـو أول مـن أحـبني لأحـد يعـرف مـاذا يكـون بالنـسبة لي ولكـنني لاأسـتطيع أن أعـيش الحيـاة دون أخـي علـيّ الـذهاب والانتظـار. أرجوك لاتتحدثي معي ثانية بشأن هذا الموضوع.

استجابت لها لوسي وهي مصابة بالحيرة والألم.

قالـت: "حـسنٌ، مـاغي الحبيبـة، ولكـن علـى الأقـل سـوف تـذهبين غـداً إلى حفلـة الـرقص في منتـزه المنـزل، وتـستمتعين بـبعض الموسـيقى والتفـاؤل قبـل أن تقـومي بهذه الواجبات الكئيبة آه! لقد أحضرت خالتي الشاي".

الفصل العاشر

في حفلة المنزل كانت مجموعة من الغرف مفتوحة على بعضها بعضاً، وبدت متألقة والأنوار تسطع والأزهار تلمع وكل شيء في مكانه كما هو مخطط له، حيث حضر ستة عشر من الأزواج من ذوي العائلات الراقية، مع أبنائهم وحراسهم

كانت غرفة الاستقبال أكثر تألقاً وإشراقاً، حيث جرت حفلة الرقص هناك، تحت وقع أصداح البيانو الضخم، الذي انتصبت بجانبه المكتبة، وقبالتها غرفة الجلوس الجميلة، التي تركت كملجأ لمن يريد الخلوة بنفسه أو أخذ قسط من الراحة لوسي التي خلعت الثوب الأسود للمرة الأولى، وبان قوامها المشوق من خلال ثوبها الحريري الفضفاض الأبيض اللون، كانت ملكة هذه الحفلة، لأنها واحدة من إحدى الحفلات التي تنازلت آنسات غيست، وحضرنها، ولم يكن فيها أي عضو ينتمي إلى طبقة أكثر ارستقراطية من الطبقة الارستقراطية في بلدة القديس أوغ.

في البداية رفضت ماغي أن ترقص، بحجة أنها قد نسيت كل أنواع الرقصات - لقد مضت عدة سنوات مذ كانت ترقص في المدرسة، وكانت ماغي مرتاحة لهذا العذر لأنه يجنبها الرقص وقلبها مثقل بالأحزان ولكن مع مرور الوقت بدأت الموسيقا تتسرب إلى أعضائها الفتية، فزادت لهفتها أكثر، وتقدم نحوها الشاب الرهيب توري، وحاول إقناعها. حذرته من أنها لاتعرف الرقص، لكنه بالطبع أصر عليها وكان مستعداً للانتظار حتى تتذكر الرقص، وأكد لها أن عليها تعلم رقصة الفالس - كان سعيداً جداً بأن يشاركها رقصة الفالس ولكن جاء أخيراً دور رقصة من الطراز القديم والتي كان فيها قليل من الغرور وكثير من المرح، حتى بدأت ماغي تنسى مشاكل حياتها مستمتعة بإحساس طفولي على وقع إيقاع ريفي إلى حد ما. شعرت بالمحبة تجاه الشاب توري، الذي كان يحملها تارة ويرفعها تارة أخرى أثناء الرقص، لمعت عيناها بفرح الشباب، وبدا ثوبها البسيط الأسود اللون، وعقدها الصغير الأسود، باهتين وهما ملتصقان بجوهرة براقة.

لم يطلب منها ستيفن بعد أن تشاركه الرقص - لم يبادرها بأية إشارة سوى إظهار لطفه بشكل عابر. منذ البارحة استبد به ذلك المشهد، الذي جعله يدرك بأنه توجد مودة تجمع ماغي وفيليب، على الأقل كانت هنالك مودة من ناحيته، جعلتها تحسّ بشيء من العبودية لذلك الحب في كل لحظة حاول أن يقاوم اندفاعه نحو ماغي، وكُلّما تذكر ذلك التطفل الذي أبداه فيليب من وراء الستار،

أحس بشيء يحرِّضه أكثر للتقرب من ماغي على الرغم من ذلك فعل ما قرره مسبقاً في هذه الأمسية: بقي بعيداً عنها، ولم يرمقها بنظراته المتلهفة، واكتفى برفقة مرحة مع لوسي وهو الآن بدأ يلتهم ماغي بنظراته: أحس برغبة شديدة بأن يرفس الشاب توري بعيداً، ويطرده من المرقص بأكمله، ويأخذ مكانه. وبعد فترة

تمنى أن تنتهي الرقصة في الحال كي يتخلص من غريمه تملكته رغبة بإمساك يد ماغي طويلاً، وأصبح متعطشاً لتحقيق رغبته

احتار ستيفن أي أسلوب يختار لكي يتقرب منها، حاول أن يكون أكثر تهذيباً، وعندما شاهد ماغي تجلس وحدها ثانية، عند الطرف الآخر من الغرفة، أحس بالارتياح. شقَّ طريقه نحوها وسط زوجين كانا يستعدان لرقصة الفالس، وعندما أدركت ماغي أنه يتجه نحوها، أحست، بالرغم من كل الأفكار المتناقضة التي راودتها، بالفرح من أعماق قلبها. كانت عيناها وخداها لايزالان يتألقان فرحاً بذلك الحماس الطفولي الذي بذلته أثناء الرقص، كان الجو المحيط بها باعثاً على السعادة والحنان، حتى الألم لم يبد أنه مرير في تلك اللحظة - كانت على استعداد للترحيب به كجزء من حياتها اعتادت عليه، لأن الحياة بدت في هذه اللحظة مزيج من الفرح والأسى. في هذه الليلة الأخيرة، ربما تستمتع بدفء الحاضر بدون أي تقييد، بدون أن تقتحم عليها سعادتها تلك الأفكار المتآكلة التي تستحضر الماضي والمستقبل.

"سوف يرقصون رقصة الفالس ثانية "، قال ستيفن وهو ينحني للأمام ليتكلم معها. كان في نظرته ونبرته حنان مكتوم، يذكر بأحلام الشباب التي يحاولون تذكرها وسط أجواء الغابات الصيفية عندما يمتلئ المكان بأصوات خافتة كهديل الحمام كانت في نظراته ونبراته سيل شعري حزين تدفق من غرفة مخنوقة إلى حد ما.

"سيرقصون الفالس من جديد: إنه لعمل مرهق يبعث على الدوار، إن جلسنا نراقبهم، والغرفة حارة جداً. هلا تمشينا قليلاً؟".

أخذ يدها، ووضعها تحت ذراعه، وتمشّيا نحو غرفة الجلوس، حيث كانت الطاولات مكسوة بالتحف المنقوشة التي وضعت للتهليل بالزوار الذين لايريدون النظر إليها. ولكن في هذه اللحظة لم يكن هنالك زوار. دخلا إلى بناء زجاجي لحفظ النباتات قالت ماغي بصوت خافت: "كم تبدو الأشجار والأزهار اصطناعية وغريبة بهذه الأنوار التي تسطع عليها! تبدو وكأنها تنتمي إلى أرض مسحورة، ولن تذوي أبدا: أستطيع أن أتخيلها وكأنها صنعت من الجواهر".

كانت تتأمل النباتات وهي تتكلم أما ستيفن فقد التزم الصمت: لكنه كان يحدق بها - وهل يعجز الشاعر المتألق عن مزج الضوء بالصوت، لينادي على الصمت المظلم، ويتكلم بلغة فصيحة؟

كان هنالك شيء قوي يشع من عيني ستيفن بشكل مثير للغرابة، حتى أن ماغي أدارت وجهها نحوه وتأملته ببطء، مثل زهرة تميل نحو شعاع يسطع عليها من عل تمشيا بشكل عشوائي، دون أن يدركا أنهما كانا يسيران معاً - ودون أن يشعرا بأي شيء سوى تلك النظرات المعمقة الطويلة والتي أضاءت قداسة تشتمل على أعمق العواطف الإنسانية.

الفكرة الحائمة التي يجب أنْ يتخليا عنها جعلت لحظة الاعتراف الصامت أكثر ثباتاً بتحقيقها النشوة الكبيرة.

وصلا إلى نهاية البناء الزجاجي، وكانا مضطرين للتوقف والاستدارة للخلف. تغيير مسار الحركة جعل ماغي تنتبه إلى نفسها وتعي ما يحدث: تورّدت بعمق، وأبعدت رأسها، وسحبت ذراعها من تحت ذراع ستيفن، واتجهت نحو بعض الأزهار لتشم رائحتها. جثم ستيفن في مكانه بلا حراك، شاحب اللون قالت ماغي، وهي تبذل جهداً كبيراً لتقول شيئاً، وتبدل ذلك الإحساس الملتهب الذي من المحتمل أن يعود، ويجبرها على الاعتراف بما لاتريده: "أوه، هل أستطيع أخذ هذه الوردة؟ أعتقد أنني أعامل الورود بقسوة - أحب جمعها، وشم رائحتها حتى تفقد كل رائحتها الطيبة".

أخرست الصدمة ستيفن، وكان عاجزاً، عن التفوه بكلمة أو تركيب جملة مفيدة، بينما مالت ماغي بذراعها قليلاً نحو وردة كبيرة نصف مفتوحة أثارت انتباهها. من منا لم يشعر بجمال ذراع المرأة؟ - تلك الذراع التي توحي بالعطف الذي يسكن في ذلك المرفق المثني، وتمتد حتى المعصم الحساس كاشفاً عن نعومة لامثيل لها.

ذراع المرأة لامست بشغف روح نحات عظيم الشأن منذ انقضاء ألفي عام، لذلك خلدّ تلك الذراع في صورة بارثينون[1] التي لاتزال تؤثر فينا بقوة عندما نرقب ذلك التشابك الحميم بين ذراع وجسد بلا رأس مصنوع من المرمر. كانت ذراع ماغي مثل تلك الذراع - وغيها الكثير من الحميمية التي تلون الحياة بهجة.

اعترى ستيفن نبض جنوني، اتجه نحو تلك الذراع ،وأمطرها بوابل من القبلات، وهو يمسك بالمعصم

---

[1] إشارة إلى هيئتين أنثويتين جسدتا كتمثال في المتحف البريطاني

خطفت ماغي ذراعها منه، وحملقت به غاضبة مثل آلهة حرب مجروحة، وهي ترتعش بحقد لأن كرامتها انتهكت تكلمت بصوت يرتجف بعمق: "كيف تجرؤ؟ من أعطاك الحق في إهانتي؟".

ابتعدت عنه متوجهة نحو الغرفة المجاورة، ورمت بنفسها على الأريكة، وهي تلهث وترتجف.

لقد عوقبت بشكل فظيع لأنها سمحت لنفسها أن تحظى بلحظة سعادة كانت خيانة للوسي، ولفيليب - ولروحها أيضاً. هزمت تلك السعادة الخاطفة بلمح البصر: لقد عاملها ستيفن بخفة واستهزئ بمشاعرها أكثر مما فعل مع لوسي.

أما بالنسبة إلى ستيفن فقد اتكأ للوراء على إطار البيت الزجاجي، وهو مصاب بالدوار نتيجة صراع كتلة من العواطف - حب، حقد، ويأس مضطرب: يأس لأنه أساء إلى مشاعر ماغي.

الإحساس الذي اعتراه الآن: هو أن يقترب منها ثانية ويطلب السماح، فهذا الدافع كان القوة الوحيدة التي استحثته للوقوف أمامها بخضوع - وغضب ماغي لم يكن قد هدأ بعد.

قالت بكبرياء واندفاع: "دعني وحدي أرجوك، وحاول أن تتفادى لقائي في المستقبل".

انصرف ستيفن، وتراجع إلى الوراء نحو الطرف الآخر للغرفة.

كانت هنالك حاجة كئيبة للعودة ثانية إلى غرفة الرقص، وقد بدأ يدرك حقيقة ما حصل، حتى أنه عندما دخل الغرفة لم تكن رقصة الفالس قد انتهت بعد.

لم تمض فترة طويلة حتى دخلت ماغي الغرفة أيضاً. زاد اعتزازها بنفسها ودبَّ فيها النشاط والحيوية: الضعف المقيت الذي كان يجرها للخلف، ويجرح كبرياءها، تلاشى على الأقل في اللحظة الراهنة ينبغي إلغاء جميع الأفكار والإغراءات التي كانت تعتريها الشهر الفائت، ولا يجب أن تجد لها مكاناً في الذاكرة أبداً: الآن لايوجد أي شيء يغويها، وأداء الواجب أصبح ممكناً، والأهداف النبيلة القديمة ستسود بسلام مرة أخرى دخلت غرفة الاستقبال بوجه مشرق منبسط الأسارير، وبإحساس معنوي عالٍ جعلها فخورة بنفسها وبقدرتها على مقاومة كل ما يثيرها. رفضت أن تشارك ثانية في الرقص وكانت على استعداد للتحدث بهدوء مع أي شخص يخاطبها أو يحاول التقرب إليها.

وعندما انتهى كل شيء في تلك الليلة، قبلت لوسي، وقلبها مرتاح لأنها لم تخن تلك الأخت اللطيفة التي منحتها ثقتها.

صباح اليوم التالي لم تنطلق ماغي رأساً إلى باسيت كما توقعت إذ كان من المفروض أن ترافقها والدتها في العربة، وبما أن السيدة توليفر لم تنته بسرعة من القيام بالأعمال المنزلية، توجب على ماغي التي كانت على عجلة من أمرها، أن تجلس منتظرة في الحديقة ريثما تنتهي أمها. أما لوسي فقد انشغلت في تحضير بعض الهدايا من البازار لإرسالها إلى بعض الشابات في باسيت، وعندما قرع جرس الباب بقوة، أصيبت ماغي بالرعب لاعتقادها بأن الزائر هو ستيفن.

وحالاً دخل الزائر الحديقة وحده، وجلس قربها على مقعد الحديقة

لم يكن ستيفن.

قال فيليب: "بوسعنا أن نلمح أطراف أشجار التنوب من هذا المقعد يا ماغي".

تشابكت أيديهما ببعضهما بعضاً بصمت، لكن ماغي تأملته بابتسامة عاطفية طفولية، وقد ضجت ذاكرتها بمشاهد الماضي التي جمعتهما، مما منحه إحساساً مشجعاً.

قالت: "أجل، غالباً ما أنظر إليها من هنا، وأتمنى لو أتمكن ثانية من رؤية شعاع الشمس الخافت وهو يسطع عليها. لكني لم أسلك ذلك الطريق أبداً سوى مرة - عندما ذهبت إلى باحة الكنيسة، برفقة والدتي".

قال فيليب: "لقد كنت هناك - أذهب إلى هناك - باستمرار. لا أملك شيئاً الآن إلا ذكريات الماضي الجميلة".

إحساس عميق حثّ ماغي على الإمساك بيد فيليب غالباً ما كانا يتمشيان، وهما يمسكان بأيديهما!

قالت: "أتذكر كل بقعة في ذلك المكان - ولاسيما المكان الذي كنت تخبرني فيه عن أمور خاصة - عن قصص ممتعة لم أسمع بها من قبل".

قال فيليب بعد أن انتابه إحساس بالخوف: "ستذهبين إلى هناك ثانية يا ماغي، أليس كذلك؟ سوف يستعيد أخوك الطاحونة عما قريب".

"أجل، ولن أكون هناك لقد سعدت بهذا الخبر. لكنني سأرحل ثانية - ربما لم تخبرك لوسي؟".

"إذاً لن يتلاقى المستقبل بعد الآن مع الماضي، يا ماغي؟ هل سيغلق ذلك الكتاب إلى الأبد؟".

عيناها الرماديتان اللتان غالباً ما كانتا تحدقان بها بنظرة عبادة متوسلة، امتلأتا الآن بشعاع أمل أخير متصارع، ونظرت ماغي إليهما بعاطفة صادقة

قالت بنبرة كئيبة: "ذلك الكتاب لن يغلق أبداً يا فيليب لاأرغب بمستقبل يبعدني عن ذكريات الماضي، وتعلقي بها. لكن علاقتي بأخي هي الأقوى لاأستطيع القيام بأي عمل يبعدني عنه".

"هل هذا هو السبب الوحيد الذي سيفرقنا إلى الأبد يا ماغي؟".

قال فيليب بتصميم وقد أصابه اليأس من الحصول على إجابة نهائية "السبب الوحيد "، قالت ماغي بهدوء. وهي تؤمن به أعطاها هذا القرار قوة وإحساساً جديداً بالاعتزاز بنفسها، بدأت تتعامل مع المستقبل بهدوء أكثر. جلسا بضع لحظات ويداهما متشابكتان ببعضهما بعضاً، وقد التزما الصمت دون أن يتبادلا النظرات: كانت ماغي تستعيد الأيام التي جمعتهما في الماضي وتتذكر لحظات الحب والسعادة، كانت ترى فيليب في الأعماق الحمراء.

أما بالنسبة إلى فيليب فقد أحس أن عليه أن يكون سعيداً تماماً بهذا الجواب: كانت واضحة وشفافة للغاية مثل بركة ماء صخرية لماذا لاتغمره السعادة؟ فقد تبددت الغيرة التي لاتزول إلا مع الكشف عن كل مطاوي القلب

الفصل الحادي عشر

في الزقاق

ماغي صار لها أربعة أيام في منزل عمتها موس، وقد بدت أشعة شمس حزيران أكثر تألقاً وإشراقاً في عيني تلك المرأة العاطفية، كما شكّل وجودها مرحلة مزدهرة بالنسبة لأبناء عمتها، الكبار منهم والصغار، الذين كانوا يحفظون كلماتها وتصرفاتها عن ظهر قلب، وكأنها آلهة تتحلى بالحكمة والجمال الكاملين.

كانت واقفة عند طريق مرتفع مع عمتها ومجموعة من أولاد عمتها يطعمون الصيصان، قبل أن يحين موعد شرب الحليب بعد الظهيرة.

بدت الأبنية الضخمة المحيطة بالباحة المجوفة مقفرة وموشكة على السقوط كسابق عهدها، وفوق جدار الحديقة القديم كانت شجيرات الورد تمتد بشكل غير منتظم لترخي بثقلها الصيفي في كل الأرجاء، وكان مشهد الغابة الرمادية والمنزل المكسو بقرميد قديم يبعث على الخمول وسط أشعة الشمس التي ألقت بظلالها في فترة ما بعد الظهيرة، حتى بدا الجو هادئاً تماماً. كانت ماغي تضع قبعتها تحت ذراعها، وتبتسم وهي تنظر إلى صوص صغير ينقر البيضة، عندما صرخت عمتها: "يا إلهي! من ذلك الشخص القادم من عند البوابة؟".

كان السيد يمتطي حصاناً طويلاً مجوف الظهر، وكانت خاصرتا ورقبة الحصان بلون أسود مقلم، وتندفعان إلى الأمام بحركة سريعة.

شعرت ماغي بأن قلبها ينبض بشدة والدم يغلي في رأسها - إحساس رهيب كالذي ينتاب المرء عندما يرى عدواً متوحشاً عاد إلى الحياة فجأة وهزم الموت.

"من هذا يا حبيبتي؟ "، سألت السيدة موس، بعد أن لاحظت تغيراً واضحاً طرأ على وجه ماغي يشير إلى أنها قد عرفته.

أجابت ماغي بصوت منخفض: "إنه السيد ستيفن غيست خطيب ابنة خالتي لوسي - إنه سيد ودود جداً مع ابنة خالتي".

كان ستيفن قد اقترب منهما، وقفز عن حصانه، ورفع قبعته وهو يتقدم نحوهما.

قالت السيدة موس إلى ولد في عمره الثاني عشر: "أمسك الحصان يا ويلي".

قال ستيفن وهو يسحب الحصان من رأسه الذي كان يحركه بعشوائية: "لا، أشكرك على العودة ثانية على الفور. لدي رسالة أريد أن أسلمك إياها، آنسة توليفر - بشأن عمل خصوصي.

هل أستطيع التحدث معك على انفراد ؟".

بدت نظرته مرهقة ومضطربة إلى حد ما ،مثل رجل نهض من سريره، ولم يأخذ قسطاً كافياً من الراحة تكلم بشكل مفاجئ تقريباً، وكأن زيارته القصيرة كانت ملحة جداً حتى أنه لم يكترث لما سوف يدور في ذهن السيدة موس بشأن زيارته وطلبه السيدة موس الطيبة، أحست بعصبية إلى حد ما في حضور هذا السيد المتعجرف، وكانت تتساءل في قرارة نفسها إن كان من الصواب أو الخطأ أن تطلب منه ثانية ترك حصانه ليتمشى بحرية مع ماغي، التي ارتبكت بسبب ذلك الموقف، وكانت عاجزة عن البوح بأية كلمة، لبست قبعتها، واستدارت لكي تتمشى نحو البوابة

استدار ستيفن أيضاً، ومشى إلى جانبها، وهو يجرُ حصانه

لم يتفوها بكلمة حتى وصلا إلى الزقاق، وتمشيا مسافة أربع أو خمس ياردات، عندما استدارت ماغي، التي كانت تنظر رأساً إلى الأمام ثانية نحو الخلف قائلة باستياء متعجرف :

"لاداعي لأن نبتعد أكثر من ذلك. لاأعرف إن كنت تعتبر تصرُفَك لبقاً ومهذباً عندما قررت أن تخضعني للأمر الواقع وتجبرني على مرافقتك - أو أنك ترغب في إهانتي بأن تفرض علي مقابلة بهذه الطريقة".

قال ستيفن بحدة:

"بالطبع أنت غاضبة بسبب قدومي إلى هنا. بالطبع لاأهمية لمعاناة الرجل - ما يهمك فقط هو الحفاظ على كرامتك".

ذهلت ماغي قليلاً، وكأنها أصيبت بصدمة كهربائية خفيفة

"وكأنه لايكفي أنني تورطت بهذه الطريقة - وأنني مجنون بحبك - وأنني أقاوم أقوى عاطفة يمكن أن يشعر بها الرجل، لأنني أحاول أن أكون صادقاً في ادعاءاتي - لكنك تعاملينني، وكأني وحش شرس، يرغب بالإساءة إليك عن طيب خاطر. لو كان الأمر باختياري، لطلبت منك أن تأخذي كل ما أملك، وكل حياتي، وأن تفعلي بي ما تريدين! أعلم أنني نسيت نفسي، وتصرفت بحماقة وتجاوزت حدودي. لقد احتقرت نفسي كثيراً. لكنني ندمت على الفور - إنني نادم حتى الآن. عليك أن تغفري لي خطئي: إن رجلاً مثلي يحب بكل جوارحه، يكون عرضة للوقوع أسيراً في شبكة عواطف ولو للحظة قصيرة، ولكن يجب أن تعلمي أنني تألمت كثيراً لأنني آلمتك - حتى أنني أقبل أن يحاسبني العالم كله على ما اقترفته من إثم بحقك".

لم تجرؤ ماغي على الكلام - ولا حتى أن تدير رأسها. القوة التي أحست بها

بعد تلك المأساة ذهبت مع الريح، وبدأت شفتاها ترتعشان بوضوح. لم تستطع أن تنطق بكلمات المسامحة من كل قلبها.

أصبحا تقريباً أمام البوابة، وتوقفت هناك وهي ترتعش.

"لاينبغي أن تتفوه بأشياء كهذه - لن أسمع منك المزيد "، قالت، وقد بدا عليها البؤس، بينما اعترض ستيفن طريقها لكي يمنعها من التقدم أكثر نحو البوابة. "إنني آسفة جداً. إن كنت سببت لك أي ألم، ولكن لافائدة من الكلام".

قال ستيفن باندفاع: "أجل، هنالك فائدة من الكلام من الأفضل أن تعامليني بقليل من الإحساس بالشفقة والاحترام لمشاعري، بدلاً من محاكمتي بقسوة. أستطيع تحمل أي شيء إن علمت بأنك لاتحملين الحقد تجاه شاب وقح أساء التصرف انظري إلي - إنني مأسور بك: أمتطي حصاني وأعدو يومياً مسافة ثلاثين ميلاً لأتخلص من التفكير بك".لم تجرؤ ماغي حتى على رفع بصرها. لقد سبق لها أن رأت ذلك الوجه المرتبك لكنها قالت بلطف :

"إنني لاأسيء الظن بك أبداً".

"إذاً عزيزتي، انظري إلي "، قال ستيفن متوسلاً بنبرة حنونة إلى أبعد حد. "لاتشيحي بوجهك عني امنحيني لحظة سعادة - دعيني أشعر بأنك سامحتني".

تأثرت ماغي بهذه الكلمات، فقالت: "أجل، لقد سامحتك أرجوك، دعني أذهب ثانية أرجوك ابتعد من هنا".

سقطت دمعة سخية من تحت جفنيها المتهدلين.

قال ستيفن بنبرة أكثر عطفاً وتوسلاً :

"لايمكنني الابتعاد عنك - لاأستطيع التخلي عنك سوف أعاود المجيء إلى هنا إذا عاملتيني بهذا البرود. ولكن إذا رافقتني قليلاً في المشوار سيهدأ بالي، وأعيش على هذه الذكرى الجميلة.

تلاحظين بوضوح كيف جعلني غضبك أخرج عن طوري أكثر من عشر مرات".

استدارت ماغي نحوه تانكريد، الحصان ذو الظهر المجوف، بدأ يثير حركات احتجاج على هذا التغيير المستمر في قيادته، حتى أن ستيفن الذي لمح ويلي موس يختلس النظر من وراء البوابة، ناداه، "هيه! تعال، أمسك حصاني مدة خمس دقائق فقط".

قالت ماغي بسرعة: "أو، لا، سوف ترتاب عمتي في الأمر".

أجاب ستيفن بصبر نافد: "لاتهتمي، إنهم لايعرفون سكان بلدة القديس أوغ. أمسكه مدة خمس دقائق، أضاف ستيفن مخاطباً ويلي، الذي اقترب منهما، ثم استدار نحو ماغي، وتابعا المشي.

كان واضحاً أن عليها متابعة المسير الآن.

"أمسكي بذراعي "قال ستيفن متوسلاً، استجابت له ماغي التي أحست، وكأنها تعيش حلماً.

كسرت جدار الصمت محاولة أن تقاوم ذلك الشعور الجميل الذي انتابها: "لانهاية لهذا البؤس لاأستطيع تجاهل لوسي والآخرين - فكر في لوسي".

"إنني أفكر بها - باركها الله إذا لم - "وضع ستيفن يده على يد ماغي التي استقرت على ذراعه، أحسا بأنهما عاجزان عن الكلام

تابعت أخيراً ماغي بجهد يائس :

"ثم إنه لدي ارتباطات أخرى - حتى لو لم تكن لوسي موجودة".

قال ستيفن على الفور :

"هل أنت مخطوبة إلى فيليب واكيم؟ هل الأمر هكذا؟".

"أعتبر نفسي مخطوبة له - ولا أنوي الزواج بأي شخص آخر".

صمت ستيفن ثانية حتى أدارا ظهرهما للشمس ودخلا الزقاق، كان مأوى معشوشباً. ثم صرخ بتهور :

"هذا غير طبيعي - إنه أمر فظيع. ماغي، إن أحببتني كما أحبك، علينا أن نلقي جميع الهموم لكي تذروها الرياح، لأجل خاطرينا معاً. علينا كسر هذا الحاجز الذي يفصل بيننا بشكل أعمى، وأن نصمم على الزواج".

"أفضل الموت على أن أقع أسيرة ذلك الإغواء "، قالت ماغي بنبرة بطيئة وواضحة - استحضرت كل القوة الروحانية التي منحتها إياها سنوات الألم والعذاب سحبت ذراعها في تلك اللحظة من تحت ذراعه عندما خاطبته بتلك الكلمات الحازمة.

قال بلهجة حادة تقريباً: "إذاً قولي بأنك لاتكترثين لمشاعري. قولي بأنك تحبين شخصاً آخر أكثر مني".

خطر في بال ماغي أن تريح نفسها من هذا الصراع الداخلي - وتخبر ستيفن بأن قلبها مكرس بالكامل لأجل فيليب لكن شفتيها ارتعشتا، ولم تنطقا بكلمة، وظلت صامتة.

قال ستيفن بلطف وهو يأخذ يدها من جديد ويضعها تحت ذراعه :

"إذا كنت تحبينني يا أعز أحبائي، من الأفضل لنا - من الصواب أن نتزوج. لانستطيع تحمل هذا الألم إذا ابتعدنا عن بعضنا. إن الحب ليس بيدنا وما حدث خارج عن إرادتنا مهما بذلنا من مجهود لمقاومته يعلم الله، أنني حاولت كثيراً أن أكون مخلصاً للعلاقة التي تربطني بلوسي - ولكن أفضل أن أجزم قراري من البداية".

التزمت ماغي الصمت ماذا لو كان كلامه صحيحاً - ماذا لو أقنعت نفسها به، ولم تعد تعاني من ذلك الصراع الداخلي وهي تقاوم تيار الحب الجارف، الذي بدا عذباً وقوياً مثل جدول ماء صيفي؟

قال ستيفن وهو ينحني نحوها، وينظر إليها بشغف عساه يجد جواباً في وجهها. "قولي "نعم يا أعز أحبائي ماذا يهمنا في العالم بأكمله، إذا ارتبطنا ببعضنا بعضاً؟".

أحس بتنفسها يلامس وجهه - كانت شفتاه قريبتين جداً من شفتيها - ولكن كان هنالك هلع عظيم يسيطر على حبه لها.

ارتعشت شفتاها وحاجباها، فتحت عينيها بالكامل وهي تحدق لحظة في وجهه، مثل حيوان بري جميل هدأ بعد قليل من الترويض، ثم استدار ثانية متجهاً نحو المنزل.

تابع ستيفن، محاولاً أن يسيطر على حيرته بالإضافة إلى حيرتها :

"وبعد كل ذلك، علاقتي بلوسي ليست ايجابية: إذا أحست لوسي بعواطف تشدها نحو إنسان آخر، لن يكون من حقي أن أجذبها نحوي أو أغير مشاعرها. إذا لم تعاهدي فيليب بشكل مطلق، لست ملزمة بإيفاء وعد لم تقطعيه أمامه، كلانا لسنا ملزمين بإيفاء عهد لم نقطعه على أنفسنا".

قالت ماغي متلهفة: "أنت لست مقتنعاً بذلك - هذه ليست مشاعرك الحقيقية التي تؤمن بها. إنك تشعر كما أشعر تماماً، بأن الرابطة الحقيقية تتجلى بالأحاسيس والتوقعات التي نتركها في نفوس الآخرين وإلا لكانت كل الوعود بلا قيمة، إذا لم تكن هنالك عقوبة خارجية لاشيء في العالم أفضل من الإخلاص مع الذات ومع الآخرين".

صمت ستيفن: لم يستطع مواجهة قناعة آمن بها، وعانى من صراع داخلي كي يغيرها. وحالاً ألبسها شكلاً جديداً.

قال بإلحاح :

"لايمكن الإيفاء بالعهد. إنها حالة استثنائية: بوسعنا فقط أن نتظاهر بمحبة الآخر. ولكن هذا خطأ فادح أيضاً - لأنه ليس في صالحنا، ولا في صالح من يحبنا. ماغي يجب أن تفهمي هذا الأمر جيداً - أنت تفهمين ما أقول".

كان ينظر إلى ماغي بشغف منتظراً أقل إيماءة بالموافقة، وهو يقبض على يدها بلطف وثبات بقيت صامتة بضع لحظات، وهي تحدق بالأرض، ثم أخذت نفساً عميقاً، وقالت، وهي تنظر إليه بحزن مهيب :

"أوه إن الأمر في غاية الصعوبة - الحياة قاسية جداً! في بعض الأحيان يبدو

لي من الصواب أن نتبع أقوى مشاعرنا - ولكن فيما بعد، يتبين أن مشاعر كهذه تعترض باستمرار، الروابط التي صنعتها من أجلنا حياتنا السابقة كلها - الروابط التي جعلت الآخرين يعتمدون علينا - وإن حصل، وانفصمت عرى هذه الروابط ربما قسمتهم إلى نصفين لو كانت الحياة سهلة وبسيطة كما يمكن أن تكون في الجنة أقصد لو أن الحياة لم تفرض علينا واجبات قبل أن نعرف معنى الحب، لكان الحب مبرراً كافياً لجعل كل اثنين يرتبطان ببعضهما الآخر. ولكن أدرك - وأشعر أن الأمر لايبدو كذلك الآن: هنالك أشياء ينبغي علينا شجبها بقوة، بعضنا يجب أن يستسلم للحب توجد أشياء كثيرة نشعر بصعوبتها وقسوتها، لكنني أؤمن بحقيقة واضحة للعيان - وهي أنه لاينبغي عليّ، أن أحقق سعادتي على حساب تعاسة الآخرين. الحب أمر طبيعي، ولكن بالتأكيد إن الشفقة والإخلاص والذاكرة كلها أمور طبيعية أيضاً. وجميعها تسكن في روحي، وتعاقبني إن لم أرضخ لها. سأبقى أسيرة المعاناة التي سببتها لنفسي سيتلوث حبنا. أرجوك لاتلح عليّ، ساعدني - ساعدني، لأنني أحبك".

كانت ماغي تزداد شوقاً أكثر فأكثر وهي تتكلم، حيث تورّد وجهها، وامتلأت عيناها الواسعتان حباً وتوسلاً. كانت دماء النبالة تسري في عروق ستيفن حتى أنه تأثر بمناشدتها: ولكن في اللحظة ذاتها - هل بإمكانه إلا أن يتأثر؟ - ذلك الجمال الذي يناشده المساعدة أسر قلبه، وسيطر عليه بالكامل.

قال بنبرة تميل إلى الهمس، وهو يطوقها بذراعه :

"يا أحب أحبائي، سوف أفعل، سوف أتحمل أي شيء تطلبينه مني. ولكن - امنحيني قبلة واحدة - واحدة القبلة الأخيرة - قبل وداعنا".

قبلة واحدة - ثم نظرة معمقة - حتى قالت ماغي وهي ترتعش، "دعني أذهب - دعنا نعد بسرعة".

حثت ماغي خطاها مسرعةً، وخيم صمت مثقل ظل ستيفن واقفاً، وأومأ بيده عندما أصبحا على مرأى من نظر ويلي والحصان، وتابعت ماغي مشوارها حتى دخلت البوابة.

كانت السيدة موس واقفة وحدها عند باب الشرفة القديمة: كانت قد أرسلت كلَّ أولادها إلى الداخل دون أن تجرح مشاعر أحد. يبدو الأمر سعيداً أن يكون لماغي عاشقٌ ثريٌ ووسيم، ولكن من الطبيعي أن تشعر بالارتياب لدى عودتها ثانية: - وربما لايبدو الأمر مبهجاً.

انتظرت السيدة موس بقلق عودة ماغي لقد نطقت ملامح ذلك الوجه بعبارات واضحة، إن كان هنالك إحساس بالفرح، فهو إحساس مثير جداً، من النوع الذي يبعث على الريبة والشك "اجلسي هنا قليلاً يا حبيبتي".

سحبت ماغي إلى داخل الشرفة، وجلست على مقعد بالقرب منها: لم يكن المنزل خاوياً.

"أوه عمتي الحبيبة، أشعر ببؤس شديد. أتمنى لو أنني فارقت الحياة منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري. لقد كان من السهولة أن أتخلى عن أمور كثيرة - تبدو لي صعبة جداً الآن".

وضعت الطفلة المسكينة ذراعيها حول عنق عمتها، وتاهت في نشيج عميق وطويل.

الفصل الثاني عشر

حفلة عائلية

غادرت ماغي منزل عمتها الطيبة في نهاية الأسبوع، وذهبت إلى مزرعة غارم لتَزور عمتها بوليت - حسبما كان متفقاً. في أثناء ذلك، حدثت أشياء كثيرة غير متوقعة، وكان من المفترض أن تحدث حفلة عائلية في غارم لمناقشة التغيير الحاصل في عائلة توليفر والاحتفال بعودة الأمور إلى مجاريها. من المفرح أن تعلم بأن هيئة وزارية جديدة قد وصلت إلى المكتب لتوّها، وانضمت إلى الرفاق الذين استمتعوا بخطابات كثيرة أمطرت عليهم سيولاً من المدائح وكلمات التبجيل: في كثير من العائلات المحترمة في ذلك العهد، يصبح الأقارب محط إعجاب وافتخار، وتصل إلى زمن تكف فيه الذئاب من التكشير عن أنيابها، ولا تبدي إلا كل نوايا حسنة.

وصلت لوسي باكراً جداً لتكون أول من يزف الأخبار إلى خالتها غليك، ولأنها كانت تواقة جداً إلى التحدث بهدوء مع ماغي بشأن الأخبار الرائعة قالت لوسي بنبرتها الحكيمة العذبة، ألم يبدُ، وكأن كل الأمور، حتى بالنسبة إلى أولئك الأشخاص المساكين! تسير الآن لتبعث الفرح في نفس الخالة توليفر، وابن الخالة توم، وكذلك ماغي المشاكسة؟ ولكن ابن خالتي توم يستحق هذه المكافأة بعد طول عناء - بابا معجب به كثيراً وبعمله.

بالتأكيد يجب أن تنتقل الخالة توليفر الآن إلى الطاحونة، وتؤمن بيتاً لتوم: كان ذلك خسارة بالنسبة إلى لوسي التي ستفقد دعم وصحبة خالتها، هذا التغيير في مصلحة الخالة!

في هذه اللحظة حاولت لوسي أن تنفذ مشاريعها الماكرة، وعندما شقت طريقها مع ماغي نحو الدرج الساطع حتى وصلتا الردهة الفسيحة، حيث بدت أشعة الشمس أكثر وضوحاً من أي مكان آخر، وجهت مناوراتها، كأي خبير قدير في فنون التكتيك، ضد الجانب الأضعف في العدوقالت وهي تجلس على الأريكة وتسوي بلطف الخيوط المتدلية من قبعة تلك السيدة: "خالة بوليت، أريد منك أن تقرري كم من الأشياء والأقمشة الكتانية التي سوف تقدمينها إلى الخالة توليفر وتوم، فأنت لطالما كنت كريمة جداً في إعطاء الهدايا القيمة والجميلة، وإذا فعلت هذا ستكونين مثلاً تحتذي به الخالة غليك أيضاً".

قالت السيدة بوليت بلهجة مفعمة بالنشاط، على غير عادتها :

"بإمكاني أن أخبرك يا عزيزتي أن غليك لاتملك من الأقمشة الكتانية مثل ما أملك حتى تحذو حذوي في كل الأغطية الكتانية التي تستخدمها لفرش الطاولات ليس لديها ولا حتى قطعة الماسية واحدة ومن المؤسف حقاً أن يوزع المرء ما لديه من أقمشة قبل أن يفارق الحياة - لاأعتقد أنه باستطاعتي فعل ذلك، يا حبيبتي، تابعت السيدة بوليت، وهي تهز رأسها، وتنظر إلى أختها توليفر:

"تذكرين جيداً عندما اخترنا سويةً قطعتين من الماس - الرب وحده يعلم أين ذهبت ماستك"قالت السيدة المسكينة توليفر، التي اعتادت أن تضع نفسها في موقع الاتهام: "إنني واثقة يا أختاه، بأنه ما من خيار كان أمامي لم تكن تلك رغبتي، ولكن شاءت الظروف السيئة أن تجبرني على فعل ما لاأتمناه لقد أمضيت لياليَ طويلة وأنا أفكر في أفضل الممتلكات التي فقدتها".

"احتسي شراب النعناع سيدة توليفر "، قال العم بوليت، وهو يشعر بأنه كان يقدم إليها شكلاً بسيطاً من أشكال الدعم قالت لوسي: "أوه، ولكن خالة بوليت، لديك الكثير من الأقمشة الكتانية الجميلة ثم افترضي بأن لديك بناتاً! عندئذ يتوجب عليك أن توزعيها بينهن، عندما يتزوجن".

قالت السيدة بوليت: "حسنٌ، لاأقول بأنني لن أعطيها الأقمشة الكتانية توم الآن محظوظ جداً، ومن الصواب أن يقدم له أصدقاؤه الدعم والمؤازرة هنالك أغطية الطاولات التي اشتريتها من بازارك يا حبيبتي، هذا لاشيء، ولكنه عمل جيد أن أشتريها منك لن أعطي ماغي أي شيء من ممتلكاتي ومن الأقمشة القطنية الهندية، إن اشتركت بالخدمة ثانية، في حين من الواجب عليها أن تبقى في صحبتي وتخيط لي الملابس، وأن تستجيب لرغبة أخيها".

"الاشتراك في الخدمة "، كان التعبير الذي تستخدمه عائلة دودسن للإشارة إلى من تعمل معلمة أو مربية أطفال ماغي التي تميزت بجرأتها، وبساطتها إذ كانت تسدل شعرها خلف ظهرها، لم تكن ابنة أخت مرغوبة وهي بهذه المواصفات هي الآن قادرة على أن تكون نافعة لنفسها وللآخرين كان الموضوع قد طرح في حضرة العم والخالة غليك أثناء احتساء الشاي، وتناول الفطائر المسطحة المستديرة

قال العم غليك بطيبة وهو يربت على ظهر ماغي :

"هيه، هيه! ما هذا الهراء، ما هذا الهراء! لانريد أن نسمع بأنك تعملين في مكان آخر ثانية، يا ماغي لماذا، لديك أعمال كثيرة في البازار: لقد حظيت بإعجاب الكثيرين ممن في البازار، أليس كذلك؟ هيا، اعترفي الآن؟".

قالت زوجته وهي تحاول أن تضفي لهجة تهذيب على لهجتها الحادة :

"سيد غليك، اعذرني، ولكن هذا الحديث لايناسب رجلاً في مثل سنك من اللائق أكثر لإبنة أختي أن تستشيرنا إذا أرادت أن تعمل في مكان آخر، وأن تؤدي واجباتها باحترام تجاه خالاتها وأقاربها، فلم أسمع من قبل عن حدوث أمر كهذا في عائلتي"قال السيد غليك، وهو يغمز بسرور، بينما تناول السيد بوليت قطعة إضافية صغيرة من السكر، بعد ذلك الحديث العذب

"لماذا، ماذا أطلقن علينا، عندما ذهبنا لزيارتهن، إيه، أيها الجار بوليت؟ لقد اعتقدن بأننا غاية في اللطف".

قالت السيدة غليك: "سيد غليك، إذا أردت أن تتصرف بأسلوب غير مهذب، فدعني أعلم هذا حتى أعيد حساباتي".

قالت السيدة بوليت :

"سيدة جين، إن زوجك يمزح، دعيه يمزح إن كان هذا يمنحه الصحة والقوة السيد بوليت المسكين يلوي فمه باتجاه واحد لايستطيع الضحك إن حاول أن يفرج عن نفسه".

قالت السيدة غليك :

"إذاً سأضايقك، ولن أدعك تستمتع بالفطائر سيد غليك، إن كنت جريئة كثيراً في مقاطعتك أثناء مزاحك مع أن أناساً آخرين سوف يلاحظون بأن النكتة الحقيقية تتجلى في تصرف ابنة أخت مع خالتها، الأخت الكبرى لأمها ،وتجاهلها لرأيها حيث تقوم بزيارات قصيرة في البلدة ثم تسافر بعيداً دون علمها - وكأنني لاأعمل كل حياتي إلا لأجلها ونقودي سوف أقسمها بالتساوي - قاطعتها السيدة توليفر بقلق: "أختاه، إنني واثقة من أن ماغي لم تقصد ما فعلته، وهي تتشرف بالبقاء في منزلك وكذلك في منزل الآخرين. لقد قلت مراراً وتكراراً، "حبيبتي ليس لك الحق في السفر دون إخبار أحد". هناك عشرة أيام أو أسبوعان قبل أن تحزم ماغي أمرها، وتقرر الذهاب: بإمكانها البقاء في منزلك، وسوف أزورها كلما سنحت لي الفرصة، وكذلك ستفعل لوسي".

قالت السيدة غليك:

"حبيبتي، لو فكرت قليلاً بالمسألة، لأدركت أن المسافة التي تفصل منزلي عن منزل السيد دين لاتستغرق أكثر من ربع ساعة مشياً. بإمكانها المجيء عند الصباح، والعودة في آخر المساء، وعليها أن تحمد الله الذي بعث إليها خالة طيبة قريبة منها جداً وبوسعها اللجوء إليها والجلوس معها. عندما كنت في عمرها كنت أتمنى لو أن لي خالة طيبة".

قالت السيدة دين: "سيدة جين، إن غرف النوم عندك موحشة ورطبة وغير مريحة، إنني واثقة أن صدمة الموت سوف تصيبني إذا نمت في أحدها".

هتفت لوسي، وهي تصفق بيديها :

"أوه، إنه توم إنه قادم على ظهر سندباد، كما طلبت منه كم كنت أخشى أن لايفي بوعده".

قفزت ماغي كي تقبل توم عندما دخل، وقلبها يجيش عاطفة، لدى هذا اللقاء الأول منذ طرح أمامه موضوع عودة الطاحونة، وبقيت ممسكة بيده وهي تقوده ليجلس على كرسي بجانبها. كانت في توق شديد لإزالة جميع أشكال سوء التفاهم بينها وبين توم ابتسم لها بلطف شديد في هذا المساء وقال: "حسنٌ ماغي، كيف حال عمتي موس؟".

قال السيد غليك وهو يمد يده لمصافحته: "هيا تعال يا سيدي واي، لقد أصبحت رجلاً ناضجاً. لقد حالفك الحظ باكراً أكثر مما حالفنا نحن العجزة - ولكن أتمنى لك الفرح. سأتعهد لك بأن تسترجع الطاحونة يوماً ما".

قالت السيدة غليك: "ولكن آمل أن يتذكر دائماً بأنه يدين لعائلة أمه بالفضل. إن كان لم يأخذ من سلالة العائلة شيئاً، سوف يعيش فقيراً طوال عمره. فعائلتنا لم تعرف الفشل يوماً، ولا تبديد الوقت والطاقات الإبداعية - ولا الموت دون إرادة —".

قالت الخالة بوليت: "لا، ولا أشكال الموت المفاجئ، دائماً نحضر الطبيب قبل أن يفارق أحدنا الحياة. ولكن لتوم سحنة عائلة دودسن: قلت ذلك منذ البداية. لاأعرف ماذا تنوين أن تقدمي له، يا أختي غليك، ولكنني أنوي إعطائه غطاء للطاولة بالإضافة إلى الملاءات. ليس من عادتي أن أقول ما سوف أفعل في المستقبل، لكني مضطرة لفعل ذلك، وإذا حانت ساعتي غداً، يا سيد بوليت، عليك أن تتذكر جيداً ما قلته - مع أنني واثقة من أنك ستخطئ في استعمال المفتاح الصحيح، ولن تتذكر بأنه يوجد في الرف الثالث من الجهة اليسرى لخزانة الملابس، خلف الدرج الذي أضع فيه القبعات الليلية وربطات العنق التي ألبسها أثناء الزيارات الرسمية - ومفتاح الدرج هذا في الغرفة الزرقاء حيث يوجد مفتاح الخزانة الزرقاء. سوف ترتكب خطأ، ولن أكون المسؤولة عن ذلك، ولن أعرف ماذا حدث بالضبط".

كان هذا المشهد الكئيب مؤثراً للغاية في نفس السيدة بوليت.

قالت السيدة غليك، بنبرة اشمئزاز من هذه الحماقة:

"إنك تحملين الأمر أكثر مما يستحق، يا صوفي لايمكن لشخص أن يقول

بأنه غير مسؤول عن شيء، لكنني سأفعل ما هو معقول، وليس أكثر من ذلك أما بالنسبة إلى الأقمشة الكتانية، سأمنحه ما أستطيع العطاء، وأمنح ابن أختي هدية متواضعة: لدي قماش من الطراز الممتاز، ويستحق أن يثير إعجاب كل من ينظر إليه، وأتمنى أن يتذكر توم خالته كلما نظر إليه".

شكر توم السيدة غليك، لكنه تحاشى أن يتطرق إلى ذكر فضائلها.

كانت لوسي تسبح في أفكارها بعيداً عن تلك الماديات عندما حان وقت العودة إلى المنزل، كان على توم أن يَقِلَّ والدته ولوسي بالعربة إلى هناك.

قالت تلك الشابة الحكيمة: "عليك أن تجلسي وحدك يا خالتي، لأنني سأجلس بجانب توم: لدي الكثير لأقوله له".

في غمرة لهفتها وقلقها الشديد على ماغي، لم تستطع لوسي إقناع نفسها بتأجيل مناقشة الموضوع مع توم الذي اعتقدت بأنه ينبغي أن يكون أكثر مرونة ووضوحاً بعد هذا الانجاز السريع الذي حقق أمنيته بعودة الطاحونة لم تسمح لها طبيعته بالدخول في مقدمات وقد أصابتها الحيرة، ولم تلاحظ التغيير السيء الذي طرأ على ملامحه عندما تحدثت عن تاريخ فيليب وتأثيره القوي على والده كشفت المكتوم بأسلوب سياسي ناجح، كان من المفترض أن يلين قلب توم تجاه فيليب في الحال بالإضافة إلى أنها حاولت أن تقنعه بأن واكيم كان مستعداً للقبول بماغي كزوجة لولده

توم الذي كان يلاقي لوسي دائماً بابتسامة حنونة، بدا عابس الوجه تماماً، وقال عكس ما كان يقوله من قبل، وأعلن، أنه من جهته، كان سعيداً بأن تندمل كل الجروح القديمة، وأن تعود الأمور كما كانت بين ماغي وفيليب وأن يظلا صديقين وحسب: حسب رأي ابنة خالته لوسي كان الأمر في غاية السهولة والبساطة

ولكن بالنسبة إلى العقول التي تتحلى بقوة بمزايا ايجابية وسلبية - قوة الإرادة، والإيمان بنزاهة الهدف، ضيق الأفق ومحدودية العقل، القدرة على ضبط النفس، والميل إلى فرض السيطرة والتحكم برغبات الآخرين - تبدو الأفعال الشائنة مثل غذاء طبيعي يفرض على المرء الذي لايمكنه كسب قوته في ظل تعقيدات الحياة وهذا ما تدعوه الواقع.

بطلنا الشاب النزيه توم توليفر كان من هذه الفئة: انتقاده الضمني لأخطاء والده لم يمنعه من تبني عقيدته وأخطائه، لقد كان خطأً ارتكبه ضد رجل متهاون بلا مبدأ في حياته اللامبالية، تلك العقيدة مكنته من خمد مشاعر خيبة الأمل واسترجاع الإحساس بالكرامة مشاعر أخرى فرضت قوتها على توم،

لتعزز اشمئزازاً مريراً تجاه فيليب، وتجاه علاقة ماغي به، وعلى الرغم من تأثير لوسي القوي على ابن خالتها ،إلا أنها لم تحرز إلا رفضاً بارداً كما كان في السابق على الزواج: "ولكن بالطبع يمكن لماغي أن تفرض إرادتها - لقد أعلنت رغبتها في أن تكون مستقلة أما من ناحية توم، فقد عاهد نفسه بأن يلتزم بواجبه تجاه ذكرى والده، وكل إحساس بالرجولة، يفرض عليه أن لايوافق على أية صلة تربطه بعائلة واكيم".

وهكذا، كل ما استطاعت لوسي أن تفعله بحديثها الحماسي المتأمل، هو أنها مهدت الطريق أمام توم لكي يتوقع بأن يحدث قرار ماغي الحاسم تحولاً جذرياً في حياتها، وبأن قراراتها سوف تكون عكس ما يظن، ولكنها مختلفة بشكل كلي - عن علاقة الزواج بفيليب واكيم

الفصل الثالث عشر

في أقل من أسبوع عادت ماغي ثانية إلى بلدة القديس أوغ - بدا من السهل لها أن تشغل وقتها أثناء الصباح بعيداً عن لوسي ودون بذل أي جهد يذكر، لأنها عاهدت نفسها بزيارة خالتها غليك يومياً، وكان من الطبيعي أن تبقى في صحبة أمها أكثر من السابق خلا هذه الأسابيع الأخيرة، لاسيما بعد أن بدأت التجهيزات لإعداد منزل توم لكن لوسي لن تسمح بتقديم أي ذريعة لبقائها بعيدة عنها خلال فترات المساء: إذ عليها أن تحضر دائماً من منزل الخالة غليك قبل وقت العشاء - وإلا متى يتسنى لي أن أراك؟ كانت لوسي تقول ذلك وهي تزم شفتيها باستياء، وعيناها مغرورقتان بالدموع وكان السيد ستيفن يتناول غداءه في منزل السيد دين في أغلب الأوقات قدر الإمكان، بدلاً من تجنب الحضور، كما اعتاد أن يفعل في بداية الأمر كان يبدأ صباحا ته بقرار حاسم، أنه لن يتناول الغداء هناك - حتى أنه لن يذهب إلى هناك حتى تخرج ماغي حتى أنه ابتدع خطة للانطلاق برحلة في طقس حزيران المعتدل: كانت آلام الرأس التي يحس بها هي الحجة المزعومة التي دفعته للتفكير برحلة ترفيهية

لكن الرحلة لم تحدث، وفي صباح اليوم الزابع لم يكن قد حزم أمره بوضوح بشأن الذهاب إلى منزل لوسي في المساء: أحس بأن ماغي قريبة منه - تمنى لمسة واحدة، نظرة واحدة يمكن أن يخطفها منها. ولم لا؟ لايوجد أي شيء يمكن أن يكون سراً بينهما: لقد اعترفا بحبهما، وأعلناه جهراً: إنهما على وشك أن يفترقا. سوف تفرقهما الكرامة والإخلاص مع الذات: ماغي روحها النقية قررت أن لاتخون نفسها: ولكن بوسعهما أن يتبادلا نظرات الحب عبر الخليج، قبل أن يفترقا ويتلاشى ذلك الوميض الغريب من عينيهما إلى الأبد.

إلا أن معركة من العواطف الشرسة كانت تحدث في نفس ماغي، مزيج من الأحاسيس التي طالما عانت ماغي من صراع معها طوال حياتها أو قاومتها لأنها كانت محظورة عليها: تهيأ لها وكأن أسوأ الشرور تنصب كميناً لها، وتلاحقها حتى الآن لتصل إلى ذروة قوتها! تنتاب المرء لحظات يحس فيها بأنانية قاسية تتملكه حتى الصميم: لماذا لاتكون لوسي هي التي تعاني كل هذه الآلام - ولماذا لايعاني فيليب بدلاً عني؟ لقد قاست الكثير من الآلام خلال فترة حياتها كلها، فلماذا لم يأبه بها أحد، ولم يقدم لها أي عزاء؟ وعندما أصبحت كل متطلبات الحياة في متناول يدها، حب، ثروة، راحة، ثقافة، لماذا عليها أن تتخلى عن كل

هـذا النعـيم؟ مـن يحتـاج أكثـر مـن هـذا؟ وسـط كـل هـذه الفوضـى العاطفيـة الجديـدة كانـت هنـاك أصـوات قديمـة تفـرض نفـسها بقـوة، حتـى بـدأت تلـك الفوضـى تخمـد رويـداً رويـداً. هـل كـان ذلـكِ الوجـود الـذي أغواهـا هـو الوجـود الكامل الذي طالما حلمت به؟ إذاً، أين ستذهب ذكريات الماضي الأليم؟ -

كـل هـذه الهـواجس المقدسـة الـتي تحـس بهـا، هـل هـي مجـرد متعـة ذاتيـة، سـاهمت فقـط في جعـل حياتهـا مقدسـة والـسمو بنفـسها بحيـث تـشعر أنهـا تـستحق تلك الحياة؟

ربمـا تمنـت لـو أنهـا تعـيش حياتهـا بحريـة بـدون التقيـد بـالآخرين، والـتخلص مـن إيمانهـا وعاطفتـها اللـذين شـكلا أفـضل ركـنين مـن روحهـا. وبعـد ذلـك، إذا كانـت لاتستطيع تحمل كل هذا الألم، لماذا لايشاركها الآخرون في تحمله؟ -

"آه، يـا إلهـي! احمـني مـن الـشرور والآثـام - امـنحني القـوة الكافيـة لأتحمـل كـل هـذا الألم". - كيـف حـدث أن غاصـت في هـذا الـصراع مـع إغـراء طالمـا حاولـت الهـروب منـه، واعتبرتـه جريمـة بحـق نفـسها؟ متـى انتابتـها تلـك اللحظـة الكريهـة ،وأيقظتها من غفلتها، وجعلتها ترتجف رعباً، وكأنها شيء مثير للاشمئزاز؟ -

ومـع ذلـك لاينبغـي أن يـسيطر عليهـا ذلـك الإحـساس الغريـب والعـذب أو يأسـرها - عليهـا ببـساطة أن ترضـخ لآلامهـا كانـت تلتقـي مـع سـتيفن بـذلك الإحـساس، حتـى أنهمـا لايـزالان يفكـران في اختطـاف لحظـات اعـتراف مكتومـة قبل أن تحين ساعة فراقهما. هل كان يعاني هو أيضاً؟

لاحظـت ذلـك بـشكل يـومي - لاحظتـه في نظرتـه المريـضة المرهقـة، لكنـه لم يكلـف نفـسه عنـاء إجهادهـا، دخـل في حالـة لامبـالاة تجـاه كـل شـيء إلا إمكانيـة مراقبتها.

هـل اسـتطاعت في بعـض الأحيـان أن تجيـب علـى تلـك النظـرات المتوسـلة، الـتي أحـست بأنهـا تلاحقهـا مثـل تمتمـة خفيفـة مـن الحـب والألم؟ في البدايـة رفـضت تلـك النظـرة حتـى أصـبح كلاهمـا يتبـادلان النظـرات المعمقـة: كانـا ينتظـران أن تلتقـي نظراتهمـا، وعنـدما يتحقـق لهمـا ذلـك، يتوقفـان عـن الـتفكير بـأي شـيء آخر.

بدا ستيفن مهتماً بالغناء: كانت تلك طريقته بالتخاطب مع ماغي

ربمـا لم يـدرك بوضـوح أنـه كـان مـضطراً لاسـتخدام هـذه الطريقـة الـسرية - لكـي يحـدث في نفـسها أثـراً أعمـق. راقـب نفـسك عزيـزي القـارئ، وأنـت تـتكلم، ولاحـظ كيـف أن أهـدافك اللاواعيـة هـي الـتي توجـه مـسار كلامـك، عندئـذ سـوف تفهم ذلك التناقض في شخصية ستيفن.

كان فيليب واكيم نادراً ما يتردد على منزل السيد دين، وعندما جاء في إحدى الأمسيات، وبينما كان جالساً هناك على المرج، عند حلول المغيب، قالت لوسي

"الآن انتهت حكاية زيارات ماغي إلى منزل الخالة غليك، أعتقد أنه علينا الذهاب في رحلة بحرية بالقارب بشكل يومي حتى يحين موعد ذهابها. لم تحظ بما فيه الكفاية من هذه النزهات بسبب هذه الزيارات المملة، وماغي تعشق النزهات البحرية أكثر من أي شيء آخر. أليس كذلك يا ماغي؟".

قال فيليب وهو ينظر إلى ماغي مبتسماً، التي كانت تتراخى إلى الوراء في كرسي حديقة منخفض :

"آمل أنها تعشق النزهات أكثر من أي نوع من التنقل، وإلا لباعت روحها إلى ذلك "المراكبي" الشاحب الذي يسكن على نهر الفلوس - فقط من أجل أن تتنقل بالقارب إلى الأبد".

قالت لوسي: "هل تتمنى أن تكون مراكبي لماغي؟ لأنك إن رغبت بذلك، بوسعك أن تنضم إلينا، وتتخذ لنفسك مجدافاً. لو كان الفلوس مجرد بحيرة هادئة بدلاً من نهر كبير ،لتمكنا من الاستغناء عن أي سيد لأن ماغي تستطيع عندئذ أن تجدف بأسلوب رائع. ولكن طالما أن الحال هكذا، فنحن مجبرون على طلب العون من الفرسان وأتباعهم، الذين لايبدو أنهم يؤدون خدماتهم بحيوية ورشاقة".

نظرت بعتاب وغنج إلى ستيفن الذي كان يتمشى متثاقلاً جيئة وذهاباً، وهو يغني بصوت مرتفع جداً بشكل مصطنع

"المتعطش الذي يبتعد عن روحه، ويطلب شراباً إلهيًا"[1]

لم يبد أية ملاحظة، لكنه بقي بعيداً: كان يتصرف بذلك الأسلوب بشكل دائم أثناء زيارات فيليب

قالت لوسي عندما اقترب ليجلس بجانبها على المقعد:

"لايبدو أنك ترغب بالرحلة بالقارب، ألا تستطيع أن تجدف بشكل لائق الآن؟".

قال بلهجة غاضبة إلى حد ما :

"أوه، أكره أن نعمل حفلة ضخمة بالقارب، سأعود عندما تكونين وحدك".

تورّدت لوسي، وقد خشيت أن تكون مشاعر فيليب قد جرحت: لم يكن من

---

(1) من قصيدة بن جونسون "اسقيني من عينيك فقط".

عادة ستيفن أن يتكلم بتلك الطريقة فيليب تورد أيضاً، ولكن ليس لأنه أحس بإهانة شخصية وإنما بسبب شعور غريب بالشك في أن كآبة ستيفن كان لها علاقة بماغي، التي نهضت من كرسيها، وهو يتكلم، ومشت باتجاه سياج أشجار الغار لكي تلقي نظرة على ضوء الشمس الساقط على النهر.

قال فيليب: "بما أن الآنسة دين لم تدرك بعد أنها تقصي الآخرين عندما تقوم بدعوتي إلى زيارتها، عليّ أن أستسلم وأنصرف لكي أفسح المجال لهما".

قالت لوسي، وقد تضايقت كثيراً: "لاأبداً. لاينبغي عليك الانصراف أتمنى أن تحضر غداً. سوف تكون حركة المد مناسبة عند الساعة العاشرة والنصف سوف نقضي وقتاً ممتعاً مدة ساعتين في التجديف بالقارب إلى لوكريث، والعودة قبل أن تشتد حرارة الشمس". أضافت لوسي وهي تحدق بستيفن: "وكيف بوسعك أن تعترض على وجود أربعة أشخاص في القارب؟".

قال ستيفن الذي انتبه إلى أسلوبه الفظ في الكلام، وكان خجلاً إلى حد ما من وقاحته:

"أنا لاأعترض على الأشخاص، وإنما على العدد. إذا خيرت باختيار الشخص الرابع لصحبتنا، بالطبع سوف أختارك يا فيل ولكن لن نتقاسم السعادة بحراسة السيدات، علينا أن نأخذ أدوارنا بالتناوب سوف أذهب في اليوم التالي".

هذا الموقف كان له تأثيراً عميقاً في نفس فيليب حتى أنه أثار انتباهه أكثر إلى كشف حقيقة العلاقة التي تربط ستيفن بماغي، ولكن عندما وصلوا المنزل ثانية، اقترحوا عزف الموسيقى، بينما انشغلت السيدة توليفر والسيدة دين بلعبة الكريبيج[1]، وجلست ماغي بعيداً عنهما بالقرب من الطاولة التي وضعت عليها الكتب وأدوات التطريز - لم تفعل أي شيء، على كل حال، سوى الإصغاء بتجرد إلى الموسيقى.

استدار ستيفن في الحال إلى الثنائي الغنائي، وأصرَّ على فيليب ولوسي أن يغنيا معاً: غالباً ما كان يتصرف هكذا، ويطلب منهما الغناء، ولكن هذا المساء كان فيليب يشك في نوايا ستيفن وفي كل كلمة ونظرة له، وكان يراقبه بتسوق - وهو يشعر بالغضب من نفسه بسبب هذا الشك الذي يلازمه على الدوام ولكن هل دحضت ماغي من ناحيتها كل دواعي ظنونه؟ بدا من المستحيل ألا يصدق كلامها ونظرتها عندما كانا يتحدثان في آخر لقاء لهما بالحديقة

---

(1) الكريبيج: لعبة بطاقات والتي يقوم فيها كل لاعب بإظهار رقم التقاط بوضع قطع خشبية صغيرة جداً في ثقوب مرتبة على شكل صفوف على لوح صغير هو (لوح الكريبيج).

ربما كانت مفتونة بستيفن بقوة (هل كان الأمر طبيعياً؟)، لكن فيليب أحس بالوضاعة إلى حد ما وهو يتطفل على سرّ صديقته المؤلم لكنه لايزال يراقب ستيفن وهو يتحرك مبتعداً عن البيانو، ويتهادى بثقل نحو الطاولة التي جلست بقربها ماغي، وهو يقلب صفحات الجريدة بتكاسل واضحبعد ذلك جلس مديراً ظهره للبيانو، وهو يضع الجريدة تحت مرفقه، ويدس يده في شعره، وكأن أحد الأخبار المحلية لفت انتباهه في دليل لاسهيم في الحقيقة كان ينظر إلى ماغي التي لم تعره أقل اهتمام وهو يقترب منها. كانت ماغي تقاوم بقوة تأثيره عليها، في حضور فيليب، تماماً كما نحتفظ عن الإدلاء بخطابنا في بقعة من الأرض نحس بأنها مقدسة ولكنها سمعت أخيراً كلمة "يا أعز أحبائي "، لفظها بنبرة رقيقة للغاية وبقلب متألم متوسل، كانت نبرته مشابهة لتلك التي يتكلم بها مريض يطلب شيئاً ما من المفروض أن يقدم إليه بدون أن يطلبه من أحد. لم تسمع تلك الكلمة أبداً منذ اللقاء الذي جمعهما في زقاق باسيت، عندما نطقها ستيفن مراراً وتكراراً، وكأنها كانت صرخة مكتومة لم يستطع فيليب سماع أية كلمة، لكنه انتقل إلى الجانب المقابل للبيانو، حيث تسنى له رؤية ماغي وهي ترتعش، وتتورد، وترفع بصرها للحظة نحو وجه ستيفن، ولكنه في الحال انتبه إلى نفسه لم تلحظ أن فيليب كان يراقبها، وخزة عار وخجل أصابتها، بعد أن أحست أنه يتوارى عن الأنظار، مما جعلها تنهض من كرسيها، وتتجه نحو الجهة التي جلست فيها والدتها لكي تشاهد لعبة الكريبيج

عاد فيليب أدراجه إلى المنزل بعد أن أصابته حالة شك فظيعة امتزجت بيقين بائس كان من المستحيل بالنسبة له الآن أن يقاوم القناعة التي تولدت لديه، وأكدت له وجود علاقة متبادلة بين ستيفن وماغي، وبقي يعاني من صراع فكري وعصبي طوال نصف ليلة، كانت تلح عليه حقيقة بائسة تجعل أعصابه تتشنج أكثر فأكثر: لم يستطع أن يجد تفسيراً واضحاً يربطه بين أقوالها وأفعالها. عندما أحس آخر الأمر، بحاجة ملحة للوثوق بماغي، لم يكن تواقاً أن يتخيل الحقيقة المرة: - لابد أنها كانت تعاني من صراع ذاتي، كانت تعاقب نفسها - كان هذا مفتاح الحل لجميع الألغاز التي فكر بها منذ عودته صاغ القصة بأكملها حسب ما أوحى له خياله :

لقد أحبها ستيفن بجنون، ولا بد أنه صارحها بحبه، لكنها رفضته، وحاولت الابتعاد عنه ولكن هل سيتخلى عنها بعد أن علم - أنها أصبحت نصف عاجزة أمام حبه؟ هذه الحقيقة التي أقضّتْ مضجع فيليب ،وجعلت قلبه يتحطم بيأس؟

عندما سطع ضوء الشمس، أحس فيليب بإرهاق وأرق شديدين حتى أنه فقد حماسته في الذهاب بنزهة في القارب في وضعه الحالي لم يستطع أن يقرر أي شيء: استطاع فقط أن يغير بالتناوب بين نواياه المتناقضة.

فكر أولاً أن يقابل ماغي، وأن يتوسل إليها كي تبقى مخلصة له، لكنه عدّل عن رأيه ثانية هل حصل أن فرض نفسه مرة على ماغي طوال فترة معرفته بها؟ إن تصرف كذلك، سيكون ذلك مبرراً كافياً لكي تكرهه وهل يملك الحق بأن يطلب منها الإفصاح عن مشاعر كانت تنوي بشكل واضح أن تخفيها عنه؟ لن يشعر بالثقة بنفسه ثانية عندما يقابلها، حتى يؤكد لنفسه أنه يتصرف هكذا من منطلق القلق والغيرة عليها، وليس ما يدفعه مجرد اهتياج مغرور.

كتب مذكرة صغيرة إلى ستيفن، وأرسلها في الصباح الباكر مع الخادم، يخبره فيها أنه ليس على ما يرام ولن يتمكن من تلبية دعوة الآنسة دين. هل سيتقبل ستيفن عذره، ويأخذ مكانه في الرحلة؟

رتبت لوسي خطة ساحرة، جعلتها مقتنعة تماماً من رفض ستيفن والذهاب في الرحلة. اكتشفت أن والدها سيذهب في عمل إلى ليندم عند الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم: ليندم هو المكان المناسب الذي رغبت لوسي بالذهاب إليه لكي تتسوق ببعض الحاجيات - حاجيات ضرورية لايمكن الاستغناء عنها وتأجيل شرائها حتى تتسنى لها فرصة أخرى، كما أنه على الخالة توليفر أن ترافقها لأنها مهتمة بشراء بعض الأشياء أيضاً.

عندما خرجتا من غرفة الفطور، وصعدتا الدرج معاً قالت لوسي لماغي: "تعلمين أنك ستذهبين في نزهة بحرية بالقارب، وسيكون لديك مجداف خاص بك. سيحضر فيليب إلى هنا عند الساعة العاشرة والنصف، ويبدو هذا الصباح مبهجاً للغاية، الآن لاتعترضي بكلمة، يا صديقتي الحبيبة ما فائدة كوني عرابتك الجميلة، إن رفضت كل ما أقوم به لأجل سعادتك؟ لاتفكري بابن خالتي الفظ توم: عليك أن تعصي أوامره قليلاً".

لم تصر ماغي على الرفض. كانت سعيدة تقريباً بالخطة لأنها ربما تستعيد شيئاً من قوتها وهدوئها إذا رافقت فيليب وجلسا وحدهما ثانية: بدا ذلك مثل إنعاش مشهد حياتي أكثر هدوءاً، حيث تخمد فيه كل الصراعات الحادة. جهزت نفسها للانطلاق في النزهة، وعند الساعة العاشرة والنصف جلست تنتظر في ردهة الاستقبال.

كان الزائر دقيقاً في موعده، رن جرس الباب، وكانت آنذاك تفكر بحزن بالسعادة المؤثرة التي سيفاجئ بها فيليب عندما يعلم أنه سيرافقها لوحده،

عندما سمعت وقع خطوات سريعة وثابتة عبر القاعة، أدركت أن الزائر لم يكن فيليب: فُتح الباب، ودخل ستيفن غيست

في اللحظة الأولى كانا مهتاجين، ولم ينطقا بكلمة، لأن ستيفن علم من الخادم بأن الآخرين خرجوا. وقفت ماغي مذهولة ثم عاودت الجلوس ثانية، وقلبها ينبض بشدة، أما ستيفن، بعد أن خلع قبعته وقفازيه، اقترب وجلس إلى جانبها بصمت اعتقدت بأن فيليب سيأتي في الحال، وبعد جهد عظيم - إذ بدا عليها بوضوح أنها كانت ترتجف - نهضت لكي تجلس على كرسي بعيداً عنه

قال ستيفن هامساً: "لن يأتي جئت لأرافقك بالقارب".

قالت ماغي وهي تغوص ثانية في كرسيها: "أوه، لايمكننا الذهاب لم تتوقع لوسي هذا - سوف تجرح مشاعرها. لماذا لم يحضر فيليب؟".

"إنه ليس على ما يرام، طلب مني أن أذهب بدلاً عنه".

قالت ماغي وهي تخلع قبعتها وأصابع ترتعش: "لوسي ذاهبة إلى ليندم لاينبغي علينا الذهاب في النزهة".

قال ستيفن في الحال وهو ينظر إليها، وهو يضع ذراعه على قفا الكرسي: "حسن جداً. إذاً سنبقى هنا".

كان ستيفن يحدق في عينيها بعمق - بدا وكأنه ينظر إليها من مسافة كتلك التي تبعد عن النجوم، ومع ذلك كان قريباً وهو يتأمل بريق عينيها السوداوين.

جلست ماغي ساكنة تماماً - ربما للحظات، ربما لبضع دقائق - حتى تخلصت من ذلك الارتعاش العاجز، وطفت على خديها ومضة دافئة

قالت: "الرجل منتظر - لقد أخذ الوسائد، هلا ذهبت وأخبرته؟".

"أخبره بماذا؟ "قال ستيفن، بصوت هامس تقريباً.

في تلك اللحظة كان يتأمل شفتيها.

لم تجبه ماغي

تمتم ستيفن متوسلاً، وهو ينهض، ويمسك بيدها كي تنهض معه: "دعينا نذهب، لن نبتعد كثيرا".

وخرجا.

أحست ماغي وهي تمشي وسط ورود الحديقة، وكأنها ملكة محاطة بكل الرعاية والحنان، صعدت إلى القارب، وكان بانتظارها الوسادة والعباءة، وفتحت مظلتها لكي تقيها أشعة الشمس (والتي كانت قد نسيتها)، جرى كل شيء بشكل خارج عن إرادتها، وكأنها تناولت جرعة دواء قوي المفعول - ولم تحس بأي شيء آخر حولها. لقد هجرتها الذاكرة

انزلقا بسرعة في القارب، وبدأ ستيفن يجدف، وتساعده في ذلك حركة الجزر المتدافعة إلى الوراء، خلف منازل وأشجار توفتن - وبين المراعي والحقول المشمسة الصامتة، التي بدت في غمرة سعادتها الطبيعية التي لايمكن لأحد أن يلومها عليها. نسائم ذلك اليوم المريح الذي بدا حيوياً في أوج شبابه، والإيقاع المتناسق للمجدافين، والأغنية غير المكتملة التي تصدر عن طائر عابر من هنا وآخر قادم من هناك، وكأن البهجة ترافقها في القارب ومع انسياب المياه تحته في الساعة الأولى لم يسمع إلا صيحة حب هادئة بعثها ستيفن بين الحين والآخر، وهو يجدف بتكاسل، وبطريقة نصف أوتوماتيكية: لم ينطقا بكلمة، وماذا كان بوسع الكلمات أن تفعل سوى أن تكون خليجاً صغيراً للأفكار؟ والأفكار لم تكن تنتمي إلى ذلك الضباب الساحر الذي غلفهما - الأفكار تتصل بالماضي والمستقبل الذي يستلقي خارج ذلك الضباب.

أدركت ماغي أنهما قد عَبَرَا الضفاف، لكنها لم تميز أياً من القرى التي اجتازاها: عرفت أنهما سيعبران عدة مناطق قبل الوصول إلى لوكريث، حيث اعتادا دائماً أن يتوقفا هناك، ويتركا القارب.

ولكن أخيراً توقف ستيفن الذي كان يجدف بتكاسل، عن التجديف، ووضع المجدافين جانباً، وطوى ذراعيه، وهو يحدق إلى الأسفل نحو الماء وكأنه يراقب المكان الذي وصل إليه القارب رغماً عن إرادته هذا التغيير المفاجئ أثار حفيظة ماغي نظرت إلى الحقول الممتدة على بعد - وإلى الضفاف القريبة منها - وشعرت بأن المكان غريب عنها كلياً. تملكها شعور مرعب فظيع.

"أوه، هل اجتزنا لوكريث - هل ابتعدنا كثيراً؟".

صرخت ماغي وهي تنظر إلى الوراء لترى إن كان المكان لايزال منظوراً. لم يكن بالإمكان رؤية أي قرية. استدارت ثانية وهي ترمق ستيفن بنظرة متسائلة كئيبة.

استمر في مراقبة الماء، وقال بنبرة غريبة شاردة وحالمة: "أجل - قطعنا مسافة طويلة".

صرخت ماغي بألم: "أوه ماذا عليَّ أن أفعل؟ سوف يستغرق وصولنا إلى المنزل عدة ساعات - ولوسي - لؤه يا إلهي، ساعدني!" شبكت يديها ببعضهما البعض، وبدأت النحيب، مثل طفلة خائفة: لم تفكر في أي شيء إلا لقاء لوسي، وكيف سترى في عينيها نظرة شك ودهشة مؤلمة - ربما كانت نظرة توبيخ بقسوة.

اتجه ستيفن نحوها، وجلس بالقرب منها، وسحب بلطف يديها المتشابكتين.

قال بنبرة معمقة فيها حزم: "ماغي، دعينا نبقى هنا ولا نذهب إلى المنزل - حتى لانفترق أبداً - حتى نتزوج".

النبرة الاستثنائية التي تكلم بها، والكلمات المخيفة، وضعوا حداً لبكاء ماغي، فجلست صامتة بهدوء - متسائلة: وكأن بمقدور ستيفن أن يجد بعض الحلول التي ستغير كل شيء، وتبدل مسار الحقائق البائسة.

"لاحظي يا ماغي، كيف تسير الأمور في مصلحتنا دون أن نطلب ذلك - على الرغم من كل الجهود التي نبذلها. لم نفكر أبداً في أن نجتمع ثانية ونبقى لوحدنا: حدث كل هذا بفضل الآخرين. انظري كيف حَمَلَنا الموج بعيداً عن الأنظار - بعيداً عن كل القيود غير الطبيعية التي كنا نحاول جاهدين أن نطوق أنفسنا بها - لكن محاولاتنا باءت بالفشل. سوف يحملنا الموج إلى توربي، وبمقدورنا البقاء هناك، فنأخذ عربة، وتقلنا بسرعة إلى يورك ثم إلى اسكتلندا - ولا نتوقف أبداً حتى لانفترق، وهكذا لن يفرقنا سوى الموت. هذا أفضل ما نفعله يا أعز أحبائي: إنها الطريقة الوحيدة التي تمكننا من الهروب من هذا التعقيد البائس".

تكلم ستيفن بنبرة عميقة متوسلة استمعت ماغي إليه - وهي تعبر من رحلة الحيرة والخوف إلى تصديق كل ما قيل لها، أن الموج هو من فعل كل هذا، وقادهما بعيداً - لقد انتهى كل صراع كان بداخلها. ولكن وسط هذا الاندفاع العاطفي المسروق راودتها أفكار من الماضي صورت لها فظاعة ما حدث، أخيراً انتابها إحساس مفاجئ بالرعب ومشاعر غضب تجاه ستيفن.

قالت بانفعال وهي تحدق إليه بنظرة ساخطة، محاولة أن تحرر يديها منه: "دعني أذهب! لقد جعلتني أرضخ للأمر الواقع. كنت تعلم بأننا ابتعدنا كثيراً - لقد انتهزت الفرصة بينما كنت شاردة الذهن مستغرقة في التفكير، وفعلت ما تريد. ليس من الرجولة أن تضعني في موقف كهذا".

بعد هذا التوبيخ، حرَّر يديها، عائداً إلى مكانه السابق، وطوى ذراعيه بيأس بعد سماع كلمات ماغي القاسية. إن لم توافق على مرافقته، يجب أن يلعن نفسه لأنه سبب لها كل هذا الارتباك. ولكن توجيه اللوم إليه كان أمراً لايطاق: والشيء الوحيد الذي أحس بأنه أسوأ من فراقها، هو أن تحس بأنه تصرف معها بطريقة غير رجولية. أخيراً قال وهو يكتم غضبه :

"لم ألاحظ أننا ابتعدنا عن لوكريث حتى اجتزنا القرية التالية، عندئذ خطر في بالي أن نتابع رحلتنا. لاأستطيع تقديم المبررات لتصرفي: كان عليّ أن أخبرك. ما فعلته كان كافياً ليثير في نفسك مشاعر الكراهية نحوي - بما أنك لم تبادليني مشاعر الحب بما فيه الكفاية. هل أتوقف عن التجديف، وأبعدك عن هذا المكان؟

سوف أخبر لوسي بأنني كنت مجنوناً - وبأنك تكرهينني - عندئذ ستغفر لي إلى الأبد - لايمكن لأحد أن يلومك، لأنني تصرفت معك بشكل غير لائق".

كانت ماغي مشلولة الحركة: بدا من الصعب مقاومة تأثير كلمات ستيفن المتوسلة استطاعت أن تتحمل، أن تشيح بوجهها عن نظرته الحنونة أكثر من تجاهل نظرة الغضب والبؤس هذه شرارة الغضب التي التمعت في عينيها منذ قليل انطفأت، وبدأت تنظر إليه بحزن خجول لقد وبخته لأنه استعجل الوصول إلى مكان يجمعهما وحدهما، وهي نفسها كانت ضعيفة حيال هذا الأمر.

"وكأنني لاأحس بأنك لاقيت المصير نفسه "، قالت ماغي وهي تلومه بطريقة أخرى - لوم الحب، الذي يطلب مزيداً من الثقة

أحس بكل رقة العالم تسكن في نظرتها ونبرتها - لقد فتحت أبواب الجنة أمامه من جديد. اتجه نحوها، وأمسك يدها، واتكأ بمرفقه على مؤخرة القارب، والتزم الصمت خشي أن يتفوه بكلمة أخرى، خشي أن يقوم بأية حركة يمكن أن تثير غضبها ثانية الحياة متوقفة على موافقتها: يبدو كل شيء دونها بائساً مضطرباً وعاجزاً.

بقيا صامتين هكذا، خائفين أن تنقلب مشاعرهما، وتفرقهما من هذه السعادة المسروقة - حتى غافلتهما الغيوم وهي تتجمع، وبدأت نسائم ريح خفية تهب رويداً رويداً، وهكذا تغيرت ملامح ذلك اليوم بأكمله

"سوف تصابين بالبرد يا ماغي بهذا الثوب الرقيق اسمحي لي أن أضع العباءة على كتفيك انهضي لحظة يا أعز أحبائي".

أطاعت ماغي: من المفرح أن يفكر عنها أحد، ويخبرها بما ينبغي أن تفعل، ويقرر كل شيء بالنيابة عنها. جلست ثانية والعباءة تلفها، بينما تناول ستيفن مجدافيه، وأسرع في التجديف، لأنه عليهما الوصول إلى توربي بأسرع ما يمكن قدر المستطاع لم تدرك ماغي أنها لم تحسم أمرها في أي قول أو فعل انتعشت روح الاستسلام في نفسها وخمدت روح المقاومة، إنها حالة نوم جزئي للأفكار، إنه اندماج لشخصيتنا في شخصية الآخر كل شيء كان يهددها، ويطلب منها الموافقة والإذعان دون أي تساؤل: السفر الحالم في ذلك القارب المنزلق بهما عبر الأمواج، والذي دام أربع ساعات، وسبب لها الإرهاق والإنهاك، وإحساسها بصعوبة الخروج من القارب بعد اجتياز هذه المسافة المجهولة عن المنزل، والسير أميالاً طويلة - كل هذا ساعد في جعلها ترضخ للأمر الواقع بشكل كامل، وتستسلم لذلك السحر القوي والغامض الذي جعلها تشعر بأن البعد عن

ستيفن يعني موت الفرح في قلبها، وبأن فكرة جرح مشاعره تجعله يتألم كثيراً. لم تشعر إلا بالسعادة الآنية التي جمعتها به، والتي كانت كافية لامتصاص كل طاقتها الخامدة

في الحال أخذ ستيفن يراقب سفينة قادمة خلفهما. عدة سفن، بينها باخرة تتجه إلى مد بورت تجاوزتهما أثناء حركة المد الأولى، ولكن في أخر ساعة لم تعد مرئية على الأنظار. تأمل هذه السفينة بشوق زائد، وكأن فكرة جديدة لمعت في ذهنه، بعد ذلك نظر إلى ماغي متردداً وقال أخيراً :

"ماغي، يا أعز أحبائي، إن كانت هذه السفينة متجهة إلى مد بورت، أو إلى أي مكان مناسب على الساحل باتجاه الشمال، سيكون من الأفضل لنا أن نركب على متنها. إنك مرهقة - وربما تمطر في أقرب وقت - ومن التعاسة أن أقلك بهذا المركب إلى توربي. صحيح أنها سفينة تجارية، لكنني على ثقة من أنك ستجدين الراحة فيها. سنأخذ معنا الوسائد من القارب. هذه أفضل خطة لدينا.

سوف يساعدوننا عن طيب خاطر: لدي ما يكفي من المال، وباستطاعتي أن أدفع لهم".

بدأ قلب ماغي يخفق بشدة، وكأنه ينذرها بفظاعة هذا الاقتراح الجديد، لكنها بقيت صامتة - بدا الأمر صعباً بالنسبة لها.

قال ستيفن: "لقد ابتعد القارب بنا كثيراً. كنت أحاول الوصول إلى توربي لكنني أخشى أن يسوء الطقس أكثر، وهذه السيدة - زوجتي - سوف تصاب بالإنهاك والتعب والعطش. نريد أن نذهب معكم بالسفينة - هل تسمحون لنا؟ - والقارب تجره السفينة. سوف أدفع لكم ما يرضيكم".

صعدت ماغي على ظهر السفينة وهي تبدو ضعيفة الآن، وترتعش خوفاً، وقد أثارت اهتمام وإعجاب الهولنديين. خشي نائب قبطان السفينة أن لايكون بإمكانه تأمين الراحة للسيدة، إذ ليس لديهم المعدات اللازمة لاستقبال المسافرين - ولا توجد غرفة خاصة يستريح فيها الزائر، يوجد فقط مقعد خشبي قديم الطراز. ولكن على الأقل كان الهولنديون معروفين بنظافتهم، بحيث يغفر لهم المرء كل شيء آخر، نشروا الوسائد التي كانت في القارب على أريكة كي ترتاح عليها ماغي. سطح السفينة كان يتحرك صعوداً ونزولاً مما يضطرها للاستناد على ستيفن - بما أن قوتها لاتسعفها جيداً - وكان هذا التغيير الأول الذي احتاجت إليه. بعد ذلك حضر الطعام، ثم أخذت استراحة على الوسائد وهي تشعر بأنها ليس بحاجة إلى قرار جديد في ذلك اليوم لابد أن ترجئ كل شيء إلى الغد.

جلس ستيفن إلى جانبها ممسكاً بيدها. استطاعا أن يتكلما مع بعضهما بنبرات منخفضة، وأن يتبادلا النظرات فقط بين الفينة والأخرى، حتى لا يثيرا انتباه وفضول الرجال الخمسة على متن السفينة أحس ستيفن بسعادة عارمة. نسي التفكير بكل شيء ما دامت ماغي إلى جانبه لقد نفذ خطته الآن: عانى كثيراً، وقاوم رغباته بشراسة، تردد وكان الندم مستحيلاً. تمتم ببعض عبارات السعادة التي أحس بها - هيامه - حنانه - إيمانه بأن حياتهما سوف تتحول إلى جنة الفردوس - وبأن وجودها معه سيمنحه نشوة كبيرة - وبأنه يفضل رضاها على كسب بركات الآخرين - وبأن كل شيء يهون لأجل خاطرها، إلا أن يفارقها، والآن لن يفترقا أبداً، سوف يبقى معها إلى الأبد، ولن يهمه أحد بعد الآن لفظ كل هذه العبارات بنبرات متقطعة وبصوت منخفض أثار عاطفة تلك الشابة، لكن كلماته أحدثت تأثيراً ضعيفاً - في العقول التي خبرت الحياة جيداً، وكانت تستمع له عن بعد بالنسبة إلى ماغي المسكينة كانت الكلمات مؤثرة للغاية: بدت مثل رحيق الأزهار القريب من شفاه متعطشة

جعلتها كلمات ستيفن العاطفية تحس بأهمية الحياة أكثر، وتغض النظر عن الحقائق، وعن كل شيء - ما عدا أشعة الشمس التي تكسر سطح الماء كلما تلاشى سواد الليل، حيث ستمتزج تلك الأشعة مع أضواء السعادة الموعودة - تتجاهل كل شيء ماعدا اليد التي ضغطت بقوة على يديها والصوت الذي همس إليها، والعينين اللتين كانتا ترنوان إليها بتوق ويشع منهما حب صامت

لم تعد هنالك أية بوادر لهطول المطر على الإطلاق، حيث انهزمت الغيوم إلى ما وراء الأفق ثانية، صانعة سوراً هائلاً أرجواني اللون وهي تكشف لنا عن أرض رائعة الجمال عندما غاصت الشمس في الأفق - الأرض التي تراقبها من الأعلى نجمة المساء.

كان على ماغي أن تمضي ليلتها على ظهر السفينة، وهذا أفضل من النزول إلى الأسفل، وكانت قد تدثرت بأكثر أغطية السفينة دفئاً. كان الوقت لايزال مبكراً عندما أرخى النهار ثقله على أجساد منهكة وعيون ناعسة تتوق إلى الراحة الكاملة، أسندت ماغي رأسها وهي تتأمل الوميض الخافت الذي كان يحتضر من جهة الغرب، حيث ازداد سطوع المصباح الذهبي الوحيد أكثر فأكثر. بعد ذلك رفعت بصرها نحو ستيفن، الذي كان لايزال جالساً قربها، يتأملها وقد أسند ذراعه على جانب السفينة

خلا هذه الساعات الأخيرة التي عبقت برؤى مثيرة للنفس، والتي انسكبت على روح ماغي مثل طيف ناعم، وجعلتها تستسلم بشكل كلي لكل ما جرى،

كان هنالك إحساس كئيب بأن الوضع زائل ولن يدوم طويلاً، ولا بد أن يحضر الصباح معه أحداث الحياة الماضية وصراعاتها - وبأن هنالك أفكاراً سوف تفرض نفسها بقوة، وتنتقم في الحال من هذا النسيان ولكن الآن لايبدو أي شيء واضحاً أمامها - لقد كانت ساهمة تستعد للنوم تحت ظل ذلك الطيف الرقيق الذي تدفق على روحها، ووسط معانقة تلك الأجواء المفرحة التي كانت تتلاشى كما تلاشت نسائم الغرب الهادئة

الفصل الرابع عشر

صحوة ضمير

عندما خلدت ماغي إلى النوم، بقي ستيفن متيقظاً ،فقد كان مرهقاً للغاية بعد أن بذل مجهوداً كبيراً في التجديف، وعانى من صراع داخلي طوال فترة الاثنتي عشرة ساعة الأخيرة، غير أنَّ القلق لازمه ومنعه من النوم، فمشى جيئةً وذهاباً على ظهر السفينة والسيجارة بيده، ولم ير سطح الماء القاتم - ولم ينتبه إلى وجود النجوم الساطعة فوقه - كان يعيش في لحظته الراهنة فقط، ولا يفكر إلا بالمستقبل القريب أخيراً تغلب التعب على القلق وقهره، فالتف ستيفن على نفسه واستلقى على ظهر السفينة بالقرب من قدمي ماغي.

كانت قد استغرقت في النوم قبل حلول الساعة التاسعة، ونامت ست ساعات قبل أن تبزغ أول خيوط شمس منتصف الصيف أيقظها ذلك الحلم الخصب الذي يضع هامشاً لراحتنا المعمقة: كانت تركب في قارب في عرض البحر بصحبة ستيفن، ومن قلب الظلام الدامس ظهر شيء ما يشبه النجم، أخذ يسطع أكثر فأكثر حتى توضحت معالمه، وكانت عذراء تجلس في قارب من بلدة القديس أوغ، اقترب القارب رويداً رويداً، حتى شاهدا أن تلك العذراء كانت لوسي والمراكبي كان فيليب - لا ليس فيليب، إنه أخوها، الذي كان يجدف دون أن ينظر إليها، نهضت وهي تلّوحُ له بذراعيها وتناديه، فانقلب قاربها فجأة، وبدأ يغوص إلى الأسفل، حتى أحست برعشة خوف تلح عليها أن تستيقظ، عاودها ذلك الشعور ثانية فوجدت نفسها طفلةً تجلس في الردهة عند المساء، ولم يكن توم غاضباً منها بالفعل.

انتقلت من الإحساس بأنها استيقظت في الحلم إلى إحساس آخر حقيقي جعلها تستيقظ بالفعل - على صوت اندفاع الماء على السفينة، وصوت وقع أقدام على ظهر السفينة، وتحت كتف السماء المخيفة المضاءة بالنجوم.

عاشت في حالة حيرة مطلقة قبل أن تسترد وعيها، وتتخلَّص من شبكة الأحلام المضطربة، وحالاً كانت تلح عليها الحقيقة المرعبة بأكملها. لم يكن ستيفن الآن قريباً منها: كانت وحيدة مع ذاكرتها ومخاوفها. لقد اقترفت خطأ من المتعذر إلغاؤه والذي شكَّل وصمة عار في حياتها: كانت سبباً في مأساة الآخرين - أفسدت حياة أولئك الذين نسجت معهم أجمل العلاقات القائمة على الحب والثقة، المشاعر التي انتابتها من مضي بضع أسابيع قصيرة راودتها

بقوة وبسرعة وجعلتها تحس بآثامها - لقد انتهكت الإيمان، وسمحت للأنانية القاسية أن تتحكم بها، أطلقت العنان لروحها التي اخترقت كل القوانين، لم يكن حولها أي حارس يردعها، واتبعت أهواءها. وإلى أين سيقودها كل هذا؟ - إلى أين قادها الآن؟

قالت بأنها تفضل الموت على الوقوع ضحية الإغواء. شعرت الآن بالخطأ الذي ارتكبته - الآن توضحت نتائج خطأ كهذا قبل أن تكتمل الخطيئة على الأقل كانت هذه ثمرة كفاح كل السنوات من أجل تحقيق السمو والفضيلة - إن روحها، بالرغم من أنها خانتها، لايمكنها أبداً أن توافقها على اختيار الدناءة وأي خيار إذاً أمامها؟ أوه يا إلهي - إنه ليس خيار الفرح، إنها قسوة وفظاعة، فهل باستطاعتها مواجهة لوسي وفيليب، اللَّذين خيبت آمالهما، وفشلت في كسب ثقتهما؟ لايمكن أن تحيا مع ستيفن حياة نقية فاضلة: لابد أن تغوص إلى الأسفل، وتتوه ففي متاهة الضياع، لأنها فقدت مفتاح الحياة - المفتاح الذي تحتاجه بقوة كي يمنحها الثقة والثبات لقد رفضت كل مسرات الحياة قبل أن تتذوق طعمها، وقبل أن تعيشها حقيقة

كان فيليب محقاً عندما قال لها بأنها لاتعرف أي شيء عن نكران الذات: اعتقدت أن نكران الذات يجعل المرء يعيش في نشوة تامة، لقد واجهت الحقيقة وجهاً لوجه الآن - وأدركت قوة ذلك الحب الحزين الذي يمسك بسر الحياة - وعرفت أن تلك الأشواك تضغط بقوة على تفكيرها. لايمكن استرداد الماضي - لو استطاعت فقط أن تغير مجريات الأحداث، لاكتفت بالصمت والصبر والاستكانة عندئذ كانت ستشعر بالراحة

بزغ الفجر وسطع ضوء شرقي متوهج بالحيرة، بينما كانت لاتزال أسيرة ذكريات حياتها الماضية، التي طوقت فكرها بإحكام فكان العجز بمثابة المنقذ لها في اللحظات الأخيرة استطاعت أن ترى ستيفن الآن وهو ممد على ظهر السفينة وهو مستغرق في نومه، وبهذا المشهد أحست بموجة ألم وعذاب تعترضها، وتشق طريقها بسهولة إلى نفسها، فتغوص في نشيج طويل مخنوق ليس هنالك أكثر مرارة وقسوة من الفراق - هذه الفكرة ألحت عليها أن تطلب المساعدة من صرخة داخلية حادة، إن الفراق أصعب شيء يسبِّبُ لها الألم لكنها كانت تخشى من عجزها عن التغلب على كل المصاعب، والخوف من أن يخدر ضميرها ثانية، ولا تستعيد طاقتها إلا في وقت متأخر جداً - ربما الوقت متأخر جداً بالنسبة لكل شيء، إلا لتفادي التصرف الوضيع الذي قامت به - وإلغاء الإحساس بالفرح الذي طرق الباب بالخطأ على القلوب المحطمة

كانت الشمس تشرق الآن، فنهضت ماغي، وهي تشعر بأن عليها أن تبدأ يومها بمقاومة الرغبات، لقد حان الوقت كي تنتصر إرادتها على نزواتها. كانت رموشها لاتزال مبللة بالدموع، كما كان الشال الذي غطى رأسها رطباً، فجلست تتأمل ببطء قرص الشمس المدور. شيء ما أثار ستيفن أيضاً، ونهض من سريره الخشن، اقترب، وجلس إلى جانبها. بغريزته الحادة أحس أن ذلك الحب القلق ينذره بالخوف من تلك النظرة الأولى. خشي من طبيعة ماغي المتمردة ومقاومتها لرغباتها. تلك المقاومة التي كان عاجزاً عن التغلب عليها.

أدرك بصعوبة أنه قد سلبها البارحة حريتها الكاملة: إحساسه بالكرامة فرض عليه ذلك الشعور المخزي، وإذا استعادت رباطة جأشها، سيكون تصرفه مقيتاً، ولها الحق في تأنيبه.

لكن ماغي لم تشعر بأنها تملك ذلك الحق: كانت تعي تماماً أنها كانت في حالة ضعف - وقلبها مليء بالعاطفة التي منعتها من جرح مشاعره سمحت له بأن يمسك بيدها عندما اقترب، وجلس إلى جانبها، وهو يبتسم لها - بنظرة حزينة إلى حد ما، لم تستطع أن تتفوه بكلمة تؤذي مشاعره حتى اقتربت ساعة الوداع المحتملة وهكذا شربا قهوتهما معاً، وتمشيا على ظهر السفينة وأخبرهما القبطان بأنهما سيصلان إلى مد بورت عند الساعة الخامسة. في داخله إحساس بالخوف غير معروف، كان واثقاً بأنه سيتبدد في الساعات القادمة، أما هي فكانت تجزم أمرها بصمت لكي تواجه صعوبات قرارها النهائي أثناء فترة الصباح كان ستيفن يفصح باستمرار عن قلقه وخوفه عليها لأنها كانت تعاني من الإرهاق الشديد، وكان يذكرها بالراحة التي ستنعم بها عندما يصلان البر، ويقلان عربة محاولاً أن يثبت لها بأن كل شيء كان يسير كما خطط له طوال الوقت كانت ماغي تؤكد له بأنها قضت ليلة مريحة، وبأنها لم تشعر أبداً أنها في عرض البحر كونها كانت نائمة على ظهر السفينة، وكانت ستفرح أكثر بقليل لو أنهما كانا في قارب وسط نهر الفلوس. مع ذلك ازداد قلق ستيفن أكثر فأكثر كلما مرّت الساعات، إذ انتابه إحساس بأن ماغي استعادت إرادتها، وتخلّت عن استسلامها له بشكل كلي.

كان يتوق، لكنه لم يجرؤ، للحديث عن زواجهما - وعن الخطوات التي سيتخذها لإعلام والده بالأمر، وعن بقية الأحداث المحتملة كان في شوق شديد لأن يسمع منها موافقة صريحة لكنه في كل مرة ينظر إليها، يزداد إحساسه بالخوف من قرار جديد، فيتأملها بحزن عميق في عينيه ويلوذان بالصمت معاً، ولا تجد الكلمات مكاناً له، فتهرب منهما.

كسر جدار صمتهما أخيراً وقال: "والآن أصبحنا على مشارف مد بورت يا حبيبتي "، أضاف وهو يستدير نحوها ويرمقها بنظرة نصف متوسلة، "لقد تجاوزنا أسوأ الصعوبات على البر باستطاعتنا إنجاز عملنا بسرعة أكبر. في غضون ساعة ونصف سنكون معاً في حجرة هادئة - وستنعمين بالراحة بعد هذه المشقة".

أحست ماغي بأن الوقت قد حان للبدء بالكلام: سيكون من غير اللائق الآن أن توافق على الاقتراح ضمنياً. تكلمت بنبرة منخفضة، كما فعل هو، ولكن بحزم واضح: "لن نكون معاً - علينا أن نفترق".

احمرَّ وجه ستيفن.

قال: "لن نكون معاً. أفضل الموت على الفراق".

حدث ما كان يخشى منه - الصراع قادم لم يجرؤ أي منهما على قول كلمة أخرى، حتى رسا القارب، وانتقلا إلى اليابسة كان هنالك مجموعة من المسافرين بانتظار مغادرة الباخرة إلى بلدة القديس أوغ. أحست ماغي بالكآبة عندما نزلت على اليابسة، وكان ستيفن مسرعاً وهو يمسك بذراعها، حتى أن شخصاً من بين الحشد كان يتقدم باتجاهها وكأنه يريد أن يكلمها. لكن ماغي كانت تسرع، وهي لامبالية بكل شيء إلا المحاكمة القادمة أرشدهما الحمال إلى أقرب فندق، وطلب ستيفن عربية تقلهما عندما اجتازا الباحة لم تعر ماغي انتباهها لتصرفه، واكتفت بالقول،

"اطلب منهم أن يؤمنوا لنا غرفة يمكننا الجلوس فيها".

عندما دخلا، لم تجلس ماغي، أما ستيفن الذي عبر وجهه عن تصميم يائس، كان على وشك أن يقرع الجرس، عندما قالت ماغي بصوت حازم :

"لن أرافقك، علينا أن نفترق هنا".

قال وهو يستدير نحوها، متحدثاً بنبرة رجل شعر بأن رحلة العذاب قد بدأت: "ماغي، هل تقصدين أن تقتليني؟ ما فائدة هذا الكلام الآن؟ لقد تم كل شيء على ما يرام، وانتهى الأمر".

قالت ماغي: "لا، لم ينته الأمر بعد. حدثت أشياء كثيرة - أكثر مما نستطيع حتى أن نزيل آثارها. لكنني لن أستمر في ارتكاب الأخطاء. لاتحاول أن تفرض عليّ إرادتك ثانية لم يكن باستطاعتي البارحة أن أحدد خياراتي".

ماذا عليه أن يفعل؟ لم يجرؤ على الاقتراب منها - ربما فقد أعصابه، وتفاقمت المشكلة أكثر. تمشى جيئة وذهاباً في حيرة جنونية.

قال أخيراً، وهو يقف قبالتها، متحدثاً بنبرة متوسلة ويائسة :

"ماغي، الرحمة قليلاً - أصغي إليّ - سامحيني لما فعلته البارحة سأطيعك الآن - ولن أقوم بأي عمل لايرضيك ولكن لاتحكمي عليّ بالفراق، ولا تتصرفي بقسوة، وتقرري مصيراً لايحقق أي فائدة لكلينا - بل يخلق آثاماً جديدة اجلسي يا حبيبتي - فكري جيداً بما ستقومين به لاتتعاملي معي، وكأني لست جديراً بثقتك".

لقد توسل إليها بأسلوب بالغ الرقة، لكن إرادة ماغي لم تتغير. لقد قررت أن تتحمل المعاناة.

قالت بنبرة منخفضة واضحة: "لاينبغي علينا الانتظار أكثر. يجب أن نفترق في الحال".

قال ستيفن متوسلاً إليها أكثر من السابق :

"لانستطيع أن نفترق يا ماغي لايمكنني تحمل فراقك ما الفائدة أن تحكمي عليّ بالبؤس؟ لقد حدث ما حدث الآن: هل سيرضي تصرفك أي إنسان آخر، عندما تقودينني إلى الجنون؟".

قالت ماغي وهي ترتعش: "لن أوافق على تصرف كان ينبغي أن يحدث منذ البداية ما أخبرتك به في باسيت أشعر بنتائجه الآن: إنني أفضل الموت على الوقوع ضحية الإغواء. إذاً من الأفضل لنا أن نفترق الفراق الآن هو الأنسب لنا".

صرخ ستيفن مديراً ظهره للباب - ناسياً كل ما قاله منذ بضع لحظات :

"لن نفترق، لن أتحمل هذا القرار. سوف تحكمين عليّ باليأس - وسأعيش في حيرة من أمري".

ارتجفت ماغي أحست بأن الفراق المفاجئ بالغ الصعوبة عليها أن تستعمل أسلوباً أكثر دقة في مناشدة ستيفن يجب أن تستعد لخوض مهمة أكثر صعوبة مما توقعت جلست بينما كان ستيفن يراقبها بتلك النظرات البائسة التي بدت على وجهه مثل ضوء متوهج، واقترب من الباب ببطء، وجلس بالقرب منها، وأمسك يدها. بدأ قلبها يخفق بشدة، مثل قلب طائر مذعور، ولكن هذا القرار الحازم ساعدها في استعادة شجاعتها، وأحست بأن تصميمها على القرار يزداد قوة.

بدأت الكلام بتوق وتوسل: "تذكر كيف كانت مشاعرنا من بضعة أسابيع - تذكر أنه كانت لدينا المشاعر نفسها - وهي أننا ندين بأنفسنا إلى الآخرين، وعلينا أن نكبت جميع الرغبات التي تجعلنا غير مخلصين لأنفسنا. لقد فشلنا في الالتزام بالعهد، ولا نزال نرتكب الأخطاء".

قال ستيفن: "لا، إننا لانرتكب الأخطاء. لقد تبين لنا أنه من المستحيل الالتزام بقرارات اتخذناها خارج إرادتنا. وأصبح من المؤكد أننا لانستطيع التغلب على قوة عواطفنا والمشاعر التي تجمعنا بقوة".

"ليس الأمر هكذا يا ستيفن - إنني واثقة من فظاعة ما نرتكبه. حاولت التفكير بالموضوع مراراً وتكراراً، ووجدت، أننا لو حكمنا على تصرفنا بهذه الطريقة، سيكون هناك مبرر لكل أنواع الخيانة والقسوة - إننا نعطي المبررات لفصم عرى أكثر العلاقات قداسة على وجه الأرض إذا كنا لانستطيع الالتزام بالماضي، فأي واجب نؤديه تجاه أنفسنا والآخرين؟ لانستطيع خلق قانون خاص بنا، إننا نعيش رهينة اللحظة".

قال ستيفن وهو ينهض، ويعاود المشي ثانية: "ولكن هناك علاقات لايمكن الحفاظ عليها بمجرد قرار. ماذا عن الإخلاص الظاهري؟ هل سيكون الآخرون شاكرين لنا تواصلنا معهم دون أن تربطنا بهم مشاعر الحب؟".

لم تجب في الحال. كانت تعاني من صراع يجعلها توافق ضمنياً على فكرته، وترفضها ظاهرياً بالوقت نفسه، قالت أخيراً وهي تحاول أن تؤكد قناعتها وإن كانت على حساب مشاعرها ومشاعر ستيفن :

"في البداية بدا لي أن هذا الكلام صحيح، ولكن عندما فكرت أكثر، تبين لي أنه خاطئ هنالك فرق بين الإخلاص وبين أداء ما هو سهل ومفرح بالنسبة لنا. الإخلاص يعني أن لانخيب أمل وثقة الآخرين بنا - وأن لانسبب لهم البؤس من أجل تحقيق سعادتنا. إن ضميري يعذبني كلما فكرت في محبة الآخرين لي وعندما أخون ثقتهم لاأستحق تلك المحبة. عليّ الابتعاد عن أذية من يحبني كما نفعل عندما يتهددنا خطر مقيت لن أسامح نفسي أبداً.

إن خيانتي لفيليب ولوسي تثبت بأنني ضعيفة، وأنانية وقاسية القلب - لاأستطيع أن أسبب لهما الألم، وأفكر فقط في سعادتي أوه ماذا سيكون موقف لوسي نحوي؟ إنها تثق بي - وتحبني - طالما كانت طيبة القلب معي فَكّر بها.

اختفت الكلمات في حلق ماغي عندما لفظت هذه الكلمات الأخيرة.

قال ستيفن، وهو يضرب الأرض بقدمه معبراً عن ألمه :

"لاأستطيع التفكير بها. لاأستطيع التفكير إلا بك يا ماغي تطلبين مني المستحيل لاأستطيع أن أفعل ما تطلبينه مني وما فائدة كلامك هذا سوى أنه تعذيب لي؟ ليس بمقدورك الآن إنقاذهما من الألم، ولا يمكنك أن تبعديني عنك، وتجعلي حياتي بائسة من دونك ولكن حتى لو عدنا الآن - إذا كان ذلك ممكناً الآن - سيبدو الأمر فظيعاً - رهيباً، إذا فكرت أن تكوني زوجة لفيليب - زوجة رجل لاتحبينه لقد أنقذنا أنفسنا كلينا من الوقوع في خطأ كهذا".

تورد وجه ماغي، ولم تستطع التفوه بكلمة لاحظ ستيفن خجلها. جلس ثانية، وأمسك بيدها، وهو يتأملها بتوسل عاطفي

"ماغي! يا أعز أحبائي! إذا كنت تحبينني، فلن يفرق بيننا أحد. من ذا الذي يستحق حبك مثلي؟ إن حياتي رهينةٌ بين يديك لايمكن لأي شيء حدث في الماضي أن يلغي حقنا في أن نحب بعضنا: إنها المرة الأولى التي نعرف فيها ما هو معنى الحب ووافقنا عليه بكل جوارحنا، بقلبنا وروحنا".

بيت ماغي صامتة برهة قصيرة - وهي تطرق برأسها إلى الأسفل.

استعاد ستيفن الأمل من جديد: كان على وشك الانتصار. لكنها رفعت بصرها، فكشفت عيناها عن نظرة مليئة بمرارة الندم - وليس نظرة تعبر عن الاستسلام

قالت بتصميم خجول: "لا- ليس من كل قلبي وروحي، يا ستيفن. لم أوافق على الحب بكل تفكيري. هناك ذكريات، عواطف، واشتياق وطيبة وهذه المشاعر لن تفارقني طويلاً، ستنتابني وتسبب لي الألم - وتجعلني أشعر بالندم لاأستطيع أن أنعم بالسلام إن ارتكبت إثماً، ولم يعلمه إلا الله. أعلم مسبقاً أنني سببت الأسى للآخرين - أحس بذلك، لكنني لم أوافق على ذلك التصرف عمداً: لاأريد أن أسبب المعاناة للآخرين بينما أحظى بالفرح. ولا أرغب بالزواج بك: إذا كنت قد كسبت الموافقة في لحظة انتصار آنية اعتمدت فيها على مشاعري تجاهك، فلن تستطيع أن تملك روحي بالكامل. "لو رجع الزمان إلى الوراء قليلاً، لكنت اخترت أن أحافظ على عواطفي الهادئة، وأعيش دون التمتع بفرحة الحب".

ترك ستيفن يدها، ونهض بصبر نافذ، وتمشى جيئة وذهاباً في الغرفة، وهو يكبت غضبه.

صرخ أخيراً: "رحمتك يا إلهي! أي حب يائس ابتليتني به! أستطيع ارتكاب أفظع الجرائم لأجلك - وأنت تحكمين علي بهذا القدر التعيس. ولكنك لاتحبينني: لو كنت تبادلينني المشاعر التي أحملها لك بين جوارحي لما فكرت بالتضحية بي بهذه السهولة. أنت لايعنيك أن تسلبي من حياتي السعادة".

ضغطت ماغي أصابعها بعضهما بطريقة متشنجة وهي تشبك يديها فوق حضنها - ثم مدت يديها إلى الأمام ثانية وسط الظلام

حالما استجمعت قواها قالت: "لا- أنا لاأضحي بك - لاأستطيع التضحية بك، أشعر بأن تصرفنا ظالم بحق الآخرين. لانستطيع أن نختار السعادة لنا أو للآخرين: لانعلم أين تكمن السعادة. وبمقدورنا فقط أن نؤدي واجباتنا، لأجل خاطر ذلك الصوت الإلهي الذي يعتمل فينا - لأجل خاطر أن نكون صادقين مع جميع الدوافع التي تجعل حياتنا مقدسة. أعلم أن تطبيق هذا المبدأ في غاية

الصعوبة: لقد تخليت عن إيماني به في كثير من الأحيان، أشعرُ بأنني إن واظبت على التخلي عنه، لن أجد نوراً يضيء عليّ ظلام هذه الحياة".

جلس ستيفن ثانية قربها، وقال :

"هل من المعقول يا ماغي أنك لم تلاحظي أن ما حدث البارحة قد غيَّر الوضع بالكامل؟ لماذا تصرين على عنادك وتغضين النظر عن رؤية الحقائق كما هي؟ فات الأوان على قول ما كان يجب أن نفعله أو ما يمكن أن نفعله لابد من الاعتراف بما حدث، والتصرف بناء على وضعنا الراهن، لقد تغيرت الأحوال، لم يعد السلوك الصحيح الذي تحدثت عنه مناسباً للوقت الحالي علينا القبول بالواقع والتصرف بناء عليه افترضي لو كنا تزوجنا البارحة؟ فالوضع متشابه إلى حد ما. لن يختلف تأثيره كثيراً على الآخرين. سيكون تأثيره مختلفاً بالنسبة لنا فحسب "، أضاف ستيفن بألم،

"عليك أن تعترفي بأن العلاقة التي تربطك بي أقوى من علاقتك بالآخرين".

توردت ماغي ثانية، ولاذت بالصمت. اعتقد ستيفن من جديد بأنه على وشك الانتصار - لم يخطر في باله بعد أنه ربما ينهزم في معركته العاطفية: هناك احتمالات كثيرة نتعامى عنها بالكامل، ولا نحسب لها حساباً.

قال بنبرة عاطفية للغاية، وهو يميل نحوها، ويطوق خصرها بذراعيه :

"يا حبيبتي، أنت الآن لي - والعالم كله يشهد بذلك - خلال بضع ساعات سوف تصبح علاقتنا شرعية، وأولئك الذين ينتقدوننا سيرضخون للأمر الواقع - سوف يكتشفون بأن قوة حبنا قد هزمت كل مزاعمهم".

نظرت ماغي بدهشة وخوف إلى ذلك الوجه الذي اقترب منها كثيراً، وعاودت الكلام وهي شاحبة الوجه قالت بنبرة معاناة :

"أوه، لاأستطيع أن أتزوجك ستيفن - لاتلح عليّ - لاتطلب مني أمراً كهذا. لاأستطيع مناقشة المسألة أكثر من ذلك - لاأعرف ما هو التصرف الحكيم الذي عليّ فعله، ولكن قلبي لن يرتاح أبداً إن أطعتك أفهم - وأحس بمشاكلهما الآن: وكأنني السبب في مصائبهما، تأنيب الضمير يثقل تفكيري

لقد عانيت كثيراً، ولم يكن يشفق أحد عليّ، والآن أسبب المعاناة للآخرين. لن يتركني العذاب وشأني، إنه يوغر حبك في صدري أهتم بأمر فيليب بطريقة مختلفة: أتذكر كل الأحاديث التي كانت تجري بيننا، أعرف بأنني الأمل بالنسبة له، وهو يفكر بي كجزء من حياته كان يعتقد أنني سأبعث البهجة في حياته، لكنني هجرته ولوسي - لقد خدعت - هي التي منحتني كامل ثقتها. لاأستطيع أن أتزوجك: لايمكنني أن أعيش بسعادة على حساب تعاستهم لن أنعم بالحياة

معك، سوف أتذكر الماضي دائماً: عليّ أن أعود إلى الماضي، والتشبث به، وإلا سينتابني إحساس، وكأن الأرض مقلقلة تحت قدمَيّ".

قال ستيفن، وهو ينهض معها ممسكاً بذراعها: "رحمتك يا إلهي، ماغي كيف يمكنك العودة دون أن تتزوجيني؟ أنت لاتعرفين يا حبيبتي ما الذي سيقولونه عنا. إنك لاتفهمين الواقع كما هو".

"أجل، أفهم سيصدقونني سوف أعترف بكل شيء. سوف تصدقني لوسي - وسوف تسامحني، و— و— أوه، إن التصرف السليم لن يسيء لأحَد.

عزيزي، عزيزي ستيفن، دعني أذهب! - لاتحرضني على فعل أندم عليه كثيراً. إن روحي غير مرتاحة، ولست موافقة الآن بكل جوارحي على اقتراحك".

ترك ستيفن ذراعها، وجلس على كرسيه منهاراً، وهو غاضب ويائس بقي صامتاً بضع دقائق، وهو يشيح ببصره عنها، بينما كانت تحدق به بلهفة، وخوف بسبب هذا التغيير المفاجئ.

قال أخيراً وهو لايزال يشيح بنظره عنها :

"اذهبي إذاً - اتركيني - لاتعذبيني أكثر من هذا - لاأستطيع احتمال ذلك العذاب". وبشكل لاإرادي مالت عليه، ومدت يدها لتلمس يَدَهُ لكنه أبعد يده عن يدها، وكأنها حديد ملتهب، وقال ثانية: "اتركيني".

لم تدرك ماغي ماهية قرارها عندما ابتعدت عن ذلك الوجه الكئيب، وخرجت من الغرفة: كان تصرفها اتوماتيكياً يلبي نوايا منسية ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ نزلت الدرج وكأنها في حلم - كانت هنالك عربة وأحصنة واقفة - ثم شارع ثم تعرُّجٌ يقود إلى شارع آخر حيث وقفت عربة لنقل الركاب، صعدت، واعتقدت أن العربة ستقلها بعيداً، ربما باتجاه موطنها. لكنها لم تطلب أن تقلها إلى أي مكان بعد، صعدت إلى العربة وحسب

الموطن الذي ستجد فيه أمها وأخيها - فيليب - لوسي - ذلك الملجأ الذي يؤمن لها الرعاية والحماية والأمن - وهناك سينقذها المكان الآمن من الإحساس بمزيد من الإحباط مجرد التفكير بستيفن كان يثير في نفسها الألم، ويستحضر كل الأفكار الغريبة عنها. لكنها لم تفكر في موقف الآخرين من سلوكها. الحب، الشفقة الغامضة، والندم والأسى جميعها لم توفر لها الفرصة للتنبؤ بردة فعل الآخرين.

وصلت بها العربة إلى يورك - وهي مكان يبعد كثيراً عن موطنها، لكنها لم تدرك ذلك حتى وصلت إلى مدينة قديمة عند منتصف الليل لم تكن المسألة مهمة: لقد استطاعت أن تنام هناك، وفي اليوم التالي تغادر إلى بلدها. كان معها

محفظتها وكان فيها كل النقود التي تملكها - شيك وجنيه: احتفظت بها في جيبها، بعد الخروج للتسوق أول البارحة

هل أمضت تلك الليلة في غرفة كئيبة في فندق قديم بمحض إرادتها وبلا تردد وهي تشعر بالندم نتيجة تلك التضحية؟ إن الصراعات الكبرى في الحياة ليست بهذه السهولة، والمشاكل المعقدة ليست واضحة للغاية في ظلمة تلك الليلة شاهدت وجه ستيفن يستدير نحوها بعاطفة وبؤس ولوم، عاشت معه ثانية في تلك اللحظات، واستعادت مشاعر الفرح بصحبته، مما جعلها تشعر بجمال الكون، وتنسى التعب والصبر المحكوم عليها دائماً.

الحب الذي رفضته عاد إليها ثانية بسحر وحشي، أحست أنها تفتح ذراعيها كي تستقبله مرة أخرى، ثم بدا أنه ابتعد وتلاشى شيئاً فشيئاً، واختفى، تاركاً صوتاً عميقاً مرتعشاً فقط كان يقول: "اذهبي - اتركيني للأبد".

الجزء السابع

الخلاص الأخير

الفصل الأول

العودة إلى الطاحونة

ما بين الساعة الرابعة والخامسة من ظهر اليوم الخامس على مغادرة ماغي وستيفن بلدة القديس أوغ، كان توم توليفر واقفاً على ممشى الحصى خارج المنزل القديم بالقرب من طاحونة دورلكت الآن هو سيد المكان هناك: لقد حقق تقريباً أمنية والده المتوفى، وبعد سنوات من العمل الدؤوب ورباطة الجأش استطاع أن يكسب احترام الآخرين، ويستعيد كرامة عائلة دودسن وتوليفر.

لم يبدُ على وجه توم تعابير السعادة والانتصار، بينما كان واقفاً في ظل أشعة شمس الصيف أثناء الظهيرة ارتسمت ملامح الاشمئزاز على ثغره، وتجعد جبينه الصارم للغاية، وهو ينزل قبعة والده على عينيه لكي يقيهما من الشمس، ويدس يديه في جيوبه عميقاً، ثم بدأ يتمشى جيئةً وذهاباً على الحصى.

لم يسمع أية أخبار عن أخته منذ عودة بوب جاكين في الباخرة القادمة من مد بورت، الذي وضع حداً لكل الافتراضات المحتملة عن وقوع حادث في عرض البحر بعد أن ذكر له أنه شاهدها تهبط من سفينة بصحبة السيد ستيفن غيست.

هل ستكون الأخبار القادمة عن زواجها أم ماذا؟ ربما لم تتزوج: كان ذهن توم مشغولاً بتوقعات أسوأ يمكن أن تحدث - لم يفكر بالموت، بل بالعار.

بينما كان يتمشى مديراً ظهره لبوابة المدخل، وموجهاً نظره نحو جدول الطاحونة المندفع ظهرت هيئة طويلة القامة بعينين سوداويتين، نعرفها جيداً، كانت تقترب من البوابة، وتوقفت لتنظر إليه، وقلبها يخفق بسرعة كان أخوها المخلوق البشري الذي تخاف منه كثيراً منذ طفولتها: إنه الخوف الذي يتغلغل في نفوسنا عندما نحب شخصاً عنيداً، لايلين - يتمسك بأفكاره بقوة حتى أننا لانستطيع أبداً أن نجعله يغير رأيه فينا، ومع ذلك ليس بمقدورنا الابتعاد عنه ذلك الخوف المتأصل والعميق في جذوره كان يهز مشاعر ماغي الآن، وكانت تميل بلا هوادة بالعودة إلى أخيها كملجأ طبيعي اعتادت عليه كانت مكسورة الخاطر في أعماقها، أحست بالضعف والرضوخ، كانت مستعدة أن تتحمل تأنيب توم وقسوته في لومها، وأن تقبل بصمت وصبر حكمه القاسي عليها، والذي غالباً ما كانت تتمرد عليه.

إنها أضعف مخلوق الآن - من كان أكثر ضعفاً منها؟ كانت تتوق إلى ذلك العون الخارجي لدعم هدفها.

بقيت ماغي في سريرها في يورك يوماً وهي تعاني من صداع فظيع من أحداث اليوم السابق. كانت تعابير الإرهاق لاتزال مرسومة فوق جبينها وعينيها، وكامل مظهرها، وهي ترتدي ثوبها الطويل البائس. رفعت مزلاج البوابة، ودخلت - ببطء.

لم يسمع توم صوت البوابة، كان قريباً من السد الهادر: استدار في الحال، ورفع بصره في الحال، فشاهد تلك الهيئة المرهقة التي ارتسمت في نظرتها تعابير الوحدة والتعب مما أكد له توقعاته السيئة. توقف وهو يرتجف بوجه شاحب ساخط مشمئز. توقفت ماغي أيضاً على بعد ثلاث ياردات أمامه. أحست بالكراهية تُشعُ من عينيه: أحست أن عليها الانسحاب، لابد من الكلام

قالت بصوت خافت: "توم: إنني عائدة إليك - إنني عائدة إلى المنزل طلباً للأمان - سأخبرك بكل شيء".

أجاب بغضب وهو يرتعش: "لن تجدي هنا منزلاً يستقبلك، لقد لطخت اسم العائلة كلها. وألحقت العار باسم والدي. إنك لعنة على أفضل أصدقائك. أنت مخادعة - محتالة، لاتملكين دوافع قوية بما فيه الكفاية كي تردعك عن اقتراف الآثام

إنني أتبرأ منك إلى الأبد. لاتربطني بك أية صلة".

كانت أمهما قد دخلت الباب الآن. وقفت مشلولة بعد أن أصابتها صدمة مضاعفة برؤية ماغي وسماع كلمات توم

قالت ماغي بشجاعة أكبر: "توم، ربما لست مذنبة كما تظن بي لم أقصد أبداً أن أقاوم مشاعري. لقد تغلبت على عواطفي بقوة ابتعدت كثيراً في القارب حتى عدت يوم الثلاثاء. رجعت حالما توفرت لدي الفرصة المناسبة".

قال توم بقسوة باردة :

"لم أعد أصدقك لقد أقمت علاقة سرية مع ستيفن غيست - كما فعلت من قبل مع شخص آخر. ذهب إلى منزل عمتي موس كي يراك، وتمشيت معه وحدكما في الزقاق، لم تتصرفي بحشمة مع حبيب ابنة خالتك، وإلا لما حدث بينكما أية علاقة. شاهدك الناس في لوكريث وأنت تعبرين من هناك، تعلمين تماماً ماذا كنت تفعلين. لقد جعلت من فيليب واكيم واجهة لتخدعي لوسي - أكثر صديقة عاملتك برقة اذهبي، وانظري ماذا فعلت بها: إنها مريضة - وغير قادرة على الكلام - لاتستطيع ماما الاقتراب منها لكي لاتذكرها بك".

ضعفت ماغي - وأحست بثقل يجثم فوق صدرها، إذ جعلها الألم عاجزة عن إيضاح أي فرق بين ذنبها الفعلي وبين اتهامات أخيها لها، وكانت غير قادرة على الدفاع عن نفسها.

قالت وهي تدس يدها تحت ثوبها، وتبذل جهداً للبدء بالكلام :

"توم أياً كان الذنب الذي اقترفته فأنا أتوب عن خطيئتي بإحساس شديد بالألم أتمنى إصلاح ما أفسدته، سأتحمل العواقب مهما كانت أريد أن أتحاشى ارتكاب الأخطاء من جديد".

قال توم بأسلوب فظ :

"وما الذي سيردعك عن ارتكاب الأخطاء؟ لادين لك، وليس عندك إحساس بالامتنان ولا بالكرامة وهو - إنه يستحق القتل، ولكنك تستحقين العقاب وأنت أكثر سوءاً منه بعشر مرات إنني أمقت شخصيتك وتصرفك تقولين أنك قاومت مشاعرك أجل! لقد كانت لدي عواطف، لكنني تغلبت عليها. عشت حياة قاسية أكثر من حياتك، لكنني وجدت عزاء وأنا أقوم بواجبي لاأوافق أبداً أن تكون شخصيتي مثل شخصيتك: ويعرف العالم أجمع أنني أفرق بين الخطأ والصواب إذا كنت تحتاجين أي شيء، سوف أعطيك إياه - أخبري أمي باحتياجاتك كلها. لن تمكثي الآن تحت سقف منزلي يكفيني أنني أتحمل العار الذي ألحقته بالعائلة: رؤيتك تجعلني أشعر بالاشمئزاز منك".

استدارت ماغي ببطء وقلبها مليء باليأس الأم المسكينة الخائفة أثيرت عواطفها في تلك اللحظة"طفلتي! سوف أذهب معك لديك أم لن تتخلى عنك".

أوه، يا لهذا القلب الحنون الذي احتضن قلب ماغي المحطم! لقد كان عوناً لها أكثر من كل الحِكم التي تتخلى عنا أحياناً بينما لايفارقنا ذلك الإحساس البسيط بالشفقة الإنسانية

استدار توم، ودخل إلى المنزل

همست السيدة توليفر: "ادخلي يا ابنتي سوف يسمح لك بالبقاء والنوم في فراشي لن يرفض إذا طلبت منه ذلك".

قالت ماغي بنبرة منخفضة تشبه الأنين: "لاماما. لن أدخل أبداً".

"إذاً انتظريني في الخارج. سوف أرتدي ملابسي وأذهب معك".

عندما استعدت الأم للخروج مع ابنتها وهي ترتدي قبعتها، جاء توم إليها وهي في الممر، ووضع نقوداً في يديها.

قال: "منزلي تحت تصرفك دائماً يا أمي سوف تأتين إلى هنا، وتطلبين مني ما تشائين - سوف تعودين إليّ".

أخذت السيدة توليفر المسكينة النقود، وهي خائفة جداً من التفوه بأية كلمة الشيء الوحيد الواضح بالنسبة لها كان غريزة الأم التي دفعتها إلى الذهاب مع طفلتها التعيسة

كانت ماغي تنتظر خارج البوابة، أمسكت بيد أمها، وابتعدتا بهدوء.

قالت ماغي أخيراً: "ماما، سوف نذهب إلى كوخ لوكي سيعتني بي لوكي كان طيباً معي للغاية عندما كنت طفلة صغيرة".

قالت السيدة توليفر المسكينة وهي غير قادرة على التفكير بِرَوِيَّة في هذه المحنة: "ليس لديه الآن غرفة إضافية لنا يا حبيبتي، لدى زوجته أطفال كثيرون جداً، لاأعرف أين نذهب، إذا لم نلتجئ إلى إحدى خالاتك، لن نتمكن من تأمين منزل يؤوينا".

بقيت ماغي صامتة برهة قصيرة، ثم قالت :

"لنذهب إلى منزل بوب جاكين يا ماما: ستؤمن لنا زوجته غرفة".

وهكذا شقتا طريقهما إلى بلدة القديس أوغ - المنزل القديم الواقع بالقرب من النهر. كان بوب في المنزل، مثقلاً قلبه بالهموم التي قاومت فرحته الجديدة واعتزازه بطفله الذي بلغ الشهرين من عمره، طفل متدفق بالحياة والنشاط سواء أكان ابن حمال أم ابن أمير. ربما لم يستوعب بالكامل كل الشكوك التي أثيرت حول ظهور ماغي بصحبة السيد ستيفن غيست على رصيف الميناء في مد بورت، لولا أنه شهد آثار تلك الشكوك في نفس توم عندما ذهب ليخبره بالأمر، ومنذ ذلك الحين، انتشرت الأقاويل والشائعات حتى تجاوزت حدود بلدة القديس أوغ، وأصبحت القضية محط حديث العامة وصبايا البلدة. لذلك عندما فتح الباب ورأى ماغي واقفة أمامه،و قد بدا عليها الحزن والإرهاق، لم يكن لديه أية أسئلة يطرحها عليها، سوى سؤالاً واحداً، لم يجرؤ على طرحه إلا بينه وبين نفسه، وهو أين كان السيد ستيفن غيست؟

بوب، من جهته، أمل أن يوفر مأوىً مريحاً لمن يحتاج، وتصادفه ظروف قاسية

كان المسكن شاغراً، وقد طلب بوب من السيدة جاكين الكبرى والسيدة جاكين الأصغر منها أن تجهزا جميع الترتيبات اللازمة لتأمين الراحة "الآنسة توليفر ووالدتها "— يا للأسف!

حتى أنها لاتزال "آنسة". بوب العبقري الذي كان محتاراً من هذه النتيجة التي آلت إليها ماغي - أصابته الدهشة كيف استطاع السيد ستيفن غيست الابتعاد عنها، أو كيف يسمح لها بأن تبتعد عنه، بعد أن توفرت لديه الفرصة

بالبقاء معها إلى الأبد. لكنه بقي صامتاً، ولم يسمح لزوجته أن تطرح عليه أية أسئلة، وحاول ألا يتواجد في الغرفة، لكي لايفرض نفسه أو يبدو بمظهر الفضولي، فهو يتحلى بشهامة الفارس، ويحترم ماغي كما كان يحترمها في تلك الأيام عندما كان يحضر لها رزمة من الكتب كهدية تذكارية.

لكن بعد يوم أو اثنين ذهبت السيدة توليفر إلى الطاحونة ثانية لبضع ساعات، حتى تتدبر أمور توم المنزلية رغبت ماغي بذلك: بعد التدفق العنيف الأول لعواطفها، والذي جاء حالما فقدت كل هدف فعال لتحقيق أي شيء، لم تكن بحاجة إلى وجود أمها، حتى أنها رغبت بالبقاء وحيدة بصحبة مآسيها. ولكن بينما كانت جالسة وحدها في غرفة الجلوس القديمة المطلة على النهر، سمع طرقاً على الباب، أدارت وجهها الحزين وقالت، "ادخل "، شاهدت بوب وهو يدخل، ويحمل الطفل بين ذراعيه ومامبز إلى جانبه.

قال بوب: "سننصرف في الحال، إذا كنا قد أزعجناك يا آنسة".

"لا"، قالت ماغي بصوت خافت، متمنية لو استطاعت أن تبتسم قليلاً.

أغلق بوب الباب خلفه، ووقف قبالتها.

"ترين يا آنسة، لقد أصبح لدينا طفل صغير، وأرغب أن تنظري إليه، وتحمليه بين ذراعيك، فأنت طيبة القلب سوف نختار له اسماً، ومن الأفضل لك أن تشاركينا الرأي".

لم تستطع ماغي أن تنطق بكلمة، لكنها مدت ذراعيها لكي تحمل الطفل، بينما تنشق مامبز بقلق، محاولاً أن يؤكد أن هذا التغيير كان على أحسن ما يرام.

انتعش قلب ماغي من هذا التصرف ومن كلام بوب: أدركت جيداً بأنه اختار طريقة مناسبة كي يظهر لها تعاطفه واحترامه.

"اجلس بوب "، قالت في الحال، فجلس بصمت، أحس بأن لسانه متلعثم، ولم يتمكن من قول ما أراد قوله.

بعد بضع لحظات، قالت ماغي وهي تنظر إلى الطفل، الذي حملته بقلق، وكأنها خشيت أن تنساه، ويفلت من بين أصابعها: "بوب، أود أن أطلب منك معروفاً".

قال بوب ممسكاً بعنق مامبز: "لاتتكلمي بهذه الطريقة يا آنسة إذا كان بإمكاني فعل أي شيء لأجلك، عليّ أن أسعى جاهداً لتحقيقه لك تماماً كما أسعى إلى كسب قوت يومي".

"أريدك أن تذهب إلى منزل الدكتور كين، وتخبره بأنني هنا، وسوف أكون شاكرة له إذا استطاع القدوم إلي في غياب أمي لن تعود ماما حتى المساء".

"إيه، يا آنسة - سألبي طلبك خلال دقيقة واحدة - لن يكلفني هذا أي عناء، ولكن زوجة الدكتور كين ماتت - سوف تدفن غداً - لقد ماتت في اليوم الذي جئت فيه من مد بورت من المؤسف أن تموت الآن، عندما ترغبين برؤيته ومع ذلك أستطيع أن أذهب إليه".

قالت ماغي: "أوه، لا، بوب علينا أن ندعه الآن - حتى تمر بضعة أيام، ربما - عندما تسمع بأنه استأنف حياته من جديد. ولكن ربما سيرحل عن البلدة - إلى منطقة بعيدة "، أضافت ماغي، وهي تشعر بالكآبة من هذه الفكرة الجديدة.

قال بوب: "ليس هو يا آنسة لن يرحل من هنا. إنه ليس واحداً من أولئك السادة الذين يبكون عندما تموت زوجاتهم: لديه واجبات أخرى عليه القيام بها. يبدو وسيماً وحازماً بعد الخروج من الأبرشية - إنه يقدم المواعظ. لقد عمَّد الطفل الصغير، وكان يأتي إلي ليعرف ماذا أفعل أيام الأحد، عندما لاأتردد على الكنيسة لكنني أخبرته بأنني أسافر للعمل وأقضي معظم أيام الأحد في العمل - إنني معتاد على الوقوف على ساقي مدة طويلة، حتى أنني لاأستطيع الجلوس في الكنيسة لوقت طويل إيه، يا آنسة، كم يبدو الطفل جميلاً وهو بين ذراعيك! يبدو وكأنه يعرفك جيداً: أراهن أنه يشعر بك - كما تشعر الطيور بشروق الشمس".

يبدو من الواضح أن لسان بوب تخلى عنه، وأطلق عنانه بحرية. لكن الموضوع الذي جاء لمناقشته لايزال محبوساً في حلقه أحس بهذا، والتزم الصمت برهة قصيرة، مفكراً بالأسلوب الذي سيطرحه للخوض في النقاش. قال أخيراً بصوت خجول أكثر من المعتاد :

"هل تسمحين لي يا آنسة أن أطرح عليك سؤالاً؟".

كانت ماغي متفاجئة إلى حد ما ، لكنها أجابت: "أجل بوب، إن كان السؤال يخصني - ولا يخص أي شخص آخر".

حسنٌ يا آنسة، السؤال كالتالي: هل تحملين في قلبك الحقد لأي إنسان؟ "

"لا، لاعلى الإطلاق "، قالت ماغي وهي تنظر إليه بحيرة "لماذا؟ "

قال بوب وهو يشد على عنق مامبز أكثر من السابق :

"أوه يا آنسة أتمنى لو أنك تحقدين على أي شخص - وتخبريني بذلك - عندئذ سأجلده حتى يتلقن درساً لن ينساه - نعم سأفعل - وأطبق عليه العدالة كما يجب أن تكون".

قالت ماغي وهي تبتسم قليلاً: "أوه بوب إنك صديق طيب القلب للغاية لكنني لاأرغب في معاقبة أي إنسان، حتى لو أخطأ بحقي، إذ لطالما أخطأت بحق نفسي".

كانت هذه الفكرة تثير دهشة بوب، وتجعل الأمور أكثر غموضاً بالنسبة له، حتى أنه عجز عن تفسير ما حدث بين ستيفن وماغي لكن طرح مزيداً من الأسئلة سيجعله يبدو متطفلاً، حتى لو سألها بأسلوب لائق، وهكذا كان مضطراً إلى حمل الطفل ثانية وأعطاه إلى أم تترقب عودة وليدها.

قال عندما أخذ الطفل: "هل ترغبين أن يبقى مامبز بصحبتك يا آنسة؟ إنه صاحب استثنائي - يعرف كل شيء، ولا يثير الضجر في نفسك إذا طلبت منه البقاء سوف يستلقي هنا ويحرسك - تماماً كما يحرس أمتعتي لابدّ أنك تفضلين أن يبقى إلى جانبك قليلاً، سوف يغرم بك كثيراً. يا إلهي، إنه لأمر رائع أن يغرم بك وحش أبكم لايكشرَ عن أنيابه".

قالت ماغي: "أجل، دعه يبقى أرجوك أعتقد أنني بحاجة إلى صديق مثل مامبز".

قال بوب مشيراً إلى مكان أمام ماغي :

"هيا يا مامبز، استلق هنا، ولا تتحرك حتى يسلّيكَ أحد".

استلقى مامبز في الحال أمام ماغي، ولم يبد أية تعابير قلق عندما غادر سيده الغرفة

الفصل الثاني

مقاضاة سكان بلدة القديس أوغ

في الحال انتشر الخبر في بلدة القديس أوغ أن الآنسة توليفر قد عادت، إذاً على كل حال لم تهرب لكي تتزوج بالسيد ستيفن غيست - لم يتزوجها السيد ستيفن غيست - لكن الحكم على المسألة لم يتغير فالأمر سواء، ولا بد من لومها على تصرفها. إننا نقيم تصرفات الآخرين وفقاً للنتائج وإلا كيف نحكم عليهم؟ - دون معرفة الطريقة التي وصلت إليها النتائج.

لو أن الآنسة توليفر، عادت وهي متزوجة من السيد ستيفن غيست، بعد بضعة أشهر من السفر بمحض إرادتها - وقد حظيت بكل المنافع على الرغم من أنها ليست زوجة مرحب بها لابن وحيد حب الرأي العام في بلدة القديس أوغ، لكانوا تقبلوا تلك النتائج عن طيب خاطر دون توجيه الانتقاد لهما.

الرأي العام في هذه الأحوال، يمثل دائماً رأي الجنس الأنثوي - وليس العالم برمته: ستجري المقاضاة كما يلي :

شابان وسيمان - السيد من عائلة راقية من بلدة القديس أوغ - وجدا نفسيهما في موقع خاطئ، فانقادا لرغباتهما وتصرفا بتهور واندفاع، وسببا الألم والحزن وخيبة الأمل، وخاصة لتلك المخلوقة الرقيقة، الآنسة دين.

بالتأكيد لم يتصرف السيد ستيفن غيست بحكمة، لكن الشبان عرضة لمثل هذه العلاقات الغرامية المفاجئة، واللوم يقع على السيدة ستيفن غيست التي تقربت من عشيق ابنة خالتها (لقد قيل بالفعل أنها كانت مخطوبة إلى الشاب واكيم - واكيم العجوز ذكر بنفسه هذه الحقيقة)، لاتزال في مقتبل عمرها - كما نعلم الشاب مشوه! والشاب غيست جذاب للغاية، ويقولون، أنه يهيم بها شغفاً (ولمزيد من التأكيد لم يدم هذا طويلاً!) فهرب معها في القارب خارجاً عن إرادتها - وماذا كان بوسعها أن تفعل؟ إذاً لم تتمكن من العودة على الفور: لن يتكلم معها أي شخص - يقولون أنه لم يفكر في شراء أية ملابس لها. يا للمسكينة الآنسة دين! إنها مثيرة جداً للشفقة، ولكن لحسن الحظ لم تحدث بعد خطوبة رسمية، والجو في الساحل سيجعلها تشعر بالتحسن. بعد كل ذلك، إذا لم يكن الشاب غيست يشعر حيالها بأي أحاسيس خاصة، فمن الأفضل ألا تتزوجه.

ياله من زواج رائع بالنسبة لفتاة مثل الآنسة توليفر - زواج في غاية

الرومانسية! واي، سوف يرشح الشاب غيست نفسه للبرلمان في الانتخابات القادمة لاشيء أفضل من التجارة في هذه الأيام! ذلك الشاب واكيم غير رأيه تقريباً - كان دائماً غريب الأطوار إلى حد ما، لكنه سافر إلى الخارج ثانية لكي ينأى بنفسه عن هذه المسألة - وهذا التصرف هو أفضل ما يفعله شاب مشوه

الآنسة يونيت تصرح بأنها لن تزور أبداً السيد والسيدة ستيفن غيست - يا لهذا الهراء! تتظاهر بأنها أفضل من الناس الآخرين لن يستمر المجتمع إذا تعاملنا مع المسائل الخاصة بتلك الطريقة - ومبادئ المسيحية تطالبنا بأن لانحمل الشر في قلوبنا تجاه أي إنسان - وفي اعتقادي أن الآنسة يونيت لن تقوم بزيارتها".

ولكن نعلم أن العواقب لن تكون ضمانة للتخفيف من آلام الماضي عادت ماغي دون زوج - وهي في ذلك الوضع المنهار والشرير حيث تجد المعصية تربة خصبة كي تشق طريقها عبرها، وبتلك الغريزة الرقيقة التي أعطيت لها للحفاظ على استمرارية المجتمع، قيَّمنا في الحال بأن سلوك الآنسة توليفر في غاية السوء.

وهل هناك أي تصرف أكثر اشمئزازاً ومقتاً من تصرفها؟ فتاة تدين بالكثير إلى أصدقائها - حظيت هي ووالدتها بمعاملة لطيفة جداً من قبل عائلة دين - وبعد كل هذا خططت لكسب عواطف الشاب بعيداً عن أنظار ابنة خالتها، التي عاملتها كأخت لها! هل كسبت حقاً عواطفه؟ ذلك لم يكن التصرف الذي تميزت به فتاة مثل الآنسة توليفر: من الصواب أكثر القول بأنها تأثرت بالإقدام الرجولي والعاطفة الجامحة

كان هناك دائماً شيء ما مثير للتساؤل بالنسبة لها. العلاقة التي كانت تربطها بالشاب واكيم، والتي قالوا أنها دامت عدة سنوات ،بدت معطوبة للغاية - في الواقع كانت علاقة مقيتة! ولكن هل هي مقيتة بالنسبة إلى فتاة ذات ميول استثنائية!- إن الآنسة توليفر بطبيعتها مهذبة للغاية، ولا تحب أن تجرح مشاعر أحد، وهذه الغريزة المهذبة كانت تنذر بحدوث الضرر لها. أما بالنسبة إلى المسكين السيد ستيفن غيست فقد كان مثيراً للشفقة تقريباً: شاب في ربيعه الخامس والعشرين ليس من المفترض تأنيبه بقسوة في ظل هذه الظروف - بالفعل إنه أسير مخططات فتاة جريئة وبدا واضحاً أنه تعرض للإغواء: لقد حاول الابتعاد عنها قدر ما يستطيع، بالفعل كان فراقهما سوداوياً - بالنسبة لها. ولتأكيد ذلك، كتب رسالة، يلقي بها كل اللوم عليه، ويروي القصة بأسلوب رومانسي لكي يبرئها من كل إثم: بالطبع سيتصرف بهذا السلوك! كانت نتائج

ميولها المهذب وخيمة عليها. واي، لقد طردها أخوها من منزله: أدرك جيداً ما لذي ألحقته بسمعته بعد تصرفها المشين شاب محترم حقاً - مثل السيد توم توليفر: من المحتمل أن يحظى بمكانة مرموقة بالمجتمع! من الطبيعي أن يثقل كاهله عار أخته كان هناك أمل في أن تهاجر موطنها - وتذهب إلى أميركا - وبذلك يتطهر هواء بلدة القديس أوغ من أثر وجودها. ما من مستقبل مبشر ينتظرها: كان هنالك مجرد أمل بأن تندم على خطيئتها، وبأن الرب سيغدق عليها برحمته الواسعة.

استمرت تلك الغريزة المهذبة مدة أسبوعين حتى أكدت نفسها وسط هذه الأفكار الملهمة، مضى أسبوع كامل قبل وصول رسالة ستيفن، التي أخبر فيها والده بالحقائق، وأضاف أنه سافر إلى هولندا - وحصل على المال عن طريق وكيل من مد بورت - وأنه كان عاجزاً عن اتخاذ أي قرار حاسم في الوقت الحالي.

كانت ماغي طوال هذه الفترة، تعاني كثيراً من عذاب القلق مما منعها من التفكير برأي سكان بلدة القديس أوغ بها: القلق على ستيفن - لوسي - فيليب - كان يلح عليها ويطرق على قلبها المسكين بقسوة، كانت تنتابها عاصفة مستمرة من الحب الممزوج بالندم والشفقةلم تأمل أن تنال أية رحمة منهم بعد الكلمات التي سمعتها من أخيها. وسط غيمة القلق هذه، كانت الكلمات القاسية لاتزال تطرق مسامعها مرة تلو الأخرى مثل وخزه ألم رهيبة تسبب البؤس والخوف حتى في أكثر اللحظات سعادة لن يخطر في بالها بعد الآن فكرة استعادة السعادة أبداً في تلك اللحظة بدا وكأنّ كل نسيج فيها يعاني كلياً من الألم بحيث لن يتأثر بأي إحساس آخر.

كانت الحياة بالنسبة لها مجرد ندم، والحظ الذي تاقت إليه في المستقبل حمل إليها مزيداً من الفشل: كانت أسيرة ضعفها ولم يتراءى أمامها أي إحساس بالسلام والطمأنينة إلا إذا وجدت ملجأ يأويها تسكب راحتها فيه.

لم تكن خالية الوفاض إذ تبادر إلى ذهنها نوايا عملية: كانت تحب كثيراً أن تستقل بنفسها وتفكر في طريقة لكي تكسب قوت يومها، وبعد أن بدا لها أن المشاريع الأخرى غير واضحة، فكرت في العودة ثانية إلى خياطتها البسيطة لتؤمن مبلغاً لابأس به وتدفع إجار سكنها في منزل بوب كانت تنوي أن تقنع والدتها بالعودة إلى الطاحونة عمّا قريب، والعيش من جديد مع توم، أما هي فسوف تحافظ على نفسها وتلتجئ إلى الدكتور كين الذي ربما يساعدها ليقدم لها نصيحة تنفعها.

تذكرت كلماته المواسية في البازار. تذكرت ذلك الإحساس الذي تدفق إلى

داخلها عندما كان يتحدث إليها، وانتظرت بشوق الفرصة المواتية لكي تمنحه كامل ثقتها وتفضي إليه بمكنونات نفسها.

كانت والدتها تزور منزل السيد دين يومياً لتطمئن على صحة لوسي: والجواب كان يأتيها دوماً بأنها حزينة - ولم يحدث أي شيء يوقظها من الاستسلام الضعيف الذي طرأ عليها منذ الصدمة الأولى.

السيدة توليفر لم تكن تعرف أية أخبار عن فيليب: بالطبع لم يشأ أحد أن يتكلم أمامها عن أي شخص يخص ابنتها. وأخيراً استجمعت قواها لزيارة الأخت غليك، التي من المؤكد أنها تعلم كل شيء، إذ كانت تزور توم في الطاحونة أثناء غياب السيدة توليفر، رغم أنه لم يتفوه بكلمة بشأن ما حصل.

حالما غادرت والدتها، لبست ماغي قبعتها. عزمت أمرها على الذهاب إلى بيت كاهن الأبرشية لترى الدكتور كين: كان في حالة أسى عميق - لكن ألم الآخرين لايثيرنا في ظروف كهذه.

كانت تلك المرة الأولى التي تخرج فيها منذ عودتها، ومع أنها كانت مشغولة التفكير بالهدف الذي جعلها تغادر المنزل، أحست بالتعاسة من مقابلة الناس في الطريق، والذين كانوا يحدقون إليها بريبة. وحالما اجتازت الشوارع الضيقة التي كان عليها المرور بها بعد خروجها من منزل بوب، انتبهت إلى النظرات غير العادية التي كانت ترمقها بقسوة، مما جعلها تحث خطاها مسرعة بعصبية، وهي تخشى من الالتفات يميناً أو يساراً.قابلت في الحال السيدة والآنسة ترنبول، وهما من معارف العائلة القدماء، حدقتا إليها بغرابة، وابتعدتا عنها قليلاً بدون كلام. كانت تلك النظرات القاسية مؤلمة بالنسبة إلى ماغي، لكن شعورها بالتأنيب الداخلي كان قوياً للغاية وأقوى من أية إساءة فرضها عليها الآخرون: لاعجب أن لايتحدثوا معي، فكرت في نفسها - إنهم مغرمون جداً بلوسي. عرفت أنها توشك أن تمر الآن بمجموعة من السادة الذين كانوا يقفون عند باب غرفة البلياردو، ولم تستطع أن تتفادى رؤية الشاب توري الذي خطا خارجاً وهو ينظر إليها من وراء نظاراته، ويحييها بلا اهتمام كما يحيي خادمة بار.

كبرياء ماغي كان شديداً وأقوى من ذلك الإحساس المؤلم الذي ولّده الآخرين في نفسها، ولأول مرة ألحت عليها فكرة قوية كي تتخذ أسلوباً آخر لشعورها بأنها خانت ثقة لوسي بها ولكنها وصلت الآن إلى بيت الأبرشية، ربما تجد شيئاً آخر غير القصاص أي إنسان يحكم علينا بالقصاص: أقسى وأسوأ العقوبات تجعلنا ملطخين بالإثم أكثر، بالتأكيد إن العون والشفقة أمران أكثر ندرة في هذه الحياة - إننا بحاجة إليهما لكي نكسب الفضيلة على أكمل وجه.

حالما ظهرت بمحياها، دخلت إلى مكتب الدكتور كين، حيث جلس وسط أكوام من الكتب ،لم يبد شهية في قراءتها ،وكان يسند خده إلى رأس أصغر أولاده وهي فتاة في الثالثة من عمرها. أرسل الطفلة مع الخادمة، وبعد أن أغلق الباب، قال الدكتور كين، وهو يقدم كرسياً إلى ماغي:

"كنت آتٍ لرؤيتك، آنسة توليفر، لابد أنك توقعت مجيئي، إنني سعيد برؤيتك".

حدقت به ماغي بنظرتها الطفولية المباشرة وقالت :

"أردت أن أخبرك بكل شيء". لكن عينيها اغرورقتا بالدموع بسرعة وهي تلفظ كلماتها، وبان أثر مشوارها المهين قبل أن تتمكن من إضافة أية كلمة.

قال الدكتور كين بصوته الحازم الوقور واللطيف :

"هيا أخبريني بكل ما حدث عامليني كواحد من أولئك الذين اكتسبوا خبرة واسعة في حياتهم، ربما يقدّم العون لك".

بعبارات متقطعة تقريباً، وبشعور براحة عظيمة بعد إحساسها أن شخصاً لم يمنحها ثقته، روت ماغي قصتها باختصار عن صراع داخلي لابد أن يكون بداية مأساة طويلة البارحة فقط كان الدكتور كين قد اطلع على مضمون رسالة ستيفن، وصدق ما ورد فيها على الفور، بدون إثبات من ماغي إيضاحها البسيط، "أوه، علي الذهاب "، أكد له أن هذه العبارة إشارة إلى معاناة ناجمة عن صراع داخلي.

بقيت المشاعر العميقة تسكن داخل ماغي والتي حثتها على اللجوء إلى والدتها وأخيها، المشاعر التي جعلتها تتشبث بكل ذكريات الماضي بعد أن انتهت من رواية قصتها، صمت الدكتور كين بضع دقائق: كان مستغرقاً في التفكير. نهض، وتمشى جيئةً وذهاباً نحو الموقد وهو يضع يديه خلفه أخيراً جلس ثانية وقال محدقاً إلى ماغي :

"كنت على صواب عندما استعجلت اللجوء إلى أقرب أصدقاءك - حيث تشكلت كل العلاقات في حياتك - إنه تصرف سليم والكنيسة بدستورها الشامل ومبادئها التهذيبية، تفتح ذراعيها لكل تائب، إنها تحرس أبناءها حتى نهاية المطاف ولا تتخلى عنهم أبداً إلا إذا كانوا فاسقين لاحول لهم ولا قوة.

كما يجب على الكنيسة أن تنمي الإحساس بالجماعة، وبذلك تشكل الأبرشية عائلة تضم جميع أفرادها الذين تربطهم روابط الأخوة المسيحية في ظل رعاية أب روحاني ذلك أن مبادئ النظام والشعور بالأخوة التي تطلبها المسيحية أصبحت متساهلة بشكل كلي - فهذه الأفكار لم تعد راسخة في أذهان

العامة: بالكاد يعترفون بأخطائهم، ويتخذون شكلاً متناقضاً داخل المجتمعات الضيقة، ولولا مؤازرة الرب لي بإيمان راسخ تتطلبه الكنيسة حتى تسترد قوة الدستور كاملاً ليتناسب مع المتطلبات البشرية، لانكسر قلبي في أغلب الأحيان وأنا أدير شؤون الرفاق وأرعاهم وأشعر بمسؤولية كاملة تجاههم في الوقت الحالي يبدو أن العلاقات البشرية تضعف، وبدلاً من الالتزام بمبادئ الكنيسة يصرّ كل شخص على عناده لقد أرشدك ضميرك وقلبك إلى طريق الصواب، آنسة توليفر - ونصيحتي لك هي كالتالي - إذا كانت تصرفاتي نابعة من أحاسيسي ولم يتغير رأيي في ظل ظروف صعبة.

صمت الدكتور كين برهة قصيرة لم يكن متحمساً وهو يدلي بنصيحته، كان هناك برود في نظرته ونبرته لو لم تكن ماغي واثقة بمواعظه، لارتعشت وأصيبت بالخوف لكنها كانت تصغي إليه بترقب، وهي متأكدة تماماً أن كلماته ستقدم لها مؤازرة جدية تَابَعَ "خبرتك القليلة في هذه الحياة منعتك آنسة توليفر من توقع نتائج سلوكك الخاطئ - التوقعات التي سيكون لها تأثير مؤلم في نفسك، على الرغم من وجود دليل معروف يدحض كل الادعاءات".

قالت ماغي، وهي عاجزة عن كبت إحساسها بألم غض :

"أوه، لقد فعلت - بدأت أدرك تماماً نتائج تصرفي أعرف أنه علي أن أتقبل الإهانة: سوف يسيء الآخرون الظن بي كثيراً".

قال الدكتور كين وقد أحس بالشفقة عليها :

"ربما لم تعلمي بعد بأمر الرسالة، تلك الرسالة التي تشرح الأمر لكل شخص لايعرف عنك شيئاً، وتوضح أنك اخترت الطريق الصعبة بهدف العودة إلى السلوك السليم، في وقت كانت فيه تلك العودة من أكثر الخيارات صعوبة".

"أوه - أين ستيفن؟ "، قالت المسكينة ماغي، وهي تتورد وترتعش.

"لقد سافر إلى الخارج: كتب في رسالة بعثها إلى والده كل ما حدث في رحلتكما. حيث برأك من كل شيء، وآمل أن تصل تلك الرسالة إلى ابنة خالتك فيكون لها تأثيراً نافعاً".

انتظر الدكتور كين برهة حتى تستعيد ماغي هدوءها ثم تابع :

"كما قلت لك، سوف تبرئك تلك الرسالة ولكن لابد من القول آنسة توليفر أنّه ليس خبرتي الطويلة هي التي مكنتني من العثور على دليل يثبت براءتك، إنّما مراقبتي للأحداث في الأيام الثلاثة الأخيرة، ذلك الدليل الذي سينقذك من زيف الادعاءات إن الأشخاص العاجزين عن مقاومة رغباتهم لن يصدقوا أنك كافحت وعانيت من صراع داخلي حتى تغلبت على غرائزك أخشى أنك

ستعانين هنا حياة قاسية وأليمة وسوف يواجهك الكثير من العقبات لذا، أطلب منك أن تراجعي مسألة استقرارك هنا، وأن تسعي إلى البحث عن ملجأ يأويك بعيداً من هنا قدر الإمكان، كما كنت تخططين في السابق. سوف أبذل قصارى جهدي للحصول على مسكن لك".

قالت ماغي: "أوه، لو أستطيع البقاء هنا! لست أقوى على خوض حياة غريبة من جديد. سوف أشعر بالغربة - والعزلة عن الماضي لقد بعثت رسالة إلى السيدة التي أمنت لي عملاً واعتذرت عن المجيء. إذا بقيت هنا، ربما باستطاعتي التكفير عن خطئي وطلب السماح من لوسي، والآخرين: ربما استطع إقناعهم ببراءتي و". أضافت بكبرياء وقد توردت: "لن أبتعد عن موطني لأن الناس سوف يسيئون الظن بي إذا كان علي المغادرة، الآن، - لأن الآخرين يرغبون بذلك، لكنني لن أغادر في الوقت الحالي".

قال الدكتور كين بعد قليل من التفكير في وجهة نظرها :

"حسنٌ، إذا كنت مصممة على ذلك، آنسة توليفر، بإمكانك الاعتماد على موقعي في دعمك من واجبي ككاهن للأبرشية أن أساندك، وأقف إلى جانبك سوف أضيف على ذلك، بأنني شخصياً لدي اهتمام معمق في تأمين الراحة والطمأنينة والسعادة لك".

قالت ماغي :

"الأمر الوحيد الذي أتمناه هو الحصول على عمل يمكنني من كسب قوت يومي، والعيش باستقلالية لا أطلب أكثر من ذلك باستطاعتي عندئذ تأمين مسكن مناسب".

قال الدكتور كين: "يجب أن أفكر في هذا الموضوع ملياً، وفي غضون بضعة أيام سأتحسن وأكون قادراً على تأكيد مشاعري بشكل عام سأزورك: وأفكر في أمرك على الدوام".

بعد أن غادرته ماغي، وقف الدكتور كين يفكر ويداه خلف ظهره، وهو يركز نظره على السجادة، بإحساس مؤلم من الريبة والصعوبة - نبرة الكلمات في رسالة ستيفن التي قرأها، والعلاقة الحقيقية لجميع الأشخاص المعنيين، ألحت عليه بقوة فكرة أن الزواج النهائي بين ستيفن وماغي تشكل أهون الشرين، وتراءت له فكرة استحالة عيشهما في بلدة القديس أوغ بناء على أي افتراض آخر، إلا بعد مرور عدة سنوات من الانفصال.

من ناحية أخرى، فكر بالمسألة كرجل دخل معترك الصراع الروحاني، وعاش سنوات كرس نفسه فيها لخدمة رفاقه في الدين، درس حالة ماغي العاطفية،

وكيف أن أمر الموافقة على الزواج سيكون مقدساً بالنسبة إليها: لاينبغي أن تمس كرامتها: المبدأ الذي تصرفت على أساسه كان أكثر سلامة من أية نتائج متوازنة أخبرته تجربته الحياتية بأن التدخل كان مسؤولية مريبة للغاية: سواء القضية الممكنة لبذل مساعٍ من أجل استعادة العلاقات السابقة مع لوسي وفيليب، أو النصيحة بالخضوع لهذا الإحساس الجديد المؤلم، بدت كل خطوة فورية مشعبة بالشرور.

جميع الأشخاص ذوو الأفق الواسع، والإحساس العالي لديهم اشمئزاز غريزي تجاه رجال الحكمة، لأن أشخاصاً كهؤلاء يدركون جيداً بأن تعقيدات الحياة المتناقضة لايمكن تقبلها بالحكم والأقوال المأثورة، وبأننا عندما نقيد أنفسنا ضمن إطار صيغ كلامية من ذلك النوع، تخمد بذلك جميع الإيحاءات والطموحات التي تنبع من بصيرتنا وتعاطفنا المتناميين من المعروف أن رجل الحكم والأقوال المأثورة هو من يمثل ذوي العقول الذين يتقبلون الإرشاد والتوجيه باستخدام قوانين عامة، معتقدين بأنها سترشدهم إلى العدالة والأسلوب الواضح والجاهز، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الصبر والحصافة والنزاهة - ودون أي اهتمام بتأكيد ذواتهم واستحضار رؤاهم المعمقة وبصيرتهم وحسن تصرفهم عند التعرض للصعوبات وهذه السمات تتوفر لدى الإنسان الذي اكتسب خبرة في الحياة بعد خوض تجارب صعبة تمنحه مزيداً من الجَلَد والإرادة

الفصل الثالث

المعارف القديمة قادرة على مفاجأتنا

عندما عادت ماغي ثانية إلى موطنها، زفت لها والدتها أخباراً غير متوقعة عن ردة فعل الخالة غليك تجاه ما حدث طالما أنه لم تصل أية أنباء عن ماغي، أغلقت السيدة غليك مصا ريعها، وأسدلت ستائرها: كان لديها إحساس أكيد بأن ماغي قد غرقت: راودها ذلك الإحساس بقوة أكثر بكثير من احتمال أن تكون ابنة أختها قد فعلت أي إثم يلطخ شرف العائلة.

أخيراً، وبعد أن علمت من توم بأن ماغي عادت إلى بلدها، وسمعت منه شرحاً عن سبب غيابها، انفجرت غاضبة وهي تؤنب توم على تصرفه السيء مع أخته وطردها. إذا وقفت موقف المتفرج من "أقاربك "الذين يشكلون اسمك وشرفك، قل لي برحمتك من تساند إذاً؟ ليس من عادات عائلة دودسن أن يتصرفوا بطيش، ويستسلموا لظروف ترغمهم على تغيير إرادتهم، وعلى الرغم من أن السيدة غليك طالما تنبأت بمستقبل فاشل لماغي في زمن ربما كان لدى الآخرين رؤيا أقل وضوحاً، مع ذلك كان أداؤها جوهرياً في الحفاظ على سمعة الفتاة، ومعارضتها على التخلي عنها وطردها من مأوى العائلة حتى تصبح محط سخرية العالم الخارجي، وهذا ما يشكل عاراً فظيعاً يلطخ اسم العائلة.

لم يسبق أن خاضت السيدة غليك تجربة كهذه - ولم يحدث أمر كهذا وسط عائلة دودسن من قبل، إلا أن نزاهتها الموروثة وقوة شخصيتها وجدتا منفذاً معروفاً للتفريغ عن أفكارها الجوهرية، التي طالما عبرت عنها في المسائل المادية.

تشاجرت مع السيد غليك، الذي انسابت عاطفته بشكل كلي تجاه لوسي، مما جعله يحكم بقسوة على ماغي كما فعل السيد دين نفسه، ووجهت اللوم إلى أختها توليفر لأنها لم تسارع في الحال إلى إخبارها بالأمر وطلب نصيحتها ومساعدتها، فأغلقت الأبواب على نفسها، والتزمت الصمت في غرفتها الخاصة مع كتاب "مآثر القديسين "لبا كستر من الصباح حتى المساء، رافضة استقبال جميع الزوار، إلى أن جلب لها السيد غليك أخباراً من السيد دين عن رسالة ستيفن. عندئذ أحست السيدة غليك أن لديها ذريعة قوية للدفاع عن اسم العائلة. وضعت كتاب باكستر جانباً، واستعدت إلى استقبال جميع الزوار. في حين لم يكن بوسع السيدة بوليت عمل أي شيء سوى أن تهز برأسها وتبكي، وتتمنى لو أن ابن العم أبوت قد مات، أو شهدت جنازات لعدة أشخاص، ولم يحصل أمر

كهذا، والذي لم يسبق أن حدث من قبل، وهكذا كانت في حيرة من أمرها، ولم تتمكن السيدة بوليت أبداً من الدخول إلى بلدة القديس أوغ ثانية، بعد أن شاع الخبر المشين بين جميع "المعارف "— لكن السيدة غليك تمنت من كل قلبها لو تزورها السيدة وول، أو أي سيدة أخرى، ويروين لها قصصهن المزيفة عن ابنة أختها، عندئذ ستعرف، كيف ترد عليهن وماذا ستقول إلى تلك الفتاة التي لاتتقبل النصيحة؟!

من جديد خاضت مشهد احتجاج مع توم، بعد أن اكتسبت قوة أعظم من خلال موقعها الحالي لكن توم، مثل الجمادات، بدا متحجر القلب أكثر، ولم تنفع تلك المحاولة في التأثير على موقفه تجاه أخته يا لتوم المسكين! حكم عليها من خلال ما رآه، وكانت محاكمته قاسية بما فيه الكفاية على نفسه أعتقد بأنه استطاع أن يقبض على الحقيقة من خلال السنوات الماضية التي عاشها مع ماغي، والتي أكدت له بالتجربة أن ماغي بطبيعتها غير جديرة بالثقة على الإطلاق، وبأن لديها ميولاً شريرة تجعلها لاتستحق المعاملة بلطف ورقة: تصرف بناء على هذا التفكير الذي لايقبل أية وجهة نظر أخرى، وهذه الطريقة في التفكير جعلت أيامه مريرة وساعاته أليمة

كان توم، كأي واحد منا، سجين حدود طبيعته الخاصة، وانسابت عليه ثقافته ببساطة، تاركة بقايا خفيفة من التهذيب: إذا كنت عزيزي القارئ، تميل إلى محاكمته بقسوة، تذكر أن مسؤولية التسامح تقع على عاتق هؤلاء الذين يتمتعون بأفق واسع من التفكير. كانت تنبعث من نفس توم مشاعر كراهية واشمئزاز تجاه ماغي، تلك المشاعر التي اشتقت حدتها من خلال رابطة الطفولة الأولى التي جمعتهما عندما كانا صغيرين يمسكان بأيدي بعضهما بعضاً، ويشتركان في الواجبات والأحزان: رؤيتها، كما كان قد أخبرها، كانت مقيتة بالنسبة له.

ضمن هذا السياق لعائلة دودسن وجدت الخالة غليك طبيعة أقوى من طبيعتها - هذه الطبيعة التي فقدت فيها المشاعر العائلية ميزة الروابط والعادات، وكان عليها أن تتبنى صيغة معمقة مضاعفة من الكرامة الشخصية لم تفكر السيدة غليك بأنه من المفترض معاقبة ماغي - لم تكن من ذلك النموذج من النساء، اللواتي يرفضن ذلك - أدركت أنه لابد من معاقبتها، ينبغي فرض العقوبة بناءً على سوء التصرف الذي يثبت ضدها، وليس بناء على أقوال الآخرين من خارج الوسط العائلي، والذين من الممكن أنهم يرغبون في إظهار قوة الرابطة العائلية بينهم وبأنها أقوى من رابطة عائلة دودسن.

عندما عادت ماغي، قالت السيدة المسكينة توليفر :

"لقد وبَّختني خالتك غليك كثيراً يا حبيبتي، لأنني لم أذهب إليها، وأطلعتها على كل ما حدث - قالت أنه ما كان ينبغي عليها أن تحضر بنفسها إلي أولاً. لكنها تكلمت معي كأخت أيضاً: وكثيراً كان كلامها قاسياً معي - أوه حبيبتي! - لقد تكلمت معي بطريقة لطيفة للغاية، أجل يا طفلتي. قالت بأنها ستؤمن لك غرفة في منزلها، فهذا واجبها وسوف تردع أولئك الناس الذين يتكلمون عنك بالسوء دون دليل وعندما أخبرتها بأنك لاتتحملين رؤية أي شخص سواي، وبأنك تعانين من المشاكل، قالت: "لن أسمعها كلمات جارحة - يكفي ما سمعته من بقية أفراد العائلة وسأقدم إليها نصيحة مفيدة، وعليها أن تتقبلها بخضوعيا لجين الرائعة، إنني واثقة أنها ستساعدني".

قالت ماغي المسكينة بقلب منقبض يخشى التعرض لمزيد من المشاكل :

"أوه ماما، قولي لها أنني شاكرة لها جزيلاً - سأذهب إلى زيارتها إن تتسنى لي الفرصة المناسبة لكنني في الوقت الحالي لاأستطيع رؤية أحد، سوى الدكتور كين.

سوف أذهب لزيارته - سيقدم لي النصيحة، ويساعدني في الحصول على عمل لاأستطيع العيش مع أي إنسان، ولا يمكنني الاعتماد على الآخرين، قولي هذا لخالتي غليك - علي كسب قوتي بجهدي. ألم تسمعي أية أخبار عن فيليب - فيليب واكيم؟ ألم تقابلي أي شخص يعلم عن أخباره؟.

"لا، يا حبيبتي: ذهبت إلى لوسي، وقابلت عمتك، ويقولون بأنهم أطلعوها على الرسالة، وبأنها تلقت ملاحظة من الآنسة غيست، ويعتقد الطبيب بأنها تتماثل للشفاء.

يا لهذا العالم العجيب - يا لهذه الأحجية، أوه حبيبتي! إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، كل ما حدث كان مفاجأة لنا، بعد أن بدا وكأن الحظ يحالفنا". كان هذا النحيب الأول الذي أطلقته السيدة توليفر أمام ماغي، لكن العادات القديمة انتعشت بعد اللقاء بالأخت غليك.

"ماما المسكينة، ماما المسكينة! "، انفجرت ماغي بكاءً، وقلبها يتألم على أمها، ويعذبها إحساس بتأنيب الضمير وطوقت عنق أمها بذراعيها. "طالما كنت فتاة مشاكسة أسبب لك المتاعب والآن ربما كنت تشعرين بالسعادة لولا حدوث هذا الأمر".

قالت السيدة توليفر، وهي تتكئ على ذلك الخد اليافع الدافئ :

"إيه، يا حبيبتي من واجبي أن أصبر على ولدي - ليس أمامي خيار آخر،

وإذا جلب لي حظاً سيئاً ينبغي أن أتقبله عن طيب خاطر - ليس لدي أي شيء أتعلق به الآن سوى ولديَّ، فقد فقدت أثاث منزلي منذ زمن بعيد. لاأعرف كيف تسير الأمور على هذا المنوال الخاطئ!".

مضى يومان أو أكثر من ثلاثة أيام، ولم تسمع ماغي أي خبر عن فيليب، فازداد قلقها عليه، واستحضرت أخيراً كامل شجاعتها لتسأل عنه الدكتور كين، أثناء زيارته القادمة إليها. حتى أنه لم يكن يعرف إن كان فيليب في منزله أم لا. لقد أصيب واكيم العجوز بالكآبة نتيجة تكدس الإزعاجات التي جثمت بثقل فوق قلبه: أحس بخيبة أمل بسبب المصيبة التي لحقت بابنه، وحطمت أماله بعد أن تنازل عن قسوته وقبل أنْ يقربها من ابنه، وبدأ يتحدث بطيش عن هذا التنازل وسط أبناء بلدة القديس أوغ - وكان شرساً إلى حد ما في هجومه كلما سأله شخص عن أخبار ابنه لكن فيليب كان في وضع سيء إلى حد ما، حسب ما أخبرهم طبيب زار البلدة، ومن المحتمل أنه سافر خارج البلدة لبعض الوقت.

أصيبت ماغي بالإحباط تحت هذا الضغط النفسي، وسبحت بخيالها بعيداً، وهي تتصور كيف أن فيليب يعاني باستمرار ويتحمل ما حدث ماذا كان يظن بها؟

أخيراً أحضر لها بوب رسالة، ليس عليها ختم البريد، مكتوبة بخط مألوف بالنسبة إليها عرفته من خلال أحرف اسمها. الخط الذي كتب اسمها منذ زمن بعيد على كتاب لشكسبير كانت تملكه كانت والدتها في الغرفة، فاستعجلت ماغي الصعود إلى الدرج، وهي في حالة اضطراب شديد، لتتمكن من قراءة الرسالة على انفراد. بدأت تقرؤها بتوق شديد.

"ماغي، - إنني أثق بك - أعلم بأنك لم تقصدي أن تخدعيني - أعلم بأنك حاولت أن تكوني مخلصة لي وللجميع. منحتك ثقتي وصدقت أنك مخلصة قبل أن أرى أي دليل على ذلك لأن الإخلاص من طبيعتك في تلك الليلة التي أعقبت فراقنا عانيت كثيراً. أدركت بأنك لست حرة في اتخاذ قراراتك، وتوجد سلطة تقيدك من خلال جميع الاقتراحات - اقتراحات مهلكة إلى حد ما - تحمل الحقد والغيرة، لقد بدأت أدرك كم كنت صادقة معي إنني واثق من محبتك لي، كما أخبرتني، وبأنك رفضته، وقاومت للتنصل من تأثيره، لأجل خاطره وخاطر لوسي.

أتصور أنه ما من مسألة تشكل مصيراً نهائياً بالنسبة لك، وأن الخوف استبعد فكرة الاستسلام تنبأت بأنه لن يتخلى عنك، وكنت واثقاً من هذا التنبؤ، كما أنا واثق منها الآن، وبأن التجاذب القوي شدك إليه كان من جانب

واحد في شخصيتك، وهو ذلك الجانب الجزئي الذي يرغمنا على أداء سلوك يتناقض مع طبيعتنا، ويصيغ نصف تراجيديا القدر الإنساني لقد شعرت أن أعصابك ترتعش في حضوره، كما أحسست دائماً برغبته به ولكن ربما كنت مخطئاً، ربما تعاملت معك، كما يتعامل الفنان مع مشهد يرغب برسمه فيحضنه بروحه بكل محبة: ذلك الفنان كان سيرتعش خوفاً لو أحس بأن المنظر الذي يرسمه أصبح في عهدة أيادي أخرى، لن يصدق أبداً أن ذلك المنظر قادر على منح الجمال والمغزى العميق إلى شخص آخر سواه

"لم أكن أملك الثقة الكافية لرؤيتك في ذلك الصباح، فقد تملكتني عاطفة أنانية، لقد حطمت قلبي ليلة من الهذيان أخبرتك منذ زمن بعيد بأنني لاأتخلى أبداً عن طاقاتي: كيف باستطاعتي إذاً الاستسلام لخسارة الإنسانة الوحيدة التي منحتني معنى لوجودي على الأرض، ووعدتني بفرح عميق كهذا أكسب الأذى مغزى مباركاً - الوعد الذي حول عاطفتي المتألمة إلى نشوة مقدسة مكللة بالرضا والطمأنينة؟

ومآسي تلك الليلة مهدت لي الطريق كي أتلقى الأخبار التي حدثت بعدها. لم تكن مفاجئة بالنسبة لي - كنت واثقاً من أنه سيطر عليك بتأثيره القوي بحيث جعلك تضحين بكل شيء لأجله، وانتظرت بثقة نبأ زواجك منه، أجريت مقارنة بينكما وبين عواطفي كنت مخطئاً يا ماغي هناك شيء ما بين جوارحك أقوى من حبك له

"لن أخبرك بما فعلته أثناء تلك الفترة التي غبت فيها. ولكن حتى في غمرة المعاناة - حتى في قلب تلك الآلام المبرحة المفاجئة التي يجب أن يخوضها الحب قبل أن يكون بمقدوره الانفصال عن الرغبة الأنانية - كان حبي لك كافياً لردعي عن القيام بأية محاولة انتحار، وبدون مساعدة أي بواعث أخرى وحتى وأنا أعيش في ذروة أنانيتي، مع ذلك لم أستطع أن أتحمل إرسال شبح الموت إليك وإفساد فرحتك لم أتحمل هجران عالم لاتزالين تعيشين فيه وربما كنت بحاجة إلي، شعرت أنني مدين لك بعهد قطعته على نفسي بأن لاأتركك وحيدة - وأن انتظر، وأتحلى بالصبر ماغي، وهذا إثبات على صحة ما أكتبه الآن - وهو أنني لن أغامر بحياة أنت فيها، تغمر بيئتي بحبك لاأريد أن تحملي نفسك ذنباً لم تقترفيه، أو تشعري بأنك السبب في مأساتي لقد تعودت على الحرمان، ونشأت بين أحضانه، لم أتوقع السعادة أبداً، وبعد أن تعرفت عليك، وأحببتك، ولا أزال حتى الآن، عقدت صلحاً مع الحياة

يعود إليك الفضل في تأجيج عواطفي، ورسم هذا البريق في عيني - وصياغة

لحن عذب يرطب أذني، لقد حولت الاضطراب الغامض في نفسي إلى سكينة وانتعاش الحياة الجديدة التي تجعلني أهتم لفرحك وحزنك أكثر من اهتمامي بنفسي، حولت الأنين الثائر في روحي إلى صبر طوعي الذي هو مولد العاطفة الجياشة لايشغلني أي أمر الآن، سوى هذا الحب الكامل الذي جعلني أدخل الحياة من بوابة واسعة، وأشارك الآخرين حياتهم، لأنني طالما كنت أسير آلامي الخاصة والآنية أفكر أحياناً بأن هذه الحياة الانتقالية التي قدمتها لي كهدية من خلال أسري بحبك، ربما منحتني قوة جديدة

"إذاً، حبيبتي - على الرغم من كل ما حدث، فأنت بركة حياتي لاتؤنبي نفسك، وتثقليها بالهموم بسببي أنا من ينبغي علي أن ألوم نفسي لأنني فرضت عليك مشاعري، وطوقتك بها مثل السلاسل المقيدة، كنت تنوين أن تكوني مخلصة لعهدك، وأنت مخلصة حقاً. أقدّر لك تضحيتك ومحبتك لي.

"في لحظة ما ترددت في الكتابة لك، فكرت في أن لاأفرض نفسي عليك من جديد، فأكون بذلك قد كررت خطئي من جديد. لكنك لن تسيئي فهمي أعلم أنه ينبغي علينا أن نفترق لفترة طويلة، الألسن اللاذعة ستجبرنا على الفراق لن أبتعد عنك سوف أفكر بك دوماً، والمكان الذي تعيشين فيه سأحضنه بروحي وبكل جوارحي تذكري أن مشاعري لن تتبدل نحوك - سأبقى حبيبك - الحبيب الذي تخلص من الأماني الأنانية، وتحلى بالإخلاص الذي يقصي كل تلك الأماني "كان الرب معك، - يا حبيبتي، ماغي ذات القلب الكبير. إذا كان هنالك أي شخص أحبك من كل قلبه، تذكري بأنه منحك ثقته منذ خفق قلبه أول مرة عندما تعرف إليك من مرور عشر سنوات

"لاتصدقي أيَّ أحد يقول لك بأنني مريض، لأنني أغلق الأبواب على نفسي إنني فقط مصاب بصداع أليم - اعتدت على خوض معارك معه من قبل لكن الحرارة الزائدة تجبرني على الالتزام في البيت أثناء النهار. إنني قوي بما فيه الكفاية بحيث أستطيع أن ألبي كل مطالبك وأن أكون في خدمتك دوماً.

"صديقك إلى الأبد، فيليب واكيم". بينما ركعت ماغي بجانب السرير وهي تنشج بكاءً، وتضغط تلك الرسالة، اهتاجت مشاعرها أكثر فأكثر، وتحولت إلى صرخة هامسة، ترجمت الكلمات نفسها :

"أوه يا إلهي، ألا توجد حفنة من السعادة تجعلني أنسى آلام الحب؟".

الفصل الرابع

ماغي ولوسي

مع نهاية الأسبوع قرر الدكتور كين أنه توجد طريقة واحدة فقط باستطاعته من خلالها أن يؤمن معيشة هانئة لماغي في بلدة لقديس أوغ. على الرغم من خبرته التي اكتسبها خلال سنواته العشرين ككاهن أبرشية، كان مذعوراً من استمرارية عناد الآخرين في توجيه اللوم إليها مع وجود الدليل في البداية كان يدافع عن ماغي بشغف وتوسل، والآن يحاول أن يفتح آذان النساء على الحقيقة، ويوقظ ضمائرهن للحكم عليها بعدالة، بالنيابة عن ماغي توليفر، اكتشف فجأة أنه عاجز عن القيام بهذه المهمة، وأدرك أن محاولته كانت عبثاً، تماماً كما لو حاول أن يؤثر على شكل قبعاتهن.لا يستطيع الدكتور كين أن يكون متناقضاً مع نفسه، استمع إليه جمهوره بصمت، لكنه عندما غادر الغرفة، حدثت مقارنة في وجهات النظر وسط حشد المستمعين توصل إلى النتيجة نفسها التي كان مقتنعاً بها في السابق مما لاشك فيه أن الآنسة توليفر تصرفت بطريقة تستحق عليها اللوم، حتى الدكتور كين لم ينكر ذلك: كيف استطاع إذاً أن يحسن الظن بها ويدافع عنها بتقديم تلك التبريرات المؤيدة على كل ما فعلته؟

حتى لو افترضنا أن كل ما قيل عن ماغي كان زوراً وبهتاناً - فالإشاعة التي انتشرت حولها كانت سبباً كافياً لجعل كل امرأة تهتم بسمعتها - وبرأي المجتمع بها، تنفض من حولها، وتتحاشى اللقاء بها. أن نأخذ ماغي من يدها ونقول، "لن أصدق كل ما قيل عنك إن لم يكن هنالك دليل مقنع، لن تتفوه شفتاي بكلام يسيء إليك، سأغلق أذنيَّ عن كل ما يقال عنك افتراء، لقد عانيت ظروفاً صعبة، وكنت ضحية إغواء شديد فلنتعاون معاً لنبدأ حياة جديدة ونقاوم مزيداً من الفشل "— أن تقول كلمات كهذه يحتاج منك الأمر أن تتحلى بشجاعة عظيمة وقدرة هائلة على التسامح، ومعرفة واسعة بخبايا النفوس، وثقة مفرطة - يتطلب هذا منك أن تتميز بعقل راجح تعوَّد أن لايسيء الظن بالآخرين، وأن لاتشعر بأنك قاض يدين تصرفات الآثمين بلا هوادة، وألا تخدع نفسك بكلمات كبيرة مثل السعي نحو العدالة، والحقيقة المطلقة وبأنه توجد ديانة عريقة تستبعد أن يحب المرء الأشخاص من رجال ونساء، الذين نصادفهم في طريقنا. لم تنخدع سيدات بلدة القديس أوغ بأية مفاهيم فلسفية شاملة،

لكنهن تمسكن بأفكارهن المجردة المفضلة لديهن التي دعونها المجتمع، الذي ساهم في جعلهن يشعرن براحة ضمير تامة وهن يتصرفن بما يرضي غرورهن وأنانيتهن - الشك والثرثرة على ماغي توليفر، ومعاملتها بلا مبالاة. من الطبيعي أن يصاب الدكتور كين بخيبة أمل، فبعد عامين من الالتزام المفرط لرعايا أبرشيته من الإناث، يكتشف فجأة بأنهن متمسكات بآراء متناقضة مع آرائه، إذاً هن يحافظن على أفكار تتناقض أيضاً مع مبادئ السلطة العليا، التي قدسنها لوقت طويل.

تلك السلطة التي منحت إجابة واضحة للغاية إلى أولئك الأشخاص الذين ربما يتساءلون عن كيفية القيام بواجباتهم الاجتماعية، ومن الممكن أنهم يميلون إلى تبني أفكار شاملة تعود إلى نقطة البداية كانت تقع تلك الإجابة على كاهل "رجل محدد "وجد نفسه في ورطة مقصياً على جانب الطريق، وليس على عاتق المنفعة الأساسية للمجتمع.

مع ذلك لم تخلُ بلدة القديس أوغ من بعض النساء ذوات القلب الرقيق والضمير الحي: من المحتمل أن تكون هنالك في الحياة نسبة لابأس بها من الطيبة الإنسانية تماماً كأية بلدة تجارية صغيرة أخرى في تلك الأزمنة ولكن كما نتوقع أن يتحلى كل رجل فاضل بالشجاعة، علينا أن نتوقع أيضاً وجود العديد من النساء الفاضلات اللواتي يتسمن بالجبن: نساء يخشين حتى الثقة بصحة مساعيهن القيمة، عندما تضعهن هذه المساعي في موقع الدونية.

على كل حال لم يكن جميع رجال بلدة القديس أوغ شجعاناً: بل إن بعضهم كان مغرماً بالنذالة - إلى درجة تبنوا فيها أحاديث وشخصيات أنثوية، إن لم تتميز ثرثرا تهم بالدعابات التي غلبت عليها سمة الذكورة، والكراهية المتبادلة للنساء. كان الشعور العام الذي طغى على أسلوب التفكير الذكوري هو أنه ليس من المسموح للنساء أن يتدخلن في علاقة الرجال مع بعضهم البعض.

وهكذا باءت مساعي الدكتور كين بالفشل، وخابت آماله في تأمين فرصة عمل لماغي لم تستطع السيدة جيمز توري أن تفكر في اتخاذ ماغي كمربية أطفال، حتى ولو بشكل مؤقت - بعد أن كثرت الأقاويل حولها "، "وتبادل السادة الدعابات الساخرة حول تصرفاتها "، والآنسة كيرك التي تعاني من آلام في العمود الفقري ،وترغب برفيقة تقرأ لها وتسليها، أحست بثقة أن لماغي طريقة خاصة بالتفكير لايمكنها أن تضاهيها، مما تجعلها غير قادرة على المغامرة بتوطيد أي علاقة معها.

لماذا لم تقبل الآنسة توليفر المسكن الذي عرضته عليها خالتها غليك؟ -

فتاة في مثل وضعها ما كانت لترفض عرضاً كهذا. أو، لماذا لم ترحل عن الجوار، وتسكن في مكان بعيد لايعرفها فيه أحد؟ (على ما يبدو، لم يكن من المهم كثيراً أن تلقي ميولها الخطيرة في أحضان عائلات غريبة معروفة في بلدة القديس أوغ). لابد أنها تتحلى بشجاعة فائقة حتى ترغب في الإقامة في أبرشية حيث كانت محط أنظار الجميع وهمساتهم.

في خضم هذه المعارضة الشعبية، حاول الدكتور كين، الذي تميز برباطة جأشه وثباته، أن يستجمع كل قواه وتصميمه لمساعدة ماغي هو نفسه رغب في مربية ترعى أولاده الصغار يومياً، ومع ذلك تردد في اللحظة الأولى بأن يعرض هذا الاقتراح على ماغي، كان قراره الآن حاسماً ،بأن يقبل بها بكامل إرادته وشخصيته الكهنوتية وأن يتجاهل كل الإشاعات والأقاويل التي نبذتها من المجتمع. قبلت ماغي العرض بكل شكر وامتنان، هذه الفرصة ستمنحها الدعم والقدرة على أداء واجباتها: لن تشعر بالوحدة الآن، وستتحول مساءاتها الكئيبة إلى راحة وطمأنينة لن تكون بعد الآن بحاجة إلى تضحية أمها بالبقاء معها، حيث أُقْنِعَتْ السيدة توليفر بالعودة إلى الطاحونة.

لكن بدأت الآن خبايا جديدة تتكشف في أعماق الدكتور كين، ظهرت أفكار غريبة غير معقولة - ربما كثر الحديث عن نقاط ضعفه الرجال في بلدة القديس أوغ ابتسموا بسعادة، ولم يستغربوا من رغبة الدكتور كين في تأمل تلك العينين الجميلتين يومياً، أو ميله لعقد معاهدة صلح وتسامح مع الماضي، أما النساء فقد اتخذن وجهة نظر أكثر مأساوية لو وقع الدكتور كين أسيراً للإغواء، وفكر في الزواج من الآنسة توليفر! ليس من السلامة أن يبقى محط ثقة الآخرين، حتى لو كان من أفضل الرجال: لقد تحطمت صورة الداعية المبشر.

امتنعت ماغي عن التردد يومياً على منزل الأبرشية لعدة أسابيع، قبل أن تكثر الأقاويل عن احتمال أن تصبح زوجة لكاهن الأبرشية، حتى أن السيدات، اللواتي غالباً ما كن يتحدثن عن هذا الأمر بثقة مفرطة، أصبحن في حيرة من أمرهن وبدأن يناقشن كيف عليهن التصرف معها إزاء الوضع الجديد. بالنسبة إلى الدكتور كين، كان مدركاً للسبب الذي جعل ماغي تتصرف هكذا، لذلك كان يجلس في مكتبه مدة نصف ساعة في أحد الصباحات، عندما كانت ماغي تعطي دروسها، لا، بل كان يجلس هناك كل صباح: مشى معها في إحدى المرات إلى المنزل - كان يرافقها بشكل دائم تقريباً أثناء العودة إلى المنزل - هذا إن لم يذهب لرؤيتها في المساء.

يالها من فتاة داهية! يا لها من أم لهؤلاء الأولاد! كان هذا كافياً ليقض

مضجع السيدة المسكينة كين في قبرها، لأن أولادها أصبحوا في رعاية فتاة كهذه، ولم يمض على موتها سوى بضعة أسابيع. ترى هل سيتجاوز السيد كين حدود اللياقة الآن، ويتزوج بها قبل مرور عام على موت زوجته؟

تلك الأفكار عبرت عنها العقلية الذكورية بطريق ساخرة.

اعتبرت الآنسات غيست الحمامة التي شهدنها في أبرشيتهن بمثابة تسكين لأحزانهن: على الأقل سيبقى أخوهن في سلامة من الوقوع في شركها، وإدراكهن أن ستيفن متمسك بها كان سبباً يقلقهن باستمرار، فيخشين أن يعود، ويتزوج ماغي لم تكن من النساء اللواتي لايصدقن رسالة أخيهن، ولكن ليس لديهن ثقة في التزام ماغي بالابتعاد عنه ورفضه، اشتبهن في أمرها، واعتقدن بأنها رفضت الهروب معه أكثر من رفضها الزواج به، وبأنها كانت تنتظر في بلدة القديس أوغ، عساه يعود إليها ويتزوجها. يعتبرنها الآن فتاة داهية ومغرورة، ولطالما اعتبرنها فتاة لاتناسب شرف العائلة واسمها، بعد أن توفرت لديهن أسبابٌ مقنعة تماماً لمحاكمتها كما من الممكن أن تفعل أنت عزيزي القارئ، وكذلك أنا عندما تتوفر لدينا عدة مبررات قوية من النمط ذاته.

في السابق لم يرضين بلوسي زوجة لستيفن، ولكن خشيتهن الآن من حدوث زواج بين ستيفن وماغي ضاعفت من سخطهن بالنيابة عن تلك الفتاة اللطيفة المهجورة، وزادت من رغبتهن في أن يعود إليها. حالما استردت لوسي عافيتها وأصبح بمقدورها مغادرة المنزل، كان عليها أن تطلب الراحة، وتهرب من حرارة آب اللهاب واللجوء إلى الساحل برفقة الآنسات غيست، اللواتي خططن لانضمام ستيفن إليهن ولاسيما بعد أن يعلم بوجود لوسي مع أخواته بمجرد أن فاحت رائحة أول بوادر النميمة حول ماغي والدكتور كين، بعثت الآنسات غيست تقريراً مفصلاً في رسالتهن إلى أخيهن.

كانت ماغي تتلقى دائماً أخباراً من والدتها، أو الخالة غليك، أو الدكتور كين، عن أن لوسي تتماثل للشفاء بالتدريج، وكانت تفكر باستمرار بزيارة منزل العم دين: إنها متعطشة إلى لقاء لوسي، ولو لبضع دقائق - حتى تتفوه أمامها بكلمة ندم، وتتأكد من عيني وشفتي لوسي بأنها لم تصدق الأقاويل عن خيانتها لأولئك الذين منحوها ثقتهم ومحبتهم وأدركت أنه حتى وإن سمح لها عمها بدخول منزله، على الرغم من سخطه وازدرائه لها، فإنه سيمنعها من مقابلة لوسي إثارة أشجانها.

تمنت فقط لو تراها دون أن تتفوه بكلمة، عندئذ ستشعر بشيء من الارتياح، لأن ماغي كانت مسكونة بهاجس ذلك الوجه الغاضب بالرغم من كل

اللطف الذي يبدو عليه: حيث ارتسم في ذاكرتها وجهٌ تشع منه نظرات عذبة وسعيدة ملؤها الثقة والحب، والآن تحول إلى وجه مرهق كئيب بعد تلك الصدمة العنيفة ومع مرور الأيام أصبحت لاترى سوى تلك العينين البندقيتي اللون الهادئتين تفيض منهما نظرة ألم ترنو إلى ماغي بغضب إلا أن لوسي لم تكن قادرة بعد على الذهاب إلى الكنيسة، أو إلى أي مكان يمكن لماغي أن تقابلها فيه، عندما علمت من خالتها عليك ،بأن لوسي سافرت لبضعة أيام إلى سكار بورو برفقة الآنسات غيست، اللواتي قلن بأنهن توقعن رؤية أخيهن هناك

أولئك فقط الذين عرفوا ما معنى أن يعاني المرء من أقسى صراع داخلي، بمقدورهم أن يشاركوا ماغي مشاعرها عندما جلست وحيدة في ذلك المساء بعد سماعها تلك الأخبار من السيدة غليك - أولئك فقط الذين عرفوا كيف يخمدوا رغباتهم الأنانية كما تفعل الأم المتيقظة حين تتجرع دواءً منوماً كي يخفف من آلامها.

جلست عند الشفق دون شمعة، والنافذة مفتوحة على مصراعيها باتجاه النهر، الإحساس بالحرارة الخانقة أضاف عليها عبئاً ثقيلاً إلى عبء سوء حظها، جلست على كرسي قبالة النافذة، وأسندت ذراعها على حافتها ،كانت تنظر إلى الخارج شاردة الذهن نحو النهر المتدفق، سريعاً مع حركة المد واجزر - تحاول عبثاً أن ترى من خلاله ذلك الوجه اللطيف الحزين، الذي بدا بين لحظة وأخرى وكأنه يغيب بعيداً يختبئ خلف هيئة تقحم نفسها داخل الظلام لدى سماعها صوت الباب يفتح، أدركت أن السيدة جاكين قادمة تحمل إليها العشاء كعادتها، وبذلك الاشمئزاز من الحديث التافه الذي يرهقها ويصيبها بالبؤس، امتنعت من الالتفات إلى الوراء والتعبير عن عدم رغبتها بتناول أي شيء: كان من عادة السيد جاكين الطيبة القلب والصغيرة القد، أن تبدي بعض الإيماءات النابعة عن صدق نية دخولها. ولكن في اللحظة التالية، ودون أن تميز صوت وقع الخطوات، أحست بلمسة يد خفيفة على كتفها، وسمعت صوتاً قريباً منها يقول لها "ماغي!".

الوجه الذي كان هناك تغيرت ملامحه - بدت عليه تعابير في غاية الرقة: شاهدت تلك العينين البندقيتين، تشعُ منهما حميمية مؤثرة تخرق القلب

قال الصوت العذب: "ماغي!".

أجاب صوت برنين حاد يعبر عن المعاناة: "لوسي! "، وطوَّقت لوسي عنق ماغي بذراعيها، وأسندت خدها الشاحب إلى تلك الجبهة الملتمعة

قالت لوسي بنبرة هامسة تقريباً، بينما جلست بالقرب من ماغي ممسكة

يـدها: "جئـت إلى هنـا خلـسة بعـد أن خـرج بابـا والآخـرون تـرافقني ألـيس. طلبـت منـها مـساعدتي علـي البقـاء هنـا لفـترة قـصيرة فقـط، لأن الوقـت متـأخر جـداً". في بـادئ الأمـر كـان مـن الـسهل قـول أيـة كلمـة بـدلاً مـن الالتـزام بالـصمت. جلـستا تحـدقان ببعـضهما. بـدا وكـأن اللقـاء سـينتهي دون كـلام إضـافي لأن الكـلام في غايـة الـصعوبة. أحـست كـل منـهما أن الكـلام سـيكون جارحـاً ويـستعيد أخطـاء لايمكـن إصـلاحها. ولكـن مـا إن نظـرت إليهـا مـاغي، حتـى بـدأت كـل فكـرة واضـحة تنـساب بـسهولة علـى شـكل موجـة مـن الندامـة الـودودة، فتـدفقت الكلمـات مـصحوبة بالنشيج.

"بارك الرب قدومك إلي يا لوسيّ".

بعد ذلك بدأت كل منهما تبكي بحرارة.

قالت لوسي، وهي تلامس خدَّي ماغي بخديها ثانية :

"مـاغي حبيـبتي، تحلَّـيْ بالـصبر. لاتكـوني يائـسة "، وجلـست بهـدوء علـى أمـل أن تكون قد هدأت من روع ماغي بذلك العناق اللطيف.

قالت ماغي حالما أحست بقدرتها على الكلام :

"لم يكـن في نـيتي خـداعك يـا لوسـي. كـل مـا حـدث كـان يـؤلمني باسـتمرار، ويجعلـني يائـسة. لم أشـأ أن أخـبرك بـأي شـيء لأنـني اعتقـدت بـأن كـل الأمـور يمكـن السيطرة عليها، وبأنك لن تشهدي أي موقف يجرح مشاعرك".

قالـت لوسـي: "أعلـم يـا حبيـبتي. أعـرف أنـك لم تقـصدي أن تـسلبيني سـعادتي. إنهـا مـصيبة، وحلـت علينـا جميعـاً - لقـد تحملـت الكـثير مـن المـصاعب أكثـر ممـا تحملـت - وتخليت عنه، عندما اتخذت قراراً بالغ الصعوبة وتصرفتِ بما يمليه عليك ضميرك".

التزمتـا الـصمت برهـة قـصيرة، وجلـستا ويـداهما متـشابكتان، وخـدّاهما متقاربتان.

قالـت مـاغي: "لوسـي، لقـد عـانى كـثيراً. تمنـى أن يكـون مخلـصاً لـك. سـوف يعـود إليـك. سـامحيه - سـتمنحينه الـسعادة إذا - "اعتـصرت مـاغي هـذه الكلمـات مـن أعمـاق روحهـا، فكانـت مثـل رجـل غريـق يمـد يـده المرتعـشة بجهـد بليـغ طلبـاً للنجـاة. ارتجفت لوسي، ولاذت بالصمت.

سمـع طرقـاً لطيفـاً علـى البـاب. كانـت ألـيس، الخادمـة، هـي مَـنْ دخلـت، وقالـت: "لاأجـرؤ علـى الانتظـار أكثـر مـن ذلـك، آنـسة ديـن. سيكتـشفون أمرنـا، وسـتثار موجـة غضب عارمة بسبب خروجك في وقت متأخر جداً".

نهـضت لوسـي وقالـت: "حـسن جـداً يـا ألـيس - سـنذهب فـوراً". أضـافت لوسـي ثانية عندما اقتربت أليس من الباب :

"سوف أسافر يوم الجمعة يا ماغي عندما أعود، وأسترد عافيتي بشكل جيد، سيسمحون لي أن أفعل ما أشاء. سأزورك متى رغبت بذلك".

قالت ماغي بمشقة عظيمة: "لوسي، أصلي إلى الرب دائماً، وأدعوه ألا أكون أبداً السبب في مآسيك بعد الآن".

أمسكت بيدها الصغيرة وضغطت عليها بكلتا يديها، وحدقت في وجهها ملياً. لن تنسى لوسي تلك النظرة أبداً.

قالت بصوت منخفض، فيه شيء من قداسة الاعتراف بالحقيقة: "ماغي، أنت أفضل مني لاأستطيع..

اختنقت الكلمات عند هذا الحد، وانتصر الصمت لكنهما تشبثتا ببعضهما ثانية في عناق أخير.

الفصل الخامس

الصراع الأخير

في الأسبوع الثاني من أيلول، كانت ماغي تجلس ثانية في غرفتها بلا رفيق، وتصارع مع وحدتها ذكريات أليمة حامت حولها من جديد، وأسكنت في نفسها ثورة حقيقية كان الوقت في منتصف الليل، والمطر يطرق النافذة بعنف، تدفعه قوة متقطعة لريح مندفعة تئن بصوت عال بعد يوم من زيارة لوسي لها، حدث تغيير مفاجئ في أحوال الطقس: انخفضت درجات الحرارة وهبَّت رياح باردة متغيرة، وكانت الأمطار تتساقط بغزارة بين الحين والآخر، فاضطرت أن تبقى حبيسة المنزل وحرم عليها المغامرة بالرحلة المنظورة حتى تستقر أحوال الطقس أكثر. في المقاطعات التي يعلو مستواها نهر الفلوس، كانت الأمطار تهطل بشكل متواصل، مما أعاق إمكانية إكمال الحصاد. والآن بعد استمرار هطول الأمطار مدة يومين على هذا المستوى المنخفض للنهر، بدأ العجزة يهزون رؤوسهم، ويتحدثون عن أحداث جرت منذ انقضاء ستين عاماً، عندما تعرضت البلاد لطقس مماثل، وسببت الأمطار الغزيرة بفيضانات هائلة دمرت الجسر، وحولت البلدة إلى بؤس عظيم لكن جيل الشباب، الذي شهد عدة فيضانات صغيرة لم يأبه كثيراً بهذه التنبؤات والذكريات الكئيبة، أما بوب جاكين الذي كان ميالاً بشكل طبيعي إلى التفاؤل بحظه، سخر من والدته ندماً، أبدت ندمها على السكن في منزل على جانب النهر، دون أن يكون بحوزتهم أي قارب ينقذهم في حال حدوث أي فيضان يرغمهم على هجر منزلهم إلى مكان بعيد طلباً للأمان.

اللامبالون والخائفون كانوا على حد سواء يغطون في نومهم الآن كان هناك آمل أن يتوقف المطر بحلول الصباح، ولم يخطر في بال الشبان أية نتائج سيئة من ذوبان مفاجئ بعد تساقط الثلوج، خبرتهم الحياتية استبعدت حدوث أي أمر سيئ، وفي أسوء الأحوال، كانوا على ثقة بأن السدود ستدفع ماء النهر إلى الوراء بقوة، وهكذا ستنحسر المياه، بدون أن تسبب أضراراً تذكر.

الجميع في أسرتهم الآن، لأن الوقت كان منتصف الليل: الجميع ما عدا بعض المتيقظين المنعزلين بأنفسهم مثل ماغي جلست في ردهتها الصغيرة المطلة على النهر وسط شمعة وحيدة، جعلت كل شيء معتم في الغرفة، باستثناء رسالة كانت موضوعة أمامها على الطاولة تلك الرسالة التي تلقتها اليوم، كانت من أحد الأسباب التي جعلتها متيقظة حتى وقت متأخر من الليل - غير مدركة كيف كانت الساعات تمر - ولم تبال في

طلب الراحة - لم تتصور أي شكل من الراحة، إلا في مكان بعيد جداً، بعيداً عن هذه الحياة الدنيوية المتصارعة.

قبل أن تتلقى تلك الرسالة بيومين، كان على ماغي أن تذهب إلى بيت الأبرشية للمرة الأخيرة المطر الغزير منعها من الخروج منذ ذلك الحين، وكان هناك سبب آخر. في البداية لم يكترث الدكتور كين للوشايات والنمائم التي حيكت حول علاقته بماغي، والآن سمع تحذيراً صريحاً واحتجاجاً من أحد الرجال الذين يترددون على أبرشيته، الذي نبهه إلى ضرورة التعقل في تصرفاته.

كان الدكتور كين ميالاً للحفاظ على دوره ككاهن - وكان يبغض الاستسلام أمام ذلك الرأي الشعبي البغيض الجدير بالازدراء، وفي نهاية الأمر أدرك حساسية المسؤولية الملقاة على عاتقه، وحاول تفادي الشر - "المظهر الخارجي "الذي يعتمد دائماً على معدل نوعية العقول المحيطة فعندما تكون هذه العقول رديئة متخلفة تتسع هوة ذلك المظهر الخارجي للشر.

ربما كان في وضع حرج، وعليه التخلي عن صلابة رأيه والاستسلام لرأي الأغلبية، لكن الانهزام بدا مؤلماً له قرر الدكتور كين أنه من واجبه أن ينصح ماغي بالابتعاد عن بلدة القديس أوغ، وأنجز تلك المهمة الصعبة بأسلوب رقيق للغاية قدر ما استطاع: ذكر بعبارات غامضة أن محاولته تأييد بقائها كان مصدر خلاف بينه، وبين رعايا الكنيسة، وهذا يعرقل مهمته ككاهن توسَّلَ إليها أن تسمح له بالكتابة إلى صديق له من الكهنة، والذي من المحتمل أن يوافق على أن تكون مربية لأطفاله، وإن لم يوافق، فربما يوفر فرصة عمل أخرى لامرأة شابة أحسن الدكتوز كين باهتمام كبير في توفير السعادة والرفاهية لها.

استمعت ماغي المسكينة إليه، وشفتها ترتعش: لم تستطع أن تنطق بكلمة سوى عبارة لفظتها بصوت هامس "أشكرك - إنني ممتنة لك "وعادت إلى مسكنها، وسط هطول المطر، بإحساس شديد بالكآبة عليها أن تتمشى وحدها، لابد أن تخرج وسط وجوه نضرة، كانت تحدق إليها بدهشة، لأن الأيام لم تمنحها الفرح، وارتسم الحزن على وجهها الكئيب، يجب أن تبدأ حياة جديدة تستقبل فيها انطباعات جديدة - كم كانت صامتة بعمق، مريضة ومرهقة! لامأوى تلجأ إليه، ما من عون ينقذها من خطاياها: حتى أولئك الذين أشفقوا عليها كانوا مضطرين لمعاملتها بقسوة ولكن هل عليها أن تعاني دائماً؟ هل كتب عليها أن تبقى أسيرة أحزانها دون أن تجد كفارة في حياتها من الممكن أن تنور لها دربها، وتحول ذلك الخطأ العاطفي إلى قوة جديدة لحب إنساني خال من الأنانية؟.

في اليوم التالي بقيت طوال الوقت جالسة وحيدة في غرفتها، خلف نافذة مظلمة بفعل الغيوم المتراكمة والمطر المنساب، وهي تفكر في ذلك المستقبل، وتعاني من صراع داخلي للتحلي بمزيد من الصبر: - فأية راحة يمكن أن تنعم بها ماغي المسكينة إلا من خلال الاستسلام لصراع مرير مع الذات؟

وفي اليوم الثالث - هذا اليوم الذي خرجت فيه من سجنها - وصلت الرسالة التي كانت موضوعة على الطاولة أمامها.

كانت الرسالة من ستيفن لقد عاد من هولندا: عاد ثانية إلى مد بورت، وكتب إليها رسالة من ذلك المكان، وضعها في مغلف، وبعثها مع شخص منحه ثقته في بلدة القديس أوغ من بداية الرسالة حتى نهايتها كانت هنالك صرخة عتاب عاطفية: مناشدة ضد تضحيتها به بلا جدوى - وتضحيتها بنفسها: مناشدة تعارض فكرتها المغلوطة عن الصواب، والتي قادتها إلى الدمار، وحطمت كُل آماله، فقط لأجل خاطر مجرد فكرة، دون كسب أية منفعة مادية - آماله التي عشقتها، ودمرت الرجل الذي منحها أقوى عاطفة، وأغرم بها حتى العبادة، ضحت بمشاعر رجل لايمكن أن يمنحها إلى امرأة أكثر من مرة في كل حياته.

"لقد أخبروني بأنك ستتزوجين كين كما لو أن عليَّ تصديق ذلك! ربما أخبروك روايات ملفقة كهذه عني ربما يخبرونك بأنني سأسافر، لقد ابتعدت بجسدي إلى مكان ما، لكن روحي لم تسافر عن ذلك المكان البشع حيث هجرتني هناك - حيث صحوت من ذهول الصدمة لأجدك قد قررت الابتعاد عني.

"ماغي! من يتألم مثلي؟ من ذا الذي جرحت مشاعره مثلي؟ من الذي عانى مثلي من نظرة الحب تلك التي تغلغلت إلى قلبي، وأحرقت روحي؟ ماغي، أعيديني إلى أحضانك وحُبِّك! - أعيديني إلى الحياة والطيبة! إنني بعيد عن كلتيهما الآن ليست لدي أية دوافع: إنني أشعر باللامبالاة تجاه كل شيء. لقد مضى شهران حتى الآن أدركت من خلالهما أنني لاأستطيع أن أستمر بالحياة دونك اكتبي لي ولو كلمة واحدة - قولي لي "تعال"! وخلال يومين سأكون إلى جانبك ماغي - هل نسيت أننا لانستطيع الابتعاد عن بعضنا؟ - لايمكننا إلا أن تتلاقى عيوننا - ويسمع كل منا صوت الآخر؟".

عندما قرأت ماغي الرسالة أحست، وكأن عاطفتها الحقيقية قد بدأت للتو. لدى دخولنا في كهف مظلم تنتابنا قشعريرة، ونحن نتقدم نحو سواد حالك، ونبتعد عن الضوء الدافئ، ولكن كيف نشعر بينما نغوص في أعماق الظلام، ونصاب بالضعف والإرهاق - يظهر لنا منفذ على حين غرة، ويفتح لنا آفاق الحياة المتجددة؟ تحت ضغط الألم والمعاناة يجعلنا الشوق نهرب بعيداً، ننسى كل الدوافع بلحظة - حتى يهرب الألم منا.

مضت عدة ساعات، أحست ماغي خلالها، وكأن صراعها مع ذاتها كان بلا جدوى كل الأفكار الأخرى التي حاولت جاهدة استحضارها خلال تلك الساعات، تبددت في لحظة وهي تتخيل صورة ستيفن أمامها وهو بانتظار كلمة واحدة منها تشجعه على المجيء فوراً للقائها. لم تقرأ الرسالة بصوتها: سمعته وهو يتفوه بكل كلمة كتبها، وقد اهتزت مشاعرها بذلك الصوت الذي أثر في نفسها بقوته الغريبة المعهودة.

طوال يوم أمس كان قد استحوذ على تفكيرها رؤى مستقبل منعزل كان عليها أن تعيشه، وتتحمل عبء الندم، ولا يسعفها سوى التحلي بالإيمان والآن تراءى أمامها مستقبل آخر وشيك الحدوث - يفرض نفسه عليها بقوة حتى وإن بدا مثل ذريعة تحقق ما تصبو إليه - مستقبل تبدلت فيه كل الجهود المضنية والصبر الشاق إلى أحلام وردية سهلة التحقيق تعتمد على قوة محب آخر!

ومع ذلك لم تخلق تلك الفرحة الموعودة التي حلت مكان الأسى، قوة الإغراء الرهيبة بالنسبة إلى ماغي إن نبرة ستيفن المشحونة بالبؤس، والشك في عدالة قرارها الجائر، هما من فرضا عليها العودة إلى توازنها، وحرضها كي تهب من مقعدها مرة أخرى وتمسك بالقلم والورقة وتكتب، "تعال إلي!".

ولكن بعد ذلك القرار الحاسم، تراجعت عنه، والإحساس بالتناقض مع ماضيها، الذي استرجعت من خلاله لحظات قوتها ووضوحها، اقتحم عليها خلوتها مثل وخزه ألم تنتابها لدى التدهور في شرك الضياع لا، عليها أن تصبر، لابد أن تتضرع إلى الله، النور الذي هجرها سيعود إليها ثانية: يجب أن تسترد كامل قوتها حتى تسيطر على المعاناة - وتأسر الحب: عليها أن تستعيد ذلك الشعور، عندما وقفت لوسي إلى جانبها وساندتها، وعندما أثارت رسالة فيليب في نفسها كل ذكريات الماضي الهادئة التي كانت تطوقها بإحكام.

جلست هادئة تماماً، شاردة الذهن وسط ذلك الليل: لم يكن عندها أية دوافع لتعدل عن رأيها، لم تمتلك حتى القوة الكافية لأداء صلاتها: جلست فقط بانتظار النور الذي كانت على ثقة بأنه سيعود إليها. استعادت ذكريات الماضي الذي لم يستطع إخماد تلك العاطفة طويلاً: عاد إليها الماضي البعيد، ومعه استردت رباطة جأشها وعزمها وإخلاصها للآخرين.

الكلمات التي كتبتها اليد الهادئة في ذلك الكتاب القديم الصغير الذي حفظته منذ عهد بعيد عن ظهر قلب، تلك الكلمات اندفعت بقوة إلى شفتيها، ووجدت متنفساً لها من خلال تمتمة خفيفة ضاعت تماماً وسط تساقط قطرات مطر غزيرة كانت تضرب النافذة بعنف، وتلاشت مسامعها عبر أنين وزئير رياح صاخبة :

"لقد تلقيت المآسي والأحزان، تلقيتها على يدك، سأتحملها، وسأصبر حتى الموت، طالما أنها قدر فرض علي". لكن في الحال ظهرت كلمات أخرى شقت طريقها وسط هذه المعاناة، وانسابت على شكل نشيج: "سامحني يا ستيف! سوف ينتهي كل شيء. ستعود إليها".

طوت الرسالة، قربتها من الشمعة، وتركتها تحترق ببطء على الموقد. ستكتب له غداً رسالة الوداع الأخيرة.

"سوف أتحمل الفراق، سأتحمله حتى الموت... كم سيمضي الوقت ثقيل الوطأة علي ريثما تحين ساعة الموت! إنني ما زلت في ريعان صباي، وبكامل صحتي كيف سأتحلى بالصبر والقوة؟ هل علي أن أكافح، وأفشل وأتوب ثانية؟ - أليس في الحياة محاكمة أقل قسوة من هذه؟".

بتلك الصرخة البائسة، جثت ماغي على ركبتيها قبالة الطاولة، وخبأت وجهها الحزين المليء بالهموم حلقت روحها بعيداً. بالتأكيد كان هناك شيء تعلمته من هذه التجربة العظيمة، لابد أنها اكتشفت سر العطف الإنساني والمعاناة الطويلة "أوه يا إلهي، إذا كان القدر قد كتب علي حياة طويلة، امنحني يا ربي بركتك ورحمتك —".

في تلك اللحظة أجفلت ماغي بعد أن انتابها إحساس مفاجئ بالبرودة حول ركبتيها وقدميها: لقد انساب الماء من تحتها. ذعرت ماغي: كانت مياه النهر تتدفق من تحت الباب الذي يؤدي إلى الممر. لم تصبها الحيرة للوهلة الأولى - عرفت بأن ذلك مؤشر حدوث الفيضان!

يبدو أن ضوضاء العاطفة التي عانت منها طوال الإثنتي عشرة ساعة الأخيرة قد منحتها هدوءاً عظيماً: ودون أن تصرخ، أخذت الشمعة، وأسرعت بالصعود إلى الطابق العلوي، ووصلت إلى غرفة نوم بوب جاكين كان الباب موارباً، دخلت وهزته من كتفه.

"بوب، إنه الفيضان، لقد وصل إلى داخل المنزل! هيا انهض لنرى إن كان باستطاعتنا إنقاذ القوارب".

أضاءت شمعته، بينما اختطفت الزوجة المسكينة طفلها، وانفجرت صراخاً، ثم نزلت إلى الأسفل ثانية لترى إن كان منسوب المياه يزداد بسرعة كانت هنالك درجة داخل الغرفة عند الباب تؤدي إلى السلالم، لاحظت بأن المياه وصلت إلى مستوى الدرجة. بينما كانت تنظر، اندفع شيء مُصدراً صوتَ تحطمٍ هائلٍ على النافذة، فتكسر الإطار الخشبي القديم إلى شظايا - انسكب الماء خلفه.

صرخت ماغي: "إنه القارب! بوب، انزل لإحضار القوارب!".

ودون رجفة خوف غاصت ماغي في المياه، التي كانت ترتفع بسرعة حتى ركبتيها، وتحت ضوء الشمعة المتوهج التي تركتها على الدرج، صعدت ماغي إلى عتبة النافذة، وتسللت إلى القارب، الذي ترك عن مقدمة المسكن، وانجرف إلى النافذة بوب الذي لم ينتبه إليها، نهض مسرعاً دون أن يرتدي حذاءً أو جوارب، ولكنه حمل فانوساً بيده.

قال بوب، عندما وصل إلى القارب الذي كانت فيه ماغي :

"واي، إن القاربين هنا - كلاهما هنا. لقد أحكمت تثبيتهما بشكل مدهش، سيبقيان هكذا حتى الصباح".

في غمرة سعادته بالاطمئنان على القارب الآخر، وفك وثاقه والإمساك بمجداف، لم ينتبه بوب إلى الخطر الذي ورطت ماغي نفسها به. إننا لانشعر بالخوف عندما نكون شركاء في التعرض للخطر. وبوب كان فكره مشغولاً بسلامة من بقي في الداخل. حقيقة أن ماغي أصبحت في أعلى القارب، نبهته، وجعلته، يجدف بحيوية أكثر، وأعطت بوب انطباعاً غريباً نحوها مثل الشخص الذي يسعى إلى حماية الآخر، فيحس أنه ليس في حاجة إلى حماية أحد. هي أيضاً أمسكت بمجداف، ودفعته للأمام لكي تحرر القارب المتدلي من إطار النافذة.

قال بوب: "إن منسوب المياه يرتفع بسرعة. أعتقد أنه لن يمضي وقت طويل حتى يتسرب إلى داخل الغرف - فالمنزل في موقع منخفض جداً. أفكر في إحضار الطفل وزوجتي ووالدتي إلى داخل القارب إن استطعت - فالمنزل ليس آمناً بما فيه الكفاية. وإذا تركت القارب ولكن ماغي "، صرخ، وهو يرفع ضوء فانوسه فجأة نحو ماغي، التي كانت وسط الأمطار والمجداف بيدها وشعرها الأسود ينساب داخل المياه.

لم يكن لدى ماغي متسع من الوقت للإجابة، لأن موجة جديدة زحفت على طول مستوى المنازل، ودفعت بالقاربين بعيداً نحو فسحة الماء العريضة، بقوة حملتها بعيداً عن المجرى المقابل للنهر.

في اللحظات الأولى لم تشعر ماغي بأي شيء. ولم تفكر في أي أمر، لكنها ابتعدت فجأة عن تلك الحياة التي تخشاها: لقد كانت مرحلة الانتقال إلى الموت، دون أن تشهد معاناته - وكانت وحيدة في ذلك الظلام الدامس لايراها أحد سوى الله.

مرت الأحداث كلها بسرعة غريبة - وكأنها حلم - خيمت عزلة رهيبة: غاصت في مقعدها، وهي تتشبث بالمجداف بشكل آلي، وبقيت تائهة فترة طويلة

غير مدركة إلى أي موقع قذفتها الأمواج. أول شيء جعلها تسترد وعيها بالكامل كان توقف هطول المطر، وتبدد الظلام بفعل انتشار ضوء خافت، اخترق ظلمة المياه تحتها ليظهر منسوبها المجهول. لقد قذفها الفيضان بعيداً: - ذلك العقاب الإلهي الرهيب الذي اعتاد والدها على التحدث عنه - والذي كان كابوس أحلامها الطفولية. تذكرت منزلها القديم - وتوم - وأمها - الجميع كانوا يصغون معاً إلى الكوارث التي يسببها الفيضان.

صرخت من قلب الوحدة الكئيبة :

"أوه، يا إلهي، أين أنا؟ أين الطريق المؤدي إلى منزلي؟".

ترى ماذا حدث هناك في الطاحونة؟ ربما دمَّر الفيضان كل شيء. ربما كانا في خطر - في يأس: أمها وأخوها، كانا وحدهما هناك، ولا عون لهما! استحوذت تلك الفكرة على روحها بالكامل، وبدأت تتخيل تلك الوجوه الحبيبة على قلبها وهي تطلب المساعدة وسط الظلام، ولا تجد أحداً.

كانت تعوم الآن على سطح ماء هادئ - ربما بعيداً عن الحقول التي غمرها الفيضان. لم يكن هناك إحساس بوجود أي خطر في الوقت الحالي يمنعها من البحث عن موطنها القديم. بدأت تنقشع أما عينيها ستائر الظلمة التي حجبت عنها رؤية المكان المجاور. وانشغل بالها بتلك البقعة التي أثارت قلقها على أحبائها.

أوه، يا للحفاوة، بذلك المستوى المائي الموحش الواسع المدى - انتعاش تدريجي لسماء ملبدة بالغيوم - وضوح الأشياء خلف عتمة شفافة! أجل - لابد أنها بعيدة عن الحقول - على مرأى من نظرها ،كانت تلك قمم سياج من الشجيرات. أين أصبح مجرى النهر؟ بعد أن التفتت خلفها، شاهدت صفوفاً من الأشجار المعتمة: نظرت أمامها، لم تجد شيئاً: إذاً، فالنهر أمامها.

أمسكت بالمجداف، وبدأت تجدف القارب بنشاط، وقد استيقظ في نفسها أمل جديد: بدا الفجر متحمساً للبزوغ بسرعة هائلة، إنها الآن تعيش واقع الكارثة، استطاعت في الحال أن ترى وحوشاً كئيبة بائسة تزدحم حول بعضها على الرابية بشكل مثير للشفقة حيث بإمكانها أن تتخذ ملجأ يحميها. جدفت إلى الأمام في ظل ضوء الغسق المتزايد. التصقت ملابسها المبللة بجسدها، واندفع شعرها المتدلي عبر الرياح لم تكد تشعر بأي جزء من جسدها - أحست فقط بقوة، ألهمتها إياها عاطفة جبارة.

ومع هذا الإحساس بالخطر وإمكانية إنقاذ تلك المخلوقات المزروعة في الذاكرة منذ وقت طويل في المنزل القديم، ترافق إحساس آخر غير محدد

بإمكانية المصالحة مع أخيها: هل يجد الشجار، القسوة وعدم الثقة المتبادلة بين كل منهما، مكاناً في ظل مصيبة عظيمة كهذه، عندما تتبدد كل معالم حياتنا المزيفة، ونصبح على حد سواء ضعفاء أمام حاجات فطرية فانية؟ بشكل مبهم، لمست ماغي هذه الحقيقة - وهي في غمرة حبها القوي لأخيها الذي أبعد عن قلبها كل الانطباعات القاسية والإساءة الفظيعة وسوء التفاهم، وترك في نفسها فقط ذكريات تلك الصحبة المبكرة العميقة التي وحدتهما.

توضحت الآن معالم كتلة سوداء ضخمة على مسافة بعيدة، وبالقرب منها استطاعت ماغي أن تميز مجرى النهر. لابد أن تلك الكتلة السوداء - أجل، إنها - بلدة القديس أوغ. آه، والآن عرفت تماماً كيف تشق طريقها الذي كانت تبحث عنه بعد أن لمحت من النظرة الأولى الأشجار المعروفة بالنسبة لها - أشجار الصفصاف الرمادية، أشجار الكستناء التي اصفرت أوراقها الآن - وفوقها السطح القديم! لم يتبين هناك أي لون، ولا هيئة بعد: بدا كل شيء معتماً وباهتاً. استجمعت كل طاقاتها، وكأن حياتها كلها كانت قوة مختزنة إلى تلك اللحظة استنفدتها في هذه الساعة، دون الحاجة إلى أي مستقبل منظور.

يجب أن تقود قاربها نحو مجرى نهر الفلوس، وإلا لن يكون بمقدورها أبداً أن تجتاز الرافد، وتصل إلى المنزل: كانت تلك الفكرة التي خطرت في بالها، وهي تتخيل بحماس مفرط كثيراً الحالة التي آلت إليها الأشياء المحيطة بالمنزل القديم ربما تغوص في قاربها إلى الأسفل وتصبح عندئذ عاجزة عن توجيهه خارج التيار ثانية للمرة الأولى بدأت تلح عليها أفكار واضحة عن الخطر المحيق بها، ما من خيارات أمامها، لامجال للتردد، لذلك عامت إلى داخل التيار. إنها تتقدم الآن بشكل سريع، ودون بذل مجهود، والمسافة التي تبعدها عن هدفها تقصر أكثر فأكثر ويزداد إشراق النور حتى بدأت معالم الأشياء تتوضح فشاهدت تلك الأشجار والسطوح المألوفة بالنسبة لها، لا، إنها لم تبتعد عن ذلك التيار الموحل المندفع الذي شكل مجرى الرافد المتغير بشكل مثير للغرابة.

يا لعظمة الرب! في مجرى الرافد كتل عائمة، ومن المحتمل أن تصطدم بقاربها وهي تعبر، وتكون سبباً في القضاء عليها حالاً. ماذا كانت تلك الكتل؟

لأول مرة بدأ قلب ماغي يخفق بشدة من الخوف جلست لاحول لها ولا قوة - مدركة بكآبة أنها كانت تعوم على طول المجرى - ومتوقعة الارتطام بتلك الكتل.

زال الخوف: لقد تجاوزت مخازن بلدة القديس أوغ: إذاً عبرت مدخل الرافد: والآن، عليها أن تستخدم كل مهاراتها وقدرتها لتدفع القارب خارج مجرى التيار قدر الإمكان بمقدورها الآن أن ترى الجسر محطماً: باستطاعتها أيضاً رؤية

صواري سفينة متكسرة فوق الحقل المغمور بالماء. ما من قوارب يمكن رؤيتها تعوم على النهر - كلها مبعثرة في الشوارع التي غمرها الفيضان.

و بتصميم جديد استأنفت ماغي نشاطها وأمسكت بمجدافها، ونهضت ثانية مستعدة للتجديف، لكن حركة الجزر المنحسرة الآن بالإضافة إلى سرعة مجرى النهر، حملاها بعيداً إلى ما وراء الجسر. تمكنت من سماع أصوات صراخ صادرة من النوافذ المطلة على النهر، وكان الناس هناك يستنجدون بها.

لم تستطع إبعاد القارب عن حركة التيار حتى وصلت تقريباً إلى توفتن بعد ذلك اتجهت أنظارها بتوق نحو منزل عمها دين الذي يستلقي بعيداً في أسفل النهر، تناولت كلا المجدافين، وسخّرت كامل طاقتها لتشق طريقها عبر الحقول المغمورة بالمياه، عائدة باتجاه الطاحونة.

بدأت الرؤية الآن تتوضح بشكل أفضل، بينما كانت تقترب من حقول دورلكت، واستطاعت أن تميز ألواناً للأشجار الباهتة - تمكنت من رؤية أشجار التنوب الاسكتلندية القديمة الممتدة بعيداً على الجانب الأيمن، وأشجار الكستناء القريبة من المنزل - أوه! لقد غمرها الماء بشكل كلي تقريباً: أكثر مما غمر الأشجار الواقعة على هذا الجانب من التلة وسطح الطاحونة - أين كان؟ تلك الشظايا الثقيلة تحت سيرها بسرعة إلى أسفل الرافد - ماذا يعني هذا؟ هي ليست شظايا المنزل - فالمنزل لايزال رابضاً في مكانه بثبات.

بهذه البهجة المتلهفة وصلت أخيراً إلى هناك - البهجة التي تغلبت على كل أنواع اليأس - اقتربت ماغي من مقدمة المنزل في بادئ الأمر لم تسمع صوتاً: لم تر أي شيء يتحرك. كان قاربها على مستو متواز مع النوافذ العلوية صرخت بصوت عال حاد: "توم، أين أنت؟ ماما، أين أنت؟ إنني ماغي أنا هنا!".

في الحال سمعت صوت توم قادماً من نافذة العلية في الجملون[1] المركزي.

"من أنت؟ هل لديك قارب؟".

"أنا ماغي يا توم أين ماما؟".

"ليست هنا: ذهبت إلى غارم، قبل أمس سأنزل إلى النافذة السفلية".

"هل جئت وحدك يا ماغي؟ "، قال توم مندهشاً بشدة، وهو يفتح النافذة الوسطى التي كانت على مستوى القارب.

"أجل يا توم: لقد تعهدني الرب بحمايته حتى أتمكن من المجيء إليك هيا اصعد بسرعة ألا يوجد أحد آخر في الداخل؟".

---

[1] الجملون: جزء من مثلث الزوايا من جدار خارجي يقع بين سطحين منحدرين.

قال توم وهو يصعد القارب: "لا، أخشى أن يكون الرجل قد غرق: أعتقد أنه كان يحاول النزول باتجاه الرافد، عندما سقط جزء من الطاحونة مع حطام من الأشجار والحجارة، وارتطمت به: صرخت مراراً وتكراراً، لكنني لم أسمع جواباً. أعطني المجدافين يا ماغي".

لم يفطن توم تماماً إلى ما حدث حتى وصلا إلى قلب النهر العريض - وأصبح قبالة ماغي وجهاً لوجه معها. استعاد الأحداث بقوة رهيبة - بدا وكأنه تعلَّم درساً جديداً من أعماق الحياة، نفض روحه بشدة، وأخرجه من قوقعة أفكاره التي نتصورها واضحة وحادة للغاية - حتى أنه عجز عن طرح أي سؤال. جلسا بصمت يحدقان إلى بعضهما: ماغي بنظراتها المركزة التي تشع من وجه متعب مهزوم - وبدا توم شاحباً وعلامات الرهبة والخضوع ارتسمت على وجهه على الرغم من صمته فقد كان الفكر مشغولاً: وعلى الرغم من عجزه عن طرح أي سؤال، فقد خمن قصة خارقة إلى حد ما سردتها الرعاية الإلهية، وأنقذتهما. وتجمعت أخيراً ضبابة فوق العينين الزرقاوين، ونطقت الشفتان بصعوبة كلمة استطاعت الهروب بصمت: كلمة أوحت بذكريات طفولية قديمة - "ماغي!".

لم تستطع ماغي أن تجيب لكنها تنهدت بعمق بعد أن انتشت بتلك السعادة العارمة والغامضة والممزوجة بالألم.

حالما أحست أن بمقدورها الكلام، قالت :

"سنذهب لنتفقد لوسي يا توم: سنذهب لنطمئن عليها، وبعد ذلك بمقدورنا أن نخلد للراحة".

بدأ توم التجديف بنشاط لايعرف التعب، وبسرعة تختلف عن السرعة التي كانت ماغي المسكينة تجدف بها. انزلق القارب في الحال نحو مجرى النهر من جديد، وكان على وشك الوصول إلى توفتن.

قالت ماغي: "يقع بيت المنتزه في مكان علوي بعيد عن متناول الفيضان ربما أخذوا لوسي إلى هناك".

ساد الصمت، يبدو أن خطراً جديداً كان يزحف نحوهما. لقد تحطمت آلة خشبية على أحد أرصفة الموانئ، وتحولت إلى شظايا ضخمة عامت على طول النهر. كانت الشمس تشرق الآن، وتلك المساحة المائية الواسعة والموحشة تحيط بهما من كل جانب بوضوح رهيب - بوضوح مخيف يتقدم نحوهما قدماً إلى الأمام وبسرعة هائلة، وتهددهما تلك الكتل الكبيرة.

مجموعة كبيرة في قارب كانت تشق طريقها على طول النهر تحت منازل توفتن، لاحظت أنهما في وضع خطير، صرخ الجميع، "ابتعدا عن مجرى التيار!

"لكن توم لم يستطع الابتعاد على الفور، نظر أمامه فشاهد الموت يندفع نحوهما بقوة شظايا ضخمة، تشبثت بحميمية مع بعضها كقدر محتوم، وشكلت كتلة عريضة انجرفت عبر المجرى في اللحظة التالية لم يعد يشاهد القارب على سطح الماء - اندفعت الكتلة الضخمة مسرعة بعد أن حققت انتصاراً مقيتاً.

في الحال عاود هيكل القارب الظهور من جديد، بقعة سوداء عامت على سطح الماء الذهبي

ظهر القارب ثانية - لكن الأخ والأخت غاصا في عناق أبدي لن يفترقا بعده: جسدًا الحياة ثانية من خلال أسمى اللحظات الطفولية عندما أمسكا بأيديهما الصغيرة بحب، وطافا حول الحقول المزدهرة معاً.

الخاتمة

إن الطبيعة تصلح ما سببته من دمار - تصلحه بأشعة شمسها، وبالمجهود الإنساني لقد ترك الخراب الذي أحدثه الفيضان أثراً مرئياً طفيفاً على وجه الأرض، بعد مرور خمس سنوات جاء خريف السنة الخامسة خيراً معطاءً حيث تكدست أكوام ذهبية من القمح، تجمعت بكثافة وسط صفوف من الشجيرات البعيدة المدى، واستأنف العمل ثانية على أرصفة الموانئ ومستودعات التخزين الواقعة على ضفاف نهر الفلوس، وترددت أصداء أصوات تواقة للعمل، وشحن البضائع.

وكل شخصية تحدثنا عنها في هذا التاريخ سواء أكانت رجلاً أم امرأة، كانت لاتزال على قيد الحياة - ما عدا أولئك الذين عرفنا نهايتهم.

إن الطبيعة تصلح ما سببته من دمار - لكنها لاتصلح كل شيء. فالأشجار التي اقتلعت من جذورها لم تنم ثانية، وظلت التلال المتصدعة مثيرة للخوف: كان هناك ازدهار جديد، لكن الأشجار لم تعد كسابق عهدها، والتلال التي مكثت تحت معالمها الخضراء حملت مؤشرات استرجاع الماضي تبدو للوهلة الأولى أنها استردت مشاهد الماضي، ومن رأى تلك المشاهد الماضية منذ سنين، يدرك أنه لايوجد إصلاح تام للأشياء.

أعيد بناء طاحونة دورلكت والفناء المحيط بكنيسة دورلكت - حيث رقد تحت قبر من القرميد أب نعرفه جيداً، استعاد كل مظاهر تربيته وهدوءه الموقر.

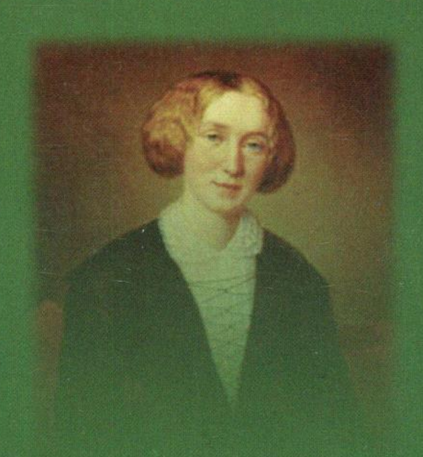
بالقرب من ذلك القبر القرميدي انتصب قبر، بعد حدوث الفيضان مباشرة، وكان يزوره في أوقات مختلفة شابان شعرا أنهما دفنا أعمق مشاعر الفرح والأسى هناك وإلى الأبد.

كان أحدهما يزور القبر وإلى جانبه وجه عذب - حدث ذلك بعد مرور عدة سنوات، أما الآخر فكان يزوره وحيداً. أمضى صحبة رائعة وسط أشجار الأعماق الحمراء، حيث بدا أن بهجته المدفونة هناك لاتزال تترنح - مثل روح تتردد عليه

كُتِبَ على القبر اسْمَا توم وماغي توليفر ونقش تحت الأسمين -

"بعد موتهما لن يفترقا أبداً "

---النهاية---



«إن أفكار الطفولة والحب والتعلّق بالسنين الأولى لحياتنا لايمكن أن تفارقنا حتى الممات. ليس بوسعنا التمسك بهذه الأرض وإعطائها محبتنا إن لم تشهد عليها طفولتنا - إن لم يأتِ الربيع كل عام حاملاً معه الأزهار نفسها التي اعتدنا على جمعها بأصابعنا الصغيرة ونحن جالسين على العشب محاولين نطق ما تعلمناه من كلمات - إن لم يقبل علينا الخريف منذراً بانتهاء المواسم وباعثاً في النفوس سعادة غامضة - إن لم تحلّق فوق رؤوسنا طيور صغيرة لها صدور حمراء اللون، والتي اعتدنا على أن نسميها «طيور الجنة» لأنها لاتتلف المحاصيل الثمينة، ولاتؤذي أحداً.

أليس من الغرابة أن نستمتع بهذه الرتابة العذبة، ونحب الأشياء أكثر كلما أعتدنا عليها أكثر؟».

تروي جورج أليوت ببراعة حكاية آلام وأفراح الطفولة، والتجارب التي خاضها كل من ماغي وتوم توليفر عند سن البلوغ.

تصميم الغلاف: احمد اسماعيل

